

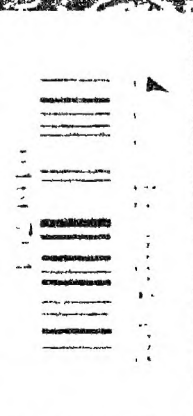
الكتاب الثاني

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَشْكُرَهُ إِلَّا بِحَمْدِهِ

تَایَن  
کُتُوبُیْنِ نَسَنِ الْبَدَوِی

قادر محمد علی  
مستوفی - بیروت

قَوْلُ الرَّبِّ











المجلة العامة لكتبة الاسكندرية
نم العدد : 899-7092
نم المجلد : ١٠
رقم التسجيل : ١٥١٧٧

# الرفعي الكاتِب يُن المحافظَة والتَّجْدِيد

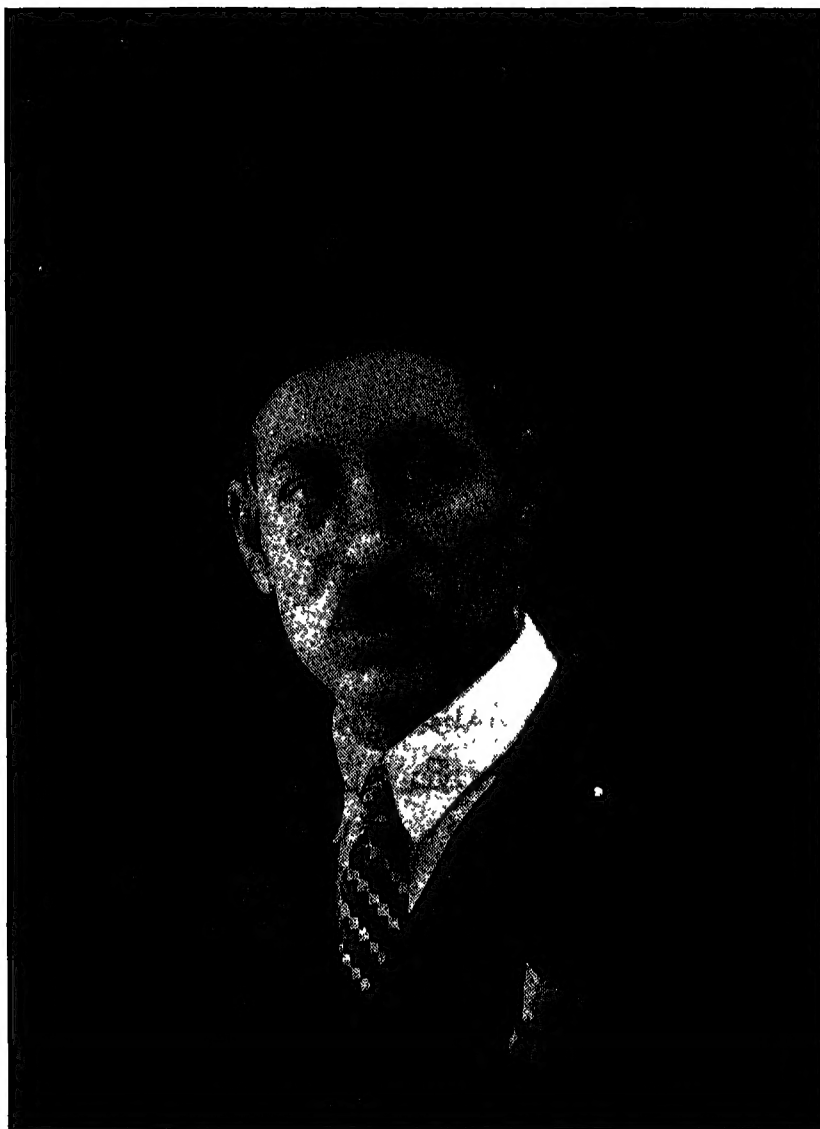
تأليف  
مُصطَفَى مَوْسَى البَدْرِي

General Organization of the Alexandria Library (GOAL)  
Bibliotheca Alexandrina

وَلَدُ عَمَّار  
عمّات - الأردن

وَلَدُ الْحَيْد  
بيروت





إرسموا شخصَ الوفا ثم انظروا من بعدُ رسمي  
لو يُسمّى في الأنام الحبّ ما اختار سوى اسمي

سليمان بن عبد الله

جَمِيعُ الْحَقُوقِ مَحْفُوظَةٌ لِدَارِ الْجَيْلِ  
الطبعة الأولى  
١٤١١م - ١٩٩١م

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى في القرآن العظيم :  
﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ، وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً  
وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ. وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ  
وَجُنُودَهُمَا مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾.

سورة القصص الآيات ٥ و ٦.



## الرسالة

إلى الأمة التي يرى الله تَقَلُّبَ وَجْهِهَا فِي السَّمَاءِ؛ تَنْتَظِرُ أَنْ تَبِينَ  
لَهَا فِي لَوْحِ الْغَيْبِ الْإِسْتِجَابَةَ الرَّبَّانِيَّةَ، لَتَعُودَ فَتَحْمِلَ رِسَالَاتَهَا وَتُبَلِّغَهَا  
النَّاسَ،

هذه طاقة من أوصاحِ نَفْسٍ مِنْكَ عَرِيَّةِ الْمِثَاقِ، تَأَلَّقَتْ حِيناً  
بِأَشْرَاقِهَا الْوَضِيءِ. ثُمَّ حَاوَلَ ضَبَابُ الْأَيَّامِ أَنْ يَحْتَوِيَ الْفِتْرَةَ الْعَبْشَ  
الَّذِي بَشَّرَتْ فِيهِ بِمِيلَادِ فَجْرِ جَدِيدٍ.

أَرْقَاهَا إِلَيْكَ — يَا أُمْتِي — فِي بَهَاءِ الْوَدَادِ وَثَبَاتِ الْإِعْتِقَادِ، رَاجِئاً  
مِنْكَ الْقَبُولَ وَالرَّضَى.





## ثَنَاءٌ مُسْتَطَابٌ

حِينَ يَفِيضُ الْخَيْرُ، وَتَظْهَرُ الْمِنَّةُ، وَيَنْعَمُ الْفَضْلُ، لَا يَجِدُ الْمَرْءُ فِي لِسَانِهِ غَيْرَ بَثِّ الشُّكْرِ لِلَّهِ يَتْلُوهُ، وَنَعَمَ الثَّنَاءِ لَهُ يُرْسِلُهُ، وَيَنْوُوهُ بِأَهْلِيهِ.

وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي يَسِّرَ اللَّهُ لِي فِي هَذِهِ، أَرَانِي بِهِجَاءٍ أَحْمَدُ، وَلِهَيْجَاءٍ أَذْكَرَ الْإِحْسَانِ، وَهَزِجَاءٍ لِلتَّوْفِيقِ الَّذِي حَبَّانِي.

وَأَخْصُ بِالذِّكْرِ وَالثَّنَاءِ أَسْتَاذِي الْجَلِيلِ عَمْرَ الدَّسُوقِيِّ الَّذِي صَابَرَنِي عَلَى الْبَحْثِ، وَحَبَّانِي مِنْ لُطْفِهِ وَكَرَمِهِ مَا كَادَ يَطْبَعُنِي عَلَى غِرَارِ قَلَمِهِ فِي الْمَوْضُوعِ تَوْفُرًا وَحِمَاسَةً — يَرْحَمُهُ اللَّهُ<sup>(١)</sup>.

وَأَنْظَرُ فِي وَجْهِ الْفَاضِلِ مُحَمَّدٍ بِهِجَةِ الْأَثَرِيِّ أَقْرَأُ أُسَارِيرَهُ وَأَمْلَأُ نَفْسِي زَهْوًا وَخِيَلَاءً — وَهُوَ يَرْعَى كُلَّ حَرْفٍ أَخْطَاهُ وَيَتَعَهَّدُ كُلَّ حَكْمٍ أَشْرَفَ عَلَيْهِ، وَيَقُومُ مَا أَذْهَبَ إِلَيْهِ مِنْ فِكْرٍ وَأَدَبٍ فِي هَذِهِ الدِّرَاسَةِ — كَمَا كَانَ مَعِيَ أَبَدًا.

---

(١) كَانَتْ أَمْنِيَّتُهُ أَنْ يَمْنَحَنِي شَهَادَةَ الرَّعَايَةِ (الدُّكْتُورَاه) قَبْلَ مَغَادِرَتِهِ هَذِهِ الْفَانِيَةِ. — فِي نَجْدٍ عَامَ ١٣٩٨ هـ — وَقَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ.

وأثنى نحو الأسرة الرافعية التي حَبَّتني من رعايتها ويسَّرت لي بجودها  
ما لا يفیه جزاء غيرُ الاحسان.

وأعودُ فأذكر أمناءَ دورِ الكتبِ العربية في القاهرة ودمشق وبغداد  
لما قدّموه من عونٍ يستحقّون عليه الثناء، وأدعو للإخوة الأصدقاء أن  
يُمنَّ الله عليهم بالخير واليمن والاقبال.

مصطفى نعمان البدري

## فكرة ومنهاج

### مقدمة

الحمد لله الذي ﴿بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ، وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾<sup>(١)</sup>.

والصلاة والسلام على سيد الخلق الذي تلقى القرآن من لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ، وَبَشَّرَهُ بِلِسَانِهِ، وَإِنَّهُ لَكُنْزٌ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾<sup>(٢)</sup> حتى قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾<sup>(٣)</sup>.

الأدب : أما بعد، فإنَّ للآدابِ في الأممِ مقامَ التربيةِ الأولى في الحياة، ومكانةَ الرعاية في النشأة، ومجالَ الاضطرابِ في الفكر، ومثارَ الاختلافِ في النظر، وميدانَ التجليّةِ في الصوابِ وفصل الخطاب، وسرَحَ الترويحِ عن النفسِ من عناءِ الأيامِ، وتجديدِ الرُّوحِ عندَ انقلابِ الزمانِ.

(١) سورة الشعراء — الآية ١٩٢ — ١٩٥.

(٢) سورة الرعد — الآية ٣٧

(٣) سورة الزخرف — الآية ٣

وقد كان للأدب في هذه الأمة من القيادة والانفراد بالتوجيه والتدريب والأخذ بالأزمة ما لم ترو الأيام مثل خبره لغيرنا من الأمم. وحسبها أن يتشرف أدبها بكتاب الله الذي يمتاز به قرآناً ينشئ الأمة إنشاء سامياً، ويدفعها الى المعالي دفعا، ويردّها عن سفاسف الحياة، ويوجهها بدقة الإبرة المغناطيسية إلى الآفاق الواسعة، ويسدّدّها في أغراضها التاريخية تسديد القنبلة خرجت من مدفعها الضخم المحرر، ويملأ سرائرها يقيناً، ونفوسها حزماً، وأبصارها نظراً، وعقولها حكمة، وينفذ بها من مظاهر الكون الى أسرار الألوهية<sup>(١)</sup> ويجعل الأدب بعد ذلك فنّ السمو بضمير الأمة.

وإذا دارت العصور وانقلبت الأوصاع، وغشي الناس من هم الحياة الدنيا ما يغشى، فتكدت الحظوظ وتعثرت المساعي كان لها في الأدب تعويذة، ومن فنونه متنفس لكروبها، وبين آفاقه مراع تستريح في ظللها الأذهان، ومراع تستمرى الحياة بمعانيها، فكأنه مخط المراجعة، وميدان الاعتبار، ومناط التوبة والاستغفار، كما كان مثابة الهداية ومجال الدعوة ومشهد الجهاد.

وإن طعت الحياة طغيانها، وامتدت تلقف ما زانها وما شأنها عاد هو يتلطف بها، ويذكرها وينبه على مكامن الخطر ومكايد الدهر... وربما تنبأ لها بمراحل اندفاعها وصور لها نهايتها، أو عاد فقوم فيها المروءات.

الرافعي : وقد كان لأديب العربية « مصطفى صادق الرافعي » شأن

(١) الرافعي — الرسالة ١١٠، وحي القلم ٣ — ٢١١ .

عظيم في مضمار حياة الأمة والفكر في العصر الحديث؛ إذ استطاع معاصرة الأحداث والنظر في الأنواء، وتقلب في تفسير سائر ظاهرات الحياة الجديدة بالايضاح والسلوك، وراض ما قد طاف بأيام الثقافة والمدنية والحضارة عند العرب.

اختار الله لي أن أدرس « الشعر عند الراجعي » في رسالة سابقة، قدمت فيها ما قدمت، ثم رأى الأستاذ عمر ابراهيم الدسوقي، أن تلك الدراسة قد تبقى يتيمة منقطعة ما لم تتبعها دراسة تيم ما بدأته، ويشرق فيها الراجعي بشره وبيانه، ويثبت بها ضميره العربي، وينتصر له الحكم فيهما، فيثار له من أيامه، ويرفع ما لحق تاريخه من غبن، وما رافق منوائيه من إيذاء له في حياته، وما أعقبها من إهمال لشأنه، وقلة احتفاء به، وصدوف عن أثره.

ولم أزل بين جد الأنواء وهزلها، وافتراق الأيام وضياعها، وبين شدة وطأة ما التف بحياتي؛ أعاني ما أعاني مأخوذاً بالدرس، ومعنياً بالمراجعة. ومع الانحراف المقيم في صحتي — إن لم أكن مريضاً فما أنا بالمعافى، ولا بالموفور الصحة، هذا غير أسر الوظيفة وهم الولد... وقد استوى لي هذا القدر من الدراسة وما سوف يتبعه من ملحقات جاريات بإذن الله وتوفيقه<sup>(١)</sup> تعيدُ بنشر أدبه ما انطوى منه، وما اختلقت عليه الطبقات.

بوادر: لقد عاش أدب الراجعي معي منذ طفولتي وأيامي الأولى،

(١) تم لنا بعد هذا كتاب (الراجعي الناقد الأديب) ناولناه « عالم المعرفة » وكتابان آخران..

وَلَعَلَّ بَوَادِرَهُ كَانَتْ تَرْتَسِمُ عَلَى وَجْهِ أَبِي رَحِمَهُ اللَّهُ<sup>(١)</sup> يَوْمَ كَانَ طَالِباً  
فِي دَارِ الْعُلُومِ بِسَامَرَاءَ يَتَحَمَّسُ لَهُ، وَيَسْتَظْهِرُ بَعْضَ كَلِمِهِ وَأَوَابِدِهِ،  
وَيُشَاطِرُ الْمُخْتَفِلِينَ بِذِكْرِ الْمَوْلِدِ النَّبَوِيِّ الْكَرِيمِ أَنْ تَكُونَ هُنَاكَ إِشَارَةً  
إِلَى أَدَبِ الرَّافِعِيِّ وَقِرَاءَةً فِي صَفْحَاتِهِ النَّبَوِيَّةِ.

وَأِنْ أُنْسَ مِنَ الْأَشْيَاءِ لَا أُنْسَى أَنِّي يَوْمَ غَدَوْتُ عَلَى الْإِبْتِدَائِيَّةِ فِي  
سِنٍّ صَغِيرَةٍ كَانَ يَرُوغُنِي مَوْقِفُ طَالِبٍ لَا يَفْتَأُ يُنْشِدُ قَصِيدَةَ  
الرَّافِعِيِّ<sup>(٢)</sup>:

بِلَادِي هَوَاهَا فِي لِسَانِي وَفِي دَمِي      يَمَجِّدُهَا قَلْبِي وَيَدْعُو لَهَا فَمِي  
وَلَا خَيْرَ فِي مَنْ لَا يُحِبُّ بِلَادَهُ      وَلَا فِي حَلِيفِ الْحَبِّ إِنْ لَمْ يُتِّمِ  
كَمَا كَانَ يِلْبِغُ الشَّغَافَ احْتِفَاءً أَحَدِ أَعْمَامِي مِنَ الْمُعَلِّمِينَ بِتَحْفِيزِ  
(النَّشِيدِ الْقَوْمِيِّ) لِذِي الصَّوْتِ مِنَ التَّلَامِيذِ، وَانْشَادِهِ صَبِيحَةَ كُلِّ يَوْمٍ  
بِتَنْغِيمٍ جَمِيلٍ وَلَحْنٍ مَحْمَسٍ<sup>(٣)</sup>.

حِمَاةَ الْحِمَى يَا حِمَاةَ الْحِمَى      هَلُمُّوا هَلُمُّوا لِمَجْدِ الزَّمَنِ  
لَقَدْ صَرَخَتْ بِالْعُرُوقِ الدِّمَا      : أَمُوتْ أَمُوتْ وَيَحْيَا الْوَطَنُ!..  
وَيَوْمَ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيَّ بِالْقِرَاءَةِ وَتَلَقُّفِ صُحُفِ ذَلِكَ الْعَهْدِ، أَتَنَاوَلُ الشَّعْرَ  
وَأُنْعَمُ بِالْمَقَالَةِ، وَأَشْرَفَ عَلَى الْحَدِيثِ وَأَتَأَمَّلُ فِيهَا الْعُلُومَ وَالْفُنُونَ، كَانَتْ

(١) السيد حسين بن الملا علي المتصل نسبةً بيدر الدين الحسيني كان من أفراد الدنيا  
المعدودين في الصَّلاح، ولد عام ١٣١٨ هـ وتخرَّج في دارِ العلوم بِسَامَرَاءَ وسلكَ  
في الوظيفة إماماً وخطيباً ثلثَ قرن اغتالتهُ الشعوبية الآثمة فجر الخميس الخامس عشر  
من رجب عام ١٤١٠ هـ بحادثٍ دَهِسَ لثيمًا.

(٢) ديوان الرافعي ١ - ١١

(٣) أغاريد الرافعي ٧٤ -



الالتفاتة تَحِينُ عِنْدِي بَيْنَ الْفَيْنَةِ وَالْفَيْنَةِ؛ أَرْقُبُ فِيهَا الرَّافِعِيَّ فِي كَلِمَاتِهِ  
الْآبِدَةِ وَحِكْمِهِ الشَّارِدَةِ، وَمَقَالَاتِهِ الْأَثِيرَةَ فِي بَقَايَا أَجْزَاءِ « الرِّسَالَةِ »  
وَقَدْ بَعَثَتْهَا يَدُ التَّنْقِلِ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، وَمِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ، ... وَلَكِنِّي  
لَمْ أَكُنْ أَقْوَى عَلَى مَوَاصِلَةِ حَدِيثِهِ — مَعَ حُلَاوَتِهِ وَطَلَاوَةِ عِبَارَتِهِ.  
فَأَنْصَرَفْتُ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ.

وَلَعَلَّ مِنَ الطَّرِيفِ أَنْ أَذْكَرَ أَنِّي كُنْتُ أَنتَقِي مَجْلَةَ « الْهَلَالِ » يَوْمَئِذٍ  
لَأَقْرَأَ مَقَالََةَ عَبَّاسٍ مُحَمَّدٍ الْعَقَادِ وَحَدِيثَ طَه حَسِينٍ وَكَلِمَةَ أَحْمَدَ أَمِينٍ  
وَرِحْلَةَ عَبْدِ الْوَهَّابِ عِزَامٍ وَمُعَانَاةَ الْآخَرِينَ، ... وَلَكِنِّي الَّذِي حَدَّثْتُ يَوْمًا  
أَنِّي قَرَأْتُ لِأَحَدِهِمْ مَعَانِيَّ فِي الْقُطْرِيَّةِ<sup>(١)</sup> أَثَرَهَا، فَلَوِيتُ عَنْهُ جِيدًا،  
وَعُدْتُ أَفْتَشُّ عَنْ ضَالَّتِي فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ الْمُبِينِ بِقَوْمِيَّةٍ وَضَمِيرٍ وَثَبَاتٍ  
اعْتِقَادٍ.

وَيَوْمَ دَارَتْ بِي الْأَيَّامُ دَوْرَتَهَا، وَأَلْقَتْ بِي فِي مِيدَانِ الْآدَابِ أُمْلًا  
أَفَقَّ حَيَاتِي الْجَدِيدَةَ، وَأَعَوَّضُ عَنْ آمَالِي<sup>(٢)</sup> وَأَصُورُ بَقِيَّةَ أَحْلَامِي، كَانَ  
أَدَبُ الرَّافِعِيِّ مِنْ أَمَامِي رِبُوعًا عَالِيَةً لَا بُدَّ فِي السَّعْيِ إِلَيْهَا مِنَ الْجُهْدِ  
قَبْلَ الْوُصُولِ إِلَى الْقُطُوفِ، وَبَارْتِيَادِ السَّبِيلِ إِلَيْهَا غَيْرَ مَرَّةٍ، حَتَّى تَتَكَشَّفَ  
لِي سَمَاوَاتُهَا وَتَنْجَلِي آفَاقُهَا وَتُظْهِرَ آثَارَهَا وَثَمَارَهَا.

وَلَكِنَّ ذَلِكَ التَّكَرَّارَ كَانَ ذَا مَذَاقٍ يَتَجَدَّدُ وَيَزْدَادُ، وَيَسْتَوْضِحُ مَعَانِيَّ  
وَأَفْكَارًا، وَيَبْعَثُ عَلَى التَّأَمُّلِ وَالِاسْتِغْرَاقِ الَّذِي قَلَّمَا أَجِدُهُ فِي أَدَبٍ سِوَاهُ.  
حَتَّى لَكَأَنِّي لَا أَجِدُ مَا أَتَرْجِمُ فِيهِ أَدَبُهُ فِي نَفْسِي غَيْرَ كَلِمَاتِهِ وَعِبَارَاتِهِ  
نَفْسِهَا!

(١) الْعَقَادُ فِي حَدِيثٍ مَعَ هُرُونِ الرَّشِيدِ الْهَلَالِ — ٩ — ١٩٤٩

(٢) أُمِلْتُ فِي دَرَاةِ الطَّبِّ، فَقَصُرَتْ بِي دَرَجَاتِي.

الدسوقي : ومن هنا أخذ الأستاذ عمر الدسوقي بيدي، فوجهني  
لدراسة الرافعي وأدبه لبعثه ثانية، فيأخذ مكانه اللائق في آداب الأمة.  
وقد آلت الأفكار والمذاهب الى نوع توزع وافتراق، ولا سيما بعد  
الذي ران على النقد من بعض مفهومات ومترجمات تحاول بالروح  
العربية وآدابها غير ما ينبغي لها من اعتقاد وحرية!

ولم تكن الالتفاتة الدسوقية إثارة فحسب، وإنما كانت مهمة قومية،  
وتبعة اجتهاد، حثلتهما بجهاد ووداد، واتخذتهما الرسالة والسبيل  
والسداد، فانشئت أشمر عن ساعد الجد، أتهيب الأناة، وأستبق السعي  
بالكد والسهر، وأصابر الجلد مع الاختلاف على دور الكتب وبيوتات  
العلم ومغاني الأدب، ورجالات الفكر والفقهاء، وأقيال التاريخ؛ أبحث  
عن الآثار، واستخرج المعاني، وأقتش عن التفسيرات، لتجيء  
« الحثيات » مستوفاة في كل ما أختار الكتابة فيه من جوانب الرافعي  
الأديب الإمام.

وإذ أستفتح باسم الله هذه المقدمة، أعرض لمنهاج البحث في  
أبوابه، وأشير الى الرسالة في فصولها، فأجعل ذلك كله يسائل عن  
مدى التوفيق، ومرمى الإصابة فيما يتوفر لي من مادة الدراسة ومجالات  
الأخذ والنقد التي تمنهج لنفسيها.

\* \* \*

في التمهيد ملاحظة جديدة ليسر خلود العربية في آدابها، وهل هنالك  
سلك نظيم يمتد في أطوار الفكر العربي بجوانبه التي تفقه الحياة،  
ومساربه الفنية، ومطاراته الفلسفية، وكيف ألفت ذلك تمتع كتاب  
العربية في بيانهم وفنون آدابهم؟ فامتدت بتاريخهم حتى شهدت النهضة  
الحديثة وتوفر على معرفته الرافعي الأديب؟

ذلك أن الدالة على توفيقِ الرافعي في فنه، وعبقريته في الكتابة والشعر، لا بُدَّ لها أن تكونَ مَسْبُوقَةً بعلاماتِ وآياتٍ لآثارها تلوحُ كالمناثر هنا وهناك؛ تَحَدِّثُ عن الثباتِ الاعتقاديِّ، والتوفرِّ الفقيه، والاستيعابِ لثراثِ الأُمَّةِ العلميِّ، مع الاجتهاد والإصابة وما سارَ فيه من خطواتٍ في ذلك على آثارٍ مَنْ سَبَقَهُ من نُبغاء وعارفين، حتى وافى سابقاً يلحقُ هؤلاءِ ويمتازُ على أولئك.

وكذلك عَوَّلْتُ على أن أَلْتَمِسَ في الفقهِ الاسلاميِّ — من حيثُ هو مادةُ الفكرِ العربيِّ في اجتهادهِ وفناواه — وشيجةً لما أرى؛ تَجْمَعُ وتؤلَّفُ بينها وتفرِّدُها، فكانَ ذلك دليلاً يأخذُ بيدي في الأدبِ إلى الأساسِ الاعتقاديِّ المتين، من النابتةِ الأدبيَّةِ والبعثةِ المُحمَّديَّةِ والقُرْآنِ المجيدِ وفُضِّلِ الصَّحابةِ ونُبوغِ التابعين، ومَنْ انفردَ بالاجتهادِ وانتظمتْ لَهُ فُنُونُ الكتابةِ من بَعْدُ الى عَصْرِ النهضةِ — وقد انتظمتْهم ذلك العِلْمُ العظيمُ يَفْقَهُ لهم الحياةَ ويأخذُ بأيديهم إلى الرَّفْعَةِ والبيانِ<sup>(١)</sup>.

وفي ذلك يَثْبُتُ لنا بدءاً أنَّ مَثابَةَ الصَّلاحِ في أُمْرِ الأُمَّةِ يقومُ أبداً من حيثُ بَدَأَتْ في انتظامِ وغيها وعِلْمها، والاستجابةِ الرِّبَّانيَّةِ لاستعدادِها بآياتِ بينات، وقيمٍ وصفاتٍ توفَّرتْ لها أدباً، ورَعَتْها دَعْوَةٌ، ثم اتَّخَذَتْها رِسالةً للعالمين.

\* \* \*

---

(١) من هنا يَبِينُ لنا السُّرُّ في اضطرابِ الأدبِ والتواءِ التَّقْدِيرِ وضعفِ اللُّغَةِ وابتعادِ البيانِ ودورانِ الأفكارِ في مَسارِبٍ ومتاهاتٍ، وذهابِ الأدباءِ إلى مغاربِ السياسةِ ومهاربِ الاجتماعِ وصُورِ الضَّياعِ الذي يَحْتَوِيهِمْ بَعِيداً عن البيانِ والصوابِ.

## المنهاج

الباب الأول في عصر الرافعي — وفيه ثلاثة فصول. يحاول الأول منها أن يجيب على ما يثور من أسئلة في علاقة الرافعي بعصره من الناحية الاجتماعية، وكيف كانت حياته بين أبناء الأمة في طبقاتهم ودَرَجاتهم وهل تميّز بشيء من ذلك؟! ويُجيب كذلك عما كان عليه من حالة سياسية وكيف كان الرافعي ينظر إليها أدباً وممارسة، وكيف تسمّى قوميّاً على الانجاءات والأفكار فيها. ثم يلتفت ليصف الحياة الثقافية والفكرية التي عاصرها الرافعي بأدبه ويبين عن مدى تفاعله معها وكيفية أخذه واختياره لأنوارها وأسرارها.

ويوجز الفصل الثاني حياة الرافعي — وقد وافى بفرائد تلك الحياة ونواديرها من حيث النشأة والتربية، والوظيفة والأسرة، وما وَقَعَ له في هاتيك الجوانب كلّها. ويرسم صورة مختصرة لنشاطه في حياته الأدبية، وهل وفاها حقّها من العطاء والالتزام؟

ويعرّف الفصل الآخر بفنون النشر والكتابة عند الرافعي ويعرض لأمثلة منها مُلِمّاً بأكبر قدر مُستطاع من تلك الأمثلة؛ مما جاء في كُتبه أو ما يزال مَبْنُوثاً في شتيت الصحف والمجلات.

والفصل محاولة تجديد في المذهب التقليدي — الذي يُعرّف بآثار الشخصية الأدبية المطبوعة والمخطوطة — باستعراض ما في تلك الآثار من فنون الأدب؛

يعرض للمقالة بأنواعها وأغراضها، والرسالة بألوانها، والبحث والدراسة والتحقيق، ثم التاريخ والقصة، فالقصيدة النثرية والآبدة، وهل كان للرافعي امتياز معرفة وبيان فيها؟

أما الباب الثاني فإنه دراسة تطبيقية في « الرافعي الكاتب » بين المحافظة والتجديد وفيه ثلاثة فصول أيضاً :

يحاول الأول أن يدرس الكتابة عند الرافعي في جوانبها الفنية والنفسية فيعرف به — أديباً ذواقه، نهل علمه ومعرفته بطريقته الخاصة، وكيف توفر على ذلك بصير حلیم وجلد كريم. ثم يبين كيف انطبع على غرار من البيان جعل منه المنشيء المكين، وكيف تحولت به الحياة الأدبية والفكرية فكان الأستاذ الثبت في التأليف والتصنيف، وكيف عادت الأيام لتجعل منه الناقد القويم الذي امتاز بالعلم والفهم والتوجيه السديد... حتى يحاول صفته وكيف أضحي ذا مذهب في الأدب أحق بالاعتداء! وماذا يؤخذ عليه؟

ويعرض الفصل الثاني لموضوعات محدثة في أدبه، بدراسة تستنبط مضمونات اعتقادية في أمهات المسائل الانسانية والقومية التي ساهم فيها بأدبه وفنه. وكيف رسم مذهباً للسمو والإخلاص في الحب كأنه يجدد دينه؟.. وكيف وافى العربية في نهضتها القومية بمادة اعتقادية صورها في رفعة وعلاء.

ثم كيف نظر في الاجتماع تلك النظرة التي ناقش فيها المذاهب المحدثّة والأفكار الجديدة ليثبت فضل النظام الاسلامي وسمو الدين الحنيف... وهل وفق في ذلك كله؟

وفي الثالث رحلة في الضمير العربي عنده، وكيف تميز بدعوته واجتهاده.

وكل الفصول ومباحثها تحاول أن تأتي بحيثيات جديدة وفريدة

— غير التي دَرَجَ على إيرادها المهرَّجون<sup>(١)</sup> — تكشفُ عن كثيرٍ مما  
أنهم من أمرِ الرافعي مع بعضِ أدباءِ عصره.

ومن بين هذه الدراساتِ تبرزُ منزلةُ الرافعي الكاتبِ الأديبِ المحافظِ  
على العربية وأسرارها البيانيَّة، المجلودِ لأساليبِ التعبيرِ والانشاءِ والكتابة.

مصطفى نعمان البدري

---

(١) من هنا يبين لنا السر في اضطراب الأدب والتواء النقد وضعف اللغة وابتعاد البيان  
ودوران الأفكار في مسارب ومتاهات، وذهاب الأدباء الى مغارب السياسة ومهارب  
الاجتماع وصور الضياع الذي يحتويهم بعيداً عن البيان والصواب.

## تمهيد

### الأدب والفكر

من المفارقات الواردة في تاريخ الفكر العربي أن كلمة « أدب » قد تَقَلَّبَتْ على أدوار لُغَوِيَّةٍ من وَزْنِ الأخلاق والاجتماع على الدين — النظام، والقيام على التعليم بالرواية والنَّسَبِ وفقه اللغة، حتى نَزَلَتْ منزلة الحقائق العُرفِيَّةِ بالاصطلاح<sup>(١)</sup>.

ولكن لم تكذُ تَنْتَصِفُ المِئَةُ الرابعة الهجرية حتى كان لفظُ « الأدباء » قد زال عن العلماء جُمْلَةً، وانفردَ بِمِيزَتِهِ الكتابُ والشعراء، ولم يَزَلْ كذلك مُتَبَعْدًا عن معناه الوثيق الذي أُريدَ له في القرآن مَثَلًا يُقْتَدَى به، وَهَدَفًا يُتَطَلَّعُ إِلَيْهِ، وَغَايَةً يَرْنُو إِلَيْهَا الْمُؤْمِنُونَ، وَيَتَوَسَّلُونَ بِهَا عَلَى شَرَفِ الاعتقاد وإرادة الحياة.

وقد كان للأدبِ معنى يكادُ يَسْتَوْعِبُ نشاطَ الفكر الانساني، ويفقه العلوم والمعارف جميعاً<sup>(٢)</sup> ولكنه ما برحَ يَضْئَلُ في مفهومه الخطير

(١) الرافعي — تاريخ آداب العرب ١ — ٢١

(٢) أحمد حسن الزيات — في أصول الأدب — ١١



هذا عندَ المؤرخين والنقاد — ولا سيما المحدثين حتى كاد يقتصرُ اليومَ على الشعر والحديث من حوله حَسْبُ، أو ينفرطُ فيتابع « القصة » يدورُ في أفلاكها المُتطايرة، أو ينتشر مع مسالكِ المُتَمَشِّقِينَ والمُسْتَغْرِبِينَ في مختلفِ الاتجاهات.

\* \* \*

### علوم العربية والفقه

ولو أردنا أن ندركَ أثرَ القرآن في الفكرِ العربيِّ بجوانبهِ المتعددة، ومجالاته التي تتسعُ مع الأيام، لكانَ لنا في نهضةِ الآدابِ وفنونها والروايةِ والنقدِ والجرحِ والتعديلِ وعلومِ اللغةِ وفنونِ البلاغةِ وصورِ البيان، دلائلَ وعلامات تَهْدِي السائرين.

لقد كانتْ علومُ العربيةِ كلّها، في نحوها وصرفها وقواعدها الأخرى اندفاعات قوميةٌ في سبيلِ ثباتِ فقه القرآن والإمامِ بأحكامه، ومن هنا ندركُ أنَّ تلكَ العلوم والفنون لم تَتَمَثَّلْ في علمٍ من العلوم أو فنٍّ من الفنون كما تمثَّلتْ عِرْفَاناً عملياً في الفقهِ الاسلامي للقرآنِ العظيمِ والحديثِ الشريفِ واستيعابِ الحياةِ للأُمَّةِ نفسها.

ولو نظرنا في صفحاتهِ الوِاسِعِ من الرأي والاجتهادِ والفُتْيَا، وتأملنا في أصوله وفروعه، وعاودنا المُنْتون والشُرُوحَ والحواشي والمُعْجَمات، لبرَزَتْ لنا هذه الحقيقةُ ظاهرةً لا تَكَاذُ تَفَلَّتْ فيها صِفَةٌ في حرفٍ جر حتى تُسْتَدْرَكَ بصورةٍ حكم،... ولتبيّنْ لنا كيفَ فقهَ المجتهدون العربية، وكيفَ أفادوا من آدابها، وكيفَ استقامتْ لهم أدواتُ البيان

في الآيات وبلوغ الأحكام في النصوص، وكيف أتى لهم من ثم استنباط الفتاوى وانتظام الأحكام<sup>(١)</sup>.

**الفقه والفكر :** وإن نحن تحرّينا إرهابات الانبعاث المحمّدي في الأمة فلَسَوْفَ نَقِفُ على حقيقة في بوارد الوعي القومي عند العرب تمثّلت في وَقْدَةِ الأذهانِ وَجَلَاءِ الخواطرِ وانثيالِ الأفكارِ وبرزت واضحةً في ذلك البُحْران الذي عاشته الأمة، وكيف جاء في البعث الأديب والبحث الأريب لفقه الحياة والتثبت فيها مع القيم والأعراف والمروءات.

وقد نرى كيف سما الإسلام في الاستشراف بالوسائل، وجعل الهيام بالأهداف شهادة حُسن الاعتقاد، وكيف تقدّمت الغايات للأمة فكانت بحقّ خير أمة أُخرجت للناس، لا حَيْدَ لها عن الصراط، مما لم يؤثر مثله عند أمة نالت حظاً كالعرب!..

والنبيّ الأميّ محمد ﷺ الذي أقرّاه ربّه الأعلى، هو المثال الثابت للأمة كلّها، بل هو الأسوة الحسنة كما قال القرآن تسمو به الحقيقة نفسها ويتسامى معه العرب أجمعون — وقد أدبه الرحمن فأحسن تأديبه، وآتاه جوامع الكلم، وعلمه من البيان ما ظهر به على الثبوت والدّعوات، وحسبه أن يتلقّى القرآن من لدنّ عليم خبير بلسان عربي مبين ليكون هدى للناس، وفقهاً للحياة، ونظاماً للإنسانية ورسالة الله إلى خلقه أجمعين.

وقد كان لفقهاء الصاحب والتابعين موافقات في ذلك العلم الأثير

(١) نرى النقاد على بعض الأدباء التزامهم قواعد العربية، ونعتوا آثارهم بشعر الفقهاء!

— الأدب وميادينه تجلّت في أروع بيانٍ من الحكمة والعدل، فقهاً للدين، وفهماً واثقاً للعلم والاجتماع، واستيعاباً لمفهومات الحياة الفكرية بجوانبها الاعتقادية كافة.

**الاجتهاد :** وكان للمجتهدين من بعد التحري الدقيق والتثبت الوثيق في دراسة اللغة وآدابها أمام الفقه وأصوله والتفسير وميادينه والحديث وروايته وإسناده، ومرافقة الأعراب في البوادي، وفيهم الإمام محمد بن إدريس الشافعي، ذلك القمّة العالية في الفكر العربي ما طاولتها قمّة في الفكر الانساني كله، فقد حفظ أشعار الهذليين ورواها، واختلف على الأمصار وأنشد الشعر وقال في الأدب :

ولولا الشعر بالعلماء يُزري لكنّ اليوم أشعر من لبيد

وكان له الفقه الذي يستوعب المعرفة بآفاقها، ويهيمن على الواقع بإدراك مقوماته مهما استدارت الأيام، وله اللغة بما فيها من المتانة والقوة ما يجعل من بينها أساساً متيناً للحكم ومحصلة فريدة للتشريع وأسلوباً ينتظم الفقه بأدب، حتى دعي بحق أديب الفقهاء وفقه العلماء، الى جانب ما امتاز به من غروبه والوضحاء وإصابته في الاجتهاد<sup>(١)</sup>.

وكذلك كان الإمام الممتحن أحمد بن محمد بن حنبل — وقد تفرّد بما امتاز به الشافعيون من اتقاد الذهن والاجتهاد، مع الأخذ والمتابعة في جو الحديث الشريف.

---

(١) حسبنا أن نقف منه على (الرسالة) مقدمته في الفقه وأصوله، لنصدق أنفسنا في ذلك، ونعود ننظر في فقه الشافعية من وجيز الغزالي وشرح لعبد الكريم الرافي، ومعجمهما (المصباح المنير) للفيومي، لنذكر ذلك الأساس المتين الذي بنينا عليه الرأي الجديد.

ثم كَانَ من جَاؤَا من بعدُ — على الرغم من تَعَاَسَةِ أَيَّامِ السِّيَاسَةِ على العرب — نَحْصُ مَنْهُمْ من كَانُوا يَلُودُونَ بِالسَّنَةِ الْمُطَهَّرَةِ كَالْإِمَامِ ابْنِ قَيْمٍ الْمَدْرَسَةِ الْجُوزِيَّةِ فِي الشَّامِ وَأَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْحَلِيمِ بْنِ تَيْمِيَّةٍ. لَقَدْ كَانَ أَثَرُ الْفَقْهِ وَالْأَدَبِ مُتَلَازِمَيْنِ فِيهِمْ لَا يَكَادُ يَنْهَضُ أَحَدُهُمَا دُونَ الْآخَرِ... وَمِنْ ذَلِكَ مَا كَانَ أَثَرُهُ وَاضِحاً لَدَى الْكُتَّابِ وَالْمُتَرَسِّلِينَ مِنْذُ كَانَ عَبْدُ الْحَمِيدِ الْكَاتِبُ فِي آخِرَةِ عَهْدِ الْأُمَوِيِّينَ — فِي الشَّامِ يَضَعُ الْمُنْهَاجَ لَهُمْ وَيُحْمَلُهُمْ أَمَانَةَ الدَّعْوَةِ الْإِعْتِقَادِيَّةِ. حَتَّى كَانَ أَبُو عَثْمَانَ عَمْرُو بْنُ بَحْرِ الْجَاخِظِ فِي ثَبَاتِهِ الْقَوْمِيَّ بِالْبَيَانِ، أَمَامَ مُحَاوَلَاتِ التَّسَلُّلِ الشَّعْبِيِّ الْأَثِيمِ عَلَى الْأُمَّةِ وَاعْتِقَادِهَا — عَلَى الرَّغْمِ مِنْ إِثَارِهِ الْحُرِّيَّةَ فِي اعْتِرَالِهِ وَاسْتِرْقَاقِهِ أحياناً<sup>(١)</sup>.

### الانبعاث القومي

وكذلك كان ديدنُ الكُتَّابِ والأدباءِ عِبْرَ دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ وَالْفَتْرَةِ الْمَظْلُومَةِ حَتَّى بَوَادِرِ النَّهْضَةِ وَانْتِظَامِ الدِّرَاسَةِ الْحَدِيثَةِ.

وربما كَانَ الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ التَّيْمِيَّ مِنْ أَظْهَرِ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي تَحْرِيكِ الْأَسَاسِ الْإِعْتِقَادِيِّ فِي الْاجْتِهَادِ، وَفِي اعْتِمَادِهِ سِيرَةَ الرَّسُولِ الْعَرَبِيِّ ﷺ مَثَلًا حَقًّا فِي الْاجْتِهَادِ وَفَقْهِ الْحَيَاةِ وَمَعْرِفَةِ الدِّينِ الْقِيَمِ، وَاسْتِهْدَافِهِ — فِيمَا هَدَفَ إِلَيْهِ — تَحْرِيرَ الذَّاتِ الْعَرَبِيَّةِ بِالدَّعْوَةِ الْمُشَافَهَةِ مِنْ ثَمَّ، وَفِي رَسَائِلِهِ الَّتِي حَرَّرَهَا لِأَمْرَاءِ الْعَرَبِ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ الْأَدَبِ الْقَوْمِيِّ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ.

(١) لَا يَذْمِينَ عَنَّا مَا لِلْاعْتِرَالِ مِنْ هَدْمٍ خَفِيَ لِأَصُولِ الْعَقِيدَةِ.

وإنَّه لمذهبٌ في الفكر والحرية بعيدُ المرمى، ثابتُ الخطى ممتازُ الأخذِ والإثمارِ لو مضى على سنَّه ثائراً هادياً، ولم تتلقَّفه أو تلتفَّ به بعض السياسات!

هو مطلعُ النهضة العربية التي تَبَعَتْ بالأصالة وتَسْتَكْشِف ذاتها، على هدىِ فقهٍ مثْلِها الفريد، وصدىِ دعوتِهِ الانسانية، ومدى من سيرته الرفيعة حيثُ الأسوةُ الحسنة.

ولم يكد القرن الثالث عشر الهجري الذي عُرف به يبدأ حتَّى ظهرَ دعاةُ آخرون في طولِ البلادِ وعرضِها، وكلُّهم كان نصيبُهُ من العربية وعلومها وافراً — على بُعدِ الأيامِ وتوالي المحن والنوازل. وكان أثرهم في مُريدِهِم أدباً عربياً فذاً وإن لم يُتَوَغَّل في دراسَتِهِ بعدُ.

### النهضة

لقد كان هنالك من يحاولُ بالأمَّةِ النهضة، ويعملُ على استعادتها لعافيتها العلمية وحياتها الفقهية، وصفتها العربية، ويرى إقالة أيامها من العثرات.. ولكن مرافقاتِ الحال السياسية وجوانبِ البيئة الاجتماعية، ومجالاتِ الحياة الثقافية — لم تكن في المستوى الذي تمكَّنُ للأمة من الانتباهِ الواعية، والإدراكِ السليم، فكانت جهودُ الأفذاذِ من العلماء والأدباء مُضْنِيَّةً لهم.

\* كان أبو الشاء الآلوسي يبعثُ النهضة في بغداد ويستحثُّ على المبادرة، ويؤلف في فقه القرآن العظيم ويتحرى رُوحَ المعاني في آيةِ الكريم، فيلتفُّ من حوله فتيةٌ مؤمنون وأبناء عارفون وتَضَحَّى أسرته مضربَ المثل في العلم والفضل.

\* وكان الشيخُ عبد القادرِ الرافعي في الشام يرقى في سَلَمِ الذكاءِ والتوفّرِ العلمي، ويُدهِشُ الفضلاء من شيوخِهِ في الأزهر، حتّى كادَ القضاء والإرشادُ يكون وقفاً على النبغاء من أبنائِهِ وحفدَتِهِ في الديار المصرية والشاميّة، بل حتّى العراق واليمن.

\* وكانت أسرةُ الخطيبِ في الشام وأسرةُ الحسني في المغرب وغيرها من الأسر العلمية ذات الفضل والنفوذ في الدولة<sup>(١)</sup>.  
وكانتِ العربيّةُ وعلومُها وفنونُها وسيلَتُهُم التي يَسْتَشِرُّونَ بها على الأهداف.

\* \* \*

### الحركة السلفيّة

تداخَلَت مُنْعَطَفَات النهضة، وتبادرت منطلقاتها، واكتنف غاياتها وأهداف رعاتها الكثير من صورِ الرأي ووجهات النظر<sup>(٢)</sup> ولكنها في الحصيـلة كانت ترمي الى محاولةٍ تغييرِ الواقع الذي رانَ على الأمة في انحساره عن التقدّم وتخلّفه عن ركب الحضارة.

\* على أنّ البحث عن مواطنِ الإثارة الذي رافَقَ شخصيّةَ جمال الأفغاني، ووضع فيه ذكاؤه<sup>(٣)</sup> قد وَجَدَ في (العُرُوّة الوثقيّة) التي تعلّق بها محمّد عبده، الالتقاء والمناولة والارتياض على الدرس والاجتهاد، كما عرف لدى الشيخ طاهر الجزائري مجالَ الدرس والمتابعة من

(١) راجع عدنان الخطيب — الشيخ طاهر الجزائري — ٧١ ورشيد رضا — المنار ١٣٤٦ هـ.

(٢) عمر الدسوقي — في الأدب الحديث — ٦٢/١، ١١١

(٣) عمر الدسوقي — في الأدب الحديث — ٢٥٢/١

تلامذته، وحلّق بعبد الرحمن الكواكبي في آفاق (أم القرى)... حتى حاول رفيقُ العظم كتابة التاريخ بأسلوبٍ علمي ومنطق جليل.

\* وكذلك لآخ « منار » محمد رشيد رضا الحسيني يدعو إلى إعادة الخلافة العربيّة، وأقام علي يوسف « المؤيد » لضمير الأمة، ورفع مصطفى كامل « اللواء »، للجامعة وتعهّد صادق الرافعي « البيان » للنهوض بشباب العربيّة والوعي القومي.

وكان ذلك التحرير بادياً من ثمّ في الذات العربيّة — وهي تلتفتُ في الحركات الأدبيّة، وتنظّم في البيّات الاجتماعية، وتنعطفُ مع التّزوات السياسيّة، وتضطربُ بالمحاولات الأخرى.

وكلُّ أولئك كان أخذهم من الفقه وبصرهم بالعربيّة يكادُ يتعادلُ مع دعوائهم « ومن يُرد اللهُ به خيراً يُفقهه في الدّين ». الحديث.

\* \* \*

### اليازجي — السويدي

\* في الوقت الذي كان فيه الشيخ ناصيف اليازجي يُحاولُ السّباحةَ في (مجمع البحرين) بصياغةٍ لمقاماتٍ جديدةٍ يُعارضُ فيها مقاماتٍ بدعيّة الزمانِ الهمداني ومقاماتِ الحريري ويجري على طريقتهما مُظهراً براعتهُ (المُعجميّة) في التكلّف، ومُصوّراً لآخرةٍ عهدٍ في آداب العربيّة، ماضياً على سبيله هذاك يحسبُ التفوّقَ فيه على أبنائه عصره<sup>(١)</sup> كان عبدُ الله السويدي في بغداد يخطُّ لُوحدَةَ الأمة في فقه الحياة<sup>(٢)</sup> وكان عبد الله فكري يحاولُ في النثر ما آثره سامي البارودي في الشعر من فصاحةٍ

(١) الدسوقي — نشأة النثر الحديث — ٤٥

(٢) الرسالة الاسلاميّة — ١١٤



العرب في عصورهم الزاهرة. وكما أعاد البارودي الرّواء الى الشعر العربي — على حدّ تعبير الرافعي<sup>(١)</sup> استطاع فكري أن يُعيدَ الى النثر والكتابة بعضَ رونقها الذي غادرته، وكأنّما كانا على مَوْعدٍ مع القَدْرِ في التَّوْطِعةِ لنهضةِ الآدابِ العربيّةِ في مصر، وكما مهَّدَ البارودي لأحمد شوقي وحافظ ابراهيم في رفعةِ شأنِ الشعرِ العربيّ، كذلك وافق ذلك التمهيدُ هوَ في تعريبِ الديوان، وتجديدِ فنونِ النثرِ والكتابة.

### عبدالله فكري

\* كان عبدالله فكري قد ولد في مكة المكرمة عام ١٢٥٠ هـ — ١٨٣٤ م، ونشأ يتيماً تكفّله أحدُ ذوي قرابته من السادة العلوية<sup>(٢)</sup> وتعلّم في « الأزهر » وسلكَ على الطريقةِ الخلوتية، وأتقن اللّغتين التركية والفارسيّة اللّتين كان لهما شأنٌ في آداب ذلك العهد.

وتدرّج في الوظيفة حتى كان وكيلاً لديوانِ المكاتبِ الأهليةِ برئاسة علي مبارك، فوكيلاً للمعارفِ فناظراً لها في حكومةِ محمود سامي البارودي.

وقد رحلَ في الآفاق، ورأى دارَ الخلافة في (اسلام بول) وزار القدس وديار الشام والحجاز، وحضّر مؤتمرَ المستشرقين في استكهولم عام ١٣٠٧ هـ — ١٨٨٩ م.

وعلى ما امتازَ به من ثباتِ الأخلاقِ وحسنِ التديّن، وقفَ منه بعضُ المتزمّتين مواقفَ غيرَ حصيفةٍ — ولا سيّما في أخذهِ بدعوةِ

(١) المقتطف — مايو، أيار ١٩٠٥ م.

(٢) الدسوقي — نشأة النثر — ١٠٢، الأدب الحديث — ١ — ١١٧

(المقتطف) لدراسة العلوم الطبيعية الحديثة، ومخاطرته في إحياء البيان العربي في الكتابة، حتى اضطرَّ الى القول في مجابهة تلك المواقف :  
 « غاية الأمر أنهم قَضَوْا أَرْدَلَ العُمر في كُتُبٍ معدودة، وشُروح موجودة، وهم يكرّرونها ولا يَدْرُونَهَا، ويُقرّرونها ولا يجرونها، ويتداولونها ولا يتعلّلونها، ولو صَرَفَ جِمَارِي هذا العُمر فيها لأصبح فقيهاً، وأضحى نبيهاً »<sup>(١)</sup>.

وقال : « والذي يُظهرُ مَيَّنَهُمْ وشَيَّنَهُمْ، وعلامة ما بيننا وبينهم، أن يُؤمَرَ أحدهم برُقعةٍ تكتبُ لحاجةٍ مَعهودة، ويُمتَحَن بكتابٍ غيرِ هذه الكتبِ المعدودة، فيه بعضُ كلامِ العربِ وأشعارها، وشيءٌ من وقائعها وأخبارها، فإن كَتَبَ فصيحاً، وقرأً صحيحاً، وفهمَ مليحاً عَرَفْنَا أَنَّهُ شَمَّ عَرَفَ العِلْمَ، وذاقَ طَعْمَ الفَهمِ، وسلّمنا لهم ما يَدْعُونَ، وتركنا لَهُمْ ما يَأْتُونَ، وما يَدْعُونَ — وإنْ ارتَيكَ للرُقعة، ووقف حمار الشيخ في العقبة، عرفنا حاله... » الخ. إذ يعرضُ لِعَجْزِهِم عن الكتابةِ أو الإصابتِ ووقوعهم في اللَّحْنِ والخطأ « فانهم لا يُحَسِّنُونَ مقالاً، ولا يُعرَّبُونَ عن معنى، ولا يَتَصَرَّفُونَ في فنونِ الكلامِ ».

وكان عبدُاللهِ فكري شاعراً بِخُطُورةِ الدَّعوة التي جاهرَ بها آنذاك، واستطاعَ أن يَسْتَرِدَّ بِأسلوبِهِ الديواني لِلغةِ العربيّةِ مكانَتُها في المُراسلاتِ الإداريّةِ، تلك المكانة التي فَقَدَتْها عدّةُ قرون<sup>(٢)</sup> وتوخّى الفصاحةَ

(١) العبارة التي استشهد بها الرافعي في خطبة له، راجع العريان — حياة الرافعي — ٢٦٩ وقد حدثني بتفاصيل الموضوع حسنين حسن مخلوف.

(٢) نشأة النثر — ١٠٢

والأناقة في الأسلوب، ولم يذهب تقليده لرؤساء ديوان الإنشاء بشخصيته وطابعه، ولم يأسره البديع ومحسناته فيذهب بمعانيه<sup>(١)</sup>.

وهو بعمله هذا أعدّ التهيئة التي لا بُدَّ منها للانتقال بالكتابة الى الحركة التي تقدّم بها الإمام محمد عبده في معالجته لبعض العيوب الاجتماعية<sup>(٢)</sup> وفي تحرير الوقائع المصرية في أول القرن الرابع عشر الهجري؛ إذ تجرّد من القيود اللفظية في السجع والمحسنات البديعية، فمهد بذلك الطريق أمام الكتاب ليتحرروا هم أيضاً من تلك القيود<sup>(٣)</sup>.

#### محمد عبده

على أن الإمام كان يظهر بأسلوب آخر يحتفل فيه بعبارته وتصوير مشاعره تصويراً فنياً في رسائله الإخوانية وتقاريره، يدلُّ على ذوق أدبي وتمكّن من اللغة وعلى أنه ذو موهبة شعرية تمدّه بالخيالات الطريفة والصور البيانية الجميلة<sup>(٤)</sup>.

وقد يعزو الإمام ذلك التطوّر والأجادة في الكتابة — على ما يزعم عبد الرحمن الرافعي<sup>(٥)</sup> الى الأفغاني وأثره في العصر. فقد كانت له يدٌ في إصلاح التعليم في الأزهر، ومشاركة في النهضة الوطنية، وكان يؤقن أن اللغة مادة البلاغة وجمال التعبير يشغلُه إحياء اللغة مادةً وعلماً، ودراسة وكتابة. فكان يُعين جماعة إحياء الكتب العربية بعلمه ووقته

(١) الأدب الحديث — ١٢٦/١

(٢) نشأة النثر — ٦٢

(٣) محمد عبد الغني حسن — عبد الله فكري — ٩٢

(٤) نشأة النثر — ٦٨، الأدب الحديث ١ — ٣٨٦

(٥) عبد الرحمن الرافعي — جمال الأفغاني — ١٨

وماله ونفوذه، وكان ينشر أمثالا من البلاغة السلفية ويشرحها بقلمه، أو ينوّه بها في دروسه وتفسيراته<sup>(١)</sup>.

وكان مذهبه في ذلك « تحصيل مادّة اللّغة لتحصيل الملكة؛ لأنّ دقائق الفصاحة والبلاغة وبراعة التعبير تحيي الفهم، فالكلام البليغ سهل على الفطرة وإنما يأتي بالمبالغة مَنْ كان مجازفاً في رأيه »<sup>(٢)</sup>.

### الرافعي

وربما كان هذا المذهب الذي لقيه صادق الرافعي وآثره فيما بعد، كما سيلوح لنا في الدراسة التالية، فقد أعجب بالإمام، وما فتئ يطري نعتة الى آخر أيامه؛ امتدحه في شعره<sup>(٣)</sup> ونَحَلَهُ حديث « البيان » الأول<sup>(٤)</sup> ثم عاد إليه بعد ذلك بسنين يطيف عليه في ظُلُل (السحاب الأحمر)<sup>(٥)</sup> وافتقد فيه صورة الإمام الذي يجتمع إليه العصر بصفاته<sup>(٦)</sup> وترحّم عليه حين حال العصر في آخره أيامه، وقد أضحى فيه من هو « أبو حنيفة ولكن بغير فقه، والشافعي ولكن من غير اجتهاد، ومالك ولكن بغير رواية، وابن حنبل ولكن بغير حديث » قال: فمئذ مات محمد عبده رحمه الله جرّت أحداث ونشأت رؤوس، وزاغت طبائع وكأنه لم يمت رَجُلٌ، بل رُفِعَ قرآن<sup>(٧)</sup>.

(١) عباس محمود العقاد — محمد عبده — ٢٦٧

(٢) عباس محمود العقاد — محمد عبده — ٢٦٨

(٣) ديوان الرافعي ج ١، ٢، ٣

(٤) البيان — شعبان ١٣٢٩ هـ — ١٩١١/٨ م

(٥) السحاب الأحمر — ١٤٧

(٦) الزهراء — ربيع الأول ١٣٤٧ هـ

(٧) الرسالة ١٩٣، وراجع الدسوقي — الحديث ٢٩٢

كان هنالك كُتَّابٌ يَتَشَبَّهُونَ بِالْأَسْجَاعِ وَالْمُحَسَّنَاتِ الْبَدِيعِيَّةِ بَعْدَ ذَلِكَ  
التَّارِيخِ مِنْهُمْ عَبْدِ الْعَزِيزِ جَاوِيْشٍ وَحَفْنِي نَاصِفٌ وَحَسَنُ السَّنْدُوْبِي وَأَحْمَدُ  
فَوَّادٌ، وَقَدْ دَافَعَ حَفْنِي عَنْهَا بِمَقَالَةٍ مَعْرُوفَةٍ<sup>(١)</sup> قَالَ فِيهَا:

« أَخَذُوا فِي ذَمِّ السَّجْعِ وَالْمُقَفَّى، وَأَطْلَقُوا الْقَوْلَ فِي تَهْجِينِهِ، وَضَلُّوا  
الْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ الْمُنْشِئِينَ وَأُثْمَةَ الْأَدَبِ وَفُرْسَانَ الْبَرَاءَةِ، وَلَا أَقُولُ إِنَّ ذَلِكَ  
نَاشِئٌ عَنْ عَجْزِهِمْ وَقَلَّةِ بَضَاعَتِهِمْ فِي هَذَا الشَّأْنِ، بَلْ أَقُولُ إِنَّ هَذَا  
إِطْلَاقٌ فِي مَقَامِ التَّقْيِيدِ وَإِرْسَالٍ لِلْعِنَانِ فِي مَوْضِعِ الْإِمْسَاكِ، وَإِجْمَالٌ  
فِي سَاحَةِ التَّفْصِيلِ، وَالْحَقُّ أَنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالاً، وَأَنَّ السَّجْعَ وَالتَّقْفِيَةَ  
قَدْ يُلَبَّسَانِ الْقَوْلَ حُسْنًا، وَيَكْسِبَانِهِ رَوْنَقًا..

وَحَسْبُنَا رَدُّ الْإِمَامِ عَلَى إِحْدَى رِسَائِلِهِ بِقَوْلِهِ فِي أَدَبٍ وَظَرْفٍ كَالَّذِي  
يُوهِمُهُ بِتَوَرُّطِهِ فِي السَّجْعِ إِذْ يَقُولُ:

تَسْجَعُ لِي فِي كِتَابِكَ، وَتَطْمَعُ أَنْ أَسْجَعَ لَكَ فِي جَوَابِكَ، كَأَنَّكَ  
لَمْ تَسْمَعْ أَنِّي ثُبْتُ مِنَ السَّجْعِ، حَتَّى لَوْ سَاقَ إِلَيْهِ الطَّبِيعُ، فَمَاذَا أَصْنَعُ  
بِكَ وَقَدْ نَقَضْتُ تَوْبَتِي بِأَدَبِكَ »

★ وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ الْيَازْجِي يَتَصَيَّدُ شَوَارِدَ اللَّغَةِ، وَيَنْتَجِعُ لِلرَّائِدِ وَيُشْرِعُ  
لِلوَارِدِ فِي الْمُرَادِفِ وَالْمُتَوَارِدِ مِنْ أَلْفَاظِ الْعَرَبِيَّةِ وَتَرَائِكِيهَا، وَمَا يَفْتَأُ  
فِي أَسْلُوبِهِ يَسْجَعُ بِرِسَائِلِهِ وَمُقَدِّمَةِ مَقَالَاتِهِ<sup>(٢)</sup> وَيَحَاوِلُ الرُّقْيَ بُلْغَةً  
الصَّحْفِ بِالتَّنْبِيهِ عَلَى أَغْلَاطِ الْمُؤَلِّدِينَ. ثُمَّ اسْتَجَابَ لِدَعْوَةِ الْإِمَامِ، فَرَاخَ  
يَتَخَلَّصُ مِنَ الْأَسْجَاعِ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَيَتَحَلَّلُ مِنْ قِيُودِ الْمُحَسَّنَاتِ اللَّفْظِيَّةِ،  
وَيُرْسِلُ الْكَلَامَ عَلَى الطَّبِيعِ وَالسَّجِيَّةِ إِرْسَالًا<sup>(٣)</sup>.

(١) نشأة النشر — ١٢١

(٢) عيسى ميخائيل سابا — إِبْرَاهِيمُ الْيَازْجِي — ٢٤

(٣) عَبْدُ اللَّهِ فِكْرِي — ١٥٢

ولو نظرنا في مؤلفات القوم آنذاك وبصرنا بالإنشاء في فنون الكتابة والنشر، لأدركنا هذه الانعطافة الحميدة في الأسلوب البياني عند سائر المعاصرين، حتى كان الجيل البياني الذي أعاد إلى النثر العربي سيادته، ووفر للكتابة العربية حياة الإلهام.

### أصحاب الأسلوب

ولنا أن نشهد مصطفى لطفي المنفلوطي في « نظراته وعبراته »، وحسن السندوي في « ثمراته » وأحمد فؤاد في « صاعقائه » ثم نمضي فتملّي كتابة عبد العزيز البشري وأدب الرافعي ونثر أحمد حسن الزيات ومقالة عادل الغضبان لنبغ هدفاً في حقيقة ذلك الأثر في تحوّل الأسلوب وتطور النثر، ونلمس السنة الحميدة التي انعطفت بها عبد الله فكري، ومكّن لها الإمام محمد عبده، وسار بها من سار في أساليب البيان والوضوح والامتياز ما هي أهلّ له ولرفعة شأنه في ظلال لغة القرآن الكريم وتحت راية الفقه العظيم.

### معين الفقه

إن أولئك جميعاً كانوا ينهلون من معيّن الفقه وأصوله، ويغترفون من علوم العربيّة وفنونها التي تعين على فهم الفقه والاجتهاد في جوانبه، وإدراك الفتيا في مسائله وقضاياها.

ومن هنا كان توفيقهم في الكتابة العربية، وبيانهم في آدابها، وإفصاحهم في بلاغاتها.. حتى استطاعوا أن يحملوا الأدب الحديث رسالة الفكر التي هي ابنة الفقه، ويكرّموه بالعطاء الاعتقادي؛ ليذهب في السياسة والاجتماع مذاهب التوفيق والموازنة، أو الافتراق والمقارنة

— على ما هو وارد في أمهات الكتب التي دُرستِ الأدب الحديث في فنونه وأعلامه، وإن فائتَهُم الوسيلةُ فقصرت بهم الحيلةُ فانما ذلك من أثر العصر وتباعده عن هذه الحقيقة.

### البناء الاعتقادي

وهكذا استطاع الرافعي أن يحتاز على معاصريه بأدبه الاعتقادي وبيانه الفريد، ويُعرف بأسلوبه الخاص، ويتقدم بموضوعاته ومخترعاته في فنون الأدب والكتابة، كما سيظهر في الدراسة جلياً.

كان التحولُ بأسلوب الآداب من طبيعة الحياة الوليدة ظاهرةً جديدةً بالأخذ والتوسع فيها فهماً وعلماً، وقد تألفها جيلٌ سبق الرافعي في الزمن، ودلّه على المحجّة في ذلك، وإن تبأّن أخذ رجاله، فقصر في ناحية، ووفق في بواحي أخرى، وجلّى أمامه خلال المذاهب والأذواق والمواجد.

وكذلك كان التحول والانتقال بموضوعات الأدب وفنونه يأخذ ما تراءى له من قيم وأعراف، ويتأثرُ بظواهرات الاجتماع الجديد، ويتفاعل مع الأحداث ويُسمّهم بعض الشيء في الحركة الفكرية والاعتقادية.

ولو جُلّنا في موضوعات الكتابة وميادين النشر، ومُطارحات الأقلام، وعبر الأيام وفلثات الآراء وازدحام الأفكار وموافقات الحياة... لألفينا ما يدُرُّنا من ذلك التحول، ولاغْتَبَطْنَا بما يُعجِبُنَا من تطوّر المثال الأدبي، ولا سِماً في فنونه المُحدثة في المقالة بأنواعها، والرسالة بأهدافها، والتاريخ بأوضاعه، والبلاغة بأشائها، ولنصوّر لنا العصرُ مثلاً بذلك كله.

### امتياز الرافي

ثم إذا ما انقلبنا الى الرافي الأديب، وتقلبنا معه في مراحل تطوره  
الفكري، ومذهبه وأسلوبه، ووقفنا على فنون أدبه، فلسوف تتضح لنا  
صورة العصر، وسوف تتجلى أمامنا تلك الآثار جميعاً في حرية واغتراب.



---

# الباب الأول

## مصطفى صادق الرافعي

حياته وآثاره



## الفصل الأول

### الرافعي في عصره

#### تمهيد

لقد عاشَ الرافعيُّ في فترةٍ من عصرٍ ازدحمت فيه صُورُ التحوُّلِ المَصيري للأُمم، وتبدَّلت فيه كثيرٌ من مفهوماتِ الفكرِ والسياسةِ والاجتماع، واشتبكت الآراءُ تبعاً للحرياتِ التي وافت مع الحضارةِ الجديدة، وتوزَّعت المذاهبُ وسلكت الأقوامُ طرائقَ متعددة في الحياةِ العصرية تأخذُ منها ما تأخذ، وتدعُ ما سوى ذلك.

زادَ اتِّصالُ الغربِ بالشرق، واشتدَّ اهتمامُه به، وانفتحت في كليهما أبوابُ تطلُّ على ميراثِ الآخر، وتسايقُ العالم في العطاءِ والعرض، والتطلُّع إلى الآفاق، بما كانت تمتدُّ به عواملُ النهضة من مُخترعاتِ العلوم ومبتكراتِ الفنون<sup>(١)</sup>.

ولعلَّ من أخطر الأشياءِ التي أثرت في الرافعي وطبقته من أدباءِ العصر، تلكَ العواملُ والأحداثُ التي كان لها في آثارهم صورةٌ مواقف

---

(١) راجع الاسكندري — المفضل ٢ — ٢٨٥، والدسوقي — في الأدب الحديث ١ — ٦٢.

وأحوال، تَتَفَقُّ لهم فيها الآراءُ أو تختلفُ تبعاً لما هم عليه من تقبُّلٍ أو رَفْضٍ.

\* \* \*

ولد الرافعي في « بهتيم » — قرية في القليويّة، في بيتِ جَدِّه لأمه، وبهتيم يومئذ ريفٌ جميل، وتنقَّلَ في طفولته ما بين دمنهور والمنصورة وكفر الزيات، حتى استقرَّ المقام بأبيه الشيخ عبد الرزاق الرافعي — كبير القضاة الشرعيين في « طنطا » ذات المكانة الخاصة في نفوس السالكين من أصحاب الطرق والذين يدعون العرفان؛ يؤمونها من آفاق الدنيا ويجاورون فيها أياماً، أو يختلفُ بعضهم الى « المعهد الأحمدي » الذي كان يضارِعُ الأزهر يوماً ما<sup>(١)</sup>.

## أ — البيأة الاجتماعية

في تلك البيأة الاجتماعية التي هي أقرب ما تكونُ الى السواد الأعظم من أبناء الأمة منها الى الطبقات المتميزة بالثراء والجاه والسلطان، نشأ الطفل الأريب مصطفى صادق الرافعي، وفي حارة سيدي سالم الضيقة الملتوية قضى مدّةً ليست بالقصيرة من يفاعته<sup>(٢)</sup>.

وكونه من أبناء الفقهاء، ومن ولدِ الأسر الشاميّة في القطر المصري، فقد اعتصم بأدبٍ خاص وتربية متميزة بعض التمييز — يحمي نفسه من الاندفاع في مسارب الحياة، أو غشيان مجالات أخرى في الاجتماع، مما كان أثره واضحاً في إعدادة، وربما تحكّم في ميوله ونزعاته في

(١) العريان — حياة الرافعي — ٢٦٨

(٢) العريان — هامش — ١٣

وقتٍ مبكر من شبابه. فقد أَلَفَ الصُّورَةَ التي كان يُدِلُّ بها على أقرانه  
بالاخذِ في مضممارِ المَدِينَةِ الحديثة من حيثُ الدراسةُ في المدارسِ  
النظامية الحديثة، فلا يُجاوِرُ في الأحمدي أو الأزهر مَثَلًا. ويألفُ اللباسَ  
الروماني في المدرسة ثم في الوظيفة، ولكنّه يتخفّف بالعباءةِ والجلبابِ  
عند عودته الى داره، وربما خرجَ به الى متجر أخيه سعيد الرافعي<sup>(١)</sup>  
وقد شُهِدَ باللباسِ العربي في رحلاته الى الديار الشامية<sup>(٢)</sup>

غير أنه كان يُتَمُّ نقصَ علوم الدراسة الحديثة من الفقه والعلوم  
الاسلامية بقراءة على أبيه الشيخ<sup>(٣)</sup> ويُحدِّثنا في « قرآن الفجر » عن  
ليلة القدر التي شهدها معه في جَوِّ المسجد — وهو في العاشرة من عمره:  
« لا أنسى أبداً تلك الساعة ونحن في جَوِّ المسجد، والقناديلُ معلقةٌ  
مثل النجوم في مناطها من الفلك، وتلك السُّرُجُ ترتعشُ فيها ارتعاشٌ  
خواطرِ الحبِّ، والناسُ جالسون عليهم وقاراً أرواحهم، ومن حول كلِّ  
إنسانٍ هدوءٌ قلبه.. »

لا أنسى أبداً تلك الساعة — وقد انبعث في جَوِّ المسجد صوتٌ  
غَرْدٌ رخيماً يَشُقُّ سُدُفَةَ اللَّيْلِ في مثل رنينِ الجرس تحت الأفقِ العالي،  
وهو يُرْتَلُّ هذه الآيات من آخر سورة النحل:

﴿ اذْغُ الى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَجَادِلْهُمْ  
بِالتي هِيَ أَحْسَنُ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ  
بِالْمُهْتَدِينَ \* وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ

(١) حدثني بذلك حمزة الحسيني خادمه الخاص

(٢) رواه لي رجل في فندق « المنظر الجميل » في بحدون ببلنات.

(٣) الرافعي — الهلال — يناير ١٩٢٧ م

خير الصّابرين \* واصبر وما صبرك إلا بالله، ولا تحزن عليهم، ولا تك في ضيق مما يمكرون \* إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴿١﴾.

وسمعنا القرآن غصًا طريًا كأول ما نزل به الوحي، فكان هذا الصوت الجميل يدور في النفس كأنه بعض السر الذي يدور في نظام العالم، وكأن القلب — وهو يتلقى الآيات كقلب الشجرة يتناول الماء ويكسوها منه.

أما الطفل الذي كان في يومئذ، فكأنما دعي بكل ذلك ليحمل هذه الرسالة ويؤذيها إلى الرجل الذي فيه من بعد. فأنا في كل حالة أخشع لهذا الصوت: ﴿أدع إلى سبيل ربك﴾، وأنا في كل ضائقة أخشع لهذا الصوت: ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله﴾<sup>(١)</sup>.

كتب هذا في آخر أيامه كأنه يحدث مؤرخه بخاتمته، ويدله على أوليته، ويودع هذه الفانية.. على أنه بينهما كان العربي المسلم الذي يتفاعل مع العصر في أفراحه وأراحه، ويستلهم موحياته ومعانيه، ويصير في مغرباته، فيعشى دور اللهو كالسيما والأسواق الخيرية، ويشهد مباريات المدارس الرياضية، ومعارضها الفنية<sup>(٢)</sup> ويحتفل في بيته بالأيام والمواسم والأعياد التي يحتفي بها أبناء الأمة.

وقد يجتلي العيد بمثل قوله:  
«خَرَجْتُ أَجْتَلِي الْعِيدَ فِي مَظْهَرِهِ الْحَقِيقِيِّ عَلَى هَوْلِ الْأَطْفَالِ

(١) الرسالة ١٨٧، وحي القلم ٣ — ٢٩.

(٢) من حديث الحاجة زينب ابنته.

السُّعْدَاءُ، على هذه الوجوه النَّصْرَةَ التي كَبُرَتْ فيها ابتسامات الرّضَى، فصارت ضحكات، وهذه الأفواه الصغيرة التي تنطق بأصوات لا تزال فيها نبرات الحنان من تقليد لُغَةِ الأم، وهذه الأجسام الغضّة القريية المعهد بالضمات واللّثامات — فلا يزال حولها جو القلب، على هؤلاء الأطفال السعداء الذين لا يعرفون قياماً للزّمن إلاّ بالسرور، هؤلاء المجتمعين في ثيابهم الجديدة المصبّغة اجتماع قوس قزح في ألوانه.. إن لسان حالهم يقول للكبار:

أيها الناس: انطلقوا في الدُّنيا انطلق الأطفال يُوجدون حقيقةً البريّة الضاحكة، لا كما تصنعون إذ تنطلقون انطلق الوَحش، يُوجد حقيقةً المفترسة»<sup>(١)</sup>

أو هو يصفُ تحوّل السيرة والذكر عبادةً في مثل تقريره الذي وفي به المولد النبوي، والاحتفال فيه حين قال:

«لَمَّا لَحِقَ» ﷺ «بِرَبِّهِ كَانَ مَدْحُهُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَكَانَ ذِكْرُهُ فِي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَنَهَجَ الدِّينَ وَالْعِلْمَ مِنْ قَوْلِهِ وَعَمَلِهِ، فَلَمْ يَكُنْ مَعَ ذَلِكَ حَاجَةً لَصِفَةٍ شَاعِرٍ أَوْ مَدَحٍ مُتَكَلِّفٍ.. وَخَرَجَ الْأَمْرُ مِنْ أَنْ يَكُونَ خَيَالاً وَصِنَاعَةً»<sup>(٢)</sup>. وأراد أن يكون ذلك قد صار إلى الفقه وقانون الدين، قال: ثم ظهّر التشييع لآل البيت، وتعصّب لهم طائفة من الشعراء، فكانوا يَرْتُونَهُمْ ويمدحونهم ويندبون، وينحون بشيء من الصفات والأخبار النبوية حتى كانت دولة (الفاطميين)...

(١) الرسالة ١٣١، وحي القلم ٣٠/١

(٢) الحال ١٥ ربيع الأول ١٣٣٧ هـ — ١٩ ديسمبر ١٩١٨ م

على أنّ رأينا في هذا الباب أن الشعراء لم يَتَّبِعُوا للمديح النبوي إلا بعد أن بالغ مظهر الدين صاحب إرْبَل في الاحتفال بالمولد»<sup>(١)</sup>

وكان قُرْبُهُ هذا من سوادِ الأُمَّة قد ضاعف عليه أحاسيسُهُ، وبلغ بمشاعره درجاتٍ قصوى، ظهرت في التأثر الذي جال في أدبه — شعره ونثره، وبدا عليه في صورة من الإيمان بالقضاء والقدر، أشبه ما تكون بفلسفة القناعة والرضا، وتسويغ الأحوال في كثير من الأحيان مع الثورة على الأوضاع والسُّخط من المآل الذي ينتهي إليه بعض الاجتهاد، أو هو يفرط أحياناً في التنبيه للأخطار التي تكمن وراء البؤس وصُورِهِ المحزنة»<sup>(٢)</sup>.

### التفاوت الاجتماعي

ذلك أنّ محضلة العهود من التخلف والاختلاط قد رانت على الشرق العربي بأسوأ وأدواءٍ كان لها تأثيرها البالغ فيما آلت إليه حياة الناس من أوضاعٍ وأمزجة؛ فقد بلغ التفاوت الاجتماعي والطبقي حدّاً كان فيه الأجانب والمرابون من اليهود والروم ويوتات المال الأوربية هم المُتَمَتِّعِينَ بخيرات البلاد، فلا يُصِيبُ الفلاح منها ولا العامل ما يسدُّ دَيْناً أو يفي بنفقات، أو يدفع غوائل الزمن وخائنة المرض،.. أمام الضرائب التي جَلَبَتْها عليهم بعضُ الحماقات المالية التي تورط فيها حاكموهم ولولاهم لأولئك الأذنياء من الأجانب»<sup>(٣)</sup>.

(١) الحال ١٥ ربيع الأول ١٣٣٧ هـ — ١٩ ديسمبر ١٩١٨ م.

(٢) سيرد ذلك في فصل آخر

(٣) محمد صبري — تاريخ مصر الحديث — ١٠٥



إنَّ الرافعي يُسارعُ في تحذير الفلاح بلسانِ زوجه من أن يذكر « الخواجا » أو يرهن على الغيطان والأقطان<sup>(١)</sup> ويعودُ فيقولُ في حكمةٍ تحريم الربا مُنبهاً:

« حكمةٌ تحريم الربا في شريعتنا الاسلامية وقايةُ الأمةِ كلّها في ثروتها وضياعها ومُستغلاتها، وحمايةُ الشعبِ وحكامه من الإسرافِ والتخرفِ والكرمِ الكاذب، وردّ الاستعمار الاقتصادي وشُلّ النفوذ الاجنبي »<sup>(٢)</sup>.

ذلك أن إهمالِ الحكام « الممالك » والموظفين الأجانب لأبناء الأمة، وترك حياتهم ومحصلاتهم للأنواء والآفات، قد أدّى الى ارتباك الأسرة نفسها، فلم تعدْ للانسان فيها تلك الكرامة التي حباها الله بها، فقد بلغتْ معاملةُ المالكين للفلاحين وعمّالهم درجةً لا ترتفع كثيراً على معاملتهم للسّوام من الحيوانات، وكأنّما فقد المرءُ شخصيته، فكان يتزوَّج ويولّد له، وهو لا يرتفع بحياته عن المستوى الذي كان عليه الجيلُ السابق له، فكان يقعُ فريسةً الأوهام بين برائن الدجالين وأيدي المُبشرين وذوي المذاهب الوافدة والميول والنزعات المضطربة.

ومن هنا أراد الرافعي أن يلفتَ نظرَ الانسان الذي كرّمهُ الله الى فضيلةِ الحبّ والشعور بالجمال، ويزيّن له جهاده في الحياة حتى يظفرَ بإنسانيته كاملةً، ويرقى الى مرتبةِ السيّد، فلا يكونُ مستعبداً أبداً<sup>(٣)</sup>.

وفي الوقت الذي كان الشعبُ فيه يُعاني من ويلاتِ الحروب في

(١) ديوان النظرات ٦٩، أغاريد الرافعي — ٨٣

(٢) الرسالة ١٦٤، وحي القلم ٢ — ٢٨١

(٣) حديث القمر — ٦٩

المشرق والمغرب، وتنقلب أنوارها عليه جوعاً وبؤساً وتعاسة، كانت دموع ذلك السواد الأعظم وآهاته تجري معاني في قلم الرافعي الأديب نظيماً ونشيراً، فلا يفتأ يرسل الحديث، ويكتب المقالة الاجتماعية، يحاول أن يستر عري أولئك، ويبدل مرقعة المساكين بما يدبجه من أدب إنساني<sup>(١)</sup> يحسن فيه إليهم، ويمدّهم بطاقة من الإيمان والصبر والمجاهدة؛ تجعل ما بينهم وبين مصائبهم مع الحياة حقيقة إلهية يدركها الضمير المؤمن، ويرتق فتقها بتقوى الله فيما له من حقوقهم. وتضحى تلك الصفحات من الأدب الرفيع فيما بعد كتاباً له خطره في الاجتماع والاقتصاد معاً، وعند مذاهب لإرادة التغيير التي يُعول عليها في النهضة وإعادة بناء المجتمع وتنظيم حياة الناس.

ولم تكن الحال الاجتماعية مقصورة على هذا السواد، بل كان هنالك بؤس من نوع آخر أدى فيه الترف إلى التخنث والرقاعة والسقوط في الآثام — الخمر والسرقعة والزنا — مما كان يؤذي الإنسان ويوجع كل ضمير حي، فيمتشق الرافعي قلمه يندد بتلك التخانيث<sup>(٢)</sup> ويستنكر على الوعاظ والمرشدين مواقفهم التي يغفلون فيها عن هذه الناحية الخطيرة، من الاجتماع بمثل قوله:

« ما ينقضي عجبي من هؤلاء العلماء الذين هم بقايا تتضاءل بجانب الأصل، يبحثون في سنن النبي ﷺ، كيف كان يأكل ويشرب ويلبس ويتحدث، كأنهم من الدنيا في قانون المائدة، وآداب الولائم، ورسوم المجتمعات...! »

(١) محمد لطفي جمعة — الكتاب ج ١ — م ٣  
(٢) أنظر الحال ١٠ يوليو ١٩١٩ م، والهلل مايو ١٩٢٩ م — وانتظر ديوان النظرات.

أما تلك الحقيقة الكبرى — وهي التي كان يُقاتل ويحارب لهداية الخلق، وكيف كان يُسمو على الدنيا وشهواتها، وكيف صار بطباعه القويّة الصريحة تعديلاً فعّالاً في هذه الانسانية للنواميس الجائرة، وكيف كان يحمل الفقر ليكسر به شرّة النواميس الاقتصادية التي تُقضي بجعل الأخلاق أثراً من آثار السعة والضيق، فتخرج من الغني مُتعففاً ومن الفقير لصاً. وكيف استطاع عليه السلام بفقره السامي أن يحول معنى الفقر في نفوس أصحابه بجعله ما استغنى عنه الانسان من شهوات الدنيا وترك ما نال منها وجمع.

أما هذا ونحوه من حقائق النبوة العاملة في تنظيم الحياة، فقد أهملوه، إذ هو لا يوجد في الكتب وشروحيها وحواشيها، ولكن في الحياة وأفعالها وأكدارها، وبذلك أصبح شيوحنّا من الأمة في مواضع لم يضعهم فيها الدين، ولكن وصنعتهم فيها الوظيفة<sup>(١)</sup>.

وهذه هي علّة العلل في ضعف الدعوة، والتواء القصد في المنابر، وانتهاء الإرشاد في الجمعيات التي كلّفت نفسها ما لا تطيق من حمل الرسالة، وفوتت على الأمة فرص الحياة بإلقاء التبعة عن كاهل «الموظفين»!

\* \* \*

## المرأة

وهناك جوانب للاجتماع أخرى، لعل من أبرزها موضوع المرأة؛ الذي كثر فيه الكلام، واصطبغت فيه الآراء ووجهات النظر بألوان من

(١) الرسالة ١٦٣، وحي القلم ٢ — ٢٧٣

المذاهب والأفكار والفلسفات، اختلطت على أصحابها أنفسهم، وقد استغلَّ الموضوعُ في أغراضٍ غير نسويةٍ وغير اجتماعيةٍ وربما التفَّ بقضايا سياسية خطيرة، ودار مع مؤامراتٍ. والثالث بدسائس، وتورطَ في اتجاهاتٍ، وانزلق عند أخطار مصيرية عانت الأمة منها الكثير.

وكان لرفاعة الطهطاوي دعوة في تعليم المرأة، ولقاسم أمين صيحة في تحريرها، وكان لبعضهم نزوة في سفورها، ولآخرين دورة في حقوقها، وقد اختلفت على كلِّ ذلك في تلك الأيام بين سلب وإيجاب، ورضا وسخط.. الخ.

أما الرافعي فإنَّ له موقفَ صِدْقٍ يشهدُ له بالحرصِ والأنفةِ، ويميزُه على المفترقين بسببِ موضوعِ المرأةِ حزنيَّ لعبٍ وتظرفٍ — إن لم نقلْ مُعابثةً، إذ يقولُ فيما ينبغي أن تأخذهُ نساؤنا وما تدعه:

« إنَّ الذي يجبُ أن تحتفظَ به الشرقياتُ ثلاث: الحياءُ الصادقُ، والعفةُ الصحيحةُ، والخضوعُ الجميلُ الذي هو مظهرُ الحبِّ لمن يجبُ له الحبُّ، وهذه الأخلاقُ لا تقومُ إلَّا بثلاثٍ أخرى: تصاؤُنُ المرأةِ من مخالطةِ الرجالِ إلَّا في الضرورةِ الماسةِ، وحرصُها أشدَّ الحرصِ على دينها، والصبرُ أقوى الصبرِ على مكارِهِ البيتِ.

أمَّا ما يحسنُ أن تقتبسَهُ نساؤنا من المرأةِ الغربيةِ فالعلمُ وحدهُ، وما هو من نتائجه كالتيديرِ والحزمِ والبصرِ بأمورِ الحياةِ وحسنِ التصرفِ فيها.

قال: وما كانتَ بالمرأةِ الشرقيةِ حاجةٌ الى هذا من قبلُ، بل إن عليها أن تقتبسَ من تاريخها لا من المرأةِ الغربيةِ.. وكلُّ فضيلةٍ الغربيةِ عندي هي معرفةٌ فنَّ الحياةِ المنزليةِ على أحسنِ أشكالِهِ، وأرقى ما

انتهى إليه من إنشاء المرأة للبيت، ثم إنشاء البيت للأسرة، ثم إنشاء الأسرة للوطن، فكل ما كان بهذا المعنى فلتأخذه نساؤنا علماً أو عملاً ونظاماً — وهو أمر ليس خاصاً بالغربية، بل هو حقيقة الانسانية في هذه الأنوثة إذا ما أُريدَ لها النمط الأعلى من كمالها.

أمّا ما وراء ذلك من التبرّج والسفه والاسراف وفنون اللّهو ونحوه... لست أرى فيه رأياً إلا أن الشرقية يجب أن تبقى خالصة<sup>(١)</sup>.

وهذه نظرة — إن دلّت على شيء، فانما تدلّ على مبلغ الحرص في الموازنة أولاً، ثم في تعليم المرأة وبنائها، وفي مكانتها من الاجتماع مع الحفاظ عليها في صورة العفاف والطهر والصّون، فلا يخدعها بهرج مدنية، ولا تلهيها الحضارة برونق فتزلق بها المزوّقات والمظاهر، فتلتث بأيامها، وتلتف بأحلامها، فتتقلها من زاوية الإهمال في البيت الى صندوق القمامة في الشارع!

ومن عجب أن هذه النظرة الاخلاقية الرفيعة الملتزمة قد جرّته الى مناقشة أغلى حبايبه فيها، حتى وصلت صفحات مجلّتها « منيرفا »<sup>(٢)</sup>

أما ما سوى ذلك من مواقف الآخرين التي عرّض لها فيما بعد، فلعلّ من أشهرها ما ضمنه مقالاته في « الربيطة »<sup>(٣)</sup> « وفلسفة طائشة » — التي ناقش فيها مفارقات قاسم أمين، و « دموع من فلسفة الطائشة »، و « شيطان وشيطانة »، التي أُرّ فيها طه حسين ولطفي السيد

(١) الهلال — ديسمبر/كانون الأول ١٩٢٤ م

(٢) منيرفا — ١٩٢٥، ١٩٢٦

(٣) السحاب الأحمر — ٥٨

وغيرهما<sup>(١)</sup>. فإنَّ له فيها آراءً ومناقشاتٍ ورُدوداً جِدَّ حَفِيَّةً بالموضوع، وسديدةً في القصد، وبارعةً في الالتفاتِ تُؤَلِّفُ مادةً خِصْبَةً لدراسة في الموضوع خاصة<sup>(٢)</sup> حسبنا الإشارةُ إليها هنا، ضَمَّنَ هذ البحثُ في الاجتماع الذي رافقهُ في حياته، مُوجَّهاً وواعظاً موفقاً في أدبٍ طَبَعَهُ بفقهٍ الحياةِ الانسانيةِ نفسها، وجعلَ للشرِعةِ فيه نصيباً أوفى وأوفر، لِيُثَبَّتَ للعصرِ سُمُوَ الإسلامِ في هذا الشأن.

وقد يكفي للتَّنِيلِ على ذلك ما لاحتَقَ فيه « التبرِّج » والسُّفور المُخزي<sup>(٣)</sup> وأولئك الذين جاؤوا لنا من أوربةَ بالرباطِط<sup>(٤)</sup> الغواني، والصورِ الحضاريةِ الساقطة، ولم يَفُوا للأمةِ بأخذٍ في المضمارِ العلمي الذي يتقدم بها، كقوله:

« ألا ليتكم جئتم للبلادِ من أوروبةَ بالمحاريثِ بدلاً من هذه الموارِيثِ، وجئتم بالسَّماذِ، بدلاً من هذي الوساد، وبالبهائمِ للسَّواني، لا بالخلائل والغواني »<sup>(٥)</sup>.

ويلاحظُ عليه أَنَّهُ يَهْدِفُ إلى التحوُّلِ العلمي السَّريعِ في النهضةِ حتَّى في كتاباتِهِ هذه، ويطلبُ التوفيقَ في الزراعةِ — وقد قضى عمرُهُ يتمنى أن تكون له الفرصةُ بالتحوُّلِ إليها<sup>(٦)</sup>.

\* \* \*

(١) أنظر وحي القلم ١ — ١٦١ — ١٩٢

(٢) انتظر لنا « المرأة عند الرافعي ».

(٣) رسائل الرافعي ٧١

(٤) الريطة : امرأة كاليفي تتخذ خلية بأجر، وهي عادة اجتماعية مرذولة التقى فيها نظام المتعة المجوسي — الذي سَمَّى فاطمياً بالزواج العرفي والمدني ببعض الموبقات الأوروبية!

(٥) السحاب الأحمر — ٦٥، راجع المقدسي — فنون الأدب ٢٥٢

(٦) المجلة الجديدة — مايو/أيار ١٩٣١ م

## التقليد

وكان من أثر ازدياد الاتصال بالغرب الغازي أن صار اختلافُ الفرنجة فيه والروم على الديار العربية مألوفاً، وفشا في صفوف بعض أبناء الأمة تقليدُهم في المظاهر والأزياء، وقد انتشرت المقاصف والمراقص وبيوت اللُّهُو غير البريء والقمار — بحماية الاحتلال، ولاكت بعض الألسنة ألفاظهم بِرَقَاعَةٍ<sup>(١)</sup> رأى « أن كثيراً مما يُزَيَّنُونَهُ للشرقي من رذائل المدنية الأوربية إن هو إلا منطقُ شهواتٍ في جُمْلَتِهِ.. وقد تسمَّعُ الجائع يتكلم في الطعام، فتسمَّعُ كلاماً تحته معانٍ ومعانٍ لا يعدّها غير الجائع إلا حماقة ساعيتها<sup>(٢)</sup> »

\* \* \*

ولعلَّ أخطرَ من ذلك كلّ محاولة تنظيم الاجتماع الجديد على طرازٍ من الانطباع بصفة المحتلين من قيام الأندية والجمعيات والمنظمات — وقد تسلّلت إليها بوادرُ الأخذ واستيعاب الأفكار التي عليها القومُ شيئاً فشيئاً، بل حاول بعض الداعين إليها إلحاق بعض عادات وتقاليدها تاريخها في الأمة وفقها للحياة، بتلك الأنظمة المجلوبة فزعم بعضهم « ديمقراطية الاسلام » وسمّى آخرون الاشتراكية العربية والضمان وما إليها، واستساعت كل ما يردُّ من أوربة وإجراءه على هذه المَعْدَلَةِ من التلفيق والتخريج!

## نشاطه الاجتماعي

وقد حرّكت هذه الحال نوازع في وجدان الأمة شرعت تُعدُّ للمقاومة، ولكنها لا تبرحُ خَفِيضَةَ الصوت، محدودة القوة أمام الاندفاع الحضاري

(١) الرسالة ١٨١، وحي القلم ٢ — ٢٩٧

(٢) الرسالة ١٧١، وحي القلم — ٣٠٣

— ومن يحاولونها هم من الفقر العلمي بحيث لا يستطيعون إحداث الأثر الذي تقف عليه الأمة متميزة بوجودها القومي.

والرافعي معاصر يتفاعل مع الأحداث، ولكن لوحظ عليه إخفاقة في أن يكون له ذلك الأثر، عند إرادة التغيير التي تُثبِتُ للأمة أصالتها في الاجتماع الإنساني؛ فهو في مطلع شبابه حاول أن يؤلف جماعة من الشباب تدعو إلى نوع من الإصلاح الديني<sup>(١)</sup> ولا سيما حين رأى «جمعية شمس الاسلام» التي نهض بها الشيخ محمد رشيد رضا الحسيني، تُغذُّ السَّيْرَ، وتدعو إلى تعريب الخلافة<sup>(٢)</sup> ووُشِّحَتْ مجلَّتها (المنار) بالتاج العربي، وشرعت في مقالات قومية تتحدث في موضوع الوحدة العربية<sup>(٣)</sup>.

كتب الرافعي إلى الشيخ محمد رشيد رضا الحسيني في موضوع «جمعية السنة الإسلامية» وقد أرادها قَبَساً وشُعاعاً من شمس الاسلام، ولكنها سرعان ما تفرقت بها الأيام لموقف اتخذته بعضُ شيوخ الجامع الأحمدى بطنطا<sup>(٤)</sup>.

غير أنه كان خطيباً دائماً، ومحاضراً في جمعية (الإحسان) بطنطا، ومن فوق منبرها أرسل الكثير من أفكاره الاجتماعية، وآرائه في الفكر

(١) حياة الرافعي — ٢٦٧

(٢) وقف رفيق العظم أمام الموضوع يستهجنه في رسالة (أرجوة الخلافة العربية) وأبان عن كراهيته مسلماً للرابطة الجنسية والنصرة العنصرية عفا الله عنه.

(٣) المنار — المحرم ١٣١٨ هـ، وما بعده.

(٤) حياة الرافعي — ٢٦٨



والاقتصاد والتَّظْمِ الاجتماعية، ومنها إشارته إلى الاشتراكية العلمية التي تنبأ لها بقلّة التوفيق في حلّ مُعضلة الانسانية في الفقر<sup>(١)</sup>.

وعَضَدَ الرابطة الشرقية أديباً<sup>(٢)</sup>، وأنشَدَ لجمعية الشبان المسلمين ذلك النشيد المُحمّدي الذي ما يبرحُ الأذهانَ في قوته الاعتقادية وموسيقى ألفاظه<sup>(٣)</sup> واستبشر خيراً ببعض نشاط الاخوان المسلمين ولا سيما في حماسَتِهِم للقضية الفلسطينية، وذلك بمقالاتيه ( قصة الأيدي المتوضعة )<sup>(٤)</sup> والأخرى التي أرسلَ بها حديثه في « ساكني الثياب »<sup>(٥)</sup>.

كما رافق ( الرابطة العربية ) في دعوتها إلى اقامة الدولة العربية المتحدة، وكان فيها صديقه أمين سعيد وأبن عمه عبد الغني الرافعي، واجتمع إليه ( الانصار ) من تلامذته ومحبيه.

### تنظيم

وهو بازاءَ هذ النشاط الموزَّع حاول أن يرسم الخطة القومية للإصلاح الاجتماعي، في مثل قوله: « سبيلُ الإصلاح أن ينهض أهلُ الرأي في كلِّ مدينة بين عالم وأديب، ومحام وسريّ، ومن كانَ بسبيل من هؤلاء، فيجعلُ لمدينتهم دارَ نَدوة للاجتماع والبحث والمشورة، وقولُ « نعم » بالحُجة، وقولُ « لا » بالحجة، ثم يُعلنون ذلك في جمهورهم، وينزلون منه منزلة الأستاذ والأب والصديق في تعليمه وهدايته وإرشاده. وتتصلُّ

(١) المقتطف مايو ويونية ١٩١٣ م.

(٢) لاحظ فيها خرافة طه حسين الجديدة ١٨ تشرين ١٩٢٨/٢ م

(٣) أغاريد الرافعي — ٧٢

(٤) الرسالة ١٥٧، وحي القلم ٣ — ٢٤٤

(٥) الرسالة ١٦٢، وحي القلم ٢ — ٢٧٠

هذه الدور في كل قطر بعضها ببعض، وتنتهي بالمجالس، وبذلك يملأ الفراغ الذي نراه خاوياً بين الشعب والحكومة، وبين الكبراء والجمهور؛ وإن أكثر مصائبنا من هذا الفراغ، فهو الذي يضيع فيه ما يضيع، ويختفي ما يختفي<sup>(١)</sup>.

وهو قول مرسل على سجيته العربية، يُمليه تاريخ هذه الأمة من حيث كانت لها أول دار ندوة، وأول واحة، وأول اجتماع يقيم دعائم وجودها، وصيرورتها الممتازة في الأمم.. وإن دل على شيء فانما يدل على مقدار العناية الفكرية والاجتماعية بالأمة، التي جهدَ الرافعي أن يخلصَ بهذه المحصلة فيها بتقرير السبيل الهادف، ودل بذلك على تحرك قومي يسعى للحفاظ على وحدة الأمة من التصدع في الفراغ، أو الانهيار في الفجوات أمام زخوف الأنظمة المجلوبة التي وزعت الأمة في مذاهب واتجاهات تمزقت صفوفها..

\* \* \*

## ب — المؤثرات السياسية

### العثمانية

لم تكن المؤثرات السياسية في أدب الرافعي على مثل الخطورة التي أثرت فيه بها عوامل الاجتماع ومنازغ الفكر ومذاهب النقد والفن، فهو من حيث المبدأ عربي الأرومة، ينتمي إلى أسرة من أشهر بيوتات

---

(١) الرسالة ١٧٣، وحي القلم ٣ — ٣١٥ اليس هذا هو الذي تنهض به الأمة الآن في مجالس الشعب؟ وكذلك يمتد أدب الرافعي في حياة الأمة

العلم في مصر والشام على الإطلاق<sup>(١)</sup> تَتَّصِلُ بِنَسَبِهَا الكريم بِأُمير المؤمنين الإمام العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد ولد في «بَهْتِيم» من قرى القليوبية لأب من ولاية طرابلس الشام، وأمٌ مصرية المولود<sup>(٢)</sup> وهويتهما عثمانية. فإذا كَانَ أَخُوهُ محمود الرافعي وبعضُ أبناء عمومته: أمين الرافعي وعبد الرحمن الرافعي<sup>(٣)</sup> قد بَلَّغُوا في السياسةِ القُطْرِيَّةِ والحزبِ الوطني بمصر، وفي أيام النضال درجة خَلَّدَتْ لهم تاريخاً من المروءاتِ..

وإذا كان أبناءُ عمومته الآخرون كعبد الحميد الرافعي وعبد الغني الرافعي قد أسهموا بالنهضة العربية في الجزيرة والشام<sup>(٤)</sup> فَإِنَّهُ بِإِزَائِهِمْ كان يَرَقُبُ الأحداث، وَقَلَمًا أَبَدِي رَأْيًا فِيهَا.. فَإِنْ أَبْدَاهُ فلا يُصِيبُ إِلَّا جَهْتَهُ العُلْيَا من النظرة الاعتقادية والحُسابان الوارد.

### المصرية

وعلى الرغم من مُضِي القطر المصري في النظام الخاص الذي لَقَفَهُ الوالي مُحَمَّد علي في معاهدة لندن ١٨٤٠ م لِأَبْنَائِهِ من بعده، وتوالي الأيام على خُلَفَائِهِ في تَوْرُطِهِمْ مع الغربِ بالديون والامتيازات<sup>(٥)</sup> التي دَأَبَتْ على إبعادِ مصر عن عاصمةِ الخلافة، ثم خُضُوعِهَا للاحتلال، عَقَبَ انتفاضةِ أحمد عُرابي في الجيش، وَحَتَّى زوالِ صِفَةِ السيادةِ العثمانية

(١) المنار — ٣٠ رجب ١٣٤٦ هـ

(٢) الفتح — ١٨٦ — ١٤ رمضان ١٣٤٨ هـ

(٣) الرسالة ١٧٢، ١٦٢ الجمهور والأخلاق المحاربة؛ فيها صفتا أمين وعبد الرحمن عن محمود الرافعي.

(٤) راجع فصل «الرافعيون في التاريخ» في كتابنا عصر الرافعي.

(٥) محمد صبري — تاريخ مصر الحديث — ١١٩

غداة قيام الحرب العالمية الأولى، فقد لوحظَ على الرافي ما كان يلاحظُ على مُعاصريه من ازدواج الولاء للخليفة — العثماني، والخبديو — المصري، وكانت له قصائدٌ وأماديح في كليهما<sup>(١)</sup>.

ولكنه غضبَ أشدَّ الغضبِ لِعزلِ السلطان عبد الحميد الثاني، وعَدَّ الاتحاديين المنقلبين عليه مُلجدين قد حاربوا الله يوماً<sup>(٢)</sup> فانتقمَ منهم بهزائم مُتكررة لاقوها في (البلقان)!

غير أنه عادَ ينتصر للعثمانيين يومَ همّوا بالدفاع عن طرابلس الغرب<sup>(٣)</sup>.

### القومية

ثم يظهر أن هذه العثمانية تضاعفُ عنده وتنتهي قبل نهاية الحرب، حين همَّ بأن يلتحقَ بالنهضة العربية التي انطلقَ بها العربُ من الحجاز بقيادة الشريف حسين بن علي، فقد أقنعه محبُّ الدين الخطيبُ بها<sup>(٤)</sup> ولكنه عدلَ عن الالتحاقِ نزولاً عند رأي عبد الرحمن الرافي<sup>(٥)</sup> وتنبأ بقوله صادقاً: «سترى أن تركيا لا تحكم على رجلٍ واحدٍ من غير هؤلاء الترك، وأنها ضاقت بحماقاتِ «أنور» وأمثاله»<sup>(٦)</sup>.

(١) ديوانه الأول والثاني — راجع المقدسي — الاتجاهات الأدبية ١٥، ٢١

(٢) أنظر قصيدته في المقطم ١٨ ديسمبر ١٩١١ م

(٣) أنظر قصيدته في الهلال — فبراير ١٩١٢ م

(٤) حدثني بذلك الخطيب نفسه.

(٥) حدثني بذلك المؤرخ الكبير نفسه.

(٦) أنور وطلعة وشوكة ونيازي... أركان الانقلاب الذي مكن للغرب من تمزيق أواصر الدولة الإسلامية

## القطرية

ولكنه سرعان ما بارك الحركة الوطنية التي اندفعت بالجمهور المصري<sup>(١)</sup> عقب انتهاء الحرب، وقيام مؤتمر الصلح بتوزيع أسلاب الدولة الإسلامية على الحلفاء الغزاة. وتمثل بقول الشاعر ابن أبي سلمى: «ومن لم يكرم نفسه لا يكرم...»

واندفع أكثر حين رأى من نشاط أخيه، ومن التزام ابن عمه (أمين الرافعي) بأمانة الوفد الذي مثل قيادة الحركة يومذاك يمدّها بمذكراته ومعلوماته... وراح ينظم للنهضة ويُشيد للحركة يُدلّ الجمهور على الوحدة الوطنية والانتظام بصفوف الأمة.

ولإزاء الأراجيف والسعيايات المُعرضة التي راح بها الخونة يحاولون تمزيق الأمة المجاهدة، افتعل معركة أدبية من حول نشيده الوطني، يفوت فيها على المرجفين سوء نياتهم مع بعض أبناء الأمة الذين هم من غير الأصل (المصري) — الشاميين خاصة<sup>(٢)</sup> وكانت في أيديهم أغلب الصحف ودور النشر وقد خضع بعضها لسلطات الاحتلال<sup>(٣)</sup>.

وأُتبع نشيده (إلى الامام) بآخر يفتدي فيه (مصر) بروحه ما يرح يتردد على الألسنة الى اليوم:

لك يا مصر السلامة / وسلاماً يا بلادي

وراح يكتُب في (الاخبار) مقالاتٍ وكلماتٍ خلواً من التوقيع،

(١) رسائل الرافعي — ٧

(٢) ذكرى أمين الرافعي — ٣٨.

(٣) قد يرد مفصلاً.

(٤) الدسوقي — الأدب الحديث — ١ — ٦٩.

أو مرموزاً لها بالحرف الأول من اسمه ( صادق الرافعي ) كان من بينهما مقالته ( صبيحة الحق )<sup>(١)</sup>.

أما المقالات الأخريات، فقد عاذَ إليها بعد ذلك يهذبها ويُجريها مجرى التاريخ. أحاديث بين يدي حركة الاستقلال التي انتهت بمعاهدة ١٩٣٦ م على لسان « الباشا » الذي خبر السياسة وكان حكيماً فهِماً عظيماً، جعل من تجربته مادةً لإعادة بناء الحياة القومية في الأمة<sup>(٢)</sup>.

ولكنه يومَ افتُرقت الحركة المصرية، وانشقت صفوف الجمهور عن زعماء أحزاب، وأصاب أمينُ الرافعي الأذى، واعتداء « جنود سعد » عليه، كتبَ بالعنوان مقالته المشهورة<sup>(٣)</sup> ينعى فيها على الزعيم سعد زغلول أن يمدَّ نفسه بمثل تلك القوى التي تفرق ولا تجمع، وتمزق ولا تدفع.

\* \* \*

ثم حدث — أثناء ذلك — أن أقدم ( كمال أتاترك ) على إلغاء الخلافة الإسلامية، وراح يواعد ما بين الترك وكل آصرة تجمع بينهم وبين العرب من دين أو حضارة أو تاريخ، فأثار جمهور المسلمين عليه في صحبات استنكار ما تبرح مُعلنة إلى اليوم. وقد كان للرافعي فيها مرثاة باكية، وأنة شاكية، وصبيحة في أسماع الدهر<sup>(٤)</sup>.

ولوحظ عليه من ثم الانكماش في وطنيته المصرية المحدثه، يأمل

(١) سترد في فصل الفنون — الثالث

(٢) انظر أحاديث الباشا في وحي القلم — ج ٢

(٣) سترد في فصل تال.

(٤) أنظر فصل الفنون الآتي.

الاستقلال، ويحاول التغيير في سلوك الأمة، ويادر في الإسهام بتربية الشباب على أساس من مبدأ الحب الذي يُنشئ الأمة السعيدة، ويلد الجيل المستقل بتربيته، ويقول لمن لاحظ عليه هذا الاتجاه<sup>(١)</sup>:

«أما رأيكم من عَدَم الكتابة في الحب والغزل، لما نحن فيه، فإن الحب ناموس لا يمنع شيء، وترك الكتابة فيه لا يمنع وقوعه، والوجه أن يُكتب في إصلاحه، وتطهيره، وتحويله الى المعاني الرحمانية، ليكون وسيلة سُمُو في الحياة».

ويوم توالى انشطار الصف السياسي (الوفد) وذُرُّ قرن الخصومات الحزبية، وقد أضرت بالمصلحتين الوطنية والاقتصادية للبلاد، حتى حانت تلك الالتفاتة الرائعة من «أمين الرافعي» لجمع الجمهور — وقد دعا فيها الاحزاب المتفارقة، والسياسيين جميعاً بعد الذي شجر بينهم.. الى لون ائتلاف وطني يحفظ لمصر كيائها الجديد من التصدع أو التمزق، ويعيد إليها وحدتها الوطنية<sup>(٢)</sup>.

وهنا نَظَر بعض فضلاء الأدباء في ترشيح الرافعي — الذي لم يكن له انتماء سياسي — لمنصب «شاعر الملك» الفخري<sup>(٣)</sup> حرصاً على المظهر القومي في كل مجال أن يزكي ترشيحهم حجة الأدب ونابهة كتاب العرب — على حدّ تعبير البيان. وقد ظفر ذلك الترشيح بقبول محمد نجيب (باشا) ناظر الديوان الملكي<sup>(٤)</sup> على الرغم من معارضة

(١) رسالته الى الأستاذ محب الدين الخطيب في ٦ مارس ١٩٣١ م

(٢) ذكرى أمين الرافعي ٤٤، ومذكراتي لعبد الرحمن الرافعي — ٥٨

(٣) الفتح — ٣٥ في ٨ شعبان ١٣٤٥ هـ

(٤) حياة الرافعي — ١٣٧

أحمد شوقي ومدافعة غيره أن يكون الراجعي — الشامي الأصل شاعر الملك المصري<sup>(١)</sup>.

غير أنه لم يدم فيه طويلاً، فقد انسحب منه بعد وفاة نجيب باشا، واصطدامه بزكي الإبراهيمي<sup>(٢)</sup> الذي اصطنع عبد الله عفيفي إمام الملك، لينظم فيه الشعر<sup>(٣)</sup>.

ومن فوق ذلك المنبر (الملكي) أرسل الراجعي بضعة عشرة قصيدة، جاء في بعضها آراء في السياسة أشبه ما تكون أفكاراً ساذجة أحياناً، وإن أكد فيها على المبدأ والذات:

إن فرقا ما بين أنصار شخص يتولاهم وأنصار مبدأ

### فلسطين

أما موقف الراجعي من فلسطين — القضية والمأساة — فإنه ليُلوح من خلال موقفه القومي، الذي يؤكد فيه على الوحدة العربية — اللغوية<sup>(٤)</sup> والجامعة الإسلامية<sup>(٥)</sup>، وكأنه مغاير لمواقف المصريين غير الواضحة آنذاك، وربما غير المتزنة أحياناً..

ذلك أن مأساة فلسطين كانت تفرعية في القضية القومية الكبرى

(١) رسالته إلى الخطيب في ٣٠ شوال ١٣٤٧ هـ.

(٢) رسالته إلى الخطيب في ١١ يولية/حزيران ١٩٣٠ م.

(٣) العريان — ١٤٠.

(٤) على ما يرى السيد محب الدين الخطيب — حديث خاص.

(٥) هي دعوة السلطان عبد الحميد لتمتين المقاومة القومية للغزو الذي استتصرى في حملته المسعورة آنذاك قنصليةً وسياسياً؛ يمهّد للانقضاض العسكري الذي تم فيما بعد — راجع موفق بني المرجة — صحة الرجل المريض..



للأمة التي كانت تعاني من المؤامرات ومباضع المشروعات<sup>(١)</sup> وإن كان تنبؤ الكتاب والمفكرين سابقاً في الظهور،.. قبل أن يُيدي الزعماء السياسيون أو يعيدوا.

ففي الوقت الذي كانت فيه جرائد العالمين تحدث في موضوع مُهاجرة يهود الى فلسطين<sup>(٢)</sup> وانتشار الحركة المسماة بالصهيونية<sup>(٣)</sup> لوحظ عدم اكتراث عند سُلطات الاحتلال البريطاني، ومن يلوذ بهم من النظائر والوكلاء وذوي التزعات الاقليمية المُتمصّنة<sup>(٤)</sup> بل كانت هناك عناية خاصة بآراء ماكس نوردو — الزعيم الصهيوني — في الفكر والقومية والحياة<sup>(٥)</sup> وتاريخ «أوغست لودريك شلوتسر» وما نقله عن التوراة من دعوى السامية<sup>(٦)</sup>.

ويوم ابتليت الأمة بمغارم الحرب بعد الانقلاب الأثيم في (اسلام بول) وخلع السلطان عبد الحميد والمجاهرة بالطورانية<sup>(٧)</sup>.. وإذ

---

(١) يحاول بعض المتأخرين نسبة محاولة تجديد (الدولة الاسلامية) الى جمال الأفغاني — جواب الآفاق، ويشيرون الى مشروعه في توزيع أقطارها بخديويات!! حتى يضحى الخليفة العربي — المسلم فيها رمزاً — أنظر تاريخ الامام محمد عبده — ٢٩٣ — مثل ملك الانجليز في «الدومينون»، أو (البابا) في روما.

(٢) المقتطف ٤ — ٢٢ نيسان/ابريل ١٨٩٩

(٣) المنار — ٦ — ٢٨ ذي القعدة ١٣١٥ هـ

(٤) مثل لطفي السيد وتجمعه الأقطاعي في حزب الأمة؛ الذي فرّخ الوفد والأحرار اللاتذنين بالدستور.. الخ.

(٥) مثل عباس محمود العقاد — أنظر كتابيه (الفصول) و (المراجعات).

(٦) تدبر ذلك في عناية طه حسين بتلميذه اسرائيل ولفنسون ومجازفاته في « تاريخ اليهود » و « اللغات السامية »!!

(٧) كتابنا الإمام الرافعي، ص ٧٠.

شارك المشاركة العرب الحلفاء في تقويض ( الدولة الاسلامية — العثمانية ).. كان إسفين الانجليز بوعدي بلفور<sup>(١)</sup> قد وضع اللغم المُجزي بتفريق الأمة وشرذمتها في أقطارها!.. كانت « المقطم » تنشر أخبار « الاتحاد الاسرائيلي » واستعراض كشافته في الاسكندرية — طريق الحرية، احتفاءً بانطلاق الوعد<sup>(٢)</sup> وتشاطرها « اللطائف المصورة » عند الذكرى غير مرة<sup>(٣)</sup>.

ويوم بلغ الأمر حدَّ الاصطدام المُسلَّح مع يهود الاحتلال الانجليزي لفلسطين في موقع البراق من المسجد الأقصى عام ١٣٤٩ هـ — ١٩٢٨ م وسقط الشهداء العرب برصاص الانجليز واليهود، كانت بعض الصحف في مصر تؤذّن للصهيونية على صدر صفحاتها، وتظهر « الأهرام » بعنوان كبير في افتتاحية على خمسة أعمدة:

( النهضة الاسرائيلية بارك الله فيها وفيمن أيقظها )<sup>(٤)</sup> !

وكان هناك زعماء ( باشوات ) آخرون يتخذون طريقهم الى مشفى يهود — حداسا — بفلسطين، حيث ممرضاته البارعات في التدليك<sup>(٥)</sup> وكأن الأمر لا يعني أمةً بإناسيها وأقطارها!!

- 
- (١) في ٢ نوفمبر تشرين الثاني ١٩١٧ م. الذي احتوى « نظرة العطف » على يهود!!  
 (٢) المقطم — ١٣ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩١٧ م.  
 (٣) اللطائف المصورة — ٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٨ م  
 (٤) الأهرام — ١٨ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٢٨ م — وكنت رافقت أختاً فلسطينية في رحلة دراسية بين آثار تلك الصحف وعبر الصحافة اليهودية في مصر أدلها عليها وأحسبها أعدت فيها رسالة جامعية.  
 (٥) بما فيهم طه حسين ذي الغظروف كثير الانزلاق!! بيروت المساء — ٢٨ سبتمبر/ايلول ١٩٢٢ م

ولكن الرافي يستيقُ المفكرين والأدباء وأصحاب الاتجاه العربي<sup>(١)</sup>  
فينادي شبابَ العربَ بمثلِ قوله: «ألا إِنَّ المعركة بيننا وبين الاستعمار  
معركة نفسية؛ إن لم يُقتل فيها الهزل قُتلَ فيها الواجب!».

يا شبابَ العرب؛ لم يكن العسيرُ يعسرُ على أسلافكم الأولين؛ غلبوا  
الدنيا لما غلبوا في أنفسهم معنى الفقر، ومعنى الخوف ومعنى المستحيل،  
وقد اخترعهم الايمان اختراعاً نفسياً علامته على كل منهم:  
لا تذلل.

يا شبابَ العرب؛ كانت حكمة العرب التي يعملون عليها: أطلب  
الموت توهب لك الحياة؛ والنفس إذا لم تخش الموت كانت غريزة  
الكفاح أول غرائزها تعمل<sup>(٢)</sup>.

ويخاطب المسلمين في اندلاع الثورة الفلسطينية المقاومة للاحتلال  
الانجليزي والاستيطان الصهيوني<sup>(٣)</sup> بقوله:

أيها المسلمون؛ نهضت فلسطين تحلُ العقدة التي عُقدت لها بين  
السيف والمكر والذهب. عقدة سياسية خبيثة فيها لذلك الشعب الحر  
قتل وتخریب وفقر.

---

(١) في مقدمتهم محمد رشيد رضا ومحب الدين الخطيب، ومحمد علي علوية، والاخوان  
المسلمون آنذاك والأنصار وغيرهم ممن كانوا كالرد الطيعي لممارسات المصرة —  
القوامة القطرية بشكليها — الشعبي الفرعوني المبعوث، والآخر المستغرب! — راجع  
اسحق موسى الحسيني — الاخوان المسلمون — المقدمة وكامل الشريف — المقاومة  
السرية.

(٢) وحي القلم ج ٢ — ٢٦١

(٣) راجع عبد الوهاب الكيالي في — تاريخ فلسطين الحديث.

عقدة الحكم الذي يحكم بثلاثة أساليب؛ الوعد الكذب، والفناء البطيء، ومطامع يهود المتوحشة.

ليست هذه محنة فلسطين، ولكنها محنة الاسلام؛ يريدون أن لا تثبت شخصيته العزیزة الحرة.

كل قرش يُدفع لفلسطين يذهب الى هناك ليجاهد أيضاً.  
أولئك إخواننا المجاهدون؛ ومعنى ذلك أن أحلافنا هي حلفائهم في الجهاد.

يتلوههم باليهود يمرّون فيهم مرور الدنانير بالرّبا الفاحش في أيدي الفقراء!!.

لو صام العالم الاسلامي كلّ يوماً واحداً، وبذل نفقات ذلك اليوم لفلسطين لأغناها.

ولو صام المسلمون يوماً واحداً لفلسطين لقال يهود اليوم ما قاله آباؤهم من قبل ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ﴾<sup>(١)</sup> الى غير ذلك من خطب وأحاديث<sup>(٢)</sup> واستجماع أسباب القوة والدعم والاسناد.. حتى كان فقدّه كبيراً على الناس، صوره الشاعر محمود حسن اسماعيل بقوله في رثائه:

في فلسطين لو عَلِمْتَ جراح ما لها في يد الطغاة الثبام

---

(١) الآية — ٢٢، سورة المائدة وأنظر وحي القلم ج ٣ — ٢٩٩  
(٢) وحي القلم ج ٣ — الأيدي المتوضعة — ٢٧٣، ساكنوا الثياب — ٣٠١، وغيرها من أحاديث في الصحف السيارة.

## الثورة والميثاق

على أن بعض الأحداث السياسية كانت ذات أثر عامل في نفسه، وكثيراً ما كان يشكوها إلى خلصائه وأصفيائه من الأصدقاء، وقد ظهر ذلك الأثر بعد وقوعها بسنين.. ويوم همت مصر أن تلقف نوعاً من الاستقلال عام ١٣٥٥ هـ ١٩٣٦ م، استذكر الراجعي واعتبر بأحداث ثورة ١٩١٩ م وعاد إليها كالذي يستنبط التاريخ قيماً وأعرافاً في صفحات من أيامه، وقلب صفحات له ومقالات سبق فيها الرأي والمحاولة، فأعد لمجلة « الرسالة » التي سلك في تحريرها يومذاك، وجعلها بعنوان (أحاديث الباشا). ووافقت له « كلمات » تصف من أحوال البلاد السياسية، وتبين عن نظرات فاحصة واعتقادية في إرادة التغيير والتماس الروح القومية ما هي جديرة بالدراسة والتحقيق معاً<sup>(١)</sup>.

ذلك أن فيها ما يتصل بالنظام السياسي نفسه، وفيها ما يتعلق بالمبدأ، وفيها ما يشف عن الأساس الاعتقادي الذي يتحرره في الحركة السياسية الناجمة؛ إذ هو للوهلة الأولى يبدو كأنه لا يرضيه الشكل الذي تقوم عليه الجماعات السياسية، وليس لها من التنظيم غير تقليد الغرب في منظماتها، وقد تجر إليها الوقائع والأحداث في مقارفة تأثير الإشفاق أحياناً<sup>(٢)</sup>. وقد لا تستند إلى قواعد شعبية، وما لها من رصيد الأخلاق المجاهدة آلة ولا أداة.. فهو من حيث الأساس يرى أن « هذا الشرق لا يحيا بالسياسة، ولكن بالمقاومة، ما دام الغرب بإزائه »<sup>(٣)</sup>. وحين

(١) هي من جوامع الكلم والأوابد والخطرات الرسالة ٧٦، ٨٤، ٩٤، ١٣٥.

(٢) لاحظ ما سبق

(٣) الرسالة ١٧٠، وحي القلم ٢ - ٣٠٦

أَبْصَرَ الْعَفْنَ فِي « الطِّمَاطِمِ السِّيَاسِي »<sup>(١)</sup> — وَقَدْ نَبَّيَ الشَّرْقِيُّ فِيهِ مَعْنَى الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ: « اَعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا » الَّذِي يَقَرُّ لِلأُمَّةِ أَنَّ الْفَرْدَ يُنْبَغُ الْأَجْيَالُ كُلُّهَا، فَلْيَعْمَلْ لَهَا وَلِنَفْسِهِ كَأَنَّهَا مَوْقُوفَةٌ عَلَيْهِ وَكَأَنَّهُ مُسْتَمِرٌّ فِيهَا..

وَرَأَى الشَّرْقِيُّ آنَذَاكَ « وَقَدْ آثَرَ حَيَاتُهُ عَلَى وَطَنِهِ، وَقَدَّمَ لِدُنْيَاكَ عَلَى وَاجِبِهِ، وَتَعَامَلَ بِالْمَالِ فِي مَوْضِعِ الْمُعَامَلَةِ بِالْأَخْلَاقِ، وَقَعَدَ تَحْتَ حُكْمِهِ — وَهُوَ خَارِجٌ عَلَيْهِ، فَتَرَاهُ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَحْلِفُ بِهِ كَذِبًا عَلَى دِرْهَمٍ، وَيُصَلِّي وَيُفَجِّرُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ »!

وَمَتَى كَانَتْ الْحَالُ النَّفْسِيَّةُ لِلأُمَّةِ هِيَ هَذِهِ الْفَرْدِيَّةُ وَمَصَالِحُهَا وَدَوَائِجُهَا، كَانَ الْكِذْبُ أَظْهَرَ خِلَالِ هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ إِذْ هُوَ انْفِرَادُ الْكَاذِبِ بِخَطِّهِ وَمَصْلَحَتِهِ وَدَاعِيَتِهِ، وَمَتَى صَارَ الْكِذْبُ أَصْلًا يُعْمَلُ عَلَيْهِ، تَقَرَّرَ عِنْدَ النَّاسِ أَنَّ الْكَلَامَ إِنَّمَا يُقَالُ فَقَطْ، وَلَا أَضْرَّ عَلَى الْأُمَّةِ مِنْ هَذِهِ الْعَقِيدَةِ، — وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَفْتَشُ عَنْ حَقِيقَةٍ فِي أَحْوَالِ رِجَالِ السِّيَاسَةِ وَالْأَحْدَاثِ آنَذَاكَ، وَكَيْفَ وَصَلَتْ بِهِمْ « الْمِيكَافِيلِيَّة » إِلَى مَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ.

غَيْرَ أَنَّهُ يَقَرُّ بَعْدَ ذَلِكَ بِدَقَّةٍ وَصَوَابٍ « أَنَّ الْأُمَّةَ لَنْ تَكُونَ فِي مَوْضِعِهَا إِلَّا إِذَا وَضَعْتَ الْكَلِمَةَ فِي مَوْضِعِهَا، وَأَنَّ أَوَّلَ مَا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ الْأَخْلَاقِ فِي أُمَّةٍ كَلِمَةُ الصِّدْقِ فِيهَا، وَالْأُمَّةُ الَّتِي لَا يَحْكُمُهَا الصِّدْقُ لَا تَكُونُ مَعَهَا كُلُّ مَظَاهِرِ الْحُكْمِ إِلَّا كِذْبًا وَهَزْلًا وَمِبَالِغَةً »<sup>(٢)</sup>.

(١) الرسالة ١٦٠، وحى القلم ٢ — ٢٦٣

(٢) السابق

وليس في هذا الرأي نقدٌ ومعارضة سياسية فحسب، وإنما هو تجربةٌ حيةٌ تَضَعُ أساساً متيناً للبناء السياسي والاعتقادي في كلِّ أمة.

ذلك أنه رأى ثوب السياسة المصرية آنذاك « كثير الرقع دائماً بالجديد والخلق، فرقة من المعارضين، وأخرى من المعتنقين، وثالثة من المتخاذلين، ورابعة من المعادين، وخامسة وسادسة وسابعة من الحاسدين والمنافسين والمختلفين لشهوة الخلاف، ورقاع بعد ذلك مما نعلم وما لا نعلم، فإن من العجيب أن هذا الجور الذي لا يتقلب إلا بطيئاً يتقلب أهله بسرعة، وهذه الطبيعة التي لا تختلف لا يكاد أهلها يتفقون »<sup>(١)</sup>.

ورأى الجمهور « من آفاتنا — نحن الشرقيين، أننا نستمرئُ العداوة، وننقاد لأسبابها، وتتطاوع لها تطاوع الصغار بأنفسهم لما في أنفسهم، كأَنَّ المُستبدين الذين كانوا في تاريخنا قد انتقلوا الى طبائعنا، فردوا الفكر على الفكر في مناقشة تجري بيننا لا يكون من وقع الحقيقة للحقيقة، ولكن من رد الاستبداد على الاستبداد، أو من توثب الطغيان على الطغيان، فهو الثلب والطعن والتجريح، وهو الجفوة والخصومة واللدد، وهو المنازعة والعنف والتحامل، وهو بهذه وتلك شرّ وفساد وسقوط.

والجدال بين العقلاء يبعث الفكر فينتهي الى الحق، ولكنه فينا يهيج الخلق، فينتهي الى الشر، ومن ثمَّ كان الدفاع بالمكابرة أصلاً من

(١) الرسالة ١٧٤، ومن هنا ندرك سرَّ المعاملة القاسية التي مارستها سياسة « الوفد » معه، يوم سعت في نقله الى أسبوط، ثم إلى المنصورة... وكان آخرها يوم حاولت أن تجره إليها « كاتباً » بعد خروج العقاد عليها، ولماذا أبى الراجعي الدنانير... وكيف انتقم مكرم عبيد منه بعد موته — الرسالة ٣٧١.

أصول الطبيعة فينا، وكان الاضطهاد حجة على الحجة العاجزة، وكان الإعانت دليلاً للدليل الذي لا ينهض بنفسه»<sup>(١)</sup>.

ويتابع الرافي أحاديثه فيقف على الأدواء قبل أن يصف العلاج، فيناقش الألقاب، وقد رآها شعيذة من الحكومة وتضليلاً وضرباً من التهويل، والمبالغة: « ألا ترى أن الشعب لو استرد سلطته الكاملة، وأن الناس لو أيقنوا أن الألقاب ألفاظ فارغة من الأمر والنهي والوسيلة والشفاعة، لما بقي من يعاب بها، ولكان حاملها أول من يسخر منها! »<sup>(٢)</sup>.

وكان هو نفسه قد تلقى يوماً لقب « بك » غداة نظمه لنشيد « اسلمي يا مصر » فأنف أن يحمله، وناول شارته ابن عم له ( بدر الدين الرافي ) وكتب في ذلك يقول: « أنا قلما رأيت رجلاً يحتاج إلى ألقاب يتعظم بها، إلا وهو لا يستحقها، وقلما رأيت رجلاً يستحقها إلا وهو لا يحتاج إليها.. » وتساءل: فأين موضع هذه الألقاب؟!

ومن مضاعفات السياسة القطرية أن حصل الأجانب على « امتيازات » كانت تمنحهم قوة التشبث في البلاد وإخضاع شعبها، وهذه القوة الظالمة ( الامتيازات ) لو أنها كانت قوة قاهرة نافذة، وأعين بها طفيلي ليقتمح دور الناس آمناً مطمئناً، لاستحي أن يأكل بها؛ إذ تجمع عليه التطفل والمقت معاً.

(١) الرسالة، ١٧٢ وحى القلم ٢ — ٣١٢

(٢) الرسالة، ١٦١ وحى القلم ٢ — ٢٦٨، وقد صدق في نبوءته، فألغيت الألقاب التي هي من بقايا التبعية لعهد المماليك؛ غداة استرد الشعب حريته في ٢٣ يوليو ١٩٥٢.



وهذه الامتيازات إن هي إلا معاملةً بيننا وبين طبيعة الخضوع في الشعب، نعم: إنها مضرّة ومعرّة، وظلمٌ، وقسوةٌ، ولكنها على ذلك طبيعةٌ في الطبيعة، فما دام هذا الشعبُ لئن المأخذ فإن هذا يوجد له من يأخذُهُ<sup>(١)</sup> فإذا أسقطَ الشعبُ هذه الامتيازات من فكره ورؤيه وأعصابه، وثارت فيه كبرياءُ الوطنيّة، فاستنكفَ من الاستخذاء ونفّر من الاختضاع، وأبى إلا أن يُعلنَ كرامته، وصرفَ اهتمامه الى حقوق هذه الكرامة، وأصرَّ أن لا يُعاملَ أجنبيّاً يرى له امتيازاً على وطنه، وقرّرَ ذلك في نفسه ومكّنه في روعه وأجمع عليه لإجماعه على الدين.

إذا جاءت « إذا » هذه بشرطها من الشعب، جاء جوابُ الشرط من الأجانب بنزولهم عن الامتيازات، وانحلت المشكلة.

« لهم الإمتياز بأنهم أجانبٌ عنا، فليكن لنا الإمتياز الآخر بأننا أجانبٌ عنهم في المعاملة مثلاً بمثل »<sup>(٢)</sup>.

وهو يرجع الامتيازات الى الأساس الربوي الذي قامت عليه، ليقول بعد ذلك: « إن حكمةَ تحريمِ الربا في شريعتنا الاسلاميّة وقايةُ الأُمّة كلّها في ثروتها وضياعها ومُستغلاتها وحمايةُ الشعب وملوكه من الإسراف والتخرف والكرم الكاذب، وردُّ الاستعمار الاقتصادي، وشلُّ النفوذ الأجنبي »<sup>(٣)</sup>.

إنه يُرجع كلّ حركةٍ في إرادة الشعب على الحياة بجدارية وكرامة الى أصولها من الدين وحكمة التشريع؛ ليخرجَ بالأمة الى الدعوة بقوة

(١) الرسالة ١٦٤، وحي القلم ٢ — ٢٧٩

(٢) الرسالة ١٦٤، وحي القلم ٢ — ٢٨٧

الامتياز الفقهي، فلا تحدُّها الحدودُ القطريَّة، التي أريدَ لها فيها أن تقتفي أثرَ الحركةِ (الكَمالية) يوماً ما.

ويوم دعا إلى التعصُّبِ بمعناه السياسي عندنا وما يُقابله عند الانجليز وسواهم، انتهى إلى القولِ بما يُعوِّزُنا فيه:

« إنَّ التعصُّبَ في حقيقته هو إعلانُ الأُمَّةِ أنها في طاعة الشريعة الكامنة، وأنَّ لها الروحَ الجادَّةَ لا البليدة، وأنَّ أساسها في السياسة الاحترام الذاتي، وأنَّ أفكارها الاجتماعية حقائقُ ثابتةٌ لا أشكال نظريَّة، وأنَّ مبدأها هو الحق ولا شيء غير الحق، وأنَّ قاعدتها ﴿ لا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾<sup>(١)</sup> فالهدايةُ أولاً وآخراً؛

الهدايةُ في القوَّة، والهدايةُ في السياسة والهداية في الاجتماع<sup>(٢)</sup> فالتعصُّبُ في الاسلام هو للنفع العام وللمجدِّ الصحيح وللهدايةِ الباعثةِ على الكمال، وتعصُّبُ الجيلِ لمثلِ هذا في ماضيه هو في اسمه تعصُّبٌ، غير أنه في معناه إنما هو العَمَلُ لتسليمِ مجدِّ الأُمَّةِ إلى الجيلِ التالي<sup>(٣)</sup>».

إنه يأبى إلا أن يجعلَ للعربية في مُفرداتها غيرَ ما يُرادُ لها في لفظِ الشعوبيين والمُنحرفين من ساسةِ تلك الأيام وكتّابها ومورثيهم في أيامنا هذه، بالإضافة إلى تأكيدِهِ على الحقيقةِ الاعتقاديَّةِ للأُمَّةِ التي عنها تُصدَّرُ السياسةُ في تحركاتها وأحكامها.

(١) سورة المائدة آية ١٠٥

(٢) الرسالة ١٦٥، وحي القلم ٢ — ٢٨٧

(٣) الرسالة ١٦٦، وحي القلم ٢ — ٢٩١

وفي المعجم السياسي يَرى في السياسة الأوروبية « موافقات دميمة  
كالنساء المُشوّهات، ولهم عقولٌ عجيبة في اختراع الألفاظ حتى لتكون  
من الواضوح في عبارة هي بعينها الطريقة « لإخفاء الغموض في عبارة  
أخرى ». وكثيراً ما يأتون بألفاظٍ مُنتفخة تُحسبُ جَزْلةً بادِنةً قد ملأها  
معناها — وهي في السياسة ألفاظٌ حُبالي، تستكمل حملها ثم تلد،  
ولهم من بعض الكلمات السياسية ما يكون اللَّفْظُ لفظاً كاللغة وهو مسمارٌ  
وقوة في وثيقة أو معاهدة<sup>(١)</sup>.

ومن هنا يتبادر للذهن أن الرفاعي كان يُعدُّ أدبه السياسيّ هذا من  
بعدُ مادةٍ ساميةٍ في التربية القوميّة، وليصلح من ثمّ ميثاقاً للعمل السياسي  
لو أخذ به على الوجه الذي ترتفع فيه السياسات والأحزاب والهيآت،  
فلا تُضيعها المعارضة، ولا يقصرُ بها الاختلاف في وجهات النظر،..  
وإنّ دلّ هذا على شيءٍ، فإنما يدلُّ على مدى إدراك لمرامي المعاهدات  
وغاياتها التي تحوّلَت إليها سياسات أوربة مع العرب آنذاك — ومنها  
معاهدة ١٩٣٦ م.

\* \* \*

ومن ناحيةٍ ثانية فانه كان يفتش عن المُعجم الحيّ في الأمة، ذلك  
الذي يتألّف من مليون جندي، لا مليون كلمة!.. إنّه معجم القوة التي  
تعين الأمة على المقاومة والرفض، ليقولَ بعد ذلك مقررّاً الحقيقة الواقعيّة،  
ويوجه السياسيين الوجهة الصحيحة للهدف الأسمى :

« إنّ أوربة لا تحترمُ إلا من يحملها على احترامه، فما أرى للسياسيين  
عملاً أفضل، ولا أقوى، ولا أردُّ بالفائدة من إحياء الحماسة في الشعب،

(١) الرسالة ١٦٩، وحي القلم ٢ — ٢٩٤

ثم حياطتها وحسن توجيهها؛ فهذه الحماسة الدائمة القوية البصيرة هي قوة الرفض لما يجب أن يُرفض، وقوة التأيد لما يجب أن يُقبل، وهي بعد وسيلة جمع الأمر وإحكام الشأن وإقرار العزيمة في الأخلاق وتربية الثقة بالنفس، وبها يكون إذكاء الحس وتعويد إدراك الأعمال العظيمة والتحمس لها والبذل فيها، وما علة العِلل فينا إلا ضَعْفُ الحماسة الشعبِيَّة وسوء تدبيرها»<sup>(١)</sup>.

إنه يُعيَّن مكانَ الخطر في القوة ويُدلِّ السياسيين عليها، ويعودُ يذكُرهم بأنَّ «حماسة الشعب لا تكونُ على أعدائِهِ فقط، بل على معايِهِ أيضاً، وعلى ضَعْفِهِ بخاصَّة، والشعبُ الفاتر في حماسِهِ لو نال حقَّين مَعصُوبَيْنِ لعادَ فَخَسِرَ أحدهما أو كليهما. أما الشعبُ المُتحمِّسُ القويُّ في حماسِهِ فلو غُصِبَ حقَّين ونالَ أحدهما لعادَ فابْتَرَّ الآخرُ»<sup>(٢)</sup>.

### طريق الإصلاح والحكومة الأخلاقية

وهو إذ يقرِّر هذه الحقائق الجليَّة، ويرى النظراتِ الصائبة، ويُنصِرُ برشادِ الأريب، ومن حوله تدورُ السياسة في مواضعها من سَوافي الأحزاب، وأندية الليل، ومجالس النيابة، ورَدَهاتِ القصور، وأروقة الفنادق «في صُورٍ مُثَلَّةٍ جافَّةٍ منقطعة النَّماءِ من أسبابها كالفرع المقطوع من الشجرة!». وإنما يتنصَّرُ الفرعُ ويثمرُ إثمارَهُ إذا قام بشجرته لا بنفسه، وما شجرةُ الفرع السياسي إلاَّ الجمهور السياسي»<sup>(٣)</sup>.

(١) الرسالة ١٧٤، وحي القلم ٢ — ٣١٠

(٢) الرسالة ١٧٤، وحي القلم ٢ — ٣١٢

(٣) الرسالة ١٧٢، وحي القلم ٢ — ٣١٥

وهنا عادَ ليرسِمَ طريق الإصلاح الذي يملأُ الفراغَ المُستحکم، والذي يتّصل بين رجالِ الحكم وأبناءِ الأمة<sup>(١)</sup> وقد مرَّ بنا آنفاً.

إنه يريد لهذا الشعبِ طبيعةً جدّيةً صارمةً ينظرُ من خلالها إلى الحياة، فيستشعرُ ذاته التاريخيةَ المجيدة، فيعملُ في الحياة بقوانينها، وهذا شعورٌ لا تحدُّهُ إلا طبيعةُ الأخلاق الاجتماعية القويّة التي لا تتساهلُ من ضعفٍ، ولا تتسمّحُ من كذبٍ، ولا تترخّص من غفلة. « والحقيقةُ في الحياة كالحقيقة في المنطق إذا لم يصدّق البرهانُ على كلّ حالاتها لم يصدّق على حالةٍ من حالاتها؛ فإذا كنّا ضُعفاءَ كرماء أعزّاء سادة على التاريخ القديم، فنحن ضُعفاء فقط! ».

ثم إنّه ليقرّر هذه الحقائق ويؤكد ما يعوزُ كبارُ الأمة منها، وليفجأ السياسيين أجمعين بدعوتهِ الثورية قائلاً: لن تفلح حكومة سياسية في الشرق ما لم يكن شبابها حكومةً أخلاقيةً، يعُدّها من نفسه ومن الشعب في كلّ حادثةٍ بالأخلاق المحاربة<sup>(٢)</sup>.

هذا الى كلماتٍ وفقراتٍ مثيلات أخريات فيها مادة غنية في هذا الشأن، تدلُّ دلالةً واضحة على مدى تفاعلِ الرافي بالأحداث والمؤثرات السياسية والأنواء والتحوّلات التي كانت في أيامه، وكيف كان ينظر إليها بقلبٍ شهيد، ويدرك أبعادها ومراميها، ويُنَبِّه على أخطارها ويُغري بالأخذِ بزمام المبادرة بالسيطرة عليها ومسلِكُ عِنانِ الوقائع بالعمل الجادّ الدؤوب، ذلك أن « أساس العمل في الاسلام إخضاعُ الحياة للعقيدة،

(١) الرسالة ١٧٢، وحي القلم ٢ - ٣١٥

(٢) الرسالة ١٦٢، وحي القلم ٢ - ٢٧٦

فتجعلها العقيدة أقوى من الحاجة؛ فيكون الفقير مُعَدِّماً وَيَتَعَفَّفُ، ويكون الغني مُوسِراً وَيَتَصَدَّقُ، ويكون الشرُّ طامِعاً وَيُنْسِكُ، ويكون القوي قادراً ويحجم، وكما قال العربُ في تحقيق ناموس الأنفة والحمية وغلبته على الناموس الاقتصادي « تجوع الحرّة ولا تأكل بثديها ».

إنه لا يفتأ يذكر أن لمصر في تحركها السياسي والتفاتها القومية ميداناً يتسع للحقيقة الاعتقادية للامة كلها.

### حكومة الأخلاق

أما الحكومة، فكان يريد لها صحيحة يحكمها الشباب في الشعب « حكومة أخلاقية نافذة على القانون تضبط أخلاق النساء والرجال، أو تردّها أخلاقاً محاربة لا تعرف الا الجهد والكرامة، وصرامة الحق »<sup>(١)</sup>.

ذلك أن المعركة بيننا وبين الاستعمار معركة نفسية — إن لم يُقتل فيها الهزل، قُتل فيها الواجب، وقد كانت حكمة العرب التي يعملون عليها : أطلب الموت تُوهب لك الحياة، والنفس إذا لم تخش الموت كانت غريزة الكفاح أول غرائزها تعمل. والكفاح غريزة تجعل الحياة كلها نصراً، إذ لا تكون الفكرة معها إلا فكرة مقاتلة<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

مما تقدم من شواهد وأمثال مما ورد وما لم يرد، يظهر لنا موقف

(١) الرسالة — السابق

(٢) المضممار — ٢٢ ديسمبر ١٩٢١ م.

الرافعي السياسي وهو يبصر بالأحداث من حواليه، وقد تمثل له القطر بمكانه من الأمة وطبقاتها، والعقيدة بعظمتها، ترسم له الصورة السياسية التي يهتم لها ويُعنى بسببها، ويتحراها في لونٍ من ممارسة السياسة الوطنية والنظرة القوميّة، يسمو على سائر ما كان عليه أدباء تلك الأيام من الاختلاف على الأحزاب والاضطراب مع سياساتها المداورة والمدايرة وغير المستقرة بحال.

إن وطنية الرافعي من النوع السامي، وقوميته من الاعتقاد الرفيع الذي ينظر الى الآفاق العامة، بعيداً عن الانحياز وبعيداً عن الالتواء.

## ج — الحياة الثقافية

عاش الرافعي عصرًا من الحياة الثقافيّة والفكرية ذاتِ الجوانب المتعدّدة، والجَبَهاَتِ المُتَرامية الأطراف والأبعاد، طَبَعَتِ العصرَ بعوامل ومؤثرات؛ جعلت التحوّل فيه مبدأً، والتطوّر بأساليبٍ الأَخِلْ والاستيعاب وسيلةً، ورَمَتِ الى أهدافٍ وغاياتٍ منها القريب الذي يُحاولُ بالأُمَّة النهضة، ومنها البعيد الذي يلحق بِها في الركب الحضاري، والحياة الوليدة.

## التعليم

وقد توقّرت على دراسة نواحٍ منها مُصَنَّفَاتٍ وتآليفُ، حسبنا أن نشير إليها بين المراجع والمصادر، في كلِّ انتقالة نُعْنِي بها في هذا الشأن<sup>(١)</sup>.

---

(١) منها التعليم في مصر، وفي الأدب الحديث، وتطور اللّغة، والعوامل الفعالة في الأدب.. الخ.

كان التعليم ما يزال موزعاً بين المدارس الملحقة بالمساجد ونظمها الأزهرية، ذات الحفظ والمتون، وبين الأخرى التي سلكت على أنظمة المدارس الحديثة، وفيها مدارس التبشير والمذاهب العقائدية، والمدارس الأميرية — الرسمية.

ولما كان الرافي أحد أبناء الفقهاء الموظفين الذين لا يستقر بهم مقام يومذاك، إذ كان النقل في الوظيفة بين المدة مألوفاً، وقد أثر أبوه أن يلحقه بمدرسة «دمهور» الابتدائية، بعدما أخذ نصيبه في الكتاب، وحضر دروساً أخرى عليه<sup>(١)</sup> وظفر بشهادة الابتدائية من مدرسة المنصورة وعمره بضعة عشر عاماً<sup>(٢)</sup>.

وما كاد يرسل بعض نظمته ونثره حتى راح يكشف عما يعوز التعليم آنذاك من الأدب التربوي، فيحاول وضع أمثلة له<sup>(٣)</sup> ولا سيما بعد حرمانه من متابعة التحصيل في المدارس بسبب من مرضه.

### الجامعة

وكان من أشد الناس اغتباطاً بدعوة الزعيم مصطفى كامل لإنشاء الجامعة، وقال فيها إنها «فكرة وطنية أنشئت لها مكانها في الحوادث، فجاءت كما تجيء الحادثة الوطنية قائمة على ما قبلها، ليقوم عليها ما بعدها، وبذلك فيها الأمة، وشمرت لها، وجد بها الجد»<sup>(٤)</sup>.

(١) الهلال — يناير/١٩٥٧ م

(٢) سعيد العريان — ٢٣

(٣) أنظر ديوانه في الأمثلة — الأول والثاني خاصة.

(٤) المعركة بين القديم والجديد — ٦٨



ويومَ كان يكتبُ للجريدةِ في الأدبيّاتِ وما ينبغي أن تكونَ عليه<sup>(١)</sup> بحيثُ ترتفعُ بالأمةِ درجةً فدرجةً، « كما يرتفعُ بالطفلِ الى الكلامِ من أحرفِ الهجاءِ » كان يُمني نفسه بعلمٍ جديدٍ في الجامعةِ، يلقفه فيضيفُ منه الى تحصيله ولكنّه وجدَ أنها « ما استحدثتُ شيئاً في الأدبِ يفتقرُ إليه، وما تحدثُ أساتذتها حديثاً في الأدبِ لا يعرفه<sup>(٢)</sup>. فكُتِبَ مقالته الشهيرةُ ينعي فيها على « الجامعةِ » - إغفالها أمرَ العربيةِ وآدابها، فلا سبيلَ الى عُذرِ القومِ - وقد نصّوا في (دستور) الجامعةِ على نوعين من الآدابِ الأجنبية، الخ..<sup>(٣)</sup>.

ثم اتّبعها بمقالةٍ أخرى تكلم فيها على مذهبِ العرب في آدابهم من الروايةِ والحفظِ والجرحِ والتعديلِ، ومبحثِ التنظيرِ والموازنة، ومبحثِ الصناعاتِ اللفظيّةِ وتحقيقها. الخ<sup>(٤)</sup>.

ولم يكن يُلفتُ النظرَ بذلك فحسبُ، وإنما يصعُ اللبنة الأولى في الأساس القومي للتعليم الجامعي المنيع، حتى لا تأخذ الجامعة بمبدأ تقليدِ الغرب في « أدبيّاته » فتكون كالمدارس الابتدائية والثانوية..

ولذلك راح يسخرُ من الجامعةِ واستاذ الأدب فيها ورئيسها بعد ذلك بسنين، يوم عادَ الموضوعُ في مُلقّي على الشعر الجاهلي، أملاه الدكتور طه حسين على تلامذته فيها بعد ذلك التاريخ<sup>(٥)</sup>.

(١) الجريدة — ديسمبر ١٩٠٧ م

(٢) الريان — ٥٠

(٣) المعركة — ٧١

(٤) المعركة — ٧٥ — ٧٧

(٥) يأتي تفاصيل ذلك في (الرافعي الناقد)

ما يعوز التعليم الحديث  
ولما صار له أولاد يَتَلَقَّوْنَ علومَهم في المدارس الحديثة، ويلجأ  
هو إلى معاونتهم في الدرس والمراجعة<sup>(١)</sup> وينظرُ في أوراقهم الامتحانية  
زادَ حرصاً على ملاحقة بعض الأنظمة والمناهج في هذا الشأن، وله  
في ذلك كلماتٌ وشفاعات في الطلبة والامتحانات، وأسئلة الآداب  
في الجامعة وفي خريجي المدارس الزراعية العليا، كان لها وقعٌ خاص،  
وترتَّبَ عليها عدَّةُ أشياء منها توسيعُ المدارس العالية، ومنها تقرير المدارس  
المُلحقة<sup>(٢)</sup>.

وكان كبيرَ العناية بالتعليم الاسلامي والمعاهد الدينية وفي مقدمتها  
الأزهر الشريف، وانه لفي عام ١٣٥٥ هـ — ١٩٣٦ م والبلادُ يومئذٍ  
تُقبلُ على عهدٍ جديد في الاستقلال السياسي وتسبَّق الحكومة في  
الآداب<sup>(٣)</sup>، فيسارعُ الرافعي لابتداء رأيهِ ضِمْنَ المُسابقة بقوله : « باللغة  
والدين والعادات يَنْحَصِرُ الشعبُ في ذاته السامية بخصائصها ومقوماتها،  
فلا يسهُلُ انتزاعُ منها، ولا انتِسافُ من تاريخه، وإذا أُلجِئَ الى حال  
من القَهَرِ لم يَنْخَلِجْ، ولم يَتَضَعُضَعْ، واستمرَّ يعملُ ما تَعْمَلُهُ الشوكَةُ  
الحادة،.. إن لم تترك لنفسها لم تعطِ من نفسها إلا الوَخَزَ<sup>(٤)</sup> ».

ثم حَمَلَ الأزهرَ واجباتٍ أخصَّ، أن يعمل لاقرار معنى الاسلام  
الصحيح في المسلمين أنفُسِهِمْ؛ ذلك أَنَّهُ وَجَدَ أن الحكومات الاسلامية

(١) رسائله — ١٧٦

(٢) هي في المقطم — ١٩٢١، ١٩٢٢، ١٩٢٤ م

(٣) رسائله ٢١٤، المريان — ١٣١

(٤) الرسالة ١٤٥، وحي القلم ٣ — ٣٧

لما لها من وجودٍ سياسيٍّ، وآخر مدنيٍّ تُعاني من ازدواجهما — فقد بقي الأزهرُ وحدهُ هو الذي يَصْلُحُ لِإِتْمَامِ ذلكِ النقصِ الخطيرِ في تلكِ الحكومات<sup>(١)</sup>. كما أَوْجَبَ على الأزهرِ أن يتناولَ الأُمَّةَ من ناحيةِ قُلُوبِها وأرواحِها، وأن يُعَدَّ تلاميذهُ كما يُعَدُّونَ القوانينَ الدقيقةَ، لا طُلَّاباً يرتزقون بالعلم — ومن ثَمَّ يكونُ واجبُ الأزهرِ أن يطلُبَ الإشرافَ على التعليمِ الاسلاميِّ في المدارس، وأن يدفعَ الحركةَ الدينيةَ بوسائلٍ مختلفة<sup>(٢)</sup>.

أما الرسالةُ الكبرى فهي « بَثِّ الدَّعْوَةِ الاسلاميَّةِ في أوربة وأمريكا واليابانِ بِلُغَاتِ الأوربيين، والأمريكيين واليابانيين، في أَلْسِنَةِ أَزْهَرِيَّةٍ مَصْقُولَةٍ، لها بيانُ الأدبِ ودَقَّةُ العلم، وإحاطةُ الفلسفةِ وإلهامُ الشعر، وبصيرةُ الحكمة، وقُدْرَةُ السياسةِ »<sup>(٣)</sup>. وبذلك يثبت ما يعوز التعليمَ الحديث من الأساسِ الاعتقادي والبناء القومي — وقد راحت وزاراتُ التعليمِ تَمَسِّحُ في صفوفِ الشعبِ وتعلِّمهم فَلَ الخَطِّ به، وهو في ذلك الحال من النقصِ الخطيرِ الذي قد يُضَافُ إليه تخريبُ هذه الكثرةِ الكاثرة من الموظفين فقط، الذين أضْحَى وجودُهُم عِبْئاً ثَقِيلاً على الدولة، يتحمَّلُهُ الشعبُ بنتاجِه!

ذلك أنه يأخذُ الطالبُ فيه زَهْوَ نهارِهِ لسنواتٍ لا يعملُ فيها عملاً يرتزقُ منه، أو يُسَهِّمُ في انتاج، وعليه فلا سبيلَ له غيرِ الوظيفة، فكأنَّ العلمَ وسيلةً ارتزاقٍ رديءٍ محدود!

\* \* \*

(١) الرسالة ١٤٤، وحي القلم ٣ — ٣٩

(٢) الرسالة ١٤٤، وحي القلم ٣ — ٤١

(٣) الرسالة ١٤٤، وحي القلم ٣ — ٤٢

## الصحافة والنشر الحديث

ولما كان العصرُ قد حِفَلَ بالصحافة التي توزعت الأيام والأسابيع والشهور، فكانت آية الحضارة الجديدة، وسجّل التاريخ الحديث، وقد هُرع إليها الرافعي في شبابه، يُناولها رسائله وأشعاره ومقالاته ودراساته، وقد همَّ غَيْرَ مرّة أن يأخذَ سبيله إليها كاتباً (محرراً) ولكن عوامل عديدة كانت تمنعه وتعوّقه عن المُضيّ في ذلك السبيل، وقد زعم أنه سأل الأستاذ الإمام محمد عبده يوماً: كيف يكتبُ العالم؟ وكيف يكتبُ الصحفي؟ وكيف يكتبُ الأديب؟ وما مقاصدُ الحدود بين الثلاثة؟ قال: فنظرَ إليّ رحمه الله نظرته التي تنفذُ الى أعماقِ النفس فتكشفُ جوانبها، وتتصفّحُ جهاتها، وتُقابلُ فيها بينَ معادٍ الأملِ ومقاصده، وقال: «أراك تَمْتَهِدُ لغرض، وإن وراءَ لَفْظِكَ القَلَقُ لمعنى مُطمئناً، ويُخِيلُ إليّ أن لك هوى في مُزاولة الصحافة. قلتُ: هو ذلك يا مولاي، وما بي أن أعلم إلا ما أعملُ وإلا فأينَ أقعُ من أدبك إذن؟»

قال: فاعلم أن الحقائق النفسية مطلقة لا قَيْدَ لها، وأن الحدَّ لا يَثْبُتُ على الحقيقة بتمامها، وهي معنى الكمال، إلا إذا كان للكمال المطلق حدٌ محدود، وإنما تؤتى هذه الحقائق من جهة العُرف، وتنتقصُ في مواصفات الناس، وأنت خيرٌ بأن مجرى العُرف في أمة من الأمم لا يكون إلا بحسب ما في مجموعها العقلي من القوة أو الضعف، فقد اصطَلَحنا في بلادنا على أن من يحفظ كتاباً أو يقرأ درساً أو يقرّر مسألة، يسمّى عالماً.. ثم توسّعنا في ذلك حتى صار من يحمل كتاباً أو درساً في «ملزمة» من كتاب أو مسألة من درس يسمّى عالماً أيضاً. وتواطأنا على أن من يُنشئُ صحيفةً — وإن كتبها غيره<sup>(١)</sup>

(١) تأمل هذه؛ وكيف كاد يكشف عن نفسه مهما بالغ في التجريد والحد!

— وكان هو وصحبه كل قرائها، سَمِيناهُ صحفياً، ثم غَلَوْنَا فِي ذَلِكَ  
حتى صار كل من يقرأ صحيفة يرى من هوانِ الحِرْفَةِ عليه أن يُسَرَّ  
الأشياء عملاً أن يكونَ صاحبَ تلك الصحيفة أو كصاحبها. وتواضعنا  
من قديم على أن من يحفظ قطعة من اللغة — نظيمها ونثرها، سَمِيناهُ  
أديباً — وإن كان يرى الأمم الحية بعينيه وهو نفسه كعصر الموتى،  
لا أثر له في قومه ولا في لغته. ثم بالغنا في ذلك حتى صار كل  
من يحصل على شذرة من ذنك المعدنين النفيسين — وإن كانت  
سِرْقَةً — سَمِيناهُ أديباً أيضاً.

واضطلح غيرنا ممن فهموا أسرار الحياة، ولم يُقدِّسوا الموت تُقدِّسَ  
الزُّهاد، — والأمة إذا أفرطت في واجبات الموت فرطت في أغراض  
الحياة — اضطلحوا على أن من قام به فن من الفنون فهو العالم،  
ومن تعلقت به مصلحة الأمة فهو الصحفي، ومن كان لأمة في مواهب  
قلمه لقب من ألقاب التاريخ فهو الأديب.

ليست الصحافة عندنا بأحوج إلى الحقيقة الصحفية عند غيرنا، منها  
إلى حقيقة العلم، وحقيقة الأدب.. فإن أردت أن تُصحَّحَ معنى العرف،  
وتُصلح خطأ الاصطلاح ورغبت بحق أن تكون أحد الثلاثة، فكن الثلاثة  
جميعاً»<sup>(١)</sup>.

إنَّ ما جاء في هذا الحديث يُشير بوضوح إلى الصُّورة التي كان  
يُرِيدها الرافعي للصحافة، وعلى أساسها كان قد حاول الكتابة فيها،  
أو مراسلتها، أو النشر في بعض مجلاتها وجرائدها.

(١) البيان — شعبان ١٣٢٩ هـ — ٨/١٩١١ م

وقد كان لانتشار الصحف العربيّة، والطباعة، انقلابٌ في الإثمار الفكري في الشرق العربي، تحدّث عنه سائرٌ من تصدّي لتاريخ هذه الظاهرة الحضاريّة في العصور الحديثة<sup>(١)</sup>.

### تأثيره بها وتأثيره فيها

وكان للرافعي مع الصحافة تاريخٌ ونموٌ فكري، وحياةٌ فيها الحلُّ وفيها المُرّ، وفيها الأيام تداوُل من أمامه، وتدور بالآراء والأفكار هنا وهناك. وإن احتفظ من جانبه بذلك الأساس الذي نحله الإمام.

ذلك أنّه ما كاد يرسلُ قلمه في تنظيم أو نشر، حتّى تراءى له أن يبعث به الى الصحف، وكانت أغلبها يومذاك في أيدي الشاميّين<sup>(٢)</sup> وقد نشرّت «المنار»<sup>(٣)</sup> بواكير نظمهِ، وأوائل رسائلهِ وموضوعاتهِ<sup>(٤)</sup> وعقبت على بعضها، كما احتفت به «الجامعة»<sup>(٥)</sup> وبشرت بنبوغهِ الشاعر وتحدّثت عنه<sup>(٦)</sup> وأطلقت عليه لقب «شاعر الشرق» من أجل قصيدته التي قالها في اللّغة العربيّة<sup>(٧)</sup>.

ثم أخذ «المقتطف» بيده؛ يذّله على العلم وميادينه، والموضوعات

(١) منهم الفيكت فيليب دي طرازي، والدكتور ابراهيم عبده، وعبد اللطيف حمزة..

(٢) حياة الرافعي — ٣٢

(٣) للشيخ محمد رشيد علي رضا الحسيني صاحب الإمام محمد عبده.

(٤) أنظر المنار — محرم ١٣١٨ هـ، ربيع الآخر ١٣١٨ هـ.. وغيرها مما ترد الإشارة إليه.

(٥) لفرح أنطون — الأديب المترجم الروائي الكبير.

(٦) سلامة موسى — الهلال/يناير — ١٩٢٤ م

(٧) الجامعة ٧، ٨ — ١٣٢١ هـ — ١٩٠٣ م

التي يَنْظُمُ فيها ويكتبُ ويدرسُ ويجدّدُ ويبتكر<sup>(١)</sup>. فِيرَبِّي أدبَهُ، وَيُقَوِّمُ شعرَهُ، ويحتفي به في الموضوعاتِ الحديثة التي يَبْعَثُ فيها حياةَ الأدبِ وفنونه والعلمَ به. — وإن كان يحذفُ في بعضِ الأحيان — ويختصر ما يَهْتَمُّ الرافعي ويُعْنِي به أن يُبْدِيه للناس، وَيُظْهِرُهُ للقُرَّاءِ بلا إبطاء<sup>(٢)</sup>.

ولعلَّ أروع ما كتبه الرافعي كان يُنْشَرُ في «المقتطف»، وكانت «الهِلال»<sup>(٣)</sup> تنشرُ له أيضاً وتُسْتَكْتَبُهُ وتحفلُ بآرائه، التي ينفرد فيها كموضوعاتِ المرأة والنهضة والتجديد، والشرق والأخلاق.. وما إليها من موضوعات<sup>(٤)</sup> ما تزال «الهِلال» تحسِنُ إثارتها والجدُّ في شُعْبِها، وتُسْتَمْرَجُ فيها آراءُ الكتَّابِ والأدباءِ بوجهاتِ نظرٍ تتوزَّعُ طرائقُ ومذاهب. كما كانت تأخذُ ما يُنْشَرُ في الصحفِ اليومية فتعيدُ نشرَهُ<sup>(٥)</sup>.

وكانت «الثريا» من أوائلِ المجلَّات التي عُنيَتْ بمقالاته النقدية — ولا سيما تلك التي تطَيَّرَ لها شعراءُ العصر من توزيعِهِ لهم في درجات<sup>(٦)</sup>.

وكذلك كانت «سركيس» و«الظاهر» و«المنبر» و«المجلة» وغيرها..

(١) ليعقوب صروف وفارس نمر — نقلت من بيروت الى القاهرة بعد الغزو الانجليزي — أيام توليق.

(٢) رسائله — ١٢٥

(٣) لجرجي زيدان — ثم أميل وشكري زيدان.

(٤) تجمعت لديّ مع غيرها من الرسائل في جزء خاص أعدّه من «وحي القلم» باذن الله.

(٥) منها قصيدة الشرق المريض، والسيف العثماني نشرتهما المقطم وأعادت الهلال نشرهما.

(٦) الثريا — يناير ١٩٠٥.

كما كان احتفاء الصحف اليومية به عظيماً؛ فتحت « المؤيد »<sup>(١)</sup> صدر صفحاتها الأولى لمقدمات دواوينه، واستبشرت « اللواء »<sup>(٢)</sup> ومكنته « الجريدة »<sup>(٣)</sup> من الصفحة الأدبية، وكذلك كانت « الأهرام » و « الشعب » و « العلم » و « الأخبار » و « الصاعقة » وغيرها.

ذلك كان شأنه مع الصحف في مصر، وكانت الصحف العربية في بقية الأقطار تنقل ما يكتبه فيها، وتعودُ فنشره على صفحاتها في احتفاء وإجلال<sup>(٤)</sup>.. وإن لم تكن تستأذنه في أغلب الأحيان، ولا تمدّه بشيء.

وكان هو لا يتخلل من ناحيته على واحدة منها، لا تعرفه عنها سياستها ولا مذهبها، ولا يهتم من أي بحر اغترفت، وفيها صحف كان للسياسة فيها النصيب الأوفر — وقد توزعت مع مناطق النفوذ فيها؛ منها ما كان للمحتل يد عليها، ومنها ما كان للأحزاب، وقَلما استقلت صحيفة بالفكرة العربية أو العقيدة الإسلامية<sup>(٥)</sup>، فكان حاله معها كحال ذلك الرجل الصالح الذي يطوف بحارة اليهود يوم السبت يذكرُ الله ويصلي على النبي محمد الكريم ﷺ.

### مساهمة وابتعاد

وقد تهيأ يوماً ليصبح كاتباً (محرراً) في « الجريدة » في أيامها الأولى؛ ذكر ذلك في قوله : « فكّرتُ في — العمل الصحافي —

(١) لعلّي يوسف — وكانت صحيفة العالم العربي.

(٢) للزعيم مصطفى كامل.

(٣) للطفي السيد — صاحب (المصرية) القطرية.

(٤) ربما وردت الإشارة إليها

(٥) وقد يعجب المرء حينما ترد اشارته على أبي رية بقراءة الجريدة ذات الميول الانفصالية

والصاعقة — وهي عثمانية — حميدة، والمقتطف العلمية، والبيان العربية القومية — الرسائل — ٣٧.



مرة، أو أيام الطلب وعَصَمَنِي اللهُ وله الحمدُ والمِنَّةُ، إذ رَدَّنِي والذي رحمه اللهُ على رأيي، ونَقَضَ عَزِيمَتِي، فكما أوجَدَنِي حمي وجودي،.. ثم عَرَضْتُ مرَّةً أُخْرَى عندما أُنشِئَتْ « الجريدة » فأرادوني (محرراً) فيها، وأدركتني رحمةُ اللهِ بوالدي أيضاً<sup>(١)</sup>، وفي تلك المحاولة نَشَر بعضُ فصولٍ في الأدب والنقدِ أبرزتُ فَنَّهُ، وعَرَفْتُ به، وأوضَحْتُ مذهبهُ الأدبي، وأعلَنتُ قَلَمَهُ للنَّاس — وهي التي تردُّ الإشارة إليها في غير هذا الفصل بصورة أوضح وأشمل<sup>(٢)</sup>.

وقال أيضاً : « في ابتداءِ أمري كنتُ نَزَعْتُ الى العملِ في الصحافة، وأنا يومئذٍ مُتَعَلِّم رِيض ومتأدِّبٌ ناشئٌ، ولكن أبي رحمه اللهُ رَدَّنِي عن ذلك، ووجهني في سبيلي هذه والحمد لله، فلو أني نشأت صحفياً لَكُنْتُ اليومَ كبعضِ الحروفِ المكسورةِ في الطبعِ! »<sup>(٣)</sup>.

### البيان

ولكنَّه حين رأى عزيمةَ صَفِيَّهِ عبد الرحمن البرقوقي على إصدار (البيان) — وهو في حالٍ لا يَسْمَحُ له بإدارتها بَلَّةً تحريرها وإعدادها، آثر الرافي أن يأخذَ على عاتقه هذه المهمةَ على الأساس الذي تقدَّم، والخِطَّةَ العربيَّةَ القوميَّةَ التي رَسَمَهَا في افتتاحيةِ الجزء الأول — وما تَزَالُ تُنْسَبُ خطأً الى البرقوقي.

وفي هذه المعجزةِ تخرَّج العديدون من الأدباء والكتَّاب ولا سيما

(١) المجلة الجديدة — مايو ١٩٣١ م

(٢) انتظر الرافي الناقد الأدب.

(٣) الرسالة ١٨٩، وحي القلم ٣ — ١٨٤.

دعاةً ما سمّي بالمدرسة الحديثة في الشعر؛ عبد الرحمن شكر، وعباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازني.

قال الشيخ محمود أبو ريّة: إنّ الرافعي كان يقرأ كلّ ما يُدفع « للبيان » من مقالات وقصائد وأحاديث ومترجمات، ويُجري فيها قلمه (الأحمر) تصحيحاً وتوجيهاً في السنوات الأربعة الأولى، حتى نزل بالبرقوقي ما نزل، فأضرب الرافعي مادياً، وقد أشار عليه بالتوقف عن إصدارها حتى تصلح أحواله، فأبى،.. عندئذ تركه الرافعي يتخبّط حتى ماتت بين يديه<sup>(١)</sup>.

وربما كان من أعجب ما في أمره أنّه لم ينقطع عن مناولة الصحف الأخرى — كالمقتطف والهلل بخاصة، وتلك الصحف التي تتعرض له بالسؤال أو النقد أو التقريظ.

\* \* \*

وكان زين الشباب أمين الرافعي ذا باع في الصحافة ومكانة كبيرة، وقد أخرج أكثر من صحيفة، منها ما كان متصلاً بالحزب الوطني كاللواء والعلم والشعب، ومنها ما ينفرد به « كالأنبار » ذات الانتشار الواسع والنظرة السياسية المستقلة الحرة. لم يُشارك صادق الرافعي فيها إلا بمقدار ضئيل<sup>(٢)</sup> عاد إليه فيما بعد ليجعل منه « أحاديث الباشا » التي نشرها في « الرسالة » وقد مرّت الإشارة إليها، وقصارى ما كان

(١) حدثني بذلك في صيف ١٩٦٦، وكان يحتفظ بأوراق فيها أصول مقالات له وللآخرين — وقد أجرى قلمه فيها.

(٢) حدثني بذلك عبد الرحمن الرافعي عام ١٩٦٤ م.

يُسَاعِفُ به أن يُعَلِّي على بعض المحرّرين فيها آراء وأفكاراً، في بعض شؤون الحياة السياسيّة والاجتماعيّة والأدبيّة وغيرها.

وقد يُصِيبُ المرءُ بعضَ أسلوبِ الرافعي في محرري «الأخبار» خاصةً مثل: عبد الحميد سالم، وأحمد خير سعيد وغيرهما، وما كان يُملِّيه على يوسف حنا في «الضياء» والرسالة واسعد حسني (حنا) في (الإشاعة) وفي (الأسبوع) وغيرها<sup>(١)</sup>.

وكان هؤلاء يأخذون عنه الرأي والفكر بحروفه أحياناً، ولا سيما في تلك الموضوعات التي تَعَلَّقُ بالمفهومات القوميّة — الفكريّة والتاريخيّة والمذاهب الأدبيّة والنقدية التي راجت فيها الآراء المُضطربة يومذاك. وكان للرافعي فيها رأيٌ معلوم ووجهة نظر ظاهرة.

وعلى ذلك لم يكن الرافعي بعيداً عن الصحافة — وإن كانت عنده مَفْسَدَةٌ لِلنَّبُوغ، مَقْتَلَةٌ لِلْمَوَاهِب، ومن أشقّ الأعمال على النفوس الكريمة<sup>(٢)</sup> ولكنّ الذي كان يُؤْذِيهِ في الصحافة أنها لم تكن في أيدي أمينة، وكثيراً ما كانت تحجب ردوده وبعض تعقيباته لأنها تقع في أيدي خصومِهِ<sup>(٣)</sup> وكذلك ساء رأيه فيها، حتّى لم يُسمّها صحفاً، وإنما هي حوانيت<sup>(٤)</sup> وقد عدّ الكتاب فيها (صعاليك) وآهم — وقد

(١) راجع ما كتبه الأول في الأخبار ٢٠ شعبان ١٣٤٦ هـ، ١٢ فبراير ١٩٢٨ م و١٦، ٢٠ منه مثلاً، وما كتبه الثاني في الأخبار ٦ منه و١٨ نيسان/أبريل ١٩٢٨ م وانظر الضياء ٣ يناير ١٩٣١ م و٣ فبراير للآخر، والرسالة ٤٣، والأسبوع ٣٨ — وراجع المريان ٢٦١.

(٢) المجلة الجديدة — مايو ١٩٣١ م.

(٣) رسائل الرافعي — ١١٧

(٤) رسائل الرافعي — ٢٥٢

انتهوا في الأدب إلى نهايةٍ عجيبة، فأصبح كلُّ من يكتُب يُنشرُ له، وكلُّ من ينشر له يعدُّ نفسه أديباً، وكلُّ من عدَّ نفسه أديباً جازَ له أن يكونَ صاحبَ مذهب، وأن يقول في مذهبه ويرُدُّ على مذاهب غيره<sup>(١)</sup>.

وقد عرض يوماً على الأستاذ أحمد تيمور (باشا) أن يختتمَ أعماله الجليلة بالسُّعي في إنشاء جريدة إسلامية كبرى؛ يجمعُ فيها الأقلام الإسلامية من أقطار الأرض، وتكون سياستها إسلامية محضة، لتتساقط بجانبها كلُّ صُحُفٍ التدجيل الموجودة آنذاك<sup>(٢)</sup>، لأنه يُنشدُ وحدة الأمة في كلِّ جانب من جوانب الحياة، ويريد التفافها حول عقيدتها القرآنية — وإن لم يتهياً انفاذ ذلك!

### حقيقة في المساهمة

هناك حقيقة كبرى هي أن معظم الأفكار السياسية والنظرات الثقافية، والمذاهب الأدبية، والفلسفات المحدثّة في الفن والاجتماع، كانت تُتخذُ سبيلها إلى الصحف، أو تُتسرَّبُ المعلومات عن تصانيفها إليها، فتدورُ المناقشات على صفحاتها، ويحتدمُ الجدلُّ، وتثورُ المعارك، وتُثيرُ الأفكار في ذلك كله، بل لعلُّ الرافعي كان من أوفر الناس حظاً في هذا المضمار على الرُّغم مما حُجبَ من أدبه، وبعض اندفاعه في الإجهاز على خصومه. وإنّا لموردون هنا إشاراتٍ إلى بعض هاتيك المساجلات التي برَزَ فيها الرافعي على الرُّغم من كلِّ المعوقات التي

(١) الرسالة ١٩٣، وحي القلم ٣ — ٣٠٦

(٢) الرسائل ٢٥٢ —

كانت تَقِفُ في سبيله، ممثلاً الفكر العربيّ المؤمن أمام التحديات العُزويّة، وتواثب الانبعاث القطري، وتنطع الشعويّة والمذاهب والأفكار التي تُلجِدُ للأُمَّة ودينها الحنيف، وكان للصُّحف شَرَفُ الميدان في هاتيك جميعاً.

وقد يكون الرافي من أبرع الكتاب إثارةً للمناقشات في الموضوعات التي يتصدى فيها للمخاطرة برأي، أو في الحكم على بعض الحيشات؛ فيثير عاصفةً من الآراء تشتجر فيها الأقلام، ردحاً من الزمن، ومن أُوليات تلك المثار ما كان قد كتبه حول الشعر العربي، والشاعر، حتى يُلَفَّتَ الناس الى ما يقوله الشاعرون<sup>(١)</sup>.

ثم تلك المقالة النقدية في طبقات شعراء العصر<sup>(٢)</sup> التي دارت بالشعراء والكتاب أكثر من عام، وقد تنقلت في الصحافة الشهرية والأسبوعية واليومية<sup>(٣)</sup> ما يزال مكانها في تاريخ النقد الأدبي الحديث كأنما يؤرخُ لبداية نقد الرافي، بل نقد العصر كله. وقد أشار إليها الرافي نفسه فيما كتبه «كلمات عن حافظ»<sup>(٤)</sup> وقد شَفَّ فيها عن مقدار النقد ومُستواه يومذاك، وكشَفَ عن أذواق الكتاب والشعراء، وأدبهم في المناظرة، ورصيدهم في الثقافة النقدية آنذاك<sup>(٥)</sup>.

وقد أرسل على صفحات «الجريدة» و«مجلة الزهور» مقالاته التي أراد بها تنبيه الشيخ طه حسين وغيره الى ناحية في المجازفات

(١) المنار — ربيع الآخر ١٣١٨ هـ، والثريا ٦ — ١٩٠٤ م وسركيس ٧ — ١٩٠٥ م.

(٢) الثريا — يناير — ١٩٠٥ م

(٣) راجع الثريا، والجامعة والظاهر وسركيس والمنبر لذلك العام والذي يليه، وتأمل ردود الكتاب والشعراء وتطبيقاتهم هم للشعراء.. ولكل من أنور الجندي ومحمد أبي الأنوار مؤلف فيها.

(٤) وحى القلم ٣ — ٢١٣

(٥) فات الدكتور محمد أبا الأنوار أن يلم بها في رسالته بالمعارك.

الأدبية التي يتسرّعون فيها الى الجَهْر بالرأي، والتّضييق في الأخذ، والحدّ من الحرية في تناول الموضوعات<sup>(١)</sup> ورَدُّ أكاذيبِ ناقديه.

ويوم أخذ لطفي السيّد بمذهبِ الشعوبيين من الأعاجم المُستعربين أمثال وليم موير وقاسم أمين ووليم ولكوكس — المهندس المبشر البريطاني<sup>(٢)</sup> في تمصير اللّغة العربيّة، واستدارَ يُلفِتُ النظر الى موضوعاتِ التّأليف في اللّغة العربيّة — وكيف دَخَلَتْ بعضُ الأسماءِ الأعجميّة دخولاً تاماً، واستُعْمِلَتْ استعمالاً شائعاً، بحيثُ لا نستطيعُ أن نَضَعَ لها أو لغيرها من المُسمّيات الجديدة أسماءَ عربيّة<sup>(٣)</sup> وقال : ننصح لزملائنا الكتاب أن يتساهلوا في قبولِ الأسماءِ الأوربيّة، ويدخلوها في الاستعمال الكتابي، كما أدخلها الجمهورُ في المخاطبة.

ومضى كذلك يُهاجم فكرة تأليف المجمع اللغوي<sup>(٤)</sup> : « نقولُ إن كلَّ عملٍ لا تقتضيه حاجةُ الأمة اقتضاءً تاماً، إنما هو عملٌ صناعيٌّ عقيم النتيجة ». وقال برأي، يَحْتَالُ حَصَافَةٌ وَيَبْرَعُ في التمثيل:

« إن الخروجَ باللّغة من جمودها إلى طَوْرٍ جديد لا بُدَّ فيه من التَّهَضُّبِ الموصولة الى الطورِ الرّاقِي، المتَّفِق مع طِمَاح الأُمَّة من التّقدّم في كلِّ شيء الى الأمام<sup>(٥)</sup>. نريد أن لا نَذَرُ لُغَةَ الشعب (العامية) تموتُ بإبعاد عربيّها وفصيحها عن عالم الكتابة والعلم، وأن لا نَذَرُ لُغَةَ القرآن

(١) أنظر الرافعي الناقد

(٢) الجريدة لعام ١٩١١، ١٢، ١٣

(٣) أنور الجندي — المعارك الأدبية ٧٣

(٤) ثم أضحي هو أول رئيس للجمع! فتأمل.

(٥) الجريدة ٢٠ نيسان/ابريل ١٩١٢

محبوبة بين دقات الكُتُب لا يَنْزِلُ منها الى الاستعمال اليومي ما يَحْفَظُ بقاءها ويُدِيمُ جدتها»<sup>(١)</sup>.

وراح يدافع أكثر بقوله « إن الذين يَطْعَنُونَ على رأينا لا يأخذونه مجموعاً مُتَّصِلَ الأجزاء، ولكنهم يأخذونَ بعضه، ويعرضونَ عن بعض، فتصبحُ صورتُهُ ناقصة»<sup>(٢)</sup>.

وقال : « يحسنُ بنا أن نُصالح بين ذَوَقِ العامة وقوة الرأي العام، وبين اللُّغة الفصحى، وأقربُ الطرق الى هذا الصلح أن نندرِّع الى إحياءِ العربيَّةِ باستعمالِ اللُّغة العاميَّة. ومتى استعملناها في الكتابة اضطررنا الى أن نُخَلِّصَها من الضَّعْفِ، وجَعَلْنَا العامة يتابعون الكتاب في كتاباتهم،.. الخ»<sup>(٣)</sup>.

لقد تصدَّى الرافي للطفى السيّد من قبل أن يبدى آراءه هاتيك منشورة على الجمهور، ومن بعد ما جازَفَ بإلقائها على الناس في صدرِ صحيفته (الجريدة) بمقالين شهيرين لهما مكانهما من تاريخ النقد اللغوي الحديث، أشارَ إليهما سائر الدارسين، فقال في الأول :

« لو اعترضتَ كُلُّ من يُهَجِّنُ العربية ويُزري على سبكها، لرأيتُ أَجْهَلَ الناس بتركيبها، وحكمة اشتقاقها، ووجوه تصريفها، ثم لرأيتَ له غِرَّةً في تاريخ قومه، فهو إن عرفَ منه شيئاً فقد تجرَّدَ من ثمرَةِ المعرفة كأنه يحفظُ طلاسمَ لا يتخبَّطُ فيها حتى يتخبَّطه الشيطانُ من المسّ. ثم ترى الآفة الكبرى أنَّه مستدرِّجٌ من حيث لا يعلم، فهو

(١) الجريدة ٢٧ نيسان/ابريل ١٩١٢

(٢) الجريدة ٣٠ نيسان/ابريل ١٩١٢

(٣) الجريدة ١ مايو/أيار ١٩١٢ م

يُكَافئُ مُحِبَّةَ لُغَةٍ أجنبيةً أَحَكَمَهَا بعداوةً لُغَتِهِ التي جَهِلَهَا، ويُجزِي منفعةً تاريخَ عِلْمِهِ لمضرّةِ التاريخِ الذي لا يَعْلَمُهُ، والناسُ أعداءُ ما يجهلون.

إنَّهُمْ يقولون إننا نريد أن نُلَاقِهم بين حاجةِ الأمة من الكلام وبين الكلام الذي تَبْلُغُ به هذه الحاجة، ونريدُ الإصلاحَ ما استطعنا، فليس تاريخنا وعاداتنا ديباجاً من الكلام بطراز وغير طراز، ولا نتركُ أُمَمَنَا على سَومٍ بينَ العربية واللغات الأجنبية..

ونحن نقول : إنَّ هذا الأمرَ ليس له مَثَرُكٌ ولا عَنهُ مَحِيصٌ، ولكن أينَ ما يَنْزِعُونَ إِلَيْهِ مِمَّا يَنْزِعُونَ بِهِ، وهم إنما خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا، وإنما يُؤْتُونَ من حسابِ العربيةِ الفصحى لغةً أثريةً لا تُمَادُّ الزمنَ، ولا تُشايِعُ رُوحَ التاريخِ، ثم يُفَضُّون من هذا الوهم الى تلك المخرقة؛ لأنهم لم يُمارسوا هذه اللُغة، وإنما علموها عن عَرَضٍ، وهذا ولا جَرَمَ ضربٌ من الجهل.. ولو أَنَّهُمْ فقهوا سِرَّ العربيةِ، ووقفوا على طُرُقِ تركيبها، وجاذبوا من أَرْزَمَتِها، وصَرَّفوا من أَعَنَّتِها واكتنوها محاسنَها، لَعَرَفُوا كَيْفَ يَكْشِفُونَ لَفْظَ الإصلاحِ من معنى غيرِ فاسدٍ كما ذهبوا إِلَيْهِ، ولتَقَلَّدُوا البليَّةَ من حيثُ يدفعونها لا من حيثُ تدفعُهُمْ.. ولكنهم يصفونَ الْفَوْضَى وهم صِفَاتُها، وَيُطَبِّونَ لِلأُمَّةِ وهم آفَاتُها.. وما عليهم إذا تَبَيَّنُوا أَن يُصِيبُوا قَوْمًا بجهالةٍ..»<sup>(١)</sup>.

وأشارَ في المقالةِ الى أنَّ «القرآنَ جنسيةً لُغويةً تَجْمَعُ أطرافَ النَّسْبَةِ إلى العربيةِ فلا يزالُ أَهْلُهُ مُستَعْرِبِينَ بِهِ، مُتَمَيِّزِينَ بهذهِ الجنسيةِ حقيقةً أو حكماً؛..» الى آخر المعاني القوميةِ التي أدارها والتي سَتَرَدَّ في فصلٍ

(١) البيان ٨ ربيع الآخر ١٣٣٠ هـ — المعركة ٤٢



آخر. وكأئنا استفزّ لُطفي السيّد بذلك المذهب القرآني فكتب بضيق صَدْرٍ يقول :

« لقد علمنا أنّه يوجه إلينا اعتراضان، أحدهما : أن الاعتراف بما أدخلته الأمة من الألفاظ الأعجميّة قد يكون له شبه تمصير للغة، فتعطلُ بذلك عوامل الجامعة الاسلاميّة، والثاني أن تُصبح الألفاظ العاميّة المصريّة واستعمالها في الكتابة معطّلاً للغة العربية الفصحى،

إننا لسنا من أنصار هذه الجامعة المُتخيّلة، بوصف كونها دينية، لاقتناعنا بأن أساس الأعمال السياسيّة هو الوطنيّة وروابط المنفعة»<sup>(١)</sup> وبذلك كشفَ لُطفي السيّد عن حقيقة ما يهدفُ إليه من دعوتِهِ تلك.

وهنا كتب الرافعي في تمصير اللّغة يقول : « نريدُ بهذا التمصير ما ذهبتُ إليه أوهام قومٍ فضلاء يرونَ أن تكونَ هذه اللّغة التي استُحفظوا عليها مصريّة بعدما كانت مُصريّة، وأن تطردَ لهم مع النّيل بعددِ التّرع وعدادِ القرى، حتّى تُرسلَ الكلمة من الكلام فلا يجهلُها في مصر جاهل، إذ تتهاذنُ يومئذِ العدوّتان؛ العاميّة والفصحى، وتُصلحان ما بينهما أن لا ترفع إحداها في وجه الأخرى قلماً ولا لساناً، وأن تبيحَ كلتاها للثانية حُرّيّة الانتفاع بما يُشبه حُرّيّة التجارة!.

ولئنا تلك آراء كانَ يتعلّقُ عليها بعضُ فُتياننا إفراطاً في الحرّيّة، ومبالغة في الحفيظة لمصر، وأملاً مما يكبرُ في صدورهم،.. حتّى تتأولها مديرُ (الجريدة) فحذّرها وسوّاها، وأخرجَ منها طائفةً من الرأى تصلحُ أن تسمّى عندَ المعارضة رأياً، فقالَ بالإصلاح بين العاميّة والفصحى

---

(١) الجريدة ٤ مايو ١٩١٢ م

على طريقة تجعل هذه تغتَمِرُ تلك وتُحِيلُها إليها، فعسى أن يأتي يوم لا تكون فيه العامية شيئاً مذكوراً<sup>(١)</sup>.

وقال : نحن لا نُمَارِي في وجوبِ الاصلاح اللغوي، ووجوب أن يكون للغة في هذه النهضة « مجمَعٌ » يحوطُها ويصنَعُ لها، ولا نقول إن هذه العربية كاملة في مفرداتها، ولا إنه ليس لنا أن نتصرّف فيها تصرّف أهلها،..

ثم دار مع تلك الآراء دورته المعروفة في ردّ الرأي وتخطئة مذهبه، وأبان ثمة عن فساد القول في إحالة الفصحى عن وجهها، ليقول من ثم : « إن القائمين مهما عملوا، فإنهم لا يعدّون أن يجتذبوا إليهم طائفة من ضعاف شبابنا المتفرنجين يُناصرونهم بما تُعدّه الأمة خذلاناً، ويزيدون فيهم بما لا تشعُر به الأمة زيادة أو نقصاناً.

ذلك أنهم يُنْقَلِبُونَ عن الروح الدينية التي عليها ينشأ المسلمون — أهل هذه العربية — في جهات الأرض، وأن هذه الروح قائمة على نفي العصبية الوطنية كالمصرية وغيرها،.. فقد كانت هذه العصبية عامة في قبائل العرب حتى محاها الإسلام، فأنزل الله على رسوله وعلى المؤمنين، وألزمهم كلمة التقوى، وجعلهم إخوة. وما عصبية قبيلة وقبيلة في المعنى الا كعصبية بلد وبلد، ومصر ومصر،..

وما يقولون به من تمصير اللغة لا يعدو أن يكون وجهاً من وجوه هذه العصبية المحقوتة؛ فانك لتجد المسلمين يختلفون في كل شيء

(١) البيان — شعبان ١٣٣١ هـ — المعركة — ٥٢

حتّى في الدين نفسه، ولا تجدّهم إلا شعوراً واحداً بالروح العربيّة التي مِسّاكُها الكتابُ والسُّنّة في عريتهما الفصيحة.

وهو ما لا سبيل الى التغيير أو التبديل فيهما لا على وجه التمسير، ولا على وجه آخر، وسواءً كان ذلك إصلاحاً بين العامية والفصحى، أم لم يكن<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

وفي الصحافة أيضاً كانت له آراؤه في المذاهب المحدثّة في السياسة والاجتماع، والوقوف عليها في وسائلها وأهدافها، منها ما وافق منه هوئى وحاولَ رَجْعُهُ الى أصولٍ عربيّة، ومنه ما رَدّه الى حقيقة إنسانيّة<sup>(٢)</sup>.

كما نَشَرَ فيها فصولَ كُتِبَ، وأحاديثَ محاضراته وخُطَبِهِ، مما رجعنا إليه بالتحقيق والإشارة، وفيها كانت مُحاولاتُهُ الأخرى في مذاهب الأدب والنقد التي شاعت في عصره، في ترجماتٍ ودراساتٍ واتفاقاتٍ لجيلٍ صَحُخَ من الأدباء الذين نَهَلُوا من آدابِ الأمم الحديثة<sup>(٣)</sup>. ومع ذلك كلّهُ نَسْتَطِيعُ أن نقولَ إنَّ سوءَ ظَنِّهِ بالصحافةِ مُتَأَتٍّ من أنه لم يُصِبْ فيها ما كان يؤمِّلُ من هَدَفٍ في نَشْرِ الأدبِ الاعتقادي الذي يتحرّى، والعِلْمِ الذي يَنْفَعُ، وكونها كانتَ موزَّعةً في مذاهبٍ واتجاهاتٍ، وأنها كانتَ تحجبُ بعضَ رأيه ودفاعه عن نفسه أحياناً. ففي فترةٍ من

(١) البيان — شعبان ١٣٣١ هـ — المعركة ٦٢

(٢) سيرد في الموضوعات المحدثّة في أدبه.

(٣) انظر ذلك في المعاصرة والاتجاه — الراجعي الناقد.

الزمن كان يُحسُّ أنه وحيدٌ منفردٌ في معركة الفكر القومي، لا يكادُ يَظَاهِرُهُ أَحَدٌ<sup>(١)</sup> وأنه لِيَقْتَحِمَ على الصحافةِ منابرَها بغير قليلٍ من المخاطرة حتى حالَ بعضُ أدبه ودفاعِهِ الى مشابهةِ النظرةِ القانونيةِ الأوروبيةِ في الموضوعاتِ الاسلاميّةِ، لما ألقى في روعِهِ الدكتور يعقوب صرّوف، أن ما يكتبه يُنْقَلُ الى اللّغاتِ الأوروبيّةِ، فلا ينبغي أن يرى الأوروبيون والأمريكان فيه غير القيمِ الاسلاميّةِ العُلْيَا<sup>(٢)</sup>.

ومن هنا رأى بعضُ القوميّين أن الانسان الأوروبي قد ظَهَرَ على إنسانِهِ الرافعي العربي أحياناً<sup>(٣)</sup> بما كان يُلقَى إليه من وَهْمِ العصريّة والحضارة.

\* \* \*

وكان العصر قد ماج بالمُترجمات من القصص والروايات، وكان رأيُهُ فيها « أنها تُوضَعُ قَصَصاً، ثم تُقرأ فتبقى قصصاً،.. وإن هي صَنَعَتْ شيئاً في قُرَائِها لم تزدْ على ما تفعل المخذرات؛ تكونُ مسكنات عصبية إلى حين، ثم تنقلبُ هي بنفسِها بعد قليلٍ الى مهيّجات عصبية<sup>(٤)</sup>».

على أن ما حاول « العريان » أن يجعلَهُ قَصَصاً في أدبِ الرافعي<sup>(٥)</sup> إنما هو إخضاعُ الرافعي للقصة لتكونَ شاهداً مقالِهِ؛ فهو لم يخضعَ فيها لمتطلباتِ الفنّ من البداية والعُقْدة والخاتمة، وما إليها من أسسِ

(١) اسحق موسى الحسيني — الاخوان المسلمون — ٧

(٢) من رسالته الى الخطيب في ١٩٢٨/٧/٢٥ م

(٣) جامعي — الأنصار ١١ رجب ١٣٦٢ هـ.

(٤) الرسالة ٤٠، وحي القلم ٣ — ٢٥٧

(٥) حياة الرافعي ٢٠٤ وقد أخرج العريان منها إضمامةً على حدة منتقاة في طبعة خاصة.

هذا الفن، وإن كان قد بدا له أن يصوغ مترجمةً لاحداها على طريقة يعارضُ بها مصطفى لطفي المنفلوطي<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

### مفاعلة عصريّة

لقد تفاعلَ الراجعيُّ مع عصره بروحه العربيّة المُسلمة، وأخذَ منه بمقدارٍ ما تقبّل هذه الروح من العلم والتوفّر على أسبابه، والجدّ في طلبه من أين جاء، كما تجعلُ الأصلَ في التربية بالحملِ على الأخلاق<sup>(٢)</sup>. وما فتى يرفعُ عقيرته بقوله: أخلاقنا قبلَ مدنيّتهم<sup>(٣)</sup> في شعارٍ يدعو فيه الى ما يُعوّزُ العصر الحديث من ثباتِ الأخلاق<sup>(٤)</sup> فهو مُتماسِكٌ أبداً؛ يصبونُ أدبه ويحمي ذاته، وكان من أسبقِ المحافظين في شُعبِ الموضوعات الجديدة في المقالة والرسالة وفنون النقد والأدب والقول، ومنازلةِ أدعياءِ التجديد<sup>(٥)</sup>.

وبذلك وسواه مما وَرَدَ في هذا الفصل وما فاتنا أن نوردهُ أو نقفَ عليه،.. كان ظاهراً في عصره متميّزاً بذاته العربيّة، وعقيدته الاسلاميّة، ودعوته المؤمنة وأدبه الذي جدّد فيه شبابَ العربيّة،.. وكانت الجملةُ القرآنيّةُ ترفدُهُ بعطاءٍ لا مثيلَ له في سائر آداب الأمم التي وقَفَ عليها قراءةً أو ترجمةً، وكان للصحافة سَهْمُها في ذلك كما قدمنا.

(١) انظر المساكين ١٥٨ وقصة الكونت ولويزا

(٢) المعركة — ٦٣

(٣) الهلال مايو/١٩٢٩ م

(٤) الرسالة ١١٥، وحي القلم ٢ — ٧٣

(٥) المنار ٧ — ٢٧ — ذو القعدة ١٣٤٤ هـ — ١٩٢٦ م عن مجلة (عكاظ — مايو/أيار

١٩٢٦ م

وقد أثر ذلك في العصرِ بابتكاراتِهِ التي جَعَلَتِ العَرَبِيَّةَ الفُصْحَى  
لُغَةً الجمال، والظرف والعَزَل؛ فَتَحَ فيها أَبْوَابَ الفُنُونِ في النثر لاستيعابِ  
معانيها الجميلة والوليدة؛ إذ هو — على فَضْلِهِ وعِلْمِهِ بِاللُّغَةِ — لم  
يكن مِثْلَ أولئك المتفاصحين من بعض معاصريه، الذين يَقْصِدُونَ تصحيح  
الأخطاء؛ يُوردونَ أمثلةً وَعَيِّنَاتٍ في ذلك التصحيح والمفاصلة بكتبِ  
ورسائل يدُورون من حولها، ويُثيرون المفاصلات عليهم<sup>(١)</sup>.

وكان من تَنامي أدبه ونثره بأسلوبه الفريد وتحوّله مع الحفاظِ على  
قُوَّتِهِ وأصالته، ما كان من أثرٍ في معاصريه؛ فقد أَضْحَى للصياغةِ قِصْدُ  
المعنى والهدفُ الذي يرمي إليه الكاتب، من غيرِ تصْنُعٍ ولا التواء،  
وصارَ للبيانِ العربيِّ مكانٌ يُرْهِى بهِ على الأيام، وانتهى أو كاد تحكّم  
السَّجْعُ والمزاوجة وما إليه من بديع، فإن جاء شيءٌ منه عَفَوَ الخاطرُ  
فأصابَ هَدَفًا في المعنى، وأوفى في البلاغة، فذلك هو الفطرة الغالبة..  
وقد استُعِضَ عن التَّراذُفِ بالتوليدِ وتقليبِ المعاني ومناقشةِ مفهومِ  
المخالفة، للوصولِ بالحكمِ الأدبي الى هدفٍ جليلٍ بعدما أُشْرِبَ الأَدَبُ  
مادَّةَ الفكرِ.

\* \* \*

ولم تكن هنالك الحَسَنَاتُ حَسْبُ، وإنما كانَ من أثرِ اللِّغَاتِ التي  
يدرسُ بها شِدَاةُ الآدابِ والعلومِ، والبُلْدَانِ التي يقصدونَ في بعثاتهم،  
والحَيَوَاتِ التي يَأْلَفُونَ وَيُقَلِّدُونَ، مضارَّها التي تُؤْذِي أساليبيهم، وتَتَّهَمُ

---

(١) كاليازجين والمعاليف وغيرهم.

أذواقهم، وتطعنُ في ذاتياتهم التي تنهارُ أمامَ بهرج حصارَةِ تلك البُلدانِ  
والمعاهد واللُّغاتِ ومظاهرها المدنيّة.

فقد فشا الاستعجام في الأساليبِ عند طائفةٍ من الكتّاب في العلوم  
الطبيعيّة والمحاورات الفلّسفيّة والبضاعات الفكرية الأخرى، وذلت جُمْلُ  
بعضهم مُهلَهلة النسيجِ هزيلةٌ تلتوي على نفسها دون الإفصاح الجميل،  
مما تحتاجُ معه الى إعادةِ كتابةٍ وسبك، لتبدو لها روحُ العربية في  
قوة العبارة وروعة البيان.

وقد تصدّى العقلُ العربي المؤمن — المُتمثّلُ في أدبِ الرافعي لذلك  
كلّه، وبلغَ التوفيق في ردِّه بعضَ الكتّاب بالموازنات التي عقّدها لمن  
يَتَصَدَّى لهم بنقدٍ أو مُساجلة، يَسْتَهْدُون بها سواءَ السبيل.

على أنّ الأخذَ عن آداب الأمم من فنونٍ وأساليبٍ قد مضى مؤثراً  
في الأدبِ العربي كلّه بنصيب؛ يختلفُ فيه أديبٌ عن آخر، وقد استطاع  
كثيرٌ منهم أن يمثلهُ ويتنفّح بهذا الأخذ ويطبّعه بتعريبٍ في الأسلوبِ  
والفن معاً.

\* \* \*

وهكذا نرى من تطوّر النثر أن يبقى على امتناعه، وأن لا ترقَّ  
حواشيه بشكلٍ يظهر فيه ذلُّه وخُضوعه لأساليبٍ غيرِ عربيّة، يابأها  
الدوق، وتنفرُ منها الأصالة، ولا تدلُّ على ثباتِ الذات — وهي قِوامُ  
الأديب في أدبه مهما تغيّرت الأحوال.

ولذلك نرى أنّ الرافعي من بين أدباء جيله قد احتفظ بقوةِ الجُملةِ

العربية أثيرةً، وجدَّدَ الأساليب، ونوَّعَ التعبير، وجاءَ بالبيان في أفصح  
لسان، من غير أن يُغربَ كثيراً، أو أن يَسِفَّ ويتدنَّى.  
وهذه هي الصفةُ الممتازة للأديب العربي الذي هو مَنْ كانَ لأُمتهِ  
ولُغتها في مواهبٍ قلمه لَقَباً من ألقاب التاريخ.



## الفصل الثاني

### حياةُ الرافعيّ

#### ١ — اسمه ونسبه

هو زينُ الدين أبو السامي مصطفى صادق الرافعيّ، الفاروقي العُمري الطرابُلُسي<sup>(١)</sup> زهرةُ شعراء العربية ونابهةُ كُتّابها، وإمامُ آدابها في العصر العربي الحديث<sup>(٢)</sup>.

استَهْلَ على الحياة في «بَهَيْتُمْ» إحدى قرى القليوبية بمصر، في الأول من رجبِ الأَصَمِّ — منتصفِ عام ١٢٩٨ هـ — الموافق للثلاثين من أيار/مايو سنة ١٨٨١ م<sup>(٣)</sup>.

وكانت أمُّه السيدةُ أسماء، قد آثرت أن تكونَ ولادتها الثانية في

---

(١) هكذا كان اسمُه وكُنيتُه وبعض ألقابه، توفرت لنا من أوراقه وذكريات بنيهِ، وما أتفق

عليه محبوه وأصدقاؤه وتلامذته — راجع كتابنا — الإمام الرافعي — ٢٠٩.

(٢) تلك نعوت أحمد شوقي ويعقوب صروف وشكيب ارسلان له في رسائلهم ومقارظاتهم.

(٣) محمد صبري — شعراء العصر — ٢١٣، وبعض أوراقه بعد حساب المقابلة.

بيت أبيها الشيخ أحمد الطوخي الحلبي — الذي كانت تجارتُهُ تسيّرُ بين مِصرَ وديار الشام لذلك العهد<sup>(١)</sup>.

وقد سمّاه أبوه « مصطفى صادق » واصطفاه من بين أخوته لما شبَّ عن الطوق، وتميّزَ بالذكاء، واشتهرَ بالصدق في الحديث، وفاقَ في الحفظ، ودلَّ عند المراجعة على التيقُّظ والانتباه<sup>(٢)</sup>.

وهو ابنُ الشيخ عبد الرزاق الرافعي كبير القضاة الشرعيين في محافظات القطر المصري آنذاك، ابن الشيخ سعيد بن الشيخ أحمد ابن الإمام عبد القادر الرافعي — رأس الأسرة العمرية الجديدة<sup>(٣)</sup>.

والرافعي الأولُ هذا هو ابنُ العارف بالله الشيخ عبد اللطيف اليساري ابن الشيخ عمر اليسار<sup>(٤)</sup> بن الشيخ أبي بكر الحموي — الوليَّ

(١) حياة الرافعي — سعيد العريان — ٢٧.

(٢) أحمد محمد عيش — المقتطف ٩١ — ٥٢٩، أكتوبر ١٩٣٧ م — سيرة الرافعي. والجدير بالذكر أن حلّة الأزواج بتحميد الاسم رافعية، قلما خلا اسم منها لواحد منهم، وإن لم تشتهر شهرتها في اسمه. والسيرة حلقة واحدة يتيمة، لم تُنشر أخوانها الأخريات في المقتطف، ولا رأيها في غيره، وقد أعاني البحث عن أحمد عيش في القاهرة وميت غمر حتى آيست أو كدت — راجع الرافعي الناقد الأديب.

(٣) انظر محمد رشيد الرافعي — عبد القادر الرافعي الثاني — ١٣، وكان من أمره أن الشيخ محمود الخلوئي قال له: أنت من رافعي لواء العلم — يوم ظهر عليه النبوغ في الإمام يفقه الأحناف — تشبيهاً له بالإمام عبد الكريم الرافعي — الذي صنّف الفتح العزيز في فقه الإمام الشافعي — انظر الزهراء الربيعان — ١٣٤٦ هـ وصار عبد القادر الرافعي الكبير شيخ الأزهر فيما بعد — راجع كتاب الاحتفاء بشاعر العروبة — عبد الحميد الرافعي — ٣٨.

(٤) « يه سر » مُصطلحٌ عثمانى يعني أمانة الرئاسة، ناله الشيخ عمر الحموي بعد أن أسندت إليه بعض المهمات في ذلك العهد، فاصطلح على يديه أصحاب المقامات والأحوال.

المدفون بحماه — بن الحاج لطف بن الشيخ علي البخش<sup>(١)</sup> العقيلي، المتصل نسبه بالشيخ عقيل المنبجي العمري<sup>(٢)</sup> بن الشيخ عبد الرحمن ابن أبي بكر بن الشيخ شهاب الدين أحمد البطائحي — الهكاري بن زين الدين عمر بن عبدالله البطائحي بن زين الدين عمر بن الشيخ المعمّر زين الدين العمري المكي المتصل نسبه بأحد العبادلة الصحابي الجليل عبدالله بن أمير المؤمنين الإمام العادل عمر بن الخطاب العدوي القرشي<sup>(٣)</sup> رضي الله عنه وأرضاه.

## ٢ — نشأته وتعليمه

نشأ الرافعي في رعاية أبيه — وقد غني به عناية خاصة فيها الكثير من الحنوّ والإشفاق، لما كان يعتوره من اعتلال وانحراف صحّة وقلّة عافية، وانصراف عن اللعب واللهو..

وكانت الأسرة الرافعية قد بلغت يومئذٍ أوجاً عالياً من المجد والرّعة العلميّة<sup>(٤)</sup> وكمالاً خاصاً في تهذيب أبنائها ورعايتهم وإعدادهم للحياة. وقد بدأ الرافعي التحصيل على والده الشيخ، وفي الكتاب مع إخوته،

- 
- (١) كلمة «بخش» فارسيّة مستعملة في التركية ومعناها الكريم المعطاء : الجواد.  
 (٢) ذكره الشعراني في طبقاته، وقال إنه شيخ شيوخ الشام في وقته، تخرّج بصحبته الكثيرون، توفي في «منبج» وفي الظاهرية بدمشق مخطوطة «بهجة الشيخ عقيل المنبجي» — تاريخ أربيل ج ٢ — ١٦٧. ينتهي نسبه إلى عمر بن الخطاب.  
 (٣) هذا ما وردني من «شجرة الأسرة» المخطوطة لدى الحاج فوزي الرافعي بطرابلس الشام، وكما وردت في كتاب الرافعي الثاني، وكتاب الاحتفاء، ولا شك أن في الشجرة قطعاً أكملت بعضه من ترجمة المنبجي، راجع كتابنا — الإمام الرافعي — ٢١٧، ٢٢٦.  
 (٤) رشيد رضا — المنار — المحرم ١٣٤٨ هـ — حزيران/يونية ١٩٢٨ م

وما كاذ يُتَمُّ العاشرة من عمره حتى استظهر القرآن الكريم على أبيه حفظاً وتجويداً<sup>(١)</sup>.

وكان منزل الشيخ عبد الرزاق الرافعي في طنطا مهبط العلماء والفضلاء من ديار الاسلام جميعاً، ما أتوا مضر، وكان لوجودهم عنده حفل دائم للمناظرة واحتدام الأفكار<sup>(٢)</sup>.

وكان التعليم يومئذٍ مؤزَّعاً؛ فالحديث قد استأثرت به مدارس الإرساليات التبشيرية وانحسر التعليم الآخر في أروقة المساجد وبيوتات العلم. وقد تأخر دخول أدينا الابتدائية في « دمنهور » عام ١٣٠٩ هـ — ١٨٩٢ م حتى أدرك الثانية عشرة! ولكنه نهل من تعليم المسجد والبيت علوم الفقه والحديث والأصول والعربية ما نهل.

ويوم نُقِلَ أبوه الى القضاء الشرعي في « المنصورة » التحق بمدرستها الأميرية هناك، ولقي صحبة عديدين من طلبتها، وكان له مع بعضهم أكثر من معتبة بسبب من ذكائه وتفوقه، وجدو الذي لا يرضى بالهزل، وانصرافه عن الممازحة.. وكونه من أبناء الفقهاء العرب. ومن هذه المدرسة ظفر بالشهادة الابتدائية — وهي كل حظه من الشهادات (الرسمية)، عُومِلَ بها موظفاً أربعين سنة!

مفاصحة : وكان قد أظهر نبوغاً في العربية وعلومها في أثناء دراسته، دُهِشَ لها معلموه من ناحية، وأثار غبطة أستاذه مهدي خليل، ولكنه زرع الحسد وأوغر صدور بعض زملاء الدرس من ناحية أخرى..

(١) الرسالة ١٨٣، قرآن الفجر.

(٢) رشيد رضا — المنار — المحرم ١٣٤٨ هـ — حزيران يونية ١٩٢٨ م.

ذلك أنه آثر الفصحى في المخاطبة، وجَهَرَ بالدعوة إليها في المدرسة، واستنكرَ على رفاقه ارتضاخ ألسنتهم لرتانةٍ تضيغُ فيها الحروفُ وتَحَوِّلُ بين لفظِ السادةِ والعبيد، إذ كان كبارُ الموظفين والملّك من الترك والروم المماليك —.

وربما كانَ في دعوتهِ للمفاصحة في الحديثِ والكلام العام ليسَ بَعَثاً للسانِ العربي المبين وتوحيد التفكير عند النشءِ فَحَسْبُ، وإنما كالذي يَتَسَتَّرُ على ما في لسانه من اللّهُجَةِ الشامية أيضاً. فقد وَجَدَ من عيوبِ النطق في هذه العاميَّات الكثير، فهو دائِبٌ على الحفظِ في الفصحى وإثارِها والمراجعة في آدابها والتوسّع فيها.

وحين مُثِّلَ هذا الميلُ لدى أبيه الشيخ عند ولدهِ الأثير، وأدرك استعدادَهُ، عَمَدَ إلى تنميتهِ وتزكيتهِ، ووفّرَ له من الدروسِ الخاصّةِ ما يَسْتَوْعِبُ فيه عُلُومَ العربيةِ والفقه بجدارة وفهم عميقين، فأكَبَّ عليها ليل نهار، حتّى أُلْقِيَ في رَوْعِهِ أن يُولَفَ في العربيّة، ويضع كتاباً يجعلُ شواهدَ عُلُومها فيه من نُظْمِهِ<sup>(١)</sup>.

وإزاء ذلك لازِمَ أباه يأخذُ عنه، ويتأسى به، وكان أبوه فقيهاً ذَوَاقَةً، له في نظمِ الشعرِ ومعرفةِ الآدابِ دراية — وإنْ غَلَبَ عليه الفقهُ والوَرَعُ، وأنْفَ أن يسلكَ سبيلَ غيره من الفقهاء المتأدِّبين، فحجَبَ أدبه وشعرَهُ عن النشرِ، حسبُهُ أن يرمي وَلَدَهُ البار، فقد كانَ يستمعُ له في توثيقِ قراءاته، ويتبَثُّ من حفظِهِ للقرآن والأثر؛ إذ هو يفقه عنه الرواية والتفسير، فيعي خَبَرَ السَّلَفِ، ويعرفُ علماء اللغة، ويدركُ فقهاء الشريعة، ويصبرُ بأهلِ الحقيقة، ويقترُبُ من ذوي الحال والسلوك<sup>(٢)</sup>.

(١) محمد صبري — ٢١٣

(٢) الهلال — يناير ١٩٢٧

وهكذا انطبع على ذاك الغرار من الأسلوب الفريد، الذي تميّز به بعدما ارتسمت على مخيلته صورة العربية الأولى عن أولئك الأفذاذ من علماء الأمة<sup>(١)</sup> كأنما أعدّه القدر الآلهي كذلك، ليكتب بنقائنها ورونقها صفحات البيان والإعجاز فيما بعد، وينشر بلاغة القرآن العظيم. كان ذلك في الوقت الذي حال فيه رفاق الدرس والأدب يلوكون مُفردات من لغة الأجنبي، والمحتل بتفرنج غبي يطعمون به عاميتهم المردولة<sup>(٢)</sup> إذ راح يترفع عليهم، وربما تقاعس عن تعلّم اللغات الأوروبية، ولم يمرض بالفرنسية، ولا انتفع منها كثيراً، حسب ما يُصيب من المعلمة<sup>(٣)</sup>.

مرضه وانقطاعه : وحدث أن مرض، فقد أصابت الحمى الثقيلة (التيفوئيد) جسمه الضامر، ومست شبابه اللدن الغرائق، تسلبه العافية وثبته في الفراش أشهراً، وبين معاناة التمريض والدواء كانت حاله من الآلام، فلم ينج منه ووطأته إلا بعد أن ترك نحولاً في جسده، وأثراً في أعصابه، ومس أكثر من موضع في جوارحه، ونال منه وآذاه بحبسه عقدة جبال الصوت في فيه وكادت تسلبه النطق، وبوقر في إحدى أذنيه<sup>(٤)</sup> وضعف يعتريه أياماً في السنة « يُصَيِّف » فيها<sup>(٥)</sup> لا

(١) العريان — ١٩

(٢) الفتح ١٨٦، الرسالة ١٨١ — اللسان المرقع

(٣) الفتح — ١٤ رمضان ١٣٤٨ هـ

(٤) ما كاد يتم الثلاثين من عمره حتى انقطع عن سميع كل صوت، وعقدت جبال الصوت في فيه بما كاد يذهب بنطقه، ولكن الله أرحم من أن يفقد اللسان إمام البيان.

(٥) مُصَيِّف؛ كلمة ما تبرح في استعمال عرب الشام والعراق تصف حالاً لمواليد الصيف الذين يعتريهم الضعف والهزال، قال سليمان بن عبد الملك :

يرحُ عنه في شفاءٍ حتى يعودَ إليه من غير عافية،.. وبقي عمره عُرضَةً للإصابة بالحمّيات الطارئة من البرد والزكام والنزلات الشعبية<sup>(١)</sup>.

وكان من أثر ذلك أنه انقطعَ لمدرسته الجامعة؛ يُعدُّ منهاجها بنفسه، ويقومُ شيوخُ مُصنِّفاتِها ومؤلفو كتبها على تعليمه وتوجيهه، وتيسير أمره في أخذِهِ وثقافته،.. فلم يكن يتركُ شيئاً مما يُطبع أو يُنشر، أو تمتدُّ إليه يده دون أن يقرأه أو يعرفَ ما فيه<sup>(٢)</sup>.

وكان الشيخ عبد الرزاق الرافي قد هيأَ لولده (الصادق) الأسبابَ المُستطاعة التي تمضي به الى الغاية المُرتجاة له، مُبتدراً معه وسيلةَ التحصيل هذه، وتوفير أدواتها،.. وكثيراً ما كان يُردّدُ عليه — جبراً لخاطره: إنك يا ولدي تجاهدُ في سبيلِ الله<sup>(٣)</sup>. فكان لهذه الإشارةِ البارعة، والالتفاتِ الأبوية البعيدة ما كان من أثرٍ مُبين في نفسِ أدينا العظيم. فقد مسّت منه شغافَ قلبه، وملأت من صدره مكاناً خلياً بالثّ والنجوى، وصادفت من نفسه هوى، ووافقت منه طيبَ النزعات.

وكانت أمّه الزكية هي أيضاً تُخصّصه برعايتها، وتؤثّرهُ بالمزيد من عطفها وحنانها، وكان هو برّاً بها، وقد ظلَّ الى آخرِ عُمره إذا ذكرها

---

= إن بني صبيّة صفيون  
أفلح من كان له ربيعون  
وكانت أم الرافي تناديه (مُصَيِّف) في طفولته حباً وكرامة، وعادت «مي» بلهجتها الشامية تتودّد اليه به، فحاول أن يلحقه بالتصغير على قاعدة الترقيم — العريان ٨٠.  
(١) لاحظ شكواه من المرض في رسائله الى أبي رية، وراجع نعمات أحمد فؤاد — دراسة في أدب الرافي وكيف رَعمت مزاعمها في صفته أذبه (المريض)!. وعفا الله عن الزيات أحماً.

(٢) عمر الدسوقي — أمالي في مناهج البحث والنقد.

(٣) أحمد عيش — المقتطف السابق.

اغرورقت عيناه كأنه فقدتها بالأمس<sup>(١)</sup> وكانت في بدء طفولته تُعينه على الدرس، وفي أيام صباه وتحصيله توفّر له ما تستطيع من أسباب الهدوء والانقطاع للمذاكرة والمراجعة.

### ٣ - دلائل تأمله

في سنّي يفاعته ظهرت دلائل تأمله في رَحَابِ الكَوْنِ، ولاحت بواكير محاولاته الأدبية في النظم والكتابة والخطابة، وكان المطاف قد انتهى بالشيخ عبد الرزاق الرافعي الى « طنطا » ذات المركز المرموق والمجال الذي يتسع للفقهِ والفكر والأدب؛ لمكان الدعوة فيها عند المواسم والموالد والأعياد، حيث يؤمّها الناس من مختلف الأوساط، والدرجات، ولما تلتفّ به يومئذ من طبيعة خلابة؛ تستريح في ظلّاتها القلوب، وتنعّم بمغانيها النفوس، وتبتهج الأرواح.

يخرج الرافعي كل يوم عطلة بأخوته للنزهة، ويُمّم شطر الحقول النضيرة، والبساتين الوارفة والترغّ الملتفة من حول المروج الخضّر في ريف « دنهور » أو قرى « المنصورة » أو ضواحي طنطا، بعيداً عن العمران ومظاهر المدنية.. وهناك تمتدّ الظلال النديّة للأشجار الحاملة، وتحت السماء يغيومها المهوّم، وحيث الطيور الحائمة في الطبيعة الناعمة وعنادلها القادمة وعصافيرها الشادية المزقّقة في تلك الصورة المُجْتَلاة؛ كأنه يخشع لله في صلوات المتأمل، ودعوات الاستغراق في محارِبِ آلائه البديعة.. وكثيراً ما كان ينفرد دون إخوته ليزيد في مثل ذلك التأمل، ويمتدّ في الاستجلاء ويهوّم ويدوّم في خطراته وأفكاره، حتى



يَكَادَ يَنْسَى نَفْسَهُ فِي ذَلِكَ الْمَحْرَابِ الْأَخْضَرِ، أَوْ يَضِلُّ عَنْ إِخْوَتِهِ  
لَوْلَا مُنَادَاتُهُمْ عَلَيْهِ بِالْعُودَةِ إِلَيْهِمْ.

هَذِهِ الْحَالُ كَانَتْ تَلْهُمُهُ مَعَانِي لَا حَصَرَ لَهَا، وَيَزِيدُهُ الْاسْتِغْرَاقُ فِي  
تَأْمُلِهَا وَتَمَثُّلِهَا، فَيَقْلُبُ وَجْهَهُ فِي السَّمَاءِ كَأَنَّهُ أَحَدُ الْمُتَبَتِّلِينَ مِمَّنْ يَنْتَظِرُونَ  
مَوْعِدَهُمْ مَعَ الْوَحْيِ وَالْإِلْهَامِ<sup>(١)</sup> وَمَا بَرَحَ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ مِنْ  
عِشْقِ الرِّيَاضَةِ، وَاسْتِجْلَاءِ الطَّبِيعَةِ كُلِّ يَوْمٍ بُعِيدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ دَائِمًا  
حَتَّى آخِرِ يَوْمٍ مِنْ حَيَاتِهِ<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

#### ٤ — فِي الْوِظِيفَةِ

يَوْمَ أَدْرَكَ الرَّافِعِي حَقِيقَةَ وَحُكْمِ أَنَّهُ قَدْ انْقَطَعَ عَنِ الدِّرَاسَةِ النَّظَامِيَّةِ  
فِي الْمَدَارِسِ، لَمْ يَبْقَ لَهُ مَا يُؤَخِّرُهُ عَنِ الْعَمَلِ، وَأَنْ يَلْقَفَ وَسِيلَةَ عَيْشِهِ  
الَّتِي تَمَلُّهُ عَلَيْهِ وَخَشَتُهُ مِنْ أَيَّامِهِ.. وَكَانَ لِأَبِيهِ جَاهُهُ وَمَكَانَتُهُ، فَاهْتَبَلَ  
فُرْصَةً نَالَ فِيهَا أَخُوهُ مُحَمَّدٌ كَامِلُ الرَّافِعِي وَظِيفَةُ «مَأْمُورٍ مَرْكَزٍ»<sup>(٣)</sup>  
فَاسْتَدَارَ مِنْ حَوْلِ أَبِيهِ يُحَاوِرُهُ، وَيَطْلُبُ إِلَيْهِ أَنْ يَظْفَرَ بِوِظِيفَةٍ هِيَ أَيْضًا..  
وَكَانَ لَهُ بِذَلِكَ بَعْضُ مَا أَرَادَ — وَإِنْ لَمْ تَكُنْ بِالْمَطْمَحِ الْأَدْنَى، وَلَكِنَّهَا  
الْكِتَابَةُ فِي الْمَحَاكِمِ الشَّرْعِيَّةِ، حَيْثُ يَغْشَى النَّاسَ، وَيَحْيَا الْفَقْهَ بِعُقُودِهِ،  
وَتَقُومُ الْمَعَامَلَاتُ فِي الْأَوْقَافِ وَالْوَصَايَا وَالْمَوَارِيثِ، وَسَائِرِ الْحَالَاتِ الذَّاتِيَّةِ  
الْأُخْرَى.

(١) أَحْمَدُ عَيْشٌ — الْمُقْتَضَفُ ٩١ — ٥٢٩، أَيْسَرُ ١٩٣٧ م سِيرَةُ الرَّافِعِي.

(٢) الْعَرِيَانُ — الرِّسَالَةُ — ١٩٣٩ م «يَوْمٌ لَا أَنْسَاهُ»

(٣) الْعَرِيَانُ — حَيَاةُ الرَّافِعِي — ٢٧

وقد تنقّل في هذه الوظيفة ما بين طَلُخا، وإيتاي البارود، وكفر الزيات، وشبين الكوم، حتى انتهى به المطافُ أو كاد الى « طنطا » في محكمتها الشرعية، ثم الأصلية المدنية بعد ذلك بسنين يُقدّر فيها الرسوم التي تُستوفى على القضايا<sup>(١)</sup>.

ومع التزامه بتبعات الوظيفة نشأ فيها نشأة الدلال، لمكانة أسرته في القضاء، ولمنزله هو في دنيا الكتابة والأدب، كاذ يتخذها مزجاةً للفراغ أحياناً، يُفسّر ذلك موقفه مع مُفتّش الوزارة حفني ناصف — وقد أدرك حُجّة الرافعي في قلّة اكترائه بالدوام، فكتب الى الوزارة يقول : « إنّ الرافعي ليس من طبقة الموظفين الذين تسري عليهم ما للوظيفة من مُستلزمات. اتركوه يعمل ويدع للأمة في آدابها، وإلاّ فاكفلوا له عيشه في غير هذا المكان »<sup>(٢)</sup> إذ كثيراً ما كان ينقطع عنها باجازه أو من غيرها، مُلتمساً سبباً الى مسألة علمية يُفتّش عنها بين مظانها من المراجع والمصادر، أو مُتناولاً لغرض من الأغراض بالدرس والتحصيص، حتّى أصبح لبعض رأيه في القضايا وزنٌ، تسعى به وزارة العدل منشوراً الى بقية المحاكم كالفتوى السابقة. وكم من المحامين استعان به فكسب دعواه<sup>(٣)</sup>.

وعلى الرغم من تقدّمه في المضمار العلمي، وتوفّره على المكانة الأدبية العالية التي وصل إليها بفضلِه عُوِمِلَ بموجب شهادته الابتدائية

(١) حدثني بذلك الأستاذ حسنين مخلوف

(٢) من تقرير حفني الى وزارة الحقانية — ١٩١٢ م عن العريان — ٢٧

(٣) لذلك أكثر من واقعة أفاد منها صديقه حافظ عامر خاصة.

حَسْبُ، في هذه الوظيفة طَوَالَ أربعين سنة!.. قَضَى فيها زهرةً شبابيه، وأعطاهَا من يومِهِ أَمْتَع السَّاعَاتِ فِي الضَّحَى،.. وَيَوْمَ جَرَتْ عَلَى لِسَانِ أَحَدِ الْمُعْجِبِينَ بِهِ مِنَ الصَّحَافِيِّينَ عِبَارَةً تَقُولُ « إِنَّهُ الْمُخْتَارُ لِحِرَاسَةِ لُغَةِ الْقُرْآنِ » تَسَاءَلَ فِي اسْتِفْهَامٍ ظَرِيفٍ: أَرَسُولٌ وَمَوْظُفٌ حُكُومَةٌ؟<sup>(١)</sup>.

وَمِنْ هُنَا كَانَ يَرَاهَا وَالصَّحَافَةَ مِنْ أَشَقِّ الْأَعْمَالِ عَلَى النُّفُوسِ الْكَرِيمَةِ — وَإِنْ عَادَ يَعُدُّهَا فِي أَوَاخِرِ أَيَّامِهِ مَكَانًا لِلْأَدِيبِ لَيْسَ أَحْسَنُ مِنْهُ فِي حَيَاتِنَا الْحَاضِرَةِ<sup>(٢)</sup> بَعْدَمَا أَتَعَبَهُ التَّفْتِيشُ عَنْ سِوَاهَا مَوْرِدًا لِعَيْشِهِ فِي التَّجَارَةِ أَوْ الزَّرَاعَةِ — وَقَدْ فَوَّتَ عَلَيْهِ أَنْسَابُوهُ فُرْصًا فِيهَا.

كَانَتْ الْوُظُفَةُ تَضْجُرُّهُ أحيانًا، فَيَتَمَنَّى فِي إِحْدَى رِسَائِلِهِ « لَيْتَ الزَّمَنُ يُهَيِّئُ لِي مِنْ أَسْبَابِ الْكِتَابَةِ وَالشَّعْرِ وَالتَّفْرِغِ لِهَمَّا، مَا يُغْنِينِي عَنِ التَّكْسُّبِ مِنْ هَذِهِ الْوُظُفَةِ الَّتِي أَنَا فِيهَا<sup>(٣)</sup> وَهَمٌّ غَيْرَ مَرَّةٍ أَنْ يُحَالَ عَلَى الْمَعَاشِ<sup>(٤)</sup> فَقَدْ كَانَ سَأْمُهُ مِنْهَا مُبَكِّرًا — وَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعِ الْفَكَاكُ مِنْ أَسْرِهَا، وَقَدْ رَأَاهَا مُعَوَّقَةً لَطْمُوحِهِ، وَتَحَدُّ مِنْ أَهْدَافِهِ وَغَايَاتِهِ، وَرَبَّمَا كَانَتْ وَرَاءَ عَدَمِ الْإِفْسَاحِ لَهُ فِي الْمَجَالِ لِلاتِّحَاقِ بِالْجَامِعَةِ، وَكَانَ لَهُ مَعَهَا مِثَالٌ أَدِيبٌ.

إِذَا ذَلِكَ وَسِوَاهُ مِنْ تَوَسَّلَ رِفَاقِ الْوُظُفَةِ أَنْ لَا يَخْلُوَ مَكَانَهُ فِي

(١) رِسَائِلُ الرَّافِعِيِّ — ٢٢٣، يَوْسُفُ حَنَا — السِّيَاسَةُ (الْكُوَيْتِيَّةُ) ٢٨ — ١٩٦٨ م

(٢) كُلُّ شَيْءٍ — ٣ يَنَآيِرَ ١٩٣٤ م

(٣) رِسَائِلُ الرَّافِعِيِّ — ٢٥٣

(٤) نَفْسُهُ

تركها، بقي فيها الى آخر يوم، ولم يزد مرتبه فيها على بضعة وعشرين جنيهاً<sup>(١)</sup>.

## ٥ — حياة الحب

نشأ الرافعي في أسرة — كما قدمت — تفقّهت في الدين؛ تنهى النفس عن الهوى، فكان الإسلام عنده دعوة إنسانية قائمة أبداً، يمثّلها في ضميره رائعة الجمال، وتُشرق في وجدانه بديعة المثال، وتترأى له دأباً بما فيها من الحقّ والعَدْل، والخير والجمال، ويذكرُ فيها حقيقة الاخلاص وما يُعوزُ البشرية من أخلاق.

عرفَ الحبّ في مطلع شبابه، واستشعر قلبه نوازعه، وتسامت نفسه فيه، واستطابته روحه وسيلة، واتخذته سلوكاً يجد فيه العِفّة وينعم

### (١) العريان — ٢٧.

لقد كانت هذه الوظيفة عيماً ثقيلاً عليه، غلّته إليها أربعين سنة، حتى كانت مثار السخط عنده، وظاهرة النحس التي تلاحقه فيعطاً به الزمن؛ ذلك أنّ المجاهدة في سبيل الله والسمو بالاعتقاد وما يرتقي بهما المرء تقتضي منه أن يكون حرّ اليد في العمل أولاً، ولكن أتى له ذلك؟ الأمة في ضياعها الخطير هذاك وقد انسحب نخس تلك الوظيفة على أولادو من بعده، فلم يكذ يلقى الله ربّه، حتى وقفت وزارة المالية من حقهم في المعاش موقف وزيرها الشين، مكرم عبید — إذ أثبت مروءته أن يُقرّ لهم بحق أو مكافأة — أنظر العريان — الرسالة — ٢٥٣ الله أكرم.

وعلى الرغم من هذا الإجحاف الأثيم والظلم المبین فإنّ الثورة قد تقاعست عن إنصافها للرجل موظفاً ما نهياً مثله حرصاً عليها، وأدياً عَقمت العريّة أن تلد له أحاً كما كان إماماً فذاً لحركتها الاعتقادية. فهل تأبى الشعوبيات المبعوثة في الاستغراب والتبشير إلا أن تطيس عليه وعلى ذكره؟ كما ألح شائقوه من مذيبي العزو الفكري والمثليين للتهريج والانحراف؟ ولا أحسب بعد نكسات الثورة وهزائم الأمة إلا من هذه الناحية التي يتسلل فيها ويتلون أمثال هؤلاء وأولئك — بعيداً عن الأساس التربوي في إعداد الأمة قومياً — إضاعة للأهداف والغايات، ولكي لا تجتمع الأمة على هدى أو صراط مستقيم.

بالإخلاص، ويهيم بالإيمان. وكان له في يفاعته وشبابه المفتون ورجولته  
الفذة سرحات في مراتع الحب، وغدوات الى مغاني الحسن وروحات  
في مسارب الجمال؛ لذع نفسه بالحرمان فيها، وأورى روحه في تألقها،  
وهام بها عند تجليها، ولذة الفكر والوجدان فيها، واستطاب الحياة  
المجاهدة قربها، ليلع قصداً في أهدافه ومرمى بعيداً من غاياته..  
يضطرب في ذلك كله فلا يجد له متنفساً غير الشعر — يتمثل به،  
وينسج على منواله.

رأى «عصفورة» على جسر كفر الزيات فألهمته قصائد الغزل في  
ديوانه الأول، حتى لُقّب بشاعر الحسن<sup>(١)</sup> وكادت تغلبه على هواه،  
وقد أرسل فيها قصيدته المشهورة<sup>(٢)</sup>.

عصافيرُ يَحْسَبْنَ القُلُوبَ من الحَبِّ      فَمَنْ لِي بها «عصفورة» لَقَطْتُ قلبي  
وَقَرَّتْ، فَلَمَّا خَافَتِ العَيْنُ قُوَّتَهَا      أدالت لها حبا من اللؤلؤ الرطب

وكانت مما تهفو إليه نفسه من الحسن، وما يرنو إليه خاطره من  
اللّمحات.. وفي ظلال هذا الحب الفريد كاد يحيي فن بني أمية  
في الغزل العفيف، ومفتون عهدهم قيس بن الملوّح العامري؛ إذ قال  
مُورِياً<sup>(٣)</sup>:

ما عَابَنِي أن قِيلَ: ذُو صَبُوءٍ      أو قِيلَ مجنون بني عامر

(١) الجامعة ٦ — ١٩٠٦ م

(٢) هي أول ما غنته أم كلثوم من الشعر

ديوان الرافعي — ٦٧

(٣) ديوان الرافعي ١ — ١٠٠، وعمر معدول به عن عامر.

ثم إنه « عصفرها » ضناً عليها بالافتضاح — على قاعدة ابن المنجم مع ابنة عمه التي كنتم حُبَّها، حتى حَسِبَ الطبيبُ أن ما به من أثر « الصفراء »<sup>(١)</sup>.

وعرف « هنداً » بعدها — وقد أقلقته الترددُ مع هواها، واضطربت به ساعاتُ يومه، ومرحلةُ أدبه، كما نم عليه ديوانه الثاني.

وحاول أن يَمْلأ قلبه بحب آخر كانت فيه « ماري » الحبيبة الآسية، و « وهبة » العاطفة الحانية و « سونيا » الفادية، وغيرها التي تنظر إليه مع الأنواء<sup>(٢)</sup> وقد صدق حين قال<sup>(٣)</sup> :

آفةُ الحرِّ أن يكون مُجِبًّا وكذا الحبُّ يتبعُ الأحرارا  
فقد كان له في « بحمدون » من لبنان و « المنظر الجميل » خيالٌ مليحةٌ ألهمتهُ الأشعارُ، وساهرتُه الليالي، وفي ربوةٍ من رُبى الجبل الأشم عَرَفَ « ليلي » وكانت أديبةً شاعرةً آذاه فراقها، فسكَبَ على صفحاتِ مجلة « الزهور » قصيدته « عبرات البين »، وحُبُّها هو الذي أثمرَ عنده « حديث القمر » ذلك الكتاب الفريد<sup>(٤)</sup>.

وما زالت به « فتاة الشرق » لبيبة هاشم تستحثه حتى استكتبتُه في معنى الصداقة<sup>(٥)</sup> بعدما قدَّم لها « درس الحياة » الذي قال فيه<sup>(٦)</sup> :

(١) ديوان الرافعي هامش — ٦٨

(٢) راجع كتابنا الإمام الرافعي — ٣٧٩ وما بعدها

(٣) ديوان النظرات — تحت الطبع

(٤) راجع دراستنا له في الرسالة الإسلامية — ٧٦، ٧٩

(٥) فتاة الشرق — شباط/فبراير ١٩١٩ م

(٦) فتاة الشرق — كانون الثاني/يناير ١٩١٩ م

« إِنَّ أَحْسَنَ الْعِلْمِ مَا عَلَّمَكَ سُنَنَ الْحَيَاةِ وَأَغْرَضَهَا.. وَأَقْوَى الْقُوَّةِ مَا غَلَبَتْ بِهِ عَلَى نَفْسِكَ حَتَّى تَنْطَبِعَ عَلَى هَذِهِ السَّنَنِ، وَأَذْكِي الذِّكَاةِ مَا أَنْفَقْتَهُ فِي وَجْهِ الْعَمَلِ الَّذِي تَقْضِي بِهِ هَذِهِ الطَّبِيعَةُ، وَأَهْنَأُ اللَّذَاتِ رَاحَةً مِنْ تَعَبِ الْعَمَلِ الَّذِي تَعْبَتْ فِيهِ؛ لِتَسْتَأْنِفَ عَمَلًا آخَرَ ».

وَكَانَتْ لَهُ مَعَ الْأَدِيبَةِ الْعَرَبِيَّةِ « مَيِّ » حَيَاةُ حُبِّ سَامِيَّةٍ وَصَدَاقَةُ فَرِيدَةٍ ارْتَفَعَتْ عَلَى الشَّبَهَاتِ، فَقَدْ عَرَفَهَا فِي دَارِ « الزُّهْرُ » وَكَمْ كَانَتْ لَطِيفَةً مَعَهُ، وَصَارَ يَلْقَاهَا فِي « الْمُقْتَطَفِ » وَيَتَادَلُّ مَعَهَا الرَّأْيَ فِي أُمَهَاتِ الْمَسَائِلِ الْأَدِيبَةِ وَالْفِكْرِيَّةِ، وَيُعِينُهَا عَلَى الْأَخْذِ وَالِاسْتِيعَابِ، وَيُحَسِّنُ لَهَا أَسْلُوبَ الْكِتَابَةِ، وَقَدْ شَارَكَتَهُ الْخُطَابَةُ فِي مَوَاسِمِ جَمْعِيَةِ (الإحسان) وَأَسْوَاقِهَا، وَكَانَتْهُمَا مَدُوبَانِ عَنْ صَرُوفٍ وَنَمَرٍ بَاشًا<sup>(١)</sup>.

ثُمَّ حَدَّثَ أَنْ دَعَتْهُ لِتَنَاوُلِ الشَّايِ وَالِاخْتِلَافِ عَلَى نَدْوَتِهَا حَيْثُ يَجْتَمِعُ فَرِيقٌ مِنَ الْفُضَّلَاءِ<sup>(٢)</sup>، فَمَا كَادَ يَلْقَاهَا ثَمَّةَ حَتَّى تَطَوَّرَتِ الْعِلَاقَاتُ بَيْنَهُمَا، وَكَأَنَّمَا أُخِذَ بِسِحْرِ حَدِيثِهَا، وَجَذِبَتْهُ إِلَيْهَا بِفَتْنَةِ الْاسْتِقْبَالِ وَالِاخْتِفَاءِ.. فَكَانَتْ لَهُ مَعَهَا حَيَاةٌ أَدِيبِيَّةٌ فَرِيدَةٌ، اتَّسَمَتْ بِأَلْقٍ وَجِدَانٍ، وَاسْتَطَارَتْ فِيهَا رِسَالٌ لَهَا اجْتَمَعَ بَعْضُهَا فِي « رِسَائِلِ الْأَحْزَانِ » وَتَفَرَّقَ الْآخَرُ عَلَى صَفْحَاتٍ فِي « أَوْرَاقِ الْوَرْدِ » وَبَقِيَ الْقِسْمُ الْخَطِيرُ مِنْهَا فِي مَخْلَفَاتِ الْإِثْنَيْنِ<sup>(٣)</sup>.

وَكَانَ لَهُ حُبٌّ آخَرَ مَعَ أَدِيبَةٍ مِنْ لُبْنَانٍ أَيْضًا؛ هِيَ الَّتِي ظَهَرَ أَثَرُهَا

(١) أَنْظَرَ الْمُقَطَّم ١٧ سِبْتِمْبَر ١٩١٣ م مَثَلًا.

(٢) عَنْ خُطَابِ دَعْوَتِهَا لَهُ بِاسْمِ أَبِيهَا إِلْيَاسَ زِيَادَةَ.

(٣) الْإِمَامُ الرَّافِعِيُّ — ٣٠٠، وَقَدْ عَرَضَتْ لِرِسَائِلِهَا هُنَاكَ، أَمَّا رِسَائِلُهُ إِلَيْهَا فَمَا زَالَتْ فِي مَخْلَفَاتِهَا وَرَبَّمَا حِيلَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ النِّشْرَا

واضحاً في «أوراق الورد» وكادت نصوص رسائلها تغشى الورود المنثورة على رسائله<sup>(١)</sup>

وكادت بعد ذلك تعصف به حيوات حُب أخريات<sup>(٢)</sup> لكنه كان قد اتجه في أدبه الاعتقادي وجهة الدعوة فيها، إذ ملكت عليه جوانب نفسه وأدبه، ولم تكن تخلو من الحب هذه المادّة الانسانية الأولى في الدين.

\* \* \*

زواجه : كان للرافعي موعده مع القدر في زوجه الفاضلة السيّدة «نفسه البرقوقية» التي كملت له شعث أيامه، وجمعت له أسباب أدبه، وحفظت له الوداد في شعره ونثره، ووجهت نظراته نحو الحياة سيّداً، يسكن إليها فتشركه رحلة العمر مودّة ورحمة.

ذلك أنه بالروح التي سعى بها الى الوظيفة يلتمس أسباب الوسيلة في العمل والاستقرار، راض نفسه على أن يأخذ طريقه الى الطمأنينة وبناء الحياة بكيان أسرته الخاصة. وكان له صفي مودّة أديب، خلا إليه يوماً يحدثه في شؤون الأدب والحياة، والشيخ محمد عبد الرحمن البرقوقي يصغي إليه ليظفر منه «بشرف الديباجة»<sup>(٣)</sup> في التعبير البياني، والرافعي يومئذ في الرابعة والعشرين من عمره، يتدفق حيوية وشباباً، والحماسة والبلاغة تملآن عليه آفاق أدبه، دراسة وممارسة. فلما تحرك

(١) الإمام الرافعي — ٣٢٣

(٢) رسائل الرافعي — ٢١٣، الضياء — ٧ فبراير ١٩٣١ م

(٣) ذلك اللقب الظريف الذي لحقه بسبب من عنايته بالأسلوب العربي المبين والصياغة الفنية والبيان.



خاطرُهُ في الحديثِ يَتَنَقَّلُ في الكلام من فنونٍ الى شجون، راحَ يَصِفُ لصديقه الصفيَّ صُورَةً لفتاته كما يراها في أحلامه، وما كادَ ينتهي من قولٍ فيها، ونعتٍ لصفاتها، حتى أدركَ الأديبُ دعوى الأريب، وفَظِنَ الصَّفيُّ لروحِ النجِّي، فمدَّ إليه يدهُ يَصَافِحُهُ وَيُهَيِّئُهُ، ويذكرُ له أنَّها أُختُهُ، وأنه يُسَعِدُهُ أن يزفها إليه عروساً، فما برحَا مكانهما حتى قرءا الفاتحة<sup>(١)</sup>.

وهكذا بنى الرافعي بأهله، وعاشا أهنأ ما يكونُ زوجٌ وزوجٌ وكانَّهما في شهر عَسَلٍ مُستدام، رزقهما الله سبحانه صفوةً من البنين ونُخبةً من البنات، يتضمخونَ اليوم وأبناؤهم بطيبِ ذكراه.

وإلى هذه الزوجِ الفاضلةِ يعودُ الفضلُ الآخر الذي وافى بالخيرِ على الرافعي الأديبِ، وقد ارتَفَعَ به من الشاعريَّةِ والوجدانِ حتى بَلَغَ ضميرَ الأُمَّةِ في البلاغةِ والفكرِ، والإمامةِ في فقهٍ بيانها.

ذهبَ العريان يحسبُ أن قَوْلَةَ الرافعي « إذا رأيتَ رجلاً موفقاً فيما يحاولُهُ، مُسَدِّدَ الخطيِّ الى الهَدَفِ الذي يَرْمِي إليه، فاعْلَمْ أن وراءَهُ امرأةً تحبُّه ويحبُّها » تنطبق عليه بالذاتِ وكأنَّهُ فيها يَسْتَبْطِنُ ذاتُهُ في إرسالِها، ويَتَمَثَّلُ نَفْسُهُ في أدبه، ويترجمُ عنِ واعيته الباطنةِ والظاهرةِ معاً، وعَقَبَ عليها بقوله: إني لا أعرفُ فيمن أعرفُ أحداً تنطبقُ عليه هذه الحكمةُ مثلما تنطبقُ على حياةِ الرافعي<sup>(٢)</sup>.

وكذلك كانت حياته في بيته مثالَ الرجولةِ والأبوةِ والمسؤوليةِ؛

(١) حياة الرافعي — ٤٤

(٢) حياة الرافعي — ٢٤

فهو يكدُّ في الوظيفة أولَ النهار، ويكدِّحُ في الكتابةِ والتأليفِ طَرَفًا من النهارِ والليل، لِيُعِدَّ لهذهِ الأسرةِ الحياةَ الكريمةَ، وَيُهَيِّئَ لها أسبابَ الرِّفَاءِ وَسِرِّ الحال، ثم الامتياز.

وكثيراً ما كَانَ يشركُ زوجته وأولادَهُ في شؤونهِ الخاصة، ويلتمسُ عندهم الرأيَ والمشورة. ومن ذلك إشارةٌ زوجهِ عليه بالردِّ على رسائلِ حَبَائِبه وإطْلَاعِهَا على رسائلهنَّ.

وقد يتركُ محرابَ فَنِّهِ أحياناً، ليعكِفَ على تدرّيسِ أبنائه ساعاتٍ من اللَّيْلِ، ليمتازوا في النجاح بالامتحان<sup>(١)</sup>، كما يَصْحَبُهُمْ معه في نزهاته بين الحقولِ النضيرة، أو يسهرُ معهم في « السِّمَا » حيث يَشْهَدُ العالمُ الخارجي<sup>(٢)</sup>، ومن هنا شملَ التوفيقُ معظمَ أبنائه، فنالَ بعضهم الحظوةَ العلمية، وما خابَ منهم أحدٌ<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

## ٦ — حياته الأدبية

كان الرافعي منذُ طفولته، وفي أيامِ يفاعته كالذي يُحِسُّ كأنَّ « روحاً رَقَافَةً تطيفُ به، فتوحى لَهُ بالشعورِ المرهفِ، والإحساسِ البعيدِ المدى، أَنَّ لَهُ شأنًا تُجَلِّيه فِيهِ الأَيَّامُ » وكان قلقاً مُنْطَوياً على نفسه أحياناً، كثيرَ الانفراد والتأملِ، يَأْلَفُ الوحدةَ ويتبعَدُ عن الناس، ما لَدَّعَهُ الحرمانُ، وما صبا فِيهِ الميلُ الى الجمال؛ فَيُقَاسِي من الوَحْشَةِ حينَ « ينطوي على عِشْقٍ بعضَ الصُّوَرِ الحسنةِ فِي « المنصورة » مثلاً، حتَّى يَلْجَأَ

(١) حياة الرافعي — ٢٤

(٢) رسائل الرافعي — ١٣٣

(٣) حدثني بذلك محمد الرافعي

(٤) أحمد عيش — المقتطف ٩١ — ٥٢٩، أكتوبر ١٩٣٧ م — سيرة الرافعي.

الى شاطئ النيل وراء النهر الصغير بعيداً؛ يجد في تلك البقعة وحشة  
تعالج وحشته<sup>(١)</sup> وربما اضطرب فلا يجد له متنفساً لهوميه وأحزانه  
يتنفس به غير الشعر، يحفظ منه روائعه، ويتمثل به، ثم ينسج على  
منواله<sup>(٢)</sup>.

وهو في عفته وشبابه، والتزامه بقيم دينه الحنيف، ونوازع وجدانه،  
ودواعي الصبوة عنده، كاذ يُخفي في الاتجاه، ومن ذلك محاولته الأدبية  
— في أول أيامه — منظومة جاري فيها شيخ الاسلام تقي الدين بن  
تيمية في « ذم الهوى »، وتكلف لها حالة من الوعظ لم ينل فيها،  
ولا سيما في مثل قوله<sup>(٣)</sup>:

لعمرك ما الهوى إلا هوانٌ وهل رضي الخنا إلا اللئام؟  
ثم إنه كالذي يتدارك في كلمة يرسلها عفوَ خاطر على سجيته  
— وقد خيل إليه أن « الشاعر مخلوق فوق الانسان، غريب المزايا  
والأطوار، لا يُحسب من الناس ولا من الملائكة، أي أنه حائز على  
مزايا المخلوقات بأسرها »<sup>(٤)</sup>.

غير أنه سلك السبيل الى الشعر والقول، فما كاذ يُرسل فيه بعض  
القوافي حتى تلفت حوالبه كأنه يبحث عن الصدى، فأطال الحديث  
له في « الشعر العربي » دار فيه مع فنونه جميعاً، وعرف أغراضه،  
وجمع عناصره، وقال في بديعياته وموشحاته وأزجاله.. وقدح في

(١) الرسائل — ١١٢

(٢) ص. ش. — البصير — ٢٢ مايو/أيار ١٩٢٥ م

(٣) المنار — رمضان ١٣١٧ هـ — يناير ١٩٠٠ م

(٤) الثريا — ٧ — ١٩٠٤ م

القديم وأهاب أن يُنظرَ الى ما يقوله الشعاعون<sup>(١)</sup> من شعرٍ فيه روحُ العصر، وكأنه يرشحُ نفسه أو يعرضُ بضاعته، ويستلِفُ الأنظارَ إليها بما يَعْلَمُهُ من الشعر.

ولكنه على الرغم من هذه الاستطالة في البداية، واضطرابه في المخاطرة، استطاع أن يكسبَ العطفَ عليه، لا من والده وأصدقائه فحسب، بل من أدباء الجيل وشُعرائه، حتى قدّروه فوق قدره في تلك الأيام. فمضى في سعيه ليؤكدَ صلاته بشيخ الشعراء العائد من المنفى السحيق في الهند — محمود سامي (باشا) البارودي، وعقدَ له آصرةً مع الإمام محمد عبده، يَخْتَلِفُ عليه كلما هَبَطَ إلى القاهرة؛ وعرفَ نفسه وفنه للذواقة الشعراء إسماعيل صبري (باشا)، ولقيَ خليل مطران، وراح ينافسُ حافظ إبراهيم ويطاولُهُ، فلا يكادُ يقولُ في معنى أو يرسلُ قافيةً حتى يلاحقه الرافعي فيه، وربما ولّدَ في معانيه، وتعلّقَ بقافيته، ودلّ عليه بأنه لا يقولُ في الغزل<sup>(٢)</sup> كأنه يستطيلُ في السباقِ مع أولئك جميعاً.

ولما كان فيه من الاستعداد الأدبي الكبير، وبما في أعصابه من إحساس مُرَهَفٍ، وما في ذهنه من جلاءِ الخاطر وسُرعةِ الاستجابة لدواعي القول فيما ينفعلُ به، ووفرةِ ذكائه، وشعوره المُفْرَط.. قد يَسْرُهُ الله لما خُلِقَ له، وكما أراد أن يطمحَ، وأن يُلْعَ بنفسه هذا المكان بين أدباء العربية<sup>(٣)</sup>.

(١) المنار — ربيع الآخر ١٣١٨ هـ — تموز ١٩٠٠ م

(٢) العريان — ٣٠

(٣) العريان — ٤٩، وقد تنبأ له يومئذ عليّ القوم كالزعيم مصطفى كامل والإمام محمد عبده والشيخ محمد رشيد رضا، ويعقوب صروف ولطفي السيد وغيرهم.

حَدَّثَ لَهُ مَرَّةً أَنَّ اصْطِدَمَ بِالشَّاعِرِ عَبْدِ الْمُحْسَنِ الْكَاطِمِيِّ — إِذْ لَمْ يَلْقَهُ كَمَا أَرَادَ، فَتَصَدَّى لَهُ بِمَقَالَةٍ يَنْعِي عَلَيْهِ فَنَّهُ الشَّعْرِي، وَيَتَّهِمُهُ فِي أَسْلُوبِهِ، وَيَخْمِلُ شَأْنَهُ<sup>(١)</sup> حَتَّى اضْطُرَّ أَنْ يُصَافِيَهُ وَلَا يَجَافِيَهُ<sup>(٢)</sup>.

وَرَبَّمَا كَانَ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ يَشْعُرُ بِأَنْ جُهِدَهُ لَمْ يُنَلِّهِ بِفَنِّهِ الشَّعْرِي الْمَنْزَلَةَ الَّتِي يَطْمَحُ، فَكَانَ لَهُ مِنْ قَلَمِهِ الْآخِرُ فِي التَّصَدِّيِّ لَشُعْرَاءِ الْعَصْرِ بِتَقْوِيمِ يُوزَّعُهُمْ فِي دَرَجَاتٍ، فَتَفَسَّ عَلَى أَحْمَدَ شَوْقِي شَاعِرِيَّتَهُ وَخُطُوتَهُ، وَآذَاهُ بِالْغَمَزِ وَاللَّمَزِ تَارَةً، وَبِالتَّقْدِيرِ الْمَوْجِعِ أُخْرَى<sup>(٣)</sup> وَمَسَّ أَكْثَرَ مِنْ شَاعِرٍ فِي بَعْضِ خَصَائِصِهِ، وَارْتَفَعَ بِنَفْسِهِ إِلَى الطَّبَقَةِ الْأُولَى، فَأَثَارَ عَاصِفَةً بَيْنَ الْأَدْبَاءِ، جَعَلَتْ الصَّحَافَةَ تَشْتَجِرُ فِيمَا بَيْنَهَا، وَتَدَوَّرُ فِي مَعَانِي النِّقْدِ وَالْمُوازَنَةِ، وَالْإِمْتِيَازِ لَهَا مَكَانُهَا فِي تَارِيخِ الْأَدَبِ الْحَدِيثِ<sup>(٤)</sup>.

الشَّاعِرُ الْمَخَاطِرُ : وَبِهَذِهِ الرُّوحَ الْمَخَاطِرَةَ فِي الْمُبَارَاةِ أُسْرِعَ فَأَخْرَجَ دِيَوَانَهُ الْأَوَّلَ، يُثَبِّتُ فِيهِ وَجُودَهُ الشَّاعِرِ، وَيَأْخُذُ مَكَانَهُ بِجِدَارَةِ الْفَارَسِ، وَيَكْسِبُ مِنَ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَإِطْرَاءِ نَعْتِهِ وَأَدَبِهِ، مَا جَعَلَهُ يَقِفُ عَلَى الصَّرَاطِ الَّذِي مَضَى بِهِ إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ.

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ حَشَدَ فِي « دِيَوَانِ الرَّافِعِيِّ » بِأَجْزَائِهِ الثَّلَاثَةِ مِنْ فُنُونِ الشَّعْرِ وَمَذَاهِبِ الْقَوْلِ فِيهِ وَمَعَانِيهِ مَا كَادَ يَجْمَعُ بَيْنَهَا بِطَرِيقَةٍ تَأْلِيفٍ خَاصَّةٍ وَزناً وَقَافِيَةً وَمَوْضُوعاً، يُخَيَّلُ فِيهَا إِلَى الْقَارِئِ النَّاقِدِ كَأَنَّمَا كَانَ يَرِيدُ تَجْدِيدَ مَعَانِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ بِدِيَابِجَتِهِ هُوَ، وَأَسْلُوبِهِ الْخَاصَّ

(١) الظَّاهِرُ — ١٩٠٤ م

(٢) الْعَرِيَانُ — ٣١

(٣) وَحْيِ الْقَلَمِ ٣ — ٣٧٢

(٤) رَاجِعْ ص ٩١

— وإن تهافت أو تهلّهل نسجُهُ أحياناً — ممّا حَمَلَ حَافِظاً والمطرانَ  
على نَعْتِهِ بالمكثّر<sup>(١)</sup>.

غير أنّ الجدير بالذكر، والأثير بالملاحظة أن مفهومهُ لبعض القضايا  
المصيرية والاعتقاديّة ومواقفهُ القوميّة، والاجتماعية كانت تختلفُ عن  
مواقفِ ومفهومات أولئك جميعاً.. فلا يَرى فيها رأيَ الانطباع والمتابعة  
حَسَبُ، وإنّما له الامتياز والانفرادُ بآراءٍ خاصّةٍ في ذلك الوقتِ المبكّرِ  
من القرن — يَتَجَلّى فيها بُعدُ النّظرِ والموضوعية في آنٍ، وقد تكون  
هي التي باعدتُ بينهُ وبينَ الصّدارة التي طمح — وقد لَقفها سابقوه  
من المعاصرين<sup>(٢)</sup>.

ومن هنا ندرك حقيقةً في حياة الرافعي هي التي ميّزته على محيطِ  
الناس والموظفين والأدباء بخاصّة وربما أهل بيته أيضاً؛ ذلك أنّه كان  
يَعْتَدُ وُجُودَهُ قدراً، فيه ذلك الانفرادُ بالرأي والامتياز بالدعوى، وحملُ  
تبعاتِ الفكر والإصابة، وهي التي عرّفت به في الآفاق.

## ٧ — أخلاقه وسيرته

كان الرافعي مهيبَ الجانب، يدلُّ بمَلْبِسِهِ الحديث وزِيهِ الأنيق،  
ومَظْهَرِهِ الرائع كأنَّهُ مدْعُوٌّ للاحتفاء أبداً، يَمْلَأُ الوقارُ عليه مجلسَهُ  
ويصُونُهُ، ويحولُ بينهُ وبين أن يَتَدَنّى أو يختلطَ — وإنّ جالَ في الظُّرفِ  
أو حاولَ الدُّعابة، أو أثارَ النكتة؛ فإنَّهُ يَشْفُ عن جلالِ العلماء، ويعرِضُ

(١) سركيس ٩ — ١٩٠٦ م

(٢) زعم غيبيّ أنّه لم يكن يعيشُ في عصره — المجلة الجديدة — نوفمبر ١٩٣٥ م كأن  
العصرية هي التمرغ في أحوال العصر..

في بسطة أهل الفقه، ويزهو بالأدب، ويُفصح عن لَفَتَاتِ ذوي الرأي والسيادة بِقِوَامٍ مثيل.

لم يُعرف عنه التطفُّلُ أو انتهازُ الفرص والتقرُّبُ من الكبراء والعظماء، وكانت له قَنَاعَةُ الأبرياء، وَصَفْوَةُ أهل الفكر، وابتعادُ المجتهدين، يَأْلَفُ الوحدةَ مع التأملِ في مغاني الطبيعة، ويغشى أُنْدِيَةَ القومِ أحياناً، ولكنَّهُ كَانَ يَخْتَلِفُ على ديارِ أهليه في الشام والجبلِ الأشم؛ يَتَمَلَّى في أغراسِ الفِثْنَةِ عند أودية الهوى، ويتأملُ خَطَرَاتِ الجمالِ على الشطآنِ، وينأى عن الصُّخْبِ والزحام واضطراب الحياة.

وكم كَانَ له من معارفٍ وأصدقاء وأحِبَّةٍ من شَتَّى الدَّرَجَاتِ! فيهم الأميرُ المَهيب والسَّفيرُ الأديب ومنهم الزبَّالُ الفيلسوف، وبينهم المهندس والطبيب والغنيُّ والفقير — وقد أثَّرتْ حياته هذه فيه أَيْمًا تأثير، فترجَمَ عن ذاته، وَصَّوَرَ نَفْسَهُ بِأَدْبِهِ، وَتَعَهَّدَ أَهْلَهُ بِرَأْيِهِ وَرَبَّى أَوْلَادَهُ بِأَغَارِيدِهِ، وَنَاجَى الطَّبِيعَةَ والشَّعْبَ بِأَنَاشِيدِهِ، وَعَمَرَ الشَّعْرَ بِأَوْزَانِهِ وَقَوَافِيهِ، وَأَشْرَفَ على الحياةِ في مُعْظَمِ مظاهرها، ومجالاتِ سَعْيِهَا وخَوَافِيهَا، كَأَنَّمَا كَانَتْ له من هذه وتلك وهاتيك مَوَحِيَّاتٌ غَادِيَّاتٌ رَائِحَاتٌ، لَا يَفْتُرْنَ عنه في أدبٍ، وَلَا يَنْخَلْنَ عليه عن عطاء.

وما كَادَتْ بَوَادِرُ الاستقرار تقفُ به على صِراطِ الفكر وتمضي به إلى صَدَارَةِ العُلَمَاءِ، حَتَّى تَصْدَى للجامعةِ في بدءِ إنشائها، فنعى عليها خُلُوقَ دروسِها من موضوعاتِ الآدابِ العربيَّة، وَأَنَّ مَا يُلقَى فيها لم يكن فيه جَدِيدُ مَعْرِفَةٍ، وَلَا امْتِيَازُ عِلْمٍ يرتفع بها إلى ما يُراد<sup>(١)</sup>.

(١) أنظر المعركة بين القديم والجديد — ٦٩

ثم عادَ فسابقَ عُلَماءَ الأدب فيها، وأدهَشَهم بموفورِ عِلْمِهِ، حتى خَرَجَ عليهم بِمُصَنَّفِهِ الجليل في « تاريخ آداب العرب » الذي دَرَسَ فيه اللُّغةَ والرواية — في الجزءِ الأوَّل، وتاريخ القرآن والبلاغة النبوية في الجزء الثاني، وأُثِّبَتْ فيه من الدِّقَّةِ وتحريِّ الحقائق ما أُكْبِرُهُ عندَ المقتطف، كبرىِ المجلات العلميَّة يومئذٍ، وأعجَبَ به جيلُ الأساتذة والمحاضرين — في منهاجِ افْتِرَاعِهِ وجَلِّى فيه، — وإنْ أوْغَرَ صُدُورَ حاسِدِيهِ على توفيقِهِ فيما أَصابَ<sup>(١)</sup> من علمٍ وإحكامِ صنعة.

ويومَ استقرَّ الرَّأيُ عندَ صِهرِهِ وصفِيهِ عبد الرحمن البرقوقي أن يخرجَ مجلة « البيان » غشيَ الرافعي ميدانَ الصحافة — الأدبيَّة، بما عَقَدَهُ للمجلَّة من المقالاتِ الافتتاحية، والفصولِ النقديَّة والتقويمية، التي تُعَدُّ اليوم من الوثائقِ القوميَّة الخطيرة التي يُشير إليها الدارسون لبوادرِ الوُعي العربي في مصر وسابقاته في هذا المضمار<sup>(٢)</sup>.

وكانت آيةُ ذاك المقالة التي صَرَفَ فيها وَجْهَ الحديث الى القمر، وقد ناجى ليلاهُ هناك على رُبُوة من جَبَل لبنان، وحاوَرها في شُؤونِ الحياة والفكر والأدب والاعتقاد، في صورةٍ من البيانِ الفريد والغزلِ الطريف والمجازِ الوليد<sup>(٣)</sup>.

(١) كجورج زيدان الذي ابتسر كتاب بروكلمان لمجلته الهلال عام ١٨٩٢ م، وعاد يُسابق الرافعي به عام ١٩١٢ م وطه حسين — وقد أشهدَ الناس أنَّه لا يفهمه — وإن عاد يأخذُ عنه — في الشعر الجاهلي ٩٧، ويُطْري نعتَه — من بعيد — ٢٦٥

(٢) الريان — ٢١٥، والإمام الرافعي — ١٣٠، وقد ذُكِرَت محمود الفياض بذلك لدراسته في الصحافة الأدبية، ومُسَوِّدة الافتتاحية الأولى بالقلم الرصاص — في محفوظات محمود أبي رية.

(٣) لنا دراسة في الكتاب أدركنا فيه « ميثاقاً قومياً » ودعوة عربية مؤمنة — أنظر الرسالة الإسلامية — ٥١، ٥٣



## ٨ — الكاتب الانسان

ولما كانت هنالك بعض المذهبيّات المُترجمة في الفكر والاجتماع أيام الغزو الصليبي العائد بالتبشير والاستعمار، تحاول أن تغشى الحياة الاجتماعية للأمة بآراء في تحرير الفرد من رِقبة الأيام، وأخرى في تمكين المرأة من الاستقلال الذاتي،.. ونظريات في الاقتصاد الربوي، وما سُمّي بمذاهب الاشتراكية،.. راح الرافعي يُحاضرُ جمعية (الإحسان) في طنطا من حول هذه الموضوعات، ويُنشئ بمحاضراته الى الصحف كالمقطم والبيان والزهور والمقتطف، ليجمع له من ثم « كتاب المساكين » الذي يعدل ثورة تفكيرية بمُعطياتها الإيجابية جميعاً.

لقد تحرّى في « الكتاب » الواقع الحق للفقر والفقراء بآلامه من أخطاء الناس. وتصدّى للمُقارنة، ونظر في طبقات الاجتماع الإنساني ودرجات الفقر، فلم يُفرّق بين أمير ولا صعلوك ما دام الفقر يحتويهما بشكلٍ من الأشكال، وكشف عن الكذب والدجل والتلفيق، وما يُغشى الأفكار من أوهام الآراء، فلم يَنخدع بالمتخيلات النظرية من الكتب والرسائل، ولا أغرته الفلسفات بالموائد الخيالية<sup>(١)</sup> على الرغم مما كان عليه من اعتلال الصحة وقلة العافية في تلك الأيام السود من الحرب وتمكّن الاحتلال.

\* \* \*

## ٩ — النشيد الثائر

وما كادت ظروف الحرب الآثمة تتمخّض عن المقاومة القومية في الديار العربية التي احتلها الحلفاء — وفي مقدمتها مصر الباسلة،

---

(١) انظر المقتطف ٦ — ١٩١٣ م والهلal ٢ — ١٩٢٤، والرسالة — ٥٤

حتى كانَ الرافعي لسانَ الأُمّةِ المناضلةِ عن قيمها وكرامتها بأدبه وفنّه، وقد رَفَعَ لها أكثرَ من شعارٍ، وكانتْ بعضُ منظوماتِهِ نشيدَ اليقظةِ القوميّةِ ومردداتِ أبناءِ الأُمّةِ، وعُنوانَ الكرامةِ الوطنيّةِ، على الرّغمِ من انقسامِ وسائلِ المقاومةِ، واضطرابِ تحرّكاتِ العربِ في أقطارِهِم، بين الكياناتِ، التي فَرَضَتْها أحداثُ الانحسارِ العثماني، والاحتلالِ الأوروبيِّ البغيضِ، الذي مَزَقَها في قُطُريّاتٍ وطائفيّاتٍ يُدايرُ بعضها بعضاً. ونشيدُهُ الأثيرِ « اسلمي يا مصرُ » ما يَنرُحُ الأَلسِنَةَ، ولا يُغادرُ الأُذْهَانَ إلى الآن. وكذلك نشيدهُ الاعتقادي الأثيرِ « يا شبابِ العالمِ المحمدي » الذي كان صرخةَ الدماءِ في الانتباهةِ الفكريةِ التي تستأثرُ بالامتيازِ العقليّ والتدبرِ الحكيمِ.

ثم نشيدُهُ الآخر « حماة الحمى » الذي أضْحى النشيدَ القوميّ للأُمّةِ العربيّةِ، بعدما شرّقَ في العراقِ والشامِ، وغَرَبَ في تونس والمغرب<sup>(١)</sup> فأضْحى الرافعيّ بذلك الأديبَ الشاعرَ لسانَ النهضةِ العربيّةِ، ومثالَ يقظتها القوميّةِ لا مُنازع.

\* \* \*

## ١٠ — جهاده الفكري

لقد تمكّنتْ بعضُ الدعواتِ الغزوية — بعد الاحتلالِ وتمزيقِ الوطنِ بالقُطُريّاتِ — من عقولِ الكثيرين من ذوي المكانةِ العلميّةِ والتبعااتِ الدراسيّةِ، والمجالاتِ الثقافيّةِ والسياسيّةِ.. ومضّتْ تصوّرُ للناسِ دينَ المحبّةِ الانسانيّةِ في صورتيه؛ الماسونية والتبشيرية، بتصدّدٍ ظاهرٍ للعروبةِ،

---

(١) أنظر « أغاريد الرافعي » أخرجه وزارة الثقافة العراقية — ١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م.

والحادٍ لدينها، ومَسٌّ بفضائلها، وفي بُغْضِ الْعَرَبِ وَخصائصهم، وتَسْفِيهِ  
لِأَعْرَافِهِمْ وَأَحْلَامِهِمْ، وْحَطٌّ مِنْ عَادَاتِهِمْ وَتَقَالِيدِهِمْ الَّتِي تَجْتَمِعُ فِي  
الْمَرْوَعَاتِ، وَتُسْتَقِيمُ بِالتَّقْوَى وَثَبَاتِ الْأَخْلَاقِ..

التجديد الفريد : أدرك الرافي ذلك في مرماه ومبتغاه، ولكنَّهُ سَلَكَ  
طَرِيقَهُ الْفِكْرِي الْمَجَاهِدَ بِثَبَاتٍ اعْتِقَادِيٍّ مَتِينٍ، وَجَلَّى فِي مَضْمَانِهِ لَمْ  
يُعْرِفْ لِسَوَاهٍ؛ فَمَضَى يَحَارِبُ فِي مِيدَانَيْنِ، وَنَازَلَ هَوْلًا وَأَوَّلَكَ وَمَنْ  
وَرَاءَهُمْ فِي جَبْهَتَيْنِ، وَجَالَذَهُمْ جَمِيعًا بِسِلَاحَيْنِ.

كَانَ فِي الْأَوَّلِ مِنْهُمَا يَنْتَقِي مَوْضُوعَاتِ الْحُبِّ، وَفَنُونَ فَلَسَفَةِ الْجَمَالِ،  
وَنَوَازِعِ الْوُجْدَانِ، يَسْتَبْطِنُ ذَاتَهُ الْمُؤْمِنَةَ فِيهَا؛ لِيُثَبِّتَ لِلْعَرَبِ مِنَ الْخَصَائِصِ  
النَّفْسِيَّةِ، وَالْمِيزَاتِ فِي الْمَقُومَاتِ، وَالشَّأَوِ الْوُجْدَانِيَّ الْبَعِيدَ مَا لَا يُجَارِيهِمْ  
فِيهِ قَوْمٌ، وَلَا تُبَارِيهِمْ أُمَّةٌ، وَلَا تَكَادُ تَدْرِكُهُمْ نِخْلَةٌ، وَذَلِكَ فِي رِسَائِلٍ  
يُسَمَّى بَعْضُهَا (رِسَائِلُ الْأَحْزَانِ) فَيَتَحَدَّثُ عَنْ نَفْسِهِ بِضَمِيرِ الْغَيْبِ مِثْلًا  
لِلْإِنْسَانِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي تَجْتَمِعُ فِيهِ الرَّجُولَةُ وَالضَّمِيرُ وَالدَّمُ الْكَرِيمُ. أَوْ  
يَنْشِئُ يَسْتَمْطِرُ (السَّحَابَ الْأَحْمَرَ) مَعَانِي فِي قِيمِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَأَحْوَالِ النَّاسِ  
وَأَمْزِجَةَ النَّسَاءِ فِي الْحُبِّ خَاصَّةً، وَكَيْفَ تَتَجَلَّى هَذِهِ الْعَوَاطِفُ الْإِنْسَانِيَّةُ  
أَوْ تَتَهَافَتُ عِنْدَ هَوْلَاءِ وَأَوَّلَكَ. أَوْ يَنْعَطِفُ فَيَكْتُبُ عَلَى (أَوْرَاقِ الْوَرْدِ)  
بِأَنْفِعَالٍ عَاطِفِيٍّ سَامٍ، وَكَأَنَّهُ يَجِدُّ تَارِيخَ دِينِهِ بِتَطَوُّرِ أَفْكَارِهِ أَنْصَارِهِ؛  
فَهُوَ يَأْخُذُ بِأَيْدِيهِمْ أَبَدًا مِنَ الْآلَامِ أَوْ الشَّحْنَاءِ، أَوْ الْحُرُوبِ إِلَى افْتِعَالِ  
الْفِكْرِ، وَالْإِمْتِيَازِ عَلَى الْفَلَسَفَةِ، وَإِرْسَالِ الْحِكْمَةِ، وَالْإِصَابَةِ فِي التَّجَرُّبَةِ  
وَالنَّدَاءِ.

يَقْرُنُ ذَلِكَ الْمَذْهَبَ بِحَقِيقَةِ الْإِعْتِقَادِ الْإِنْسَانِيِّ الَّذِي يَتِمُّثَلُ بِالْمَرْوَةِ،  
وَيَنْهَضُ فِي التَّقْوَى وَيَقُومُ عَلَى الْإِخْلَاصِ، مَا أَمْتَدَّتِ الْفِطْرَةُ الْإِلَهِيَّةُ

التي فُطِرَ الناسُ عليها. — والإسلام الحنيف يأبى إلا أن يحفظَ على الناس ذلك الناموس، وأن ينزعَ التكلفَ عنهم، ويرى العودة بهم الى ذلك العُرسِ الإلهي مروةً وتقوى!

قَصَدَ الرافعي ذلك — وقد وَفَّقَ له سبيلُهُ في التجديد بالأشلوب، والإحياءِ للبلاغة، والإشراقِ على المعاني، والتوليدِ في الأفكار، وتمكينِ المجازِ من الحقيقة، أو بعبارةٍ أدقَّ؛ في الإقبالِ بالبيانِ أديباً اعتقادياً، وفكراً عربياً مبيناً، بما يهدفُ إليه من جلوةِ الآراء وإشراقِ الجملةِ الأدبية، وإرادةِ الاعتقاد التي تستبدُّ بالتكوينِ العقليِّ للأمة، وتقيمُ له المَعْدَلَةَ مع الذوقِ والضميرِ واتِّقادِ الوجدان، إعداداً وتقويماً مع الحياة.

ربما كانَ ذلك الحادثُ — الغريب نوعاً — الذي ألقى به في خِصَمِّ هذه الأمواجِ أُخَذَ وسائلَ القَدَرِ لهذا المآل، مُدَّ يومِ «لبنان» ولقيَ في إحدى رَبَوَاتِهِ صُورَةَ من بقايا أحلامِ صباه،.. ويومَ نَادَتْهُ أديبةُ (المقتطف) «مي» ليحضرَ نَدِيَّهَا في حَفْلٍ شاي أقامته، وليتردَّدَ على مجلسِها كلَّ يومٍ ثلاثاء،.. فكانَ له ما كانَ من تلك الثمراتِ والرسائلِ التي سَدَّتْ نَقْصاً في تاريخِ الأدبِ العربي وفنونه.

وكذلك حينما ألقى البريدُ إليه برسائلَ العاطفة، وخَفَقَاتِ القلوب، ونوازعِ الشَّباب، وصُورِ الحبِّ التي أفاضتْ عليه بوقِيعها وإلهامها جزءاً أكبرَ من «أوراقِ الورد» وجَعَلَتْ منه العطاء الطيب، فكانت «ماري يني» بذلِّها هذاك بُرءَ هواه، وتَمَّتْ وسيلته، وظهورَ مذهبه على سواه، وميزته على آدابِ الأمم، فكانَ أعجوبةَ الأعاجيب حادثةً وفناً<sup>(١)</sup> حتى

(١) الإمام الرافعي — ٢٧٩

غدا الكاتبُ القدير عند الجميع، لا يتردّد في الإقرار له بذلك أعتى مناوئيه .

تحت راية القرآن : وأما الميدانُ الثاني فكانَ في حمليه « لراية القرآن » مُجاهداً في سبيلِ الله بمعاركٍ فكريةٍ رهيبة، نازلَ فيها شائئيه من حَمَلَةٍ فكرٍ أوربة الضليل، بلا هُودة. وكانت مجالاته في الأدبِ والنقدِ والتاريخ ذاتَ حُطورةٍ بالغة؛ كَشَفَتِ الزُيْفَ والدَّجَلَ والتضليل والنفاق، وما كانَ يدورُ من اتّجاهاتٍ في تمصيرِ اللغة وما حاوَلَه « لطفي السيّد »، أو ابتسارِ الفكرِ الغربيّ الذي توحّاه « سلامة موسى »، أو ادّعاءِ البحثِ الذي تورّطَ فيه طه حسين، أو النقلِ والأخذ غيرِ الأريب الذي تمثّل به « عباس محمود العقاد » أو محاولات غيرِ هؤلاء، ومداورات أولئك ومن يلحقهم أو يلوذُ بهم.

أدركَ الرافعي بثاقبِ بصرِهِ وبُعْدِ نَظَرِهِ؛ أَنَّ الفكرةَ لَيْسَتْ بنتُ أحد، وإنما هي إذا ما نَبَتَتْ بخبثٍ فلن يكون ثمرُها إلا نَكِداً.. « وَلَنْ تجدَ ذا دخلةٍ خبيثةٍ لهذا الدينِ إلّا وجدتَ له مثلاً في اللغة.. وإنّ — أصحابنا — لا يَجهَلُونَ أَنَّ الأصلَ في التربية بالحملِ على الأخلاقِ، وعلى روحِ الأُمّةِ التي تميّزُ بها<sup>(١)</sup>. وحين رأى أحدَ هؤلاء — وقد أعياهُ الفهمُ، علّلَ ذلك بإحدى ثلاث؛ إمّا طبعٌ مُستَوِجِمٌ في النَّفسِ مَبْنِيٌّ على المُكابرةِ والمراءِ في اللّجاجِ والسُّفْسطةِ، كما يَفْعَلُ أهلُ الجَدَلِ في غلبةِ ثرثرةٍ.. وإمّا خَلَقٌ في الخيالِ والفكرِ لا يَرْتَفِعُ وإنما يَسِفُ وَيَهْبِطُ، وإمّا عَقْلٌ ولا كالعقولِ<sup>(٢)</sup> ».

(١) المعركة — ١٠١

(٢) وحي القلم ٣ — ٣٠١

وبهذا وذلك أصبح الرافعي من أكبر النقاد، لا يملك قُوته ناقدٌ آخر، ولا يُطاوَلُهُ في البيان مطاوِلٌ، كما لم يُفْتَهُ من مذاهبِ النقدِ الحديثةِ شيءٌ — وقد توفّرَ عليها جميعاً — وزاد هو ما برع فيه من تحليل واختبار.

\* \* \*

## ١١ — المعاصرة والاتجاه

كانت حياة الرافعي في النصف الأول من القرن، وما كان يجري فيه من تحوّل في السياسة القوميّة وتبدّل في القيم والأعراف، وتقابل في العادات والتقاليد، وانتظام وافتراق في المذاهب والأفكار والآراء. كان ذلك الإنسان العربي الذي عاش في مصر بوجدانه، وفي الأمة العربية بضميره، ومثّلت له الحياة بحقائقها ووقائعها وفجائعها، ولَفَتَت القدر فيها، حتّى عَظُمَ إنتاجه الأدبي كمّاً وكيفاً، وانفردَ بالنظرة التحليليّة التي كثيراً ما كانت تُصيب في الهدف، وتوضّح في المقصود، وربما استمزج الأنواء بعبقريته في المحاذير، والتُدْرِ في البشريات<sup>(١)</sup>.

وعلى أنّه من أبناء الفقهاء، وأنّ معظم أهليه وأبناء عمومته قد سلكوا سبيلهم في التعليم إلى الأزهر وأروقته، فقد اتخذ طريقه إلى المدارس الحديثة، فكانَ يَسْتَعِينُ بأبيه على ما يُحوز تلك الدراسة من علوم الشريعة والفقه والعربية<sup>(٢)</sup> — وقد لبسَ البدلة الرُومانيّة، وراح يفتّش عن مكانه

(١) أنظر قوله في مستقبل الترك — الرسائل ٧٠

ورأيه في قيام العربية من العراق إلى الأطلسي — الهلال ١٩٢٠/٢ م.

(٢) الهلال ١ — ١٩٢٧ م

في الوظيفة ودنيا الأدب والصحافة، وما أَحْضَرَهُ العصر من صِفَاتِ المدنية وعاداتها، بل يُسَارِعُ الى إِدْخَالِ الكهْرَبَاءِ الى بَيْتِهِ، وقد أَلْخَفَ بَطْلِبِ السَّمَاعَةِ المخترعة قَبْلَ أَنْ يَعْرِفَهَا أَحَدٌ، ويسجل صَوْتَهُ على اسطوانةٍ لحسابِ شركة « ماركوني ».

ويومَ شَرَعَ قَلَمُهُ وَرَفَعَ عَقِيرَتَهُ، نَظَّمَ وَكَتَبَ في الموضوعاتِ الْمُحَدَّثَةِ مُوَازِنًا وَمَسَابِقًا لكثيرٍ من اتِّجَاهَاتِ الأدبِ والفنِّ والاجتماع التي تُعَدُّ من الجديدياتِ في اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ<sup>(١)</sup>. ولعلَّ من أْبْرِعِهَا ما كَانَ له فيه التوفيق في الموضوعاتِ الغزليَّةِ من الحبِّ ورسائله، وفلسفه الجمال، كما خَرَجَ بالنثر العربي الى المعاني الوجدانيَّة، بل جَعَلَ فِيهِ قِصَائِدَهُ ذات المعاني الشعرية الفريدة<sup>(٢)</sup>.

وكان له في تجديدِ الْمَفْهُومَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ ما عُرِفَ بالامْتِثَالِ فيه بين مُعَاَصِرِيهِ مِمَّنْ حَاوَلُوا مُحَاوَلَتَهُ — وقد سَبَقَهُمْ في التحرِّي، ونَبَّهَهُمْ الى موضوعاتٍ عَادُوا فِيهَا يَجَارُونَهُ، أو يَدْعُونَ في جَوَانِبِ أُخْرَى<sup>(٣)</sup>.

غير أَنَّهُ في الوقت الذي كَانَ فيه الْأَدْبَاءُ يَفْتَرِقُونَ من حَوْلِهِ في تَجْمَعَاتٍ تَلْحَقُ بِالسِّيَاسَاتِ أو تَلُوذُ بِبَعْضِ الْمَبَادِئِ وَالْأَفْكَارِ الْمَجْلُوبَةِ، كَانَ يَنْفَرِدُ بِصِفَتِهِ من الْاِسْتِقْلَالِ بِالفكر والمثابرة على عُروْبَتِهِ، والالتزام بدعوتهِ الْمُؤْمَنَةِ، وَرُوحِهِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْفَقِيهَةِ.

(١) راجع فصل الفنون الآتي.

(٢) أنظر « الانبعاث القومي للضمير العربي في أدب الرافي ».

(٣) الإمام الرافي — ١٥١

## ١٢ — الأديب الإمام

أجل لقد تفاعل مع عصره وتأثر بعوامل الحضارة وجدّد في مُعطياته الوجدانية وثبّت من الوعي القومي، وآثر الحياة الحرّة الكريمة في أدبه وفكره؛ يُحافظ على سيما العربية وطابعها في فنونها جميعاً، مع ما يُلقى عليها من فته من مسحّة الإبداع في التوليد والعطاء الفكري، والجمال الفني الآسر في الكتابة وانتظام معانيه في روائع من أسلوبه الفريد.

قالت (السياسة) يوماً<sup>(١)</sup>: « حَطَبَ الرافعي في حَفْلٍ خاص بطنطا، وكانَ ترتيئه بعد شوقي وحافظ والمطران، فكانَ ظريفاً معهم جميعاً ». وقالت أيضاً: حضرَ الرافعي حَفْلَ تكريم « كريمان » ملكة الجمال؛ فقال: إني راضٍ عن سُفورِ هذه بعينها لأنّها أشبهُ بتسبيحةٍ إلهيّة، فقدّر الجميعُ فيه هذه الالتفاتةَ البارةَ في تقدير الجمالِ وخطّره<sup>(٢)</sup>.

ولم يزلِ الرافعي كذلك يتحوّل في أدبه من طَوْرٍ الى طَوْرٍ، حتّى انطلقَ فنه البياني من صَفِّ الأدبِ وفنونه، الى الاعتقادِ وفلسفته؛ يَفْقَهُ الحياةَ الفكريةَ وما يُعوّزُها من رسالةِ الدين الحنيف، فيصوّرُ مذهبَ العُروبةِ في الإشرافِ على الدنيا بنورها الرّبّاني، وفضائلها النفسيةَ ويُعظّمُ شعائرَ الله ببعثِ قيمها، وأعرافِ أهلها،.. وربما انفتحَ هذا المذهبُ أكثرَ وأوسعَ في دراستنا التالية، حين ندركُ فيه شخصيّةَ المفكر الفيلسوف.

\* \* \*

(١) السياسة — ٢١ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٢٧ م

(٢) السياسة — ٢ مارس/آذار ١٩٣٣ م



وقَفَ الرافعي في آخره أيامه يتأمل عصره، ويستبطن ذاته، ويراقب أعماله، وكاد يدرك في نفسه مهمة الناقد الذي يملأ فراغ العصر<sup>(١)</sup> وقد أعياه التفتيش عنه ثلث قرن، بين أبناء جيله من المفكرين والفُقهاء والأدباء، حتى راح « يستعد لحملة التطهير التي تهدم العصر من أركانه الضعيفة، لتعيد بناءه على أسس سليمة من المتانة والقوة »<sup>(٢)</sup> ذلك ليحفظ للأمة القدرة على التغيير، ويمكن لها إرادة الحياة. وعادت به ذكريات أيامه في طفولته، وكيف دُعيت لتحمل الرجل الذي فيها تلك الرسالة والدعوة المؤمنة في قوله تعالى « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » وكيف كان يخشع في كل ضائقة لهذا الصوت « واضبر وما صبرك إلا بالله »<sup>(٣)</sup>.

ورأى الأيام من حوَالَيْهِ — وقد حالَ فيها كل شيء، فأولو الأمر ممالك أحق بالبيع أولاً ثم العتق، من الحكم أو التدبير<sup>(٤)</sup>، والعلماء ما فيهم الإمام الذي يلتقي عليه الإجماع، ويكون ملء الدهر في حكمته وعقله، ورأيه ولسانه ومناقبه وشمائله<sup>(٥)</sup> والأدباء « كل من ينشر له يعد نفسه أديباً، وكل من عد نفسه أديباً جاز له أن يكون صاحب مذهب، وأن يقول في مذهبه، ويرد على مذاهب غيره »<sup>(٦)</sup>.

وبينما هو يُخطط للرد على إحدى المفتريات على الدين الحنيف،

(١) الرسائل — ٢٥١

(٢) الزيات — الرسالة ١٧ مايو/أيار ١٩٣٧ م

(٣) آخره سورة النحل — أنظر وحي القلم ٣ — ٢٨

(٤) الرسالة ٢٠٠ — ٣ مايو ١٩٣٧ م

(٥) الرسالة ١٩٣ — ١٥ مارس ١٩٣٧ م

(٦) الرسالة ١٩٣ — ١٥ مارس ١٩٣٧ م

وموقفه من الحضارة<sup>(١)</sup> التفت الى أهليه كالذي يُلْفِتُ نَظَرَهُم لشيءٍ بقوله : « ... ربما تَرَكْتُ السَّفينة في المحيط ». وتوجه الى زوجه كأنه يستدرك — وقد رأى أبناءه وكبيرهم لم يَنْتَه من دراسته في أمريكا، وصغراهن تَلْتَع بالراء، وتَضُم شفيتها على الباء<sup>(٢)</sup> — « ولكنك ستصلين بها الى شاطئ الأمان! ».

ولما ساءلته وجوههم عن المعنى الذي وراء هذا البيان قال :  
« رأيتُ حُلماً بأنَّ الناسَ يَحْمِلُونِي على أَكتافِهِم في الأزهر الشريف، وأعتقدُ أنها النهاية، وقد دَلَّتْ<sup>(٣)</sup> ».

وهكذا كان حكمُ القضاءِ ماضياً، فقد وافته المنيّة عقب صلاةِ الفجر يوم الإثنين التاسع والعشرين من صَفَر عام ١٣٥٦ هـ الموافق للعاشر من أيار/مايو ١٩٣٧ م وكانَّ الله قد استجابَ لدعائه المُتواصل، أن لا يُرَدَّ الى أرذلِ العمر قَبْلَ أن يلقاه راضياً مرضياً يرحمه الله.

### ١٣ — تأثره وتأثيره

كان الرافعي بأدبه العربي، وفكره الاعتقادي، ونشاطه القومي، كالخلاصة المُنصَّفة لتأثير الحضارة الوثيقة بالعلم والعرفان؛ إذ هو بعد أن وقَّفَ على تراثِ الأُمَّة وما فيه من مواضع الاتِّساق وما يُعوِّزُها، أوقفَ نفسه لدراسة الحياة العلمية مُنْبهَةً الأُمَّة وسبيلها القويم.

(١) أنظر المجلة الجديدة مايو ١٩٣٧ م ومحاضرة اسماعيل أدهم فيها.

(٢) العريان — ٢٨٤

(٣) حدثني بذلك الحاجة زينب صادق الرافعي — ابنته.

وبثبات المُطمئنِّ الى المنهاج أخذ بانعطافِ الإمام محمد عبده في تجديد الدعوة الاسلامية، وجَعَلَهَا سُلُوكاً مَثَراً بِالْأَرَاءِ والأفكار أمام المنطلقات الفلسفية الحديثة التي يظاهاها الغزو التبشيري، وتهرِّج لها المذاهب المحدثَّة في الغرب ما بين رأسمالية وشيوعية.

وقد وقف على الفلسفة النظرية لمفكري أوربة بما فيهم أصحاب المنفعة من الاشتراكيين الأوائل<sup>(١)</sup> والقوميين والفوضويين بمذاهبهم الاجتماعية المختلفة<sup>(٢)</sup>، ولكنه ارتفع على أحوالهم الواقعية بقوام خُلقي متين؛ يستأنف عليهم محاضراتهم وتخيَّلاتهم النظرية بمواءمة عبقرية تنهض بالإنسانية كلّها في كلّ أمة — إن هي أحسنت إرادة التغيير.. حتّى عدّ عصرنا هذا عَصْرَ الاشتراكية العلمية، وزعم أنها لن تكون الحلّ الأمثل لمعضلة الفقر والغنى — شاغل الحياة الشاغل<sup>(٣)</sup>.

كما سار أشواطاً مع الحركة العربية التي سارَ بها محمد رشيد رضا الحسيني في تعريب الخلافة، وتمثلها محبُّ الدين الخطيب دعوة سياسية متميزة؛ فهو دائم التقريب والملاءمة ما بين وجهات النظر في القضية القومية للأمة وبين الاتجاهات الفكرية؛ يعتدّ بالعروبة أصالةً ومُفاصحةً، كما ينافح عن الدين بحُسن درايةٍ واستباق.

ثمَّ أنه عادَ لتخليص التاريخ من ألواث ما علقَ به من سوءِ التفسير وخطَل الحكم، محذراً من إضافة أخطاء مترجمة أخرى الى صفحاته التي آذاها النساخ من الأعجام<sup>(٤)</sup>.

(١) ديوان الرافعي ٣ — ٢٦

(٢) وحي القلم ٣ — ٦٨

(٣) المقتطف — مايو/أيار ١٩١٣

(٤) البلاغ — ٨ سبتمبر/أيلول ١٩٣١ م

وعلى الرغم مما حِيلَ فيه بينه وبين أن يسلك سبيله الى الجامعة طالباً أو أستاذاً، فقد توفّر له من التلامذة والأنصار مَنْ سلكوا بهجه في مجالي الحياة، وكان لهم في أدبه وفنّه مادّة الحركة العربية الحديثة ورصيد الاتجاه.

كان هنالك بعض أبناء عمومته — وفيهم محمد سعيد الرافعي صاحب المكتبة الأزهرية، وولده توفيق ومَنْ استماله منهم كتباً ورسائل في معان مختلفة، حتى اجتمع له بعد ذلك جملة صالحة انتفع بها، ولما أراد طبعها نهاه الرافعي<sup>(١)</sup>.

وراسله محمود أبو ريّة ثلث قرن واجتمع له (رسائل الرافعي) حتى أخذ عنه بعض رأيه في تدوين الحديث النبوي الشريف ونسق البلاغة النبوية<sup>(٢)</sup>. فغامر في دراسة السنة المحمدية بعنوان غريب (أضواء على السنة..). كأنها في محاق!! وجازف في نعت الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله عنه « بشيخ المضيرة » موافقاً لرأي بعض ذوي النزعات الباطنية. حتى اتهم نفسه ودراسته وتسبب في أشياء كانت الأمة في غنى عنها — غفر الله له حسابانه في هذا الصنيع.

وكان محمد صادق عنبر يُلحَفُ في التوليد الذي عرف به أدب الرسائل الرافعي، فراح يرسم (رسائل مجنون ليلي) ويكتب فيها قطرات الندى في التعريف بأوراق الورد، وكثيراً ما كان يقلد الرافعي في أسلوبه<sup>(٣)</sup>.

(١) رسائل الرافعي — ٣٦، وقد أعاني البحث عنها في بيوت الرافعيين بمصر

(٢) الإعجاز — ٤٢٢، والكتاب النبوي.

(٣) الرسائل — ٧١، ١٥٧.

ولكن سعيد العريان كان هو صاحب الحُظوة الأثيرة، فقد تحول معه من القصة الى المقالة، فالدراسة التاريخية، ثم انعطف مع الأنصار بالدعوة العربية، وقد تلقفته الثورة في أيامها الأولى، فأحسن الاتجاه بالمؤتمرات التربوية والأدبية،.. ولعلَّ مِنْهَجَتُهُ للأزهر وإعادته الانفتاح به على الدراسة العلمية على ضوء ما وصف الرافعي<sup>(١)</sup> خير ما ختم به جهاده.

أما محمود محمد شاكر فقد كان الرافعي يؤثره ويُصفيه المودة، ويؤمل به أن يخلفه في الاتجاه بالفكر الأدبي، وقد بادأه بدراسة أبي الطيب (المتنبي) ثم الردّ على الدراسات المستغربة الناقلة فيه<sup>(٢)</sup> ثم تحقيقه لأمّهات الكتب العربية.

\* \* \*

وكان محمد بهجة الحق الأثري بالغ الحب والإيثار للرافعي، جهد أن يلقاه أولاً، حتى فضّله على سواه من أدباء العصر وكتابه، فرافق نزعتة العربية الصادقة، وسلوكه الاسلامي باعتقاد عظيم،.. وما فتىء يغري بفضله وأدبه.

وكان الرافعي قد رحب بأصحاب « الأيدي المتوضّئة » من الإخوان المسلمين — وإن لم يبلغوا شأواً في الفكر القومي الذي كان عليه،.. حتى تهيأ « الأنصار » يؤلفون صحبةً اعتقادية ويتدارسون أدب الرافعي

(١) وحي القلم ٣ — ٤٢ وما حدثني به رحمه الله

(٢)، كتابنا ٤٧١، المتنبي ط ٢ — ١ — ١٤٢

بمنهاج عربي مُبين لا يخلو من قسوة في النقد امتثالاً لوصيته<sup>(١)</sup>. فكان منهم عمر الدسوقي رأس الدراسات الأدبية والقومية في دار العلوم المحروسة، وأمينهم أحمد موسى سالم الذي كشف «قناع الفرعونية» ودرس التوحيد العربي، وألقى الأضواء على حقيقة التصوف، وآثر الهجرة إلى سيناء قبل أن تدخلها يهود، حتى عاد يستجلي الرؤية الوضحاء بخطوته الأثيرة في دراسة القرآن العظيم بالتدبر والافتكار والتبصر لتفسير الحياة العصرية على هدى وبصيرة من الإيمان والبيان، وإنهاض المعدلة من أمر الناس!

وربما كان لهذا الاتجاه بالأدب الرافعي والفكر الأنصاري أثره في التوجّه القومي الذي آثره البعثيون فيما بعد، فقد كان لأمين الحزب العام — ميكال أفلق<sup>(٢)</sup> — إعجاب بالرافعي فضله فيه على سواه، ولا سيما بعد نشره لمقالاته النبوية<sup>(٣)</sup> وعقده الموازنة بين موقف المسيح عليه السلام من قومه، ذلك الموقف الذي كأنه يمهد لفصل آخر وبين موقف النبي محمد ﷺ من قومه، إذ يقول الرافعي :

«لقد هزأوا من قبل بالمسيح عليه السلام، فقال للساخرين منهم : ليس نبيّ بلا كرامة إلا في وطنه وفي بيته ..»

أما نبيّنا محمد ﷺ فلم يجب المستهزئين؛ إذ كانت القوة الكامنة في العرب كلّها كامنة فيه، فلم يرد، ولكنه سكت سكوت المشرع الذي لا يريد من الكلمة إلاّ عملها حين يتكلم<sup>(٤)</sup>.

(١) الأنصار ٣٧، وما بعدها.

(٢) هكذا يحلو لي تعريب اسمه قرآنيّاً.

(٣) جمعُها في (الكتاب النبوي) هديتي للأسرة الرافعية.

(٤) وحى القلم ٢ — ٣٩

فقد أخذها الرفيق بقوة الثبت فقال : كان محمد كلُّ العرب؛ فليكن كل العرب محمداً، حتى ذهبت مثلاً للدعوة القومية<sup>(١)</sup>.

وما كاد الرافعي يدرس « سمو الفقر في المصلح الاجتماعي الأعظم » فينادي الاشتراكيين بقوله :

« تعالوا أيها الاشتراكيون فاعرفوا نبيكم الأعظم؛ إن مذهبكم ما لم تُحيه فضائل الاسلام وشرائعه كالشجرة الذابلة تعلقون عليها الأثمار تشدونها بالخيط كلَّ يوم تحلون وكلَّ يوم تربطون ولا ثمرة في الطبيعة<sup>(٢)</sup> ».

حتى أردف ميكال بقوله :

« هل يحسب أصحاب النظريات في الاقتصاد والاجتماع أنهم بالصاقهم ثماراً من الشمع على عود جاف ينفخ الروح في هذا العود ويجعل منه شجرة حية<sup>(٣)</sup> ».

ذلك أنه كانت للأمين العام ألفة مع الاسلام منذ الطفولة، حتى مسح على حالته بعروبة مؤمنة وضحاء معلنه، ثم قرأ الاسلام بعد قراءة الشيوعية من خلال موقف مصيري من تحديات الاستعمار، ومن تحديات الفكر الشيوعي معاً<sup>(٤)</sup>؛ فاكتشف أن الاسلام ثورة هائلة، وأنه

(١) ذكرى الرسول العربي — ١٢

(٢) وحي القلم ٢ — ٧٠

(٣) نضال البعث — ١٢

(٤) البعث والتراث — ٨٢

عقيدة ونضال في سبيلها، وقضية أمة بتصور إنساني، فهو تجربة وتنظيم  
وتثقيف، وإنه لدين أيضاً<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

ولكاتب هذه الصفحات مصابرة على الحياة الثقافية، ما برح يستكشف  
فيها معالم وصوراً ظاهرة يدل فيها على تأثير الراجعي في العصر ومداه.  
ويشتد بالزعم في ظهور تأثيره في خُصومه بالتفانيهم الى التراث العربي  
يصنفون فيه ويترجمون لتحسين مواقفهم أمام الناس، كما هي حال  
طه حسين ومسعاة عباس محمود العقاد وفي كتاب «الراجعي الناقد  
الأديب» تفصيل آخر.

---

(١) البحث والتراث — ٨٠، نكتفي بالقدر هنا، وموعدنا مع الاتساق الفكري.



## الفصل الثالث

### فُنون النَّثر والكتابة عند الرافعي

لم يدع الرافعي فنًا من فُنون الكتابة والنثر العربي لم يُحاوله بجدارة، أو يتحدّ أُمّام جيله من الأدباء والكتّاب، وإنَّ أشهر تلك الفنون هي التي نعرّضُ لها بالتعريف في هذا الفصل، مؤثرين الاستشهاد بآثاره فيها جُهدًا الإمكان.

#### ١ — المقالة

من أحدث فُنون الكتابة في العربية، للترجمة والأخذ عن اللغات الأوربية أثرٌ فيها واضح المعالم<sup>(١)</sup> وإن لم تكن في كثير من جوانبها بعيدة عن محاولات أدباء العربية في صدر أيامها، بل ربما كانت مُتطوّرة عن الخطبة، أو هي من بعض رسائل المتأخرين في الموضوعات التي تُفرّد لها، وقد كانت الصحافة سبيل ذيوعتها، حتى كادت تطبع آداب العصر<sup>(٢)</sup>. والمقالة بعد أنواع، منها :

(١) فن المقالة — ١٢

(٢) راجع عمر الدسوقي — نشأة النثر وتطوره — ٩٧ وفي الأدب الحديث ١ — ٤٠٨

## أولاً : المقالة الأدبية

التي تُعنى بشؤون الأدب واللغة والنقد، ومياديتها في :

### ١- التقرير

الذي يتحدث فيه الكاتب عن موضوع بعينه، أو شخصية بذاتها، مُستوعباً لمعانيه، يَصُوغُ بأسلوبه ما تداعَتْ عليه المعاني، دونَ الاستشهاد بكلام الآخرين، إلّا فيما ندر، ومن غير الإشارة الى المكان.. ومن ذلك مقالة الرافعي في « أمير الشعر في العصر القديم »<sup>(١)</sup> وفيها يبيّن كيفية التجديد في مثل قوله : « التجديد في الأدب إنّما يكون من طريقتين ؛ فأما واحدة فابراز الحيّ في آثار تفكيره بما يخلق من الصور الجديدة في اللغة والبيان، وأما الأخرى فإبداع الحيّ في آثار الميت بما يتناولها به من مذاهب النقد المُستحدثة وأساليب الفن الجديدة.

في الإبداع الأول لإيجاد ما لم يوجد، وفي الثاني إتمام ما لم يتم، فلا جرم كانت فيهما معاً حقيقة التجديد بكلّ معانيها، ولا تجديد إلّا من ثمة، فلا جديد إلّا مع القديم »<sup>(٢)</sup>.

ومنه المقالة التي كتبها في أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، التي وضعت من بعد مقدمة لكتاب ( الفاروق عمر )<sup>(٣)</sup>. وقد قال فيها :

(١) المقتطف ٧٧ — ٧ — ١٩٢٧ م

مقدمة كتاب محمد صالح سبك — أمير الشعر امرؤ القيس — في العصر القديم

— الأخبار ١٩٢٠ م

(٢) وحى القلم ٣ — ٤١٥

(٣) لمحمد دياب عثمان — المطبعة اليوسفية بطنطا ١٩٣٤ م

« هو رجلٌ لبسَ الدينَ سابغاً عليه، سُبُوغَ القميصِ على الجسمِ ؛  
يكسوه ضافياً، ويسترسُلُ عنه حتَّى يجُرَّ من ذلِله جِراً منه بِمَقْصَرِ  
يُفْضَلُ بعضهم بعضاً ولا يَفْضُلُونَهُ في الدينِ، ويتعاونون فيما بينهم،  
او يفوتهم جميعاً.. لا نقصَ فيهم إلا بالتَّمامِ فيه، ولا تقصيرَ لهم  
إلا بالقياسِ الى قُدرتِهِ، وما أطاقَ مما ضعفوا عنه، فهو كمالٌ لكمالهم،  
لا دليلَ نقصٍ ولا تقصيرِ.

بذَّ الملوكُ وهو زاهد، وبذَّ الزُّهادَ وهو ملكٌ، وفاتَ الحكماءَ ولم  
يَتَعَلَّمْ، ووقَفَ من الأخلاقِ على غايةٍ بعيدةٍ انقَطَعَ الفلاسفةُ دونها،  
وكانَ في أعمالِهِ وأحوالِهِ تفسيراً واضحاً صريحاً لقانونِ الإنسانيَّةِ الذي  
جاء به الدينُ الإسلامي، وجمع المتناقضات في وحدَةٍ نفسِهِ العظيمة،  
فبَطَلَ تناقضُها، واثَلَّتْ فيه وآتته بحقائقها ؛ فاحتمَلَ كُلُّ شيءٍ بحَقِّهِ  
الذي هو له، لا بخيالِهِ الذي يتخيَّلُهُ الناسُ كَذِباً وصدقا.

وكيف يجتمع مِلْكُ النفسِ وعبوديتُها، وتأثَلُ القُوَّةُ واللين، وتتصلُّ  
الرَّهبةُ والرجاء، وتتَنظَّمُ البطولةُ والحكمة، ويجيئُ الدينُ والدنيا معاً،  
ويقوم العدلُ والقدرةُ على سَنَةِ واحدةٍ ؛ فيتساوَى هذا الكلُّ المتناقض  
فيعتدلُ، فيتزَنُ، فيطرُدُ كُلَّهُ نَسَقاً واحداً في نفسٍ وثيقةٍ صافيةٍ مؤمنةٍ  
رحيمة، لا سبيلَ عليها الى طوارق الشهوات، وبَغَتات الطبيعة، ونزوات  
الحياة.. كأن هذه النَّفْسَ لا تتعرَّفُ من الدنيا قريباً ولا بعيداً... الخ.

ولو سُئِلْتُ بعدُ أن أجمعَ عمرَ العظيم بـكُلِّ مزاياه في جُمْلَةٍ واحدةٍ  
يَتَّخِذُها رجالُ الاسلام ميثاقهم الذي يعملون عليه لَقُلْتُ : إِنَّهُ رَجُلٌ  
أَرَصَدَ عقلَهُ سِجْلاً لهفواتِهِ المعدودة، التي لا تخلو الطبيعةُ منها، فلا  
يُغادرُ الهفوةَ، ولا شُبَّةَ الهفوةِ إلا أثبتَها ليعملَ ما يحوِّها، ويخرَجَ

الى الله والناس من تبعاتها، وبذلك صار التاريخ سجلاً لحسناته التي لا تعدّ.

ومنه المقالة التي أرسلها على لسان تلميذة في المسيح عليه السلام<sup>(١)</sup> :

« ملك من ملائكة الرحمة يهبط من سماء الله آتياً من حدود الأبد، ولجناحيه حفيف طالما آتست به نسمات الجنة، وتعلقت بأطرافه أرواح أزهارها الخالدة، كأنها معاني الورد في عطر الورد.. »

ومنه مقالات كثر أخريات، بينها مقالته في أحوال العرب، وقوله فيها<sup>(٢)</sup> :

« التاريخ كله دليل على أن العرب مادة كريمة في عنصر الإنسانية — وقد خصهم الله بإقليم وطبيعة لم يخص غيرهم بهما، فخرجوا من أثر هذا الإقليم وهذه الطبيعة وهم أكرم الخلق غريزة وطبعاً في النفس والخلق والعقل والروح، لا يحتاجون من التهذيب والتدريب الى أكثر مما يحتاجه الألباس الكريم في الصقل والرونق ؛ فاذا هو مشرق يتلألأ من كل جهاته، وإذا هو ينبئ عن صفاء معدنه بنوره، ويبين عن كرم عنصره بفضيلته.

ولما أراد الله أن يبعث في الأرض خلقاً جديداً، ويُنشئاً للعالم أماً مستحدثةً فتية، بث فيها العرب تحت ظلال سُيوفهم، وأروقة أخلاقهم

(١) العريان — ٢٦٤، الرسالة ٢٨١ — ١٩٣٨/١١/٢٨ م

(٢) مقدمة — أعجب العجب من أحوال العرب — منظومة عبد الحق الأعظمي — ٣ وهي تؤلف ميثاق الأنصار — راجع أحمد موسى سالم — لماذا ظهر الاسلام في جزيرة العرب.

وطباعهم، فكانوا مادةً قويّةً في دماءِ الشعوب، انبَعَثَتْ بها تلك الأجيالُ المتحضّرة التي أنشأت التاريخ العظيم، وأدارت الأرض دورةً جديدة، بما دَفَعَتْ فيها من القُوّة والنشاط والحركة.»

## ٢ — الترجمة

هي الكتابة في حياة شخصية علمية أو أدبية بأسلوب الكاتب، يعتمدُ فيها الوقائع والأحداث دليلَ توثيقٍ وثقافة.. وقد حفَلَتْ بها كُتُب الطبقات والمناقب والمصنّفات الأخرى<sup>(١)</sup>، وللرافعي منها :

ما كتبه في الشاعر محمود سامي البارودي — وإن كان قد خرج بها الى الدراسة الأدبية والتقويم ؛

« كان البارودي من صفاء الفطرة ونقاءِ الذهن وكمالِ الاستعداد، ونصيحةِ أهلِ البصر بحيثُ وجدَ السبيلَ فابتدَرَ الغايةَ حتى جاءَ شعرُهُ مُوثَقَ الرويِّ، متلائمَ حُسْنِ العَرَضِ، مطروحَ العبارة الى حيثُ تشير القلوب.. ولو أن الله مع ذلك أعطاهُ خيالَ حَكِيمٍ كالمتنبي أو غيره لكانَ أشعرَ مَنْ سَمِعَتْ له أذنٌ شعراً.. الخ<sup>(٢)</sup>».

ومنها ما كتبه في الإمام محمد عبده — وكأنها صورةٌ قلمية :

« رجلٌ كان في تركيب العالم الإسلاميّ أشبهَ بالجبهة من جسمِ المؤمن ؛ هي مَجْلَى نورِ الإيمان، وأعلى ما يَرْتَفِعُ للأعْيُنِ، ولكنها مع ذلك أوَّلُ ما يَسْجُدُ لله من هذا الجسمِ كله..»

(١) راجع المحفوظات ( بيلوغرافيا ).

(٢) المقتطف — مارس/أذار ١٩٠٥ م

خُلِقَ فصيحاً مُبينَ اللّهِجَةِ لأنّ لسانَهُ أُعِدَّ لتفسيرِ مُعْجَزَةِ الدُّنْيَا فِي هَذِهِ اللّغَةِ، فَكَانَ لِسَانُهُ — وَلَا غَرَوُ — مُعْجَزَةً فِي الْأَلْسِنَةِ.. وَكَانَ لَهُ عَقْلٌ لَوْ وُزِنَ فِي رُجْحَانِهِ لَعُدَّ بَيْنَ الْعُقُولِ مِنْ مُوَازِينِ التَّارِيخِ.. لَمْ يُخْلَقْ مِنْ قَبْلِ زَمَنِهِ لِأَنَّ الْأَقْدَارَ الْمُصَرَّفَةَ ذَخَرَتْهُ لِلْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ تَجَعَّلَهُ وَأَصْحَابَهُ النُّهْضَةَ الثَّالِثَةَ فِي الْإِسْلَامِ<sup>(١)</sup>.

كَانَ فِي تَفْسِيرِ كِتَابِ اللَّهِ رَجُلًا وَحْدَهُ عَلَى بُعْدِ عَصْرِهِ مِنْ فَجْرِ الْإِسْلَامِ ؛ فَإِذَا تَكَلَّمَ فِي آيَةٍ رَأَيْتَ كَأَنَّهَا الْآيَةُ نَفْسُهَا تَتَكَلَّمُ عَلَى مَلَأِ الْعَقْلِ بَيْنَ مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا. وَلَسْتُ أَدْرِي عَلَى أَيِّ رُوحٍ نَبَتْ هَذَا الرَّجُلُ، وَلَكِنَّ الَّذِي أَعْرِفُهُ أَنَّهُ حِينَ أَثْمَرَ فَنَضَجَ فَحَلَا أَذَاقَ النَّاسِ مِنْ ثَمَرِهِ طَعْمَ مُعْجَزَةِ الْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ<sup>(٢)</sup>.

وَمِنْهَا مَا كَتَبَهُ عَنْ نَفْسِهِ تَرْجَمَةً ذَاتِيَّةً فِي مَطْلَعِ « رِسَائِلِ الْأَحْزَانِ » وَقَدْ « اجْتَمَعَ لَهُ مِنْ تَارِيخِهِ إِنْسَانٌ بَلَغَ الزَّمَنُ تَحْتَ عَيْنِهِ نَيْفًا وَأَرْبَعِينَ سَنَةً، تِلْكَ السَّنَةُ الَّتِي يَنْقَلِبُ فِيهَا الْآدَمِيُّ مِنْ وَفَرٍ الْقُوَّةِ لَيْثًا، وَيَرْجِعُ مِنْ قُوَّةِ الْحِكْمَةِ نَيْثًا، وَيَعُودُ مِنْ تَمَامِ الْعَقْلِ إِنْسَانًا.. أَعْرِفُهُ أَسْلُوبًا مِنَ الْكِبَرِ وَلَكِنْ عَلَى نَفْسِهِ، وَمِنْ الشَّدُوذِ وَلَكِنْ فِي نَفْسِهِ.. كَأَنَّمَا فُتِحَتْ أَفْوَاهُ عُرُوقِهِ جَنِينًا وَمَلَأَتْهَا الْوَرَاثَةُ مِنْ دَمِ مُلِكٍ كَانَ فِي أَجْدَادِهِ، مُسْتَصْعِبِ الْمِرَاسِ ؛ فَهُوَ أَبَدًا فِي حَيَاتِهِ كَالْمُلِكِ حَالَتْ السِّيُوفُ وَالْأَسِنَّةُ وَالْقَوَانِينُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ تَاجِهِ.. » الْخ<sup>(٣)</sup>.

(١) الرَّافِعِي : نُهُضَةُ الْأَخْلَاقِ زَمَنُ الصَّحْبَةِ وَالتَّابِعِينَ، ثُمَّ نُهُضَةُ الْعِلْمِ مِنْ بَعْدِهِمْ ثُمَّ نُهُضَةُ الْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ الَّتِي يَدْعُو إِلَيْهَا الْإِمَامُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) السَّحَابُ الْأَحْمَرُ — ١٦٢

(٣) رِسَائِلُ الْأَحْزَانِ — ١٦

وربما كانت هذه السيرة الذاتية سبباً غير مباشر في « أيام » طه حسين و « حياة » أحمد أمين و « طفولة » سيد قطب وغيرها من تراجم الحياة، ولا سيما في ما فطن إليه من أعمال الروية في تجربة الحياة.

### ٣ - التقويم

هو المقالة الأدبية التي تبرز فيها قيمة الآثار العلمية والانسانية، وبيان خطورتها، ومنزلة أصحابها،.. ويجيء التقويم في :

أ - التعريف : الذي يُعنى بالنظرة الأولى في هاتيك الآثار، ويدل على بعض مزاياها،.. ومن أوائل محاولات الرافي في التعريف، مقالته في شعراء العصر التي أثارت زوبعة من المصاولات والمناقشات لها مكانها في تاريخ الأدب الحديث،.. وفيها يقول :

« ما لي لا أنفثها والقوم قد أصبحوا يتنافسون في أسماء الشعراء كما يتنافسون في ألقاب الأمراء — وقد استويا في الزور — فلا أكثر أولئك شاعر، ولا أكثر هؤلاء أمير، وأنت ترى أن ما يُشترطُ بكمال الشاعر أن يكون ذا قلبٍ قد وسع منه الاختيار، فتقلبت فيه المعاني من كل طائفة، وفكر قادر بما اكتسبه من القوة أن يكون ما شاء من المعاني على التجلي، فيأخذ منها ويدع، ومع ذلك عقلٌ يتعهد الفكر فيسقيه، والقلب فيزيد فيه، فاذا جرى الكلام على إعرابه في لغته، ووقف من غايته عند حد الصواب، تناول اللسان بأسلته ومر به فكان شعراً<sup>(١)</sup> ».

(١) الثريا — يناير/كانون الثاني ١٩٥٥ م

وبهذا المعيار يزُن ويعرّف شعراء الطبقة الأولى؛ محسن الكاظمي طويل النفس قويّ العارضة، والباروديّ ذا الشعر الجيّد البديع، وحافظ ابراهيم شاعر مصر الذي نصبه حكيمُ الشرق الإمام محمد عبده، والرافعي — نفسه — وولّعهُ الشديد بالغزل وبلوغه ما يبلغه الشاعر فيه.

الطبقة الثانية: إسماعيل صبري أبلغ الشعراء وأسماهم خيالاً، وأحمد شوقي الذي انزلهُ هذه المكانة بعد ما رأى من انقلابه في قصيدة رثى بها حبيب مطران فنزلَ بها الى ما ينطق فيه الصبيّ، وعدّ له سرقاتٍ، وخليل مطران وولّعهُ بانتهاج أساليب الفرنجة، فهو ينظم شعرهُ قصصاً، وداود عمون وإساءة الاقتباس، وقلق السبك، والبكري وشعره المغتصب المكره على البقاء في جلده، وغيرهم.

والطبقة الثالثة: كالكاشف احمد وخياله الضئيل، وسبكه المخيل، ومصطفى لطفي المنفلوطي وعينه السارقة لا البارقة، وأحمد محرم وسليقته العربية.. الخ.

ب — التقرير: هو ذكرُ المحاسن والتنويه بالفضل، والثناء على المؤلف، والعناية بمبلغ توفيقه، وللرافعي في هذا المجال عديدٌ من المقالات؛ منها تقرّظه لكتاب «البؤساء» الذي اختصر له حافظ ابراهيم الشاعر ترجمةً عربيّة فقال: «... ما البؤساء في ترجمته إلا فكرُ فيلسوف تعلّق في قلم شاعر، فانعطفت عليه حواشي البيان من كلّ نواحيه، وجاء ما تدري أشعراً من النثر أم نثراً من الشعر، وخرجت به الكتابة في لونٍ من الصفاء كأنما تتحلّ عليه أشعة الشمس،.. الخ»<sup>(١)</sup>.

(١) وحي القلم ٣ — ٣٦٠



وَقَرَّطَ «الجمعيّات التعاونية» كتاب عبد الرحمن الرافعي، وكتاب «سِرّ النجاح» للدكتور يعقوب صروف فقال في هذا:

«ما رأيتُ كتاباً تلاءَمَ نسجُهُ، واستَوَتْ أجزاؤه، ووضعَ آخرُهُ على أوْلِهِ، وانصَبَّ كلُّهُ من الغرضِ الذي كُتِبَ فيه، وجاءَ مَقْطَعاً واحداً في معناه وفائدته، كهذا الكتاب، الذي يُعَلِّمُ الضعيفَ كيف يقوى، والعاجزَ كيف يعتمد، والمُضطربَ كيف يَثْبُتُ، والساقِطَ كيف ينهض،.. ويُعَلِّمُكَ مع ذلك كيف تَرِيحُ الكدَّ بالكدِّ، وكيف تسقِطُ التَّعبَ بالتعب، وكيف تمضي عزيمةً وتعتقدها، وتضرب كرةَ الأرض بقدميك — وإن لم تكنْ ملكاً، ولا قائداً ولا فاتحاً»<sup>(١)</sup>.

وقرط «تاريخ الإمام محمد عبده» للأستاذ محمد رشيد رضا الحسيني فقال:

«كانت نفسي ممتلئةً بهذا الرجل العظيم، وكنتُ أراه وحدهُ يمثلُ معاني القوّة في الحياة الإسلامية كلها.. وهذا تاريخُهُ كتبه تلميذه وخليفته ووارثُ علمه السيد رشيد رضا الحسيني. فما أدري أهو يكتب التاريخ أم يصبّه صباً، وهل هو يجمعه عن الشيخ أم يُلقّاه من روحه؟ فلقد اتسع وأحاط كأنما يضربُ الحصار على أربعين سنة من نهضة لا يُريد أن يهربَ منه يوماً. وقد استوعب الحوادثَ فلاءَمَ بين جماعتها أحسن ملاءمة، ثم جنّسها أجناساً، ثم فصلها أنواعاً، ثم مضى بكلِّ حادثةٍ — وأوتي من القوّة على ذلك ما لا يقومُ فيه أحدٌ مقامه، ولا يجري غيره مجراه؛ إذ جمعت له مادتا التاريخ من البيان والخبر،

(١) المقطع ١٠ مايو/أيار ١٩٢١ م

فهو يشهدُ بما عاين، وينبئُ بما سمع، وإذ هو يكتبُ بقلمه وقلم الإمام.. فترى في هذا البحر من الورق كلَّ ما كتبه الإمام عن نفسه، وما دون من مقاصده وأغراضه وما جهد به للناس، وما أسرَّ به للسيد رشيد وحده.. وتالله إن الشيخ الإمام ليطالعنا في هذا الكتاب تاريخاً وأعمالاً بأهيب ما يطالعنا صورةً وهياً..<sup>(١)</sup>»

وقرظ في الشعر ديوان الأمير شكيب أرسلان فقال:

« الأمير كوكبٌ سيار — إن غابَ عن أرضٍ، فالعلم به في كلِّ أرض، وهو إمام في كلِّ فنونه من الأدب واللغة والترسل والشعر والتاريخ والسياسة، مُقدِّم في جميعها منظورٌ إليه نظرة أهل المسجد لإمام المسجد.. ولو أوجزتُ في شرح حقيقته العظيمة لقلت: إنه رجلٌ بعثته القدرةُ الإلهية في أقطار الدنيا لتُخرجَ هذا المجموع الذي لا يجمعه فرداً.. ثم لتخرج من هذا المجموع قوة، ثم لتعمل بهذه القوة عملها في نهضة العالم العربي، فروحه للثورة، وقلبه للإيمان، وعقله للسياسة، ولسانه للبيان، وهو في مجمله جملةٌ متميزةٌ تعارف عليها الأفراد، ولا يُعارض هو بفرداً..

وهذا ديوانه نشره لخصال ثلاث: أن لا يُنسبَ إليه غيرُ شعره، ولا يُنسبَ شعره إلى غيره، والثانية أن بعض قصائده تتعلق بوقائع تاريخية مشهورة، فنشرها حصّةً من التاريخ، والأخرى توفية الذين رثاهم في ديوانه من أعلام العصر بعضَ حقوق الوفاء.. وهذا تواضع منه وسمو أدبه، وإلا فكلُّ ما نفاه عن نفسه أثبتته شعره، فهو شعرٌ مفاخر بفصاحته وبراعته، ينزل من شعر العصر منزلةً فصحاء الاعراب من المؤلِّدين

(١) المقتطف — ديسمبر ١٩٣١ م — رجب ١٣٥٠ هـ

في صدر تاريخ اللغة والبلاغة، ففيه السليقة على أصحّها، والموهبة على أتمّها، وهو آية في الجزالة وقوة السبك وإشراق البيان، وحسن العرض وكمال الصنعة يتحدّر من طبع مبین رزين، وينفجر من ينبوع هذار فوار،.. فالشاعر تام بكلّ أسبابه ولكنه مصروف عن الشعر برسالة عظيمة يؤدّيها في غير مملكة الخيال، فهو في الميادين لا في الرياض، وفي الخنادق لا في القصور، وفي الحقائق لا في الأحيلة، ومع الأسود لا مع الظلمات، وهو لتأليف أمة لا لتأليف ديوان، فكان الشعر له دلالة على ناحية واحدة من نواحي كماله، فهو بقدر هذه الدلالة في قلبه وعظمته وانحصار أغراضه. وهذا فرق ما بين الأمير وبين رجل كأحمد شوقي عاش مدة عمره ليكون لساناً للذة والألم...»<sup>(١)</sup>.

وديوان «الملاح التائه» للشاعر علي محمود طه (المهندس) فقال:

«الشاعر الصحيح يُريك بقوّته وعبقريته أن الشعر نفسه يخدمه ليكون هو شاعره، وديوان «الملاح التائه» الذي أخرجته هذا الشاعر لا ينزل بصاحبه من شعر العصر دون الموضع الذي أومأنا إليه، فما هو إلّا أن تقرأه وتعتبر ما فيه بشعر الآخرين حتّى تجد الشاعر المهندس كأنه قادم للعصر محملاً بذهنه وعواطفه، وآلاته ومقاييسه، ليُصليح ما فسّد، ويُقيّم ما تداعى، ويرسم ما تخرّب، ويهدم ويبنى.

«وعلي محمود طه» ينظّم حين يُخرج المعنى من عصره ويلتحق بالتاريخ؛ كثرأء شوقي وحافظ وفوزي المعلوف والملك العظيم فيصل،..

(١) المقتطف — ديسمبر ١٩٣٦ م

على أنه في كل ذلك إنما يرمي إلى تمجيد الفن والبطولة  
في مظاهرها متكلمة ومالكة»<sup>(١)</sup>.

وقرظ كتاب توفيق الحكيم في النبي محمد ﷺ فقال:  
«قرأ الحكيم كُتُبَ السيرة وما تناولها من كتب التاريخ والطبقات  
والحديث والشمائل بقريحة غير قريحة المؤلف، وفكرة غير فكرة الفقيه،  
وطريقة غير طريقة المحدث، وخيال غير خيال القاص، وعقل غير عقل  
الزندقة، وطبيعة غير طبيعة الرأي، وقصد غير قصد الجدل، فخلص  
له الفن الجميل الذي فيها؛ إذ قرأها بقريحته الفنية المشبوبة، وأمرها  
على إحساسه الشاعر المتوثب، واستلها من التاريخ بهذه القريحة وهذا  
الإحساس كما هي في طبيعتها السامية متجهة إلى غرضها الإلهي محقة  
عجائبها الروحية المعجزة»<sup>(٢)</sup>.

وقرظ غير هذا وذاك من الكتب، ولا سيما تلك التي أعان عليها،  
مثل «رسالة الحج» التي نُشرت باسم حافظ عامر — صديقه الموظف  
السياسي فقال:

«رسالة الحج يتكلم الحج نفسه فيها، حتى لو أوجيت لما جاءت  
إلا هكذا.. وما أشبه مؤلفها بالجندي المجهول (١) يجتمع التقديس  
على طبيعه، فيصبح في الحقيقة هو القائد المجهول، ليس له فخر النصر،  
ولكن له المجد»<sup>(٣)</sup>.

ومثل مقتطف (المتنبي) الذي قال فيه:

(١) وحي القلم ٣ — ٤٢٣

(٢) وحي القلم ٣ — ٤٣٣

(٣) رسالة الحج — ط ٢ — ٣٥، العريان — ٣٢١

« بدأ المقتطف مُجلِّدَه بعددٍ ضَخْمٍ أَفْرَدَه للمتنبّي، وَلَئِنْ كانت الأندية والمجلات قد احتفلت بهذا الشاعر العظيم، فما أَحْسَبُ إِلَّا أَنَّ رُوح الشاعر قد احتفلت بهذا الجزء من المقتطف. وَلَسْتُ أَغْلُو إِذَا قُلْتُ إِنَّ هذه الروح المتكبرة قد أظهرت كبرياءها مرّة أخرى؛ فاعتزّلت المشهورين من الكتاب والأدباء (١)، وَلَزِمَتْ صديقنا المتواضع محمود محمد شاكر مُدَّةَ كتابته هذا البحث النفيس؛ تَدِلُّهُ في تفكيره، وتُوحِي إليه في استنباطه، وتنبيهه في شعوره، وتبصّره في أشياء كانت خافية — وكان الصديق فيها، ليرُدُّ بها على أشياء معروفة — وكان فيها الكذب، ثم تعيّنهُ على أن يكتب الحياة التي جاءت من تلك النفس ذاتها ».

وكان الرجل مطويّاً على سِرِّ أَلْقَى الغموض فيه من أول تاريخه — وهو سِرُّ نفسه، ومن هذا السِرِّ بدأ « كاتبُ المقتطف »<sup>(١)</sup> فجاء بحُثّه يَتَحَدَّرُ في نَسَقٍ عجيب، مُتَسَلِّساً بالتاريخ كأنّه ولادة فَنَمُو وشباب.

ومن أعجب ما كشفه من أسرارِ المتنبّي سِرُّ حُبّه، فليسَ من أحدٍ في الدنيا المكتوبة (التاريخ) يَعْلَمُ هذا السِرَّ أو يظُنُّه. والأدلة التي جاء بها المؤلّف تُقِفُ الباحث المدقق بين الإثبات والنفي... ومتى لم يَسْتَطِع المرءُ نفياً ولا إثباتاً في خبرٍ جديدٍ يكشفه الباحث لم يَهْتَدِ إليه غيره، فهذا حسبك إعجاباً يذكر، وهذا حسبهُ فوزاً يُعَدُّ<sup>(٢)</sup>.

(١) كاتب المقتطف : نعت كان يلحق بالرافعي.

(٢) وحي القلم ٣ — ٤٣٠، ومما يُوَسِّفُ له أن إشارتي الى الشبه بين التقرّطين الواردة في الرافعي الامام ٤٧١، ما رَأَيْتُ للأستاذ شاكر العليم، فأغفلها في الطبعة الثانية — راجع ٧٢، ١٠١ — ١٠٥ ولكنه حين أشار الى ما تهلم في نفسه أَقْرَبَ بانقطاع الوحي عنه بموت الرافعي — ١٤٢. عفا الله عنه.

ولا ننسى تَقرِيظَهُ لكتابهِ « تاريخ آداب العرب » — وقد زعم العريانُ  
أنَّهُ نَحَلَهُ أحمد زكي (باشا)<sup>(١)</sup>. وفيه يقول:

« يحقُّ لنا بعد أن قرأنا « تاريخ آداب العرب » — الذي سبك قَوْلَهُ  
وهذبَ مطالبَهُ شاعرُ الحقيقة والخيال، وكاتبُ العباراتِ يصوغُها صوغَ  
الَلالِ مصطفى صادق الرافعي — أن نقولَ : إنَّ في الحلبَةِ جِداداً،  
وإنَّ للنهضة الحديثة رواسي وأوتاداً، وأنَّ للأدبِ وجهة سامية هو مُولِّيها،  
وساعة قد آنَ وقتُها فهو يُجَلِّيها.. فلا أكتُمُ قومي أنني أحمد اللهَ على  
أنَّ هذا الكتابُ خرج للناس في مصر ولم يجرى إليها من غيرها، فانه  
دليلٌ من الأدلة القليلة التي تُقيم بها البرهان الصحيح على نظرية النهضة  
عندنا.

تصفَّحْتُهُ وقرأت ما تيسَّرَ منه فرضاً ونافلة فرأيتُ مؤلَّفَهُ الفاضل لم  
يُبالِ بالتقليد، فجاءَ بطريقةٍ جديدةٍ وأبواب جديدة لم يجرأ غيرُهُ على  
اقتحامها، ولا تسبَّبَ لفتِّحها. ونظر الى ما يحتاجُ إليه الأدب العربي  
بعينٍ تَسْتَشِفُّ غوامضَ الاستنباط، وتستكشفُ دقائق التاريخ؛ فلم يألُ  
جُهداً، ولا ضُنَّ بشيءٍ عنده.

وأعانه ابتكارُهُ في الشعر، فعرف كيف يبتكرُ في التأليف، وكيف  
يجعل كتابه نسيجاً وحده وكتابَ فنٍّ. ولا يُلْمِني القراء بالإطراء؛  
فإنَّ إحياءَ الآداب العربية بناءً شامخٌ فريد أن يقيمه كالأجيال على أكتافِ  
الأجيال، — وقد جاء الرافعي بحجرٍ لاحتدَى زواياه لا يَعْدِلُهُ غيرُهُ  
في مزاياه... وبالعجالة فإنَّ « تاريخ آداب العرب » هو الكتابُ الذي

ليس لنا غيره إلى الآن في موضوعه مما يقي وفاءه، ويغني في الأدب غناءه، ويفيد مطالعيه وقراءه. عسى أن يكون فاتحة تستهل بعدها الآيات وتدنو بها الغايات..»<sup>(١)</sup>

ج — النقد : هو صيرفة الآثار الأدبية والعلمية بالإشارة إلى المحاسن في الموضوع ومنهاجه، والتنبؤ على الهفوات والغلطات، وكشف أسرار التدقيق، أو الغفلة أو الاختلاط في كل ناحية منها. ومنه في :

١ — المراسلة : التي يستوضح فيها السائل عما يبدو له من آراء ومفارقات، من حول بعض الموضوعات.. ومنه :

سؤال الرافعي لمجلة المقتطف عن حقيقة الهاتف الذي هتف بأخته في « الجيزة » غداة موت أبيها في « طنطا ».. قال :

« لم يقع لأختنا قبل هذه المرة أن سمعت هاتفاً، أو تخيلت أنها تسمع، ولا أراها تعلم من أمر الهواتف شيئاً.. ولست أذكر أن بعض ما تقرأ عنه من هذه الهواتف يرجع — إن صحت الرواية — إلى المبالغة في خطأ الحس، أو خطأ الوهم، وخاصة فيما زعموه من أخبار الجاهلية.. ذلك أننا تلقاء مذهب كمذهب ذلك الذي قال : لا أصدق حتى أضع أصبعي»<sup>(٢)</sup>.

وكذلك سؤاله فيما وقع لأخيه — وكان قد « وجد في نفسه ضيقاً،

(١) الجريدة ٣ ربيع الأول ١٣٣٠ هـ — ١٩١٢/٢/٢١ م

وقد كان من بعده كتب في تاريخ الأدب، لم يستطع واحد من مؤلفيها أن ينسج على منواله، أو يتم ما بدأه تصنيفاً ولا تفريعاً — راجع الدسوقي — في الأدب الحديث.

(٢) المقتطف ٨ — ١٩١٩ م — ٢٤٨

وفي صدره حَرَجاً، وفي جوفه ظمأً من حَرِّ الثَّرْفَةِ التي هو فيها،  
فَقَامَ إِلَى الْمَاءِ فَشَرِبَ، ثُمَّ انْقَلَبَ إِلَى مَضْجَعِهِ، فَاطْمَأَنَّ فِيهِ، وَأَخْرَجَ  
رَأْسَهُ مِنَ الْكَلَّةِ يَسْتَرُوحُ إِلَى الْهَوَاءِ، وَكَانَتِ الثَّرْفَةُ الَّتِي أَمَامَهُ قَدْ تَرَكَ  
مَصْبَاحَهَا مُضِيئاً، وَأَكْفَأُ بَابِهَا إِلَّا فُرْجَةً بَيْنَ مَصْرَاعِيهِ تَمُجُّ رَشَاشاً مِنْ  
الضُّوءِ.. فَبَيْنَا هُوَ سَاكِنٌ إِلَى حَالِهِ تِلْكَ، إِذْ سَمِعَ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ  
قَرَعاً عَلَى الْبَلَاطِ، فَأَنْصَتَ مُسْتَوْفِزاً، وَلَمْ يَكْذُ يَسْتَجْمِعْ حَتَّى أَبْصَرَ  
بَعَيْنَيْ رَأْسِهِ أَبَاهُ مُقْبِلاً عَلَى الثَّرْفَةِ، وَفِي يَدِهِ عَصَاهُ يَنْقُلُهَا عَلَى الْأَرْضِ  
كَمَا كَانَ يَصْنَعُ إِذْ يَمْشِي فِي حَيَاتِهِ، فَلَمَّا صَارَ قَرِيباً مِنَ الْبَابِ نَظَرَ  
إِلَيْهِ مُبْتَسِماً، ثُمَّ أَخَذَ سِيرَهُ إِلَى غُرْفَةٍ أُخْرَى.

قَالَ : فَاقْشَعِرْ جِسْمُهُ، وَتَلَجَّلَجْ لِسَانُهُ، وَأَخَذَتْهُ رَجْفَةٌ، وَجَعَلَ يَتَلَوَّ  
آيَا مِنَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، ثُمَّ وَثَبَ إِلَى مِفْتَاحِ الْكُهْرِبَاءِ، فَأَطْلَقَ النُّورَ  
وَلَيْثٌ لَا يَغْتَمِضُ لَهُ جَفَنٌ..

لَقَدْ رَأَى أَبَاهُ فِي ثِيَابٍ مِنْ ثِيَابِهِ الَّتِي كَانَ يَلْبِسُهَا فِي حَيَاتِهِ، وَلَمْ  
يَنْكُرْ مِنْهُ شَيْئاً، إِلَّا نُوراً خَفِيفاً يُقْبَلُ مِنْ وَجْهِهِ فَيُلْقِي عَلَى نَازِلِهِ هَيْبَةً  
أُخْرَى لَيْسَتْ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا.. فَمَا رَأَى أَسْتَادِنَا فِي هَذِهِ  
الْمُكَاشَفَةِ ١٩»<sup>(١)</sup>.

أَجَابَ الْمُقْتَطِفُ « بَأَنَّ الْهَوَاجِسَ وَالْأَحْلَامَ نَاتِجَةٌ عَنْ مُحَفُوظَاتٍ فِي  
الدِّمَاغِ، يُنْتَبَهُ الْعَقْلُ لَهَا بِسَبَبٍ مُؤَثِّرٍ أَثَرُ فِيهِ..

أَمَّا الْأَحْلَامُ الَّتِي تُغْزِي أَسْبَابُهَا لِلْوَحِيِّ وَالْمُكَاشَفَةِ مِنَ الْخَالِقِ أَوْ  
مَلَائِكَتِهِ وَقَدَّيسِيهِ، فَلَهَا أَسْبَابٌ أُخْرَى لَمْ يَصِلْ الْعِلْمُ إِلَيْهَا بَعْدُ ».

(١) الْمُقْتَطِفُ ٥ — مَآيِرُ ١٩٢٠ م



٢ — التعقيب : ومنه تعقيبه على جواب المقتطف السابق يذكر فيه له أن مثل هذا الهاتف يَقَعُ في الثَّدرِ والفَلْتَةِ لأمر من الله ﴿وما نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ له ما يَبَيِّنُ أَيْدِيَنَا وَمَا خَلَقْنَا وَمَا يَبَيِّنُ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿١﴾. وما تشير إليه هذه الآية الكريمة هو رأي هذا الضعيف،.. وما بنا عن رأي الأستاذ الجليل غني، وقد سقطت الحادثة على وجهها، ورأيه الموفق إن شاء الله<sup>(١)</sup>.

ومنه تعقيبه على اعتراض عباس محمود العقاد في مسألة خطأ الرافي في فيها الشاعر أحمد شوقي، إذ قال :

« سرني ما قرأت للفاضل من دفاعه عن شوقي وتخطئي في مسألتين، استخرجهما من مقالي، وزادني سروراً أن أكون الذي جعل العقاد ينحاز إلى شوقي » ؛

الأولى : إشارتي إلى غلطة شوقي في رفع جواب « إن » الشرطية في قوله :

إن رأيتني تَمِيلُ عَنِّي كَأَنَّ لَمْ تَكُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا أَشْيَاءُ

قال العقاد : .. الذين يَعْرِفُونَ النحو يَعْلَمُونَ أَنَّ الخطأ إنما هو في تصحيح — كذا — الرافي، ويشير إلى القاعدة المذكورة في كُتُبِ النحو من أَنَّ الجواب يُرْفَعُ أو يَجْزَمُ إن كان الشرط ماضياً<sup>(٢)</sup>.

(١) الآية ٦٤ من سورة مريم

(٢) المقتطف ١٩١٩/٥ — ٢٤٨

(٣) منه قول الرافي نفسه :

فما إن رأى في الحُسْنِ أبدع صامت يُجَلُّ به في الشعر أروع ناطق

وبعد أن يدور به مع مذاهب النحاة، ويأخذ على سيبويه وضعه  
لمثال من الشعر محلّ الضرائر يتساءل :

« ما هو الوجه الصحيح ؟ وكيف يدفع السماع الذي نصّبوا عليه،  
وكيف يكون الدفاع عن هؤلاء النحاة — وهم قد عجزوا عن البرهان  
القاطع ؟! »

والثانية : قول العقاد : إنّ الرافعي قد ظنّ أن الشعور زائد في قول  
شوقي :

عيسى الشعور إذا مشى ردّ الشعوب الى الحياة  
والصواب أن عيسى الشعور من تشبيه الإضافة المعروف في البلاغة،  
وليس ثمة حشو ولا إقحام.

يأخذ الرافعي العقاد فيدور به تعقياً على « الديوان » الذي لم يعرف  
من مآخذ شوقي إلا بيتاً واحداً هو قوله في الهلال :

تطلع الشمس حين تطلع صبحاً وتنحى لمنجل حصّاد

وظنّ أنه أخذه من قول ابن المعتز :

أنظر الى حسن هلال بدا يهلك من أنوار الحنّاس  
كمنجل قد صيغ من فضة يحصد من زهر الدجى نرجسا

وكلام العقاد هو الذي نبّهني إلى نقد الإضافة في عيسى الشعور ؛  
لأن شوقي لم يأخذ من ابن المعتز، بل أخذ من شاعر العراق عبد  
الباقي العمري من أبيات يُقال إنها من مبتكراته، وهي :

علينا أهلة هذي الشهور غدت تحصد العمر في منجل  
وداست يادراً أيامه نبات ليليه بالأرجل

وفي هذه الآيات يقول العمري إنَّ هذا الحصاد طُحِنَ وعُجِنَ.  
وقد خَبَزَتْهُ «سُلَيْمَى الهموم» بمسجورٍ تَنَوَّرَها المصطلبي  
فمن هنا تَنَبَّهْنَا الى «عيسى الشعور» وما كان العمري إِلَّا مُقَلِّداً  
الْفُرسَ والترك، والغريب أن العقاد الذي قال في الديوان<sup>(١)</sup>: «ولكن  
شاعر العامة يعكسُ الآيَةَ، فيقول إنَّ الشعور ردُّ الحياة — وكلُّنا يعلم  
أنَّ الحياة هي التي تنشِئُ الشعور»، هو العقاد الذي فسَّر لنا «عيسى  
الشعور»..

لقد قلتُ في مقالي: ان شوقي أرى مَنْ حاولوا إسقاطَهُ مِراراً —  
غُبَارَهُ، ومضَى متقدِّماً، ورجع من رَجَعَ لِيُغَسِّلَ عينيه ويرى،.. وتفسيرُ  
العقاد دليلٌ بَيِّنٌ على أَنَّهُ غَسَلَ عينيه<sup>(٢)</sup>.

ومنه تعقُّبُهُ على «المقتطف» بعد الذي أخذه عليه في «السحاب  
الأحمر» من أَنَّهُ لم يَرْحَمْ قارئاً، فزادَ في معانيهِ غموضاً باستعماله  
ألفاظاً غيرَ مألوفة (١) وتراكيبَ غيرَ مأنوسة، كما فَعَلَ كارليل في كتابه  
(فلسفة اللباس)، وقال: هذا غير كثير في «السحاب الأحمر».

ولكن إذا أُضيفَ إليه دِقَّةُ المعاني، وكونُ بعضها جديداً استنبطَهُ  
من صُورٍ تخيلَها، أو من مباحثَ عِلْمِيَّةٍ جديدة وقَفَ عليها، زادَ فهمُ  
الكتاب صُعوبة،..<sup>(٣)</sup>

(١) الديوان: كتاب في (النقد) وضعه عباس العقاد لهدمِ عدوه أحمد شوقي، واثنتي فيه  
على صديقه عبد الرحمن شكر، وأستاذه الراجعي،.. اشتهر لما فيه من جرأة ومجازفة.

(٢) المقتطف — نوفمبر ١٩٣٣، فبراير ١٩٣٤ م.

(٣) المقتطف — مارس ١٩٢٥ م.

ولكننا نرجح أن من يُمعِن النظر فيه من الأدباء، والمتأدِّين لا يتعذَّر عليه فهمه<sup>(١)</sup> فقد عقب عليه الرافعي بقوله :

« وِدِدْتُ — والله — أن أرفقه عن نفسي وأطرح عني الكدَّ فيما عانيته من أسلوب « حديث القمر » و « المساكين » و « رسائل الأحزان » و « السحاب الأحمر »، ولكنتي أجدني كالمُسخر في ذلك لقوَّة تُساورني في أوقاتها، وتهبُّ عليَّ كالريح من سكون وركود، فلم أفكر قطُّ في كتاب من هذه الكتب، ولكن تقع الحادثة فيجيء بها الكتاب،.

أما الذي يُسمونه غموضاً<sup>(٢)</sup> وتدقيقاً فما أنا بصاحبه، ولا العامل فيه، ولكنه طور من أطوار الزمَن لا بُدَّ أن يسبق نهضة التجديد كما سبقها من قبل، فقد كانوا يصفون به سيدي شعراء العربية قاطبة : أبا تمام والمنتبي.

إنَّ أرفع منازل البلاغة أن يكون في قوَّة صانع الكلام ؛ أن يأتي مرَّةً بالجزل، وأخرى بالسَّهل، ولا يبلغ أحدٌ هذه المنزلة فيحكمها ويُعطيها حقَّها من التمييز، إلا جَعَلَتْهُ الأقدار وسيلةً من وسائل حفظ البلاغة، يَتَسَلَّمُ الزمَنَ ويُسَلِّم، بل قل بالألفاظ الصريحة : يتسلَّم لُغة القرآن ويُسلِّمها<sup>(٣)</sup>.

ومنه تعقبيه على الدكتور صروف في استعمال كلمة « فحسبُ » وقوله :

(١) علَّة الدكتور طه حسين ادعاؤه أنه لا يفهم!..

(٢) كذلك درج الآخرون في نعت الرافعي وأدبه.

(٣) المقتطف — مايو ١٩٢٥ م

« لم يرد في كلام الأدباء والمرسلين استعمال كلمة فحسب — كما قلتم — وإنما استعمالها بعض العلماء، وكنت أول من استعمالها في هذا العصر، وأول من أتبعها وأجراها في كتابته؛ إذ أتيت بها مراراً في كتابي « تاريخ آداب العرب » واستعملتها بالفاء تقويةً لمعناها وتحقيقاً لغرابتها، وليستمر الكلام بها على سنن، ويتحدث في مجراها، ثم تعلقها الكتاب بعد.

على أنني لم أستعملها ابتداءً من نفسي، وإنما رأيته في كلام سيويه كقوله في كسرة في — أي فمي — : إنها أول دليل على أنهم لم يراعوا حديث الاستثقال والاستخفاف حسب وأنه أمر غيرهما.

ثم رأيت أبا الفتح بن جني — يرددها في كتابه « الخصائص » كقوله : ليس اعتدال الثلاثي لقلّة حروفه حسب، لو كان كذلك لكان الثنائي أكثر منه. وقوله : فإذا ثبت ذلك عرفت أن ذوات الثلاثة لم تكن في الاستعمال لقلّة عددها حسب » وقال في موضع آخر « وليس كذلك قولنا زيداً قام ؛ لأن هذا لم يرتفع لإسناد الفعل إليه حسب دون أن انضم إلى ذلك تعريته من العوامل اللفظية ..

ولم أر هذا الاستعمال لغير سيويه وأبي الفتح، ولكن من هما ١٩»<sup>(١)</sup>

\* \* \*

ومنه أيضاً تعقيبه على استعمال كلمة « الطبيعي » وقوله فيها :

(١) المقتطف — مايو/أيار ١٩٢٢ م

لم تُعرف كلمة « الطَّبْعِي » في هذه العربية من يوم خَلَقَهَا الله إلى أن أُرْسِلَ معجزتها الكبرى الخالدة للأحمر وللأسود.. إلى أن تناولها العلماء من كلِّ لسان في ثلاثة أركان الأرض.

ولقد سُئِلَتْ فيها مراراً لأنني لم أَسْتَعْمِلْهَا قط على ذلك الوجه الثقيل، ولا أَرَى وجهاً لاستعمالها.. ولعلَّ أقدم ما عُرف من تاريخ النسبة إلى الطبيعة كتاب ( السماع الطبيعي ) الذي نقله سلام الأبرش حين ابتداء النقل عن اليونانية وغيرها.

أما وجه تصحيح هذه النسبة فهو أن العرب لم يكونوا يعرفون القواعد أو ينزلوا عليها، إنما ذلك علمٌ منتزَعٌ من استقراء اللغة، ولا قاعدة للعربي إلا غريزته، وإلا الاستحسان والاستخفاف والاستثقال.

ولهذه العلة لا يَنْسِبُونَ إلى فَعِيلَةٍ في المضعف والمُعْتَلِّ العين إلا بالتصحيح ؛ إذ يَسْتَنْقِلُونَ أن يقولوا حَقَقِي وطَوَّلِي، فيعدلون إلى حقيقي وطويلي. — وقد تَطَرَّدَتِ الكلمة في استعمالها — وهي مع ذلك شاذة في القياس، فيقولون : اسْتَصَوَّبَ واستحوذَ واستنَوَّقَ، ولا يقولون استصَابَ واستحاذَ، على ما هو عليه القياس في مثل استقام واستخار.. الخ. وفي نحو الفتوى والتقوى قلبوا الياء واواً من غيرِ علةٍ ولا ضرورة، إلا علة الاستحسان والاستخفاف..

وقد نصَّ سيبويه على أنهم قالوا : سَلِيقِي للرجل من أهل السليقة، ولم يقولوا سَلَقِي على القاعدة. فان لم يكن العلماء قد استنطقوا العرب في النسبة إلى الطبيعة، فهذا عندنا هو الأصل الذي عَمِلُوا عليه والوجه الذي اتَّبَعُوهُ. ولا يُقَالُ أَنَّ « السَّلِيقِي » شاذة لا قياسَ فيها، فإنَّ الشذوذ ليس بشيءٍ عندهم ولا يعرفونه، بل كلَّ شاذٍ له وجهٌ في استعمالهم،

والسليقة والطبيعة والغريزة والبديهة ألفاظٌ مُتجانسةٌ تتلاقى معانيها على أصلٍ واحد، وفي وزنٍ واحد، فلا جرم أخذ بعضها في النسبة مأخذ بعضها، وصحَّ فيها القياسُ لتمثيلها في الصيغة والمعنى، ولتجانسها في العلة — وهي الاستثقال — إذا قيل: سَلَقِي وعرَزي وطَبَّعِي وبَدَّهِي...»<sup>(١)</sup>

ومنه تعقيباته الكثر على قارئيه وسائليه والمتربصين به وناقديه في «المقطم»، من حول التكرار في القرآن<sup>(٢)</sup>، وفي «البلاغ» حول العبقريّة<sup>(٣)</sup> والمعرفة<sup>(٤)</sup> وأبولو<sup>(٥)</sup> والرسالة<sup>(٦)</sup>. أنظرها في كتابنا (الرافعي الناقد الأديب).

٣ — المناظرة: هي المناقشة والحوار من حول الموضوعات باستحضار الحِيثيات العلمية، وطرائق البحث والتحليل والموافقة للوقوف على الحقيقة جلية واضحة. ومنها تلك التي ناظر فيها الأب انستاس ماري الكرملّي «كَلْدَة» في عروبة بعض الكلمات ذات العَراقة العربية، ومنها: الأدب، وقريش، والخليفة،.. الخ. وكان الأب قد ذهب في تفسير معانيها مذاهب غريبة لا تخلو من مجازفة وتورط أحياناً؛ قال الرافعي — بعد مُناقلة في الرواية والإسناد، وإعادة الأخبار الى أهلها،

(١) المقطف ٨ — ١٩٢٢ م

(٢) المقطم، مايو ١٩٢٥ م

(٣) البلاغ ٣، ٢٤، ١٢١ — ١٩٣٣ م

(٤) المعرفة ٩ — ١٩٣١ م

(٥) أبولو — ١٩٣٢ — ١٩٣٣ م

(٦) الرسالة — حواشي مقالاته فيها خاصّة.

.. وقد جمعت هذه الفنون في جزء خاص

والكشف عن صنعة الكرمل في تفسير كلمة (الأدب) ليقرب معناها من اللفظ اليوناني الذي يريد :

« إنَّ المعنى الذي جاء به (كَلْدَة) مَصْنُوعٌ لا رِوَايَةً فيه، ولا أساس له، ولا شاهد عليه، ولا مُشَابَهَةً أَبَقْتُهُ بين معنى اللفظ اليوناني واللفظ العربي.

والمادة نفسها « أدب » أصيلة في اللغة العربية، ولو هُم كانوا أخذوها من اليونانية لما جاوزوا بها المعنى الذي أخذوها لأجله، ولا صرّفوها في المعاني التي تُروى في كتب اللغة»<sup>(١)</sup>.

وحين لَجَّ الأَبُّ بدعواه « أن كلمة الأدب يونانية — وإن لم يُقل بها أحدٌ من اللّغويين أو ينطق بها أحدٌ من الشيوخ، أو رُويت عنهم»<sup>(٢)</sup> ردّ عليه بإسهابٍ اجتزأه المقتطف، إذ قال :

« زعم كَلْدَة أن للأدب والأديب معاني قديمة، وأن معنى الأديب في الجاهلية وصدر الاسلام هو الطيّب الحديث الحَسَن الصوت، الذي يُؤنِس السامعين بِسُخْرِ مقالِه، ويجذبُهُم إليه بِرَقَّةٍ منطِقِه ولذيلِ صوتِه .. الخ، وأنا أطلبُ منه البَيِّنَة على دعواه، ولو شاهدًا من كلام العرب يدلّ عليها، أو رواية تثبتُها، أو أساسًا من التاريخ يُسوِّغ له ما ذهب إليه، ويخرجُهُ من باب الوضع»<sup>(٣)</sup>.

(١) المقتطف — مايو/أيار ١٩٢٣ م

(٢) المقتطف — نوفمبر ١٩٢٣ م

(٣) المقتطف — ديسمبر ١٩٢٣ م



ثم أتبع ذلك بقوله :

« بالأمس قام اللورد « جسبرد » في مؤتمر يهودي بلندن يزعم فيه أن الإنجليز من نسل بني إسرائيل، وأنهم حققوا النبوءة التي ورد فيها أن هذا النسل يملأ الأرض، وأن الدليل على ذلك ؛ أن كلمة British التي معناها بريطاني هي من كلمتين عبرانيتين « بریت »، أي العهد و « إمش » أي الشعب ؛ قال جسبرد ؛ فالشعب الانجليزي هو شعب العهد، أي شعب إسرائيل.. فلم ينكب العرب وحدهم بكلمتين يونانيتين، بل نكب الانجليز بكلمتين عبرانيتين !.. وإنه لمصعدٌ يثب إليه كل من أصاب مشابهة في مقابلة اللغات »<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

ويوم ذهب الكرمل في مجازفاته اللغوية إلى كون كلمة قريش يونانية، ولفظة الخليفة يونانية، وأن الأولى معناها رئيس المغنيين charegas<sup>(٢)</sup>، والثانية : الذي يدير حركة الرقص ناظره الرافعي برد مناظر أديب يقول فيه :

« إن كلمة قريش أصبحت في التاريخ الاسلامي ميراثاً دينياً، يُقال فيها ما قيل في لسان أهل الجنة، وليس في كل ما نقله كَلدة ما يُشير إلى أنها من القرش الدابة البحرية.. إلا أن الرواية تنتهي إلى ابن عباس — وكم كذب الناس على ابن عباس — رضي الله عنه — حتى لجعلوه وحده ديوان العرب.

(١) المقتطف — ديسمبر ١٩٢٣ م

(٢) المقتطف — يناير ١٩٢٤ م

الرواية الصحيحة في تسمية قريش أنها من التجارة، ولم يعرف العهد الأول وما تلاه من عصور التحقيق إلا هذا المعنى، والقرآن نفسه يكاد يكون نصاً في ذلك؛ فقد وصفهم في سورة قريش بقوله ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ وما هذه بصفة الدابة البحرية، بل هي صفة قوم تجار ألفوا لمعاشهم رحلتهم الشتاء والصيف إلى اليمن والشام.. حتى كادت التجارة أن تلهيهم عن عبادة رب البيت، وما دام في اللغة القرش بمعنى الكسب والتجارة، فلم لا يكون اسمهم مشتقاً من هذه المادة؟<sup>(١)</sup>.

وراح يدور به في روايات بين كتب اللغة وعلمائها، فيقول له: «تأمل يا سيدنا العلامة أين هذا من charegas رئيس المغنين<sup>(٢)</sup>.. وهل حرم الله على السنة اليونان أن تنطق بكلمة فيها قاف وراء وشين أو جيم ١٩ مع ما تمحلت في إبدال هذه الجيم، فإن الإبدال شائع في أكثر الحروف، وهو لغات ينطق بكل منها قبيل من العرب».

ثم ساق إليه نصاً آخر من كلام الجاحظ في رسالة التجارة يعني قريشاً؛ قوله: «وليس قولهم قريش كقولهم هاشمي وتيمي؛ لأنهم لم يكن لهم أب يسمى قريشاً، فينسبون إليه، ولكنه اسم اشتق لهم من التجارة والتقريش<sup>(٣)</sup> وهو أفخم أسمائهم»

وعاد فذكر المناظر بأن ابن الكلبي — المرجوع إليه في هذا الشأن

(١) المقتطف — مارس/آذار ١٩٢٤ م

(٢) لعل كلمة «قراقوز» منها

(٣) ما تبرح الكلمة في العراق والشام بهذا المعنى من التجارة والتسليف والصيرفة خاصة.

— من أكذبٍ مَنْ وضَعُوا على العرب، وقد كذَّبه العلماء وردّوا عليه<sup>(١)</sup>.

أمّا كلمة « الخليفة » التي زعم كَلْدَة أنها يونانية الأصل أيضاً، وقال إنه وقفَ عليها في كتابِ الدلائل لأبي المنذر هشام الكلبي : « كَانَ الخليفةُ في آنفِ الدهرِ يتولَّى تدبيرَ العجِّ والثجِّ في الحجِّ، ويُديرُ حركةَ الرقصِ في أيامِ أفراحهم ومحافلِ أعيادهم، ثم نَقَلَ الحرفَ الى مَنْ بيدهِ السلطةُ العليا، أو يحاول أن تكونَ له السلطةُ العظمى.. »<sup>(٢)</sup>

قال الرافعي : تلكَ دُويهيَّةٌ تصفّرُ منها الأناملُ، وتَحْمَرُ أيضاً.. ولكني أنا الضعيفُ يا العلامة كَلْدَة أقسمُ لك أن النسابةَ العظيمَ لم يقلْ هذا الكلام، وأن ليس له في النصِّ إلا هذه الكلمات « كان الخليفةُ في آنفِ الدهرِ يتولَّى تدبيرَ العجِّ والثجِّ » ففهمتَ منها معنى الحركةِ، فأكملتَ النصَّ من عندك ليلائم معنى الكلمةِ اليونانية، كما فعلتَ في تعريف كلمة الأديب<sup>(٣)</sup>. وهل يخفى على مَنْ يتذوّق البلاغةَ العربيةَ، ويعرف كيف تُسَبِّكُ أن أحداً من الرواةِ أو العلماء أو العرب لا يقولُ أبداً، بل لا يطوعُ لسانه أن يقول ( يدير حركة الرقص ) وأيام أفراحهم، ومحافل أعيادهم، ومَنْ بيده السلطة العليا.. وأن تكون له السلطة العظمى.. أيُّ كلام هذا ١٩

(١) المقتطف السابق — وابن الكلبي هذا أخباري ملفق هو غير أبي المنذر النسابة العظيم.

(٢) المقتطف يناير ١٩٢٤ م

(٣) راجع ما مرّ، ومما يؤسف له أن يُعنى بالكرملي ومطاراته اللغوية ومعجمه (المساعد) وتصفّت فيه اثبات المصادر والمراجع، ولا يُلاحظ إسقاط مناظرة الرافعي له في دَبْدَبِهِ مع العربية وما وراءه.

لقد ضاع عمري باطلاً إن لم أُمَيِّزْ بين كتابتين إحداهما كُتِبَتْ  
من نَيْفٍ ومثقٍ وألفِ سنة، والثانية لم يَجِفْ جَبْرُها بعد..

دلنا يا العلامة على كتاب هشام، وآتينا بالنصِّ بحَرْفِهِ، وإلاَّ فإنَّ  
معنى العج والثج ما يَضِجُ به الحجيُّ من الدُّعَاءِ لله مَكْتَظِّينَ مُجْتَمِعِينَ..  
فلا رقصَ ولا أغاني ولا أصحابيك ولا سخافات، وكلُّ ما بَنَيْتُهُ على  
هذا النصِّ فاسِدٌ، ولاني أقول بملءِ فمي بأن النصَّ موضوعٌ وألفاظُهُ  
شاهدةٌ شهادةَ العدولِ»<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

ومن المناظرة ما كَتَبَهُ في نشأةٍ فنَّ «المقامات» التي ذَهَبَ فيها  
الدكتور زكي مبارك الى اكتشافٍ له في كتاب «زهر الآداب» يقولُ  
فيه «إنَّ بديعَ الزمان لم يكن مُبتدعاً لفنِّ المقامات، وإتِّمَّا قَلَدَ فيها  
أَبْنُ دُرَيْدٍ»، وإنَّ الدكتور طه حسين قد دَلَّه على كتاب «الأمالِي»  
لأبي علي القالي، فوجَدَ ذلك حقاً<sup>(٢)</sup>.

قال الرافعي : هل نَسِيتَ أَنَّ الروايةَ عِلْمٌ دقيقٌ، له آدابٌ وشروطٌ؟  
وأنتَ ترى القالي في أَمَالِيهِ يروي من شعر ابن دريد، وينسبُهُ إليه،  
فما الذي يَمْنَعُهُ أَنْ يفعلَ مثل ذلك في أحاديثِهِ التي أَلْفَهَا من يَنَابِيعِ  
صُدُورِهِ ومَعَادِنِ فِكْرِهِ ؟<sup>١٩</sup>

لا شَكَّ عِنْدِي أَنَّ البديعَ قَلَدَ غَيْرَهُ، وهذه طَرِيقَتُهُ، وقد وَقَفْتُ على

(١) المقتطف — آذار ١٩٢٤ م

(٢) المقتطف — آذار ١٩٣٠ م

خبر مصنوع. كتب قبل البديع بنحو مئة سنة — ولو حذف اسم صاحبه منه لما شك أحد أنه من كتابة البديع؟.. ولا أملك وقتاً الآن لهذا البحث»<sup>(١)</sup>.

ومما يلحق بالمناظرة أحاديث الرافعي في اللغة والآداب التي ناظر فيها لطفي السيد في دعوتيه لتمصير اللغة العربية، والتي وجهها الى الجامعة للتأليف في تاريخ آداب العرب<sup>(٢)</sup> وتلك أحاديث لها شهرتها في الدراسات الحديثة<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

٤ — الملاحظة: وهي شدة الوطأة في النقد، وغلظ القول في المناقشة، واتقاد المشاعر عند المساجلة؛ وقد تكون ذات دوافع نفسية، أو منافرة علمية تقتضي التوثيق والملاحظة، أو مشاكسة دأبها الغلبة.. وربما تكون توجيهاً للدرس والمتابعة، وللرافعي فيها صولات موفقات ذات أهداف عالية، منها:

أ — موقفه المستخف: بسلامة موسى، واحتقاره له، ونعته إياه بـ «الخوaja»<sup>(٤)</sup> فقد أهمله مرة فلم يرد على سؤال له في المقتطف من حول محاضرة للرافعي في الفقر والفقراء، التي أشار فيها الى تقصير المذاهب الاقتصادية — ومنها الاشتراكية العلمية — عن حل يكون

(١) واضيعته.. أنظر المقتطف — مايو/أيار ١٩٣٠ م

(٢) راجع أنور الجندي في مصنفاته، والدكتور محمد أبا الأنوار في المعارك الأدبية.

(٣) الخوaja: تقابل السيد بالعربية، ينعت بها غير المسلمين.

فيه بُرءُ الانسانيّة من أَوْضارٍ مُعضلتها هذه<sup>(١)</sup>.. إذ حاول سلامة أن  
يُجَرِّدَ الرافعي الى معركةٍ جانبيّة فيها من الالتواءِ بجدوى الرّبا، والانحرافِ  
بالفكر ما يُبعده عن قُصدِ الدراسة وهَدَفِ الاتجاه<sup>(٢)</sup>.

وحين نَحَلَّ الرافعي زعامة ما سَمَّاهُ بالقديم<sup>(٣)</sup> رَدَّ عليه الرافعي بِقُوَّةٍ  
يقول :

« زعم الخواجا موسى فيما كَتَبَهُ عن هذا الضعيف أن ما نقولُ  
به من احتذاءِ العرب في أساليبهم، والارتياضِ بكلامهم، والحرصِ على  
لُغَتهم، وأن يكونَ الكاتبُ في هذه حَسَنَ البَيانِ رَشيقَ المعْرِضِ رائِعَ  
الْخَلابةِ يَتَبَيَّنُ في ألفاظِهِ وينظُرُ في أعطافِ كلامِهِ، وَيَفْتَنُ في أساليبه  
» مذهبٌ قديم، وَوَطَنِيَّةٌ أَدَبِيَّةٌ ؛ ترجعُ العِلَّةُ فيها الى ذلك العَقْلُ الباطنُ  
الذي يَخْلِطُ بين الدِّينِ والقوميَّةِ العربيَّةِ والأدبِ ..»

ثم قال : « وأهلُ هذا المذهبِ القديم يَهْمِلُونَ العِلْمَ ؛ لأنَّ العلومَ  
تتعارض ومعتقدات العرب » وظاهرٌ أنه يَعْنِي بالعرب المسلمين لا غَيْرَهُم،  
فإنَّ الجاهليَّةَ أَصْبَحَتْ من أَكاذيبِ التاريخ !. فالْمَذْهَبُ القديمُ أن تكونَ  
اللُّغَةُ لا تَزَالُ لغةَ العرب في أصولها وفروعها، وأن تكونَ هذه الأسفارُ  
القديمة التي تُحْوِيها لا تَزَالُ حَيَّةً تَنْزِلُ من كُلِّ زمنٍ منزلةَ أُمَّةٍ من  
العَرَبِ الفُصحاءِ، وأن يكونَ الدينُ العَرَبِيُّ لا يَزَالُ هو هو، كأنما نَزَلَ  
به الوحيُ أَمْسَ، لا يَفْتِنُنَا فيه عِلْمٌ ولا رأيٌ، وأن يأتي الحِرصُ على  
اللُّغَةِ من جهةِ الحِرصِ على الدينِ، إذ لا يَزَالُ منهما شيءٌ قائمٌ كالأساسِ  
والبناءِ، لا مَنفَعَةٌ فيهما معاً إلا بقيامهما معاً.

(١) المقتطف — يونية ويولية ١٩١١ م

(٢) المقتطف — سبتمبر ١٩١١ م

(٣) الهلال — يناير ١٩٢٤ م

ولكن.. ما المذهب الجديد ١٩ أناخذ بالمُقابلة فنقول : الركائز وإهمال القومية التاريخية، والتحلل من قيود الواجبات، والانسلاخ من الجِلْدَةِ، لأنها غير أوربية، كل ذلك قديم، فكل هذا جديد ١٩..

العلّة في الحقيقة ترجع إلى الضّعف في اللّغة العربيّة والقوّة في اللّغة الأجنبية، التي أكثر من الإقبال عليها، فعادت الى نوعٍ من العصبية للأدب الأجنبي وأهله.

فلما ضَرَبَتْ هذه العصبية واستحكمت، وجّهت الذوق بحكم الهوى — وأنت تعلم أن الذوق الأدبي في شيء إنما هو فهمه، وإنما الحكم على شيء إنما هو أثر الذوق فيه، وأن التقدّ إنما هو الذوق والفهم جميعاً<sup>(١)</sup>.

\* ومنها ما تناولته طه حسين من الفقرة الأخيرة — ودار بها في عبث من حول الذوق والفهم<sup>(٢)</sup> إذ ردّ عليه الرافعي برفق ولين وعجلة، ولكنه قال :

« أنا مع إعجابي بالفاضل أرى أنه مُسْتَهْتَرٌ بأشياء، وأن من خُلِقَ أن ما لا يرضى عنه وما لا يفهمه، ليسا شيئين مُختلفين ..! فإذا لم يكن من الفهم بُدٌّ قال إنه لا يقتنع فإذا ضايقته وضيقته عليه لم يبق إلا ما يقول النُّحاة في « أيّ » التي حَيَّرهم إعرابها وبنائها — أي هكذا خُلِقَتْ ..! »<sup>(٣)</sup>

(١) الهلال — فبراير ١٩٢٤ م

(٢) السياسة ٢٣ فبراير ١٩٢٣ م

(٣) وحي القلم ٣ — ٣٩٠

« ثم إنَّ » سلامّة » هذا عادَ ينقد « السحاب الأحمر » فعده من أدب الفقايح، ووصفه باللّهو والعبث، وأن يُصاب القلم الذي تراءى للرافعي فيه السحاب هو من زجاج يُباع في القاهرة<sup>(١)</sup>.

وقد أهملَ الرافعي ثانيةً ؛ لأنّ كلامه سخيّف لا يُسمّى نقداً، وقد وصفَ القلم الذي تشعّع منه السحاب وصفاً مُضحكاً، فما هو بهذه الصفة، ولا هو بنصف قرش<sup>(٢)</sup>.

ولكنّه حينما لجّ في دعواه، واقتضح أمره سياسياً<sup>(٣)</sup> عادَ الرافعي فأجهزَ عليه، ونعتَه بعدو العروبة والإسلام وقال فيه :  
« رأيي في سلامّة موسى معروف، لم أُغيره يوماً، فأنه كالشجرة التي تثبت مرةً، لا تحلو — ولو زُرعت في ترابٍ من السكرا.

ما زال هذا الدعيّ يتعرّض لي منذ كان كأنه يُلقني عليّ أنا وحدي تبعةً حماية اللغة العربيّة، وإظهار محاسنها وبيانها فهو عدوّها وعدو دينها وقرآنها ونبيّها، كما هو عدوّ الفضيلة أين وجدت.

دعا الى اتخاذ العاميّة وهدم العربيّة فأخبراه الله على يدي، وأريته بملء عينيّه أنّه لا في غيرها ولا نفيها، وأنّه في الأدب لا قيمة له، وفي اللغة دعيّ لا موضع له، وفي الرأي لا شأن له.. فلما صرّبت وجهه عن هذه الناحية، دارَ على عقبيه واندس إلى غرضه من ناحية

(١) الهلال — أبريل — نيسان ١٩٢٥ م، على أن العنوان نفسه سرقة من الرافعي كان قد نعت به بعض أدب المتأخرين — المنار ربيع الآخر ١٣١٨ هـ

(٢) رسائل الرافعي — ١١٨

(٣) راجع الدنيا المصورة لأبريل ومايو ١٩٣١ م وما فيها من مقالات المجلة وحسين شفيق وإبراهيم المازني في تلك الفضيحة التي أثبتت فيها تجسسه وخيائته.



أخرى، فقام يدعو إلى « الأدب المكشوف » ولم يزد بِعَمَلِهِ على أن انكشف هو.. فلما خاب من الناحيتين، اتَّجَهَ الى الشارع الثالث فانتحل الغيرة على النساء، والإشفاق عليهن، وقام يدعو المسلمين إلى إبطال حكم من أحكام دينهم، وإسقاط نص من نصوص قرآنهم، ظناً منه أنهم إذا تجرأوا على واحدة، هانت الثانية، وجاءت الثالثة والرابعة، وانفتح الباب المغلق الذي يُحاول فتحه طول عمره — من نبذ القرآن وترك الإسلام، وهجر العريية.. فكانت البدعة الثالثة لهذا المغرور أن يدعوا المسلمين جَهرةً إلى مساواة المرأة بالرجل في الميراث، فأخزاه الله على يدي وغير يدي مرةً ثالثة.

ثم قام المفتون يدعو إلى الفرعونية، ليقطع المسلمين من تاريخهم — وما علم أنه مفضوح، ولو جاء العجل ( أيس ) نفسه الى المصريين لساقوه الى المجزرة.. الخ<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

ب — التوثيق : ومن هذه الملاحاة ما يكون توثيقاً، كملاحاته لِلطفي السيد في شأن اللغة العربية وتمصيرها.. فقد كان هذا دعا الى اتخاذ لغة المصريين العامة في الكتابة، وذلك بعناوين مختلفة منها : « الى الأمام في اللغة »، ومنها « في اللغة العربية »، ومنها « رقوا لغتكم »<sup>(٢)</sup>.. الخ.

لقد ردَّ الرافيُّ عليه بأناة الحكيم، وصبر الحليم، في مجلة « البيان » يُنبه على ما وراء الأكمة.. فقال :

(١) الدنيا المصورة — ١٣ مايو ١٩٣١ م — الفتح ٢٩ رجب، ١٣٤٧ هـ  
(٢) أنظر (الجريدة) مارس وأبريل ١٩١٢ م، وقد جمعت في كتاب على حدة.

« اللغة مظهر من مظاهر التاريخ، والتاريخ صفة الأمة، والأمة تكاد تكون صفة لغتها؛ لأنها حاجتها الطبيعية التي لا تنفك عنها، ولا قوام لها غيرها، فكيفما قلبت أمر اللغة من حيث اتصالها بتاريخ الأمة وجذنها الصفة التي لا تزول إلا بزوال الجنسية، وانسلاخ الأمة من تاريخها واشتمالها جلدة أمة أخرى، فلو بقي للمصريين شيء متميز من نسب الفراعنة لبقيت لهم جملة مستعملة من اللغة الفرعونية — المكتوبة بالحروف المصورة (الهيروغليفيّة).

إن السرّ في العربية هو هذا الكتاب المبين — القرآن الذي يؤدّي على وجهه العربيّ الصحيح، ثمّ هذا المعنى الإسلامي — الدّين القيم على الفطرة الانسانية حيث توزعت.

إنما القرآن جنسيّة لغوية تجمع أطراف النسبة الى العربية، فلا يزال أهله مستعربين به، متميزين بهذه النسبة حقيقة أو حكماً، حتى يتأذّن الله بانقراض الخلق وطّي هذا البسيط»<sup>(١)</sup>.

وبنيات قوميّ هادف يقول: «.. ولولا هذه العربية التي حفظها القرآن على الناس، وردّهم إليها، وأوجبها عليهم، لما اطرّد التاريخ الإسلامي، ولا تماسكت أجزاء الأمة، ولا استقلت بها الوحدة الإسلامية»<sup>(٢)</sup>.

وعندما تراجع لطفي السيد قليلاً، يدعو للمصالحة بين الفصحى والعامية، عاد الرافعي بمقال آخر في «تمصير اللغة» فقال:

(١) البيان ٨ — ٢ ربيع الآخر ١٣٣٠ هـ — المعركة — ٤٧

(٢) البيان ١٠ — جمادى الأول ١٣٣٠ هـ — المعركة — ٥٦

« وليس عندنا في وجوه الخطأ اللغوي أكبر ولا أعظم من أن يظنّ امرؤ أن اللغة بالمفردات، لا بالأوضاع والتراكيب »<sup>(١)</sup>.

ثم نظّر في أحوال الأدباء وما هم فيه من « التعادي بين الأذواق، والإسفاف بمنازع الرأي، والخلط والاضطراب في كل ذلك، حتى أصبح أمر الأدب على أقبحه في قوم يرونه على أحسنه، وقيل في الأسلوب أسلوب برقي — تلغرافي — وفي الفصاحة فصاحة مطبعية، وفي اللغة لغة جرائد »<sup>(٢)</sup>. حتى صرح بجراقة اللغة لها دوي اعتقادي فقال :

« لن تجد ذا دخلة خبيثة لهذا الدين إلا وجدت له مثلها في اللغة، وإن أصحابنا لا يجهلون أن الأصل في التربية بالحمل على الأخلاق، وعلى روح الأمة التي تتميز بها »<sup>(٣)</sup>.

\* ويلحق بها موقف الرافعي من الدكتور طه حسين، فقد كان هذا الأزهرى قد انتقل إلى الجامعة المنشأة آنذاك، وأولع بالتردد على دور الصحف ومكاتبها — يعلن عن بضاعته بذكاء تنفسح له ميادين القول، وكان من أمره بدياً أن أغرى بمهاجمة المنفلوطي لما جاء في « نظرات » له من مس بيعض أعضاء الحزب الوطني، فكان محمد صادق عنبر يقدم له المادة اللغوية والعلمية، ليضيف عليها من أسلوبه ما يؤذي ويوجع بالتعريض<sup>(٤)</sup> فراح ينافق للرافعي — قريب الحزب الوطني —

(١) البيان ١٠ — جمادى الأولى ١٣٣٠ هـ

(٢) الزهراء — ربيع الأول ١٣٤٧ هـ

(٣) المعركة — ٦٣ وقد مر بنا الحديث في الفصل الأول

(٤) الزهراء — ربيع الآخر ١٣٤٥ هـ

بأنَّ المنفلوطي سرق نظراته من عنوان ديوان الرافعي (النظرات) <sup>(١)</sup>.  
ثم أن طه انتقل الى « الجريدة » التي أنشأها لطفي السيد، وكان  
الرافعي قد همَّ أن يكونَ أحدَ كتابها للترقي بالأدبيات — على حدِّ  
تعبيره <sup>(٢)</sup> ولكن أباه الشيخ عبد الرزاق الرافعي كان قد ردَّه عنه بعد  
أيام <sup>(٣)</sup>، « وقد حَدَّثَ أن طافَ بكتّاب الجريدة (المحرّرين) يوماً  
يُحييهم وبينهم طه حسين، ولكنَّ الذي كانَ يصحبُ الرافعي لم يُعرفه  
بطه، ولم يقدِّم أحدهما الى الآخر، وعرفه الرافعي، ولكنَّه لم يُحيه  
رعايةً لعاطفته، وخشية أن يفهم طه أن الرافعي لم يعرفه إلا بعلمته،  
فيألم وتنادى نفسه، ولكن طه طوى صدره على شيء للرافعي من  
يومئذ <sup>(٤)</sup> ».

وكان الرافعي قد خاطب « الجامعة » يومئذ بمقالين مشهورين كانا  
السبب في تدريس آداب العرب فيها <sup>(٥)</sup>، إذ لم يقف على جديد في  
محاضراتها. فانبعث فيه بروح التحدي بالواجب، وأثبت جدارته بتأليف  
« تاريخ آداب العرب » دالاً على الجامعة نفسها، حتى عرفه الناس  
المؤرِّخ الراوية والعالم الأديب، وقد استقبل العلماء كتابه بحفاوة  
بالغة <sup>(٦)</sup> ولكن طه حسين وحده الذي أشهد الله والناس على أنه لم  
يفهمه <sup>(٧)</sup> حين تصدَّى للكتابة فيه والتعريف به ونقده !.

(١) محمد سيد كيلاني — طه حسين الشاعر الكاتب — ١٠٠

(٢) مقالة في الجريدة — ١٩٠٧/١١ م

(٣) المجلة الجديدة — مايو ١٩٣١ م

(٤) الريان — ١٢٣

(٥) المعركة — ٤٥، الرسائل ٢٤٤

(٦) راجع المعاصرة والاتجاه في (الرافعي الناقد).

(٧) الجريدة — ٢٥ يناير/كانون الثاني ١٩١٢ م

وعاد ثانية يتصدى للرافعي ويتنقض ثناء جفني ناصف على كتابه «حديث القمر»<sup>(١)</sup>، فقال: «لا نستطيع أن نحمده، ولا أن نشني عليه، لأننا لا نفهمه، ولم نهتد إلى غرضه ولم نقف على مذهب الكاتب فيه؛ إما لغباوة فينا، وإما لأنه قضى الله على الكتاب بالغموض»<sup>(٢)</sup>.

وقد قابل الرافعي ذلك التصدي بشموس وخلق عال، ثم كتب في «حرفة الأدب»<sup>(٣)</sup> يقول: أريد أن أصف شيئاً من أخلاق جماعة يحترفون من الأدب صناعة كسائر المهن والصناعات التي بها قوام العيش لهؤلاء المستأكلين والمتكسبين من السوق والمرتزة لا على جهة ما تحتاج إليه الحرفة من نفاق السوق..

وعند تقليب النظر في أقوال الحرفاء وما أفاء الله عليهم من خير، وما بسط لهم من سعة، وعند اهتمام القلب بكسادهم — إن وقع في الحرفة، وضعف إن أخذ في أطراف العمل، فهذا كله وما كان من بابيه، ويتصل بأسبابه، رأيناه في كثير من أهل الأدب الذين اتخذوا من الأدب حرفة، وذهبوا بها يتجرون في أخلاقهم على الناس.. والغرور ألام اللوم في محترفي الأدب خاصة، قلما يؤتى أحدهم إلا من جهته.. ولو قيل لي: إن في أديب مئة فضيلة، وفيه الغرور، لما صدقت أن تكون فيه مع هذه الرذيلة فضيلة..

وصفة الغرور أن يكون لسانه فوق عقله، وتكون نفسه تحت لسانه،

(١) الجريدة — ٦ ديسمبر/كانون الأول ١٩١٢ م

(٢) الجريدة — ١٤ ديسمبر/كانون الأول ١٩١٢ م

(٣) الزهور — ١٠ مايو/أيار ١٩١٣ م

فكيف تراه يكون لو تَمَّتْ له هذه الصفة : قُوَّةُ اللسان، وسُرْعَةُ البديهة،  
وشدَّةُ العارضة، واستجابةُ المعاني — وهي أخصُّ أدواتِ حرفة  
الأدب ١٩.. الخ.

وهي مقالةٌ طويلة، مرَّةُ الوقع شديدةُ الوطأة.

وطه على ما فيه من الذكاء والفطنة — فيه من المُفارقةِ الشيءَ  
غيرُ الاعتيادي، فهو ما يفتأ يناوئ الرافعي ويَعِزُّهُ بقارصِ الكلام، ويَلْمِزُهُ  
بلسانِهِ الدُّلِق، ويُبَاغِتُهُ عَثًّا واستهتاراً، فيعودُ الى طبيعتهِ مُتَّخِذاً من فهمِهِ  
مقياساً أدبياً، ومن ذوقِهِ ميزاناً للتقويم، ومن نظرتِهِ ذليلاً للعصر،..  
فَيَعْتَرِضُ سبيلَهُ في رسالتهِ الأثيرةِ ( العتاب )<sup>(١)</sup> ورسائل الأُحزان<sup>(٢)</sup> يُعِيبُ  
عليه الأسلوبَ والفنَّ، ويَتَّهِمُهُ بتخلُّفِهِ عن ركبِ الحضارةِ والعصر، وأنَّه  
مُحَافِظٌ وزعيمُ المذهب القديم<sup>(٣)</sup>.

ههنا كانَ التحرُّشُ والإيذاءُ قد بَلَغَ مداه، فلم تَعُدْ ردودُ الرافعي  
الكُلِّيَّة، ولا ضُمائرُ الغيب تعجدي مع هذا الأديب المحترِف المتماذي  
في غِيَّهِ.

وما كادَتْ تحينُ فرصةُ كتاب ( الشعر الجاهلي ) لَطه، حتى اهْتَبَلَهَا  
الرافعي سانحةً ليعلن الحربَ على خَصْمِهِ العابث، ويُقيِمَ الدنيا ويقعدها  
عليه، وَيَسْتَعْمَلْ معه جميعَ الأسلحةِ العلمية التي يمكنُ أن تردَّعَهُ عن  
تماذيه في احترافِ الأدب والتاريخ<sup>(٤)</sup>.

(١) السياسة ٣٠ مايو/أيار ١٩٢٣ — أوراق الورد — ٢٠٦

(٢) حديث الأربعاء ٣ — ١١، المعركة ١٠٩

(٣) حديث الأربعاء ٣ — ١١، وحي القلم ٣ — ٢٨٨

(٤) ربما كان الرافعي يستفزُّ طه باهدائه مؤلفاته إليه، ليشيرَ فيه طبيعتهِ هاتيك، وينضج المسألة =

وفي الوقت الذي كَانَ يمكن للرافعي أن يعرضَ عِلْمَهُ وفَنَّهُ في نقدِ هذا المصنّف بإعادةِ توثيقِ شواهدِهِ، وبيانِ أفكارِ مؤلّفِهِ، وخطَلِ حكمِهِ، ورَدِّ التداعي والإضافاتِ والخلطِ والخطأِ فيه، والتنبيهِ على زَيْفِ المنهاجِ الذي يَنْتَهِي بِصاحِبِهِ إلى المنزلقاتِ والمهاوي في الأحكامِ المُتَسَرَّعةِ، وَيَسْتَأْنِفَ عليه مذاهبَ القَوْلِ في الروايةِ والعلمِ والتاريخِ وسوءِ فهمِهِ في الأَخْلَاقِ.. تَمَلَّكَتِ الرافعي الحماسةُ، واندَفَعَتْ بِهِنَّ شَهْوَةُ الانتقامِ، وصارَ إلى حالٍ مُتَواجِدَةٍ؛ يَدْفَعُ فيها عن دينِهِ وَحُرْمَةِ تُرَاثِهِ.. فسارَعَ في الكتابةِ قَبْلَ أن يَقِفَ على الكتابِ نَفْسِهِ!..<sup>(١)</sup> كالذي يثَارُ لِعَرَضِهِ!..

ثم لَمَّا وَقَفَ على الكتابِ زادَ حماسةً وَعُنفًا، فَبَثَّ عِلْمَهُ وتوثيقَهُ في تلكِ الثَّبَرَةِ الحَادَّةِ، والصوتِ العَالِي، والتهكُّمِ والسخريةِ وكلِّ ما يُؤْذِي الجامعةَ وَيُوجَعُ أستاذَ الآدابِ بها، وَيَرُدُّ على طه حسين أسوأَهُ وأذاهُ الذي مارسَهُ مع الرافعي خمسةَ عشرَ عاماً.

ولكن المقالات على كلِّ أحوالها فيها من العِلْمِ والتوثيقِ ما لم يَكُنْ يقوى عليه غَيْرُهُ، وربما كَانَتْ مَنبَهَةً لآخرين تَصَدُّوا للموضوعِ من جوانبٍ مختلفة<sup>(٢)</sup>.

ذلك أَنَّا نجد الرافعي يَرُدُّ كلامَ طه الذي تَمَحَّلَهُ بالقصصِ والأخبارِ، والأشعارِ التي رُوِيَتْ عن المعمرين، فيعيدُها إلى قَالَةٍ للجاحظِ يَثْبُتُ

---

= بينهما، فيتوقَّر على سببِ في النقدِ يوثقُ فيه قيمه وخصائصه وينشر دعوته، ويذيع

الفكر الذي يراه في طريقته العلمية — الرسائل ١١٥

(١) العريان — ١٢٥

(٢) راجع الرافعي الناقد.

نصّها، ثم يعود إلى الموازنة بين رأي الجاحظ وبين كلام طه وتخليطه وإضافته<sup>(١)</sup>.

ويصنّع كذلك مع نصوص لابن سلام وللمرزباني، فيعيدها مجلّوة تأخذ مكانها وتبعاتها التاريخية في هذا المجال، بعد أن يُنبّه على سوء أخذ طه حسين لها، وسوء فهمه لمحتواها.. وهكذا حتى يأتي على منهاج الكتاب، فيتهم طه وفهمه لمنهاج «ديكارت» ويُخيل إليه أنه ألقى عليه القبض مُتلبساً بالسرقة، والتزوير وضلّة الترجمة، وسوء التأويل.. ثم إنه يشكّ في دينه ومروءته.

وأعجب من ذلك كلّ أنه لم يتعدّ هذه الحدود فيتهمه بالأخذ عن كتاب أو مقالة «مرجليوت» — كما شاع آنذاك<sup>(٢)</sup> أو نقله لرأي المبشرين عن كتاب «مقالة في الاسلام» أو ما إليها من التهم الواردة الأخرى<sup>(٣)</sup>.

بل هو لم يُشرّ أو يعتدّ بسبقه في الموضوع<sup>(٤)</sup> وهذه ميزة فضيلة للرافعي، حتى لنجدّه يخرج من المعركة — كما سُميت — وقد سئم أحداً لها «ووقائعها»<sup>(٥)</sup>. ونشهدّه ينتهي إلى القول من بعد حيث تصدّت لظه «الرابطّة الشرقية»<sup>(٦)</sup> وكوكب الشرق<sup>(٧)</sup> في حُسابه لأسماء الإشارة ضمائر في القرآن :

(١) المعركة ١٨٨ — الشعر الجاهلي — ١٠٢

(٢) أنظر الزهراء — ١٣٤٧ هـ — وراجع محمود محمد شاكر — المتنبي ط ٢ — السفر الأول.

(٣) حلمي البارودي — الأهرام ٣ أكتوبر ١٩٢٩ م

(٤) أنظر المقتطف — مايو/أيار ١٩١٥ م، الرواية والرواة للرافعي.

(٥) رسائل الرافعي — ٢٠٦

(٦) ٦ نوفمبر ١٩٢٨ م

(٧) ٦ نوفمبر ١٩٢٨ م «خرافة طه حسين الجديدة».



« إن أمر طه حسين أمرٌ هزلٌ، لا ينتج أكثر مما أنتج من قبل »<sup>(١)</sup>  
وما أصدقه !

\* ومنها نقده لقصيدة حافظ إبراهيم في الإمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه « العمرية » وكان الشاعر قد نظم في أمير المؤمنين قصيدة طويلة، امتد فيها نفسه الشعري، ولكنه لم يستطع أن يجمع الحكمة الى الوجدان من غير أن يجور على الرواية التاريخية، فتفلت منه بعض الوقائع، وتأتبت على شاعريته أن تجيء كما هي، فقد تصّرف بعبارتها بما يؤهم ويضطرب.. قال الراجعي :

« أمّا أثر الروح الالهي في القصيدة، وما يتجلّى فيه من الحكمة الرائعة والوصف البارع، والإبداع والسمو وفلسفة الحياة، وما الى ذلك من مظاهر الروح والفكر.. فهو أثر ضيق جداً لا يكاد يحس، على أنه مع ذلك من روعة تاريخ الفاروق وسموه الطبيعي وروحانيته، لا من نفس الشاعر، ولا من قوته الذهنية ؛ فإن حافظاً لم يعرف الحكمة ولا الفلسفة، ولا هو ممن يضرب الأمثال للناس، ويشرح لهم معاني الحياة، ولا هو بالشاعر الذي يغوص وراء المعنى الى سرّ أو صميمه، ويتعلّل بروحه في ضمائر الأشياء — كما هو حق الشعر.. وذلك هو السر في أن أكثر قصائده أنفاس ضيقة، وأبيات معدودة.. فلما أدرك أخيراً أن الشعر هو تعبير عن أسرار المعاني في هذا الكون، وأنه لذلك يجري مجرى الشرح والإفصاح عما في الطبيعة من أسرار النفس، وما في النفس من معاني الطبيعة، فيجب أن تكون أكثر قصائده طويلة، عمدة صاحبنا الى الإطالة، ولكنه لم يجد في ذهنه المادة الفلسفية

التي تُعطيهِ أسرار الأشياء، وتكشفُ له عن آثارِ الشعر في المناسبات المعقودة بين التفسيرِ وهذه الأسرار، بل رأى أن كل بضاعِهِ حافظةٌ جيّدة تواتيه شيئاً فشيئاً من الألفاظ الجزلة، والعبارات المُنوّقة، والمعاني التي طالَ عليها القدم،..

ومن هنا طالت « العُمريّة » ؛ لأن تاريخَ الفاروق طويلُ الذيل، مبسوطُ الجناحين على الآفاق، وهي مع ذلك تصلحُ شاهداً على ما قدّمنا<sup>(١)</sup>.

وقال : « إنَّ حافظاً نَظَمَ وتصرّفَ في عبارِ التارِيخ، فجاءَ بعضُ كلامه مُوهِماً معاني غيرَ صحيحة،.. والقِصّة التي أشار إليها يمكن أن يؤخذَ منها كما هي في نظْمِهِ : أن النبي ﷺ كان يسمَعُ الغناء ويشهد الرقص النسائي !! وكان أضعفَ في الدين من عمر !! الخ<sup>(٢)</sup>.

ولكن القِصّة في نفسها لا تفيدُ شيئاً من هذا كلّهُ ؛ فالروايةُ أن جاريةً سوداء جاءت النبي ﷺ، لما انصرفَ من بعض مغازِيهِ، فقالت : إنّي نذرتُ إن ردّك الله سالماً أن أضربَ بين يديكَ بالدّف، قال ﷺ : إن كنتِ نذرتِ فاضربي، وإلا فلا،.. فجعلتُ تضربُ ثم دَخَلَ أبو بكر ثم علي ثم عثمان — رضي الله عنهم — وهي تضربُ، فلما

(١) البيان ٤ — ٦ مارس/آذار ١٩١٨ م.

(٢) قال حافظ — ديوانه ١ — ٨٧

أنشودة لرسول الله تهديها  
لا ينكران عليها من أغانيها  
خارت قواها وكاد الخوف يُرديها  
إن الشياطين تخشى بأس مخزيها

أريت تلك التي لله قد نذرت  
والمصطفى وأبو بكر بجانبه  
حتى إذا لاح من بُعد لها عمرٌ  
قد فرّ شيطانها لما رأى عمرأ

دخل عمر رضي الله عنه أَلَقَت الدفَّ، وجلسَ عليه، فقال النبي ﷺ :  
 إِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَخَافُ مِنْكَ يَا عُمَرُ. فلم يفرَّ الشَّيْطَانُ، فهي عبارة مجازية..  
 وهذا كَانَ من عاداتِ سائر العرب إذا انقلبَ أبطالهم من الغزو، وأنَّ  
 النبي ﷺ لم يُرَخَّصْ للجارية إلَّا لتوفي نذرَها، فأَيُّ شيء في هذا كَلَّه ؟!  
 كان خليقاً بحافظٍ أن يضع تاريخاً كما يكتب « كارليل » في كتاب  
 الأبطال»<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

وقال في الظاهرة وأمثالها وقد عَدَّها من « المتون » منظومات العلوم..  
 « ما كنَّا نظنُّ أنْ لمتنِ « العمرية » ذيولاً وحواشي، وأنَّه سيحدثُ  
 في الأدبِ أحداثاً تفتِّقُ في جوانبه، وتُطْفئُ من كواكبه، حتى جاءَ عبد  
 الحليم المصري ببيكرتِه، وجاءَ ابراهيم العرب بعلويتِه، والشيخ القصري  
 بما لا نعرفُ كيف يُسمَّى : أعلوية أم سفلية ؟!

كيف انبَعَثَ القوم لتقليدِ حافظ؟! كأنَّه لا ذوقَ لهم في الشعر،  
 ولا بَصَرَ بفنونه وصناعته، ولو عَرَفُوا أنَّ حقَّ الشعر أنْ يُصْلِحَ الشاعرُ  
 الفحل غلطةَ حافظ، ويكفِّرَ عن سيِّئته، وَيَسْتَنِّ لِلأدبِ غيرَ سُنَّته، فيقرضَ  
 عمريةً جديدةً يدور لها الفلك، وينقضَ تلكَ البنية الخربة المتهدِّمة،  
 ويرفعَ مكانها صرحاً من الشعر العربي المتين، يترأَّى فيه الذوق والفن  
 والقريحة، أحسن ما تكون ثلاثتها في أثرٍ من آثار البيان»<sup>(٢)</sup>.

\* ثم قوله في « الشعر العربي » : « لا تكادُ تجدُ شعراً عربياً بعد

(١) الرسائل — ٥٧

(٢) البيان ٨ — ٦ — ١٩١٨ م

القرن التاسع الهجري إلى أول النهضة إلا رأيته صُوراً ممسوخة مما قبله، وكل شعراء هذه القرون ليسوا مِمَّن وراءه إلا كالظل من الإنسان لا وجود له في نفسه!.. إلا في الثدرة حين يسطع في مرآة صافية.. فما ثمَّ جديد في الأدب والفن إلا ولادة الشعراء وموتهم، وإلا تغير تواريخ السنين!..

ولا تكاد تجد شعر أديب متأخر يستقيم له أن يذكر في شعر كل عصر من لدن زمننا إلى صدر الإسلام، ثم لا تنحط مرتبته غير كلام البارودي؛ لأن شعره هو الذي نسخ آية الصناعة، ودار في السنة الرواة، وكان المثل المحتذى في القوة والجزالة ودقة التصوير وتصحيح اللغة؛ لأن النهضة الاجتماعية في الشرق العربي كانت في علم الله مرهونة بأوقاتها وأسبابها.

ونشأت العصاة البارودية وفيها إسماعيل صبري، وأحمد شوقي، وحافظ والمطران، وأدركوا ما لم يُدرِكهُ البارودي، وجاؤوا بما لم يجرى به، واتصل الشعر بعضه ببعض، وسارت به الصحف، وتناقلته الأفواه، وأنسي ذكر البلاغة وفنونها بالنشأة الحديثة التي جعلت من ترك البلاغة بلاغة؛ لأنها صادفت أول الانقلاب لا غير، وبذلك بطل في مصر عصر أبي النصر واللثي والساعاتي وطبقتهم، وفي الشام عصر اليازجي والأنسي والأحبد وأضرابهم، وفي العراق عهد الفاروقي بالموصل والبزاز والتميمي وسواهم.. واستقل الشعر عربياً عَصْرِيّاً، وخرج — كما يخرج الفكر المخترع ماضياً في سبيل غير محدود.. الخ»<sup>(١)</sup>.

(١) المقتطف — يناير/كانون الثاني ١٩٢٦ م

ولعل من أفضل هذه المقالات جميعاً، ذلك الفصل الذي عقده لنقد الشعر وفلسفته<sup>(١)</sup> فقد جعل من الرافعي الناقد الحق الذي يحتوي العصر حين قال :

« الشاعر في رأينا ذلك الذي يرى الطبيعة كلها بعَيْنين لهما عِشق خاص، وفيهما غزل على حدة، وقد خُلِقَتَا متهَيَّأتين بمجموعة النفس العصبية لرؤية السحر الذي لا يُرى إلا بهما، بل الذي لا وجود له في الطبيعة الحية لولا عَيْنَا الشاعر.. كما لا وجود له في الجمال الحي لولا عينا العاشق!..

بالشعر تتكلم الطبيعة في النفس، وتتكلّم النفس الحقيقة، وتأتي الحقيقة في أظرف أشكالها وأجمل معارضها، أي في البيان الذي تصنعه هذه النفس الملهمة، حين تَلَقَّى النور من كل ما حوّلها وتعكّسه في صناعة نورية متموجة في المعاني والكلمات والأنغام»<sup>(٢)</sup>.

وقد أثارت هذه المقالة بعض الأسئلة النقدية والتعقيبات وتداعي الخواطر، أجاب عليها بظرف وأدب جم<sup>(٣)</sup>.

ج — ومن النقد ما هو مشاكسة والتفاف وإيقاع، كما هو حال الرافعي مع عباس محمود العقاد، فقد كان له عليه يد في وظيفته، وفي السعي معه إلى « الجريدة » و « الدستور » ثم في دعوته للترجمة والكتابة في مجلة « البيان » وعنايته به من هذه الناحية<sup>(٤)</sup>؛ حتى كان

(١) أبولو — مايو/أيار ١٩٣٢ م

(٢) أبولو — مارس/آذار ١٩٣٣ م ويونيو/حزيران ١٩٣٣ م

(٣) الأقلام ١ — ١٩٦٧

الرافعي عند العقاد « المنشئ المكين<sup>(١)</sup> » الذي يَتَهَيَّأُ له من أساليب العربية والبيان ما لم يَكُنْ يَتَهَيَّأُ لغيره في صدر أيامها<sup>(٢)</sup>.

ولكن طبيعة في العقاد — عفا الله عنه — كانت تعودُ به الى الإساءة من حيث يريدُ التطلُّع بالنقدِ أو التنطُّع بالعلم ؛ فيغمزه في « المؤيد » ويجعلُ من قياسه لابن أبي العوجاء والحيوان المتنفس<sup>(٣)</sup> « فائدة من أفكوهة » زعمَ عامر العقاد أن الرافعي تدارك القياس بهامش<sup>(٤)</sup>.

ويعود بعد تركه « البيان » وانضمامه الى سياسة سعد زغلول والوفد، يؤرِّه بقارص الكلام، ويؤذيه بشدة الوطأة عليه في « الديوان » ينعتُه بأنه عامي من فرعِهِ الى قدمِهِ،.. وأنه يسرقُ مقولاتِهِ!!<sup>(٥)</sup>

أما الرافعي فيكتفي بإهماله مرتين، ولما عادَ في الثالثة بلهجة استعلائية يدعو للرافعي بأن يجرى على نيتِهِ الحسنة فيما ذهب إليه من تأليف كتاب (إعجاز القرآن)،.. وينزل في رأي يتورط فيه الى ما يُشبهه اختلال التوازن أو المروق من الاعتقاد بالقرآن<sup>(٦)</sup>.

وفي امتناع « البلاغ » عن نشر ردِّ الرافعي عليه، ثم في مجابهة العقاد للرافعي واتِّهامه بتزوير كتاب سعد زغلول في تقرير كتاب الإعجاز، في إدارة « المقتطف ».. كلُّ أولئك قد أوغر صدر الرافعي،

(١) العقاد — الرسالة — ٢٦١ — ٣ يونيو ١٩٤٠ م

(٢) المؤيد ٤ مايو/أيار ١٩١٤ م والعريان — ١٥

(٣) المؤيد ١٦ مايو ١٩١٤ م

(٤) إعجاز القرآن — ٢٠٩، عامر العقاد — العقاد والتجديد، ٢٧٦، وما هنالك من هامش!!

(٥) الديوان ج ٢ — ٧٩

(٦) ساعات بين الكتب — ١١ وقد أعاد صياغة العبارة بعد تنبيه الرافعي له.

وَجَعَلَ الْحَقْدَ فِيهِ يَتَلَهَّبُ، فَيَسْتَعِدُّ لَهُ بِحَمْلَةٍ نَقْدِيَّةٍ لَهَا مَكَانُهَا فِي تَارِيخِ  
الْأَدَبِ الْحَدِيثِ؛ إِذْ وَضَعَ الْعَقَادَ — شِعْرَهُ وَأَدَبُهُ — « عَلَى  
السُّفُودِ »<sup>(١)</sup> بَعْدَ صُدُورِ دِيْوَانِهِ ذِي الْأَجْزَاءِ الْأَرْبَعَةِ، ثُمَّ رَاحَ يَقْلِبُهُ عَلَى  
الْجَمْرِ، يَشْوِيهِ وَيُلْهُو بِهِ، كَأَنَّهُ يَعْثُ بِالنَّقْدِ وَالْعَقَادَ مَعاً !!

وَلَمَّا أَصْدَرَ الْعَقَادَ « وَحْيَ الْأَرْبَعِينَ » تَابَعَهُ بِنَقْدٍ آخَرَ، أَفْقَدَهُ صَوَابَهُ،  
وَتَرَكَهَ لَا يُلَوِّي عَلَى شَيْءٍ غَيْرِ السَّبَابِ وَالْبَذَاءِ..

ثُمَّ لَاحَقَهُ فِي دِرَاسَتِهِ لِابْنِ الرُّومِيِّ الشَّاعِرِ.. وَعَادَ فَسَخَرَ مِنْهُ وَمِنْ  
طَه حُسَيْنٍ حِينَ حَاوَلَ هَذَا أَنْ يَقْلِدَهُ « إِمَارَةَ الشَّعْرِ » بَعْدَ أَحْمَدَ شُوقِي..  
وَقَدْ أَجْهَزَ عَلَيْهِ أُخِيرًا وَهُوَ يَسْقُطُ سِيَاسِيًّا خَارِجًا عَلَى الْوَفْدِ « أَحْمَقُ  
دَوْلَةٍ »<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

\* وَمِنْهُ مَنَازِلَتُهُ لِلدُّكْتُورِ زَكِيِّ مَبَارَكٍ بِمَقَالَاتٍ « صَعَالِيكَ الصَّحَافَةِ »  
رَدًّا عَلَى مَا جَاءَ فِي كَلَامِ الدُّكْتُورِ مِنْ نَقْدٍ « وَحْيِ الْقَلَمِ » وَالتَّعْرِيفِ  
بِأَدَبِ الْإِنْشَاءِ الرَّافِعِيِّ<sup>(٣)</sup>.

إِنَّ مَقَالَاتِ النِّقْدِ هَذِهِ — عَلَى مَا فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْفَنِّ وَالصَّلَاحَةِ  
الْأَدَبِيَّةِ وَالْبِرَاعَةِ فِي تَنَاوُلِهَا أَسْلُوبًا وَإِدَارَةَ كَلَامٍ — كَانَتْ مُشَاكِسَةً وَالتَّفَافًا

(١) فِي الْمَعْصُورِ ١٩٣٠ — ١٩٣١.

(٢) الْأُسْبُوعُ، وَالبَلَاغُ، وَكُوكِبُ الشَّرْقِ وَغَيْرُهَا مِنْ صَحْفِ ذَلِكَ الْمَعْهَدِ، رَاجِعْ كِتَابُنَا (الرَّافِعِيُّ  
النَّاقِدُ).

(٣) أَنْظَرِ « الْمِصْرِي » لِعَامِ ١٩٣٧ وَمَجْلَةَ الرِّسَالَةِ وَعَايِنِ وَحْيَ الْقَلَمِ ٣ — ١٨٤ ط —  
الْمَعَارِفِ.

وإيقاعاً بالعقاد أديباً وشاعراً، والهزء بالمبارك، والسخرية منهما ومن غيرهما ..!

د — ومنه «التقويم»، وما يكون تَوْجِيهاً وثباتاً على الصراط،..  
وَيَتَجَلَّى الرافعي في ذلك أروع ما يكون الأديب في دعوته، وصاحبُ  
الرأي في مذهبه، والفقيه في حرصه وتفانيه، والإمام في القدوة،..  
ومن ذلك :

١ — إجابته في نهضة اللغة العربية وامتيازها، وفيها جاءت نبوءته  
بقيام الوحدة العربية إذ قال : .. وما أراها إلا سَتْنَهض في مصر والشام  
نَهْضَةً مَنْ يَسْتَجْمَع، وربما شَهِدَ النَّاسُ ما بين العراق الى الأطلسنطق  
« جُمهورية اللغة العربية » وما هو ببعيد والله غالب على أمره<sup>(١)</sup>.

٢ — رأيه في نهضة الشرق العربي وقوله : « الرأي الذي أراه أن  
نهضة هذا الشرق العربي لا تُعدُّ قائمةً على أساسٍ وطيد إلا إذا نَهَضَ  
بها الركنان الخالدان : الدين الإسلامي واللغة العربية، وما عداهما فعسى  
أن لا تكون له قيمة في حُكْمِ الزمن الذي لا يَقْطَعُ بحكمه على  
شيءٍ إلا بشاهدين من المبدأ والنهاية<sup>(٢)</sup> ».

٣ — ومنه رأيه في المرأة، وما يَحْسُنُ أن تَسْتَبْقِي من أخلاقها،  
وما تَقْتْنِيهِ من شقيقتها الغريبة وقوله :

« الذي يجبُ أن تحتفظ به الشرقياتُ ثلاثة ؛ الحياءُ الصادقُ، والعِفَّةُ

(١) الهلال — فبراير/شباط ١٩٢٠ م ويريد بجمهورية العربية أن تكون مفاصحة جمهور  
الامة بها في وحدة اللسان والفكر والساداد.

(٢) الهلال — يونية/حزيران ١٩٢٣ م



الصحيحة، والخضوعُ الجميل، الذي هو مظهر الحبِّ لمن يجبُ له الحبُّ.. وهذه الأخلاقُ لا تقوم إلا بثلاثةٍ أخرى ؛ تصاؤُن المرأة عن مخالطة الرجال إلا في ضرورةٍ ماسة، وحرصُها أشدَّ الحرصِ على دينها، والصبرُ أقوى الصبرِ على مكارِهِ البيت.

أما ما يحسُن أن تُقتَبَسَهُ نساؤُننا من المرأة الغريبة، فالعلمُ وحده، وما هو من نتائجه ؛ كالتدبير والحزم والبصر بأُمور الحياة، وحسن التصرف فيها<sup>(١)</sup>.

٤ — ومنه في الكتب التي أفادته، والكتب المحتاج إليها في الإعداد، إذ يقول : « في أيام التحصيل كنتُ أقرأ كلَّ ما أصابته يدي، وكنتُ أكثرُ من الملاحظة، وأدقُّ فيها، فلا أعرفُ كتاباً أنا منه أكثرُ ممَّا أنا في غيره.. ولكن إن يكن كتاباً بعينه فَلَعَلُّهُ في الحديثِ اسمه « الجامع الصغير » كنتُ أحضّر به درس أبي رحمه الله.<sup>(٢)</sup> »

لا بُدَّ من كتب الآداب الدينية قبل سواها، فإذا استوفى الشابُّ منها قانونَ ضميره، فهو من بعدُ أبصرُ بحاجتِهِ، ثم ليقرأ ما يشاء — وليكن عريباً<sup>(٣)</sup> فالصحةُ تجعلُ كلَّ غِذاءٍ صحة..

كما لا بُدَّ من تهذيبِ المكتبة تهذيباً فلسفياً<sup>(٤)</sup>، وبيان أسرار

(١) الهلال — ديسمبر/كانون الأول ١٩٢٤ م — وما ضَرَّ لو قال : تأخذه — بدل هذه الكلمة البلاغية تُقْتَبَسُهُ.

(٢) الهلال — ديسمبر/كانون الثاني ١٩٢٧.

(٣) لاحظ دقة الإحساس القومي عنده.

(٤) أنظر كيف أغارت نعمات أحمد فؤاد على الفكرة، وأوردتها في مقدمة ملفها في « أدب الرافعي »!

حضارة الشرق في أديانه وآدابه<sup>(١)</sup>، ونقل أسمى ما في الأدب الأوربي.. ولو أحياني الله حتى أرى لقومي مجمعة — أنسكلوبيديا — عربية، لكنت سعيداً حق سعيد، فلنحرص على أن نساعد بوضع ما يعد من موادها وأجزائها<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

## ٥ — ومنه رأيه في الحضارة الغربية إذ يقول :

« هذه الحضارة أطلقت العقول تجدد وتبدع، وأطلقت من ورائها الأهواء تلذ وتستمع وتشتهي ؛ فضربت الخير بالشرّ ضربة لم تقتل، ولكنها تركت الآثار التي هي سبب القتل، إذ لا تزال تمُدّ مدّة.. حتى تنتهي الى غايتها، وذلك هو السرّ في أنه كلما تقادمت الأزمنة على هذه الحضارة ضجّ أهلها، وأحسّوا عللاً اجتماعية لم تكن من قبل.. إنني لا أرى أكثر مظاهر هذه الحضارة إلاّ أسلحة قاتلة ؛ تقتل الخير والرحمة في قلوب الناس ؛ فهي ترفع تكاليف الحياة وتزيد فيها، وتعمّر آمالها، فتنشئ بذلك الفقر المدقع، وتخرج منه الفوضى والاختلال، وتحدث به الأخلاق السافلة.

والروح الانسانية متى أصبحت متورة ساخطة متبرمة بأسباب مختلفة كأسباب هذه المدنية من سياسية واجتماعية ووطنية، لم تكن روح الحياة، ولكن روح القتل وما في حكمه، ومن ثم فلا بُدّ في هذه الحضارة من انفجارات حربية مستمرة، ولا بُدّ لها أن تجد من تقتله

(١) تدارك الأنصار ذلك برؤية مستنيرة للقرآن الكريم، ولماذا نزلت الأديان في الجزيرة العربية

(٢) الهلال — يناير/كانون الثاني ١٩٢٧ م

وَمَنْ تَظْلِمُهُ وَمَنْ تَسْتَعْبِدُهُ.. وإذا تحاجزت الدول وتتاركت زمناً، فإنما يُسَمِّنُ بعضها بعضاً في مراعي السَّلم والعيش، وكلُّ أمةٍ عَيْنُهَا على شَحْمِ الأخرى»<sup>(١)</sup>.

٦ — ومنها قالتُ في القبعة، وكيف أخذ على المُقلِّدين لمن قلِّدوا أوربة من الكماليين وبقية الأعجام — الايرانية والأفغان آنذاك، إذ يقول : « نحن نبتأغ ما شئنا منذُ أصبح العالم سُوقاً واحدة.. فجدائي مثلاً نجد فيه متانة الحرية الألمانية، وثيابي تكادُ تستعمر جسمي لأنها من انجلترا.. وما القبعةُ على رأس الشرقي إلاَّ حدٌّ طَمَسَ حدًّا، وفكرةٌ هزمت فكرة.. إنها الفوضى ما دام الحدُّ لا موضعٌ له في التمييز ولا مقرٌّ له في العرف.

إنَّ « الطربوش » يوناني معرَّب فهو في ألفاظ الحياة يُلهمنا ما أودَّعَه التاريخ من قوميتنا ومعاني أسلافنا، فيه سرُّ القوة التي تجمُّعنا حول المعاني الاعتبارية تتمثلُ فيه تمثُّلُ الوطن في الراية.. ومن سخافة التقليد والعقلة أن ننزع الى ما اتَّخذَه غيرها فنشأوا على الوقاية من شمسِ أرضنا في حين يجبُ أن نجعلَ بيننا وبين الشمس ونورها وحرِّها ملاءمة؛ فنبرزَ لها ونعتادها من الصَّغر ونتلقَّاها بوجوهنا.. الخ»<sup>(٢)</sup>.

٧ — ومنه قوله في التجديد والمجدِّدين : « أنتم ويحكمكم تقولون : العلم، والفن، والشهرة، والغريزة، والعاطفة، والمرأة، وحرية الفكر، واستقلال الرأي، ونبتذ التقاليد، وكسر القيود..

(١) الهلال — نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٢٦ م

(٢) الهلال — نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٢٧ م

وإلى آخرها فهذا كله حسنٌ مقبولٌ سائغٌ إن كان مقالاً أو قصةً!..  
لم أرَ إلى الآن من آثارِ المجدِّدين شيئاً ذا قيمةً، لا في علمٍ  
ولا في أدبٍ!.. ما كان من هُراءٍ وتقليدٍ زائفٍ فهو من عندهم، وما  
كان جيداً فهو عندهم كالنفائس في ملكِ اللص، لها اعتباران — إن  
كان أحدهما عند مقتنيهما، فالآخر عند القاضي!..

ليسَ عندنا مجدّدٌ بمعنى التجديد على حقّه، وعلى مذهبه وعلى  
مقداره، وإنما هي قوَضِيٌّ، أولئك بعضُ أشخاصها، وتلك بعضُ أعمالها..  
فإن تواضعَ التجديدِ وسمّى نفسه تجربةً لطريقة من الإصلاح، لم يعدِ  
الجدالُ بينه وبيننا، وإنما يكون بينه وبين سُننِ الحياة في المصالح  
العامة، هي تقرأ وتثبت، أو هي تردّه فتنفيه.. الخ»<sup>(١)</sup>.

ويوم أَلَحَّتْ عليه «الهِلال» بالسؤال، بادرها بالجواب :

« أقولُ ولا أبالي : إننا انتهينا من نهضتنا بقومٍ من المترجمين<sup>(٢)</sup>  
قد احترفوا الترجمةَ والنقلَ من لغاتٍ أوروبية، فصنعتهم الترجمة من حيثُ  
يدرون ولا يَدْرُونَ، صنعةَ تقليدٍ محض، ومتابعةٍ مُستَعْبِدة، وأصبحَ العقلُ  
فيهم — بحكمِ العادة والطبيعة — إذا فُكِّرَ انجذبَ إلى ذلك الأصل،  
لا يخرُجُ عليه، ولا يتحوّلُ عنه، فهم بذلك خَطَرٌ أي خطرٌ على الشعبِ  
وقوميتِهِ، وذاتيتِهِ وخصائِصِهِ.. ويوشكُ إذا هو أطاعهم إلى ما يدعونَ  
إليه — أن.. أن يُترجموه<sup>(٣)</sup> ».

(١) الهلال — آذار/مارس ١٩٢٩م

(٢) مثل طه حسين ونقله عن الفرنسية، وعباس العقاد وأخذوا من الانجليزية، وسلامة موسى  
وابتساره بمقدار فهمه — وغيرهم ممن يتابعهم في الترجمة بهذا الشأن أو ذاك!

(٣) الهلال — مايو/أيار ١٩٢٤م، وقد كان مترجموه طرائق في التفكير يتبدد فيها ولا يجتمع!

ومنه رأيه في حال الأديب وعيشه، إذ يقول:

« إن الأديب العربي يجب أن يجمع البلاغة العالية في ثلاثٍ من  
بيانه وفكره وقلبه ؛ فالبيان ، اللغة وعلومها، وآدابها وتاريخ آدابها،  
والفكرة العلوم والفلسفة الأدبية والخيال الملهم، وللقلب الحس الدقيق  
الذي يكون كالصلة بين الأشياء ومبدعها، فهي تمتد بطرفها من قلب  
الإنسان العظيم الى أعلى وإلى الطبيعة »<sup>(١)</sup>.

ويوجه ذلك الى الشباب بقوله :

« الأديب في رأيي يجب أن يكون شاعراً كاتباً، مُحيطاً بإحاطة دقيقة  
فلسفية بالعربية وآدابها، ولا بُدَّ له من فكرٍ ملهم مُستقل لا يُستعبد  
لترجمة، ولا للنقل ولا للتلصص،.. ولا بُدَّ له من قلب كبير حسّاس ؛  
يفرح بإيمان، ويحزن بإيمان، فالأديب كما ترى يُصنع بأقدار الله ؛  
لأنه في نفسه قدرٌ على قومه، فما النصائح التي تجعلُ بها جهازك  
العصبي مثلاً جهازاً ملهماً قريباً من الوحي ! »<sup>(٢)</sup>.

وكذلك رأيه في القصّة، وقوله :

« إن من يحترفون كتابة القصص هم في الأدب ما هم، كان من  
أثر قصصهم ما يتخبط فيه العالم اليوم من فوضى الغرائز.

هذه الغرائز، والفوضى الممقوتة التي لو حقّقتها في النفوس لما  
رأيتها إلا عاميةً منحطة، تتسكّع فيها النفس مشردةً في طرق رذائلها،..  
هذا هو فنُّ تلفيق القصص »<sup>(٣)</sup>.

(١) المجلة الجديدة — مايو/أيار ١٩٣١ م.

(٢) الرسالة — ٤٣

وَمَنْ يَنْظُرُ فِي رَسَائِلِهِ الْخَاصَّةِ إِلَى مُحَبِّ الدِّينِ الْخَطِيبِ، وَمَحْمُودِ أَبِي رَيْةٍ، وَغَيْرِهِمَا، يَقِفُ عَلَى آرَاءٍ مِمَّاثِلَةٍ لِمَا تَقَدَّمَ، وَرَبَّمَا زَادَ عَلَيْهَا مِنْ صِرَاحَتِهِ بِآرَاءٍ أُخْرَى فِي مَوْضُوعَاتٍ وَجَوَانِبٍ مِنَ الْحَيَاةِ الثَّقَافِيَّةِ وَالْأَدَبِ وَالْاجْتِمَاعِ تَوَلَّفَ بَيْنَهَا مَجْمُوعَةً مِنَ الْمَقَالَاتِ النِّقْدِيَّةِ الَّتِي لَا تَخْلُو مِنْ تَقْوِيمٍ وَتَوْجِيهِ وَإِعْدَادٍ.

\* \* \*

٤ — الْمَقَالَةُ الْبَيَانِيَّةُ : هِيَ مَقَالَةٌ أَدَبِيَّةٌ مُمَيِّزَةٌ ؛ تَتَّخِذُ الْفِكْرَةَ أُسَاسًا، وَتُتَدِيرُ الْأُسْلُوبَ صِيَاجَةً بَيَانِيَّةً مِثْلَةً مِنْ حَوْلِ الْفِكْرَةِ، وَتَجْعَلُ الْفَنَّ وَالْجَمَالَ وَالْإِشْرَاقَ بِالْعِبَارَةِ وَانْتِقَاءَ الْكَلِمَاتِ وَسِيلَةً ، تَشْرِقُ فِيهَا الْمَقَالَةُ، فَتُشْفَى عَنْ الْأَصَالَةِ — وَإِنْ لَمْ تَخُلْ مِنَ الصَّنْعَةِ أحيانًا، وَلَا سِيَّمَا حِينَ تَظْهَرُ مَقْدِرَةُ الْكَاتِبِ وَرُوعَةُ أُسْلُوبِهِ، وَكَيْفَ تَطْبَعُ نَشْرُهُ وَتَعْرِفُ بِهِ.

حَاوَلَ الرَّافِعِي الْمَقَالَةَ الْبَيَانِيَّةَ فِي « مَلَكَةِ الْإِنْشَاءِ، وَالْحُسْنِ الْمَصْنُوعِ »، وَمَا اسْتَعَاضَ عَنْهُ بِكِتَابِهِ « حَدِيثُ الْقَمَرِ » تِلْكَ الْمَقَالَةُ الَّتِي صَرَفَ فِيهَا وَجْهَ الْحَدِيثِ إِلَى الْقَمَرِ، وَدَارَ مَعَ الْحَضَارَةِ وَالْحَيَاةِ وَالْقَوْمِيَّةِ فِي جَوَانِبِهَا<sup>(١)</sup>.

ثُمَّ عَادَ إِلَيْهَا مُحَاوَلًا كِتَابَةَ السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ فِي « الْكِتَابِ النَّبَوِيِّ »<sup>(٢)</sup> بِأُسْلُوبٍ جَدِيدٍ يَفْرُدُهُ لِهَذَا الْمَوْضُوعِ الْجَلِيلِ.

عَلَى أَنَّ الْمَقَالَةَ الْبَيَانِيَّةَ قَدْ حَاوَلَهَا وَعَالَجَهَا رَعِيلٌ مِنْ كُتَّابِ الْعَصْرِ

(١) طُبِعَ عَامَ ١٣٣٠ هـ — ١٩١١ م وَفِي الْبَابِ الثَّانِي دَرَاةً فِيهِ.

(٢) لَقَدْ جَهَّزَتْ هَذَا الْكِتَابَ الْخَطِيرَ وَأَوْدَعَتْهُ الْأُسْرَةَ الرَّافِعِيَّةَ هَدِيَّةً.

فيهم إبراهيم اليازجي ومحمد المويلحي ومصطفى لطفي المنفلوطي وعبد  
القادر المغربي ومحمد كرد علي وعبد العزيز البشري، وشكيب ارسلان،  
وأحمد حسن الزيات، وعادل الغضبان، يقول الرافعي :  
« لا وجود للمقالة البيانية إلا في المعاني التي أشتملت عليها، يُقيمها  
الكاتبُ على حدودٍ، ويديرها على طريقة، مُصيّباً بألفاظه مواقع الشعور،  
مثيراً بها مكائِنَ الخيال، آخذاً بوزن، تاركاً بوزن ؛ لتأخذ النفس كما  
يشاء وتترك.

ونقل حقائق الدنيا نقلاً صحيحاً الى الكتابة أو الشعر، هو انتزاعها  
من الحياة في أسلوبٍ، وإظهارها للحياة في أسلوب آخر يكون أوفى  
وأرق وأجمل.

فالكاتبُ الحقُّ أداة في يدِ القوة المصوّرة لهذا الوجود، تصوّر به  
شيئاً من أعمالها فناً من التصوير.. وإذا اختير الكاتبُ لرسالةٍ ما شعرَ  
بقوّة تفرّضُ نفسها عليه، منها سِنَادُ رأيه، ومنها إقامةُ برهانه، ومنها  
جمالُ ما يأتي به فيكون إنساناً لأعماله وأعمالها جميعاً.

هذه القوّة هي التي تجعلُ اللَّفْظَةَ المفردة في ذهنه معنًى تاماً، وتحوّلُ  
الجملةَ الصغيرة إلى قصّة.. وهي هي التي تميّز طريقته وأسلوبه، وكما  
خلقَ البيانَ من الإشعاع تضع الإشعاعَ في بيانه. ولا بدّ من البيان  
في الطبائع المُلهمة ليتّسع به التصرف.. ومن ثمّ فكثرة الصور البيانية  
الجميلة للحقيقة هي كلُّ ما يمكنُ أو يتسنى من طريقة تعريفها  
للإنسانية.

ربّما عابوا السموّ الأدبي بأنّه قليل، ولكن الخير كذلك، وبأنّه مخالفٌ

ولكن الحق كذلك، وبأنه مُحَيَّر، ولكن الحُسن كذلك، وبأنه كثيرُ  
التكاليف، ولكن الحرية كذلك»<sup>(١)</sup>.

ويكادُ المرءُ يُحسُّ بوزنِ خاص في المقالةِ البيانية، ولا سيما الرافية  
منها، لم يتهياً له خليلٌ آخر كالفراهيدي يكتشفُ له عروضهُ وأوزانه،..  
وقد حدثني الزياتُ رحمه الله عن مثلِ ذلك يعتريه — وهو يعدُّ نفسه  
لكتابة المقالةِ البيانية !.

كما حدثني عادل الغضبان الطيب الذكر بأنه « يحتفلُ للمقالةِ الأدبية  
— البيانية، وتهيأ لها، ويستدعي أسبابها، ويغالبُ مؤثراتها بأكثر مما  
ينفعلُ به في محاولةِ نظم قصيدة شعرية ».

\* \* \*

### ثانياً : المقالة الاجتماعية

لم تكن الكتابةُ في الموضوعاتِ الاجتماعيةِ آداباً وقصصاً بذاتِ  
بالٍ في فنون الآداب العربية، إلا ما يجيء منها في أخبارِ الصعلكة  
والفتوة وغيرها من أحوالِ الحياة والفروسيّة المعروفة، وهي بمكانها  
تؤلفُ جزءاً من التاريخ، وقد يحسبُ بعضهم أن ذلك نقصٌ في فنون  
الأدب العربي، وما دَرَوْا أن الأمة العربية كانت غير الأمم الأخرى  
تجربةً وواقعاً حقاً، وما بها حاجة الى ظنونِ القصص ولا فلسفةِ  
( التخاريف ) !.

على أن القرآن الكريم والفقهاء الاسلامي الجليل كان قد أعدَّ الاجتماعَ

(١) وحي القلم ١ - ٦



الإنساني من النظام والشرعية، ما يكفل حَصْرَ نواحيه العلميّة في أضيق نطاقٍ من إيجابيّة الزكوات والكفّارات، ولم يدع الاجتماع ضلّة يحتاج الى مَنْ يتصدّق عليه بعطايا الأدب والقصص التي تدورُ به دورانها في الظنون وافتعالِ المواقف والمسابهات والأمثال. فقد أضحي ذلك حقيقة واقعية ؛ تلزمُ الراعي والرعيّة، بحيث لم يعد للأديب ذلك المجالُ الوجداني الذي يَستطيع فيه تصوير السوء وفساد الاجتماع في التفاوت ما بين الفقر والغنى أو الرُفعة والانحطاط.. وإنما كان الفقيه يتناول ذلك بقانونٍ نافذٍ على الجميع.. وإن بقيت معانيها تلوحُ هنا وهناك في الأمداح والأهاجي بخاصّة، وما يلوّح من نَفج الحديث.

ثم لما كان من أنفلاتِ النظام وتصدّع الكيان الاجتماعي للمسلمين قاطبةً — وقد أصبح العربُ كالأمم الأخرى في هاتيك الأسواء، نسوا الله فأنساهم أنفسهم، رأوا في آداب الأمم الأخرى شيئاً مما يتمثلُ أمام أعينهم من اضطراب وتفاوتٍ بين الناس..

وكان للانفعال العاطفي في مثل هذه المناظر أثره الأول في المضمار.. كما كان للترجمة آثارٌ من أدب الغرب، ولا سيّما لـ « فيكتور هيجو » في البائسين، وتولستوي في الكادحين، وشكسبير في العامة، وجوته في الذات، وغيرهم في الأداء النفسي، وفيما حاولوه.. فقد انبرى مصطفى لطفی المنفلوطي يَنسجُ على ذلك المنوال « نظرات » له في الأشياء، ويصوغ « عَبَرَات » المُعْدِمين والفقراء.. وكان غير المنفلوطي.. ممّا كان أثره في أدب الراعي باديّاً من هذه الناحية أيضاً، كما كان للعصر الذي غشي الناس بالقصص والروايات المنشورات في الصحف، والمنشورات أثره الآخر.

وكان لجمعية (الإحسان) منبرها الذي كان الرافعي يقف عليه خطيباً ومحدثاً في معظم الأسواق التي تعتمدُها الجمعية للأغراض الاجتماعية التي تتوخاها، ومنها مساعدة الفقراء والمُعوزين من الأيامي واليتامي والمساكين..!

ثم لما كان من سني الحرب السود التي مرت بها الديار الإسلامية في ضراوتها ومسغبتها ومثرتها فقد راح يكتب المقالات الاجتماعية في الفقر والفقراء أولاً، وقد أدار الموضوع من حول المبادئ والنظم التي مرت بها البشرية في معالجة هذه الظاهرة حتى عصرنا هذا عصر الاشتراكية العلمية — على حدّ تعبيره<sup>(١)</sup> فوجد أنها جميعاً لم تستطع تحويل هذه الظاهرة أو إنهاؤها، وإنما استطاع النظام الإسلامي أن يخفف من وطأتها، ويحصرها في أضيق نطاق، حين أثر أن لا يكون المال دولة بين الأغنياء، فحدّ بذلك الطغيان، وجعل الزكوات والكفارات ومصالح الأمة المرسلّة أساس الحياة الكريمة ومادة الإصلاح في كل اضطراب..

ثم قال: «إن أفقر الفقراء ليس هو الذي لا يجد غذاءً بطنيه، ولكنه الذي لا يستطيع أن يجد غذاءً لشعوره. فلا تحسبوا أن مع جنون الضمير ومريض سعادة وراحة؛ لأنّ لذة المال لا تتجاوز الحواس، فهو يشتري لها كل شيء مما تشتهي، ولكنه لا يستطيع أن يُبيل القلب شيئاً إلا إذا اشترى له الخير والفضيلة».

إنّه يريد إذكاء الشعور ويقظة الضمير وعقل الفقير، كي لا تكون

(١) المقتطف — نوفمبر وديسمبر ١٩١٢ م — وهي التي غدت من ثم مادة كتاب المساكين

إرادة التغيير بلهاء عشواء تتعبدها شهوة الانتقام — كما يحدث في البلدان التي مرضت فيها النفوس.

« أنظروا في باطن الإنسان بالفضيلة التي هي من نور الله، وبالحقيقة التي هي من نور الطبيعة، فإنكم لا ترون حقيقة الغنى تبتعد عن حقيقة الفقر إلا بمقدار ملء هذه المعدة ! »<sup>(١)</sup>.

ومن هنا نظر إلى الإحسان الاجتماعي حين قال :

« ليس يذهب بإحساننا ضغفه أو قلته،.. فالقليل لو اجتمع صار كثيراً، ولا يخفي ثمرته أنه هو نفسه غير ظاهر؛ فإن كل شيء يؤتي نتائج الطبيعة ظهر أو خفي. وما الإحسان إلا ضرب من ضروب الإصلاح الاجتماعي،.. ولكن الذي جعل الصحيح فاسداً والموجود ضائعاً، والمثمر منقطعاً، وجعل حل أمر في أيدينا يكاد يكون عبثاً من العبث، إنما هو شيء واحد: هو جهلنا كيف يكون الإحسان ! »<sup>(٢)</sup>

ثم هو يضع يده على مكن الداء الذي هو سِرُّ الفساد بمثل قوله :

« هذا الشرق الذي هو مهد التاريخ، هو كذلك مهد الأديان، ومبعث الفضائل، ولكن أهله قد أضاعوا أنفسهم وأضاعوه،.. فإذا رأوا الفضيلة قالوا: غريبة، وإذا رأوا الرذيلة قالوا: شرقية، وأهالوا بكل ذنب على الشرق، كأن الأرض تنبت الرجال، وتهيئ لهم العمل، وتوحي إليهم بالمخترعات،.. وكأننا نريد أن تكون هذه الأرض مثلنا في التقليد!..

(١) العبارة تشبه إشارة بدوية تقول: ملء هذه وسر هذي وما بينهما فتر.

(٢) المقتطف — سبتمبر/أيلول ١٩١٤ م.

إِنَّ أَكْبَرَ رِذَائِلِنَا أَنَّا لَا نَتَّحِدُ ؛ لَأَنَّا نَجْهَلُ التَّرْبِيَةَ الاجتماعيةَ، وقد تَخَلَّقْنَا بالأخلاقِ الفرديَّةِ، فَصَارَ الأَلْفُ والأَكْثَرُ مِنَ الأَلْفِ لَا يُحْسِنُونَ عَمَلَ اثْنَيْنِ مُتَّحِدَيْنِ»<sup>(١)</sup>.

وكانت له من بَعْدُ مقالاته الاجتماعية في أولادِ الشوارع، والجمالِ البائس، والريِّبِطة والتبرِّج والتخنُّث والطائشة وغيرها — وقد تَنَقَّلَ فيها بين الأدبِ والقصة والفقه والفكر في كلِّ مادةٍ جديرة بالتأملِ والإعجاب.

ومنها قوله في أزمة الزواج :

« كُلُّ مَا يَعْتَذِرُ بِهِ الشَّبَابُ فِي إِحْجَامِهِمْ عَنِ الزَّوْاجِ، فَإِنَّمَا هُوَ أَغْذَارٌ مُلَفَّفَةٌ مِنْ خِدَاعِ أَنْفُسِهِمْ ؛ فَلَا جَهْلُ الْفَتَيَاتِ، وَلَا فِدَاخَةُ الْمَهْوَرِ، وَلَا طَبِيعَةُ الْعَصْرِ، وَلَا مَنَعُ الْإِخْتِلَاطِ، وَلَا ذَلِكَ كُلُّهُ، وَلَا بَعْضُ ذَلِكَ، وَلَا أَضْعَافُ ذَلِكَ مِمَّا يَصْلُحُ عُذْرًا إِلَّا عِنْدَ النَّفْسِ الْوَاهِيَةِ الْمُنْحَطَّةِ ؛ الَّتِي تَتَّخِذُ مِنَ الْأَوْهَامِ حَقَائِقَ، وَتُحَاوِلُ أَنْ تَطْفِئَ النَّارَ بِالْقَشِّ »<sup>(٢)</sup>.

ومنها مقالته البليغة في التلذخين وقوله فيها:

« أَيُّهَا الشَّبَابُ : إِنَّمَا الْحَيَاةُ هِيَ الْقُوَّةُ عَلَى الْحَيَاةِ، وَلَيْسَ مِنْ شَيْءٍ يُعِينُكُمْ عَلَى أَهْوَائِلِ هَذَا الزَّمَنِ الْعَصْبِيِّ إِلَّا قُوَّةُ الْعَصَبِ فَاحْفَظُوهَا سَلِيمَةً بَاقِيَةً عَلَى قَانُونِهَا الطَّبِيعِيِّ، وَجَنِّبُوهَا الْمُسْكِرَاتِ وَالْمُخَدِّرَاتِ وَالْمُدَخِّنَاتِ، وَاعْتَبَرُوا هَذِهِ الرِّذَائِلَ فِي صَوْرِهَا الْحَيَّةِ ؛ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَجِدُوا فِي أَهْلِهَا إِلَّا الْعَبُودِيَّةَ لِلْعَادَةِ الضَّارَّةِ الْمُسْتَحْكِمَةِ.. وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَ الْقُوَّةَ الْحَيَّةَ الْغَالِبَةَ

(١) المقتطف — سبتمبر/أيلول ١٩١٤ م

(٢) الوادي — ٢٨ مارس/آذار ١٩٣٢ م

للخمول البليد، وأنتم تريدون النشاط المتوثب، وما هذه الرذائل إلا خروج من الإنسان على قانون الطبيعة، والطبيعة تعاقب على جرائمها، كما تعاقب الحكومة على جرائم الإنسانية.

وكما تُلقِي الحكومة بالمجرمين في سجنِ الأشغال الشاقة بحبسهم عن الحرية والاستمتاع بالدنيا، تُلقِي الطبيعة السكيرين والمُدمنين والمُدخنين في سجنِ الأمراض الشاذة ؛ بحبسهم عن العافية والتمتع بالحياة<sup>(١)</sup> ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾<sup>(٢)</sup> الآية .

ومنها مقالته في التناقض وقوله فيها :

« يَخْلُقُ اللَّهُ كُلَّ شَيْءٍ، لِيَكُونَ شَيْئًا عَلَى الْأَصْلِ الْبَيِّنِ الَّذِي خُلِقَ عَلَيْهِ، وللأمرِ الْمُسَرِّ الَّذِي خُلِقَ لَهُ، وهو صرِيحٌ واضحٌ من جِهَتَيْهِ ؛ فالأشياء في الطبيعة ما شاءَ اللَّهُ تَضُرُّ لَأَنَّهُا ضَارَّةٌ، أو تَنْفَعُ لَأَنَّهُا نَافِعَةٌ،.. إلا المنافق !. فإنه مخلوقٌ في الإنسانية للنفع فضر، وفي الحيوانية خُلِقَ للضرر فنفع، وفي الرذيلة خُلِقَ تَلَوِينًا للرذيلة،.. فهو مختلفٌ على السِرِّ والعلانية، وعلى المذهب والغاية، وعلى المدخل والمخرج، وعلى القول والعمل،.. ومختلفٌ حتى في كونه مُختلفاً !. ولو مددتَ عَيْنَكَ في عَيْنَيْهِ لَوَجَدْتَهُ يَتَخَاوَصُ بِأَحَدَاهُمَا — كأنما ينظرُ منك في عينِ الشمس ؛ إذ تأبى إحداهما إلا أن تنافقَ ليظهرَ النفاقَ عليها،.. وهو من الَّذِينَ يَمَكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لِيَنْتَهُوا مِنْهَا إِلَى الْحَسَنَاتِ، وَيُقَارِبُونَ الذَّنْبَ لِيَخْلُصُوا مِنْهُ إِلَى الْحَسَدِ، وَيَسْفِلُونَ مَعَ النَّاسِ لِيَرْتَفِعُوا، وَيُطَاطَبُونَ رِقَابَهُمْ لَتَكُونَ قَنْطَرَةً تَمُرُّ عَلَيْهَا أَغْرَاضُهُمْ،.. ومهما انتحلوا من المعايير وقولهم إن

(١) مقدمة كتاب (الدخينة) للآتسة الزهرة.

(٢) الآية — ٤٤ سورة يونس.

ذلك سياسة ومُخالفة وظَرْفٌ وذَوْقٌ، فهم لا يأتونَ كلَّ ذلك إلاَّ لأنَّ ذلك — عِلِمَ الله — هو التَّفَاقُ»<sup>(١)</sup>.

ومنها مقالته في «أزمة الحكومة» الكناية الظريفة التي يقول فيها:

«ذلك هو الشابُّ الزائفُ، يُحَسَّبُ في الرجال كذِباً وزوراً؛ إذ لا تكتِمُ الرجولةُ بتكوينها حتى تكْمُلَ بمعاني تكويتها.. وأخصُّ هذه المعاني إنشاءُ الأسرة، والقيامُ عليها؛ أي مخاطرة الرجل في زَمَنِه الاجتماعي، ووجوده القومي، فلا يَعِيشُ غريباً عنه وهو معدودٌ فيه، ولا يكونُ مظهراً لقوَّةِ الجنس القوي هاربةً هروبَ الجُبْنِ من حملِ ضَعْفِ الجنس الآخر المحتمي بها. ولا لمروءة العشير مُتَبَرِّئةً تبرُّؤ النَّدالة من مؤازرة العشير الآخر المحتاج إليها، ولا يَرْضَى لنفسه أن يكونَ هو والدُّلَّ يعملان في نساءِ أُمَّتِه عملاً واحداً، وأنَّ يصبحَ هو والكسادُ لا يأتي منهما إلاَّ أثرٌ متشابهة.. فتجعلُ البيتَ الذي كان يقتضيه الوطنُ أن يكونَ فيه أبٌ وأمٌّ وأطفال — بيتاً خاوياً كأنما تُكَلِّ الأُم والأطفال، وبقيت فيه البقية من العَرَبِ المَيِّتِ أكثر تاريخه!..»<sup>(٢)</sup>

\* \* \*

### ثالثاً: المقالة العلمية

هي الحديثُ في العلوم والمخترعات والاكتشافات، والتطبيق الذي يُصاحِبُ التوفيقَ العلمي للحضارة في التصنيع والاتقان، وانتظام مناهجه في تفسير الحياة والطبيعة.. وقد كان «للمقتطف» الصِّدَارَةُ في كتابة

(١) الهلال — مارس/آذار ١٩٢١ م

(٢) وحي القلم — ١ — ٢١٤

المقالة العلميّة، وقد أثر في جيلٍ من الكتاب وطلّاعِ النهضة ممّن قدّموا العربية أشواطاً في المضمار، ووصلوا بها مراحلٍ من الطوعية والاضطّلاح — كان يمكن لو امتدّت كما ينبغي، وبقي الضمير القومي حياً يقظاً كأولِ عَهْدِهِ — أن تَغْنِي الجامعاتُ بها عن الدراسة العلميّة بلغاتِ المستعمرين وأتباعهم !.

لقد تأثر الراجعيّ بهذه الناحية أيّما تأثر، ونقل الكثير من التفسيرات العلميّة والنظريات الى أدبه وفنّه، وفاعلّها مع وجدانه البيانيّ وذوقه الأديب، فجلّى في كلّ وأرسل الآيات.. ولعلّ من أخطر مقالاته العلميّة كلامه في العرب؛ الذي صدرَ به كتابه « تاريخ آداب العرب » وقوله فيه :

« العربُ جيلٌ من الناسِ ؛ تَدَلَّتْ عليه الشمسُ منذُ القِدم في هذه الجزيرة التي كأنّها قطعةٌ انخرَلتْ مع الانسانِ الأول من السماء، فلا يزالُ أهلُها أبعدَ الناسِ مَنْزَعاً في الحرّية الطبعيّة، وأشدّهم مُنَافَسَةً في مُغالبةِ الهمم، كأنّما ذلك فيهم ميراثُ الطبيعةِ الأولى، فهم منه يَنْبَتون وفيه يموتون ».

ويزيدُ علماً وإعجاباً بهم وإكباراً لما أثرهم في مثلِ قوله :  
« سكانُ الفيافي وتربيةُ العراءِ، يَنْبَسِطُونَ مع الشَّمْسِ، وَيَفِيئُونَ مع الظلِّ، ويطيرونَ في مَهَبِّ الهواءِ، بل أولادُ السَّماءِ ؛ ما شِئَتْ من أنوف حَمِيّة، وقُلُوب أَيْبَة، وطباعٍ سَيّالة، وأذهانٍ حِداد، ونُفوس مُنكرة..  
وقد وقفَ البحثُ العلميُّ أمامَ بقاياهم موقفَ العَجَبِ الذي يَنْبَهرُ به العلماء..»

وقد أَصْبَحَتْ بقاياهم الضاربةُ في بَوادي العَرَبِيّة، ومصرَ والشام لهذا

العَهْدِ موضعَ العَجَبِ من عُلَماءِ الطبائع<sup>(١)</sup> حتى أَجْمَعُوا على أَنَّهُ لا نِدَّ لهذا الجنسِ البَشَرِي في جميعِ السلالاتِ البشرية ؛ من حيثِ الصفاتِ التي يَتَّبِانِ فيها أَجناسُ البَشَرِ خَلْقاً وَخُلُقاً.. حتى صرَّحَ بعضهم بأنَّ هذه السُّلالةَ تَسْمُو على سائرِ الأجيالِ»<sup>(٢)</sup>.

ويفسِّرُ ذلكَ تفسيراً علمياً بقوله :

« .. بالنظرِ الى هَيَاةِ القُحْفِ، وَسَعَةِ الدِّماغِ، وكثرةِ تلافيفه، وبناءِ الأعصابِ وشكْلِ الأليافِ العَصَلِيَّةِ، والنسيجِ العظمي، وقوامِ القلبِ، ونظامِ نبضاته.. فضلاً عما هم عليه من ملاحَةِ السُّحنةِ، وحُسْنِ التقاطيعِ، ووضوحِ الملامحِ.. وفضلاً عما في طباعهم من الكرمِ والأنفةِ، والأريحيةِ، وعزَّةِ النفسِ، والشجاعةِ»<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

ومنها تحليلُهُ الفلسفيُّ لدرسِ الحياة؛ الذي يَبْدُو فيه وكأنَّهُ أحدُ أساطينِ التربيةِ العلميةِ، فهماً ومعرفةً لحقائقِ ووثائقِ النفوسِ والحَيَواتِ ؛ إذ يقول :

« إِنَّ أَحْسَنَ العِلْمِ ما عَلمَكَ سُنَنَ الحياةِ وأغراضُها.. وأقوى القُوَّةِ ما غلبَتْ بهِ على نَفْسِكَ، حتَّى تَنْطَبِعَ على هذهِ السُّنَنِ.. وأذكى الذِّكَاةِ ما أنْفَقْتَهُ في وجوهِ العَمَلِ الذي تَقْضِي بهِ هذهِ الطَّبيعةُ.. وأهنا اللَّذاتِ راحةً من تَعَبِ العَمَلِ الذي تَعَبْتَ فيه لَتَسْتَأْنِفَ عملاً آخر.. والحكمةُ

(١) يريد بهم علماء الاجتماع والأجناس الذين يعنون بالدراسات النفسية للأمم أيضاً، مثل صموئيل لانيج، وأرنست رينان، وغيرهم... أنظر المقتطف — فبراير ١٩٠٧ م

(٢) لعلهُ «رينان» فقد كان له رأي بالغ الدهشة في اللغة العربية

(٣) تاريخ آداب العرب ١ — ٧٢ وأنظر المقتطف فبراير/شباط ١٩١٢ م وإشارته.



فيما بصرتها من أسرار الحياق والأحياء، ولم يَرح الإنسان تلميذاً ما  
دام يجد في كل شيء مدرسة»<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

ويقول في النهضة: «أي أمة تنقطع من تاريخها وآداب أسلافها  
ولغتهم وعُلومهم، ثم يبقى لها أثر ظاهر في الأمر المُستقلّة؟ وبماذا  
يكون تعرفها إلى الأمم الأخرى؟

وهذه الأمم لا تعرف الشعب الحيّ العزيز إلاّ بصورته العقلية المُتجلية  
في لغته وآثارها..

النشء يريد النهضة بلغته العربية، كما يريد النهضة بسياسته، ولا  
يتأتى ذلك إلا إذا بعثها وأحيها وبث فيها من شبابها، ونفع فيها من  
رُوحه..

والمسؤولون عنها بين من هم أهلها وحفظتها والقادرون على تصريفها،  
والمُطلعون على محاسنها — فإن هم قصّروا في ذلك أو أهملوا فقد  
غشّوه وخدعوه وخانوا عهدَهُ وذمّته، وعملوا على ضياعه وسقوط منزلته  
بين الشعوب الأخرى، من حيث يريدون أو لا يريدون»<sup>(٢)</sup>.

ويقول في سرّ الجمال:

« لا أرى في سرّ الجمال إلاّ أنّه حقيقيّ من تلك المادة السّماوية  
التي نسمّيها الجاذبية، فكأنّ الله حين يخلّق الجميل يُرسل في دمه

(١) فتاة الشرق — يناير/كانون الثاني ١٩١٩ م

(٢) المضمار — ٢٤ فبراير/شباط ١٩٢٢ م

مع الذرة الإنسانية ذرة من مادة الكواكب هي سر عشيقة وجاذبته،  
وهي بعينها معنى تلك القوة الغريبة التي لا يزال الجميل يخضع بها  
كما يخضع الفلك المدار، ويتسلط كما تتسلط الأقدار، ويث في  
الدم الإنساني من حرارة الوجد مادة النار<sup>(١)</sup>.

وكأنما تمكنت منه نظرية الجاذبية — الطبيعية وتمكن منها، فانسحب  
بها على سائر الأشياء.

. وكذلك قوله في تفسير ظاهرات أخرى<sup>(٢)</sup>.

ولكنه يعود فيجعل من المادة العلمية ومعرفتها أداة فلسفة يخرج  
بها الى الناس في أدب جديد فيه الفكر والحياة مثل قوله<sup>(٣)</sup>:

«إن الحقيقة لا تسأل كيف يحيا الحي، ولكن كيف يموت  
الميت!.. ولا تتعرف ما قدرته على الإقامة، ولكن ما قدرته على  
الرحيل!..»

ولا تبالي ما قوته على الرسوخ كالجبل، ولكن ما قوته على الوثوب  
كالطائر!..»

فهناك حدود الدنيا والآخرة موضع هاو لا يتخطاه إلا ذو جناحين  
قد اشتد كل منهما ووفى<sup>(٤)</sup>.. هذا إلى أمثال أخر.

(١) رسائل الأحزان ١١٣ — المضمرة ٦ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٢٢ م

(٢) المضمرة ١٠ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٢٢ م

(٣) الأخبار — ١٥ أغسطس/آب ١٩٢٢ م، السحاب الأحمر..

#### رابعاً : المقالة السياسيّة

هي المحادثة التي قامَت مقامَ الخطابة العربية، ومكانَ البيان في الدُّعوات القديمة — وإن امتازتْ بالنظرة التفسيرية للأحوال المَدنيّة من الحقوق والواجبات، وزادتْ بوجهاتِ النظر المختلفة.. ولا سيّما بعد قيامِ الجمعيات والأحزاب على الطراز الفرنسي — الماسوني في أوربة، وكان من حَذو الشرق حَذوها في أحزابٍ سُميت على النهضة القوميّة والوطنية، كما هي في مصر: النهضة والوطني والأُمَّة والديمقراطي، والوفد، وما تفرّع منها، غير الروابط والجمعيات الأخريات..

وقد عُرف من أصحابِ المقالات السياسيّة عبدالله النديم، ومصطفى كامل، ولطفي السيد، وعلي يوسف وأمين الراجحي، وغيرهم.. بحيثُ ازدحمتْ بهم وبمقالاتهم أعمدةُ الصحافة وزواياها ونوافذها في القرنِ الأخير.

وكان للرافعي رأيه في أضاليل السياسة مبكراً، وكانتْ له قِلّة ثقةٍ بالأحزاب جملةً، منذُ أرسلَ مثل قوله شعراً:

فيا عصابة الأحزابِ رُدّوا حُلومكمْ وجُروا على غيرِ الثرى بُدُولِ

ولكنّه أشارَ الى دعوة مصطفى كامل والحزب الوطني لإقامة «الجامعة» «في فكرةٍ وطنيّة انشَقَّ لها مكانُها في التاريخ..» على حدّ تعبيره.

وكان له في الحركة — الثورية — التي اجتاحت الدنيا العربية مع الحرب الأولى وما بعدها آراء سياسية خاطرةً ببعضها<sup>(١)</sup> وسكتَ

(١) الأخبار ٥ يناير/ ١٩٢٢ م، رسائل الراجحي ٨٣

عن معظمها لمكانه من الوظيفة، أو حجب الرقيب لمحاولاته الصريحة فيها<sup>(١)</sup>.

وقد حدثني عبد الرحمن الراجعي — المؤرخ رحمه الله — عن مشاركة الراجعي في تحرير « الأخبار » التي أعاد بها أمين الراجعي حياة « الحزب الوطني » إبان الحركة الشعبية المصرية، ومن نشره مقالاته : « صيحة الحق » التي قال فيها :

« يُريد الانجليز أن يفهمونا أن ما لم يكن واقعاً فهو مُستحيل، ولا يمكن أن يقع.. وأنهم إذا لم يَضَعُوا أيديهم على هذه الأمة رَفَعَ الله يَدَهُ عنها، لا يُبالي في أي شيء هلك، وأن صفحة ( كيرزن ) هي خاتمة الجزء الأخير من كتاب السياسة المصرية. ليس بعدها من كلمة إلا قولهم ثم والحمد لله !.

هذا كله يكون صحيحاً لا مَرَّةً فيه لو أصبح الفلك الأعلى مُستعمرة إنجليزية، ولو حَقَّقَت الراية الانجليزية مع راية الصبح في يوم واحد.. ولكن هيهات هيهات.. ذلك حكم اليوم وسَنَسْتَأْنِفُهُ الى محكمة الغد. أيها الانجليز : إن في أيديكم القوة ولا إيمان فيها، وعندنا الإيمان ولا قُوَّة في أيدينا.. فآلِقُوا جبالكم وأسلحتكم.. فمصر هي بعينها الأرض التي كان فيها جنود « فرعون » وكان فيها « موسى » وليس له من سلاح إلا إيمانه<sup>(٢)</sup>.

وكان له في الحركة المصرية شأن، كما كان لابن عمه أمين مكاناً

(١) الرسائل ٩٣

(٢) الأخبار — ٥ يناير ١٩٢٢ م

لا يُنسى، وكان قلمه يُختلِسُ الفرصة ولا سيما في تلك المقالات التي يَعْقِدُها لبعض الصحف مظاهراً الحزب الوطني كمقاتلِه في « جنود سعد » وقوله فيها :

« لقد كان العربُ من جاهليّتهم الى إسلامهم الى عُجمتهم يُطْلَقون لفظة « جنود سعد » — التي يَفخر بها الرئيس ( سعد زغلول ) اليوم — على الحشرات والهوام المؤذية ؛ التي تجيءُ بها الصيفُ وينشر بها اللدغات واللّسعات الى ما يَجْلِبُ الأمراضَ ويدني العِلَل، وما عسى أن يكونَ في وباءٍ مجتاحٍ يَخْلُقُ الناسَ حَلَقَ الشعر ..! إلّا أن يكونَ ( معاليه ) قد عَثَرَ على هذه التسمية، فابْتَعَثَهَا ليعلمَ الناسُ أن القَدَرَ كما ينزلُ من السماءِ على الناس، يَدِبُ إليهم من بيتِ الأُمّة بيتِ سعد (باشا) ! »<sup>(١)</sup>.

ومثال ذلك ما كَتَبَهُ عَشِيَّةَ المَناحةِ الكُبرى التي أُعقِبَتْ إقدامَ كمال أتاترك على إلغائِ « الخلافة الإسلامية » وقَطَعَ كلَّ صلةٍ تربطُ الترك بالدين العربي الحنيف، إذ قالَ تحتَ عنوان : « يا غُربة الإسلام في موطنِه » :

« ما رُمي الإسلامُ بسَهْمٍ أوهى لجلده، وأوهنَ لِعَضْدِهِ وأدمى لِكَبْدِهِ من هذا السهم الذي رَمَاهُ بِهِ الكَماليّون ..! »

ما استطاعَ أعداءُ الإسلامِ أَشَدَّ ما كانوا بهِ ائتماراً، وأعدى ما كانوا عليهِ عُدواناً، وأصدَقَ ما كانوا رَغْبَةً في الكَيْدِ له، والنكايةِ فيه،.. أن يَبلغُوا منه ما بلغَهُ هؤلاء الكَماليّون على مَرَأَى ومَسْمَعٍ من المسلمين

---

(١) الرسائل/هامش ١٩٤

جميعاً.. فأقْدَامُ الكَماليين على إلْغَاءِ الخِلافةِ أكبرُ جَريمةٍ في عَهْدِ هذه الدَّولةِ، وأَشْنَعُ جَريمةٍ في تاريخِ الإسلامِ على الإسلامِ!

أَيُّ شَرٍّ يَحْسَبُ هؤلاءُ المَلاحِدَةُ أَنَّهُم بِالْإلْغَاءِ الخِلافةِ يَدْعُونَهُ؟  
وَأَيُّ خَيْرٍ يَظُنُّونَ أَنَّهُم لِلدَّولةِ يَجْلِبُونَهُ ١٩.

لقد نَقَضُوا مَوثِقاً أَخَذَتْهُ عَلَيْهِم ثَمَانِيَةُ قُرُونٍ وَبَعْضُ القَرْنِ، واطَّرَحُوا أَمَانَةً حَمَلُوهَا كُلُّ ذَلِكَ العَهْدِ العَهِيدِ، وَخَرَجُوا لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ تَبَعَةٍ لَمْ يُخْرِجْهُمْ مِنْهَا أَحَدٌ<sup>(١)</sup> وَحَاولُوا عَثَاً أَنْ يَحْلُوا يَتَّعَةً بِعُنَى كُلِّ مُسْلِمٍ فِي الأَرْضِ مَعْقُودَةٍ.

لقد جَرَّدُوا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ القُوَّةِ التي تَكُونُ بِهَا إِمَارَتُهُ، بَدَّعُوا الفَصْلَ بَيْنَ السُّلْطَتَيْنِ، وَمَا أَرَادُوا إِلَّا الفَصْلَ بَيْنَ عَهْدَيْنِ، عَهْدِ الدِّينِ الذي اسْتَدْبَرُوهُ، وَعَهْدِ الإِلْحَادِ الذي اسْتَقْبَلُوهُ... ثُمَّ صَرَّحَ الشَّرُّ عَنْ مُحَضِّهِ، وَتَكشَّفَتِ النِّيَّةُ عَنْ حُبِّهَا؛ فَاذَا هُمْ يُلْغَوْنَ الخِلافةَ بِرَأْيِهِمْ، وَيُخْرِجُونَ بالخِليفةِ مِنْ مَقَرِّ خِلافتِهِ فِي جُنْحِ اللَّيْلِ؛ كَأَنَّهُمْ اسْتَحْيَوْا أَنْ يُوَاكِهُوا بِجَرِيمَتِهِمْ وَضَحَ النِّهَارِ، وَوَدَّوا لَوْ اسْتَطَاعُوا أَنْ يَخْفُوا جَرِيمَتَهُمْ عَنْ مُسْلِمِي الأَمْصَارِ.. الخ<sup>(٢)</sup>؟

وفي المَقالةِ بَعْدُ إِشارةٌ بَارِعَةٌ إِلَى اللُّوثةِ الفَرَنْسِيَّةِ التي اسْتَمَدَّ مِنْهَا الكَماليونَ المَرْتَدُّونَ — الدَّونمة<sup>(٣)</sup>، فَكَرَّتْهُمْ وَسَلُّوكَهُمْ هَذَا،.. كَمَا

(١) وَمَنْ هُوَ الذي سَلَّمَ بِهَا لَهُم ١٩؟

(٢) الأَهْرَامُ ١٣ رَجَبِ ١٣٤٣ هـ — ١٤ مَارِسِ ١٩٢٤ م وَأَنْظُرْ أَيْضاً مَقَالَةَ أَمِينِ الرَّافِعِيِّ — الأَخْبَارُ — أِبْرَيْلِ ١٩٢٤.

(٣) أَهْلُ الرَّدَةِ مِنْ يَهُودِ الأَنْدَلُسِ المَتَمَسِّكِينَ بِلُجُوئِهِمْ إِلَى الدَّولةِ العُثْمَانِيَّةِ، وَقَدْ كَانُوا بِرَأْسِهِمْ (شَبْتَايَ زَفِي) وَرَاءَ الحَرَكَةِ التَّوْرَانِيَّةِ وَدَاعِيَتِهَا (جُوك أَلْب)!

دلّت بلهجتها على مبلغ الانفعال والرّغدة التي كان عليها.

حدّثني الأستاذ عبد الرحمن الرافعي — المؤرخ، كيف دخل عليه مغيظاً مُحَنَقاً، يرتجفُ القَلَمُ بين أنامله، كأنه يَهْمُ بالتأرّ والانتقام — مع أن نهاية تلك الخلافة كانت طبيعية<sup>(١)</sup>.

ولم يقف أدينا عند هذا الحدّ من فَرَض الكِفاية، وإنما تابَعَ ملاحظته لهذا الانحراف الأثيم في السياساتِ « القومية » بمقالاتٍ منها : تاريخُ يتكلّم، وكفر الذبابة<sup>(٢)</sup>، وفي « كلمة وكليمة » أكثر من غمزةٍ وتعريض<sup>(٣)</sup>. ولم يترك مناسبةً تمرّ من غير أن يُعرّض بكمالٍ أثاركَ هذا، ومُراهقي السياساتِ ممن يقلّدون المقلّدين<sup>(٤)</sup>.

أمّا رأيه في التّركِ — بقايا الدولة العثمانية — فقد كان بخلاف رأي الناس آنذاك فقد رأى بثاقبٍ بَصَرِهِ نهاية الأمر إذ قال :  
« الجميعُ واهمون، وسَتَرى أن تركيا لا تحكم على رجلٍ واحدٍ من غير التّرك، وأنّها ضاعَت بحماقةٍ أنور وأمثاله، إلا أن يريد الله ما لا يدخُل تحت حكم العقل »<sup>(٥)</sup>.

وكم كان صادقاً في رأيه الصوابِ هذا !..

وقال رأيه صريحاً واضحاً في الحركة المصرية بُعيدَ نهاية الحرب الأولى :

(١) كان ذلك في صيف عام ١٩٦٤ م بالاسكندرية

(٢) وحي القلم ٢ — ٢٣٥، ٢٤٨

(٣) الرسالة ٦٤، ٧٦، ٨٤، ٩١

(٤) الرسائل — ١٧١

(٥) الرسائل — ٧٠

« أما رأيي في الحركة الوطنية، فأني أرى أن هذه الحركة مباركة مفيدة — ومن لا يكرم نفسه لا يكرم —.. ولكنها لا تنتهي بالاستقلال التام.. والغالب — بل المؤكد أن تعطى مصر الاستقلال الداخلي، فتدير أمورها بنفسها، وتتولى إنجلترا شؤونها الخارجية فقط.

وإذا تم هذا على الوجه الصحيح، وخرج كل المستشارين والمفتشين الانجليز من الحكومة، فهي نعمة كبرى، لأن التربية يومئذ تتخذ شكلاً وطنياً محضاً، فلا يُمضي جيل واحد، حتى يعقبه الجيل المستقل بطبيعته»<sup>(١)</sup>.

وكان له إسهامه بأناشيده وأشعاره ومقالاته في تلك الأيام<sup>(٢)</sup> وقد أضحت مرددات الأجيال من ثم، وما تبرح الأذهان الى اليوم. منها نشيد « اسلمي يا مصر » ونشيد : « ربنا إياك ندعو » والنشيد القومي : حماة الحمى ؛ الذي شَرِّقَ في دنيا العروبة وغرب، وكان عنوان الحركات القومية في البلاد<sup>(٣)</sup>.

ثم إنه عادَ في عام الاستقلال بالمعاهدة — ١٣٥٥ هـ — ١٩٣٦ م فسابقَ في القول، وكانت له مقالته الأثيرة في « اللُغة والدين والعادات » وقد عدّها من مقومات الاستقلال، ونالَ الجائزة عليها في المباراة الأدبية<sup>(٤)</sup>.

وكانت له « أحاديثُ الباشا » فيما بعدُ، وقد زعمَ أن أخاه محموداً

(١) الرسائل — ٧٦

(٢) هي التي أفاد منها لأحاديث الباشا

(٣) راجع « أغاريد الرافعي » — الباب الأول — الفصل الثالث

(٤) العريان — ١٣١



الرافعي كان يحدثُ بها، فجاءَ بخُلاصةٍ للأحوالِ السياسية التي سادت آنذاك وما يمكنُ أن تُثمرَ فيه في المستقبل، ومنها يمكنُ استنباطُ ميثاقٍ قوميٍّ للعملِ في الأمة<sup>(١)</sup>.

ومنها قوله في عَرَبِ الحاضرة :

« العربُ — على أنَّهم أهلُ هذا الدين، وعلى أنَّهم كانوا مادَّةَ وعمادَهُ، فهم مع ذلكَ كأنَّهم أبعدُ الناس عن رُوحِهِ وأغراضِهِ، لما أصابَهُم من ذَهَاءِ السياسة الأوروبية، وما عَبَثَ بِهِم من أساليبها وجِيلها ؛ التي جَعَلَتْ بِأَسْهُمٍ بينهم، وتركتهُم يُخربُونَ بيوتَهُم بأيديهم.. وجرَّت معهم على طريقةٍ فلَّ الحديد بالحديد وإهلاكِ القديمِ بالجديد، وكان مَثَلُها وإياهم كمثلِ الشيطان إذ قالَ للإنسانِ : أكفر<sup>(٢)</sup> ».

#### خامساً : المقالة الفكرية

هي التي تحتوي مضموناً اعتقادياً يلتزمُ به الكاتبُ عقيدةً وإيماناً، ويجعلُهُ سلوكاً لمنهاجِهِ، حتى يَضْحَى أدبُهُ بعد ذلكَ مذهباً يُعرَفُ بهِ بين الناس. أو هو يُفسَّرُ بها جوانبُ من ذلكَ المذهبِ الاعتقادي الذي يتوفَّرُ عليه، ويؤمنُ بجدواه.. ولا سيَّما بعد أخذِ الآدابِ الحديثةِ لبعضِ المناهجِ الفلسفية والعلمية، أو محاولةِ هذه الفلسفاتِ ممارسةِ السياسة والاجتماع والفن..!

وقد يكونُ أدبُ الرافعي كُلُّه، أو معظمُهُ مقالةً فكريةً توزَّعَتْها أساليبُ القولِ على مدى الأيام ؛ فهي مُتَّصِلَةٌ الأسباب في فكرةٍ مثاليةٍ لها

(١) وحي القلم ٣ — ٢٦٢

(٢) مقدمة — أعجب العجب — عبد الحق الأعظمي — ٧

« رصيدٌ » أعظمُ من الواقعِ الحقِّ، ومذهبٌ قوميٌّ أثيرٌ، ومحتوى اعتقادٍ، لنا أن نسميه « العروبة المؤمنة » بكلِّ ما يغييه هذا المصطلح من معاني الدعوةِ شرعةً ومنهاجاً، وما يزينُ به الاعتقادُ جمالاً وإيماناً، وما يجتمعُ به السبيلُ والهدفُ والغايةُ بجميع مضموناتها من ثباتِ القيمِ، وشرفِ التناولِ، ونبلِ القصدِ في رفعةِ الضميرِ وتجليِ الوجدانِ على هدى ونور.

وقد أدركَ ذلك « الأنصارُ » الذي اتجهوا الى قبلته، فآثروه بتثنية أفكارهم وآدابهم من كلِّ استعجام!

قال في مقالته التي قدّم بها مجلة « البيان » :

« لما استتمت لنا فِرَاسةُ الحقِّ خيراً فائلة، واعتدلت أسبابُ النظرِ غيرَ مائلة، وثقلت موازينُ الرأيِ غيرَ شائلة،.. رأينا بلاغَ أمرنا قد تهياً، وعموده قد استقلَّ، وأصبنا من العصرِ نهضةً قد جمَّ الأدبُ جِمامها، وأرخصي للسُّبقِ في يدِ العقلِ زِمَامها، ورأينا جِواً بعيدَ الآفاقِ ؛ تطيرُ فيه الأفكارُ بأجنحةِ الأوراقِ، وأرضاً خصيبةً من الرأيِ جادتها سحابِ الإلهامِ فأنبئت ثمراتِ العقولِ في أغصانِ الأقلامِ،.. عند ذلك أيقنا أنه قد استدارت جهةٌ من الزمانِ، وقلنا : لقد برَحَ الخفاءُ فهذا موضعُ البيانِ »<sup>(١)</sup>.

وكذلك جاءَ كتابه « حديث القمر » دعوةً عربيةً، قوامها الحبُّ. وقد ضمَّنها رأيي العربيِّ المسلم في أمَّهاتِ المسائلِ الإنسانيَّة التي عليها

(١) البيان — شعبان ١٣٢٩ هـ — آب ١٩١٢ م، العريان ٢٦٥، كتابنا — ٢٧٢

المُعَوَّل في بناء الحياة الفكرية الجديدة للأمة، وبناء الأجيال على أسس سليمة من التربية الإنشائية القومية في هذا العصر<sup>(١)</sup>.

وقد تكون مقالته في الفقر والفقراء وخطبته في الإحسان الاجتماعي، وتحليله لأفكار الناس، وموقفه من العقائد المحدثه والأفكار المستجدة<sup>(٢)</sup>، ثم استمداؤه مع العرب والعروبة في المقالات الأخرى التي دَبَّجَها يراعته في مقدمة «أعجب العجب من أحوال العرب» ومقالاته في «نواذير القوة عند العرب»، و«الميراث العربي»، و«العادات والتقاليد» وإشاراته إلى فضل العرب بخاصة.. من أظهر ما قاله فكرياً يَتَمَيَّز بالعقيدة، وَيَنْتَصِرُ للقومية، وَيَعْتَدُّ بالأخذ العلمي، ويوازن بين الأحداث والحضارات.

وربما كان في كتابيه «المعركة» و«وحي القلم» جملةً صالحة من المقالات الفكرية التي تَوَلَّفَ مادةً صالحة، هي الأساس في النظر قومياً بالمذاهب الجديدة والأفكار الوافدة مع الغزو العسكري — الأوربي الذي وقَّعت الأمة تحت وطأته ردحاً طويلاً من الزمن.

وربما كان آية ذلك كله في «رسالة الحج» ودعوته إلى تجديد معانيه في المؤتمر القومي الأعظم للأمة، والفهم الجديد لِشَعِيرَةِ الحج الإسلامية<sup>(٣)</sup>.

ثم في شُرُوعِهِ بتأليف «أسرار الإعجاز» للدُّعْوَةِ المؤمنة بتفسير

(١) الرسالة الإسلامية — ٥٣، وسرد ذلك في الباب الثاني.

(٢) مرَّتْ أمثلتها في المقالة الاجتماعية.

(٣) «رسالة الحج» هي التي ظهرت باسم «حافظ عامر» راجع العريان — حياة الرافعي

القرآن العظيم، أو آياتٍ منه تستهدفُ مجالاتِ الحياة جميعاً في تهذيبٍ وتربيةٍ وإعدادٍ بشمولٍ واستيعابٍ. فهو في هذه المقالات وسواها لا يَبْدُو أدبياً فحسبُ، وإن غَلَبَتْ عليه هذه الصفة — وإنما هو بالمفكرِ الفيلسوفِ والفقيهِ والمصلحِ الاجتماعي الصَّقُّ وأليق.

## ٢ — الرسالة

كلمةٌ أو حديثٌ في غرضٍ من الأغراضِ الوجدانية، أو الأحكام، وقد عَرَفَ العربُ منها الأمثال، وقد كَانَتْ في القديمِ تقومُ مقامَ المحاضرة في الدراسة والموضوعات، وجملة رسائلِ البلغاء والمصنِّفين في الآداب والعلوم والفنون.

وقد سَبَقَ إليها عبدالله فكري — وكانَ شاعرَ الذوق، فعَرَّبَ الديوان من التركية<sup>(١)</sup> وقد عُرِفَ في أدبِ الرافعي أنواعُها المعروفة :

### ١ — الديوانية

وهي بِحُكْمِ مقامه في الوظيفةِ كاتباً في المحاكم الشرعية — والأهلية، فقد وفق فيها بالاجتهاد والتفسير، حتَّى صار ثقةً الوزارة في هذا الشأن، يحملُها على جَعْلِ رسائلِه منشوراتٍ مُلزمة، وتعليماتٍ لكثيرٍ من مسائلِ القضاء في محاكمِ القطر المصري<sup>(٢)</sup> وربما أسهمَ في لوائحِ الدفاع برسائلٍ أخرى<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

(١) الدسوقي — نشأة النثر — ١٠٥

(٢) العريان — ٣٥

(٣) مما يؤسف له أننا لم نستطع الوقوف على شيء منها لذهاب الأيام.

## ٢ — الاخوانية

والرافعي كثيرُ المراسلةِ مع إخوانه وأصدقائه ومحبيه.. وقد استطاعَ واحدٌ منهم هو محمود أبو ريّة أن يخرجَ منها كتاباً فريداً هو « رسائل الرافعي » تضمّنَ جملةً رائعةً من آراءِ الرافعي وأفكاره<sup>(١)</sup>.

وكان بعضُ أبناءِ عمومته قد أدركَ هذه الناحيةَ الخطيرةَ فيه، فطُفِقَ يَسْتَمْلِيهِ كتباً ورسائلَ في معانٍ مختلفة، حتّى اجتمعَ له بعد ذلك جملةٌ صالحة، فأرادَ طبعها، ولكن الرافعي نهاه، وأعلّمه أنه يترأ منها إذا هو نَشَرها<sup>(٢)</sup>.

وهناك غير أبي ريّة، وغير هذا القريب أصدقاء وأدباء ومحبون كانتَ له معهم مراسلاتٌ دائمةٌ وفريدة، قد تُولِّفُ أكثرَ من كتاب رسائل — إن هي وَجَدَت السبيلَ الى النشر..

ومن هؤلاء علماء وأعلام أذكر في مقدّماتهم الأميرُ شكيب ارسلان، ومحبّ الدين الخطيب ومحمد بهجة البيطار ومحمد كرد علي ومحمد رشيد علي رضا الحسيني وأحمد حسن الزيات، وأبو ريّة الحموي وغيرهم ممن أصابَ رسالة أو اثنين أو ثلاثاً، وفيهم فيلكس فارس، وصديق شيبوب وعيسى متولي ومحمود أبو الوفا، وكمال الدين الطائي، وكثير آخرون قُرّاء ومعجبون.

(١) رسائل الرافعي — ٣٦

(٢) أعاني البحث عن ابن العم هناك، وقد حسبته محمد سعيد الرافعي صاحب المكتبة الأزهرية الذي أعانه الرافعي في طبع شيء من كتب التراث، فغشيت دور أبنائه وفيهم توفيق الرافعي وأحفاده، وفتشت صناديق أوراقهم فلم أظفر بشيء! ليتَه قدّمها للأمة، فهل يا ترى يصل إليه أو إلى أهليه صوتي؟

وقد حدثني فوزي النقيب أنه كان يبعث برسائلي الى جدّه لأُمّه بشأن خاله عبد الحق الأعظمي<sup>(١)</sup> وكانت بينه وبين أبيه جفوة حاول الرافعي أن يصلح بينهما.

وكنّت رأيّت رسالة ظريفة بالحبر البنفسجي بعث بها مع كتابه الجليل « تاريخ آداب العرب » الى عبد الوهاب البدري، يداعبه فيها بأبيات من الشعر، ربما كانت جواباً عن أبيات مماثلة..

ولو اجتمعت هذه كلها لكانت مثلاً فريداً في هذا الباب ؛ وهي تصوّر الروح العالية لهذا الأديب الذي كانت عاهته خيراً وبركةً على سواه!..

وليت من يعني بآثار من قدّمت — أو سواهم — يوافيني بصورة تلك الرسائل، ليتسنى لنا العناية بها وإخراجها في آثاره وأدبه.

\* \* \*

### ٣ — الوجدانية

ذات الأدب الإنشائي الذي تتألق فيه الروح ويتعطف القلب فيها على الحب حيث الحقيقة الإنسانية الخالدة.. وقد وصل الرافعي بها

---

(١) هو أستاذ العربية وعلومها في جامعة « علي الأغر » في الهند، ولد في الأعظمية ببغداد، ودرس في « دار العلوم » بها، ورحل الى الأزهر يستزيد، ثم توجه في سبيل الدعوة الى الهند، وكان ينشر في « المنار » بعض موضوعاته، وقد نظم مطولة في « أعجب العجب من أحوال العرب » قدم الرافعي لها برسالة في فضل العرب، هي آية قومية. كان بين الأعظمي وأبيه جفوة حاول الرافعي أن يزيلها برسائل كتبها الى ذلك الأب الكريم!..

ما انْقَطَعَ من أخبارِ المحيِّين في تراثهم الأدبي من الشعرِ والشُّذراتِ.. وأرسلَ إلى حبابهِ الفضلياتِ ألواناً من تلكَ الرسائلِ الوجدانية، وعادَ فيها يوثقُ موضوعاته ويزهو بأدبه وفنّه، فيضمُّنها أفكاره، ويجمعُ إليها ما تفرَّقَ له من أوابدٍ وكلمات، وبعضِ المقالات في الشعرِ والحياةِ والجمال، يؤلّفُ بينها، ويُطعّمُ هذهَ الرسائل، لتخلو مذاقاً عندَ القراء، ولتكونَ من ثمّ مادّةِ الفكرِ والأدب، وأداةَ دعوةٍ جديدة في الحياةِ الانسانيةِ المثيلة — كما يَعْرِفُها الضميرُ القومي، ويتجلّى بها الوجدانُ العربي، متمثلاً في ذاته، ومؤدّىً بأدبه، وشافاً عن نفسه، بتعبيرِ فلسفيٍّ يجعلُ العلومَ والفنونَ والمعارفَ جميعاً مادّةَ إنشائه، حتّى كان إمامُ هذا الفن لا منازع !

وإذا عرفنا أن هذهَ الرسائل كانتْ صورةً مجتلاةً لمراسلاتٍ حقيقية — وقَفنا على أصولها — أدركنا عِظَمَ المعاناةِ النفسيةِ في أدائها.. وقد سَبَقَ في هذا الميدان بأشواطها بما لم يَسْتَطِعْ أديبٌ مباراته فيه الى اليوم<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

على أن قصّة « الحب الرافعي » المثيرة للعجبِ ما تبرّح الأذهان ؛ لكثرة ما طارَ حَوْلَها من تعلّلاتٍ وآراء — وقد وفيتها حقّها من البحث<sup>(٢)</sup> ولم أظفّرَ بمزيدٍ له في إضافتهِ خطر !.. غير بعض

---

(١) حاول محمد صادق عنبر كتابة « رسائل المجنون وليلاه » ونثر قطرات الندى على « أوراق الورد » تعريفاً، وقد بدا عليه التقليد المخل بالاغراق في التوليد. وكذلك كتب خليل الخشالي (رسائل قلب) بتوفيق آخر.

(٢) الإمام الرافعي — ٣٠٠ وما بعدها.

المماحكات التي لا تصلحُ مجالاً للتعقيب<sup>(١)</sup> لما عليه المدلول  
بوجهات النظر من حالة خاصة !

قلتُ : إنَّ الرافعي كانت تَعْتْرِيه حالاتٌ من الفكر، وتثألُ عليه المعاني،  
وتعصِفُ به الحياة، وتأخذُه نوازع الوجدان.. وكان كالذي يَبْحَثُ  
في الجمال<sup>(٢)</sup> عن يُنبوع للأشعةِ الإلهية التي تغمُرُ عينيه، وتشهدُ له  
بالوفاء.. فكان يُعِدُّ مادةَ أدبه وبيانه، ثم ينتظرُ شارةَ الإلهام لِتَشْرُها  
ولذاعتها، بَلْ تَبْلِيغها.

وهكذا وافتَ رسائلُهُ تحمِلُ دعوةَ القلبِ العربي المؤمن، الذي يَبْعَثُ  
الحياةَ في الحب الانساني، ويعودُ به الى السموِّ بالعفة، ويُشْرِقُ على  
الاجتماع الحضاري بروح العدل.. وتلك هي رسائلُهُ.

ذلك أن أموراً غريبةً قد حدثتْ له قَطَعَتْهُ عن كثيرين<sup>(٣)</sup> وهو في  
مثلِ ذلك المُحْتَدِم من المعاناة، فكانتْ « رسائلُ الأحران » نتيجةً لها ..!

وبعد أن زَعَمَ أنه تلقى هذه الرسائل من صديقٍ كان له قال :

« خَلَطْتُه بنفسي زمناً طويلاً، وكنتُ أعرفُهُ معرفةَ الرأي كأنه شيءٌ  
في عقلي، ومعرفةَ القلبِ كأنه شيءٌ في دمي.. ثم وَقَعَ فيما شاء

---

(١) منها وداد سكاكيني وكتابها في (مي زيادة) الذي أعادتْ فيه تخطيط السابقين في  
الموضوع!

(٢) انظر مقالاته في « الجمال » — المضمرة ٦ — أكتوبر الى ٢٢ ديسمبر ١٩٢٢ م  
في ستة أجزاء.. ربما كانت بمجموعها مادة كتب الرسائل الثلاثة الأساس.

(٣) رسائل الرافعي — ١٠٥



الله له من أمورِ دنياءه، حتى نَسِينِي وطار على وجهه حتى غاب عن بصري<sup>(١)</sup>..

وكان هذا الصديقُ قد « اجتمعَ من تاريخه إنسانٌ بَلَغَ الزَّمنُ تحتَ عينه نَيْفًا وأربعين سنة ؛ تلكَ السنَّ التي يَنْقَلِبُ فيها الآدمي من وفرةِ القُوَّةِ لَيْثًا، وَيَرْجِعُ من قُوَّةِ الحكمةِ نَبِيًّا، وَيَعُوذُ من تمامِ العقلِ إنسانًا »<sup>(٢)</sup>.

غير أن هذه الأربعين، بما تَعَاوَرَتْ عليه قد هَدَمَ فيه بعضها بعضاً، فجاءت « هي » تَبْنِيهِ وتُشَدُّ منه، وتُرَمِّمُ بعضَ نواحيهِ المُتَدَاعِيَةِ، وتُقِيمُهُ بِسِحْرِهَا بِنَاءً جَدِيدًا..!

ثم تحدّثَ عن « الذكرى » ببقايا آلامٍ يَسْتَشْعِرُهَا وكأنها أشلاءٌ من فريسةٍ تشير إلى تاريخٍ من الألمِ والموتِ والتمزيقِ ؛ تركتهُ يتحدّثُ عن أنه أحبُّ فتاةٍ كأنها قصيدةٌ غزليةٌ في ديوانٍ.. وفي رسالةٍ قال :

« الحبُّ الصَّحِيحُ كالطفولةِ لا تَعْرِفُ الفتى إلّا شبيهاً بوجهِ الفتاة، حالةً متشابهةً كاخضرارِ الشجرِ تَبْعَثُ عليها الحياةُ حين لا يَجِيءُ الحِسُّ فيها إلّا من جهةِ القلبِ »<sup>(٣)</sup>.

وكانت « حيلةُ مرآتها » موضوعَ الرسالةِ الأخرى قصيدةً من أروعِ شعرِ الغزل، وأصفاه روحاً، وأجدهُ ديباجةً، إذ قال :

(١) رسائل الأحران — ١١

(٢) رسائل الأحران — ٢١

(٣) رسائل الأحران — ٦٨

حَسَنَاءُ خَالَقُهَا أَتَمَّ جَمَالَهَا سَأَلْتُهُ مُعْجَزَةَ الْهُوَى فَأَنَالَهَا  
وبعد أن أفاضَ في وصفِها، وبألغَ في نَعْتِ حُسْنِها، عَرَضَ لَهَا أَمَامَ  
المرآة بعد أن لم يَجِدْ لَهَا مِثَالاً شَبِيهاً فِي غَيْرِها، وَقَدْ:  
نَظَرْتُ لَهَا حُسْناً إِذَا مَا اخْتَلَّ فِي دُولِ النُّهَى سَلَبَ النُّهَى اسْتِقْلَالَهَا  
فَتَذَكَّرْتُ شَمْسَ الْجَمَالِ مُتَيِّماً تَرَكَتُهُ مِنْ قَرِطِ النُّحُولِ هَلَالَهَا  
كَادَتْ تَقُولُ رَضِيْتُ عَنْهُ فَأَمْسَكَتْ وَمَضَتْ عَلَى عَجَلٍ لِتُخْفِيَ حَالَهَا  
أَوَاهِ لَوْ مَرَّاتُهَا نَجَحَتْ، وَلَوْ فَمُهَا تَبَسُّمٌ عِنْدَ ذَلِكَ وَقَالَهَا

\* \* \*

ثم إنه استعرض الصورة الأدبية في ذلك الحب، — وقد رأى فتاتهُ  
« تريدُ أن تجمعَ الى صفاءِ وجهها وإشراقِ خديها وخلاصةِ سحرها،  
صفاءِ اللَّفْظِ وإشراقِ المعنى، وحسنِ المعرض وجمالِ العبارة »، وحسبَ  
أن الحبَّ عندها « كالكلمة التي يَكْتُبُها، أو المعنى الذي تَتَخَيَّلُهُ »<sup>(١)</sup>  
فكأنما كَانَ يَطْبَعُها بِطَابَعِهِ مِنْ تَجْدِيدِ الْبَلَاغَةِ وَالْإِمْتِازِ بِالْبَيَانِ، وَالْإِشْرَاقِ  
بِالدَّعْوَةِ..

وتدركهُ المَوَازَنَةُ، فيخشى أن تُفْلِتَ مِنْ مَعَانِيهِ، فَيُوزَنُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ  
صَاحِبَةِ « حَدِيثِ الْقَمَرِ » فَيَتَذَكَّرُ لِبْنَانَ وَأَيَّامَهُ فِيهِ، وَيَقُولُ كَالَّذِي يَثِيرُ  
عِنْدَهَا الْغِيْرَةَ<sup>(٢)</sup>

يَا نَفْحَةَ الْجَنَّاتِ مِنْ تِلْكَ الرُّبَى كَمْ ذَا يَطُولُ تَلَهُّفِي وَهِيَامِي ؟  
وفي رسالةٍ أُخْرَى يَتَحَدَّثُ عَنْ فِتْنَتِها الَّتِي خَلَقَتْ الْهُوَى فِي امْرَأَةٍ،

(١) كانت هي تصطاف في لبنان حين أخرج الرسائل عام ١٩٢٣ م فضم إليها القصيدة  
التي قالها عام ١٩١١ م

ولكنه يكتشف في الرسالة الثامنة أن « الرجولة والضمير والدم الكريم — وهي عناصر إنسان الدعوة ورجل الرسالة — وقد تَمَثَّلَتْ فيه — إذا اجتمعت في عاشقٍ هلك بثلاث؛ بتسليط الحبيبة عليه، ثم فتنته بها، ثم انقاذها منه، وكل ذلك هلاك.. ألا إن شرف الهلاك خير من ندالة الحياة »<sup>(١)</sup>.

وهنا كأنه أدرك واجب الوفاء لسيّد المحبين العرب — قيس بن الملوّح العامري — ذلك القلب الكريم المتألم — وهو العُمري<sup>(٢)</sup> فليحدث عن هذا وذاك فيه..

وأراد أن يُسمّي الجمال بعلم تجديد النفس، ذلك أن في الحبيبة الفكر والجمال، وفيه الخيال والحب..!

وخيّل إليه أنها تخشى غَضَبَهُ<sup>(٣)</sup> ولكنها تراه يحمل إليها ملك الوحي الذي لا ينزل عادة إلا في جَوٍّ من البرد والرعد؛ فجمع من سطورها التي تخاطبه بها، والأخرى التي سطرته تستدعيه وتعتذر له، فصنعت مُحاورَةً فيها نشوة المحب المفتون بحديثِ قلت وقالت<sup>(٤)</sup>، حتى لمست روحه روحها في الرسالة التالية حين وجد اللغات تعجز أحياناً فلا تُحسِنُ التعبير<sup>(٥)</sup>.

(١) الأحزان — ١٠٣

(٢) قال مرة :

ما عابني إن قيل ذو صبوة أو قيل مجنون بني عامر  
و «عمر» معدول به عن عامر!!

(٣) الأحزان ١١٠

(٤) رسالتها المؤرخة في ٢٠ يناير ١٩٢٤ م

(٥) الأحزان — ١٣٠

وقال في «أوراق الورد» ولفظها له — وقد تَضَامَّتْ شفتاها كأنها  
تَهْمُ بِقُبْلَةٍ حَسِبَهَا تُنَادِيهِ بِاسْمِهِ الْأَوَّلِ «مصطفى» أو تدْعُوهُ بِصِفَتِهِ  
«مُصَيِّف» ..!

وفي الرسالة الأخيرة قال :

«كلُّ ما سَطَّرْتُ كَانَ عَجَاجَةً ثَائِرَةً فِي حَرْبِ الْهَوَى، لَيْسَ تَحْتَهَا  
فِي حَوْمَةِ الْقَلْبِ إِلَّا الْأَلَمُ، كضَرْبَةِ سَيْفٍ، أَوْ طَعْنَةِ رُمْحٍ أَوْ كَيْفَةٍ  
بِرِصَاصَةٍ مَلْتَهَبَةٍ»<sup>(١)</sup> وقد رَأَيْتُ أَنَّ «مَسَّ اسْتِقْلَالِ دَوْلَةٍ مِنَ الدُّوَلِ  
الْعَظِيمِ قَدْ يَكُونُ أَحْيَانًا أَيْسَرَ وَأَهْوَنَ مِنْ مَسِّ اسْتِقْلَالِ نَفْسٍ مِنَ النَفُوسِ  
الْكَرِيمَةِ، وَلَكِنْ سَاعَةً مِنَ الضَّعْفِ الْإِنْسَانِيِّ تُنْشِئُ لِلْقَلْبِ تَارِيخًا مِنَ  
الْعَذَابِ ..!».

لقد كَانَ الرَّافِعِي فِي «تَدْبِيرِهِ وَالرَّأْيِ فِيهِ كَمَنْ يُورِّخُ عَهْدًا مِنْ  
شِبَابِهِ، بَعْدَ أَنْ رَفَّتْ سَنَّتُهُ، وَذَهَبَ يَقِينُهُ مِنَ الدُّنْيَا، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا ظَنُّهُ،  
فَهُوَ يَكْتُبُ وَالْكَلَامُ يَحْنُ إِلَى، وَالْقَلَمُ يَحْنُ بَيْنَ يَدَيْهِ !.»

«قال الغافلون إنني أَتَكَلَّفُ لَهَا خَيَالًا وَرَوَايَةً، وَقَالَ الْعَاشِقُونَ : إِنَّهَا  
كَلَامُ قُلُوبِهِمْ.. وَقَالَ الَّذِينَ يَفْهَمُونَ الْكَلَامَ : إِنَّهُ هُوَ فِي كَلَامِهِ، وَكَنتُ  
فِي ذَلِكَ شَاعِرًا، وَحُبُّ الشَّاعِرِ لَا يَخْلُو مِنَ الْوِزْنِ.. وَوَقَعَ الْقَضَاءُ  
عَلَى الْقَدَرِ!»<sup>(٢)</sup>.

وهذه الرسائل — وَإِنْ كَانَ كَتَبَهَا لِنَقْرَئَهَا هِيَ، كَمَا ذَهَبَ

(١) الأحرار — ١٥٨

(٢) السحاب الأحمر — ١٢

العریان<sup>(١)</sup> — إلا أنها من بعد محاولة بارعة يُدیفُ الرافي فيها فلسفته الفكرية، ومعارفه ومعانيه في مُعارضةٍ بيانيةٍ ؛ اجتهداً بالتجديد في عطاءِ البلاغةِ العربية التي أرادَ لها نشأةً جديدةً في بناءِ الحياة، والسموِّ بالعاطفةِ الإنسانيةِ الخالدة في الحب.

وقد جاءَ فيها من التحديِّ الاعتقاديِّ، والإشراقِ الروحيِّ، والانتصارِ الأدبيِّ، بما ضمَّنها من الحقائقِ العلميَّة، والنظراتِ المُحدَّثةِ في الفلسفةِ وعلمِ النفس وأثرهما في الفنون ما تميَّز به على سائرِ معاصريه.

ولكنَّ موقفَ بعضِ شائبيه من هذه الرسائل غيرَ الأديبِ هو الذي باعدَ بينها وبين القُراء، وربَّما أعاقَ الكثيرين عن إدراكِ أبعادِ أهدافِها فيها<sup>(٢)</sup>..

وكان الرافيُّ قد همَّ مرَّةً أن يكتُبَ تاريخَ هذه الرسائل<sup>(٣)</sup> وحاولَ ذلك جاهداً في «السحاب الأحمر» فقدَّم له بما شَفَّ فيه عن قصَّةِ حُبِّهِ التي تَلَفَّعت «برسائل الأحزان» وقد أرَّخَ فيها لعهدٍ من شبابه، فأعطى الأديبَ العربيَّ رُوحاً من البيان، وأمدَّه بدفقاتٍ من المعاني، وزوَّدَه بِلوحاتٍ من صُورِ الخيال، وتجلَّى له بآياتٍ من الفنِّ والجمال،.. ولكنه لم يَفِرِ التاريخَ حقَّه في هذا المآل !..

ولعلَّه تَدَارَكَ شيئاً ما،.. فقد عادَ يَستَملِطُ السحابَ معاني أخرى ؛ يَستوفي فيها الكلامَ في الحُبِّ، وَيَستَمِدُّ الأوهامَ من أرواحِ أخرى غيرِ

(١) حياة الرافي — ١٠٤

(٢) راجع طه حسين في حديث الأربعاء ٣ — ٥

(٣) رسائل الرافي — ١٠٥

التي أملت عليه الأحرار، فكأن في هذه الأرواح الحبيب الحلو، والبغيض  
القيح، والصديق المؤمن، والمنافق اللئيم، والمظلوم والظالم لنفسه.

وهو كذلك يستمد من عقله في قلبه، ومن حبه منفعته، ليشهد  
أنه في بعض فصوله كان يحامي عن الحب ويدافع عن سموه، أو  
ينتفض فيدير الكلام على ذلك فيلتوي..

ثم هو كالذي لا يراه ينقاد له، ولا يتابع إلا على خلاف ما يريد،  
حتى يجار بالشكوى قائلاً :

مَنْ لِلْحُبِّ وَمَنْ يُعِينُهُ ؟ وَالْحُبُّ أَهْنَاهُ حَزِينُهُ !  
أنا ما عرفت سوى قسا وته، فقولوا : كيف ليته ؟  
قلبي يُجِبُّ وإنما أخلاقه فيه ودينه !

حيث اللحظة التي يشعر فيها الإنسان بضعفه أمام ثقل الرسالة المُلقاة  
على عاتقه. وفي كلمة سبق بها فصول الكتاب، كشف حقيقة علمية،  
حين يضجر أهل الخيال من الخيال فلا يصلحهم إلا الحب، لأنه ناموس  
التطور والتحول بالقوة المُتخيَّلة.. فالمرأة تلد الإنسان، ولكن حبها  
يلد النابغة، والنابغة لا يتم تمامه إلا إذا أحب وعشيق<sup>(١)</sup>.

عقد الفصل الأول للقمر الطالع، فاستهله بآية النور الكهربائي التي  
يكتب في ضوئها، وقد طارت منه نظرة رأى فيها حسناً كأنما تناثر  
ضباباً من بخار الذهب.. وراعه أن يقلب النور متضرباً، ثم يعود  
لجنة من « السحاب الأحمر » كالحب المتوهج يبلأ فراغ القلب.

(١) رحي القلم ٣ - ٢٣١

ثم إذا بهذا السحاب يُمْطَرُ عليه بالخواطر والكلمات، فتعودُ به  
الذاكرةُ الى فتاةٍ « عَرَفَهَا في ربوةٍ من لبنان، يَنْتَهِي الوَصْفُ الى جمالِها  
ثم يَقِفُ، وكانتُ روحاً عطرةً تَنْفَحُ نَفْحَ الْمِسكِ إذا تَشَامَّتْ الأرواحُ  
الغَزَلَةُ بالحاسَّةِ الشعريةِ »<sup>(١)</sup>.

وكأنه قد تَخَذَ فتاته تلكَ مثالاً، فما نَظَرَ الى النساءِ من حولها  
إِلَّا وَجَدَ من الفرقِ بينها وبينهنَّ ما يتضاعفُ.. فهو يَعْقِدُ موازنةً بينها  
وبين مَنْ أذاقتهُ عُمرًا من الأحزان، بعدَ بضعةِ عشرَ عاماً من تاريخها ؛  
فينازعهُ الحبُّ في قلبه، وَيَعْرِضُهُ على المعدَّلَةِ من أمرِهِ: « إِنَّ من النِّساءِ  
ما يُفْهَمُ، ثم يَعْلُو في معانيهِ الجميلةِ التي أَنْ يَمْتَنِعَ !. ومن النِّساءِ ما  
يُفْهَمُ، ثم يَسْفُلُ في معانيهِ الخسيسةِ الى أَنْ يَتَّذِلَ !.. ».

إِنَّ من المِراةِ ما يُحِبُّ الى أَنْ يَلْتَحِقَ بالإيمانِ، ومن المِراةِ ما يُكْرَهُ  
الى أَنْ يَلْتَحِقَ بالكُفْرِ »<sup>(٢)</sup> فكانه يُسأَلُها : أينَ مكانكِ أنتِ ؟.

وفي الفصلِ التالي تنالُ عليه الخواطرُ، فيُرْسَلُها على « النِّجْمَةِ  
الهاويةِ » في طائفةٍ من النساءِ، يدركُ بعدها أَنَّ « في المِراةِ حَقِيقَةً  
لا تَعْرِفُها إِلَّا بفكرِ رَجُلٍ، وإلَّا.. أساءت الى حَقِيقَتِها »<sup>(٣)</sup>.

ولكنها حينَ قالَتْ له : « أَخْرِجْ من كَتَبِي وأوراقِي، لأقولَ : إني  
لا أَفْهَمُ معنى سَطوركِ الأخيرةِ »<sup>(٤)</sup> بعدما بعثَتْ له بكتابِ القطيعةِ<sup>(٥)</sup>  
فكانما نَكَاتْ جُرْحُهُ ثانيةً، فأعادَ القولَ :

(١) السحاب الأحمر — ٢٤

(٢) و(٣) السحاب الأحمر — ٢٩

(٤) رسالتها المؤرخة في ٢٠ يناير ١٩٢٤ م

(٥) العريان — ٨٩

« يا هذه !.. لا أدري ما تقولين !.. ولكن الحقيقة التي أعرفها أن نفس المرأة إذا اتسخت كان بكلامها حاجة إلى أن يُغسل بالماء والصابون، وهيئات »<sup>(١)</sup>.

وكأنه يقتل نفسه من مكانه فيذهب يدور على « السجين » في فصل من أروع فصول الأدب الإنساني الذي يتسامى بمعالجة مشكلة اجتماعية خطيرة، وقد عرض لمأساة بعينها ؛ صوّر فيها السجين — وهو يؤدّع ذويه من وراء شبك « الحافلة ».

وفي فصل آخر يتحدث عن طاعون الحب في جنس من النساء تكون زوجاً — ولا كالزوجة نفسها — فهي البغي الربيطة التي بأجر، أو بعقد مدني<sup>(٢)</sup> في بيت رجل، وكأنما هو يُجهز على واردات أوربة — وقد نقلت ردائل مدنيّتها بمن أضافوا إلى لوثات الشعويّة تاريخ ردائل أخرى حضاريّة !.

ثم مقالة « المنافق » وقد حسبه « سياسي الحب والصدقة ؛ يصنع المنفعة بين عينيّه، ثم تتوزع على جوارحه كل أساليب الكلام والعاطفة.. » حتى ليخيل إليك أنه يصف عينة من ساسة تلك الأيام، وهو يستعير معاني الحب في نفسه، وكيف تبدل القيم الإنسانية عندهم !.

---

(١) السحاب الأحمر — ٣٦  
(٢) هو من لقاء الرجل بالمرأة على غير الهدى أو المروءة، وقد سمّاه العرب بغيّاً أي ظُلماً وعدواناً. عرقته كثير من الأمم، وأباحته بعضها، وربما دعت إليه، كزواج المتعة المتسلل إلى الاسلام عن المعجم، وزواج الرفقة الآتي مع الغزو الأوربي للديار بحضارة ومدنيّة!!



وَيَتِمَالِكُ نَفْسَهُ كَالَّذِي يُذَرِّكُ مَدَى حَيْرَتِهِ وَضِيَاعِهِ ؛ فَيَسْتَهْدِي سَحَابَهُ  
إِلَى ثَلَاثَةِ مِنْ أَصْفِيَائِهِ ! هُمُ الشَّيْخُ أَحْمَدُ الرَّافِعِيُّ — رَفِيقُ صَبَاهِ، وَالشَّيْخُ  
مُحَمَّدُ عَبْدَهُ، وَالشَّيْخُ جُمُعَةُ الْجَنَاجِيُّ صَاحِبُهُ فِي « كِتَابِ الْمَسَاكِينِ ». .  
لِيُنَاجِيَ أَرْوَاحَهُمْ، وَيَسْتَلْهِمَ مَعَانِي الْحَبِّ مِنْهُمْ، وَخَوَاطِرَ لِلنَّاسِ، وَحِكْمًا  
وَأَوَابِدَ فِي الْحَضَارَةِ وَالْحَيَاةِ، وَآرَاءَ وَنَظَرَاتٍ فِي الْجَمَاعَةِ وَالْإِنْسَانِ،  
بِصُورٍ مِنَ الْبَيَانِ ؛ تَدِقُّ أحيانًا حَتَّى لَتَسْتَعْلِقَ، أَوْ تَعُودُ فَتَصْفُو حَتَّى  
تَتَّصَلَ بِاللُّوْحِ ..

\* \* \*

وَلَعَلَّ آيَةَ هَذِهِ الرِّسَالَةِ قَدْ تَمَثَّلَتْ فِي دِيَوَانِ سَمَاءِ « أَوْرَاقِ الْوَرْدِ »  
حَاقِلَ بِهِ سَدَّ الْمَكَانِ الْخَالِي فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ، وَإِعْطَاءَ الْعَرَبِيَّةِ كِتَابًا  
فِي رِسَالَةِ الْحَبِّ ؛ يَكُونُ كَالْعَمَلِ الْحَاسِمِ فِي النِّزَاعِ بَيْنَ الْجَدِيدِ  
وَالْقَدِيمِ.. ثُمَّ تَطْهِيرَ فِكْرَةَ الْحَبِّ وَتَهْذِيبَ مَعَانِيهِ فِي النُّفُوسِ، وَالسَّمَوِّ  
بِهَذِهِ الْفِكْرَةِ إِلَى الْجَهَةِ الشُّعْرِيَّةِ الرُّوحِيَّةِ ؛ لِأَنَّ نَامُوسَ الْحُبِّ طَوْرًا  
مِنْ أَطْوَارِ الْحَيَاةِ، وَسَدَّ ذَرِيعَةِ الْأُورُوبِيِّينَ الَّذِينَ يُعَيِّبُونَ الْعَرَبِيَّةَ بِضَعْفٍ  
التَّصْوِيرِ لِلْعَوَاطِفِ.. ف « أَوْرَاقُ الْوَرْدِ » دَفَاعٌ عَنِ اللَّغَةِ كَمَا أَنَّ تَجْدِيدًا  
فِيهَا وَفِي الْأَدَبِ<sup>(١)</sup>.

صَدَّرَهُ بِتَارِيخٍ آخِرٍ جَعَلَهُ تَكْمِلَةً لِرِسَالَتِهِ السَّابِقَةِ وَقَالَ ؛ إِنَّ فِيهَا  
جُمْلَةً آرَائِهِ فِي فِلَسَفَةِ الْجَمَالِ وَالْحَبِّ، « وَمَا كَانَ تَارِيخَ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ  
بَطُولِهِ قَدْ عَرَفَ رِسَالَةً كُتِبَتْ عَنْ هَذَا الْفَنِّ — عَلَى كَثَرَةِ كِتَابِ الْعَرَبِيَّةِ  
وَكُتُبِهَا.. وَمَا عُرِفَ كِتَابٌ أَفْرَدَ لِرِسَالَةِ الْحَبِّ مِنْ قَبْلُ. غَيْرَ مُسْتَظَرَفَاتٍ

(١) رِسَالَةُ الرَّافِعِيِّ — ٢٢٦

وَتُفْهِرُ وَرِقَاعٍ لَا تُسَمَّى رَسَائِلَ حُبٍّ !. فِي الْوَقْتِ الَّذِي حَفِلَ فِيهِ التَّارِيخُ  
بِرَسَائِلِ الْإِخْوَانِ وَالْدِيَوَانِ... وَهَكَذَا انْطَوَى عَلَى مَحْجُوبَةٍ بَقِيَتْ فِي  
الْغَيْبِ إِلَى عَهْدِهِ الَّذِي رَجَا فِيهِ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَظْهَرَهَا، وَأَنْ تَقُولَ الْعَرَبِيَّةُ  
هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيهِ»<sup>(١)</sup>.

وَعَرَضَ لِتَارِيخِ هَوَى صَاحِبِ الرِّسَائِلِ الَّذِي «كَانَ مِنْ نَمَائِهِ وَجَمَالِهِ  
وَطُحْرِهِ كَأَنَّمَا أَزْهَرَتْ بِهِ رَوْضَةٌ، لَا امْرَأَةٌ مِنَ النِّسَاءِ، وَكَانَ مِنْ مَسَافِهِ  
وَحِلَاوَتِهِ وَلَذَاتِهِ الْبَرِيَّةِ كَأَنَّمَا أَثْمَرَتْ بِهِ شَجَرَةٌ خَضِرَاءُ تَغْتَصِرُ الْحِلَاوَةَ  
فِي أَثْمَارِهَا أَصَابِعُ النُّورِ.. فَأَنْتَ لَا تَجِدُ فِي هَذِهِ الرِّسَائِلِ مَعَانِيَ النِّسَاءِ  
مُمَثِّلَةً فِي امْرَأَةٍ تَتَّصِبِي رَجُلًا، وَلَكِنْ مَعَانِيَ الْحُبِّ وَالْجَمَالِ مِتَالُفَةً  
فِي انْسَانِيَّةٍ تَسْتَوْحِي مِنْ انْسَانِيَّةٍ أَوْ تُوحِي لَهَا»<sup>(٢)</sup>.

وَالْكِتَابُ خَالِصٌ لِلْجَمَالِ بِذَاتِهِ، وَاقِعٌ مِنَ الْحُبِّ فِي خَاصِّ  
مَعَانِيهِ<sup>(٣)</sup>. فَهَوَ يَسْتَهْلُ الدِّيَوَانَ بِنَظَرِهِ إِلَيْهَا، وَقَوْلِهِ فِيهَا<sup>(٤)</sup>:

تَاللَّهِ لَوْ جَدُّدُوا لِلْبَذْرِ تَسْمِيَةً لَأَعْطَيْتُ اسْمَكَ يَا مَنْ تَعَشَّقُ الْمُقْلُ  
كِلاَكُمَا الْحُسْنَ فَتَانًا بِصُورَتِهِ وَزِدْتِ أَنْكَ أَنْتِ الْحُبُّ وَالْغَزْلُ  
وَتَلَوِّحُ لَهُ فِي بَعْضِ سَاعَاتِ قَلْبِهِ، وَكَأَنَّ سِرًّا مِنَ السَّكُونِ يَتَجَلَّى  
بِهَا، وَيَقُولُ لَهُ مِنْ عَيْنَيْهَا: الْمَسْنِي وَأَنْظُرْنِي فِيهَا<sup>(٥)</sup>.

وَيَهْدِي إِلَيْهَا زُجَاجَةً عِطْرٍ وَيَرَى كَأَنَّ الْعِطْرَ سَيَعْلَمُ حِينَ تَسْكُبُهُ

(١) أوراق الورد — ١٨

(٢) أوراق الورد — ٢٢

(٣) أوراق الورد — ٢٥

(٤) أوراق الورد — ٢٨

(٥) أوراق الورد — ٣١

على جِسْمِهَا الفاتن أَنَّهُ رَجَعَ إِلَى أَجْمَلَ مِنْ أَزْهَارِهِ، وَأَنَّهُ كَالْمُؤْمِنِينَ ؛  
تَرَكَوا الدُّنْيَا، وَلَكِنَّهُمْ نَالُوا الْجَنَّةَ وَنَعِيمَهَا<sup>(١)</sup>.

وَيَوْمَ بَعَثَ إِلَيْهِ بِصُورَتِهَا مَعَ جَوَابِ رِسَالَتِهِ، قَالَ :

« وَهَلْ فِي الْحُسْنِ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ الَّذِي يَرِفُّ عَلَى الْقَلْبِ  
بِأَنْدَائِهِ، وَيَتَلَأَلُّ بِنَضْرَتِهِ حَتَّى لَكَأَنَّهُ خُلِقَ مِنْ نُورِ الْفَجْرِ، وَكَأَنَّ عِلَامَةَ  
الْفَجْرِ فِيهِ إِنَّمَا هِيَ هَذَا الرُّوحُ الَّذِي يُحِيطُ بِالْقَلْبِ مِنْ وَجْهِهِ بِمَعَانٍ  
كَتَسَمَاتِ الصُّبْحِ، عَلِيلَةٌ مِنْ شِدَّةِ الرِّقَّةِ، ذَابِلَةٌ مِنْ قَرُطِ الْجَمَالِ، مَمْلُوءَةٌ  
مِنْ رُوحِ النَّدَى بِمَا يَجْعَلُهَا حَوْلَ النَّفْسِ كَأَنَّهَا جَوْ مِنْ شَعُورٍ حَيٍّ  
فَرِحَ لَا نَسَمَاتِ فِي الْعِوَى »<sup>(٢)</sup>..

وَعَلَى أَنَّ رِسَالََةَ الْإِبْتِسَامَةِ كَانَتْ جَوَاباً عَنْ قَوْلِهَا فِي رِسَالَتِهَا :

« لَيْسَ ضِيَاعُ الرَّسْمِ لَدَيْكَ إِلَّا سَبِيلاً لِتُجَدِّدَهُ مُبَكِّراً بِرِيشَتِكَ السَّاحِرَةِ،  
فَاقْبَلْهُ مِنِّي عُزْبُونَ الْإِحْتِرَامِ الْأَكِيدِ، وَشُكْرِي لِمَا تَمْنَحُنِي مِنْ آيَاتِ  
نَفْسِكَ الْبَاهِرَةِ، أَنَّنِي لَكَ أَبَدًا »<sup>(٣)</sup>. مَارِي

إِلَّا أَنَّ مَجْلَةَ الْهَلَالِ حِينَ نَشَرْتَ الْإِبْتِسَامَةَ هَذِهِ، رَمَزَتْ إِلَيْهَا بِرِسْمِ  
صُورَةٍ تُشَبِّهُ « مَيَّ زِيَادَةَ » إِلَى حَدِّ بَعِيدٍ<sup>(٤)</sup>.

وَمِنْ وَرَاءِ الْبَحْرِ تَتَحَدَّثُ إِلَيْهِ بِخُرُوفِهِ، وَتَحْسَبُ أَنَّ سَعَادَةَ الْفِكْرِ

(١) أَوْرَاقُ الْوَرْدِ — ٣٥

(٢) أَوْرَاقُ الْوَرْدِ — ٣٨

(٣) رِسَالَتُهَا فِي ١٩٢٤/٦/٢١ م

(٤) الْهَلَالُ — يَنَايِرُ/كَانُونُ الثَّانِي ١٩٣١ م

المتّصل بها عنه، تُخَفَّفُ عنها بَعْضُ ما تجدُّ، فتقطعُ المسافةَ المُتراميةَ  
بقوّةِ الأحلام، وتنتهّد، وتقول :

« الحياةُ مادةٌ يا صديقي ؛ فاذا لم أَقلْ كلمةً وأسمَعِ رَدّها، أو  
أخطُ سطرًا وأقرأ مثله، فإنّ الفكرَ الذي يُسعدُنِي في كلِّ شيءٍ هو  
نفسُهُ الذي يُعذبُنِي بكَ حتى لا أراك »<sup>(١)</sup>. فيُجيبها بقوله :

« أما والله إنّ في دون هذا لبلاغةً، فكلامك بيانٌ مُشرقٌ كإشراقِ  
الضُّحَى، بل لا أراكِ تجمعين ضميري وضميرك معاً في كلمةٍ إلّا  
أحسستُ أنه لقاءٌ بيننا في لَفْظٍ.

الحياةُ مادةٌ، فأينَ أنتِ يا مادّةُ الروحِ المُنسكبةِ في رُوحِي ١٩ »<sup>(٢)</sup>  
ويعودُ الى نفسه يعتدُّ :

« إنّي لمن اولئك الذين يَعرفون أنّ لَهُم عُرُوقاً سَمَويّةً في أرواحِهِم ؛  
تَنصَرُّمُ بالشُّعاعِ القُدسيّ الذي كانَ يوماً في بعضِ أَجدادِهِم ؛ إمّا  
نُبُوّةَ نبيٍّ، وإمّا خِلافةَ خليفةٍ وإمّا ملكَ ملكٍ »<sup>(٣)</sup>..

ليتَ شعري ؛ أتقومُ العاصِفةُ الهوجاءُ من خَطراتِ مِرْوَحةِ الحبيبةِ ١٩  
ويقعُ الزلزالُ المُدمِّرُ من رَجْرَجَةٍ مِنديلها في يدها ١٩.. لا أدري، ولكن  
ربما ربما ! »<sup>(٤)</sup>.

(١) أوراق الورد — ٤٧ عن رسالتها في ١٣/٥/١٩٢٥ م

(٢) أوراق الورد — ٥١

(٣) أوراق الورد — ٥٢

(٤) أوراق الورد — ٥٣

ولا يكادُ يُصَوِّرُ معنًى من المعاني في حالتي الصّدِّ والهجرانِ حتّى يردّفهُ بمعانٍ من الرضا والاستحسان، وكأنّه يوازنُ بين اثنيهما ؛ « تلك التي يَسْتَمِدُّ من لينها وسماحتها وذكرياتِها السعيدة معاني الحُبِّ التي تَمَلُّ النفسَ بأفراحِ الحياة.. وهذه يَسْتَوْحِيها معاني الكبرياء والصّدِّ والقطيعةِ وذكرياتِ الحُبِّ الذي أَشْرَقَ في خواطرهِ بالشعرِ، وأفعمَ قلبَهُ بالألم »<sup>(١)</sup>.

يرى القمر « طابعَ الله على أسرارِ اللَّيْلِ في صورةٍ وجهٍ فاتن، كما أنّ وجهَ كلِّ مَعْشُوقٍ هو طابعُ الله على أسرارِ القلبِ الذي يحبُّه »<sup>(٢)</sup>، فتَهيجُهُ الأشواقُ فيداريها ويتأملُ القمرُ<sup>(٣)</sup> :

يا ليلُ هيجتَ أشواقاً أداريها	فَسَلْ بها البدرَ ؛ إنَّ البدرَ يَذريها
وكم رسائلُ تُلقِيها السماءُ بهِ	للعاشقينَ فيأْتِيهم ويُلقِيها
أما أنا فأتاني البدرُ مُزْدَهِياً	وقالَ : جئتُ بمعنًى من معانيها
فقلتُ من خَدّها أم من لواحظها	أم من تدلُّها أم من تأيُّبها
فقالَ - وهو حزينٌ - ما استَطَعْتُ سِوَى	أنِّي اخْتَطَفْتُ ابْتِساماً لآخٍ من فيها

ولا يكادُ يَتَحَدَّثُ عن نَظراتِها حتّى يقولَ :

« لو سألتني مَنْ هو العاشقُ ؟ لأجبتك : مَنْ أَحَسَّ أنّه قُذِفَ بِهِ في الابتساماتِ والنَّظراتِ بمرّةٍ واحدةٍ الى مَهْبَطِ السَّمَاوَاتِ، فيشعرُ أنّ نَعِيمَهُ أَهناً من نعيمِ الأرضِ، وأنَّ عَذَابُهُ أَشَدَّ من عذابِها.. وكأنّه

(١) العريان — ١١٥

(٢) أوراق الورد — ٥٧

(٣) أوراق الورد — ٦٢

إذ يتنعم لم يُصَبَّ أسباب النعيم، بل أسباب الخلود في الجنة.. وإذ يتألم يجد مادة نارية خالدة على قلبه»<sup>(١)</sup>.

«أما ألم الحب فذاك حين يأتي على اللحم والدم معنى لو تجسم لكان هو الذي يصهر الحديد في موج من لهب النار، ويحطم الصخر في زلزلة من صربات المعاول!».

وهو الألم المدمر لا يكابده إلا إنسان يراؤ خلقه ثانية، فيهدم وينبئ... وأعظمه لأعظم الحكماء والشعراء»<sup>(٢)</sup>.

ويظهر أن «ميا» كانت تشبهه بناغمة فرنسي ولد في الحياة مراراً<sup>(٣)</sup> فيطرب لذلك ويرى «أن الشاعر العظيم لا تلد منه أمه إلا الجزء الأرضي... أما الأجزاء الروحية السماوية التي هي زيادة فيه على الناس.. فهذه تلدها الحبيبات ومصائب الدنيا»<sup>(٤)</sup>.

وحين تجذبه فتنتها إليها يقول :

«ومع جاذبية الألوان والعطور في ثيابك وحلاك»<sup>(٥)</sup>، جاذبية أعطر وأزهى في ملابس معانيك من العواطف، وفي ملابس روحك من الدلال،

(١) أوراق الورد — ٧١

(٢) جواباً على رسالة ماري بوني المؤرخة في ١٩٢٥/٢/٢٥ م، وقد حدثته فيها عن فتات التي جرحته ليخرج للانسانية هذه العصار الطيبة في «رسائل الأحرار» — أوراق الورد — ٨٠

(٣) من رسالة «مي» في ٢١ آذار ١٩٢٣.

(٤) أوراق الورد — ٨٦

(٥) عرف عن «مي» أنها تبدل ثيابها يوم الثلاثاء في ندوتها أكثر من مرة، وتزيد في أناقتها وعطرها.

ولا يَعْدِلُكَ في هذهِ الفتنَةِ الكاسيةِ إلا السماءُ في فِتنَتِها للرِّجالِ الألهيين حينَ تَلْبَسُ حرائِقَها من شَفَقِ الصُّبْحِ «<sup>(١)</sup>.

وفي نارِ الكلمةِ يَتَسَاءَلُ في حَيْرَةٍ واضطرابِ العاشقِ الفيلسوفُ :  
« أَيْكونُ الحُبُّ تَنْقِيحاً في معاني الكونِ بالنَّفْسِ وخيالاتِها ؟ أم في معاني النفسِ بالكونِ وحقائقِهِ ؟ أم كِلَيْهِما ؟ .. »<sup>(٢)</sup>.

وهي حينَ تَضيقُ من بعضِ ظَنِّهِ<sup>(٣)</sup> يقولُ لها :  
« حَقِيقَتُكَ لا تَزَالُ وراءَ آلافٍ من ظُنُوني ؛ كَأَنَّ لها مَعْنى اختباءِ  
الوَحْشِ في الفَافِ الغابةِ وأشجارِها، .. »

وَيَسْتَعِيرُ بعضَ كلامِها ليقولُ : « .. فاذا رَضِيتِ فانك جَذَابَةٌ بل  
مُتَوَحِّشَةٌ في الجاذبيةِ »<sup>(٤)</sup> فيقابل بينها وبينَ الثَّقِيلَةِ ( مي ) فيَحْسَبُهما  
واحدةً ؛ « وإنَّ هجرتِ فانك في الهَجْرِ بلا رحمةٍ ولا شفقةٍ مُتَوَحِّشَةٌ  
متوحشة »<sup>(٥)</sup>.

ولكنَّها تسارعُ فتكتُبُ له :  
« أنا مُقَصِّرَةٌ، أنا مُذْنِبَةٌ، فسامحِ التقصيرَ، واغْفُ عن الذَّنْبِ، وانظُرْ  
الى العاطفةِ التي تأبى إلا أن تبقيكَ على عرشِكَ الذي مَلَكَتَهُ  
بِاسْتِحْقاَقٍ .. »<sup>(٦)</sup> فيعقبُ على قولِها هذا بقوله :

(١) أوراق الورد — ١٠٩

(٢) أوراق الورد — ١٢٧

(٣) رسالتها في ١٩٢٥/١١/١٨ م

(٤) أوراق الورد — ١٣٥ ورسالتها في ١٩٢٥/٢/٢١ م

(٥) أوراق الورد — ١٣٥

(٦) رسالتها في ١٩٢٥/٦/١٥ م

« أمّا قبل.. فقد اجتمعتُ عندك بالحبِّ، وكُشِفَ لي عن مخلوقات الكون الشعريّ، الذي تملأه ذاتي فلا يَنْقُصُ أبداً..

ورأيتك يا فجري، وربيعي، وشبابي، وحبّي، فلن أنساك أبداً<sup>(١)</sup>. وهكذا يمضي يصوغ هذه الآيات الفريدة من معاني الحبّ وخواطر الجمال، في رسائل يمزج قلمها بقلمه<sup>(٢)</sup> ويحوّل لغتها الى لغته حتّى يُشرف على الغاية.

ولا تكاد « مي » تهدي إليه كتابها « ظلمات وأشعة » حتّى يلقف فيها رسالتها التي تنتهي بقولها :

« في أعماق نفسي يتصاعد لك الشكرُ بخوراً ؛ لأنك أوحيت إليّ ما عجزَ دونه الآخرون !. أتعلّم ذلك — أنت الذي لا تعلم !؟

أتعلّم ذلك — أنت الذي لا أريد أن تعلّم ؟... »<sup>(٣)</sup>

وفي هذه الرسائل يكابرُ الرافي مكابرةً عجيبةً ؛ فهو تارةً يجعلُ من خصائص حبايبه حالة حبّ واحدة، وأخرى ينفردُ بهذه أو تلك أو هاتيك في رسائل غاديات رائحات ؛ يضمُّ إليها فكراً وخواطر مما يتناثر بين معانيه، وليغيظ هذه بما ينشرُ من رسائل الأخرى.

ومن بين هذه الرسائل « رسالة العتاب » التي بعث بها إليها، بعد أن تفتّرت عليه في الردّ.. ولكن على صفحات جريدة « السياسة »<sup>(٤)</sup>

(١) أوراق الورد — ١٤٢

(٢) رسالتها في ١٥/٦/١٩٢٥ م

(٣) ظلمات وأشعة — ٧٢، أوراق الورد — ١٤٧.

(٤) السياسة ٣٠ مايو/أيار ١٩٢٣ م



وقد رأى فيها طه حسين أسلوباً لا يليقُ بالعصر الذي تغيّر فيه الذوق — إذ هو الذي يُشرفُ على صفحةِ الأدبِ في الجريدة!..

وكان الرافي قد آثر أن يكونَ عتابُهُ مُوجعاً وذا وطأةٍ على الحبيبة، فالتَمَسَ فناً من زُخرفِ القولِ والجملةِ العربيّةِ التي بَلَغَتْ بها الصناعةُ حدّاً، يشبهُ أن يكونَ بعضُ فنونِ الزخرفِ والتّسويقِ الذي لا تريده وحسبَ أنه « حينَ يكونُ في مثلِ هذهِ الرسالةِ لا يكونُ أبدعُ منه شيءٌ من الأساليبِ المرسلَةِ الأخرى،.. » فقال :

« انتظرتُ ردَّ كتابي، أو ورقةً من شجرةِ عتابي، فما زالتْ تنقطعُ الساعة من الساعة ويلتقي اليومُ باليوم، ويذهبُ اللّومُ الى العتاب، ويحييُ العتابُ الى اللّوم، وكتابك على ذلك كأنّه مُغمى عليه — لا هو في يقظةٍ ولا هو في نوم!.. فسبحان من علّم آدمَ الأسماءَ كلّها لينطقَ بها، وعلمك أنت من دونِ أبنائه وبناته السكوت،..»<sup>(١)</sup>

ما بال كتابنا يمضي إليك سؤالاً من القلبِ فيبقى عندك بلا جواب،.. وتنبّيه نحنُ على حركةِ قلوبنا، فتجعلينه أنت مَبْنياً على السُّكون، ثم لا محلّ له من الإعراب!.. وما بالنا نقطعُ في انتظارِ الردِّ مسافةً من هجرِك لو طارَ فيها البريدُ لانتَهى بكُتب الحسَناتِ والسيّئاتِ الى السماء،.. الخ»<sup>(٢)</sup>.

وقد ضَمَّنْها — على قاعدةِ المتأخرين — من مُصطلحاتِ العلومِ والفنونِ مُورّياً على المجاز، وحشَدَ فيها السَّجعَ وفنونَ البديع الأخرى

(١) السياسة السابقة — أوراق الورد — ٢٠٧

بما يُثقلُ فيه وطؤها حقاً ؛ لتكونَ في بابِ العتابِ رجعاً آخر.. ولكنها تُسارعُ فتدّاركُ الأمرَ بقولها :

« أنساك !؟ قد أتسامحُ للذاكرةِ أن تَسْتَبِدُّ بي ما شاءت، ولكني لا أجزئُ لها أن تتعدّى هذا الحدَّ المقدَّسَ في جعلِ نفسها حاجزاً بيني وبينَ ذكريِّ صديقاً أفاخرُ به سراً وجهراً، وأغارُ من نفسي على نفسي في نصيبٍ قد يسطو على العبثِ به فكري،.. هذه مكائلكَ من نفسي — وهي مع سعتها قليلةٌ في نظري الى جانبِ ما تَسْتَحِقُّ »<sup>(١)</sup>.

ولكنّه كالذي تعودُ به الأحزانَ الى الظنونِ، في حالةٍ يريدُ بها أن يَسْلُوَ فلا يَسْتَطِيعُ غيرَ أن يُهرعَ الى شجراتٍ له عندَ النهرِ يقيمُ عندها « صلوات في المحرابِ الأخضرِ » ويدعو بمثلِ قوله :

« يا مَنْ خَلَقْتَنِي إنساناً، ولكن قُضِيَ عليّ أن أقطَعَ الحياةَ كلّها أتعلّمُ كيف أكونُ إنساناً »<sup>(٢)</sup>.

ولا يكادُ يحاولُ النسيانَ، ويُسدِلُ ستارَ السُّلوانِ على الذكرياتِ، حتى يَفْتَحَ عليه طيفُ الحبيبةِ زائراً ؛ يَهْتِكُ سُجُفَ البُعدِ الذي شقَّ بينهما :

حَيّاً وسلّمَ ثم غادرَ تاركاً يَدَهُ عليّ الكَبِدِ التي أذماها  
وَدَنّا ليعترفَ الهوى فتهاكَّتْ أسرارُهُ، فَرَمَتْ بِهِ، فَرَمَاها

(١) رسالتها في ١٠ حزيران ١٩٢٣ م

(٢) أوراق الورد — ١٨٦

وهنا يَجْثِمُ على ظلمةِ الصَّدِّ بألوانٍ من النهارِ تَمُوتُ قبلَ أنْ يُولَدَ  
النهار<sup>(١)</sup>..

ولا يكادُ يَكْتُبُ « في معاني التنهّات » وَيَسْتَجِيبُ الى ندائها لتنظيمها  
شِعْراً بالفرنسية، حتى تعودَ إليه تلك المعاني بحُرُوفِهِ — ولكن بخطِّ  
يدها ١١.. فيتأوّه وَيَتَلَوَّى، ونجدّه مُحبّاً يشعُرُ أحياناً من شدّةِ القَلَقِ  
والاضطراب أن فكره يَعْدُو بينَ الأشياءِ والحوادثِ وراءِ الاطمئنانِ الذي  
فرَّ من قلبه<sup>(٢)</sup>..

ثم هو يَعْمَدُ إلى سُطورٍ من رسائلها، ونُثرٍ من أحاديثهما<sup>(٣)</sup> يَجْعَلُ  
منهما فَضْلينِ مُتَعَيِّنِ حَقّاً وغايةً في الأخذِ والتوزيعِ الفنيّ ( قَالَتْ وقلت )  
و ( قُلْتُ وقالت )<sup>(٤)</sup>.

ويلاحظُ عليه في هذين الفَصْلينِ إبقاءَ كلامها على حُرُوفِهِ، من  
غيرِ تعديلٍ ولا تبديلٍ، بخلافِ الرسائلِ المتقدّمة، التي كان يَعيدُ صياغةَ  
الأسلوبِ فيها.

وهكذا استطاعَ سدّ المكانِ الخالي في العربيّةِ بِعَمَلِ حاسمٍ، فَصَلَ  
فيهِ النزاعَ، وجَعَلَ مُناوئيه يُحْجَمُونَ عن التَّعَرُّضِ له، وَيَفْسَحُونَ في  
المجالِ لِسواهم من النّقادِ لتقديره وتقويم أثره<sup>(٥)</sup> باعتباره قَطْعَ شَوْطاً

(١) أوراق الورد — ٢٠٤

(٢) أوراق الورد — ٢٥٠

(٣) كانت وسيلتهما في المخاطبة الكتابة — لأنه أصمّ ١١

(٤) أوراق الورد — ١٦٣، ٢٣٩

(٥) أنظر محمد لطفي جمعة — المساء ٢٩ نيسان/أبريل ١٩٣٢ م

بَعِيداً في التجديد أثبت فيه رأيه السابق ووجهة نظره في الأسلوب الواحد الصحيح، وأنه أقرب إلى روح العصر في إنشاء الأمة إنشاءً سامياً.

إن ما يجري حول هذه الرسائل وبواعثها من مُداورات الكلام والمناقشة هي قصّة حب الرافعي نفسه، التي ثارَ الجدلُ في شأنها مُتطايراً في ميادين الصحافة وأروقة المجلات.. أدلى فيه الكثيرون بوجهات نظرهم؛ كأنّ المسألة ذات آراءٍ ونظّر وقياس، تختلف فيها الأذواق والمواقف!!

على أيّ سَبَقٍ أن وثّقْتُها بوسائِلهما من المُراسلات التي كانت تُتطّارح في الموضوع، ومن بين أوراقٍ وتعليقاتٍ له تخلّفت على مكتبه من بقايا ما يحتفظ به أبناؤه، وما رُدّ به على ناقديه، بحيث لم يبقَ هنالك مجالٌ مباحكةٍ أو دَوْرانٍ واستعادة<sup>(١)</sup>.

أعودُ فأقول: إن «وداد سكاكيني» أخرجت بعد كتابي هذا دراسةً وترجمةً في «ماري زيادة» «مي»<sup>(٢)</sup> ردّدت فيه أقوالَ بعضٍ من سَبَقُوها إلى الحكاية، ولم تأتِ فيه بجديدٍ غير اللهجة القليقة، والأسلوب غير المتّزن في الحكم.. وما برحتُ قالة الوهم التي سجّعت بها الرّيات:

«مي التي ألهمت صبري وأوهمت الرافعي وألهمت جبران ثم أخرجت من سواد المداد صُوراً متنوّعة الأفنان أضافت إلى ذخائر الفكر الانساني نُرّوة»<sup>(٣)</sup> تتشبّث بها.

(١) الامام الرافعي — ٣٠٠

(٢) دار المعارف — ١٩٧١ م

(٣) الرسالة — ٤٤٠ — ١٩٤٤ م

وقد أخرجَ فاروقُ مسعد « باقاتٍ من حداثق مي » كتاباً أدياً فريداً،  
تحاشى فيه الخوضَ في الموضوعِ كالآخرين، وجاءَ بحِثّياتٍ أخرى  
تُثبت ولا تنفي<sup>(١)</sup>.

على أن الحبَّ عند الرافعي هو دعوةُ السموِّ بالحياة، والارتفاع بقيم  
الوجود الإنساني، بالحفاظِ على كرامته، وصيانةِ خلقه بمِثانةِ الثباتِ  
على الاعتقاد.

### ٣ - البحث

كان الأدبُ عند العرب الأخذَ من كلِّ علمٍ بطرف، وغايةُ الأخذِ  
عندهم هي معرفةُ كلِّ ما هو موجود.

وكان الفقه يَكادُ يَسْتَوْعِبُ أبوابَ المعرفةِ كُلِّها ليصدُرَ بقواعدهِ  
وأحكامه،..

وكانَ التاريخُ ذلكَ العلمَ الذي يَسْتَطِيعُ فيلقِفُ الفنونَ والآدابَ والعُلومَ  
جميعاً يُورِّخُ لها ولأصحابها.

وكذلك كان الرافعي في أخذِهِ العلمي، وتوفّره على أدواتِهِ، وإمساكِهِ  
بآليهِ دَرْساً وخبراً، وحفظِهِ لها فهماً واستيعاباً،.. والإلمامَ بمعظم ما  
وصلت إليه يده قراءةً وسماعاً من الفقه والأدب والتاريخ، حتى كانَ  
أَعْلَمَ أهلِ العربية بفنونها وآدابها<sup>(٢)</sup>. يشهدُ بذلك خُصُومُهُ العديدون،  
والمُصَنِّفون الآخرون،..

(١) منشورات زهير بعلبكي — أنظر ص ٣٩٦ بيروت سنة ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٣ م

(٢) أنظر الحديث الحلية ١٠/١٩٣٧ م

وقد دلت بعض آثاره في التأليف والتصنيف على هذا فيما دَبَّجَتْهُ  
يراعه من دراسات وأوصاح ومُساجلاتٍ مرَّ التعريفُ ببعضها<sup>(١)</sup>.

على أنَّ الدراسات الأدبية في عهدِ الرافعي لم تكن قد استقرَّت  
على مرساةٍ واضحةٍ من البحث العلمي والتوثيق والمنهجية المتكاملة..  
ولنَّما الجديدُ فيها ما كان من محاولات بعض المستعربين في هذا  
المضمار، وتلقَّف تلامذتهم لها بشكلٍ من الأشكال<sup>(٢)</sup>.

ومن ذلك أنهم كانوا — وما يزالون يدُورون في تلك المحاولات  
من حول عَصْرَيْنِ سَمَّوهما في العصور الأدبية بالجاهلي والعباسي<sup>(٣)</sup>  
لما فيهما من مجالِ الخوض في النواحي الجانبية والانحراف بالموضوعات  
ناحية، وما فيهما من خروج على القيم العربية وثبات الأخلاق وقانون  
المروءات<sup>١</sup>.

والبحثُ بعدُ أنواعٌ منها :

## ١ — الدراسة الأدبية

ولعلَّ أولى هذه المحاولات عند الرافعي ذلك الفصل الذي عقده  
للحديث في « الشعر العربي » وقد استهلَّه بقوله الأديب الناشئ هناك:  
« ضَرَبْتُ الْعَرَبُ فِي الشَّعْرِ كُلِّ بِسْهَمِهِ ؛ يُخْطِئُ وَيُصِيبُ، حَتَّى مَلَأُوا  
بِقَاعَ الْأَذْهَانِ حِكْمَةً، وَغَرَسُوا فِي الْخِيَالِ فِسِيلَةَ الْأَفْكَارِ؛ فَذَا هِيَ شَجَرَةٌ

(١) راجع النقد في المقالة التقييمية ص ١٤٩

(٢) طه حسين أظهر مثال على ذلك الاتباع، لم يكد ينتهي من نالينو حتى تعلق بمارجليوت<sup>١</sup>

(٣) راجع اثبات الدراسات العليا خاصة<sup>١١</sup> وذلك خوض المستعربين اليهود خاصة<sup>١١</sup>

طَيِّبَةٌ أَصْلُهَا ثَابِتٌ فِي الْجَنَانِ، وَفَرَعُهَا فِي اللِّسَانِ ؛ تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ  
حِينَ بِإِذْنِ رَبِّهَا»<sup>(١)</sup>..

وبعد أن يَلْقَفَ قَالَةً فِي الشَّعْرِ يَرْفَعُ وَيَضَعُ، فَيَدِيرُهَا أَمْثَالاً تَارِيخِيَّةً  
أَدَبِيَّةً.. يَقُولُ :

« تِلْكَ كَانَتْ حَالَةُ الشَّعْرِ وَالشَّاعِرِ، أَيَّامَ كَانَ الْأَوَّلُ كَالنَّجْمِ الزَّاهِرِ  
تَارَةً، وَأَوْنَةً كَالسَّيْفِ الْبَاتِرِ، وَمَرَّةً كَالْعُقَابِ الْكَاسِرِ، وَطَوْرًا كَاللَّيْثِ  
الْخَادِرِ.. وَأَيَّامَ كَانَ الثَّانِي فِي رِصَانَةِ النَّظْمِ عَالِي الذِّكْرِ جَلِيلِ الْقَدْرِ،  
يُثَوِّرُ بِمَقُولِهِ كَالْأَسَدِ بِمَخْلِبِهِ، تَخَافُهُ الْقَبَائِلُ وَتَخَافُهُ الْعَشَائِرُ..

ثُمَّ يَلْتَفِتُ لِيَقُولَ : « .. فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الْقَصْدَ،  
وَأَضَلُّوا الْمَوْرِدَ فَظَلَعُوا كَالضُّبُعِ عَلَى بُعْدِ الْمَزَارِ.. حَتَّى بَلَغُوا مِنَ الْبَحْرِ  
نَجْعَةً، فَلَزِمُوهَا يُرَدِّدُونَهَا فِي أَفْوَاهِهِمْ تَرْدِيدَ الصَّبِيِّ لِعَابِهِ، حَتَّى انْقَلَبَتْ  
فَقَاقِعٌ<sup>(٢)</sup> يَغُرُّهُمْ فِيهَا قَوْلُ النَّاسِ أَنَّهَا الْمَاءُ الزَّلَالُ أَوْ السَّحَرُ الْحَلَالُ..  
لَا أَلْسِنَةً لَهُمْ إِلَّا صُحُفٌ أَسْلَفَهُمْ يَقْطَعُونَ مِنْ مُشَجَّرِهَا أَشْجَارًا، وَيَجْنُونَ  
مِنْ حَدَائِقِهَا ثَمَارًا..

أُولَئِكَ الَّذِينَ جَعَلُوا الشَّعْرَ تِجَارَةً — وَلَيْتَهَا لَمْ تَكُنْ بَاثِرَةً، وَتَخَذُوا  
النَّظْمَ صَفْقَةً وَلَكِنَّا خَاسِرَةٌ... حَتَّى انْكَدَرَتْ نَجُومُ الشَّعْرِ وَكُسِفَتْ  
شُمُوسُ أَهْلِهِ»<sup>(٣)</sup>.

وَقَدْ أَفَاضَ فِي هَذِهِ الْمَحَاوِلَةِ الدِّرَاسِيَّةِ اسْتِشْهَادًا وَاسْتِطْرَادًا يَدُلُّ بِهِمَا

---

(١) و(٣) المنار ١٥ — ٣ ربيع الآخر ١٣١٨ هـ — ٢٨ يوليو/تموز ١٩٠٠ م  
(٢) راجع ما سبق من أخذ سلامة موسى للعبارة ورميد أدب الراجعي بها.  
— الهلال — إبريل ١٩٢٥ م — وانظر كتابنا في الراجعي الناقد الأدبي.

على حُسن الانتقاد، والتأمل، والدُّوق، والدعوة الى النهضة بروح عالية ومعنوية متميزة.. فلم يترك من فنون الشعر قولاً في سائر العصور، حتى الأزجال أوردَ أمثالاً لها، وما لَمْ يَعْرضْ له من تَعْذُّمِ عَضْداً لِدَعْوَتِهِ من مُصَنَّفِي القولِ في تلكِ الفنون، ثباتاً أمامِ شيوخِ الأدبِ في زمانِهِ<sup>(١)</sup>. حتى قال :

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ زَعَمَ الْغُرَبَاءُ وَمَنْ يَتَعَصَّبُ لَهُمْ مِنْ أَهْلِ الشَّرْقِ، أَنَّ الْعَرَبَ لَمْ تَذُقْ أَلْسِنَتُهُمْ مِنَ الْبَلَاغَةِ إِلَّا كَمَا تَذُوقُ الْأَعْيُنُ مِنَ النُّومِ غِرَاراً وَمَضْمَضَةً، وَإِنَّ لَهُمْ لَعُدْراً فِي ذَلِكَ مَا دَامَ شِعْرَاؤُنَا بِمَعَزِلٍ عَمَّا يَقُولُهُ الشَّاعِرُونَ »<sup>(٢)</sup>.

وكانت محاولته الثانية يومَ تصدَّى لشعراءِ العصر يُرتَّبهم في طبقات، ويأخذُ عليهم المآخذَ النقديةَ والبلاغيةَ، ويشيدُ بالمآثرِ، ويقدمُ ويؤخرُ ما شاء له ذوقه الأدبي، ورأيه المخاطر واتجاهه في الإثارة<sup>(٣)</sup>.

وكانت دراسة أطارت لها أصداء من النقدِ والموازنة والأخذ والردَّ في سائرِ صحُفِ ذلك العهد.. وقد أفادَ منها في لَفَتِ الأنظارِ إليه، على الرُّغمِ من عَدَمِ تصرُّحه باسمِهِ.

ولكنَّ الدراسةَ التي أفادَ فيها من مَواقِفِهِ السابقة هي التي أفردَها لشعْرِ البارودي<sup>(٤)</sup>، أوَّلُ دراسةٍ أدبية ظَهَرَتْ بَعْدَ مَوْتِهِ، وقد أَضَحَتْ

(١) المنار السابق.

(٢) وقف له الشيخ رشيد رضا يأخذ عليه غلو الشباب في النقد — المنار السابق.

(٣) الثريا — يناير/كانون الثاني ١٩٠٥ م

(٤) المفتطف — مارس/آذار ١٩٠٥ م



مادّة الأساسِ لِمَن جاءَ يدرسُ باعثَ الشعر العربي الحديث<sup>(١)</sup>، وفيها يقولُ فَيَشْفُ عن ذَوْقٍ واعتدالٍ وإدراكٍ مبكّرٍ :

« لم يَكُنْ شاعرنا كاملَ التصرّف في فنونِ المعاني — وإن كانَ أشعَرَ من جميعِ مُعاصِرِيهِ بلا مِراءٍ، — غيرَ أَنَّهُ أتمَّ ذلكَ بما اتَّفَقَ لَهُ من جمالي الصُّنعةِ وبديعِ الرواءِ.

أَمَّا نَمَطُ البارودي في النظم فهو غايةٌ ما دارَتْ به الأليْسنةُ ؛ عُذوبةٌ تكادُ تَرشِفُ، وجزالةٌ تَلْعَبُ بالنفسِ، وسلامةٌ يَسْتَرِيحُ في ظلِّها القلبُ، وتَسْتَنَشِقُ نِسِمَها الكبدُ ؛ فهو الغديرُ أعذبُ ما يَكُونُ، والمرأةُ أَصْفَى ما تَكُونُ،.. ولشدّةِ رَغْبَتِهِ في ذلكَ النَّمطِ وانصرافِهِ إليه بِجُمْلَتِهِ، جعلَهُ المرجعَ باختيارِهِ من شعرِ الشعراءِ<sup>(٢)</sup>.

ثم توالَتْ دراساته الأدبيّة الأخرى، يُوفِّقُ فيها، ويشارُ إليه في أخذِهِ، وانتقائِهِ لشواهِدِهِ، ويُعجِبُ لانتقائَاتِهِ،.. وربما ثارت من حولها الآراءُ ووجهات النظر..!

عَرَضَ لشعيرِ اسماعيلِ صبري ( باشا ) بعدما علم « أَنَّهُ كانَ دائمَ الحُبِّ ؛ يمزجُ ماضِيهِ بحاضِرِهِ فيخرجُ منهما حُبًّا جديداً، وكانَ الرجلُ كأنَّهُ مجروحُ القلبِ، فلا يَزَالُ يئنُّ حتّى في بعضِ أنفاسِهِ !، إذ يرسلُ النَّفْسَ الطويلَ بين هُنَيْهَةٍ وأخرى كأنَّهُ يريدُ أن يطمئنَّ أن نَفْسَهُ فِيهِ<sup>(٣)</sup>.

(١) راجع محمد صبري — أدب وتاريخ — البارودي، وعبد الحميد الحديدي — البارودي باعث الشعر الحديث.

(٢) المقتطف السابق — ويريد بها المختارات التي وفق البارودي لجمعها.

(٣) المقتطف مايو ١٩٢٣ م — وحي القلم ٣ — ٢٥٩ وما بعدها.

وتلك هَمَّمة لا تكونُ في شعرٍ بغير معنى! فكأنَّ الرافعي كان  
يَسْتَبِقُ في الوجهةِ الفنيَّةِ لدراسةِ الأدب<sup>(١)</sup> وقال :

« شاعرنا هذا — صبري — أخرجَهُ اثنان : الظرفُ والجمالُ، وهذا  
سِرُّ إِبائِهِ أن يُدعى من الشعراء ؛ لأنَّه أرفعُ من أن يدخلَ بينهم في  
هذه المِحنةِ والبلوى التي ابتَلَوْا بها<sup>(٢)</sup> .

ولإفراطِهِ فيهما، وقيام شعرِهِ على هذينِ الركنينِ جاءَ مُقِلًّا من  
أصحابِ القصارِ، وزادَ إقْلالُهُ في قيمةِ شعرِهِ، فخرجَتْ مقاطِيعُهُ مخرجَ  
الشيءِ الطريفِ،.. غير أنَّ صبري كان لَهُ مع جودِهِ المقاطعِ جودةُ  
القَصِيدِ إذا قَصَدَ<sup>(٣)</sup> .

وقالَ في دراستِهِ للشيخِ محمد الخضري صاحبِ تاريخِ الأممِ  
الاسلامية، وتاريخِ التشريع :

« إنَّ الذي يُريد أن يقولَ قولاً صحيحاً في هذا الفقيهِ العالمِ المؤرِّخِ  
الأديبِ المُربيِّ، يجبُ أن يرجعَ الى منبعِهِ، ليعرفَ مبلغَ انبعاثِهِ وقوةِ  
حُرِّيَّتِهِ، ومدَّ عُبَابِهِ<sup>(٤)</sup> .

ثم علَّقَ على قولِهِ للشيخِ الخضري كانَ قد صدَّرَ بها كتابَهُ ( تاريخِ  
الأممِ الاسلامية ) :

(١) المقتطف مايو ١٩٢٣ م — وحي القلم ٣ — ٢٥٩ وما بعدها.

(٢) حاول ذلك فيما بعد محمد خلف الله بِمَرْقَعَةٍ من أفكارِ أدباءِ الغربِ ونُقادهِ جمعَ  
بينها في محصلة

(٣) المقتطف مايو ١٩٢٣ م — وحي القلم ٣ — ٢٥٩ وما بعدها.

(٤) المقتطف — مايو ١٩٢٧ — وحي القلم ٣ — ٣٤٣

« أرجو أن أكون قد وفقت لتذليل صعوبة كبرى — وهي صعوبة استعادة التاريخ العربي من كتبه » فقال الرافي :

على أن الشيخ أحسن في كتابه، وجاء بمادّة غزيرة من فكره ورأيه، وبسط واختصر، فإن حكمته هذه إما أن تكون أكبر من التاريخ، أو أكبر من كتابه..

وقال — بعدما مرّ على مصنفات الشيخ — :

« أظنّ كل ذلك لا يذكر في جنب الكتاب الذي كان يعمل فيه أخيراً » الأدب المصري<sup>(١)</sup> أخبرني أنه في جزئين، ودعاني الى داره لأطلع عليه، فوعده ولم يُقدّر لي<sup>(٢)</sup>.

وقال في دراسته للجانب اللغوي عند يعقوب صروف، بعدما أشار الى مقال له نشره في « المقتطف » مرتين ؛ موجزاً وموسعاً<sup>(٣)</sup> في التعريب وطريقته في الترجمة :

« أعجبني حسن التفسير الذي ابتدعه الدكتور صروف لقواعده التي بسطها في مقاله، حتى إنني لأراه باباً جديداً في التفسير المعروف عند العلماء لا بتدال الألفاظ وغرابتها ؛ إذ لم يبق عندنا غريب ومبتذل، ولا يئنا عرب ومحدثون.. غير أن الأستاذ يترخص في الألفاظ العامية وهو يجد فصيحها.. لأنه أغفل أضلاً اجتماعياً عظيماً ؛ فإنّ عاميتنا غير منقطعة من العربية الفصحى، ولا يزال فينا ميراثها من القرآن والحديث

(١) ليت من يُعنى بآثار الشيخ أخرجه للناس!!

(٢) المقتطف السابق — وحي القلم ٣ — ٣٤٥

(٣) المقتطف يولية ١٩٠٦ م، مايو — ١٩٢٧ م

وكلامِ العلّماءِ في أمورِ الدين، وهذه هي وسائلُ مَرَجْهِمِ بالفصيح، وردّهم إليه.. ولا تَزَالُ هذه الوسائلُ تَفْعَلُ ما تَفْعَلُهُ النواميسُ المحتومة، ولولاها لما بقي للفصحى بقيّةٌ بعدُ»<sup>(١)</sup>.

ثم كان كذلك في دراسته لحافظ ابراهيم التي استهلّها بقوله :  
« فَرِغْتُ الْآنَ مِنْ قِرَاءَةِ شِعْرِ حَافِظٍ، بَعْدَ أَنْ لَمْ يَعُدْ بَيْنَنَا إِلَّا شِعْرُهُ  
وَنَثْرُهُ.. فَبِاللَّهِ أَحْلِفُ مَا نَظَرْتُ فِي صَفْحَةٍ مِمَّا بَيْنَ يَدَيَّ إِلَّا وَأَحْسَنْتُ  
أَنَّ ذَلِكَ الشَّاعِرَ الْعَظِيمَ يَقُولُ فِي بَيَانِهِ الرَّائِعِ وَصَنَاعَتِهِ الْبَدِيعَةِ : أَنَا  
هُنَا»<sup>(٢)</sup>، فهو في هذه الكلماتِ التي يَسْتَهْلُ بِهَا كَأَنَّمَا يَضَعُ لِلدِّرَاسَةِ  
الْأَدَبِيَّةِ قَوَاعِدَهَا، وَيُرِيسِمُ مُنْهَاجاً، وَيَصِلُ مَا انْقَطَعَ مِنْ أَثَرِ الْفَنِّ وَالْإِبْدَاعِ.

وَدَرَسَ أَحْمَدُ شَوْقِي عَلَى هَذِهِ السَّبِيلِ، فَذَهَبَ بِهِ إِلَى الْقَوْلِ :  
« عِنْدِي أَنَّهُ لَا أَمَلُ أَنْ يَنْشَأَ لِمَصْرَ شَاعِرٌ عَظِيمٌ فِي طَبَقَةِ الْفُحُولِ  
مِنْ شُعَرَاءِ الْعَالَمِ، إِلَّا إِذَا أُعِيدَ تَارِيخُ أَحْمَدَ شَوْقِي مُهَذَّباً مُنْقَحاً فِي  
رَجُلٍ وَهَبَهُ اللَّهُ مَوَاهِبَهُ»<sup>(٣)</sup>.

« وَأَنَا حِينَ أَكْتُبُ عَنْ شَاعِرٍ لَا يَكُونُ أَكْبَرُ هَمِّي إِلَّا الْبَحْثُ فِي  
طَرِيقَتِهِ — وَإِبْدَاعِهِ لِمَعَانِيهِ، وَهَلْ هُوَ شَعَرَ بِالْمَعْنَى شُعوراً خَالِطَ نَفْسَهُ  
وَجَاءَ مِنْهَا، أَمْ نَقَلَهُ نَقْلاً فَجَاءَ مِنَ الْكُتُبِ ١؟

وَإِذَا عَرَضْنَا لَشَوْقِي بِتِلْكَ الطَّرِيقَةِ، رَأَيْنَاهُ نَابِغَةً مِنْ أَوَّلِ أَمْرِهِ، فَفِيهِ

(١) المقتطف يناير ١٩٢٨ م — وحي القلم ٣ — ٣٩٣

(٢) المقتطف — أكتوبر ١٩٣٢ م — وحي القلم ٣ — ٢٧١

(٣) المقتطف — نوفمبر ١٩٣٢ م — وحي القلم ٣ — ٣٩٥

تلك الموهبة التي أسميها « حاسة الجوّ » إذ يتلمّع فيها النُّبْغَاءُ معاني ما وراء المنظور، ويَسْتَنْزِلُون بها من كلِّ معنى غيرُهُ»<sup>(١)</sup>.

ومن هذه الناحية فإنَّ دراسته « للشعر العربي في خمسين سنة » التي انتقل فيها من صفِّ التاريخ للمرحلة الأولى من العصر إلى دراسة موضوعية لفنون الشعر وتطوُّرها في تلك الحقبة، بعدما وقَّف بها على العلة في الضَّعْف الذي سبقها.. فقال :

« لا تكادُ تَجْدُ شعراً عَرَبِيًّا بعد القرن التاسع إلى أوَّل النهضة إلَّا رأيتهُ صُوراً ممسوخةً مما قَبْلَهُ، وكلُّ شعراءِ هذه القرون لَيْسُوا مِمَّن وراءهم إلَّا كالظِّلِّ من الانسان : لا وجودَ لَهُ من نفسه، وهو مَمْسُوحٌ أبداً، إلَّا في النَّدْرَةِ حينَ يَسْطَعُ من مرآةٍ صافيةٍ»<sup>(٢)</sup>.

وفي التفاتة مُخاطرة يقول :

« إنَّ عُلُومَ الْبَلَاغَةِ التي أُحْدِثَتْ فنًّا ظَريفاً في الأدبِ العربي، وأنشأت الذُّوقَ الأدبيَّ نشأتهُ الرابعة في تاريخ هذه اللغة — بعدَ الذُّوقِ الجاهلي والمحدث والمولَّد — هي بعينها التي أَضْعَفَتِ الأدبَ، وأفسَدَتِ الذوقَ، وأصارتُهُ إلى ما رأينا في شعرِ المتأخِّرين ..! ».

وبصراحةِ الواثق من نفسه يقول : « إنَّ الشعرَ العربي لم يُوفِّ قِسْطَهُ، ولم يبلِّغْ مبلغَهُ في مجاراةِ هذه النهضةِ قُوَّةً وابتكاراً وسلامةً اختراع وحسن تنوُّع، لسببين :

(١) المقتطف — نوفمبر ١٩٣٢ م — وحي القلم ٣ — ٣٠٢

(٢) المقتطف — يناير ١٩٢٦ م

الأول : أنه لا يزال كما كان منذ فسدت العربية، شعر فقه لا  
شعر أمة..

والثاني : سقوط فنّ النقد في هذه النهضة..<sup>(١)</sup>

ولكنه يتدارك بقوله :

« وعلى ما نزل بالشعر من هذين السببين، فقد استقلت طريقتُهُ،  
وظهر فيه أثر التحول العلمي والانقلاب الفكري، وعدل به أهله إلى  
صُور الحياة، وأضافوا به مادةً حسنةً إلى مجموعة الأفكار العربية،  
واتسعت دائرة الخيال فيه بما نقلوا إليه من المعاني المترجمة عن لغاتٍ  
مختلفة، وهو من هذه الناحية أوسع من شعر كل عصر في تاريخ  
هذه اللغة.. » الخ<sup>(٢)</sup>.

ولا ريب أن النفس بها حاجةٌ أبداً مع دينها الروحي إلى دينٍ  
يقوم على الشعور والرغبة والتأثير فيفسر لها حقائق الحياة، ويكون  
وسيلةً من وسائل تغييرها.. ذلك الذي لا يجمّل الجمال إلا به،  
ولا تسكن النفس إلا إليه.. وذلك هو الشعر<sup>(٣)</sup>.

## ٢ - بعث التراث

كانت أيام التحصيل عند الراجعي سياحةً فكريةً بين الكتب المطبوعة  
في الآفاق، وبين مخطوطات لم تر نور الطباعة، يجدها في مكتبة  
أبيه، ومكتبة المعهد الأحمدية ومكتبة الشيخ القصبي في طنطا، وفي

(١) المقتطف — يناير ١٩٢٦، وحي القلم ٣ — ٣٧١

(٢) المقتطف — يناير ١٩٢٦،

(٣) المقتطف — يناير ١٩٢٦،

دار الكتب بالقاهرة.. وعند العلماء والفضلاء من أصحاب أبيه وأصدقائه.. وقد توفّر عليها قراءةً وتصفّحاً وأخذاً وحفظاً يتوسّع فيه، واختصاراً يُعنى به؛ ليفيد منها في قابل أيامه<sup>(١)</sup>.

ويوم تصدّى للتأليف في « تاريخ آداب العرب » كانت له حصيلة علمية وافرة، في هذا الشأن، أشار إليها من نوهوا بفضله في السبق<sup>(٢)</sup>.

وتشير حياة الرافعي ورسائله وأخباره إلى مبلغ عنايته بالميراث العربي<sup>(٣)</sup>؛ يتمثل ذلك في معظم ما توخاه تاريخاً أو نقداً أو إنشاءً في الآداب العربية، وفي مباحث القرآن العظيم، وفي البلاغة النبوية، وفي سائر مجالات الأدب والتعبير والمفاصلة التي أبدع فيها بما لم يكن له في العربية صريب<sup>(٤)</sup>.

ذلك أنه لم يكن يُرضيه ما تحث يدو من مصادر البحث ومراجعته، وإنما قد يبلغ الجهد به أحياناً أن يلتبس مختلف النسخ المطبوعة فيها والمخطوطة، ويطلب إلى أصدقائه في دور الكتب وأصفيائه وطلّبيه أن يوافوه بما يقفون عليه في هذا السبيل، أو بكلمات فيها<sup>(٥)</sup>.

(١) الهلال — يناير ١٩٢٧ م

ولعل من أعجب ما وقعت عليه من دفاتره التي كان يختصر ويلخص فيها المخطوطات والمطبوعات النادرة كتاب « الفهرست » لابن النديم وقد اختلف عليه الحبر الأخضر والأحمر والأسود.. غير البنفسجي الذي كان يفضل في الكتابة.

(٢) راجع تقارير القوم في صحف ذلك العهد.

(٣) الزهراء — الربيعان ١٣٤٥ هـ

(٤) منها خماسيته الانشائية: حديث القمر، المساكين، رسائل الأحرار، السحاب الأحمر، أوراق الورد.

(٥) أنظر رسائل الرافعي، ورسائل تلامذته إليه.

ولعلَّ آيَة ذلك حين وكلَّ إليه السيد محمد زاهد البدرى الناشر الشهير بحسام الدين القدسي قراءة أدب الكاتب للجواليقي، الذي يطبعه، وكتابة مقدمة له، وقد أخذ منه تصحيح الكتاب ومراجعته سبعة أيام<sup>(١)</sup>.

وقد لَقَفَتِ «المقتطف» المقدمة تنشرها، وتعدّها رأياً جديداً في كتب الأدب القديمة<sup>(٢)</sup> إذ قالَ فيها مردداً لكلام الأقدمين ومعقباً عليه :

«أدب الكاتب لابن قتيبة يُعدُّ من الدواوين الأربعة التي قالَ ابنُ خلدونَ فيها من كلامه على حدِّ الأدب :

« سَمِعْنَا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصولَ هذا الفنِّ وأركانهُ أربعة دواوين ؛ هي أدبُ الكاتب لابن قتيبة، والكامل للمبرّد، والبيان والتبيين للجاحظ، والنوادر لأبي علي القالي،.. وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع منها ».

قال الرافعي — وهو من أبدع ما عبّر به تقريراً لحقيقة النقد آنذاك :  
« إنَّ ظهورَ هذا الشرح كالتوبيخ لأكثرِ كُتّاب هذا الزمن ؛ أن أقرأوا، وادرسوا، وخصّوا لُغَتكم بشطرنج من عنايتكم، وتربّوا لها بتربيتها في مدارسكم ومعاهدكم،.. واصبروا عليها ومُعاناتها صبرَ المحبِّ على حبيبه، فإنَّ ضَعْفَتُم فصبرُ البارِّ على من يلزمه حقُّه، فإنَّ ضَعْفَتُم عن هذا، فصبرُ المتكلّف المتجمل على الأقل !.. »<sup>(٣)</sup>

(١) المقتطف — يونية ١٩٣١ م

(٢) مقدمة ابن خلدون — ٤٧٢

(٣) مقدمة شرح أدب الكاتب — ٧



والثانية، ما حَدَّثَنَا « العريان » عنها حين عادَ القُدسي يكلُّ إليه تصحيح كتاب « ديوان المعاني » لأبي هلال العسكري، وهو من أخطر كُتب المختارات، وكان الرافعي يشيرُ إليه بحسرةٍ وألم، لفُقدانه. هو وكتاب ( المنظوم والمنثور ) لابن طَيِّفُور. إذ لم يكن منه في دارِ الكتب غيرُ جزءين من ثلاثة عشر مجلِّداً مفقودة<sup>(١)</sup>.

وقد شهدَ العريان الرافعي — وهو يُصحِّحُ الكتابَ، فدُهشَ لقوَّة حافظته، وسُرعةِ اهتدائه إلى مراجع البحث، ومهارةِ الاستدلال على مواضعِ النقص.. حتَّى لكَأَنَّهُ بازاء مكتبةٍ حيَّةٍ دقيقةِ التركيبِ مُنظَّمة التبويب<sup>(٢)</sup>.

وكان الشيخُ مُحمد عبده قد اشتغَلَ بتصحيحهِ مع محمد الأمين الشنقيطي، المغربي الراوية الحجة، فلم يَتَهَيَّأ لهما إتمامُهُ ولا إخراجُهُ.. ثم شرعتْ لجنةُ التأليف والترجمة والنشر في التصحيح لطبعهِ فَعَجِزَتْ عنه وتركته<sup>(٣)</sup>.

وكان الرافعي قد حَفَظَ القُدسي على نَسْخِهِ ونَشَرِهِ بالاتفاق.. وكان في الجمعيةِ الخيريةِ نُسخةُ الشيخ محمد عبده، وقد شَمَّر القُدسي عن ساعدِ الجد، فاستنسخَ لَهُ نسخةً بخطِّ واضحٍ غير أنها كانت كثيرة التصحيف، والكتابُ بَعْدُ كالتوراةِ المُبدَّلة لا يمكن تصحيحُهُ بيسرٍ معتاد..

(١) رسائل الرافعي — ٢٣٧

(٢) العريان — ١٧١

(٣) الرسائل — ٣٠٥

راح الرافي يقابلها على نسخة دار الكتب ومُصَحَّحة الإمام عبده، ونسخة أوربية حَصَلَ عليها الناشرُ بمساعدة الدكتور « كرنكو » في ليدن بهولاندة.. حتَّى أتمُّ ثلثَ الكتاب، وقد تعبَ فيه كثيراً<sup>(١)</sup>.

وهنا حَدَّثَ أنْ خِلافاً ذَرَّ قرْنُهُ بينهما نتيجة ذلك، زاده العريان عفا الله عنه بِحِرْصٍ غيرِ واري، انْقَطَعَ بعده الرافي عن إتمامِ العمل.. واستمرَّ الناشرُ بالطبع، فكانت ملاحظاتُ الرافي وتعقيباته ذِيلاً للكتاب نفسه<sup>(٢)</sup>.

والثالثة معاونته للشيخ محمد سعيد الرافي صاحبِ المكتبة الأزهرية في إخراجِ جُمْلَةِ صالحَةٍ من كُتُبِ التراث<sup>(٣)</sup> إذ يذهبُ صديقنا أنور الجندي الى أنْ معظم تلك الكُتُب كان من تصحيحه وتحت إشرافه، وكادَ العريان أنْ يُوَيِّدَ ذلك، ويَعُدُّه في سبيلٍ من التعاون القائم في الأسرةِ الرافية، وكان في مَطْلَعِ حياته<sup>(٤)</sup>.

وبين يديَّ « ديوانُ الحماسة » مختارات أبي تمام من أشعارِ العرب — أحمَدُ هاتيك المنجزات في بعثِ التراث، طبعة الرافي عام ١٣٣١ هـ

(١) الرسائل — ٣٠٦

(٢) حدثني بذلك القدسي نفسه، وأتبع ذلك في ٧ ذي الحجة ١٣٩٦ هـ برسالة فصل فيها حكاية الخلاف الذي سببه تدخل العريان بينهما، ذلك أن الاتفاق كان على أن يأخذ الرافي كُتُباً من مكتبة القدسي مقابل التحقيق.. لكن العريان أرادَ ثمناً من النقي الذي لم يكن لدى الناشر ما يسدُّ قيمة الطبع!! وبذلك ضاعت الفرصة الثمينة علينا!

(٣) أنظر قائمة مطبوعات الأزهرية على غلاف كتاب المساكين — ١ ٢.

(٤) حدثني بذلك قبل فراقه الدنيا بأسبوع ٢٧ مايو/أيار ١٩٦٤ م

— ١٩١٣ م وقد اختَصَرَ فيه شرح التبريزي وأضاف إليه ما يحلُّ غريب مفرداته. وهي طبعة تُعدُّ في النواذر اليوم.

أمَّا التعريفُ بالشعراء والترجمة لهم، وذكر أسباب قولهم الشعر، وزيادة التهذيب والتنقيح التي جاءت بها الطبعة، فلها شَبَّةٌ كبير ورَبَّما بالحرف الواحد تقريباً يجيء مع هوامش ديوان الرافعي في الموضوعات والشخصيات نفسها، يؤيِّد ما ذَهَبَ إليه الجندي في هذا الشأن<sup>(١)</sup>.

وإذا كانت هذه الأعمال غير متكاملة التحقيق العلمي المناظر والمقارن، وما عليه الدراسات التحقيقية القائمة اليوم، فإنَّ عنايته بأبي الطيب أحمد ابن الحسين «المتنبي» قد بَلَغَتْ هذا وفاقت، وإن لم يَظْهَرُ اسمه عليها في شكلٍ من الأشكال..!

إنَّه أعانَ صِهره عبد الرحمن البرقوقي على شرح ديوانه، بل كَتَبَ هو مقدِّمته<sup>(٢)</sup>، ومعظم ما جاء في الشرح من شواهد وشوارد..

ووجَّهَ صفيَّة محمود محمد شاكر ليَضَع دَراسته في «المتنبي» التي وافَتْ في جزءٍ خاص من المقتطف<sup>(٣)</sup> من بعد تلك الموازنة بينه وبين البحري وأبي تمام<sup>(٤)</sup>.

وممَّا قاله في أبي الطيب وشعره :  
« ان المتنبي ربُّ المعاني الدِّقَّاق، فللذهنِ عندهُ في شعره جَوَلان، وما دَامَ هنالك ذهنٌ يلقفُ، وذوقٌ يَستدقُّ، ومَلَكَةٌ بيانيَّة، وبَصَرٌ بمذاهبِ

(١) لا تعيننا المقارنة هنا بقدر ما نريد به تثبيت حقيقة تاريخية قد تكفي الإشارة إليها أحياناً.

(٢) العريان — ٢٦٦

(٣) أنظر الطبعة الثانية ١ — ٢٤٢

(٤) المجلة الشهرية — مايو ١٩٢٥ م

الشعر، أمكن إدراك ما يترامى إليه مثل أبي الطيب، ولو بشيء من  
الجهد الملدّ والتعب المريح !.

تَبَّعْتُ جميع من تعرّض للمتنبي بالشرح أو النقد، فوجدت لهم  
جميعاً بجانب حسناتهم سيئات، وإلى سدادهم زلات وهفوات.. وهذا  
حقاً من غريب طبائع البشر.. فسبحان من تفرّد بالكمال.

وفي الموازنة يقول : « المتنبي أكثر الثلاثة مُبالغةً يخرج فيها أقبح  
المحال، وتَعْقِيدُهُ أسوأ من تعقيد أبي تمام، بل من تعقيد كل شعراء  
التاريخ العربي.. وذلك من تداهيه لا من غفلته.. ».

ثم هو أقل الثلاثة إحساناً في صناعة البديع، إلا في القليل الذي  
يبلغ فيه مبلغ أبي تمام، والنتيجة من ذلك أن أبا تمام أفضل الثلاثة  
في مجموعته، وهو كالعقل المبتكر.. والبُحْثري أشعرهم في الجملة،  
وهو كالطبع السَّخِج المتدفق.. والمتنبي أحكمهم في خصائصه، وهو  
كالفكر المولّد.. وأكثر المتقدمين على تفضيل أبي تمام، ونحن من  
هذا الرأي<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

### ٣ — تاريخ الأدب

التاريخ ذلك العلم الجليل الذي لهُ عند العرب مكان الصدارة بين  
العلوم والمعارف، وقد كانوا ذوي بَصَرٍ فيه، وعُرفَ لهم فيه القصصُ

---

(١) المجلة الشهرية — مايو/أيار ١٩٢٥ م  
وربما كانت المقالة الرافعية هذه السبب في تأليف زكي مبارك لكتابه (الموازنة بين  
الشعراء) راجع مقدمة المبارك لكتابه (مدامع العشاق) الطبعة الثانية، وإشادته بالرافعي.

الحسن، والأيام والوقائع وما وراءها من الرواية وعلومها، والجرح والتعديل لحفظ القوام العام له.

وقد غني الرافي بالتاريخ، وتوفر على دراسته بنفسه بعد انقطاعه عن المدرسة ولزومه لحلقه أبيه.. وقدّم في جوانب منه عطاءً حسناً لا يُنتسى.

وكان من أمره أنه في صباه عرّض لموضوع الرواية، وما كان قد انتهى إليه أبو الطيب اللغوي في القرن الرابع بقوله: «وقد غلب الجهل وفشا، حتى لا يذري المتصدّر للعلم ممن روى، وقد وصلنا الى كدر الأكدار، وانتهينا الى عكر العكر» فقال الرافي: «ونحن كما ترى لا فرق بين دهرنا ودهره»<sup>(١)</sup>.

إذ أثر أن يؤرخ الموضوع بنوع دراسة وشواهد يستعرض بها الرواية والرواة، فنال حظاً من التوفيق وقف به على سلم هذا الفخر..

ويوم قامت الجامعة الأهلية في القاهرة في فكرة قومية أنشئ لها مكانها في الحوادث، وكان له موقف من دروس الأدب فيها.. انقطع للتأليف في «تاريخ آداب العرب» مسبقاً الجامعة بمن فيها من محاضرين وأساتذة عرب ومستعربين.. فكان له:

### أ - تاريخه للغة العربية

إذ كان الباب الأول من كتابه، وقد قدّم له بتمهيد جال فيه بين المصنّفات وكُتب التراجم، وكلّ ما يتصل بهذا الموضوع من قريب

(١) المقتطف - مايو/أيار ١٩٠٥ م

أو بعيد.. وقد رأى التأليف في هذا العلم يضلُّ في التمييز بين الفنَّ عن الاجتماع، والأدب عن الدين.. وأدرك انتباهة المُستعربين لهذا الوضع في العربية..<sup>(١)</sup>

ولكنه رأى من الاختلاط فيها من « صنيع المُستشرقين والمُستغربين، وما فيها من اجتلاب يُغرق في الحشو، ويتسّع من ضيق »<sup>(٢)</sup>.

ومن هنا خرج على ما تواضّع عليه هؤلاء من مناهج تبعية لبعض الحوادث الانقلاية في السياسة. فافترع له طريقاً ذهب فيه مذهب الضم لا التفريق، وجعل الكتاب دائراً على الأبحاث التي هي معاني الحوادث لا على العصور، وبذلك يأخذ البحث من مبتدئه الى منتهاه، متقلّباً به على كل صوره<sup>(٣)</sup>.

عقد الفصل الأول لكلمة الأدب « فتقلّب مع أدوارها اللغوية، وأحوالها، وأبان عن معناها النفسي في الجاهلية وصدر الاسلام من وزن الأخلاق وتقويم الطّباع، وكيف بُنيت حدود الأدب في القرن الثاني، وبقيت كلمة « الأدباء » خاصة بالمعلمين.. فلما فشّت أسباب التكسب بينهم وبين الشعراء، أدركتهم حرفة الأدب التي تعاوَرها الأدباء ميراثاً أديباً الى اليوم<sup>(٤)</sup>، وإن غلبت على المندامة في الحضر، والرقّة عند البدو.

ثم تحدّث عن أصل اللغات وفرّق بين التوقيف والمحاكاة، ودار

(١) تحت راية القرآن — ٦٨، ٧٢

(٢) و (٣) تاريخ آداب العرب ١٢/١

(٤) تاريخ آداب العرب ١ — ٢٢ وانظر ما سبق من مساجلة الكرملية فيها — المقتطف

عام ١٩٢٣ م وكيف أشاد طه حسين به — من بعيد/٢٦٢

مع السلسلة التاريخية لتطوُّر الألسنة، وأشار إلى عِمَادِ اللُّغَاتِ العربيَّةِ ( السامية )، وتهذيبِ العربيَّةِ العِرباءِ منذُ عهدِ اسماعيل عليه السلام، وانتشارِ القبائلِ حتى سيادةِ قريش وقيامِ أسواقِ العرب<sup>(١)</sup>.

وفي فَصْلٍ كبيرٍ من هذه الفُصول، تحدَّثَ عن نُموِّ العربيَّةِ وطُرقِ الوضعِ فيها<sup>(٢)</sup> من الارتجالِ والاشتقاقِ والمجازِ، ثم أنواعِ النُموِّ من الابدالِ والقَلْبِ والنحتِ والترادفِ، والاسترسالِ والمشجَّرِ والمُسلَّسِ والأضدادِ.. ثم الدخيلِ والمولَّدِ، والألفاظِ الاسلاميَّةِ — مصطلحاتِ الفقه والأصولِ والحديثِ والروايةِ وما إليها، ثم الغريبِ.. الخ<sup>(٣)</sup>.

وَقَدْ صَرَّبَ الأُمثلةَ، وأوجَزَ الكلامَ على الأئمةِ في ذلك كُلِّهِ.

وبعد أن كَتَبَ في تَمَدُّنِ العَرَبِ اللُّغوي، وعَرَضَ لوجوهِ ذلك التَمَدُّنِ.. انتهى إلى فَصْلٍ قِيمٍ بَحَثَ فيه أسرارَ النظامِ اللُّغوي<sup>(٤)</sup> وقد جَعَلَهُ في الألفاظِ بالمعاني، والمعاني بالألفاظِ، ثم النظامِ المُطلقِ، وما فيه من قُرِينَةٍ وَجِسْ نفسِي!..

وعَرَضَ كذلك للعاميَّةِ، واللُّحْنِ وانتشارِهِ، وفسادِ اللُّغةِ في الباديةِ، وطبائعِ الأعرابِ، وأسبابِ اختلافِ اللُّهجاتِ العاميَّةِ.. وَقَدْ حَفَّ هذا التاريخُ وزِينُهُ بشواهدَ عِلْمِيَّةٍ من آثارِ ونظراتِ لُعَلَمَاءِ العربيَّةِ وأعلامِ اللُّغاتِ الألمانِ خاصةً.. وما سلكوه في الاستقراءِ والتقصِّي، وتطبيقِ

(١) تاريخ آداب العرب ٨٧/١

(٢) تاريخ آداب العرب ١٦٩/١

(٣) تاريخ آداب العرب — ١٨٤/١

(٤) تاريخ آداب العرب — ٢٢٦/١

مذهب النشوء والارتقاء، والانتخاب الطبيعي على تلك الدراسات واتساقها معه<sup>(١)</sup>.

كما نَظَرَ في حكاية الرُّسوس والسامية التي برزت في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي إذ أطلقها «أوغست لودفيك شلوتسر» النمساوي عام ١٧٨١ م<sup>(٢)</sup> وتعلّق بها آخرون مثل أرنست رينان، ولكنه ذهب مع «صموئيل لانج» في كتابه «أصل الأمم» الذي أعرب فيه عن اعتقاده بتقدم العرب الحضاري المُوغل في القدم، الذي ربّما كان زمنَ تحوّل العصر الحجري<sup>(٣)</sup>.

وعلى أن هذا التاريخ كان بكراً في موضوعه ومنهجه وأيامه، فقد أثار ذهنة معاصريه من العلماء، ولا سيما رعاة «المقتطف» وقد نبّه على ضرورة الإشارة إلى مصادر المعلومات العلمية في دراسة التاريخ العربي خاصة<sup>(٤)</sup>، إذ زاد الرافعي الموضوع نظرةً إلى الإنسان العربي في بنائه التكويني وامتيازِهِ بِقِوامِ القلب وملاحية السحنة وهياة القحف.. الخ<sup>(٥)</sup>.

\* \* \*

(١) تاريخ آداب العرب — ٦٦/١

(٢) أحمد سوسة — العرب واليهود — ١٢٨

(٣) تاريخ آداب العرب ١ — ٣٦ عن مجلة الكوثر ١٩٠٥/٥ م

(٤) المقتطف — فبراير ١ شباط، ١٩١٢ م

(٥) مرّ ذلك في المقالة العلمية — ٢٠٢



## ب — تاريخ القرآن

كان القرآن باعتباره الأدبي السمو بضمير الأمة.. ومن هنا كان لا بُدّ للأديب العربي أن يتخَرَّجَ فيه، ليضحي في مواهب قلمه لقباً من ألقاب التاريخ<sup>(١)</sup>. ومن هنا كان القرآن باباً في « تاريخ آداب العرب » فقد بحث الرافعي في ذلك آتياً على جميع ما عُرف في هذا الشأن مما تفرَّق في كُتب ورسائل، ودراسات سابقة لا يُحصيها العدُّ. فأوجز منها بقصده بالغ مسائل جمعه وتدوينه، وحكمة نزوله مُفرِّقاً، وترتيبه، ورسم المصاحف، ورواية القرآن.. إلى آخر هذه المباحث.

ولعل من أروع فصول الكتاب دراسته لتأثير القرآن في اللغة وآدابه، ومُسْتَبطات علوم الفقه والتفسير، وذلك بمعاينة علمية يُستدلُّ بها على حال العرب بالقرآن، واجتماعهم على لغته، ثم خلود لغتهم به، واتصالهم بمادة العالم.

ينطلق بعد ذلك يقرّر حقيقةً يهتدي إليها في أخص خصائص الروح العربية حين قرّر الجنسية العربية في القرآن، فقال :

« إنما القرآن جنسيّة لغويّة تجمع أطراف النسبة الى العربية، فلا يزال أهلُه مُستعربين به، مُتميّزين بهلوه الجنسيّة حقيقة أو حكماً »<sup>(٢)</sup>.

ثم يمتدّ بذلك حتّى يجعل منه « ميثاقاً قومياً لإعادة بناء الأمة مهما امتدّت بها الأيام، أو تعاورتها أيدي الحوادث »..

(١) المقتطف — يناير ١٩٣٣ م

(٢) إعجاز القرآن — ٤٧

ويفردُ فَضْلاً للقرآن والعلوم، يَسْتَوْعِبُ فيه هذا الموضوعَ بموجزٍ وافٍ؛ إذ يأخذُ في التاريخِ العلميِّ ابتداءً، فيعرضُ للأديانِ وتطوُّرها في عقلِ البشرية.. ليتقلَّ بعد ذلك إلى علومِ التفسيرِ والفقهِ والبلاغةِ والروايةِ والتاريخِ وما لَحِقَ العامةُ وأهلَ النظرِ من دعاوى المُستَحْدَثاتِ العلميَّة، حتى يقفَ على مُفْتَرَقٍ يُدِلُّ فيه على تحوُّلِ العلمِ وتطوُّرِ العقلِ البشري في فهم القرآن.

كلُّ أولئك وكثيرٌ سواه يجعلُهُ مقدِّمةً لدراسةِ القرآن وآيَاتِهِ البَيِّنَاتِ؛  
إذ القرآن :

« معجزٌ في تاريخِهِ دونَ سائرِ الكتب، ومعجزٌ في أثرِهِ الإنساني، ومُعْجَزٌ كذلك في حقائقِهِ، وهذه وجوهٌ عامَّة لا تخالِفُ الفطرةَ الإنسانية في شيء، فهي باقيةٌ ما بَقِيَتْ .. »

قال : « ولَمَّا مَذْهَبْنَا بَيَانُ إعْجَازِهِ في نَفْسِهِ من حيثُ هو كلامٌ عربيٌّ في هذه الجهة من تاريخِ الأدبِ دونَ جهةِ التأويلِ والتفسيرِ »<sup>(١)</sup>.

وبذلك ذلَّ على تحديدِ علميِّ لموضوعِ بحثِهِ ودراسَتِهِ، فاتَّ بعضُ من تعرَّضوا له بنقدٍ أو مفارقة<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

(١) اعجاز القرآن — ٣٦٤

(٢) راجع العقاد — البلاغ ١٩٢٦/١٢/٣ م

### ج - تاريخ البلاغة النبوية

كان الأدب النبوي مادةً معطاء في الأدب العربي، فقد أوتي ﷺ المثاني والقرآن العظيم، وجمع إليه جوامع الكلم حتى نُصرَ بالرُعبِ.. وغداً مثال الاقتداء للصَّحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وللتابعين والكتّاب والمتأدِّبين؛ لهم فيه أسوة حسنة؛ إذ هو الثمرة للعُرْسِ الإلهي للأدب العربي بالكتاب المبين، والوحي الأمين.

وكان على الرافي أن يؤرِّخ للبلاغة النبوية في هذه الناحية أيضاً من آداب العرب، بعدما وفى القرآن الحكيم حقَّه الأدبي وتاريخه.. فقد نظر في بلاغته ﷺ فأراها توفيقية من الله تعالى، من غير تدريب ولا رواية، فأيد آراء الأقدمين من هذه الناحية، وجلاها بأدبٍ جم<sup>(١)</sup>.

ثم تحدَّث عن نشأة الرسول عليه السلام من ناحية اللغة وإقرار العرب بها عرفاً وأدباً، حتى أبان عن إحكام منطقهِ ﷺ، وتعبير اللغة والصوت، واجتماع كلامه وقلته، وبلاغة الطبع التي أثرت عنه، وهو يؤتي جوامع الكلم ويُنصر بالرُعبِ..

ولما كان الشعر ديوان العرب، ومعدن علومهم، وعنوان الذكاء والفطرة عندهم، فقد راح الرافي مع القرآن الكريم في نفي الشعر عنه، وما ينبغي له تاريخاً وأدباً<sup>(٢)</sup>.

وبعد ذلك تكلم على تأثير الحديث الشريف في اللغة بما أخذته

(١) البلاغة النبوية — ٣٧١

(٢) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية — ٤٠٥

من التراكيب والمصطلحات والأوضاع المفردة التي ازدهرت بها علوم العربية من بعد<sup>(١)</sup>.

ونظر في رسائله الى الملوك والجهات، وأدرك ما فيها من بلاغة وقصد أدب، حتى أدرك الفطرة اللغوية التي كان عليها، عليه السلام — وهي تميّز بالإلهام، والتوفيق، وتنتصر بالوحي الكريم<sup>(٢)</sup>.

أما نسق البلاغة فقد عدّها في وجوه البيان ومناقلة الحديث بلا صنعة، وكون ذلك النسق من سجايه عليه السلام،.. وأشار كذلك إلى أثر النفس الإنسانية وطابع الوضع الإلهي للنفس النبوية، ونفس النبي العربي الأمين<sup>(٣)</sup>.

وكذلك استوفى القصّد في إقامة دعائم البلاغة النبوية، على أسسها من البيان والحكمة والأدب،.. لا جرّم فهي «البلاغة التي سجّدت الآثار لآيتها، وحسرت العقول دون غايتها؛ تعرف الحقيقة فيها كأنّها فكر صريح من أفكار الخليفة، وتجيء بالمجاز الغريب، فتري من غرابته أنه مجاز في حقيقته»<sup>(٤)</sup>.

هذا من ناحية التأريخ لها، أمّا هي من حيث الموضوع، فقد أفرّد لها فصلاً آخر دعاه «السموّ الروحي الأعظم والجمال الفني في البلاغة النبوية»<sup>(٥)</sup>.

(١) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية — ٤٠٩

(٢) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية — ٤٣٢

(٣) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية — ٤٤٠

(٤) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية — ٣٦٤

(٥) أنشأه استجابة لرجاء كمال الدين الطائي — أمين جمعية الهداية الاسلامية ببغداد ونشر في كتابها السنوي (الذكرى) ١٣٥٢ هـ — ١٩٣٤ م

قرأ الحديث الشريف قراءة تأمل واستغراق وزيادة، فكان كلامه  
 ﷺ «يجري مجرى عمله؛ كلة دين وتقوى وتعليم.. وأسلوبه له  
 روح الشريعة ونظامها وعزيمتها، فليس له إلا قوة أمر نافذة لا يتخلف،  
 وله مع ذلك نسق هادئ هدوء اليقين، مبين بيان الحكمة، خالص  
 خلوص السر، واقع من النفس المؤمنة موقع النعمة من شاكرها»<sup>(١)</sup>..  
 حتى قال :

«بحسب الدنيا من جمال فن حديثه ﷺ ما يضيف الى الحياة  
 عظمة الأشياء العظيمة، ويدفع الإنسانية في طريقها الواحد الذي هو  
 بين الأب والأم، طريق الآخر الى أخيه يكون في الدنيا بين الرجلين  
 كما هو في الدم بين القلبين رحمة ومودة..»

وبحسبنا من جمال هذا الفن ما يهدي الإنسان الى حقيقة نفسه،  
 فيقره في الحقيقي من وجوده الإنساني، ويجعل الفضائل العليا كلها  
 تربية للقلب يكبر بها، ثم لا يزال يكبر حتى يتسع لحقيقة هذه الكلمة  
 الكبرى : الله أكبر»<sup>(٢)</sup>.

ومن هنا انفتح له الباب، ليقدم الى العربية مقالته البيانية التي مر  
 التعريف بها، وقد أعد منها «الكتاب النبوي»<sup>(٣)</sup> وهم باخراج  
 «أسرار الإعجاز»<sup>(٤)</sup>.

\* \* \*

(١) وحي القلم ٣ — ٩

(٢) وحي القلم ٣ — ٣٠

(٣) تجمع لدي بجله، وكان هديتي الى الأسرة الراقية الكريمة اعترافاً بفضلها وبراً بأدبه العظيم.

(٤) لم أقف على أصوله — واضيعته!!

## د - تاريخ الرواية والرواة

لا يخفى أن اللغة والشعر والأخبار والأحاديث لم تقع إلينا إلا عن طريق الرواية، ولم يغش إليها الرواة إلا من طريق النقل والمشافهة، وفي جميع أنواعها لها أقسام، ولها شروط وطرق...

وقد بادَرَ الرافعي - وهو بعدُ شابٌ لم يتخطَّ العقدَ الثالثَ من سنِّي عمره - الموضوعَ يكتبُ فيه مُعرفاً ومؤرخاً؛ يأخذُ من طرائقه ونواديره غيرَ قليلٍ، ويتفسيحُ له في «المقتطف» مكانٌ جليلٌ يحلُو فيه الحديث<sup>(١)</sup>.

ثمَّ لما كانَ من أمرِ الجامعةِ الأهلية، ودعوته لتدريسِ آدابِ العربِ فيها، إذ كان السَّبَبُ في وضعِ ما وُضِعَ من الكُتُبِ في علومِ الآدابِ وتاريخها<sup>(٢)</sup> - عادَ يُسابقُ الجامعةَ وأساتذتها، ومن حولهم من المُستعربين ومُصنِّفي الكُتُبِ عنهم<sup>(٣)</sup>، فوضَعَ كتابَهُ الذي كان أحدُ أبوابِهِ «الرواية والرواة» أيضاً.

إذ عادَ - ربَّما - إلى فصلهِ في «المقتطف» هذا، يعلِّبُهُ ويَتَوَسَّعُ فيه من ناحيةٍ، ويختصرُهُ في أخرى، ويزيدُ في شواهدِهِ، وَيَسْتَنْبِطُ، حتى استوىَ لديه على الشكلِ المتناسكِ الذي انتهى إليه..

(١) المقتطف مايو/أيار ١٩٠٥ م، وربما كان المادة الأساس التي بنى عليها «مرجليوت» اليهودي النمساوي مقالته في الشعر الجاهلي، التي اتهم طه حسين بالإغارة عليها - راجع محمود محمد شاكر - المتنبي ١ - ٧٢

(٢) المعركة - ٦٨

(٣) أمثال جورج زيدان الذي امتدت يده إلى كتاب «بركلمان» في الأدب العربي، يترجمه للهِلال منجماً عام ١٨٩٣ م.. ويدفع به للمطبعة عام ١٩١١ م

فقد تكلم على الأصل التاريخي للرواية العربية، وعلى الرواية في الإسلام، وما تبعها من تدوين الحديث النبوي الشريف، وإسناده، ثم اتصال هذه الرواية بالأدب<sup>(١)</sup> حتى انتهى الى علم الرواية نفسه، فعرض لأقسامها ووظائف الحفظ والنقل...

ثم عقد فصلاً لرواية اللغة، وأرخ للفظي اللغة واللغوي، بما عرف عنه من تفصّل في مثل هذه الموضوعات<sup>(٢)</sup>.

وتكلم في الأخذ عن العرب، والرحلة الى البادية، ثم ما دخل على الرواية من الوضع والصناعة، وأثر استكناه الشواهد، والافراد بالشعر في روايات الكوفيين، وأفتتاحهم على البصريين، وابتعادهم عن الكتاب الكريم والحديث الشريف... الخ.

وتكلم بعد ذلك على الرواة الوضّاعين للشعر، واختلاف الروايات، والتزيّد والتنقص في الأخبار... وكذلك القصّاصين وما كان لهم من أثر في هذا الشأن<sup>(٣)</sup>.

وبعد أن عقد فصلاً للرواة والأخباريين... عرض للشعر — من حيث هو عمود الرواية العربية، ومدارها الأول... وتحدث في العربية — علم النحو واللغة، ومذاهب الطوائف في الكوفة والبصرة... وهي الموضوعات التي أضحت من ثمّ عناوين لدراسات تُعنى بالعربية وآدابها في مختلف الجامعات.

(١) تاريخ آداب العرب — ٢٩٩/١

(٢) راجع ما سبق في مادة «أدب»

(٣) تاريخ آداب العرب ١ — ٣٧٤، وما بعدها، وهو الموضع الذي تاه فيه طه حسين

فلم يقرّ على الخروج منه!

وكان الرافي يأمَلُ أن يعودَ الى كتابه « تاريخ الآداب » هذا بزيادة  
بَسْط وعرضٍ شواهد، أو التعقيب والشرح بهوامش، وهمٌ بذلك غير  
مرّة<sup>(١)</sup> ولكنني لم أقف على نسخته الخاصة في هذا الشأن، لنرى مبلغ  
ما وصل إليه، أو ما أراد.. بعد مأساة مكتبته<sup>(٢)</sup>.. التي ضاعَتْ في  
دار الكتب بعد نقلها إليها!..

\* \* \*

### هـ - تاريخ الشعر العربي

حين همَّ الرافي لوضع مصنفه في « تاريخ آداب العرب »، وانقطعَ  
له، ووفّر له مادّته العلميّة الضخمة، واختطَّ لنفسه ذلك المنهاج الواضح  
الذي يجمعُ ولا يفرّق، مُبتعداً جُهدَهُ عن محاولات المُستغربين<sup>(٣)</sup> ومنْ  
تابعهم أو شايعهم من المستغربين في تَلْفِيق « الأدبيات »<sup>(٤)</sup>، وقد أرادَ  
أن يكون تأليفه ذِكْراً في تاريخ الدراسات الأدبية والعلميّة والموضوعات  
الفكرية، بمنهاج أثره أقرب ما يكون الى البحث العلمي، ولكن من  
غير جفاف المادّة، ولا ضياع الفكر، ولا انعدام الفن، ممّا كانت  
تؤثره الدراسات التّبيعية<sup>(٥)</sup>.

(١) رسائل الرافي ٢٥٥، ٢٦٠، ٣٧٣... الخ.

(٢) لم يُفرّد لها مكان هناك — كما اتّفقت معهم الأسرة!!

(٣) أمثال نالينو وبروكلمان وغيرها — راجع عبد الرحمن بدوي في كتابه الأخير في جهود

(٤) ما شاع تسميته آنذاك.

(٥) وكذلك راجع الخالدي في تاريخ الأدب، والسباعي بيومي تاريخ الأدب العربي.. الخ.



وكان قد ظَهَرَ لَهُ أن الكتاب قد يَسْتغرق مؤلفاً في اثني عَشَرَ باباً،  
سمّاها في الجزء الأول<sup>(١)</sup>.

وما كادَ يُصَدِّرُ الجزعين الأول والثاني، وفيهما ثلاثة أبواب فقط،  
حتى بدا لَهُ عِظَمُ المشروع وتكاليفه الباهِظَة.. وعلى هذا كانتِ الأبوابُ  
التسعة الباقية سوفَ تستوعب أجزاء أخرى لا تَقِلُّ عن ثلاثة<sup>(٢)</sup> فيما  
لو استقرَّ على منهجه في التأليف ومذهبهِ هذاك!.

ولكن ما حَدَّثَ له من موقف زبانية الجامعة خاصة — وربما كان  
يطمَعُ أن يُسَنِّدَ إليه تدريسُ المادة<sup>(٣)</sup>، ثم اتجأه هو من الناحيةِ  
الأخرى الى تربيةِ نَشْءِ الأُمَّةِ تربيةً اعتقادية بعد تبدُّلِ الأنواء وتحوُّلِ  
الأيام، حتى يكون جيلَ الاستقلال والجيل القاري<sup>(٤)</sup>.

يُضاف الى ذلك تزايدُ خُصومِهِ، وتكاثر شائنيه. ممَّن يَدُورون في  
أفلاكِ الحكم سياسةً أو تبيعاً.. واضطرارُهُ هو الى الدفاعِ عن نفسهِ  
في مصادماتٍ ومُصاوماتٍ لها مكانُها من التاريخ<sup>(٥)</sup>.. كلُّ أولئك قد  
صَرَفَهُ عن الاستمرارِ في إتمام ذلك العملِ الجليلِ في تاريخ آداب  
العرب!.

ذلك كانَ على الرِّغم من إلحاحِ محبِّيه من رفاقِهِ وتلامذته

(١) الجريدة — ١٢ نيسان/أبريل ١٩١٢ م، تاريخ آداب العرب ١٨١

(٢) المعركة — ٤٧، ٦٨، والعريان — ١٢٣

(٣) رسائل الرافعي — ٧٤، وانظر في «حديث القمر»!

(٤) العريان — ١٢١، أنور الجندي — المعارك الأدبية والدكتور محمد أبو الأنوار رسالته  
في المعارك الأدبية

الكثرة<sup>(١)</sup> فكلما هم أن يستأنف العمل لم يجد الوقت الذي يسعفه فيستطيع العودة الى ذلك الفن من البحوث العلمية الموفقة، يتمها ويختتم أبواب التاريخ،.. وكم أشار في رسائله الخاصة الى موضع هذا وذاك من عنايته، والقدر الذي انتهى إليه منه في استكمال البحث<sup>(٢)</sup>.

ويوم لحق رحمه الله بالرفيق الأعلى على الصورة الفجائية، عادت ألسنة المحبين وأقلام النقاد على أهليه وذويه وتلاميذه — وفيهم صاحب الخطوة الأخير محمد سعيد العريان — تستنجزهم وعداً في إخراج بقايا التاريخ،.. يحسبونها تامة التأليف والتصنيف<sup>(٣)</sup>، وقد عانى العريان الأمرين في الوقوف على أصولها وفصولها، حتى تيسر له جمع ما أمكن جمعه، وأخرجته في الشكل الذي وافى به لجزء ثالث فقط !

كان أوله الباب الرابع وفيه تاريخ الشعر العربي حيث عقد الرافعي فصلاً خطيراً لنشأة الشعر عند العرب — وقد أتى فيه على ما للعلماء من تحقيقات في أولية الشعر، ورجح هذه الأولية بالسنين المئات السابقة للبغثة المحمدية — وزاد على الفصل ودرسه الباعث الفني والأثر النفسي في اختراع الشعر عندهم، وفرق بين الرجز والقصيد، وتكلم في الآيات المرسله،..

ثم استرسل في الحديث عن أول من قصد القصائد، وعده غير امرئ القيس، وغير المهلهل،.. ليتحدث من بعد عن الشعر في قبائل.

(١) أحاديث العريان وأبي رية وحسين مخلوف وماري يني

(٢) الرسائل — ١٨٢، ١٨٧، ١٩٤، ١٩٦.. الخ.

(٣) العريان — تمهيد آداب العرب ٣ — ٧

العرب، ومكانة الشعراء عندهم.. لينتهي الى بيوتات الشعر والشعراء المعروفين فيها.

وجعل الفصل الثاني لسيما الشعراء؛ فعرض لألقابهم وحالات الإنشاد.. كما مر على مقلبيهم ومكثريهم — حيث ألم بحالاتهم النفسية في الارتجال والبدية، والروية، وما عرف عنهم من أخلاق، ثم نظراً في النبوغ بالشعر وألقابه في الشعراء، وفرق بين الاختراع والاتباع، وبين أنواعه، واستطرد في ذلك حتى عرض لشرطين الشعراء؛ ثم تحدث في طبقاتهم عند الرواة والمصنفين للتراجم، كما أفرد موضوعاً للشاعرات عندهم<sup>(١)</sup>.

وعاد في فصل آخر يورخ لفنون الشعر، وكيف تنوعت على مدى الأيام، فلم يستنكر فن الهجاء عليهم، وإنما عدّه من قبيل التهذيب النفسي والاجتماعي لقيمهم وأخلاقهم، فعرّف الأثرة في القبائل وعند الشعراء وأشار الى أشهر الهجائيين<sup>(٢)</sup>.

وكذلك رأى المديح سُموا في الاعتبار النفسي عندهم.. ولم ينس الأخلاق الطارئة على المادحين من أثر الكدبة الساسانية<sup>(٣)</sup>.

وهكذا يمضي يعرف ويصنّف باقي الفنون الشعرية في الفخر والحماسة والثناء، ثم العزل والنسيب والوصف، بما ينفرد فيه من التخريج والتقل في مثل هذه المحاولة البرّة<sup>(٤)</sup>.

(١) تاريخ آداب العرب ٣ — ٥٥

(٢) تاريخ آداب العرب ٣ — ٨٦

(٣) تاريخ آداب العرب ٣ — ٩٦

(٤) تاريخ آداب العرب ٣ — ١٣٦

ثم انصرف الى الشعر الأخلاقي، ومال ناحية العقائد الاجتماعية عندهم، — وقد وجدَها من أرقى ما وصلت إليه الفلّسات الانسانية الحديثة، « فلا تكادُ تجدُ مبدأً من المبادئ الاجتماعية التي قررتها الفلّسة إلا ولهُ ذكرٌ في شعر هؤلاء الأعراب »، واستشهد بقول زهير بن أبي سلمى :

على أكثرهم رزقٌ من يعتريهم وعند المقلين الساحة والبذل

فقال :

« مهما أدزت مذاهب الاشتراكية، ومهما قلبت آراء علمائها، لا تجدُ صوابه يخرجُ عن هذا البيت »<sup>(١)</sup>.

وبعد أن تكلم في الحكمة والنضج العقلي في تجارب الحياة، وقال في الشعر الإلهي، وذكر الملاحم، وعرج على الشعر العرفاني — الصوفي،.. انثنى فتحدث عن هزة النفس في شعر القصص والهزل، ونظر كذلك في منظومات المتأخرين في المتن<sup>(٢)</sup>.

وانتقل بعد ذلك الى تاريخ الفنون المحدث في الموشح، فأوجز القول في سبب اختراعه، وأشار الى الملحون فيه، وبين أنواعه، وعرف بأشهر الوشاحين، وعرف كتب التوشيح بما لا يزال الحديث عن الفن مستطاباً، وإن لم يزد على ما جاء به شيئاً ذا بال<sup>(٣)</sup>.

(١) تاريخ آداب العرب ٣ — ١٣٦

(٢) تاريخ آداب العرب ٣ — ١٥٥

(٣) تاريخ آداب العرب ٣ — ١٦٠ — ١٧٠

ولم ينسَ الصناعاتِ الشعرية التي أولعَ بها المتأخرون، كالدوبيت والمواليا، والزجل،.. الخ.

أمّا البابُ الخامس فلا أثرَ لَهُ في هذا الجزءِ الثالث !.

وأمّا البابُ السادس فقد كانَ خاصّاً بالشعرِ الجاهلي — وقد فصلَ فيه القول في حقيقةِ المُعلّقات، وتحدّثَ في أميرِ الشعرِ امرئِ القيس، وقالَ في شاعريته، وأشارَ الى شُهرته، ثم عقد الموازنة بين مُعلّقتهِ البكر، وقصيدةِ علقمة، وأبانَ عن أثرِ التخليد فيها.

ونظَرَ في شعرِ طرفة، وأبانَ عن مذهبهِ الشعري،.. وكذلك وقَفَ مع حكيمِ الشعراء، زهير بن أبي سلمى،.. حتى خلُص الى خشونة الشعرِ الجاهلي<sup>(١)</sup>.

أمّا البابُ السابع فهو للعربيةِ وآدابها في الأندلس، وقد تحدّثَ فيه عن عروبةِ الأندلس، وحضارةِ العرب فيها، ومبلغِ عنايتهم بالعلم، ولعهم بالأدب في القرون الثالث والرابع الى ما بعد السادس، فأشارَ الى أدباء ملوك الأندلس، وأفرد عصر الوزراء، ووقف عند نكبة ابن رشد الفقيه الممتحن<sup>(٢)</sup> ثم طاف بأدباء الجزيرة وعلمائها، ونظر في علومهم الفلسفية ومقاومتها للحدثان، وما كان من انتشارها، وآخرتها، حتى مصرع العربية في الأندلس، وتنصُّرها وترجمتها في أوربة<sup>(٣)</sup>. وما كان من أثر ديوان التفتيش في ذلك التاريخ الأليم،.. والباب يكاد يؤلّف منهاجاً ضافياً مُستقلاً بتمامه.

(١) تاريخ آداب العرب ٣ — ٢٢٥

(٢) تاريخ آداب العرب ٣ — ٣٠٥

(٣) تاريخ آداب العرب ٣ — ٣٤٥

والكتابُ بعدُ يخلو من البابين الثامن والتاسع.. وجعل البابَ الحادي عشر للصناعاتِ اللَّفْظِيَّةِ كالقوافي المشتركة والتشطير والتخميس.. الخ<sup>(١)</sup>.

وكنْتُ قد كَلَّفْتُ جملةً من طلبةِ الدراسات العليا للجدِّ في دراسةِ موضوعاتِ المنهاج، وتوثيقها بشواهدا، لتنظم من ثَمَّ وفاءً للعربيةِ وأديبها الرافعي.

\* \* \*

### و — تاريخ التأليف عند العرب

وقد كان موضوعُ البابِ العاشر من الجزءِ الثالث هذا.. وما نُشِرَ منه لم يكنْ موزَّعاً في فصولٍ، وقد عَرَضَ فيه للتأليفِ عندهم، وتكلَّم في كُتُبِ الطبقاتِ، وأدبِ التراجم، ثم عَرَفَ بالمختاراتِ والحماساتِ، وأبانَ عن أثرها في الحفظ والتدوين<sup>(٢)</sup>.

ولا يكادُ المرءُ ينظرُ في المطبوعِ من هذهِ التواريخِ حتَّى يُلْغَ به الحزنُ مدى غيرِ قَريبٍ، على ضياعِ الأيامِ بين يَدَيِ الرافعي، ونوازِعِ همِّه، ويأسى أنْ لم يَعُدْ الى المؤلِّفِ في نوعٍ من إعادةِ النظر والتنقيح، وكتابةٍ لبعضِ جوانبه وإتمام ما قد مضى فيه.

والجديرُ بالملاحظة أنه كان قد ذكر للشيخ أبي رية في مطلع عام ١٣٥٠ هـ — ١٩٣١ م أنه يُبْدَأُ في أول الصيف بإعادة طبعِ التاريخ،

(١) تاريخ آداب العرب ٣ — ٣٧٠

(٢) تاريخ آداب العرب ٣ — ٣٥٨ وما بعدها

وقد « استَجَمَعْتُ له مادةً طَيِّبةً لزيادتها فيه، ولكنّها ستكون كلّها حواشي على الأصل، لا يَزِيدُ فيه شيئاً، وإنّما يعلّق عليه ؛ لأنه رأى هذا الأصل — في الجزء الأول — متيناً متماسكاً كاملاً في نفسه، وفي كلّ هذه المدة التي مضت على الكتاب لم يزدْ واحد حرفاً واحداً على هذه المادة، إلّا فيما يتعلّق بفصل تاريخ اللغة إذ كُشِفَتْ أشياء جديدة »<sup>(١)</sup>.

ولا نَدْرِي بعدُ أين ذهبت نسخته الخاصّة التي يمكن أن تكون عليها التعليقات والحواشي. وعسى الله أن يفتح علينا بقاء نقف فيه عليها خدمةً للأدب والفن.

\* \* \*

### ز — تاريخ رسائل الحبّ عند العرب

وهو الذي جعله مقدّمةً لديوان رسائل « أوراق الورد » الذي مرّ التعريف به في الرسالة الوجدانية.

وهذا التاريخ الفريدُ حَرِيٌّ بالدراسة والتأمّل، فقد أثار محاولات في ردّ ما ذهب إليه الرافعي من رأي إلى المبالغة<sup>(٢)</sup> حين قال :

« أما بعد،.. فإننا لا نَعْرِفُ في تاريخ الأدب العربي كلّ رسالة كُتِبَتْ من هذا الطراز — على كثرة كتاب العربية وكتبها، وعلى ما أبدعوا في فنون الترسّل،..

(١) رسائل الرافعي ١٩٦، وانظر ١٩٤ وعزمه على توسيع الكتاب وزيادة مواد كثيرة إليه..

(٢) زكي مبارك — البلاغ — سبتمبر/أيلول ١٩٣١ م، النثر الفني ٢ — ١٦٢.

وعلى أن هذه العربية من أوسع لغات الدنيا فيما خصت به المرأة، وما أوقفتها على صفاتها، وما أفاضته على العاطفة إليها، وما حفلت به من ألفاظ معانيها، حتى لو أمكن أن ترسل لغات الأمم ألفاظها تستبق في المعاني الانسانية، لما كان السبق إلا للألفاظ العربية، ولا أوفى على الغاية إلا المعجم العربي وحده.. وقال :

جاء في آدانا العربية من المؤلفات المعجمية التي أفردت للحب ومعانيه وأهله وأخبارهم، ونوادرهم وأشعارهم كتباً مجردة منها كتاب «الزهرة» الذي ألفه فقيه أهل العراق الإمام محمد بن داود الظاهري<sup>(١)</sup> — وهو القائل : ما انفكت من هوى منذ دخلت الكتاب !..

ثم «الظرف والظرفاء» للوشاء<sup>(٢)</sup> و «مصارع العشاق» الذي وصفه أبو بكر البغدادي السراج<sup>(٣)</sup> وجعله اثنين وعشرين جزءاً — وهو أصل لكل ما وضع بعده من الكتب ك «مصارع العشاق» و «ديوان الصبابة» و «تزين الأسواق» و «منازل الأحباب» وغيرها.

ومع كل ما رأيت فقد انفرد الشعر وحده بالنسيب والعزل، وأوصاف الجمال.. وليس لنا كتاب واحد في رسائل الحب، ولا نعرف أحداً من البلغاء كتب فيها<sup>(٤)</sup>.

(١) الإمام محمد بن الإمام داود الظاهري، صاحب المذهب الظاهري الذي تشنع آخر الأمر — من أذكاء العلم ولد ببغداد عام ٢٥٥ هـ وتوفي بها مقتولاً عام ٢٩٧ هـ. كان يلقب عصفور الشوك لنحافته، له كتاب الزهرة طبع بجزئين، وكتاب الانتصار وغيره.

(٢) أبو الطيب محمد بن أحمد عالم بالأدب محترف للتعليم له كتاب (الموشى) طبع وقد سمي به ت ٣٢٥ هـ.

(٣) أبو محمد جعفر بن أحمد السراج أديب عالم بالقراءات له مصارع العشاق، طبع — ت عام ٥٠٩ هـ.

(٤) أوراق الورد — ٧



ولعلّ هذا راجع إلى أنّ تلك الطريقة استقلّ بها الشعرُ في الصّدْرِ  
الأول، فقلّد الباقيون، وأخذوا في مدّرجتهم من بعد.

وقد نصّوا على أنّ للشعر مواضع لا ينجح فيها غيره من الخطبِ  
والرسائل، بل هو يفضّلُهُما<sup>(١)</sup>.

ثم هم يخصّون الشعرَ بالعزل والنسيب والتشبيب ؛ لأنّ الشعرَ أيسرُ  
عملاً، وأخفُّ مؤونةً في هذا الباب ؛ إذ يُعين بقوافيه على الإبداعِ  
في المعاني، فإنّ القافية كثيراً ما تختلّع المعنى وتلهيه الشاعر.. ثم  
الشعرُ يصحبه الوزنُ واللحن، فيعينُ بنسقه أيضاً كما يُعين بقوافيه،  
ثمّ تعجّء ألفاظه مقدودة مفصلة فتكون حيلةً ثالثة، ثم هو يكتفي منه  
بالبيتين، والأبياتِ اليسيرة فيجيء في كلّ ذلك على اتّمه وأحسّنه،  
ويقوم به.. بخلاف الكتابة ؛ فلا يُجدي فيها السطران والأسطر القليلة  
في رسالة تصفُ الحبّ، وما سترَ هناك يفضّحُ هنا، وما أعانَ في  
الشعرِ يخلد في النثر، والشعر إجمال والكتابة تفصيل<sup>(٢)</sup>. قال :  
« ولم نقف على كتابٍ أفردَ لرسائلِ الحب، ولو أنهم كتبوا فيها لجمعت  
كغيرها وأفردت بالتدوين<sup>(٣)</sup> ».

\* \* \*

(١) أوراق الورد — ٧

(٢) أوراق الورد — ٨

(٣) أوراق الورد — ١٤

## ٤ — القصة

عَرَفَ العربُ الأسطورةَ رَدْحاً من الزمنِ حتَّى عُدَّ لهم عصرٌ تخريفيٌّ، تَمَلَّوْا منه الكثيرَ من التخدير، وإن رافَقَهُمْ في ذلك إحساسُ التحذير الذي لا يَنْقُطُ عن خصائصهم.

ومن هذا التحذير والصَّخوةِ الذهنيَّةِ ولدتِ الروايةُ عندهم ؛ تُعْنَى بالخبرِ والأثرِ تنقلهما بأمانةٍ وصدق، وتفتنُ لذلك فنوناً من القولِ والإيراد، فكان إلفها بالسُّجعِ، ورِدْفُها بالضَّننِ، ووقْعُها بالرُّجْزِ، وقيامُها بالشعرِ، وانتظامُها بالبيان،.. حتَّى حَالَتْ إلى حالٍ أدبيَّةٍ تنهضُ بالفكرِ وتنعطفُ بالحياة.

وما لبَّتِ الروايةُ أن أُخِذَتْ على عاتِقها أمانةُ التاريخِ القوميِّ للأمةِ ؛ فزَايَلَتْ التخاريفَ، وباعدتِ الأساطيرَ، وأمدَّتِ الأخبارَ بالإسنادِ، وأرستِ الذكرَ بمعالمِ المعرفة، وأعدتِ الناسَ لموعِدٍ مع القدرِ.

ولَمَّا كَانَ الانبعاثُ المحمديُّ بتجديدِ حياةِ العربِ والدينِ والإسلامِ، صارتِ الروايةُ علماً وعملاً، يحوطُه القومُ بحصانةٍ من التراجمِ والسيرِ، وأصولِ من الفقهِ والجرحِ والتعديلِ، وقوامٍ من رصيدِ الأخلاقِ، وجعلوا ميدانها الأولَ في الحديثِ النبويِّ الشريفِ، ثم اتَّسعَ فشَمَلَ اللُّغَةَ والشعرَ والبيانَ، فكانتُ دليلَ المُفاصحةِ الأولِ في ذلك كُلِّه، وعُنوانَ المثاقفةِ والمرافقةِ في العلمِ والحياة.

ولكن القصةَ لم تنتهِ، وإنما حافظتْ على محتوئِ الروايةِ بالنقلِ والمشافهةِ، وكذلك كَانَ الاجتهادُ من ثمَّ منالةٍ عطائٍ فكريٍّ عظيمِ. وكان التحريرُ العربيُّ والفتحُ الاسلاميُّ قد أنهيا كثيراً من شواذِّ الحياةِ الجاهليةِ بما فيها من مظاهرِ الوثنية، وبقايا التخاريفِ،.. ولكن المُستعربين

والمُتَمَسِّلِينَ مِنْ كَهَنَةِ الْمَعَابِدِ وَسَدَنَةِ النِّيرَانِ وَأَحْبَارِ يَهُودٍ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ التَّبَطِّ وَالزُّوَاقِيلِ، تَحَوَّلُوا إِلَى قُصَّاصٍ يَرَوُّونَ مَا كَانَ لَهُمْ فِي أَيَّامِهِمْ مِنْ صُحُفٍ وَأَخْبَارٍ، يُلْفِتُونَ بِهَا الْأَنْظَارَ إِلَيْهِمْ؛ فَيَجْتَمِعُ النَّاسُ،.. لَا تُوقِفُهُمْ سُخْرِيَةُ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ كَعْبِ الْأَخْبَارِ<sup>(١)</sup> وَلَا طَرْدَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِلْمَوَابِدَةِ مِنْ جَامِعِ الْكُوفَةِ وَقَوْلِهِ الرَّائِعَةِ: أَقْصَصْ وَالْقِرْآنُ مَا يَزَالُ غَضًّا طَرِيًّا ۱؟

وَكَانَ الْفَتْحُ الْإِسْلَامِيُّ مِيقَادَ جِهَادٍ وَاجْتِهَادٍ، لَا يَتَسَّعُ لِغَيْرِ الرَّوَايَةِ وَالتَّارِيخِ، فَلَمْ يَفْسَحْ قَادَةُ الْفَتْحِ أَوْ الْمَجَاهِدُونَ فِي الْمَجَالِ لِلتَّخَارِيفِ أَوْ التَّهَاوِيلِ وَمَا يَلِي الْأَسْطُورَةَ وَالْقِصَّةَ أَنْ يُعْرَفَ، أَوْ يَكُونَ لَهُ نَوْعٌ شَأْنٌ ۱. وَلَكِنْ دَوْرَةُ الْأَيَّامِ الْعَرَبِيَّةِ بَعْدَ تَوَقُّفِ الْفَتْحِ إِثْرَ الْإِنْقِلَابِ الْعَبَّاسِيِّ وَتَنْفَسِ الشَّعْبِيَّةِ، فَقَدْ وُجِدَ نَوْعٌ مِنَ التَّرَاخِي فِي الْحَيَاةِ الْقَوْمِيَّةِ، مَا لَبَثَ أَنْ تَحَوَّلَتْ بِهِ الْحَضَارَةُ الْوَلِيدَةُ إِلَى مَلَقَى لِلْأَفْكَارِ وَالْأَخْبَارِ، إِلَى جَانِبِ مَنْقُولَاتِ التَّرْجَمَةِ عَنِ الْأُمَمِ. إِذْ تَحَوَّلَ الْمَوَابِدَةُ أَوْلَكُ وَأَهْلُ الْأَخْبَارِ إِلَى قُصَّاصٍ، وَأُعِدَّتْ لَهُمْ الدِّكَاءُ فِي الْمُنْعَطَفَاتِ؛ يُحَدِّثُونَ النَّاسَ عَنِ الْأُمَمِ الْغَابِرَةِ، وَالْمُلُوكِ وَالْعِشَاقِ فِي قِصَصٍ يَلْفَقُونَهَا وَيَزِيدُونَ فِيهَا، حَتَّى كَادَتْ تَأْتِي عَلَى أَخْبَارِ الدَّوْلَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَتَقْهَرُ تَارِيخَهَا ۱.. وَكَادَ الْعَالَمُ الْحَدِيثُ لَا يَعْرِفُ الْعَرَبَ إِلَّا عَنْ طَرِيقٍ مَا تَأَلَّفَ مِنْ ذَلِكَ فِي أَلْفِ لَيْلَةٍ وَلَيْلَةٍ، وَسِوَاهَا وَمَا فِيهِمَا مِنْ سَفَاهَاتٍ.

(١) كَانَ إِسْلَامُ هَذَا مُتَأَخِّرًا، وَيُزَعَمُ أَنَّهُ يَحْفَظُ التُّورَةَ، وَيَكْثُرُ مِنَ الْإِدْعَاءِ فِيهَا بِمَثَلِ قَوْلِهِ: مَكْتُوبٌ عِنْدَنَا فِي التُّورَةِ. كُلَّمَا عَرَضَ مَوْضُوعٌ أَوْ شَوَّهَ شَيْءٌ،.. وَبَيْنَمَا هُوَ يَرِافِقُ الصَّحَابَةَ وَفِيهِمُ الْفَارُوقُ الْعَظِيمُ رَأَوْا حِمَارًا نَاقِقًا قَرَبَ حَائِطٍ (بَسْتَان) فَالْتَفَتَ ابْنُ الْخَطَّابِ إِلَى كَعْبٍ وَقَالَ: أَهَذَا مَكْتُوبٌ عِنْدَكُمْ فِي التُّورَةِ ۱؟

ولولا أدبُ التراجم والسير والمناقب لُقضي علينا أن لا نرى القصة الحديثة، ولا ننعم بالرواية الصالحة، ولا نلقى الأحداث بقلب سليم.

\* \* \*

أما الفن القصصي المستحدث في العربية وآدابها، فقد كان بعد أن تمكّن الغربُ من الشرق العربي الاسلامي، في غزوه القنصلي والتجاري، فالعسكري والاحتلال،.. ثم في هذا الاستيطان الفكري والفني الذي يتشبّه بكثيرٍ من ذوي الأدب والإنشاء والخيال المُلثاث بالقراءات المترجمات،. حتّى زَعَم أحدهم « أن قراءة القصص والروايات من أنجح الذرائع في نشر الأفكار الصحيحة، ومن أكبر أسباب التهذيب، ولها الشأن العظيم في البلاد المتمدنة »<sup>(١)</sup>.

وكذلك نَفَر الموارنة وغيرهم من الطوائف من ديار الشام والعراق الى أوربة يُعَدّون أنفسهم للمهمة، ويتخلّصون من دَفْع الجزية للدولة الإسلامية (العثمانية) ١.

وكما أولع القصاص القدامى بأخبار الأمم السالفة، نَفَر التراجمة المحدثون الى قصص تليماك الأسطورية — اليونانية<sup>(٢)</sup> وروايات تاريخ أوربة وملوكها، وأخبار حركاتها السياسية والاجتماعية، وما تَعَلَّقَ به فرح أنطون في المقدمة منهم<sup>(٣)</sup>، والمذاهب الفكرية وما نَقَلَهُ عادل

(١) المنار ٦ — ذو الحجة ١٣١٥ هـ — مايو ١٨٩٩ م

(٢) المسرحية — للدسوقي

(٣) نقل قصص الكسندر دوماس في هذا الشأن.

جبرة<sup>(١)</sup>، وكذلك التاريخ العربي على هامشِ قصص الحبّ النصرانية وما أعاد كتابته جورج زيدان<sup>(٢)</sup> وعلى هامشِ السيرة التي أعدها طه حسين<sup>(٣)</sup>.

غير هذا القصص الذي أُعطي صفة الواقعية فكان فيه وحده ثمرة ذلك الاستيطان الثقافي<sup>(٤)</sup>.

وكان مفيد الشوباشي قد اخترق مُدْعياً أنَّ أمهات القصص المأساوية مأخوذٌ عن أصولٍ وموافقاتٍ ووقائع لها مكانها في التاريخ العربي<sup>(٥)</sup> بينما عدَّ الأنصارُ قصصَ الزهاد والمتصوفة في ديار الشام خاصة من تأثير ذلك المدّ الصليبي في القرون الماضية<sup>(٦)</sup>.

وربما فات المؤرّخين لهذا الفن أن القصص الحديث يعتمدُ فنوناً في الكتابة وأساليب من التلفيق، وما يسمّى بالعقدة من مواد توغل في خصائص الأمم التي وقعت تحت تأثير تواريخ لها في الخرافة والأساطير ورموزها مُتّسع.

كما أنَّ هذا القصص لما تنقطع جذوره من الوثنية أو الحال اليهودية التي تجتمع في التوراة وملفات الأخبار من أساطير الأمم القديمة، بما فيها من خيال مريض وغير متّزن، ألف أحوال الغرب في الحروب الطاحنة الممتدة بينهم بالعداوة والبغضاء، وما فيها من خوارق المصادفات.

(١) ترجم أفكار ماكس نورودو الصهيوني فايتلي الكتاب العرب بها.

(٢) ما سُمّي روايات تاريخ الاسلام — وقد نشرت غير مرة.

(٣) أعاد كتابتها بالعربية بعدما وقّف عليها (على هامش الكتب القديمة) لَسُنْتُ بيف.

(٤) عمر الدسوقي — المسرحية — ٨٠

(٥) المكتبة الثقافية — ٢٠

(٦) الأنصار ٣٧ — صفر ١٣٦٣ هـ

وقصص أوربة لا تكفيه تخاريف اليونان أو ميثولوجيا الأمم، وإنما يمتدُّ في مبادل الحضارة والشهوات، وإن التفت أحياناً يحاول مسحاً من مفهومات الفلسفة ومذاهب الفكر ومسارب الاجتماع،..

وليس القصص كذلك عند العرب، وإنما هو فصلٌ من فصول التاريخ المتصلة، شهد له القرآن العظيم في قوله تعالى ﴿لَنَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ، وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ سورة يوسف/٢.

على أن ما عاناه الوضَّاع وأصحاب الأهواء من أهل الملل والنحل من قصص كان مستهجنًا عند العرب، وربما كان في موقفهم الأول من القرآن العظيم والدعوة المحمدية وضرب الأمثال بقصص الماضين، ما يفسر لنا ذلك. ﴿وقالوا أساطيرُ الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرةً وأصيلاً﴾ سورة الفرقان/٥، ما يدلُّ دلالة واضحة على مبلغ الصدق في القصص العربي الذي هو وقائع وتواريخ،.. وذلك ما يميّزه عن خاصية الترف الخرافي في أساطير الأمم البائدة كالعجم، وعن مقدرة الصنعة الفنية في عرض تكاذيب الحضارة على أنها من الحياة<sup>(١)</sup>.

ومن هنا كان رأي الرافعي الأول في القصة، مُنكراً على كاتبها ضياع فاعليتهم في محاولات إنشائهم لها :

« ألا ترى أن تلك الروايات تُوضَعُ قَصَصاً، ثم تُقرأ فتبقى قَصَصاً،.. وإن هي صنعت شيئاً في قرائها لم تزد على ما تفعل المخدرات ؛

(١) الأنصار ٣٧ - صفر ١٣٦٣ هـ.

تكون ساعةً مسكنات عصبيةً الى حين، ثم تنقلب هي بنفسها بعد قليل مُهَيَّجَاتٍ عصبيةً»<sup>(١)</sup>.

وكذلك ساء ظنُّه بها وسيلةً، ولا سيَّما بعدما استبان له من غاياتها وأهدافٍ تراجمتها ومُنشئها من أثرٍ سيِّئٍ في أخلاقِ الأمة<sup>(٢)</sup>. ومع ذلك كانت الحياة الأدبية تستديرُ بجيلِ الرافعي وتقرُّبه من القصَّة بين آونةٍ وأخرى، حتَّى كان في آخر أيامه يَجْمَعُ بينها وبين المقالة والتفسير والمثل في التحليل في بيانٍ فلسفي عُرف به. وكان في مطلعِ حياته قد حاولَ كتابةَ القصَّة مُستطيلًا للفوز بمسابقة، ولكنَّه أخفق فلم ينل ما تصوُّرَ إليه نفسه<sup>(٣)</sup>، وعادَ في آخر أيامه يضيفُ إليها سَطْرًا فيه خاتمتها<sup>(٤)</sup>.

وصاغَ القصَّة شِعْرًا في ديوانه، وكان له منها « تاج محل » و « طلاق جوزفين » وغيرها<sup>(٥)</sup> وفي ديوان ( النظرات ) له فيها « شباب العصر »<sup>(٦)</sup> كما كان له من بعد « جوهرة الهوى » صاغَ فيها حكمةً هنديةً معروفة تقول : « كلُّ الانسانية في نصفِ الإنسان » وقصَّةُ « دموع الصبا » و « على الكوكب الهاوي » وغيرها<sup>(٧)</sup> ممَّا عرضنا له في رسالة الشعر<sup>(٨)</sup>.

(١) الرسالة ٤٣، وأنظر أيضاً أسعد حنا — الأسبوع ٣٨ — ١٥/٨/١٩٣٤ م

(٢) العريان — الأنصار — ٣٠ جمادى الآخرة ١٣٦٢ هـ.

(٣) وحى القلم ٣ — ٨٥؛ الرسالة ٧٨

(٤) العريان — حياة الرافعي ٢٠٤

(٥) ديوان الرافعي ج ١، ج ٢

(٦) النظرات ١ — ٤٢

(٧) انتظر ديوان النظرات التام.

(٨) رسالتنا في الاختصاص (الشعر عند الرافعي). لما تطبع!!

وقد حاول مرةً أن يضع في « موعظة الشباب » روايةً تمثيليةً يصوغها بأسلوبٍ شعري، ويجري الحوار فيها شعراً ونثراً، ولكنها لم ترَ النور<sup>(١)</sup>.

ثمَّ قلَّد المنفلوطي في صياغةِ ترجمةِ قصّة « سَحَقُ اللؤلؤة »<sup>(٢)</sup> : حيث الكونت البخيل « فكتور » والحسناء « لويز » وقد جعلَ الشيخ علي الجناجي يتحدثُ بها، ويَتَنَقَّلُ بهِ في أجوائها بعباراتٍ من الحكمةِ والفلسفةِ والعظَمَةِ البالغةِ ؛ يبحث عن الحبِّ، وينظُرُ في الحفلات التي كانت تغشاها حياة « الكونت » الهرم الغنيّ و « لويز » الشابة المسكينة. ويدخُلُ في المرقص فينصت للموسيقى، ويهيم في الليل، ويعودُ على المائدة في المقصف، حتّى ينتهي بقولٍ مأثورٍ يجعله على لسانيهما : « الفقرُ خُلُوٌّ من المال، ولكن أقبح الفقر الخُلُوٌّ من العافية »... فكتور. « والغنى أن تملك من الدنيا، ولكن أحسن الغنى أن تهناً في الدنيا ».. لويز.

\* \* \*

ولكنه كتب في الفقر والفقراء، وفي الإحسان الاجتماعي، وفي أولاد الشوارع، وغيرها من الموضوعات الإنسانية، ما لَوَّ تهيأ لها قلم الصُّنعة الأوربية في القصص لكتب فيها أرقى مأساة.. ولكن جمالها بقي والحمد لله نصيراً في قُربها من المقالة التي تقدّم التعريف بها.

(١) كان الاعلان عنها في غلاف الجزء الثالث من ديوانه، وفي رسالة لسلامة حجازي أنه أراد الاطلاع عليها.. وربما ضاعت كذلك بينهما مثلما ضاع لها من أخوات!!

(٢) كتاب المساكين — ٧٢



ومن بين النوازع الوجدانية التي كانت تَعْتَرِيهِ في الكتابة عاد فسابق « المقتطف » في قصّة « عاصفة القدر » التي عاقَ بها اللجنة عن سبقها، فامتدّت إليها يدُ يعقوب صرّوف تَخْتَصِرُهَا وتَقْتَطِعُ أَجْمَلَ ما فيها، فتضيع عليه أفكاراً فلسفية وأخرى عرف بها في مجالِ القناعة والدين<sup>(١)</sup>.

وفيها قصّة فلاح جاهل أحرق أهل بيته من زوجته وأمها ؛ تَخْلِيصاً للنساء من عارٍ يحاوله ابنُ العمدة المتعلم العائد من أوربة<sup>(٢)</sup>.

ويُقَرِّرُ النقاد لهذهِ القصة بالتوفيق والسداد — وإن لم يَتَّقَ منها غير الذي نَشَرَتْهُ المقتطف<sup>(٣)</sup>.

ولكنّ الرافعي أغري بعد ذلك بسنوات، ولا سيّما بعد اتصاله بمجلة « الرسالة ». فعادَ يكتبُ القصص، بفنّه هو الذي يجعلُ منها ميداناً لآرائه وأفكاره وطبيعته التعليمية، وسجيته العربية البادية أحياناً والتي تلتفُّ مع الحياة بإيجابية خاصة في مذهبٍ اتفق له بلا قصْدٍ ولا معاناة<sup>(٤)</sup>.

وهكذا تميّز الرافعي شيئاً في هذا الفن، وعُرفَ له من ثمَّ القصصُ بنوعيه : التاريخي والاجتماعي الحديث وفيهما يبرزُ مذهبه الإنساني في دينه ومروءته.

(١) رسائل الرافعي ١٣٢

(٢) المقتطف ديسمبر ١٩٢٥ م

(٣) وحي القلم ٣ — ٩٣

(٤) العريان — ٢٠٦

فمن النوع الأول له « اليمامتان » قصة الفتح العربي لمصر، وسجايا العرب الفاتحين، وتعريب مصر الفرعونية واقتنان القبط بمزايا الاسلام. وقصة « سمو الحب » التي حكاها على لسان عطاء بن رباح، والزاهد عبد الرحمن ( القس ) وما وَقَعَ له في حب سلامة المغنية التي رأى فيها برهان ربّه<sup>(١)</sup>.

و « بنته الصغيرة » قصة زواج بنت سعيد بن المسيب بتلميذه الفقير إيثاراً له على ابن الخليفة، ولكي لا يخزيها الله في قصر بالدنيا.. و « رؤيا في السماء » التي فتنت « فيلكس فارس » فترجمها الى الفرنسية وأعد لها دراسة<sup>(٢)</sup>.

وغير هذه وتلك من القصص التي كان يقف على أصل بعضها في رواية من التاريخ يبنى عليه ما شاء من فن الكتابة في هذا المضمار. ومن النوع الثاني : قصة « الأجنبية » التي حكاها على لسان ولده « محمد »، و « المشكلة » التي عاناها أحد تلاميذه، و « الجمال البائس » و « الطائشة » و « القلب المسكين » وما إليها..

ولما كان العريان رحمه الله قد عرّف بهذه القصص وأرّخ لها، ثم أخرجها على حدة، فتكفي الإشارة إليها هنا، وعلى من يريد دراسة قصص الرافعي أن يهتدي لذلك. وإن كانت عندي شواهد وأمثلة لمقالاته أكثر مما هي قصص تنفرد بفنها.

(١) أحسب فيها قصة ابتعاده عن ندي « مي » بعدما تأمر ادريس راغب باشا ورهطه لايقاعه في المأساة..

(٢) أنظر — رسالة المنبر الى الشرق العربي — فيلكس فارس

## ٥ - الخطابة

ذلك الفنُّ العربيُّ الأثيرُ الذي كانَ عنوانَ الجسارةِ الأدبيَّةِ عندهم،  
ودليلَ ثباتِ الجنانِ في نُفوسِهِم، ومجالَ تَرْفُعِ الفُصحاءِ، وتعاظُمِ البُلغاءِ  
في تاريخِ الأُمَّةِ، ومَنالَةَ تربيةِ أبنائها على مهارةِ الحياةِ وبسالةِ العيشِ  
والمروءاتِ.

وكانَ الرافعيُّ في مَطْلَعِ حياته نَزَّاعاً الى الخطابة، في شَوْقٍ ذي  
ولهٍ الى منابرِها، وأسواقِها،  
وكانتِ أَيَّامُ الأُمَّةِ تُعْري أُمثالَهُ بَغْشِيانَ منتدياتِها ورحابِها.

ويومَ أنشأَ الشيخُ رشيدُ رضا الحسيني جمعيةَ الدعوةِ الاسلاميَّةِ،  
خَفِقَ قلبُ الرافعي لها، وأثَّارتْ وجدانَهُ، فاستطارَ بها سَجَّاعاً خطيباً<sup>(١)</sup>  
وقد تَخَذَ هو وصحبُهُ مسجدَ البهِّيِّ في طنطا مقراً، وأعلَنَ في الناسِ  
« جمعيةَ السَّنةِ الاسلاميَّةِ » لتكونَ شعاعاً من شمسِ الاسلامِ على حدِّ  
تعبيره<sup>(٢)</sup> إذ قال :

« نظرتُ نظرةً في الوجوه، فاذا هي تضحكُ وتعيسُ وتُنْكِرُ وتَعْرِفُ،  
ولذا منها الكاشِرُ نايِهِ والمُرَّائي بَعْيِيهِ، والمُصْبِحُ بأذنيهِ... »

يَبْنِنا هذا يَفْقَدُ الخطوبَ لتُعَمَّ الكروب، إذ غيرُهُ يرتقِ الحوادثَ لتزولَ  
الكروب... »

تَحالُفٌ وتخالُفٌ، وتألُفٌ وتجانُفٌ، وصحبَةٌ وبغضاءٌ، كأنَّهم لأنفُسِهِم  
أعداءُ. فتركتُ العينَ وما تراه، وسمعتُ القرآنَ يقولُ :

(١) رسالته الى الشيخ رشيد في ١٠ ذي الحجة ١٣١٧ هـ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾<sup>(١)</sup>. فاطمأنَّ الخاطرُ، وقرَّ الناظرُ، وسمعتُ النداءُ؛ كيف يكونُ الاهتداء؟ والنبيُّ ﷺ يقولُ: ( الدينُ النَّصِيحَةُ ).. فما زالَ الهاجسُ يتردَّدُ في الفكرِ، والانفعالُ يَتَلَجَّجُ في الصَّدْرِ حتَّى غَلَبَتْ سطوتُهُ، وَقَوِيَتْ شوكتُهُ، فاستنجدتُ بِالْعِلْمِ، وسألتُهُ بَيَانَ الحكمِ،.. « الخ »<sup>(٢)</sup>.

ويمضي بعد ذلك يتحدثُ عن اجتماعيهم وخطاباتهم في الناس وكيف « انحنَّتِ الرؤوسُ، واثقلتِ النفوسُ، ودَمَعَتِ العيونُ، وخشعتِ الأصواتُ، وَعَنَتِ الوجوهُ للحَيِّ القيومِ ».

لكنَّ الرافعي وصاحبيه محمود الشيبيني وعبد الفتاح المرقى لقوا من عداءِ طلبةِ الجامع الأحمدي لهم ما أوهن عَزَمَهُم، وحلَّ الجمعية الصغيرة<sup>(٣)</sup>.

على أن الشاميين في مصر كان لهم نشاطهم الاجتماعي، وكانت لهم جَمْعِيَّاتُهُم، ومنها جمعيةُ « الاحسان » التي عُرِفَتْ بأسواقها السنوية ومنايرها الخطابية التي تَجَمُّعُ صُفُوفُ الأدباء والمفكرين والشعراء، وكان الرافعي الخطيبُ الدائم فيها. وعلى منبرها كان يُلقى شعره وأحاديثه التي اجتمَعَ بعضها في مؤلفاته، وخطبه التي ذَهَبَ بعضها الآخر بعد إلقاءه ارتجالاً، وضاعَ غيره في ملفاتها وأوراقها.

وهناك كان يَلْقَى الأدباء والمفكرين، وتقوِّمُ بهم حياة أدبية من

(١) الآية — ١٠٥ — المائدة

(٢) المنار — المحرم ١٣١٨ هـ — ٢٠ مايو/أيار ١٩٠٠ م

(٣) الريان — ٣٦٨

المحاورَة والمناقشة والنقد، تحدّثَ عنها غير واحد من أولئك<sup>(١)</sup>.

وفي «جمعية الشبان المسلمين» كانت له الحظوة ولا سيّما بعد فوزِ نشيدِهِ (الشباب المحمّدي) الذي صار نشيدَ الأُمّة في الآفاق، ما فُتّتَ تنشيدهُ فرقُ الإنشاد في المناسباتِ القومية.

حدّثني السيد محب الدين الخطيب رحمه الله : أنّ الرافعي في هيأته وصُورته، كان يَسْتولي على سامعيهِ — وإن خائنه صوته في كثير من الأحيان !.

وكانت جمعية «الثقافة العربية» قد دَعَتْهُ للخطابة في اجتماعها الأول، وإذ لم يجدِ استجابةً لدعوتهَا من شيوخ المعهد الأحمدي وطلبيته، عَادَتْ به ذَاكرته إلى أيامِهِ الأولى حيثُ يقفُ أمثالُ هؤلاء من كلِّ دَعْوَةٍ لا تنبعُ من صفوفهم.. فمالَ في خُطْبَتِهِ هذه الناحية، ونعى عليهم أن يتجاهلوا واجِبَهُم في مثل هذه الدعوة، وكان فيما قاله :

«إنّ أديباً كبيراً<sup>(٢)</sup> قالها مرّة منذ ثلاثين سنة : «لو قَعَدَ حماري في الأزهرِ خَمْسَ عشرة سنة لخرج عالماً» وما نُحِبُّ أن يقولَ بها اليوم أحدٌ، لِيُلْجِدَ في كفاية طائفةٍ من أهل العلم والدين هم أكرمُ علينا.. قالها الرافعي بحماسة وانفعالٍ، وفي لهجةٍ خطابيةٍ ثائرة، فكان لها صدَى أودى بالجمعية نفسها<sup>(٣)</sup>.

وجاء في المقالاتِ التي كانت تُنشرها «السياسة» عن رجالِ التاريخ

(١) السياسة — ٢٦ نوفمبر ١٩٢٧ م

(٢) هو الأديب الجليل عبدالله فكري

(٣) العريان — ٣٦٩، وقد حدّثني بذلك حسنين حسن مخلوف، أحد أعضاء الجمعية.

المصري : أن الرافعي خطبَ في حفلةٍ بعد الأمير أحمد شوقي، وحافظ  
ابراهيم وخليل مطران، فكانَ يجمعُ الأدبَ والعِلْمَ مع الظرفِ الذي  
يملكُ بهِ قلوبَ سامعيه<sup>(١)</sup> بما يملكُ من وسائلِ الإقناعِ والأمثلةِ  
وجوامعِ الكلمِ..

وكان كذلكَ في سائرِ الأسواقِ الأدبيةِ والخيريةِ التي تُقامُ ويدعى  
إليها. ولعلَّ آخرَها « الرابطةُ العربية » التي دَعَتْ — فيما دَعَتْ إليه  
— الى قيامِ « الدولةِ العربيةِ المتحدة »<sup>(٢)</sup> وقد كانت له بُعْوةٌ فيها<sup>(٣)</sup>  
وكان أحدُ أبناءِ عمومته من أعضائها العاملين<sup>(٤)</sup>.

وللرافعي في الخطابة أثرٌ في شخصيتهِ ومثاري ذاتهِ وتضوُّعِ وجدانه،  
وجِلْوَةِ فكرِهِ وإشراقِ ضميره ؛ يُسيطرُ بها على ما كانَ يخلفه صوتُهُ  
الدقيق الذي يُشبهُ صُراخَ الأطفالِ<sup>(٥)</sup>.

وكان له من بعضِ تلامذتهِ، وأبنائهِ مَنْ يتكلَّفُ إلقاءَ خطبهِ المكتوبةِ  
وبعضَ شعرِهِ في أيامهِ الأخيرةِ في جمعيةِ « الشبان المسلمين »  
وغيرها<sup>(٦)</sup>.

(١) السياسة — ٢٦ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٢٧ م

(٢) فيها كتاب للمجاهد العربي — أمين سعيد،

(٣) راجع ما سبق — الهلال/يناير — كانون الثاني ١٩٢٠ م.

(٤) هو عبد الغني الرافعي؛ الذي كان في ريعيل الثورة العربية الأولى، حتَّى أضْحَى أنشط  
الأعضاء في الرابطة العربية بل أمينها، حدَّثني بذلك زيد محمد رشيد الرافعي، وانظر  
أدهم الجندى — أعلام الأدب والفن.

(٥) ذكرُ العريان، وعرفهُ محمد بهجة الأثري من بعد.

(٦) منهم ع. المنعم خلّاف، وفكري أباطة، وابنة محمد منير الرافعي — انظر الفتح —

١٥/٢٠٣ محرم ١٣٤٩ هـ — ١٢/٦/١٩٣٠ م

## ٦ — التفسير

جماعُ علمِ العرب في القرآن الكريم، له المقامُ الأسمى عند علمائهم، ولهم فيه شروطٌ لا يتوفَّرُ عليها غيرُ أفذاذِ المجتهدين من أعلامهم، ولهم فيه مذاهبٌ مُستوفاة.

وقد كان الرافعي مع القرآن من أول يوم<sup>(١)</sup> يقرأه على أبيه الشيخ، ويستمعُ الى تفسيره، ثم ينظرُ في آيه الحكيم وكيف استنبط منها الفقهاء الفتاوى والأحكام، وأذاع المفسرون البيان والاعلام، وقامت المذاهب والآراء، وتنامت الأفكار والاجتهادات.. وعرف كيف دارت علومُ العربية كلها في نحوها وصرفها وبلاغاتها ومعانيها وكلماتها من حولِ فهمِ القرآن العظيم، فكان الإمام الخالد لأُمته أبداً، كيف اتجهت بها الأيام.

ويوم أرخ الرافعي للقرآن باعتباره الأدبي، وغني بعلمه في أي الذكر ونزولها، والقراءات على ما مرّ بنا، وفي الموضوعات التي أدارها من حول إعجازه تعالى للبشر جميعاً أن يأتوا بمثله، فكانَ عنده مُعجِزاً في حروفه وكلماته، وعباراته وأحكامه التي يجمعها قوله تعالى فيها بكلمة «آية» والله المثل الأعلى — ولكنه جاري الأقدمين في المصطلح<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

(١) الرسالة — ٨٣ قرآن الفجر — وحي القلم ٣ — ٢٨

(٢) منهم عبد القادر الجرجاني.

وَحَدَّثَ أَنْ شَجَرَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَدْبَاءِ الْمَتَأَثِّرِينَ بِالْحَيَاةِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي طَرَأَتْ عَلَى الدِّيَارِ الْإِسْلَامِيَّةِ بَعْدَ ضِيَاعِ وَحَدَثِهَا، وَمَضَرَعِ خِلَافَتِهَا، وَتَوَزَّعِ أَقْطَارِهَا أَسْلَاباً يَبِيدُ الْإِنْتِدَابَ وَالْحِمَايَةَ، وَمَنَاطِقَ النُّفُوزِ، وَشَيُوعِ الْأَفْكَارِ الْمُخْتَلِطَةِ الْمُجْلُوبَةِ، وَالْمَذَاهِبِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ الَّتِي عَادَتْ تَوَزَّعُ النَّاسَ فِي أَحْزَابٍ وَجَمَاعَاتٍ وَطَوَائِفَ، فَاهْتَبَلَهَا الرَّافِعِيُّ فَرَصَةً يُعَوِّدُ فِيهَا إِلَى ذَلِكَ التَّأْرِخِ لِأَدَبِ الْقُرْآنِ ؛ يَنْشُرُهُ، وَيُضَيِّفُ إِلَيْهِ شُرُوحاً وَهُوَامِشَ تُعِينُ عَلَى الْقَصْدِ.

ثُمَّ بَدَأَ لَهُ أَنْ يَتَحَرَّى أَسْرَارَ الْقُرْآنِ فِي الْإِعْجَازِ، فَخَطَّ لَذَلِكَ مِنْهَاجاً جَدِيداً، وَلَكِنَّهُ وَجَدَ أَنَّ ذَلِكَ يَسْتَتَبِعُ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَصْنُفٌ فِي التَّفْسِيرِ عَلَى حِدَةٍ<sup>(١)</sup> وَبَقِيَ إِلَى آخِرِ أَيَّامِهِ يَتَهَيَّأُ لَهُ، وَيَحْتَفِي لِإِخْرَاجِهِ، ثُمَّ تَشْغَلُهُ الشَّوَاغِلُ وَيَعْوِقُهُ الْمَرَضُ عَنْهُ !.

وَكَانَ الْعَرِيَانُ قَدْ تَحَدَّثَ عَنْهُ بَعْدَمَا شَهِدَ فُصُولاً تَامَّةً التَّأْلِيفِ، وَأُخْرَى مُجْمَلَةً الْفِكْرَةَ مُشَاراً إِلَى مَصَادِرِهَا، فَهُوَ :

أ — يَتَحَدَّثُ فِي صَدْرِ الْكِتَابِ عَنِ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ؛ فَيَرُدُّهَا إِلَى أُصُولٍ غَيْرِ الَّتِي اصْطَلَحَ عَلَيْهَا عُلَمَاؤُهَا مِنْذُ كَانَتْ، وَيَضَعُ لَهَا قَوَاعِدَ جَدِيدَةً، وَأُصُولاً أُخْرَى..

ب — يَتَحَدَّثُ فِي الْفَصْلِ الثَّانِي فِي بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ وَأَسْرَارِ إِعْجَازِهِ مُسْتَرَشِداً بِمَا قَدَّمَ مِنْ أُصُولٍ.

ج — يَتَنَاوَلُ فِي الْفَصْلِ الْأَخِيرِ مِنَ الْكِتَابِ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ عَلَى

---

(١) الْبَلَاغُ الْأُسْبُوعِي — ١٠/١٢/١٩٢٦ م



أُسلوب من التفسير ؛ يبين سرَّ إعجازها في اللفظ والمعنى والفكرة العامة، وهو صُلُبُ الكتاب ومادُّته.

ويضيفُ العريان : أنه أتمَّ بضعاََ وثمانين آيةً على هذا النَّسق الى آخر يوم كان معه<sup>(١)</sup> وكان الرافعي قد نَشَرَ منها تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صِدْقَاتِهِنَّ نَحْلَةً﴾<sup>(٢)</sup> بعدما قامت زوبعة في الصحف تتحدّث عن الزواج ؛ ترتقي الآراء الآنيّة، وتجازف ببعض وجهات نظر غير مسؤولة<sup>(٣)</sup>.

كما نشر منها تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَرَأَوْدَتُهُ الَّتِي هِيَ فِي يَتَيْهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾<sup>(٤)</sup> كما ضمّن بعض مقالاته وقصصه ألواناً من ذلك التفسير، كما جاء بعضه في ثنايا رسائله<sup>(٥)</sup>.

ومن الطريف أنه يشيرُ الى الشيخ أبي رية في إحدى الرسائل أنَّ يَنْسَخَهَا له، ويعيدها إليه ؛ لِيَضُمَّهَا إلى مذكراته وجُذَازَاتِهِ في الموضوع<sup>(٦)</sup>.

وكان العريانُ قد حَدَّثَنِي بخبرِ الكتاب<sup>(٧)</sup> وكذلك حَدَّثَنِي محبُّ

(١) قبل وفاته بنحو عام — راجع العريان — ٢٨٩

(٢) الآية ٤ سورة النساء

(٣) الرسائل ٢٠٠، وقد راجعت (كوكب الشرق) فلم أقف عليها!!

(٤) الآية ٢٣ سورة يوسف

(٥) الرسائل — ١٧٤، ٢١٤، ٢٣١، ٢٥٦... الخ.

(٦) الرسائل — ٢٧٨

(٧) وأحسب أنه قال لي يوماً أنه ضمَّنه بعض مقالاته، ولكن مسوداته بقيت في مكتبته!

الدين الخطيب ومحمود محمد شاكر ومحمد الرافي، وكلّ كان يهيبُ  
بأدباءِ العربيّة أن يُعينوا على إخراجِه، ولكن : أين هو الكتاب الآن ؟!..  
لا أدري !.

\* \* \*

### مثال التفسير .

منه قوله في تفسير الآية ٦٦ من سورة الأنبياء ﴿ قَالَ أَتَتَعْبُدُونَ  
مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ : ظَهَرَ لي أن « شيئاً »  
في الآية بدل « رِزْقاً ».. وهذا الإعراب نبّه إليه المفسّرون وجعلوه  
ضعيفاً، مع أن فيه كلّ القوّة؛ لأنّ المراد من الآية أن هؤلاء يعبدون من  
دُونِ اللَّهِ ما لا يملكُ لَهُمْ رِزْقاً في السماوات والأرض..

وهنا يعرض هؤلاء أنفسهم بأنّهم يعتقدون أن معبوداتهم تملك ذلك،  
والآ.. فلمَ عَبدوها ؟! فجاءت لفظة ( شيئاً ) لبيان أن ذلك كلّهُ وهمّ  
وتخيّل وضلال، إذ لا معنى للرزق إلا إذا كان شيئاً لا وهماً فقط.

الى أن يقول : « فشيئاً » هذه مُعجزة الآية كلّها، ويستحيل أن  
يتنبّه إليها عقلٌ بشري ويجيء بها في هذا الموضع، وتكون النتيجة  
التي ترمي إليها الآية بهذا التعبير : أنّ المعبود الحقّ هو القوّة الأزلية  
المالكة للإحياء المطلق، أي الواحد الأحد، وهو الله لا غيره، وما  
عدا ذلك فهو من اختراع أوهام الناس.

\* \* \*

ومنه تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ، فَاسْتَعْصَمَ،

وَلَيْتَن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمَرُهُ، لِيَسْجَنَنَّ، وَلِيَكُونَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾  
(يوسف / ٣٢).

الآية هذه في هذا الموضع من السياق لوحة تعبيرية كاملة ؛ تصور  
الفضيلة والرذيلة بكل درجاتهما وأشكالهما وألوانهما..<sup>(١)</sup>.

ومجمل ما يُؤخذ بالإيجاز أنها تريد يوسف — عليه السلام —  
لما تعرض له هذا الجمال الفاتن جمال امرأة العزيز، وهاجمه بكل  
أسلحة الأنوثة المشحونة التي تُشبه في حاجتين ما يشبهه آخر اختراع  
حربي لما تعرض لهذا الجمال بهذه القوة، وبتلك الرغبة المشبوبة المُلهبة  
في نفس تلك المرأة الفاسقة المُترامية على حبيبها — وقد وضع نفسه  
موضع الأعصم، أي الوعل الذي يعتصم بقمة الجبل، فلا يمكن إنزاله  
منه بأي حيلة من حيل الصييد.. ومزيد السين والتاء على الفعل  
مما يدل على العمل النفساني الطبيعي ؛ فهي هنا تصور يوسف —  
عليه السلام — وقد جاهد نفسه طويلاً حتى استطاع أن يحولها الى  
هذه العصمة، وأن يضعها هذا الموضع الممتنع.

ثم إنه الذي يكون في قمة الجبل، لا بُد من صعوده على قدميه  
ومُعاناة كل مشاق الصعود وشعوره الشعور الطبيعي الواقع الذي تدل  
عليه نبضات قلبه القوية المُتداعية، شعوره من ذلك أنه يقاوم جاذبية  
الأرض نفسها.

---

(١) راجع سيد قطب في (التصوير الفني في القرآن) و « في ظلال القرآن » وتأمل الأخذ  
دون إشارة ١١ وعفا الله عن الزيات والعباس خضر اللذين أحجما عن المُضي في الموضوع  
— الرسالة ٧٣٧.

إنَّ يُوسُفَ عليه السلام في مقاومته المرأة الفاتنة، واتَّجاهه في عَكْسِها، فلا أقوى ولا أدهش من تصوير الآية بجاذبية المرأة في هذا الشكل.. ثم يقابل هذه الفضيلة مع إمكان الرذيلة بالرذيلة المُتَدَنِّية في السفح والحضيض التي كانت عليها امرأة العزيز الراغبة المتهالكة عليه المخالفة للطبيعة المركبة في نظر الأنثى من الامتناع والتأبى<sup>(١)</sup>.. الخ<sup>(٢)</sup>.

## ٧ — الآبدة

هي الحكمة المرسلّة في المثل، بجوامع الكلم التي يكون منها خلاصة التجربة في الحياة.. وقد تردحتم فيها الخواطر والفنون، وتكون شعاراً فيه البيان والحسّم.. وكان الذي تنبأ للرافعي أول أيامه أن يبلغ هذا المبلغ من الحكمة هو الزعيم مصطفى كامل حين كتب في التعريف بديوانه ونقده يقول :

« .. وسيأتي يومٌ إذا ذكر فيه الرافعي قال الناس : هو الحكمة العالية مصوغة في أجمل قالب من البيان »<sup>(٣)</sup>.

وللآبدة مكانٌ بين في تاريخ آداب العرب ؛ تمثّلت في فنونٍ جاءت تعرّف بها وتُنسبُ إليها، وتجتمع من حولها بجهازها من الأدب والبيان ومآثر المُحسّنات التي ترافقها.

(١) انظر الضياء — ٤ رمضان ١٣٤٩ هـ — ١٩٣١/١/٢٤ م

(٢) ومن غريب ما كان أنه نحلها والآية الأخرى (يوسف حنا) ثم عادَ فضمنها قصته

في (سمو الحب) الرسالة ٧٧ — وحي القلم ١ — ١٠٣

(٣) حياة الرافعي — ٢٣

ولعنايةِ الرفاعي بصياغةِ العبارةِ للجُملةِ العربيةِ الجديدةِ تَفَجَّرَتْ على لسانِهِ «أوابدُ» منها تَنَاثَرَتْ في ثنایا كِلَمِهِ، وتوزَّعَتْ فنون كتابتِهِ، وتقلَّبَتْ بين كُتُبِهِ ورسائلِهِ.

حفل بها «حديث القمر» فأشرق بالعربية على معانيها.. وجعلَ «كتاب المساكين» منها عناوين وشعاراتٍ له، وجاءت «رسائل الأحران» ترفلُ فيها، وفتحَ «السحاب الأحمر» فصلاً عامراً لها، وتناثرت بينَ «أوراق الورد» كأنها أوراد أخرى.. وكان منها ما كادت تنفرد به أخيراً في «كلمةٍ وكُليمةٍ» فتولَّفَ جزءاً فريداً من أدبه ١. منها :

\* لا ثقةَ لي بمتخلِّقٍ لا دينَ له ؛ فإنَّ الخُلُقَ يصلُهُ بحظِّ نفسه أكثر من يصلُهُ بواجبات الناس.. ولا بفيلسوفٍ مُلجِدٍ ؛ لأنَّ الفَلَسَفَةَ تمزجُهُ بالمادَّة أكثر مما تمزجُهُ بالإنسانية.. ولا بمُصلِحٍ يَنسَلِخُ من الدِّينِ ؛ لأنَّ إصلاحَهُ صَوْرٌ من غُرُورِهِ، ولا بعالمٍ جاحِدٍ ؛ لأنَّ عِلْمَهُ كهندسةِ الشوكة، كلُّها من أجلٍ آخرها<sup>(١)</sup>.

\* لم تُعدِ التربيةُ في كلِّ أُمَّةٍ تَرْبِيَةً للنَّاسِ، ولكنَّ للمطامعِ، فما يكبرُ جيلٌ إلا كَبُرَتْ معه الحربُ.

\* إذا رَأَيْتَ كِبَرَاءَ قومٍ هُمُّهُمْ عَيْشُهُمْ فاعْلَمْ أَنَّهَا أُمَّةٌ مَأْكُولَةٌ، فلو شَهِدَتْ السِّيفُ المَاضِي لقاتل بَروحَ مَلْعَقَةٍ، ولو رَجَعَتْ بِالْأَسْطُولِ الجَبَّارِ، لَصَلَّصَلْ كَأَنِّيَةِ المَطْبَخِ<sup>(٢)</sup>.

(١) كتاب المساكين — ٢٧٩

(٢) الرسالة — ٦٤

\* ينفر الإنسان من الكلمة التي تحكمه، ولكنه في الحب لا يبحث  
إلا عن الكلمة التي تحكمه<sup>(١)</sup>.

\* من مضحكات السياسة إنشاؤها أحزاباً، يقوم بعضها كما تُعرَسُ  
الخشبَة لتكون شجرة مثمرة.

\* الفرق بين كاتبٍ مُتَعَفِّفٍ وكاتبٍ مُتَعَهَّرٍ ؛ أن الأول مثقلٌ بواجبه،  
والثاني مثقلٌ به الواجب.

\* التمدن والفقر كصاحبين معاً ؛ ذي رجلين وأعرج، يمشيان في  
طريق؛ فكلما انفسحت خطوات الأول، زادت عثرات الآخر<sup>(٢)</sup>.

\* شرُّ المُصلحين رجلٌ مُسلطٌ على أمةٍ ؛ يحكمها بعقلٍ كبيرٍ فيه  
موضعٌ فكرةٍ مجنونة<sup>(٣)</sup>.

\* إذا رأيتَ قوماً عَمَّهم الكلبُ في بابٍ ما يفتخر به، فاجعلْ  
هذا وحدهُ في تاريخهم باب ما سَقَطُوا به<sup>(٤)</sup>.

\* \* \*

والحكمة بعد ضلالة المؤمن كما جاء في الأثر، تدلُّ بوضوح على  
نُضج تجربة المرء في الحياة.. وقد كان القرآن الحكيم أبلغ في إرسالها  
﴿ومن يُؤتِ الحكمة فقد أُوتِيَ خيراً كثيراً﴾<sup>(٥)</sup> الآية. وقد سارت بأمثالها  
الركبان، وتقلّبت الأزمان.

(١) الرسالة — ٦٤

(٢) الرسالة — ٧٦

(٣) الرسالة — ٥٤

(٤) الرسالة — ٩٤

(٥) البقرة — ٢٦٩

وكان الرافعي شديد الكلفة والاحتفاء بالحكمة والآبدة، ومن أجل  
أن يُفرد لها مكاناً في أدبه، راح يفتش عن «فصح الكلام» في  
كلام العرب وأوابدهم، ليَجْعَلَ منه كتاباً في اللغة يجمعُ إليه فصح  
الكلام مما وَرَدَ في الكتبِ المختلفة، يجمعُ بينها بطريقته في الضمِّ  
والتاريخ، ثم يلحق به أوابده، أو يظهرها فيه.

وكان الكتاب أوراقاً غير مرتبة ولا كاملة تحتاجُ الى مطالعة، ثمَّ  
الى ترتيب وتبويب، ولم يكن قد أطلعَ عليه أحداً إلا أن يتمَّ<sup>(١)</sup>.  
وعسى أن لا يكون قد لحقَ بما فُقدَ أو ضاعَ من آثارِهِ!

\* \* \*

---

(١) رسائل الرافعي — ١٦٤





---

# الباب الثاني

## الرافعي الكاتب

بين  
المحافظة والتجديد



## الفصل الأول

### الكتابة عند الراجعي

لقد عُرف الراجعي كاتباً أديباً مشاركاً، له في الكتابة العربية صفحات يُشار إليها بالانفراد، وتوصف بالامتياز من ناحية الأسلوب، وتُنعت بما حفلت به من المعاني والجد في شعبها وتوليدها،.. حيث تكون شخصيته واضحة في معظم الفصول التي أنشأها، والأبواب التي كتب فيها، والموضوعات التي تحرّى فيها التجديد، والتفسيرات التي حاول بها فقه الحياة بدراسة وتأمل — على وفق ذلك التحليل الذي عاناه، والالتزام الذي كلف به، منذ يوم حمل أدبه تبعه الاجتهاد في الفكر، والوفاء بالعطاء، وجعل له ذلك الطبع العربي والسمت الذي عُرف به كما عُرف له.

ولو تحرّينا الحقيقة الوثيقة التي مكنت له من تلك المنزلة في الأدب والكتابة العربية، لوقفنا على معالم في تلقّيه وتربيته وثقافته، ولأدركنا جوانب في شخصيته — وإن امتدت في الموضوعات، وصارت إلى ما صارت إليه، فإنما دلت على مبلغ الحرص عنده في آفاق حياته كلها !.

عُرف عن الأسرة العُمرية الجديدة — الراجعية — كلفها الشديد بالفقه وعُلومه الإسلامية، وكان منهم فقهاء الأحناف والقضاة في شتى

أقطار الدولة الإسلامية، منذ عهد جدّهم شيخ المشايخ أبي عقيل المنبجي، ولا سيّما في العهد الأخير للدولة العثمانية<sup>(١)</sup>.

لا يكادُ يشبُّ الطفلُ فيهم عن الطوقِ حتّى يتعهّدوه بالتأديبِ وألوانِ التهذيبِ التي تَطْبَعُهُ على الطّاعةِ وتقديسِ الدّينِ، ويُغرقوه في الثقافةِ التقليديّةِ للأسرةِ بجوانبها التطبيقية والعلمية<sup>(٢)</sup>.

وما أتمّ أدبنا العاشرة من عمره حتّى جَمَعَ القرآنَ كلّهُ حِفْظاً وتجويداً بأحكامِ القراءة<sup>(٣)</sup> إذ حالَ المرضُ بينه وبين أن يَلْتَحِقَ بالمدارسِ النظامية، ولكنّه اختلفَ على الكتابِ، ونالَ حُظوةً كبرى عند أبيه الشيخ عبد الرزاق الرافعي — كبير القضاة في الغريبة — فكان الأثير بين إخوانه، الذي يَلْتَقَى عنهُ دروسَ الفقه واللغة والتاريخ؛ تلكَ الموضوعاتِ التي ما برحتْ مادةَ الثقافةِ القوميّةِ وأصولها، على ذلك المثل الذي عُرفَ للأمةِ في فضلياتِ أيامها.

ولمّا حانتِ التفاتةٌ من أبيه الشيخ، التّحقّقَ هو بمدرسةٍ «دمنهور» الابتدائية، في الوقتِ الذي لم يَنْقَطِعْ فيه عن مُلازِمَتِهِ، والأخذِ عنه، وتحضيرِ دُرُوسٍ في علومِ الحديثِ والأصولِ عليه<sup>(٤)</sup>.

وكان ميله بذلك الى الفُصحى في المخاطبةِ قد نماه، وتعهّدَ ذلك الأخذَ الخاص الذي غرسَ فيه حُبَّ العريّةِ وأهلها وبيانها.

(١) راجع ما سبق، وانظر في «السالنامة العثمانية» لتجد أسماءهم في قضاء متسلمية البصرة واليمن وطرابلس الغرب،.. أو الاستنطاق في الديار الشامية،.. وقد عدّ «كرومر» المندوب السامي البريطاني في مصر أربعين قاضياً منهم في القطر المصري — بتقريره لعام ١٩٠٥ م.

(٢) أحمد محمد عيش — المقتطف ٩١ — ٥٢٩

(٣) الرسالة — ١٨٧ قرآن الفجر — ١٠ ذي القعدة ١٣٥٥ هـ — ١٩٣٧/٢/١ م

(٤) الهلال — يناير ١٩٢٧ م

## المبحث الأول الأديب الذواق

عُرِفَ الرَّافِعِيُّ بين مُعاصِرِيهِ بِالْأَدِيبِ الذَّوَاقِ<sup>(١)</sup> الَّذِي يَتَحَرَّى الْبَيَانَ فِي الْمَعْنَى، وَالْحَلَاوَةَ فِي الْكَلِمَاتِ وَلَهُ قُدْرَةٌ عَجِيبَةٌ فِي تَأْمُلِ الْحُرُوفِ وَاسْتِخْرَاجِ التَّفْسِيرَاتِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ<sup>(٢)</sup>. وَهُوَ نَفْسُهُ كَانَ يَرَى لِلذُّوقِ أَصَالَةً تُتَعَهَّدُ بِالْفَرْسِ وَالنَّمَاءِ، وَالتَّرْبِيَةِ وَالتَّهْذِيبِ<sup>(٣)</sup>.

لَوْحَظَ عَلَيْهِ فِي مَدْرَسَةِ الْمَنْصُورَةِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ — وَهُوَ يُفَصِّحُ فِي حَدِيثِهِ وَيَمْتَازُ بِمَقَالَتِهِ<sup>(٤)</sup> وَيَتَعَيَّ عَلَى رِفَاقِ الدَّرْسِ ارْتِضَاخَ السِّتْهِمِ لِلْعَامِيَّةِ<sup>(٥)</sup> الَّتِي تَذُوبُ فِيهَا الْحُرُوفُ وَالْكَلِمَاتُ بَيْنَ لَفْظِ السَّادَةِ الْأَعَاجِمِ وَعَبِيدِهِمْ فِي الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ آنَ ذَاكَ.

وَهَذِهِ الْحَالُ قَدْ أَوْدَعَتْهُ مِنْ يَوْمِئِذٍ طُمُوحًا خَاصًّا : أَنْ يَغْلِبَ أَبَدًا فِي امْتِيَازٍ، وَأَنْ يَسْلُكَ فِي مِضْمَارِ الْأَخْذِ الْعِلْمِيِّ، وَاسْتِعَابِ الدَّرُوسِ،

(١) وحي القلم ٣ — ٢٨٤

(٢) العريان — ١٨٥ وانظر تفسيره تعالى ﴿وَرَأَوْتَهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ — الرسالة — ٧٧

سمو الحب، وحي القلم ٣ — ١٠٣

(٣) السياسة — فبراير ١٩٢٤ م — وحي القلم ٣ — ٣٨٨

(٤) و(٥) — أحمد عيش — السابق

والإمام بجوانب المعرفة، وتَذَوُّق ذلك كله مع الأدب والفن والجلال والجمال. فما عادَ يَنْقُطِعُ عن الدراسة النظامية حتى تَهَيَّأَ لَهُ في مكتبة أبيه العامرة بالمُصَنَّفَات<sup>(١)</sup> والجامعة أَشْتَاتاً من نوادرِ كُتُبِ الفقه والعربية — ما يَمَلَأُ عليه أَفَقُهُ الدراسي الطموح، وذَوْقُهُ الأدبي، ويفيضُ عليه بأنواعٍ أخرى من الدروس التي اعتدَّ بها أبداً، ولَهَجَ بالشكرِ والثناءِ المُستطاب لِفَضْلِ ذلك الوالد العظيم في هذا الشأنِ من تعليمه وإعدادِهِ لِحَمَلِ تَبِعَةِ الفكرِ العربي المؤمن فيما بعد<sup>(٢)</sup>.

وإذا ما عَلِمْنَا أَنَّهُ لَزِمَ أَبَاهُ الشيخ في بَيْتِهِ حتى اختارَهُ الرفيقُ الأعلى الى جوارِهِ، أدركنا ذلك المدى الذي تَهَيَّأَ لَهُ فيه مثالُ الرعاية التربوية والثقافية، وتَعَهُدُ العُرسِ فيه، والإثمار في كلِّ — وقد قال له ذات يوم: «إِنَّكَ يَا وَلَدِي تَجَاهِدُ في سَبِيلِ اللَّهِ»<sup>(٣)</sup>.

تلك العبارة التي كان لها وَقْعُ الوحي والإلهام — غير التوجيه والسداد — لَمِنْ هَيَّأَتْهُ العِنايةُ الإلهيةُ لأمرٍ من الأمور، وَمَسَّتْ من فؤادِهِ مكاناً حَلِيّاً بالْبُثِّ والنجوى، حتى عَدَّتْ لَهُ من ثَمِّ آيَةِ الإلهام التي تَطْلُعُ عليه بما يَفْتَحُ اللَّهُ لَهُ من آفاقِ العِلْمِ وَرِحَابِ الفِقه، وميادين الدُّعْوَةِ والمُنَافَحَةِ دُونَ ذلك السبيل، وفي ذلك الأسلوب البياني الذي تحرَّاهُ مُذْ ذَهَبَ الى ذلك الوالدِ في سَحَرِ يومٍ من شهرِ رمضان — وقد

(١) العريان — ١٨

(٢) رثى الرافعي أباه الشيخ بقصيدة عامرة — المقتطف ١٩١٩/٩ م وتحدَّثَ عنه في الهلال ١٩٢٧/١ م وأشار الى فضله في ذكرياته عن الصحافة — كلُّ شيء — ٣ يناير ١٩٣٤ — ونخلد أثره في نفسه — الرسالة ١٨٣، ١٨٧، ١٨٩، الخ. وقد فاتَ الفاضل ضيف الله محمد الأخضر كلُّ هذا — راجع نثر الرافعي — ٩٤.

(٣) أحمد عيش — السابق

انْبَعَثَ فِي جَوِّ الْمَسْجِدِ صَوْتُ غَرْدٍ رَخِيمٍ يَشُقُّ سَدَفَةَ اللَّيْلِ مِثْلَ رَنِينِ  
الْجَرَسِ تَحْتَ الْأَفْقِ الْعَالِي، وَهُوَ يُرْتَلُّ الْآيَاتِ الْأَخِيرَةَ مِنْ سُورَةِ النحل:

﴿أَذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَجَادِلْهُمْ  
بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ  
بِالْمُهْتَدِينَ \* وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ  
خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ \* وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ، وَلَا  
تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ \* إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ  
مُحْسِنُونَ﴾.

قال : أمّا الطفلُ الذي كانَ فيَّ يومئذٍ، فكأنما دُعِيَ بكلِّ ذلكَ ليحملَ  
هذه الرسالة، ويؤدِّيها إلى الرَّجُلِ الذي يَجِيءُ فيه من بعد<sup>(١)</sup>.

ومن هنا ندرك أن تلك المُلَازِمَةَ للوالدِ الرَّاعي كانت ذات أثرٍ بعيدٍ  
في الاثنينِ معاً،.. ففي الوقت الذي يَنْدَفِعُ فيه أديُّنا إلى المخاطرةِ  
بالرأي، ومحاولةِ الحياةِ في غيرِ سبيلها القويم<sup>(٢)</sup> نجدُ ذلكَ الأبَ  
يَكْبَحُ جماحَ الفُتُوَّةِ وطماحِ الشَّبابِ في ابنه يَخْشَى عليه الدُّوبانَ في  
خِصَمِ الْأَحْدَاثِ الْمُتَغَيِّرَةِ بِسُرْعَةِ الْإِنْتِقَالِ بِالحياةِ السِّياسِيَّةِ والاجتماعيةِ  
والفكريةِ آنذاك.

وإِبرُ الرافعيِّ بأبيه من بعدُ، مثلاً فريدٌ في حُسْنِ التَّربِيَةِ والإعدادِ  
معاً ؛ فقد انطَبَعَ على غِرارِهِ، وكان سِرُّ أبيه في مواصلةِ الدُّرسِ وسعةِ

(١) الرسالة — ١٨٧ السابق (الآيات ١٢٥ — ١٢٨) :

(٢) لاحظ ما سبق من نحو نهيه عن الالتحاق بالصحافة أو الاضطراب في السياسة.

الاطلاع والظهور على مُعاصريه<sup>(١)</sup> وكلّ ما يجلبُ الخير والغبطة لأبيه — وهو يرقى سلّم المعرفة صُعداً الى الصدارة في ديوانِ الأدب، والرئاسة في الكتابة، والامتياز في سدادِ الرأي، والمُوافاة في الحكم.

إذَنْ كَانَتْ لأبيه يَدٌ عَلَيْهِ راعيةٌ وموجهةٌ — بعدما اضطفأه من بين إخوته، وآثره بفقهه وعلمه وأدبه، فكانَ كما أَرَادَ شَخْصِيَّةً وانفراداً<sup>(٢)</sup>.

وقد يُضافُ الى ذلك عَطْفُ أمِّه عليه، وإثَارُها لَهُ<sup>(٣)</sup>، بعدما غَلَبَتْ على أيامِهِ الشَّقْوَةُ من قِلَّةِ العافية، ولم يُكْتَبْ له التوفيقُ في الحياة المُتحرِّكة في التجارة أو الزراعة — كما كُتِبَ لآخوته الآخرين، ممَّن نالوا المقامَ كمحمَّد الكامل، والمكانةَ الاقتصادية كسعيد، والمُحظَّوةَ السياسية كمحمود، والاتجار كالنبيي.

### الحال النفسيَّة

ومن هنا ندركُ أيضاً الحالَ النفسيَّةَ التي كانَ عليها في دراسته، ومحاولاتهِ الأسْتِيقَ مع الأيام، بما تَفَجَّرَ فيه من طاقاتِ الأَلَمِيَّةِ والذكاء<sup>(٤)</sup>.

عُرِفَ عنه في الابتدائية أَنَّهُ كانَ يُثيرُ إعجابَ أستاذِهِ ( مهدي خليل )،

---

(١) العريان — ١٨، وكان خلافاً قد نَشَبَ بين الشيخ عبد الرزاق الرافعي وبعض علماء عصره، حَفَزه — وهو شيخ كبير — الى طلبِ الشهادة العالمية ليستكمل براهينه في جدال العلماء.. وكذلك تَقَدَّمَ أديبنا بكتابه (تاريخ آداب العرب) ليظفَرَ بالمكانة العلمية أمام الجامعة بخاصة!

(٢) كتابنا — الرافعي الإمام — ٢٣٨

(٣) العريان — ١٥

(٤) كانت الزهور/أبريل ١٩١٣ م قد نشرت أبياتاً، وسبقت في من يَعْرِفُها لمن، فظفَرَ الرافعي بالجائزة خمسة جنيهات ذهباً!



فَيَسْتَطِيلُ لَوْضَعِ شَوَاهِدَ لِلْعَرَبِيَّةِ مِنْ نَظْمِهِ<sup>(١)</sup> غَيْرِ الَّتِي يَتَنَاوَلُهَا عُلَمَاءُ  
النحو والصرف واللغة من كلام العرب منذ نشأت تلك العلوم !

وَإِذَا عَرَفْنَا شَأْنَ مَكْتَبَةِ أَبِيهِ، وَمَكْتَبَةِ الشَّيْخِ الْقَصْبِيِّ، وَمَكْتَبَةِ الْجَامِعِ  
الْأَحْمَدِيِّ فِي طَنْطَا<sup>(٢)</sup> — حَيْثُ اسْتَقَرَّ بِهِ الْمَقَامَ بَعْدَ التَّطَوُّافِ مَعَ أَبِيهِ،  
وَتَطَوُّافِهِ هُوَ فِي وَظِيفَتِهِ — وَدَارَ الْكُتُبِ الْمَصْرِئَةِ، تِلْكَ الَّتِي كَانَ يُعْتَرَفُ  
مِنْ مَنَاهِلِهَا، وَيَلْقَفُ مَا حَوَتْهُ نَوَادِرُهَا وَفَرَائِدُهَا، وَيُوجِزُ وَيَنْسَخُ  
وَيَخْتَصِرُ... أَدْرَكْنَا سِرًّا آخَرَ مِنْ أَنْطَوَائِهِ عَلَى نَفْسِهِ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ  
فِي اعْتِكَافٍ خَاصٍّ؛ يَقْرَأُ وَيُطَالَعُ، وَيَعِيشُ مَعَ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ فِي تَارِيخِهَا  
الْكَبِيرِ<sup>(٣)</sup> وَيَتَذَوَّقُ مَعَانِيَهُمْ، وَيَنْطِقُ بِكَلِمَاتِهِمْ، وَيَحْرِّكُ حُرُوفَهُمْ، فَكَأَنَّهُ  
يُشْرِكُهُمْ حَيَوَاتِهِمْ وَعُصُورَهُمْ هَاتِيكَ.

أَجَلٌ... لَقَدْ كَانَ يَعْوِضُ بِذَلِكَ عَنِ الْوَحْشَةِ الَّتِي تَعْتَرِيهِ مِنْ غُرْبَتِهِ<sup>(٤)</sup>  
وَمَرْضِيهِ الَّذِي رَاحَ يَحْجِبُهُ عَنْهُ النَّاسُ فِي أُنْدِيَتِهِمْ وَمُجْتَمَعَاتِهِمْ، فَيَنْطَوِي  
عَلَى عِشْقٍ لِبَعْضِ الصُّوَرِ الْحَسَنَةِ<sup>(٥)</sup> تُخَفِّفُ عَنْهُ بَعْضَ الشَّيْءِ.

وَكَذَلِكَ نَدْرِكُ السِّرَّ الْآخَرَ فِي انْفِرَادِهِ بَيْنَ الْحُقُولِ وَالْبَسَاتِينِ فِي  
نُزَاهَاتِهِ وَخُلُوتِهِ الْبَعِيدَةِ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ<sup>(٦)</sup> وَرِحَالَتِهِ الَّتِي تَهَيَّأُ لَهُ<sup>(٧)</sup>.

(١) محمد صبري — شعراء العصر — ٢١٣

(٢) العريان — ٥٢

(٣) العريان — ١٩

(٤) الرسائل — ١١٢

(٥) أحمد عيش — السابق

(٦) لكنه ما لبث أن حرّم نفسه تلك المتعة التي كان يختلف فيها على ديار أهليه في  
الشام ومغاني لبنان منها خاصة، بعد قيام الحرب وقد تحرك الأولاد بين يديه فكان  
له فيهم نوع حياة تلحق بالاسراف، في الوقت الذي كان فيه يقتّر على نفسه.. وبين =

## العروبة الموروثة

ولو انقلبنا معه — وهو يَخْتَلِفُ على مِصْرٍ، ويقصُدُ دار كتبها العامة<sup>(١)</sup> وَيَلْقَى العُلَمَاء والأدباء، ويتناولُ منهم بَعْضَ المراجع والمخطوطاتِ النادرة، والكتبَ والرسائلِ الوافرة،.. وتأملنا في بقايا دفاتره وأوراقه التي كان يَنْسَخُ فيها ويختصر<sup>(٢)</sup> ويأخذُ من تلك الكتب، عَرَفْنَا كيف تَهَيَّأَ له ذلك المدى الذي أدركه في سبيلِ ثقافته وفنه، وعَرَفْنَا أيضاً كيف تَنَزَّلَتِ العربية ببيانها وبلاغاتها، ومُفرداتها ومعانيها منه منزلةَ الفطرةِ الغالبة، حتَّى حَسِبَهُ «العرين» في أوَّلِ ما بدا له — وكأنَّه رجلٌ من التاريخ قد فَرَّ من ماضيه البعيد، وطوى الزَّمانَ القَهْقَرى ليعيشَ في هذا العصر، ويصلَ حياةً جديدةً بحياةٍ كان يحياها منذُ ألفِ سنةٍ أو يزيد في عصرٍ بعيد<sup>(٣)</sup>.

ولا أحسبُ أنَّ العرين قد فاتَهُ أنَّ الرافعي من الكتابِ الذين تُتَّخَذُ حياتهم ميزاناً لأعمالهم وآثارهم؛ ذلك أنَّ امتيازَ الرافعي بقلبه هو سرُّ البيانِ فيما تداوَلَهُ من معاني الشُّعر والأدب، وهو سرُّ حفاوته بالخواطرِ ومذاهبِ الآراء، وسرُّ إحسانه في مُهمَّتها وتدبيرها،.. وهو سرُّ علوه. والقلبُ بعدُ هو مُربي الذوق، ومَنَاطُ العاطفة، ومثاَرُ الوجدان،.. فكيفَ بِهِ وهو يَتَلَقَّى القرآنَ «غَضًّا طريًّا كأوَّلِ ما نَزَلَ به

---

= يديّ دراسةً له في (الكنية عند العرب) لم تُنشر؛ وفيها يتحدث عن ولده (سامي) وكأنَّه يستغرقُ ذاته في الاستبطان، ويثير الوجدان الأدبي أمام العاطفة الأبوية — انظر الانبعاث القومي للضمير العربي — النصوص.

(١) كان فيها يومذاك اثنان من أبناء عمومته: محمد محمود الرافعي ومحمد توفيق الرافعي.

(٢) من بين بقايا أوراق العرين دفتر للرافعي لخص فيه كتاب ابن النديم (الفهرست).. وقد اختلفت عليه ألوان الحبر، بما يدل على الحرص البالغ في استيعاب مضمون الكتاب.

(٣) العرين — ١٩

الوحي»<sup>(١)</sup>. ويُمكنُ في دَرَسِ العربيةِ «فَيُقيمُ الكتبُ نفسَها مقامَ العربِ والرُّواةِ الذينَ كانوا أَصْلَ دولةِ البلاغةِ»<sup>(٢)</sup>. وعُلماءُ العربيةِ بعدُ «رُواتُهُ، وأدباؤها سَمَارُهُ؛ يأخذُ عنهم العِلْمَ كما كانَ يأخذُهُ المتقدِّمونَ من عُلماءِ هذه الأُمَّةِ فما لَهم، فَنشأَ بذلكَ نشأةُ السَّلفِ؛ يرى رأيُهُم، ويفكرُ معهم، ويتحدَّثُ بلُغَتِهِم، وتَترأى له أحلامُهُم ومُناهم»<sup>(٣)</sup>.

وقد ظلَّ على هذا الدَّأبِ في القراءةِ والاطِّلاعِ إلى آخرِ يومٍ من عمرِهِ؛ يقرأُ كُلَّ يومٍ ثماني ساعاتٍ مُتواصلةٍ لا يَمَلُّ، ولا يَتَشُدُّ الراحةُ لجسديهِ وأَعْصابِهِ — كأنَّهُ من التَّعليمِ في أولِهِ<sup>(٤)</sup>، يَتَسَّعُ بالمَحفوظِ، وَيَتَيَبَّسُّ مِنَ النُّقْلِ، لِيَبْلُغَ الغَايَةَ فِي الْأَخْذِ وَالِاسْتِعَابِ<sup>(٥)</sup>.

وبذلكَ كانَ يتحوَّلُ بالعربيةِ من عَصْرِ إلى عَصْرٍ؛ يُثَبَّتُ لِلنَّاسِ وجودَها المُعْجِزَ، واختلافَها على الأيامِ. وينهضُ بها في عَصْرِ كَادَتْ تُصْرَعُ فِيهِ، وهي تَصْدِي لِحَرْبِ اللُّغَاتِ الغَازِيَةِ، والعامِيَّاتِ وما تَرطُنُ فِيهِ.

وعلى الرُّغمِ من مرضِهِ هَذاكَ الذي كانَ عليه خَيْراً وبركةً من هَذا الناحيةِ، كانَ من الناحيةِ الذُّوقِيَّةِ الأدبيةِ التي نحنُ بِصَدَدِهَا من أَقْرَبِ المُحَافِظِينَ إلى عُنْصَرِ التَّجْدِيدِ المُثْمَرِ، في الْأَخْذِ وَالِاسْتِعَابِ، وله في هَذا الصِّدْرِ أُولِيَّاتٌ طَيِّبَاتٌ مِنْهَا قَوْلُهُ الجَرِيءُ:

«إِنَّ القَوْلَ بَأَنَّ هَذا فَصِيحَةٌ، وهَذا مَوْلَدَةٌ قد مَضَى زَمْنُهُ؛ فَإِنَّمَا

(١) وحي القلم ٣ — ٣٠

(٢) الهلال — فبراير ١٩٢٠ م

(٣) الحريان — ١٩

(٤) الحريان — ٢٠

(٥) أنظر تاريخ آداب العرب وما توسَّع العرب فيه من المحفوظ — ٢٧٤

الباعث عليه قُرْبُ عَهْدِ الرواةِ من فصحاءِ العربِ في الصِّدْرِ الأولِ،  
ثم تَقْلِيدُ عُلَمَاءِ اللُّغَةِ من المتأخرين لأولئك الرواةِ تحقيقاً بِشُروطِ هذا  
العلمِ الذي يحملونه، وبآدابهِ التاريخيةِ»..

وبَلَهَجَةٍ وإثقةٍ وذَوْقٍ مُصَفًّى يتابعُ قوله : « إذا كُنَّا في كلِّ كلمةٍ  
نَقُولُ : نَصُّ الجَوْهري، وابنُ مكرم والمجدُّ، وفلانٌ وفلان.. ونَغْفُلُ  
عَمَّا وراءَ ذلك مما تَنصُّ عليه طَبِيعَةُ اللُّغَةِ من أوزانها وقواعدها، وطُرُقِ  
الوضعِ والاستعمالِ فيها ؛ فما نحنُ بأهلِ هذهِ اللُّغَةِ، ولا بالقائمينَ  
عليها، ولا هي لُغَةٌ عصرنا.. الخ<sup>(١)</sup>.

إنَّ هذهِ رُؤْيَةٌ صحيحةٌ فيها ذوقٌ أديبٍ، ومحاكاةٌ ناقدةٍ، وبصيرةُ  
كاتبٍ أدركَ رُوحَ العصرِ من غيرِ أن يَعتَسِفَ اللُّغَةَ، ولا يَجُورَ على  
عُلَمَائِها.. وكذلك هو التجديد.

على أنَّ بحثَهُ البكرَ في ( الشعر العربي )<sup>(٢)</sup> ودراستَهُ للروايةِ  
وشروطها على الرواةِ<sup>(٣)</sup> وتصديهِ للتأليفِ في آدابِ العرب — وهو  
دون الثلاثين من عمره.. تكفيها مَوْثُوقَةُ البحثِ في مصادرِ دراستِهِ،  
وروافِدِ ثقافته وما توفَّرَ عليه من مادَّةِ العلمِ، وأصولِ البحثِ، ومراجعِ  
النَّقْدِ، والسلوكِ النفسي في ذلك كله.. غير الذكاءِ والتوفُّرِ على أسبابِ  
القَوْلِ والتصنيفِ عنده.

وكان لعواملِ الوراثةِ أثرُها في أخذِهِ وذَوْقِهِ معاً.. فكما عُرِفَ  
عن أميرِ المؤمنينَ عمر بن الخطابِ ( رضي الله عنه ) موقفُهُ في الإسلامِ،

(١) الزهور ١٠ — فبراير ١٩١٣ م

(٢) المنار — ربيع الثاني ١٣١٨ هـ

(٣) المقتطف — مايو/أيار ١٩٠٥ م

وخصيصة الاجتهاد التي زعموا أنه خرج فيها على النص<sup>(١)</sup>.. الى يوم.  
قال حكمته الآبدة : « متى استعبدتم الناس — وقد ولدتهم أمهاتهم  
أحراراً ».. وقولته الآخرة : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ : لا تُدْخِلُوا علينا من غُلُوجِ  
هذه الأمم !؟.. الى موافقات أخريات كان منها صرامته المعروفة وقوة  
بأسه مع إحسانه وعدله.. كذلك انحدرت هذه الخصائص العمرية  
في كثير من رجال الأسرة الرافعية، وكانت مما تميزهم بين بقايا الأقوام  
العربية.

ومن هذه الموافقات ما كان لأدينا من نظرة في فقه الإمام محمد  
بن إدريس الشافعي، وأخذ به بجوانب من اجتهاده، وميله الى  
غرورته<sup>(٢)</sup>، على الرغم من أن معظم أهليه من فقهاء الحنفية الذين  
يُسند إليهم القضاء فيه أيام العثمانيين<sup>(٣)</sup>، ولكنه كان يعتد بالشافعي  
ويرى رأيه في كثير من مسائل العلم<sup>(٤)</sup>.

وربما كان فصله في (الريضة)<sup>(٥)</sup> ثفراً من بعض رأي لأبي  
حنيفة ! — وقد أجهز فيه على واردات أوربة من العائدين بعاداتها  
وتقاليدها.

(١) يوم حرم بعض المؤلفه قلوبهم من أموال الزكاة لتغير الأوضاع والحاجات  
(٢) انظر اليه في : (١) التبرج — الحال — ١٩١٩/٢/٢٠ م، والزهاء — الإمام — ربيع  
الأول — ١٣٤٦ هـ — والرسالة — ١٩٣٧/٣/١٥/١٩٣ م، وحي القلم ٣ — ٣٠٦،  
ولاحظ إشارته إلى الشافعي.

(٣) العريان — ١٤، وراجع ما تقدم في هامش أول الفصل.  
(٤) لاحظ قوله في إمام العبد — وهو يسلكه في طبقات الشعراء — الثريا — يناير ١٩٠٥ م :  
لا أظن أن في بني جلدته شاعراً غيره، وحسب ذلك على طول السودان وعرضه..  
وتأمل كذلك إشارته الى أثر ربيعة الجارية لإمام الحرمين؛ الذي كان إذا غضب قال :  
هذا من بقية تلك الربيعة!! ديوان الرافي ٢ — هامش ٤٩

(٥) السحاب الأحمر — ٥٨

وكان الى جانب هذا القصدير في الحكم العربي، يَحْتَفِي بِجَنْسِهِ،  
ويُتِيهِ بِكَرَمٍ عَلَى سِوَاهُ<sup>(١)</sup> — عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ سَمَوِّ الْمَكَانَةِ  
وِثْبَاتِ الْأَخْلَاقِ<sup>(٢)</sup>. وَلَكِنَّهُ الذَّوْقُ الْأَدَبِيُّ حِينَ يُلْغُ الْقُصُورَ الذَّاتِيَّ مِنَ  
الْمَعَانَاةِ الْقَوْمِيَّةِ فِي الْاِعْتِقَادِ.

ولو عُذْنَا إِلَى رِسَائِلِهِ الْخَاصَّةِ، وَمِنْهَا تِلْكَ الَّتِي وَجَّهَهَا إِلَى صَفِيٍّ  
مُحَبِّ الدِّينِ الْخَطِيبِ، وَالْأُخْرَى الَّتِي لَقَفَهَا عَنْهُ مُحَبُّهُ مُحَمَّدُ أَبُو رِيَّةٍ  
— وَهُوَ يَدِلُّ بِهَا عَلَى سَبِيلِ امْتِلَاكِ نَاصِيَةِ الْأَدَبِ، وَمَا يَنْبَغِي لَهَا  
مِنْ مَوَاهِبٍ وَرَائِيَّةٍ تُوَدِّي إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ، وَمَا لَا يُعْرَفُ إِلَّا بَعْدَ الْاِسْتِغْثَالِ  
بِالْتَّحْصِيلِ زَمَنًا يَظْهَرُ أَثَرُهَا<sup>(٣)</sup> وَكَيْفَ يُؤَكِّدُ فِيهَا عَلَى الْاِسْتِعْدَادِ  
وَالْمَوْهَبَةِ، كَمَا يُوحِي بِالْمُثَابَرَةِ أَيْضًا، .. أَتَقَنَّ أَنَّ تِلْكَ السَّبِيلَ الَّتِي سَلَكَهَا  
خِلَالَ الْأَخْذِ، وَعَبْدَهَا لِنَفْسِهِ حَتَّى أَثْمَرَ فِيهَا، عَادَ يَجْعَلُهَا سُلُوكًا حَمِيدًا  
لِأَصْفِيَائِهِ وَتِلَامِذَتِهِ الْأَدَنِيِّينَ.

مِثَالُ ذَلِكَ قَوْلُهُ : « اجْتَهِدْ أَنْ تَكُونَ مَفَكِّرًا نَاقِدًا، وَعَلَيْكَ بِقِرَاءَةِ  
كُتُبِ الْمَعَانِي قَبْلَ كُتُبِ الْأَلْفَاظِ وَادْرُسْ مَا تَصِلُ إِلَيْهِ يَدُكَ مِنْ كُتُبِ  
الْاِجْتِمَاعِ وَالْفَلَسَفَةِ الْأَدَبِيَّةِ فِي لُغَةٍ أَوْرَبِيَّةٍ<sup>(٤)</sup> » أَوْ فِيمَا عُرِّبَ

(١) رَاجِعِ الْهَامِشَ رَقْمَ ٤ مِنْ الصَّفْحَةِ السَّابِقَةِ.

(٢) تَأْمَلِ اعْتِرَاضَهُ عَلَى أَبِي رِيَّةٍ فِي ذِمِّ الْمَنْفُلُوطِيِّ — رِسَائِلِ الرَّافِعِيِّ — ١٠٨

(٣) رِسَائِلِ الرَّافِعِيِّ — ٢٦

(٤) رَاجِعِ الْعَرِيَانَ — ١٩، وَقَوْلُهُ : لَمْ تُجَدِ مَعْرِفَةَ الرَّافِعِيِّ الْفَرَنْسِيَّةَ إِلَّا قَلِيلًا، وَانْظُرِ الرَّافِعِيَّ

هُنَا، وَكَذَلِكَ رَدَّهُ عَلَى سَلَامَةِ مُوسَى — الْبَلَاغِ ٥ مَارِسَ ١٩٢٥ م وَقَوْلُهُ :

« كَذَبَ سَلَامَةُ فِي زَعْمِهِ أَنِّي لَا أَعْرِفُ لُغَةً أَعْجَنِيَّةً؛ فَأَنَا أَعْرِفُ الْفَرَنْسِيَّةَ وَأَسْتَطِيعُ التَّرْجُمَةَ

مِنْهَا ». وَقَدْ وَرَدَتْ إِشَارَتُهُ إِلَى الْمَعْلَمَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ وَقِرَاءَتِهِ فِيهَا — الْهَلَالِ ١/ ١٩٢٧ م. =

منها<sup>(١)</sup> واصرف همتك من كُتُبِ الأدب العربي بادئ ذي بدءٍ الى « كَلِيلَة ودِمْنَة » و « الأغاني » ورسائل الجاحظ وكتاب « الحيوان » و « البيان والتبيين »، وتفقه في البلاغة بكتاب « المثل السائر » — لابن الأثير، وهذا الكتاب وحده يكفلُ لك ملكةً حَسَنَةً في النقد الأدبي، وقد كنتُ شديدَ الولوع به<sup>(٢)</sup>.

ويُوصيه أيضاً بقوله: ثم عليك بحفظِ الكثير من ألفاظِ « نَجْعَة الرائد » لليازجي، والألفاظِ الكتابية للهمداني، وبالمطالعة في كتاب « يتيمة الدهر » للثعالبي، و « العقد الفريد » لابن عبد ربه، وكتاب « زهر الآداب » للحصري..

وأشيرُ عليك بمجلتين تُعنى بقراءتهما كلَّ العناية: « المقتطف » و « البيان » وحسبك ( الصاعقة ) من الصحف الأسبوعية والجريدة من اليومية. ورأسُ هذا الأمر، بل سرُّ النجاح فيه أن تكونَ صبوراً، وأن تعرفَ أن ما يَسْتَطِيعُهُ الرجل لا يَسْتَطِيعُهُ الطفلُ إلا متى صارَ رجلاً،.. الخ<sup>(٣)</sup>

---

= حدثتني ابنته زينب كيف كان يتخذ له عصر كل يوم مجلساً في زاوية مكتبته؛ يراجع المَعْلَمَة مستعيناً بمعاجم فرنسية وعربية.

وكان يراجع ما يكتب عنه بالفرنسية، ويصحح بعضه بنفسه — انظر عبد الحميد سالم — الأخبار — ١٩٢٨/٢/٢٨ م. وقد وجدت قطعة من صحيفة فرنسية بين أوراقه — وقد جرى فيها قلمه، والطريف أن خَطَّهُ بالفرنسية بادي الوضوح والجمال، بخلاف خطه بالعربية!!

(١) الدسوقي — مناهج البحث.

(٢) رسائل الرافعي — ٢٦

(٣) رسائل الرافعي — ٢٦

إنَّ دُلَّ الرافعي على شيء في هذه الوصية، بل هذا المنهاج، فأنما يَدُلُّ على مبلغِ الحرصِ في أسبابِ توفُّرِ شخصيَّةِ الأديبِ العربيِّ بخصائصِهِ القوميَّة، ورُوحِهِ العَصْرِيَّة، وتوفُّرِهِ على أسبابِ العلمِ والعرفانِ — وهي لو اجْتَمَعَتْ فلا أَحْسَنَ منها في تربيةِ الذُّوقِ الأديبِ وتهذيبِهِ.

وهي كما ترى تُؤَلِّفُ منهاجاً واضحَ السَّمَاتِ بَيْنَ المعالمِ في الطريقةِ الوثقَى لامتلاكِ ناصيةِ الأدبِ والعلمِ بِهِ، والتمكُّنِ من فنونه في الكتابةِ والنقدِ.

\* \* \*

وفي رأيِ الرافعي في كُتُبِ الأدبِ القديمة ما يُصَرِّحُ فيه بمخاطرةِ لَيْسَتْ منها شجاعةٌ معاصريه :

« إنَّ أدبَ الكاتبِ لابنِ قتيبة وشرحُهُ للجواليقي وما صُنِّفَ من بابهما على طريقةِ الجَمْعِ من اللُّغَةِ والخبرِ، وشعرِ الشواهدِ، والاستقصاءِ في ذلك والتَّبَسُّطِ في الوجوهِ والعِلَلِ النحويَّةِ والصرفيَّة، والإمعانِ في التحقيقِ.. كلُّ ذلك عَمَلٌ يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ على حَقِّهِ في زمننا هذا، فهو لَيْسَ أدباً كما يُفْهَمُ من المعنى الفلسفي لهذهِ الكلمة — بل هو أبعدُ الأشياءِ عن هذه الكلمة.

وما أخطأ المتقدِّمونَ في تسميتهم هذه الكتبَ أدباً ؛ فذلك هو رَسْمُ الأدبِ في عصرِهِم، غيرَ أنَّ هذا الرَسْمَ قد انتقل في عصرِنَا نحنُ<sup>(١)</sup> فإنَّا نحنُ المُخْطِطُونَ اليومَ في هذه التسمية ! ».

(١) انظر طه حسين في أخذهِ للعبارة وتدليله على تغيُّرِ العصرِ والذوقِ، وما حَجَلَ فيه بأديبِ النقدي — حديث الأربعاء ٣ — ٨٠ وراجع كتابنا (الرافعي الناقد الأديب).



ويكشفُ السِّرَّ عن تلك التَّصانيف وتَلَفِيقَاتِها بقوله :  
 « الحقيقةُ أن تلكَ المؤلَّفاتِ وُضِعَتْ لتكون أدباً، لا من معنى أدبِ  
 الفكر وفنِّه وجماله وفلسفَتِه، بل من معنى أدبِ النفس وتثقيفها وتربيتها  
 وإقامتها.. حتى ما يَقرُّوها أعجميٌّ إلَّا خرجَ منها عربياً.. أو في هوى  
 العربية والميلِ إليها. ومن ثَمَّ جاءتْ هذه الكُتُب كلُّها على نَسَقٍ واحدٍ  
 لا يَخْتَلِفُ في الجملةِ ؛ فهي أخبارٌ وأشعارٌ ولُغةٌ وعربيَّةٌ وجمعٌ وتحقيقٌ  
 وتمحيصٌ »<sup>(١)</sup>.

وهكذا يَضَعُ يدهُ على مَبْدَأِ التجديدِ الحقِّ في الأدبِ الفكري، فيتحوَّلُ  
 به الذوقُ الى فِقْهِ الحياة والاجتماع، بعد أن لم يَعدْ للاستِعْرابِ ذلكَ  
 الهمُّ القديم !.

وهو يُحدِّثنا بمثلِ قوله : « في أيامِ التحصيلِ كنتُ أقرأ كلَّ ما  
 أصابته يدي، وكنتُ أَكثُرُ من الملاحظةِ وأدقُّ فيها، فلا أعرفُ كتاباً  
 أنا منه أَكثَرَ ممَّا أنا في غيره.

قرأتُ للأفغاني والشيخ محمد عبده وكتاب « سرَّ النجاح » الذي  
 ترجمَهُ يعقوبُ صرّوف، ثم كتب « جوستاف لوبون » ثم الكُتُب كلُّها،  
 فلم تُغنِ أوربَةُ عن روحِ الشرق، ولا يُغني الشرق عن فكرِ أوربَةٍ<sup>(٢)</sup>.

إنَّه يحضُرُ حُضورَ الواثق، ويُرَبِّي ذوقَهُ تربيةَ المثقَّف، ويُعيدُ الى  
 الأذهانِ مذهبَ العرب الأوائلِ في أخذِ الأديب من كلِّ علمٍ بطرف.

(١) مقدمة كتاب (شرح أدب الكاتب) للجواليقي — ط. القدسي

(٢) الهلال — يناير/كانون الثاني ١٩٢٧ م

وغرضه من القراءة « اكتساب قريحة مستقلة، وفكر واسع، أو ملكة تقوى على الابتكار<sup>(١)</sup> وفي إشارته الى كتاب (الفلسفة النظرية) وقوله: إن الكتاب في أصله اثنا عشر جزءاً؛ وهو من تأليف قوم من أعلم الناس بعلوم الاجتماع والمنطق والفلسفة وعلم النفس والتربية والأخلاق » مما يدل على توحيه العلمي، وحرصه على الاطلاع الواسع، وكذلك في تسميته لبعض الكتب المترجمة<sup>(٢)</sup>.

ومن يتصفح كتابه: ( المعركة تحت راية القرآن ) و « على السفود » يرعه ذلك البصر بأداب اللغات الأوربية؛ كأنما لم يكن يفوته منها شيء أخضر أو ترجم<sup>(٣)</sup>. فهو يعرف أن عصر البلاغة الفرنسية هو في القرن السابع عشر — كما يقرر ذلك أناتول فرانس — الأديب ذو النزعة الاشتراكية — وإن مثل تلك البلاغة إنما هو « بوسيه »<sup>(٤)</sup>. وفرانس ذلك اتفق الذين ترجموه على أنه كان أصولياً (classic) يحذو حذو « راسين » الشاعر — وقد قال فيه (موريس باريس): إنه حفظ اللغة<sup>(٥)</sup>.

ويحتفل بنقد « جول لمر » وشعوره النبيل القائم على الفهم والحق — وعلى القلب والعقل معاً<sup>(٦)</sup> ويعرف « هايني » الشاعر، ويصوغ

(١) رسائل الرافعي — ٣٤

(٢) رسائل الرافعي — ٣٤

(٣) الدسوقي — السابق

(٤) المعركة — هامش — ٣٦

(٥) شكيب ارسلان — المعركة ٣٦ — ٣٧؛ راجع ص.ش. — البصير ١٩٢٥/٥/٢٢ م

وتشبيه الرافعي بموريس هذا.

(٦) على السفود — ١١

(لِشَلَر) الألماني شِعْراً<sup>(١)</sup> وَيَسْتَنْجِزُ ترجمةً (لشيلي)<sup>(٢)</sup> ويكشفُ سرقات الأدباء عن (برنارد شو) و «هيرتسو» مدرّس التاريخ بكلية الملك بلندن<sup>(٣)</sup>.

إنّه لم يَكُنْ يَقتصرُ في ثقافته الأدبية، ولا تربية ذوقه على الأخذ من مصادرٍ عريضةٍ قديمةٍ حَسْبُ — كما تطوَّحَ بعضُ الذين كتبوا فيه<sup>(٤)</sup> ولكنَّ درسه لآداب الأمم وقراءاته لآثار المفكرين، وإطلاعاته على نقد الغربيين لم يَسْتَعْرِفه كالأخرين، ولا هو طغى عليه فمسُّ شخصيته العربية، أو عَوَّقَ نزعتَه القوميّة؛ فالأخذُ والتمثيلُ غيرُ الإبداع والإشراق الذي يُبرز فيه ملامح عروبيته، ويصوِّرُ ذوقه العصري — ولو انفردَ وحدهُ بهذه الخصيصة بين معاصريه ١.

\* \* \*

### معه في مناقلة

وإن نحنُ وقفنا ساعةً معه — يردُّ على بعض مَنْ يَتَعَرَّضُ له بِالْعَمَزِ والتهوين، والإيذاء<sup>(١)</sup> بدوافعٍ تَسْتَعِجُهم في أنفسيهم وتُباهي بها في الأخذ عنها والصُّدُورِ عن مذاهبها.. وَجَدْنَا وثائقَ أخرى في حياته الثقافيّة؛ تكشفُ عن توفّره على أسبابِ العلم والإحاطة بالأشياء، كما تبرزُه

(١) حاضر العالم الاسلامي — ١١

(٢) من رسالة فكرية زكي في ١٠/٩/١٩٣٥ م

(٣) على السّفود — ٢٦، ٦٧

(٤) مثل سلامة موسى — الهلال ١/١٩٢٤ م، ومحمد خليفة التونسي — النقد عند العقاد

— ١٩٧، ومحمد عبد القادر العمادي — الرافعي وطه حسين — ٢٧

في ذوقه وأناقته، وسُمُوّه في هدفه لرفع شأن الأدب العربي، ومهمته الفكرية في العصر الحديث.

ومن ذلك قولته الأولى في طه حسين الذي سلك سبيل المجازفة الصحافية آنذاك، وحاول المخاطرة بذكائه وبوارق المعية ومكان العاهة منه، فقد نعى الرافعي عليه احترافه للأدب، وغروره في الاحتراف، وحمل نفسه عليه؛ إذ حملها على التهلكة — ولا تكون هي في أحد إلا بخذلان من الله<sup>(١)</sup>.

وكذلك في تحقيقه لنصوص عربية ومترجمة لقفا طه حسين لبعض دراساته<sup>(٢)</sup> وإعادته لها في صيغها الأصلية، ثم هدم ما بناه طه على التلاعب بها.

فهم طه « ابن سلام يحدثنا بأن أهل العلم قادرون على أن يميزوا الشعر الذي ينحله الرواة — يريد الوضع لا الانتحال — في سهولة؛ ولكنهم يجدون مشقة وعسراً في تمييز الشعر الذي ينتحله العرب أنفسهم ».

إذ ردها الرافعي إلى أصلها العربي الذي كتبه ابن سلام: « ثم كان الرواة بعد، فزادوا في الأشعار، وليس يشكّل على أهل العلم زيادة ذلك، ولا ما وضع المولّدون، وإنما عَضَل بهم أن يقول الرجل من أهل البادية من ولد الشعراء، أو الرجل الذي ليس من ولدهم، فيشكّل

(١) الزهور ١٠ — فبراير ١٩١٣ راجع الرافعي الناقد للتوسعة.

(٢) في الشعر الجاهلي — ٦٧

ذلك بعض الإشكال»<sup>(١)</sup>.. ويتقصّى عليه كذلك ما ترجمه عن الجاحظ وصاحب الأغاني<sup>(٢)</sup>.

كما فسّر له مذهب «ديكارت» في الشك والتجرد الذي أخذ به، وأشار إلى الفرق بين البحث عن حقيقة فلسفية عقلية محضة، والبحث عن حقيقة أدبية تاريخية قائمة على النص والرواية<sup>(٣)</sup>.

وكذلك في ردّه على سلامة موسى — وقد نعى عليه زوراً وبهتاناً جهله الاشتراكية<sup>(٤)</sup> — فقال :

« ينعى علينا أننا نتجاهل الاشتراكية، كأننا لم نلّم بها.. على أننا نراها المائدة بعينها التي يراها مُدّت للناس جميعاً، غير أننا نزيد عليه أنها ممدودة للناس جميعاً ليتدافع عنها الناس فلا يصل إليها أحد<sup>(٥)</sup>» ونفصل على كل هذه المائدة الخيالية — ما حفلت به من لذائذها وألوانها — تلك اللقيمات التي يفرضها نظام الزكاة في الاسلام فرضاً لا يتم الاسلام لأحدٍ إلا به<sup>(٦)</sup>. وهو كما ترى تقرير حالٍ وحكمٍ مُستوفى الحيثيات ؛ دلّ على الإمام بمذهب الاشتراكية وموازنة له مع الإسلام ديناً ونظاماً للناس أجمعين ؛ يصيبون فيه ما لا تستطيع الاشتراكية ولا سواها من المذاهب والنظم أن تعدّه لهم جميعاً.

وكذلك يظهر أثر الاعتقاد في ذوقه، فما اطلعّه على المذاهب

(١) المعركة — ١٧٩، ١٨٨

(٢) المعركة — ١٤١، ١٩١

(٣) المعركة — هامش ١٤١

(٤) سيرد ذلك مفصلاً في الفصل التالي

(٥) الهلال — السابق — يناير ١٩٢٤ م

(٦) الهلال — السابق — فبراير ١٩٢٤ م

والآراء، ولا إلمامه بالأفكار، والذي يحوِّله عن ذلك الاعتقاد والذوق الذي هو مظهرٌ من مظاهر شخصيته العربية وقلبه الكبير.

\* \* \*

ومن ذلك أيضاً ردُّه لأخطاء محمد عبدالله عنان في ترجمته لابن خلدون المؤرِّخ الجليل، وكيف نقلَ أسماءَ الاعلام والأمكنة العربية من حروفها اللاتينية في اللغات الأوربية — واعتماده رسالة طه حسين في الموضوع، ولم يتنبَّه إلى الواجب في ردِّها إلى عروبتها، وإخفاقه في إصابة الأهداف التي توخاها من تلك الترجمة،.. إذ كان الردُّ بمثابة معجمٍ للأسماء العربية التي حَجَلَ فيها «عنان» وهو ينقلُ عن لغات الغرب بغير روح قومية<sup>(١)</sup>.

ولعلَّ من أبلغ ردودِهِ تلك ما كتبه إلى الأستاذ إسماعيل مظهر — وقد تعرَّضَ لكتابه في (إعجاز القرآن) بالتعريف والنقد<sup>(٢)</sup>. فقد جاء فيه قوله: «حَسْبِي أَنْ تُوْمِنَ بِمَا تَقُولُ، غَيْرَ أَنِّي لَا أَشْرُبُ مِنَ النهرِ الذي تغترف<sup>(٣)</sup>».

أمَّا مناقشته للأفكار فيما نقله عباس محمود العقاد عن «شوبنهاور» ورأيه في فلسفة الجمال فهي بعدُ معروفة<sup>(٤)</sup> حاولَ سيد قطب الحدِّقة فيها غَيْرَ مرَّةٍ فما أصاب<sup>(٥)</sup>.

(١) البلاغ — يونية ١٩٣٤ م

(٢) العصور — مايو/أيار ١٩٢٨ م

(٣) المقتطف — يونيه/يونيو ١٩٣٧ م

(٤) على السفود — ٧٠ الهامش عن البلاغ.

(٥) الرسالة ١٩٣٨/٦/٢٧ م، الثقافة ٧٩، ٨١ — ١٩٤٠ م

وكان من أمر العقاد بعد ردِّته عن التنويه بخطر « رسائل الأحزان »  
في فلسفة الجمال والحب للرافعي<sup>(١)</sup> حسب أن يجول في الفكر — العالمي  
— جولة مترجمة<sup>(٢)</sup> ينقل فيها أفكار « ماكس نوردو »<sup>(٣)</sup> وشوبنهاور  
وغيرهما<sup>(٤)</sup>.

يخلط في النقل ؛ فيدور بين الفكرة والإرادة، ويزعم أنه يصحح  
لشوبنهاور الذي لم يصل إلى محصلته ! (الجمال هو الحرية).

إنَّ الرافعي يعودُ فيصوغُ كلام « شوبنهاور » بقوله : « إنَّ الأشياءَ  
تُحزننا، لأننا لا نراها جميلة، كلما ابتعدت عن الفكرة واقتربت من  
الإرادة، وأنها تُفرحنا كلما ابتعدت عن الإرادة واقتربت من الفكرة »  
وليس بعجيب أن يراها العقادُ خطأ ؛ لأنه لم يفهم ما بُيت عليه<sup>(٥)</sup>.

هذا إلى أمثال يزخر بها كتابه الطريف (على السفود).

هكذا إذن كان الرافعي يُربِّي ذوقه الأدبي على الفهم واستيعاب  
المعاني،.. وهل الذوق غير العلم والفهم !؟

الرافعي — من هذه الناحية — لم يكن يعتمد على ما يطلع عليه  
بالفرنسية المحدودة لديه، أو بالترجمات حسب، وإنما كان يستعين

(١) مما قاله يومئذ « أنها أرق من التسميم وأعذب من الماء »!

(٢) راجع طه حسين — الأربعة — ١٣٩ وكيف تمحل لها!

(٣) نوردو — هذا هو الأب الروحي للصهيونية — القومية اليهودية — وله آراء في الحياة  
والاجتماع مأل إليها العقاد أخذاً وترجمة منذ شرع قلمه للكتابة.

(٤) المراجعات — للعقاد — ٧٦

(٥) على السفود — ٩٠

على ذلك بأصدقائه ومحبيه، وفي رسائله الكثيرة إليهم، ورسائلهم إليه ما يؤيد ذلك<sup>(١)</sup>.

ومن هنا جاءت ملاحظة عمر الدسوقي الأخيرة « أن الرافعي قد قرأ كل ما ترجم في عصره من آثار الأمم وألم به، وقارنه بالمأثور من تراث العرب الفكري والنقدي، وكان أكثر اطلاعاً من معاصريه في هذا الشأن من شؤون الأدب »<sup>(٢)</sup>.

والدسوقي في مذهبه هذا يردُّ رداً حاسماً على مدّعات مناوئيه الذين وقعوا في دوامة الرأي الضليل الذي فاه به سلامة موسى يتّبع على الرافعي التزامه القوميّة العربية، ومذهبه في الأدب، وشايعة طه حسين، ثم تابعهما العقاد بعد ذلك، وقد كرّر هؤلاء قولهم، فكيف يتأتّى له أن يردّ ويناقش في موضوعات يترجم فيها هؤلاء وسواهم<sup>(٣)</sup> ١٩.

ولقد تهياً لي أن ألتصق بمصداق رأي الدسوقي عن كتب، وأن أذهب إلى أهليه في طنطا ضيفاً بل خليطاً بهم؛ أقف على بقايا أوراق للرافعي تخلّفت على مكتبه في عيادة ولده الطبيب محمد الرافعي، بعد مأساة مكتبته<sup>(٤)</sup> لمست فيها آثار ذلك المذهب — وهي تصوّر بوضوح صيرورة الرافعي الأديب الدوّاقة وامتيازته البياني وإثماره الفكري.

عرفت حقيقة من وسائل أخذه ودراسته قلماً تهياً لها سواء أو استعدّ لمثلها أديب معاصر، ولا أكون مجازفاً بعد إن زعمت أنني

(١) مرّت الإشارة إلى بعضها آنفاً

(٢) مناهج البحث — الأمالي

(٣) سيرد ذلك مفصلاً في الرافعي الناقد الأديب

(٤) مرّ نبأها في الباب الأول



اكتشف في تلك الأوراق البقايا أنه كان يقرأ كل شيء، من كتب ومخطوطات وصحف ونشرات كالتّي تقدّمت وصاياه بها، ولكنّه من ناحيته هو كان يعمد الى شيء آخر غير القراءة والاطّلاع والحرص عليهما.

إنه يُوجز بعض الكتب، ويختصر الفصول، ويقتطع أعمدة من الصحف ويُقصّ سطوراً من المجلّات، فيؤلف من هذِهِ وهذِهِ مجموعات يوزّعها في موضوعاتٍ ثم يعودُ إليها بعد حين، ويجعل منها إضمّاماتٍ تهيّأ له كلّما أرادَ البحث أو الكتابة.

يُضافُ إلى ذلك كلّهُ أن معاصريه من الشعراء والكتاب كثيراً ما كانوا يعرضون عليه آخر ما تهيّأ لهم من المنظومات والمقروءات، ينظرُ فيها ويرى الرأي مُدْ أطارَ مقالته في « الثريا » وجعلَ شعراء العصر طبقات<sup>(١)</sup>، حتى كانت أحاديثه في صبري وشوقي وحافظ ونقد الشعر<sup>(٢)</sup>.

وقد حدّثني عادل الغضبان أنّه على ما كانَ عليه من الصّمَم المُطْبِق، يُحسّ أحياناً وَقَعَ الكلمات من حركة الشفاه.. وطلّبَ إليه ذاتَ يوم أن يُعيدَ أبياتاً نظمها في رثاءِ يعقوب صروف، وقالَ : إنّها تفضّلُ قصيدة مطران — لما رأى فيها من حُسْنِ البيان وزَوْنِق الأسلوب — والمطرانُ يجلس بجواره<sup>(٣)</sup>.

بهذا يبين لنا أنّه لم يكنْ شاذّ الذوق، ولا متّجهاً به غيرَ وجهة

(١) الثريا — يناير ١٩١٥ م

(٢) أنظرها في الجزء الثالث — وحي القلم

(٣) كان ذلك في ١ نوفمبر ١٩٦٦ م

الحياة والعصر.. وإلا فكيف ألفه في ذوقه كل أولئك الأدباء والشعراء الذين كانوا يحرسون على معرفة رأيهم فيهم، وفي آثارهم الشعرية والنثرية<sup>(١)</sup>.

وهو كذلك من الصراحة في الرأي بحيث يكون لذوقه الأدبي وزن خاص ينظر إليه بإكبار أولئك واعجاب هؤلاء، كلما أدرك الإنصاف منهم جيل، أو أفاض بالتقدير رجيل.

ألا تراه — وقد بلغ التأثير بمذاهب الآداب الأوربية لدى المهاجرين من شعراء العربية في الآفاق، وفي الديار الأمريكية خاصة؛ أن طغت على آثارهم الأدبية سمات من ذلك التأثير معروفة بين أدباء العربية المحدثين — كيف يتلقى ذلك بالقبول الحسن، ويعده من الأشياء الجديدة التي ابتدعتها النهضة ؟ :

« الذي أراه جديداً في الشعر العربي صياغة بعض الشعر على أصل التفكير في الانجليزية أو الفرنسية، أو غيرها من لغات الأمم؛ فيخرج الشعر غريباً وأسلوبه في تأدية المعنى أجنبي، وأكثر ما يأتي هذا النوع من أمريكا، وأنا أعجب بكثير منه لما فيه من الغرابة والحسن<sup>(٢)</sup> ».

وأحسب أنه هو نفسه قد حاول هذه الغرابة وذلك الحسن بدوقه خاص، لا في شعره وحسب، وإنما في نثره أيضاً في مثل قوله :  
« لما رأيت أجمل من رأيت من النساء، وجعلت أتاملها، وأحتسى

(١) وحي القلم ٣ — ٢٩٣

(٢) المقتطف — يناير ١٩٢٦ م — وحي القلم ٣ — ٣٢٨، راجع الفصل الثالث من الباب الأول من هذا الكتاب

من جمالها الضياء المُسَكِر الذي تُعَرِّبُ له الروحُ عَرَبْدَةً كُلُّها وقاراً  
ظاهر، رأيتني يَوْمَئِذٍ في حالةٍ كَغَشِيَةِ الوحي، فوقها الآدَمِيَّةُ ساكنةٌ،  
وتحتها تيارُ الملائكةِ يَعْبُ وَيَجْرِي»<sup>(١)</sup> وكذلك في بعض فنون قوله  
الأخرى.

إنَّه — على ما كانَ عليه من المحافظةِ على الديباجةِ العربيةِ، أياً  
إلا أن يجعلَ في أسلوبِهِ تلكَ الغرابةَ الحلوةَ التي تَشْعُلُ النفسَ بتركيبِ  
ألفاظها، وحُسنِ تأديتها للمعاني الجديدةِ ظاهرةً، وفي مجازِهِ واستعاراتِهِ  
المتلاحقةِ في العبارةِ الواحدةِ حُسنٌ ما لَهُ مثيلٌ في نثرِ العربيةِ آنفاً ١.

أليسَ ذلكَ دليلَ الأخذِ بالدُّوقِ الجديد، وتقويمِ الذوقِ المحافظ،  
 وإقامةِ الذوقِ الذي ينفرد به بين سائرِ معاصريهِ؟ فلا يَطْعَى أحدُ  
الأذواقِ عندهُ على الآخر، وإنما يكْمَلُ بعضها بعضاً ١.

وقد يَرِدُ هنا اعتراضٌ يسألُ : كيفَ نُوفِّقُ إذنَ بين قوله يَنْعَى على  
بعضِ الكتّابين من الشعراءِ شِعْرَهُم المُنثور، ويقولُ : إنه تَسْمِيَةٌ تَدُلُّ  
على جَهْلٍ واضعِها ومن يرضاها لنفسِهِ»<sup>(٢)</sup> فيُلْحَقُ تجاربَهُم تلكَ بما  
كان في العُصورِ المتأخرةِ من خُمودِ الفكرِ وضعفِ الروحِ وذهابِ  
الرونق،.. وبين تجربته هو في القصيدةِ النثريةِ؟..<sup>(٣)</sup> وقد كَتَبَ  
«نشيد اليمامة» يوماً، وفيه يقول :

على فسْطاطِ الأميرِ يَمَامَةٌ جائِمةٌ تحْضِنُ يَتْمَهَا.

(١) العروسة — ٦ يونية ١٩٣٤ م

(٢) وحي القلم ٣ — ٣٢٦

(٣) كتابنا : الامام الرافعي — ١٩٣ — ١٩٥

تقولُ اليمامة : إِنَّ الوجودَ يجبُ أن يُرى بِلَوْنينِ في عينِ الأنثى،  
مرّةً حبیباً كبيراً في رَجُلِها، ومرّةً حبیباً صغيراً في أولادِها.  
كلُّ شيءٍ خاضِعٌ لقانونِهِ، والأنثى لا تُريدُ أن تخضعَ إلاّ لقانونِها.  
.. أيتها الحمامة ؛ لم تعرفي الأميرَ — وقد تركَ فُسطاطه !  
هكذا الحظُّ — عَذْلٌ مضاعَفٌ في ناحيةٍ، وظلمٌ مضاعَفٌ في ناحيةٍ  
أخرى.

أحمدي الله، أيتها الحمامةُ أن لَيْسَ عندكم لغاتٌ وأديان،  
عندكم فقط : الحبُّ والطبيعةُ والحياة.

\* \* \*

على فُسطاطِ الأميرِ يَمامةُ جاثمةٌ تحتضنُ بيضها  
يمامةٌ سعيدةٌ ستكونُ في التاريخ كَهْدُهُدِ سليمان ؛  
نُسِبَ الهدهُدُ إلى سليمان، وستُنسَبُ اليمامةُ إلى عمرو.  
واهاً لك يا عمرو : ما ضَرَّ لو عرفتَ اليمامةَ الأخرى (١) ؟

وقد جَعَلَ هذا النشيدَ على لسانِ مارية ( المصرية ) التي أحَبَّت  
الفتاح العربي العظيم عمرو بن العاص رضي الله عنه.

وقبلَ أن أُجيبَ عن السؤال، لا بُدَّ أن أعْرِضَ لرأيينِ مُتضادّين لهذه  
القصيدة :

---

(١) الرسالة — ٩٣، وحي القلم ١ — ٢٨

أما أحدهما فهو «للأنصار»<sup>(١)</sup> الذين عَدّوا أنفسهم امتداداً حيوياً للفكر العربي المؤمن الذي ارتاضه الرافعي أمامهم، في العصر الذي استغرَبَتْ فيه دعواتُ القُطْرِيَّةِ والقوميَّةِ. قال الحكيم :

« إنَّ الرافعي خَرَجَ الى الميدانِ، وقبلته قبلتنا، فهو مِنّا ونحنُ منه .. ولكنه رأى أنَّ الجهةَ الأوربيةَ قد أثَّرتُ فيه في قصَّته ( اليمامتان ) والقصيدةَ المنثورة ذاتِ الصدى المنعكس المسموع لما قرأه من مُترجماتٍ لبعض الشعر الأوربي، فاحتذى الترجمةَ شكلاً وطريقاً وعقليَّةً.. على أنَّها من الشعرِ الذي يَنطقُ به بعضُ أفرادِ القِصَّةِ.. » الخ<sup>(٢)</sup>.

وأما الآخر فهو للمتأثرين بآدابِ الأممِ أنفُسِهِمْ — الذين عَدّوا تجديدَ

#### (١) الأنصار :

فتية آمنوا برَبِّهم فزادهم الله هدى، تألَّفَ منهم جماعةٌ عربية مؤمنة بأمانة أحمد (صبري) موسى سالم، ورعاية محب الدين الخطيب ومصطفى صادق الرافعي — وقد دَعَتْ — فيما دَعَتْ إليه — الى تخليص الفكر العربي من لُوثَةِ الاستعْجَامِ وخَطَطِ التَّغْرِيبِ، والعودة الى نِقاءِ الفِطْرَةِ.

عَبَّرَ بهم الأمينُ قناةَ السويس الى سيناء مُهاجراً، ونادى العَرَبَ الى مثلها وإعمار الصحراء بُعيدَ اخفاق ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق، وقبل أن تُولَدَ ليهود دولة، غير أن بعض رجال الثورة المصرية قد ضاقت بوجودهم هناك، ولا سيما بعد اتفاق « همرشولد » غير المعروف، فعادوا الى السويس يَسْتَصْلِحُونَ لهم أرضاً للزراعة في

الشَّلْوَفة.

وهذه الجماعة بتفكيرها العربي القويم واعتقادها الاسلامي النظيم، ما تزال ممتدة التأثير في الشباب العربي الناهض، وربما كانت وراءَ خيرة المنظمات القومية في الديار العربية؛ الشام والعراق وأفريقيا.

وفي « الأنصار » دراسةٌ جامعيةٌ وأخرى تاريخية ومحاولاتٌ تشبيه صحافية. بالمثالية الفكرية UTOPIA راجع الهلال — ١٩٧٢/٩ م وآفاق عربية — ١٠ — ١٩٧٦ م.

(٢) الأنصار — ٣٧ — صفر ١٣٦٣ هـ

الرافعي في كتاباته النثرية التي وافت بالروح العاطفي Romance حتى حسبوه شاعراً بها<sup>(١)</sup>، وقد أجمَل الدكتور كمال نشأة رأيهم بقوله : « لعل قصيدته النثرية ( نشيد اليمامة ) التي قالها على لسان مارية، ذات مستوى لم يضل إليه شعره المنظوم ؛ فقد حكى حُب مارية لعمرو ابن العاص مبتدئاً بيت يتكرّر في كل مقطوعة كمقدمة موسيقية، لا شك أنها من وحي حصيلة قراءاته لشعر المجددين، وعلى لسان « مارية » يكشف قلب الأنثى وأشواقها الطبيعية في بساطة وتلقائية .. »<sup>(٢)</sup>.

والرأيان على افتراقهما يلتقيان في مهمة التجديد واصطناعه الموفق فيه. ولكن الذي نحن عليه بعد هذا من ناحية الدوق الأدبي الذي تقدّمت صفته، وما عُرف به الرافعي نفسه بين معاصريه ؛ أن ذلك امتداد في الدوق يلقف كلّ حسن فريد، إن جاوز مقداره على المحافظة، فإنما أثار في التجديد دهشتة وغبطة معاً.

ومن هنا ندرك أيضاً أن حرص الرافعي في الحفاظ على صورة العربية وبيانها وأساليب كتابها وأدبائها الأقدمين، والتزامه بالجملة القرآنية « والآية الماثلة بما فيها من صفة البلاغة وسحر الجمال وأسر الروعة »، هي نفسها التي تجعله يتفق تلك الصفة وذلك الحسن وهاتيك الروعة في آداب الأمم الأخرى ١. وما كل آداب الأمم كذلك، ألا تراه يقول : « إنني لأقرأ في الصحف والمجلات قطعاً وفصولاً مترجمة عن أسماء

(١) لطفي جمعة — المساء — ١٩٣١/٤/١٩ م — في نقده لأوراق الورد

(٢) أعلام العرب — ٨١ — ١٢١ — ١٢٣

من أشهر أعلام الأدب الأوربي، فأستنكف أن تكون لي، وأرى فيها  
ضعفاً وتهافتاً، وسخافات كثيرة، وأرى بعض ما عندنا أفضل وأقوى  
منها كلها»<sup>(١)</sup>.

وهذه الحقيقة يُدرّكها دارسو تلك الآداب والمتأثرون بها والمترجمون  
عنها مهما باعدوا فيها أو تغابوا عما فيها.

\* \* \*

وهكذا نجد الراجعي الأديب الذواق متماسكاً ؛ يحفظ توازنه أبداً،  
ويكتسب لذوقه الفني ما يجدّه دائماً، كما يراعاه في المحافظة على  
طابعه العربي وميزاته.

أجل لقد كان متميزاً بالذوق الذي عُرف عنه بدياً، وقد أقر له  
به المحافظون والمجددون المحدثون معاً — كما تقدم.

كما كان له من طبعه وسجيته وفطرته العربية، وعوامل الوراثة  
والاكتساب فيه، ما جعل له ذلك الاستعداد العظيم في دربة ذوقه،  
وما دله على المحجّة، وربّى فيه الضمير ومنحه الموازنة والمفاضلة  
ما أوتي به بسليقته، ومكنه بثقافته وفيض علمه من الامتياز والأناقة والسمو  
بالعرفان، والزهو بالذوق.

\* \* \*

---

(١) البلاغ ١٩٣١/٧/٢٣ م

## المبحث الثاني

### الْمُنْشَىُّ الْمَكِينُ

قلتُ إنَّ الرافعي قد نشأ ذَوَاقَةً أدبٍ وصنَّاجَةً شعرٍ، وعَرِيفَ بيانٍ ؛  
يُكَلِّفُ بالبلاغةِ، ويَهَيِّمُ بالمعاني<sup>(١)</sup> ويألفُ صُورَ الوجدانِ، وَيَنْبِهُهُمْ يَتِيَهُ  
بمعاني الجمال<sup>(٢)</sup>، وتأخذهُ الأشواقُ والمواجِدُ<sup>(٣)</sup> بفنونها وسحرها، كما  
يَجْتَمِعُ إليه الفِقهُ والفكرُ والفلسفة<sup>(٤)</sup>، فهو يَسْعَى أبداً الى مجانيها ؛  
يتوسَّعُ في قراءاته، ويمتدُّ بمطالعاته، ويتمثَّلُ بفرائدِ منها في مناظراته  
ومطارحاته، ويُعْنِي بعلومها ومعارفها جميعاً<sup>(٥)</sup>.

ويومَ بدا له أن يَتَحَوَّلَ بأدبه الى الكتابةِ والنَّقْدِ مبكراً ؛ ليمتازَ أدباً  
وفناً، وَجَدَ أنَّ الكتابةَ كانتْ سَجِيَّةً في طبعه — وهي كالفِطْرَةِ الغالبةِ  
التي تَسْتَبِدُّ بالتكوينِ العقلي، فكانَ يَكْسِبُ لها من الأُخذِ والاجتهادِ

(١) مختارات المنفلوطي — ١٩٣

(٢) أنطون الجميل — الزهور ٦ — ٣ — ٤٢٦

(٣) نقولا الحداد — السيدات والرجال — أبريل ١٩٢٤ م

(٤) رسائل الرافعي — ٤١

(٥) الهلال — يناير — ١٩٢٧ م



ما عادت تحيا به في مراحل حياته كلها، وتتطور بتطور الفكرية وتقلب معه وتحوّل من عهد إلى عهد. وقد كان عليه أولاً أن يستوفي قدره من التحصيل والدرس والمتابعة<sup>(١)</sup>، وأن يتوسّع في المحفوظ على سنن الأولين، فيستوعب علومهم، ويلقّف فنونهم، ويوفّر له حصيلة من المعارف، وثروة من اللغة ومفرداتها، وأمثالا يستجلي فيها أسرار تراكيها وأساليبها وما تحفل به من صور الجمال وآيات البيان<sup>(٢)</sup> فيدور مع معانيها في تاريخ الأدب العربي مذ كان فطرة صافية في أيام الأمة الأولى، ويختلف فيها حيث انبعث بها فناً محدثاً في حياتها التي أقبلت على الناس شرعةً ومنهاجاً، ويعود إليها حين صار ذلك الأدب إلى الذوق المؤلّد عند تحوّلها الحضاري، حتّى عادت به سارية الأيام والأنواء إلى أنماط مما كانت عليه آخرة الفترة المظلومة.

ولا يكاد يقف أخذه لما بدا للكتابة العربية أن تنهض وتنفض عنها غبار القرون، في هذه المرحلة التي تحاول أن تستأنف فيها الحياة على هدى وبصيرة!..

لقد أصاب الرافعي من ذلك كله ومن سواه مما تقدّم ألواناً من المعرفة، وأنماطاً من الفنون، وألفافاً من العلوم، وأقوافاً من المعاني؛ يجريها مع سليقة العربية وقريحته القرآنية، بما امتاز به من بعد في الأسلوب واللغة والبيان، وما يُقرّ به سائر معاصريه.

(١) مرّ بنا ذلك

(٢) وقد اجتمع له منها كتاب (فصح الكلام) تام التأليف والتبويب — ليت من يعنى بنشره.

## جیلان

ثم أنه فتح عينيه يُبصر جيلين من كتاب العربية :  
أما أحدهما فهو الذي امتد فيه رفاعَةُ الطهطاوي بمخاطراتِهِ اللُّغوية،  
ومواصفاتهِ وتمرينه للكتاب، وانتقاله بالنثر العربي من حالٍ إلى حالٍ<sup>(١)</sup>  
حينَ كانَ عبد الله فكرِي يقومُ بتعريبِ الديوانِ فينهضُ باللغة العربية —  
الرسمية نهضةً جديدةً<sup>(٢)</sup>.

وأما الآخر فقد كان يُظِلُّهُ الإمامُ محمد عبده، ويُجرِي فيه إبراهيم  
المولحي وعبد الكريم سلمان والشيخ علي يوسف، ورشيد رضا، ويقومُ  
في الرواقِ محمد فريد وجدي وعبد العزيز شاويش وغيرهم.  
ويقفُ بازائهما يُباريهما جيلان آخران في الديار الشامية عندَ حلقاتِ  
جمال الدين القاسمي، ومطارحاتِ عبد الرحمن الكواكبي، ونَدَوَاتِ طاهر  
الجزائري — ومنَ فيها من تلامذتهِ كمحب الدين الخطيب ومحمد  
سعيد الباني ومحمد كرد علي وعبد القادر المغربي وخليل مردم وغيرهم،  
وخلَوَاتِ حسين الجسر في بيروت وصَحَوَاتِ الرافعيين في طرابلس.  
ويدورُ من حولهما رهطُ اليازجيين والبُستانيين والمعاليف ومن يلوذُ  
بهم من المُستعربين مثل يحيى فاندليك، وبندلي جوزي وبقيّة الأنماطِ  
الآخرين.

وتلوحُ أعلامُ الآلوسيين والسويديين من العراق وآل الشيخ في نجد  
وراياتِ الإسلام في الآفاق<sup>(٣)</sup>

(١) الدسوقي — نشأة النثر الحديث — ١٢٣

(٢) الدسوقي — نشأة النثر الحديث — ١٢٥

(٣) عنيت بهم كتب التاريخ والدراسات الأدبية التي اهتمت للنهضة، وتكرر ذلك في أكثر  
من مصنف ومؤلف، منها ما ترد الإشارة إليه عند الضرورة.

وكانَ لانتقالِ بعض هؤلاء بأفكارهم وتلامذتهم الى الديارِ المصرية حيثُ الدَّعةُ والمنابر مكانةُ التأثير.

وقد نَحْصُ منهم إبراهيم اليازجي ومفاصحته في حِفْظِ اللّسانِ بمقالاته ومجالاته.. ويعقوب صرّوف واندفاعته في الترجمة والإفصاح بالعلم ومخترعاته واكتشافاته وعنايته بالعربية الأثيرة، وفرح أنطون ونقله للأدب القصصي، وجورج زيدان وتوليقاته.. وغيرهم.

وكذلك من يَلْتَفُّ بهؤلاء وأولئك من الكتاب والمترسلين وذوي المواهب الأدبية التي عَمَرَتْ بهم يومئذٍ الصحافة وفاصت بتتاجهم الجرائد والمجلات، وطافت بأدبهم أسواق الأدب والمناظرات، وتوزعت أشعارهم الطُرف والدواوين، وما أثمرته الحياة الأدبية إثمارها البهيج<sup>(١)</sup>.

وربما كانت موافقة وجود هذا الحشدِ الفريد أيامِ الرافعي الشاب المُتَطَلِّع الى الدراسة والأخذ بزمام في النهضة الفكرية أديباً وفناً — وهو يَعْشَى عليهم مجالسهم، وَيَصُبُّ الى منابرهم، ويُحَدِّثُهم بحدِيثِهِ، أو يعرض عليهم بضاعته من الشعر والنثر؛ يُقَوِّمُونَهَا لَهُ<sup>(٢)</sup> وَيَسْتَمِعُ لمقالاتهم بأخذٍ ومقارنةٍ، ويُباريهم أحياناً، كما يَفْعَلُ في مجارةِ الأقدمين ممَّن يَحْفَظُ لهم، وَيَقِفُ على نُصوصِ آدابهم وَيَنْسِجُ على منوالها<sup>(٣)</sup>.

كانَ لهذهِ المعاصرة أثراً البالغ فيه؛ أَخْذاً بالقَدْرِ الذي يَسْتَطِيعُ، ومماثلةً، وإثباتاً لوجودِهِ الأديب أيضاً.

(١) الدسوقي — في الأدب الحديث ج ١ — ٦٩

(٢) عن رسائل عبد الحميد الزهراوي وخليل مطران له — غير مؤرخة .

(٣) رسائل الرافعي — ٥٣

## الموضوعات المحدثّة

والرافعيّ بَعْدُ، لا يُعاصِرُ أصحابَ المواهبِ من هؤلاءِ وأولئكِ فحسبُ، وإنما يمتدُّ بمعاصرة أخرى من حيثِ الموضوعات،.. ذلك أن أغلبَ ما كَتَبَ فيه كانَ من الموضوعاتِ البكر، والمُحدثّة في الحياقِ المعاصرة فهو يتأثّرُ الى حَدٍّ بعيدٍ بالعَصْرِ الذي يحيا، ومثاراتِهِ الفكرية، والمذاهبِ المُحدثّة فيه بالفكرِ والفلسفة.

وكانت موجةً من الاستغراب قد غَشِيَتِ الحياةَ العربيةَ تَنقُلُ إليها من ثَمَراتِ القرائح وما للأمم فيها من آثارٍ، وفي مقدّمتها الأوربيةُ الغازية التي كانت آدابُها قد دَخَلَتِ المجالَ الفكري العربي.

على أن تأثّرهُ هَذاكَ كانَ انفعاليّاً له طابَعُهُ، وما هو بانطباعي كما هو الحالُ عندَ سواه ؛ يأخُذُ ما يَسْتَهْوِيهِ وما يَعمُرُ بِهِ أَفكارُهُ وآراءُهُ<sup>(١)</sup> وَيَدْعُ ما دونَ ذلك<sup>(٢)</sup>.

ونحن إذا ما نَظَرْنَا في محاولَاتِهِ الكُتَابِيَّةِ الأولى، بدأ لنا لأوّلِ وهلةٍ مثلُ الذي يجعلُ كتابَتَهُ جاريةً على الحال التي عَرَفَتْ لها من بينِ فنونها الكُثْرُ ؛ ففي الانشاءِ يحلُّو له أن يَنطَلِقَ شُجاعاً يَتَكَلَّفُ الجُمْلَةَ الفصحى ويحملُها على ما قَبْلُها، ويُرِدِّفُها بأخرى تُوقِعُ لها جَرَساً خاصاً، ونَعْمًا يتردّدُ مع توليدٍ في معانيها ؛ كما جاءَ في رسالَتِهِ التي وَجَّهَها الى « المنار » وفيها يقول :

(١) رسائل الرافعي — ٣٤

(٢) المساء — ١٩٣١/٧/٢٣ م

وراجع عباس العقاد — الرسالة ٢٦٣ في ١٩٤٠/٦/٢ م

« نظرتُ نظرةً في الوجوه فإذا هي تضحك وتعبس، وتنكر وتعرف.. »  
 وإذا منها الكاشر بنائيه والمرائي بعينيه، والمُصيح بأذنيه.. بينا هذا  
 يَفْقِدُ الخطوبَ لتعمُّ الكروب، إذا غيره يَرْتَقِ الحوادث لتعمُّ الكوارث.  
 تحالف وتخالف، وتآلف وتجانف، ومحبة وبغضاء كأنهم لأنفسهم  
 أعداء !. حتى عميت عليهم المذاهب، وانسدت أمامهم المهارب، فتركت  
 العيون وما تراه، والأمر وما داراه، حتى خفت جنابُ الدهول، وسمعت  
 القرآن يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ، لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا  
 اهْتَدَيْتُمْ ﴾<sup>(١)</sup>.

فاطمأن خاطر، وقر الناظر.. الخ<sup>(٢)</sup> .

وفيها يلوح لنا إلمامه بالفقه وعلومه، وتأثره بالدعوة وعظاً وإرشاداً،  
 بحيث تراءى مادة ذلك في أدبه كالقوام العام للكتابة والإنشاء عنده،  
 وأن علوم العربية تواتيه وتساعفه في أدبه الذي يتوخاه، ويكلف به،  
 ويصطلح عليه؛.. فهو يرغب في السجع، ويألف الترادف، ويحاول  
 المزوجة، ويدع في الاستعارة، ويهيم بالمجاز؛ ليرز حصيلته له في  
 الفن آنذاك، ألا تراه يقول :

« هبّ النسيم، وتوارت الشمس عاصبة الجبين، صفراء من الجزع  
 على بناتها ! وكأنما أرادت أن تحتجب عن الأرض حتى تصع الحرب  
 أوزارها، وتفضح نسمات الصبح أسرارها، فانكفأت الى المغرب،  
 وغادرت من إشفاقها على الأفق شفقاً، ونثرت أقدامها التي تحسو بها

(١) الآية ٥ — ١ المائدة.

(٢) المنار — ٢٩ محرم ١٣١٨ هـ — أيار/مايو ١٩٠٠ م والآية من سورة المائدة رقم ٤٤.

النُّورَ على السماءِ فكانتْ حَدَقًا، وكأَنَّ الغواني خِفنَ على جمالهنَّ  
من اللَّيْلِ خَوْفَ الغُبارِ على الذَّيلِ، وأشْفَقْنَ أنْ تَزهَرَ في ظلمتِه نجومُ  
السَّماءِ، ولتَبِينَ بضدِّها الأشياءُ؛ فَتَسْخُنَ آيَتُهُ بِآيَةِ الكَهْرَباءِ، وأَوْحِينَ  
إلى الأفقِ بِالسَّيِّئَةِ الضَّيَاءِ — استعارة جديدة — وَقُلْنَ للقمرِ: أَيْنَ أَنْتَ  
من ذُكاءِ ١٩ وللنجومِ: أَيْنَ خِرَافُ الخُضراءِ من الظُّباءِ ١٩؟<sup>(١)</sup>.

ويقول في «الحسن المصنوع»:  
«حَسَناءُ قد زَرَعَتْ لَوْنَ الوَرْدَةِ بخدِّها، وترَكَتْ في الوردَةِ الطَّيِّبِ،  
ومَثَلَتْ هَيْفَ العُصْنِ في قَدٍّ غيرِ رَطِيبٍ، وانتَحَلَتْ دَلالَ الحَبِّ ولكن  
من غيرِ حَبِيبٍ، فما أَحْسَنَ الوجْهَ — وهو رَوْضَةٌ مَصوَّرةٌ، ورُجاجةٌ  
منوَّرةٌ وشهادةٌ على الله مزورةٌ ١.

على أَنَّها تَزَعُمُ أَنَّها نجمُ السَّماءِ ودُرَّةُ ذلك الماءِ، بل هي عنوانُ  
الأشواقِ في صحيفَةِ العُشاقِ، وتعزِيَةُ البِعادِ في كتابِ الشُّهادِ،.. وما  
أَراها مع ذلكَ تَفَكَّرُ في الحُسْنِ والحَسَنِ، إِلَّا كما يَفَكِّرُ المَنفِي في  
الأهلِ والوطنِ. وإنما هي تَمَثَّلُ للنَّاسِ روايةَ الجمالِ بِفُصولِها، وتَقِيسُ  
عَرَضَها بِطُولِها.

ورَأَيْتُها — وقد نُفِضَ عنها ذلكَ الصَّبْحُ نَفَضَ الثَّرابِ عن الذَّيْلِ،  
ومَحَا من ثَغْرِها الابتسامَ محوَ النجومِ من آخِرِ اللَّيْلِ، ولم يَبْقَ إِلَّا  
مَسْحَةٌ في مَقْطَبِ الوجْهِ من أنفاسِ الشَّيْطانِ يَسْمُها بالهمومِ والأحزانِ.  
وإني لأَقْسِمُ بنيسانِ (أفريل) وَعَجَبِهِ، أَنَّها أوَّلُ مَنْ جاءَ للنَّاسِ شاهداً

(١) ديوان الرافعي ٢ — ٦٧ في وصف البحر

على كذبه، وأعجب ما فيها أن كل شيء يزيد حسنه بالماء، ووجهها لا ينقص حسنه، ولكن يزول»<sup>(١)</sup>.

وفيهما يدل على إفادته من تأمل الاجتماع الجديد، وابتلائه بالتزويق، وعلى موقفه المتزن في فلسفة الأشياء.

ولكنه ما عتم أن خفف من غلوائه في الصياغة التعبيرية هاتيك، فقلل من سجعاتها، ونقل ترادف عبارته نُقْلَةً أخرى في «حديث القمر» وقد خفل بالاستعارة يلقفها من هنا وهناك ويولدها في كتابات أخريات، ويُبدع ويتكر، ويهيم بالمجاز والرمزية، حتى ليكاد يحمله الحقيقة كلها، إذ يقول :

«الآن — وقد بدت الطبيعة تنهد، كأنها تنفس بعض أكرادها، أو هي تلمي في الكتاب الأسود أخبار نهارها، وبدا قلبي يتنفس معها كأنه ليس منها قطعة صغرى، بل طبيعة كبرى ١.. والله ما أكبر قلبها يسع الحب من قبله اللقاء الى ذكرها ١؟ إن هذا لهو القلب الذي ترى فيه الطبيعة دينها المقدس»<sup>(٢)</sup>.

هو كالذي تستهويه المقابلة ؛ يجتهد أن يستقصي المعاني فيها، ويجتهد أن يدل على قابلية في الفن، وأصالة استعداد فيه للإشراق بعباراتها، أو تعميق وقعها بمزاوجتها وتوليدها، وتفتيق الذهن بالابتكارات الخيالية، حتى عادت كالطابع لأسلوبه في سائر كتبه الإنشائية الأخرى.

مضى في ذلك يتخطى الإمكان، وينقل النثر العربي من حال الى

(١) النظرات — ٩٢

(٢) حديث القمر — ١٢

أخرى ؛ يَجْدُّ فِيهِ الحَيَاةَ والشَّبَابَ، ويَحْفَظُ لَهُ البَيَانَ بِقِيمِ البَلَاغَةِ. لَا فُنُونَهَا وَمُصْطَلَحَاتِهَا فَحَسْبُ :

« البَلَاغَةُ الَّتِي حَارَ الْعُلَمَاءُ فِي تَعْرِيفِهَا — عَلَى كَثَرَةٍ مَا خَلَطُوا — لَا تَعْدُو كَلِمَتَيْنِ : قُوَّةُ التَّصَوُّرِ، وَالْقُوَّةُ عَلَى ضَبْطِ النِّسْبَةِ بَيْنَ الْخِيَالِ وَالْحَقِيقَةِ<sup>(١)</sup>. »

وَهُمَا صِفَتَانِ مِنْ قُوَى الْخَلْقِ، تُقَابِلَانِ الْإِبْدَاعَ وَالنِّظَامَ فِي الطَّبِيعَةِ، وَبِهِمَا صَارَ أَفْرَادُ الشُّعْرَاءِ وَالْكَتَّابِ يَخْلُقُونَ الْأُمَمَ التَّارِيخِيَّةَ خَلْقًا، وَرُبُّ كَلِمَةٍ مِنْ أَحَدِهِمْ تَلِدُ تَارِيخَ جِيلٍ<sup>(٢)</sup>.

إِنَّهُ هُنَا كَالَّذِي يَجْعَلُ لِلثَّبَاتِ مَكَانَهُ مِنَ الْإِنْتِصَارِ، وَكَأَنَّهُ يُلَوِّحُ بِأَعْلَامِهِ، وَيَذُلُّ عَلَى شَخْصِيَّتِهِ وَيَتَقَدَّمُ صَفُوفَ الْمُنْشِئِينَ بِخُطُواتٍ ثَابِتَةٍ عَلَى الصِّرَاطِ فِي انْعِطَافَةٍ لَهُ تَمْضِي بِهِ مِنْ بَعْدُ إِلَى الْهَدَفِ الَّذِي يَرْمِي إِلَيْهِ،.. وَيَتَجَلَّى ذَلِكَ أَكْثَرَ فِي الْإِنْتِقَالَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْكَبِيرِ الَّتِي عَانَاهَا مَعَ « الْمَسَاكِينِ » إِذْ يَقُولُ :

« وَضَعْتُ هَذِهِ الْأَوْرَاقَ وَكُتِبَتْ فِيهَا عَنِ الْفَقْرِ، وَمَا هُوَ مِنْ بَابِهِ، لَا لِمَحْوِهِ وَلَكِنْ لِلصَّبْرِ عَلَيْهِ، وَلَا مِنْ أَجْلِ الْبَحْثِ فِيهِ وَلَكِنْ لِلْعَزَاءِ عَنْهُ.

ثُمَّ كُتِبَتْ عَنِ الْغِنَى وَمَا إِلَيْهِ، لَا رَغْبَةً فِي إِفْسَادِهِ وَلَكِنْ لِإِصْلَاحِ مَا يَفْهَمُ مِنْهُ غَيْرُ أَهْلِهِ<sup>(٣)</sup> وَأَذَرْتُ الْكَلَامَ فِي كُلِّ ذَلِكَ عَلَى الْوَجْهِ

(١) حَسَبَ إِبْرَاهِيمَ الْمَصْرِيِّ هَذِهِ الْعِبَارَةُ لِنَاقِدِ أَلْمَانِي ( الْفَرِيدِ كَبِير ) الْمَسَاءِ ١٩٣١/٤/١١ م.

انْظُرِ الرَّافِعِي — الْبَلَاغُ ١٩٣١/٧/٢٣ م.

(٢) حَدِيثُ الْقَمَرِ — ٧

(٣) مَا أَبْعَدَ نَظَرَ الرَّافِعِيِّ..!



الذي يراه الشاعر في ضحك الطبيعة ورقتها، دون الوجه الذي يعرفه  
الفيلسوف في عبوس المادة وجفائها، ونحوت فيه نسق العقل في  
بث الخواطر للنفس في مستقرها.. وجئت به من مبرق الصبح لا  
من غياهب الليل، وأطلقت من أفق الإيمان لا من قرارة الشك، وأردت  
به تفسير شيء من حكمة الله في شيء من أغلاط الناس..

فإن خرائب اللوم، وغرائز السوء في هذا الانسان أنه ما ينفك يحمل  
نعم الله ورحمته، وما لا حد له من العناية الإلهية<sup>(١)</sup>.

الرافعي هنا يتحول بأدبه نحو شخصية المفكر الحكيم والفيلسوف  
الذي لا يغادر فقه الحياة، ولا يتنكب عن جادة الأدب — وإن حملة  
جهد الطاقة.

ولا يقف تقدم الرافعي الكاتب المنشئ عند هذا الحد، وإنما يتخطاه  
في نقلة أخرى يعود بها الى تنزيه الحياة نفسها، وتكريم الانسان بفضيلة  
الحس والشعور إذ يقول :

« لو أني سُئِلْتُ تسميةً لعلم الجمال لسميته « علم تجديد النفس » ؛  
فإن الجميل الذي لا يُجدد بمعانيه حواسك وعواطفك ويُعيد لها غضةً  
طريةً كما فطرت من قبل، لا يُسمى جميلاً إلا على المجاز<sup>(٢)</sup>.

لا تسأل عن الجمال من يحسن الفكر والإبانة عن فكره، ولكن سأل  
عاشقاً يحسُّ الشعور ويُحسن التعبير عن شعوره، فذلك هو الشاعر من

(١) المساكن — ٢٩

(٢) المضمار — ١٩٢٢/١٠/٦ م

جِهَاتِهِ الأربعة ؛ جهة قَلْبِهِ وفكرِهِ وحبيته، وذلك هو تاريخُ الجمالِ الذي يتكرَّرُ على الأرضِ أبداً، وإلى منقطع الحياة كالحياة نفسها»<sup>(١)</sup>.

هكذا يتحوَّل أدبُ الانشاءِ عندهُ الى أداةِ دَعْوَةٍ، وبيانِ عقيدةٍ فيها السموُّ بالحياة، والتعبيرُ عن كرامةِ الانسان فيها.. فإذا ما استوى له ديوانُ رسائلِ توزَّعتْ فصولاً ثلاثة في قصّةِ حبه ؛ سماها على «الأحزان» تارة، واستمطَّرَ لها «السحابُ الأحمر» أخرى، وعادَ في الثالثةِ يكتبُها على «أوراقِ اللورد»، وقد جَعَلَهَا كتاباً ورسائلَ ذَهَبَ فيها مذهباً عزيزاً في هذا المضمار:

«الفنُّ عندي في الحبِّ أن يَبْدَأَ في المرأة، ولكن لا يَنْتَهِي فيها، فالمرأةُ طريقُهُ لا غايَتُهُ، وهي وسيلةٌ لفهمِ الجمالِ وإدراكِهِ فيما هو أجملُ منها، أي في الوجودِ نَفْسِهِ بكلِّ ما فيه، كأنه الخلودُ الروحي في الإنسانِ يحاولُ بالحبِّ أن يُحَسَّ معانيهِ الساميةِ الخالدة — وهو بعد في هذه المادّةِ الفانيّةِ المتغيرة»<sup>(٢)</sup>.

ذلك هو رَجُلُ الدَّعْوَةِ وإنسانُ الفكرِ الذي يَجْعَلُ من نَفْسِهِ قُدْوَةً ومِثَالاً — وهو يَتَنَقَّلُ في عمره ودعوتهِ من مرحلةٍ إلى أخرى. حتّى إذا ما تَمَّ تمامُهُ، وأضحى إمامَ أدبِ الإنشاءِ بحق، قدَّمَ لَوَحِيَّ قَلَمِهِ ؛ فصرَّحَ بدينهِ وأبانَ عن دعوتهِ، ومثَّلَ عقيدَتَهُ ورسمَ طريقَ الاقتداءِ إذ قال :

«الكاتبُ الحقُّ أداةٌ في يدِ القوَّةِ المصوِّرةِ لهذا الوجودِ، تصوِّرُ

(١) رسائلُ الأحزان — ١١٠

(٢) وحي القلم ج ١ — ٥١

به شيئاً من أعمالها فناً من التصوير ؛ الحكمة الغامضة تريده على التفسير — تفسير الحقيقة أو الخطأ الظاهر يريده على التبيين — تبين الصواب، والفوضى المائجة تسأله الإقرار — إقرار التناسب، وما وراء الحياة يتخذ من فكره صلة بالحياة، والدنيا كلها تنقل فيه مرحلة نفسية لتعلو به أو تنزل.

ومن ذلك لا يخلق الملهم أبداً إلا وفيه أعصابه الكهربائية، وله في قلبه الرقيق مواضع مهيأة للاحتراق تنفذ إليها الأشعة الروحانية، وتسلط منها المعاني<sup>(١)</sup>.

وهنا — حيث يستبطن ذاته، ويترجم عن أحواله النفسية، ويصور تحوله الفكري، ويرى في روجه المشرقة ودعوته المؤمنة ؛ يظهر وقد تكامل عنده أدب الإنشاء بصورته التي يتوخاها أهل النقد والمعاصرة، ومعناه الذي يالف الناس، وروعته التي تخلق ألباب الأدباء.. بعدما توفّر له من دواعيه وأسبابه، وما قام عليه باستعداده، وتيسر له من حصيلة العلمية التي ما تفتأ ترفده بالعطاء بعد العطاء.

ولو تأملنا ملياً في الدواعي النفسية التي سارت به في تلك الرحلة البعيدة المعطاء حتى ميّزته هكذا، لوجدنا أثر الوازع الإسلامي يسعى به في دعوة وإيمان ؛ يشق طريقه بين مختلف الآراء والمذاهب، ويظهر عليها بضمير عربي لا يقصّر عن حقيقة ولا يخطئ له هدفاً، وقد يصيب غاية الغايات مع الاجتماع المنقلب في العصر ا.

(١) وحى القلم ١ — ١٥

كُلُّ ذلك في تطويعِ للغة وتجديدِ في أساليبِ بيانها، وتوليدِ في معانيها ؛ لا يقفُ على المأثورِ والمُتوارثِ من علوم وفنون، وإنما يُضيفُ إليها ألواناً من الإبداعِ، وأنماطاً من الابتكاراتِ ؛ في الكلمةِ ينقلها من معناها الى معنى لها فريد، وفي العبارةِ من مبنائها الى سلوكٍ جديد، وفي الجملةِ من اجتماعها على الأصالة الى الإشراق في قيمِ الفنِّ التي هي الأساسُ في علومِ البلاغة قَبْلَ أن تقوم لها المصطلحات

ذلك أنَّ البلاغةَ « هي التصرُّفُ في المعاني المُنصَرِّفةِ الى الأغراضِ ؛ وذلك بتناولِ الألفاظِ — لأن المعاني لا تقومُ بغيرها، وتناولِ الأسلوبِ، لأنَّه طريقُ تلك المعاني التي تنصَرِّفُ فيها »<sup>(١)</sup>.

« والطريقةُ التي يكونُ بها البيانُ جَميلاً هي بعينها الطريقةُ التي يكونُ بها البيانُ بليغاً، فالمرجعُ في كليهما الى تأثيرهما في النفس. وما المجازاتُ والاستعاراتُ والكنائياتُ ونحوها من أساليبِ البلاغةِ إلَّا أسلوبٌ طبيعيٌّ لا مذهبَ عَنْهُ للنَّفْسِ الفَنِّيَّةِ ؛ إذ هي بطبيعتها تُريدُ دائماً ما هو أعظمُ وما هو أجملُ وما هو أدقُّ، ولكن النَّفْسَ الشاعرةَ تأبى إلَّا زيادةَ معانيها، فتصنِّعُ ألفاظها صِناعَةً تُولِيها من القوةِ وما ينفذُ الى النفسِ ويضاعِفُ إحساسها، فمن ثَمَّ لا تكونُ الزيادةُ في صُورِ الكلامِ وتقليبِ ألفاظِهِ، وإدارةَ معانيهِ، إلَّا تهيئةً لهذهِ الزيادةِ في شعورِ النفسِ »<sup>(٢)</sup>.

(١) المقتطف — مارس ١٩٠٥ م، وقد هَمَّ أن ييسط فلسفة ذلك في البلاغ ٨ ربيع الأول ١٣٥١ م، وكيف أنَّ بلغاء العرب لم يعرفوا البلاغة ولا تعمداً صناعة البيان، وإنما اصطلاح عليها بعد الإسلام، وبعد عصر التدوين!

(٢) وحي القلم ٣ — ٢١٢

ذلك أن جهازَ التوليد — والزيادة قد استمرَّ فيه واستحكم بمعانيه، وأصبحَ له بمقامِ « ملك الوحي عند النبي »، « وهذِهِ القوَّةُ إنَّ أَرَادَتْ معاني الجمال أخرجتِ الشاعرَ، وإنَّ أَرَادَتْ كشفَ السرِّ أخرجتِ الأديبَ، وإنَّ أَرَادَتْ حقائق الوجود أخرجتِ الحكيمَ »<sup>(١)</sup>.

إذ هو يستبطن ذاته، ويخلدُ إلى الاستلهاَم، يجدُ الحقائقَ التي رمى إليها مُحضَّرَةً، فلا يفتأ يفتشُ عن الوسيلةِ التي تُشير إليها، فيكشفُ عنها الغطاءَ، ويحاولُ أن يرفع حُجُبَ الغيبِ بوساطةِ تلك القوَّةِ، وما يُلقَى إليه من الإلهام.

ومن ههنا استطاعَ أن يُدْخِلَ في النثر العربي ما لم يكن معروفاً من معاني الشعر وأخيلتهِ وأدواته إلّا في الندرَةِ<sup>(٢)</sup> فيخرجُ للناسِ خماسيتهِ الإنشائية الرائعة<sup>(٣)</sup> وفيها فصولٌ من الغزل والوصف والجمال قلَّ أن يُصيبَ معانيها غير الشعر.

هكذا كانَ له في الوصفِ والعزْلِ والعاطفةِ والحُبِّ ما أدَّره من رسائلَ في هذهِ الناحيةِ الخطيرةِ من حياةِ الإنسان ؛ تَسَامَى فيها وجَعَلَ الجمالَ آيةً للإشراقِ بنورِ الإلهامِ والإيمانِ !. ومكَّنَ للفلسفةِ من الشعر ؛ تحلَّلَ فيه قيمُهُ وأعرافُهُ، وتتخذُ له مناهجَ في التصويرِ والتقديرِ، وتجعلُ النقدَ والبيانَ فيه قواعداً وأصولاً لا محيصَ لَهُ عنها، إذا ما أَرَادَ له

(١) وحي القلم ٣ — ٢٧٢

(٢) أوراق الورد — ٧

(٣) حديث القمر، كتاب المساكين، رسائل الأحزان، السحاب الأحمر، أوراق الورد.

ناظموه جمال الفن وآية الإبداع فلتات الابتكار والتوليد<sup>(١)</sup>.

والطريف أنه استطاع أن يُدخِلَ الرثاء على النثر في فن من الكتابة فيه الوجدان الأثير، وجلال الإيمان، وفلسفة الأخلاق في القضاء، وعزاء النفس.. وما لم يعرفه الشعر نفسه، ولا قربت منه الخطابة في أزهى عصورها!

ومن ذلك رثاؤه لصفي مودته ورفيق صباه الشيخ أحمد الرافعي<sup>(٢)</sup>، وبكاؤه زين الشهاب الزعيم أمين الرافعي<sup>(٣)</sup>، ووصفه لدهشة مصر في وفاق سعد زغلول<sup>(٤)</sup>، ومناجاته للتراب الميت<sup>(٥)</sup>، ومراثيه لمحمد نجيب (باشا)<sup>(٦)</sup> والملك فؤاد<sup>(٧)</sup>، وقد جعل فيها للنثر مكرمة قد تفضل الشعر!

ومن فرائده في هذا الشأن أنه كتب يوماً في «الجمال البائس» ينتقد الأوضاع القانونية الطارئة، ويدل على ما تحمله قوانين العقوبات في موادها من فكرة الفجور..! بخلاف الإسلام الذي يقوم على منع الجريمة وإبطال أسبابها<sup>(٨)</sup>.

(١) أبولو — نقد الشعر — مايو/أيار ١٩٣٣ م

(٢) الأخبار — أغسطس ١٩٢٢ م — السحاب الأحمر ٩٨

(٣) ذكرى فقيد الوطن — ٥٣

(٤) الأهرام — ١٩٢٧ م — أكانت مصر في حلم!

(٥) المقتطف — ديسمبر ١٩٢٨ م — المساكين — ٥١

(٦) الأخبار — ١٩٢٩ م

(٧) الرسالة — ١٤٩ — ١١ مايو/أيار ١٩٣٦ م

(٨) وحي القلم ١ — ١٢٠

## لغة الرافعي

أما لغة الرافعي، فهي مُتَقَاتَة بِذَوْقٍ وَفَنٍّ، فلا نَرَى فيها ذَلِكَ التَّقَعُّرَ والإغرابَ الذي قد يمارسُهُ الْمُتَفَاصِحُونَ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ، وإنَّما هو يُوَثِّرُ السَّلَامَةَ بِاللَّفْظَةِ وَالْكَلِمَةِ الْمَفْرَدَةِ يَغْرِسُهَا فِي عِبَارَتِهِ، فَتَنْبُتُ فِيهَا بِمَعْنَى هِيَ مِنْهَا، وَلَكِنَّهُ يُثْمِرُ فِيهَا وَيُعْطِيهَا حَيَاةً جَدِيدَةً<sup>(١)</sup>.

« ولو أنَّ واحداً من أهلِ البيان أرادَ أن يتَّبَعَ ما أَجَدَّ الرافعيُّ على العِربِيَّةِ مِنْ أَسَالِيبِ الْقَوْلِ، لِأَخْرَاجِ مُعْجَمٍ مِنَ التَّعْبِيرِ الْجَمِيلِ يَعْجِزُ أَنْ يَجِدَ مِثْلَهُ لِكَاتِبٍ مِنْ كِتَابِ الْعَرَبِيَّةِ الْأَوَّلِينَ ؛ إِذْ كَانَ مَذْهَبُ الرافعي أَنْ يُعْطِيَ الْعَرَبِيَّةَ أَكْبَرَ قَسْطٍ مِنَ الْمَعَانِي، وَيُضِيفَ ثَرْوَةً جَدِيدَةً إِلَى اللُّغَةِ، وَقَدْ بَلَغَ مَا أَرَادَ<sup>(٢)</sup> ».

على أَنَّ الْمُفْرَدَاتِ الَّتِي وَقَعَتْ فِي اسْتِعْمَالِهِ لَا نَرَى فِيهَا قَلَقًا، وَقَدْ لَا يُمْكِنُ اسْتِبْدَالُ غَيْرِهَا بِهَا مِنَ الْمُرَادِفَاتِ ؛ لِمَا يَتَّخِذُهُ لِمَوْقِعِهَا مِنْ وَزْنٍ خَاصٍ يَخْتَلُّ إِنْ هِيَ أُزِيلَتْ وَيَضْطَرُّ بِمَا لَوْ أَبْدَلَتْ، وَيَنْبُو إِنْ أَضِيفَ إِلَى عِبَارَتِهِ لَفْظٌ !

وَرَبَّمَا كَانَ إِثَارُهُ الْإِيجَازَ وَالِاخْتِصَارَ قَدْ حَالَ دُونَ إِمْكَانِ تَلْخِصِ الْكَثِيرِ مِنْ كَلَامِهِ الَّذِي يَرَى فِيهِ الرَّأْيَ، أَوْ يَقُولُ بِفِكْرَةٍ مَا، وَلَكِنْ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مُتَسِقًا قَطُّ، وَإِنَّمَا يَتَيَسَّرُ لَنَا فِي مَرَحِلَتِهِ الْأَخِيرَةِ خَاصَّةً تِلْكَ الَّتِي صَارَ يَكْتُبُ فِيهَا لِلرَّسَالَةِ وَالصَّحُفِ الْأُخْرَى، فَقَدْ لَاحَظْنَا عَلَيْهِ التَّكَرَّارَ فِي مَعَانِيهِ<sup>(٣)</sup> بَلِ الْأَخْذَ مِنْ ذِكْرِيَاتِهِ<sup>(٤)</sup> وَالْعُودَةَ إِلَى بَعْضِ

(١) العريان — ١٩٥

(٢) مِنْ ذَلِكَ مَا أَدَارَهُ فِي الْأَدَبِ وَالْأَدِيبِ — الرِّسَالَةُ — ١٨٠٠ وَمَا كَانَ نَشْرُهُ مِنْ سَرِّ

النَّبُوغِ فِي الْأَدَبِ — الْمُقْتَطَفِ ٨٢ — ١٩٣٣ م

(٣) لَاحَظْ كَلِمَاتِهِ عَنْ حَافِظٍ — وَحْيِ الْقَلَمِ — الثَّالِثِ وَبَعْدَ شَوْقِي.

مقالاته وأحاديثه<sup>(١)</sup> كالذي يَمَلأ الفراغ أن تفوت الفرصة في صفحة  
من المجلة !

### أسلوبه

عُرفَ للرافعي أسلوبه المتين بما كادَ يَنْفَرِدُ بِهِ فيشَعَفُ الآخَرين،  
وكانتْ لَهُ عناية خاصة جَمَعَ محاسنها من أصحاب الأساليب في العزبيّة  
من لَدُنْ كانَ عبدُ الحميد الكاتب يَتَرَسَّلُ، وأبو عثمان الجاحظ يَسْتَطَرِدُ،  
حتى عادَ جَارُ الله محمود الزمخشري يتوسَّلُ بفنونِ البلاغة، وبديُعُ  
الزمان يَتَصَنِّعُ، وسواهم ممَّن يَتَأَنَّقُ، ومَنْ جاءَ يقتفي الآثار من بعدهم  
يترَفَّقُ،..

ولكنه لم يكن انطباعياً في أَخْذِهِ، وإنَّما يَتَحَرَّى فَصَحَ كلامهم  
يَسْتَعْدِيها وَيَسْتَحْلِيها، ويجعلها من بعضِ محفوظه ومادة موسيقاه، ثم  
يحرِّكُ في نَفْسِهِ جهازَ التوليد؛ يبتكرُ في الإسناد، ويُدْعُ في الصياغة،  
ويختالُ في الصَّنْعة، ويُعنى كُلَّ العناية بالتهذيب وتدريب العبارة وانتظام  
الجملة بالتقديم والتأخير وترادف المفردات، « بل كان يَسْتَخْدِمُ ألفاظَ  
اللُّغة في بناءِ صُورٍ جديدة، ولقد برعَ في هذا براعة أثَّرتِ اللُّغة ثراءً  
عظيماً »<sup>(٢)</sup>.

(١) لاحظ « الإمام » — الزهراء — ربيع ١٣٤٣ هـ — وأبو حنيفة من غير فقه — الرسالة

— ١٩٣ — ٢ محرم ١٣٥٦ هـ

(٢) عمر الدسوقي — الرافعي الكاتب — ٤٩



وكان الدسوقي يُخصي عليه الأمثلة، فوقفَ على صُورٍ من مجازاته واستعاراته الجديدة، فأوردَ الكثير منها في رسالته<sup>(١)</sup> ثم قال :  
« الحديثُ يطولُ لو رُحِتُ أعددُ ما افتتنهُ يراعُهُ وخیالُهُ من صُورٍ بيانيّةٍ في شَتَّى الموضوعات »<sup>(٢)</sup> وأحسبُ أنه ذكر لي يوماً أنه بسبيلِ إعدادِ فصلٍ تامٍ منها !

وفي المرحلة التي تحوّل فيها الرافعي الى الكتابة الناضجة كان أسلوبه يميّز بقوة التصوّر، ويوردُ تشبيهاتٍ بليغةً فيها لَفَتَاتٌ بارعة، وأمثالٌ محكمة النسيج، وقد يأخذُه الفنُّ فيخترعُ في الأسلوب، ويؤلّدُ في المعاني حتّى يستوفي موضوعه، ويستطرّدُ أحياناً، ولكنّه يماسكُ في أدبه، فلا يدخلُ عليه فكراً لم يَنصَحْ، ولا يقولُ برأيٍ قلقٍ، وقلما وَرَدَتْ له كلماتٌ ومفردات غريبة نادرة إلا إذا أرادَ معنى لا يغني فيه سواها.

على أن « اهتمامه بالتحليل والتعليل، والتسلسل المنطقي، واعطاء موضوعه قدراً أكبر من التفكير والدرس وتقليب الرأي كان وافراً يضغُ أمام ناظره هادياً من الدين والأخلاق يَهْدِيهِ أبداً في كل أبحاثه »<sup>(٣)</sup>. وربما اتَّخَذَ في التجريد وسيلةً للارتفاع بأسلوبه، كما عادَ الى مقالاتٍ وحُطِبٍ لَهُ يَنحَلُّها الشيخ علي الجناحي (المجذوب) يحاورُهُ ويداورُهُ، ليرجعَ بالفكر الانساني في سموه الى الفطرة، ويمتازُ بنظرة الاعتقاديّة المُسلمة في الموضوعات التي يتحرّى، أو يُضمّنُ تلكَ المقالاتِ رسائله

(١) نحسن الظن بالدكتور عادل الدسوقي في إخراج رسالة. أبيه فقد كانت أمنية عمره.

(٢) المرجع السابق — ٤٠

(٣) المرجع السابق — ٤٠

الوجدانية، كما في « كتاب المساكين » و « رسائل الأحران » ولا شك أن الرافعي يتأثر بأدب القرآن في قصّة الرجل الصالح مع نبي الله موسى عليه السلام<sup>(١)</sup>.

وعلى شدّة حفاظه على أسلوب العربية فإنّ جُمْلَتَهُ وعبارَتَهُ وتركيب فقراته في أسلوب كتابته لم يكن قط على تلك الأنماط التي عُرفت لسابقيه من فحول البيان في صدر أيام العربية « وقد اتَّفَقَ لَهُ من أساليب البيان ما لم يتفق مثله لكتاب<sup>(٢)</sup>، ممّا حدا بأنيس المقدسي أن يقفَ بإزائه لينعتَهُ بأنه يَجْمَعُ أطرافاً من أولئك بطريقة رافعية<sup>(٣)</sup>.

أطال الجملة العربية، وفَصَلَ ما بين المُسند والمُسند إليه بفقرات ليست منها الجملة الاعتراضية المعروفة، حتى طالت بشكل تلجئة إلى الحذف أحياناً<sup>١</sup>. كما هي الحال في بعض رسائل « أوراق الورد » خاصة.

وهذا التطوير بل التطويع للجملة العربية جعل من « شبلي شمّل » يقول : « لا بدّ أن تكونَ هذه المقدمة مترجمة<sup>(٤)</sup> » بعد أن وقّف على مقدمة ديوان « النظرات »<sup>١</sup>. لما لاحظَهُ فيها من خِطّة الحديث وصفاء الرونق والبيان الجديد.

(١) القرآن الكريم — سورة الكهف — الآية ٦٧ وما بعدها ومن المواقفات الطريفة أن محمد يديع شريف قد نقلَ عن (باول أرنست) كتابَهُ في (حوار العباقرة) عام ١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥ م وفيها يدورُ الحوار بين الراعي هومير — الذي يمثل الفطرة، وبين أكثر من خمسين شخصية من عظماء التاريخ.

(٢) المؤيد — ١٤ مايو ١٩١٤ م، البلاغ ٣٠ مارس ١٩٣٣ م والكلمة لعباس العقاد.

(٣) الفنون الأدبية وأعلامها — ٣١٩

(٤) رسائل الرافعي — ٢٦٣

ومن هنا حَسِبَ « كمال النجى » أن « جملة الرافعي الثرية تشبه الجملة المترجمة أحياناً، لفرط تحرُّرها من الأنماط القديمة، وامتلائها بالإحساس »<sup>(١)</sup>.

ومن هنا أيضاً ندرك أن الأصالة عنده لم تكن الإتيان وحسب، وإنما هو يرى :

« أن مذاهب العرب واسعة، ولنا ما لهُم من التصرف في الاستعمال، إذا لم نخرج على قاعدتهم » ويقول : « أعتقد أن مذاهب العرب ليست بالضيق الذي يتصورونه »<sup>(٢)</sup>.

وقد سبق إلى قبول « الزهور » و « الورود » جمعاً للزهر والورد، وكان يعترض عليهما جملة معاصريه ممن لم يؤثروا غير ما ورد عن العرب في هذا الشأن<sup>(٣)</sup>.

وهو الذي أحيا كلمة « فَحَسِبَ » ودل على استعمالها<sup>(٤)</sup> كما وضع عبارته « مهما يكن من شيء » التي أخذها عنه لطف السيد وأفرط في ترديد طه حسين !. وزاد في بعض الأفعال وعداها غير مُلتفت إلى اعتراض المعترضين من فقهاء اللغة، واستعمل منها اكتشف وأودع وأحسن وغيرها<sup>(٥)</sup>.

(١) الكواكب — ١٠/٨/١٩٦٤ م

(٢) رسائل الرافعي — ٨٣

(٣) وحى القلم ٣ — ٣٣٥

(٤) المقتطف — ٦٠ — ١٩٢٢ م

(٥) رسائل الرافعي — ٢٠٤

وزاد في بابِ الإِتباعِ مثل قوله : شيطان ليطان، وغيرها ما يكادُ  
يجتمع له من تلك وهذه معجمٌ جديد فيه فتاواه وجملته آرائه في هذا  
الأمر من اللّغة وحياتها.

أمّا قولته : « أما قبل » فلها استعمالٌ خاصٌّ وإن زَعَمَ أن معناها  
كان ما كان<sup>(١)</sup> ؛ ذلك أن قولهم « أما بعد » يقتضي الحمد لله أولاً،  
ولا تَجِيءُ كذلك « أما قبل » !.

يتبيّن لنا من ذلك كلّهُ وأمثالٍ له أخرى أن حلاوة التعبير مع قَصْدِ  
الآراءِ واستيعاب المعنى وحفظه من الابتذال، ووزنه، كان هو المذهب  
البياني الذي عرف به الرافعي، وأنه هو الذي جعل منه ذواقة<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

والبيانُ في العربية لَفْظٌ ومعنى ووزنٌ بينهما، قَبْلَ أن يكونَ حقيقةً  
أو مجازاً، وقَبْلَ أن تَجِيءَ قَرِينَةً أو تتشابهُ أوجه تخرج بالوضعِ الى  
الاستعارةِ والكناية، أو تعودُ به لبدائع !.

ومن هنا كانت علومُ العربية لِصَبْطِ النسبةِ بين اللفظِ والمعنى بإثباتِ  
الوزنِ بينهما، ثم أن تجتمعَ الألفاظُ والمعاني في العبارة، وتُسْتَطَرَفَ  
معها الأوزانُ ؛ لِتَجِيءَ الجملةُ العربيةُ من ثَمَّ ذات وقعٍ موسيقيٍّ تتصاقبُ  
فيه الحُرُوفُ، وتَسْأُوقُ المعاني، وتُتَحَدُّ الأوزانُ، وتُتَنالُ صُورُ البيانِ  
متتابعةً وتشرقُ البلاغةُ في رونقٍ وجمال.

(١) أوراق الورد — ١٣٦

(٢) وحي القلم ٣ — ٣٨٩

وإن نحنُ تحررنا رسائلَ البَلْغاءِ في العربيةِ وَقَفْنَا على هذهِ الحقيقةِ  
بَدِيًّا من غير ما حاجةٍ الى أكوامِ التعريفات التي أُولِعَ بها المتأخرون،  
بعدما اسْتَعْجَمَتْ علومُ البلاغة، وعادَتْ من تداول أمثالها وصورها  
وضروبها وألوانها تضربُ الى الذبول، وتحولُ نحو الجفافِ، وتُسْتَحْجَرُ  
في الأفهام.

ومن هُنا ندخل الى كتابةِ الرافيِ نَفْتَشُ ونَسْتَكْشِفُ قُوَّتَها وتأثيرها ؛  
فأما مُفرداته، فقد مرَّ الكلامُ فيها آنفاً، فما نراهُ توَعَّرَ فيها يوماً، إلا  
ما يجيءُ في النُّذرةِ التي يقتضيها الوضعُ لمعنى من المعاني المفردة  
لذاتها، فهي ألفاظٌ مأنوسةٌ وغنيّةٌ، وكلماتٌ منتقاةٌ بأناءةٍ، وفرائدُ تجتمعُ  
في عِقْدٍ نظيمٍ ما لو تهيأَ لها معجمها، بل كان ينفرُ من الألفاظِ  
الثقيلة<sup>(١)</sup>.

والبيانُ بعدُ صناعةٌ دقيقةٌ فوقَ اللَّفْظِ نفسه، وفوقَ المعنى، وفوقَ  
الوزنِ، فلا بُدَّ من التنسيقِ والمماثلةِ بين هذهِ الثلاثةِ بحيثُ تُنْسَجَمُ  
حتى كأنَّ الكلَّ كذلكَ من أصلِ الوضعِ فيخرجُ الكلامُ من جملتهِ  
كما تخرجُ اللَّفْظَةُ من حروفِها لا يمكنُ أن تأخذَ منها حرفاً !.

ومن أجلِ ذلكَ فإنَّ أبلغَ النثرِ وأفصحَ ما مألَ الى صُورِ الشعرِ  
في طريقةِ التأديِّ الى النفسِ، والى لُغَةِ الشعرِ في بنائها القائم على  
تأليفِ المعاني وترجمتها للنفسِ في موسيقى من العروضِ والتشبيهِ  
والمجازِ والاستعارةِ والكنايةِ وما إليها حتى يبلغَ روعةَ الغامضِ<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر العصور — ابريل ١٩٢٩ م — رسائل الرافي — ١٥٤ — قرع طُنبوب التحقق.

(٢) ص.ش. البصير ٢٥ مايو ١٩٢٥ م

## انفراده

وقد استطاع في هذا أن يكون أمثولةً فريدةً في غِناءِ البيان العربي وحياءِ البلاغة وإنبات الكلمات، وإحياءِ الصُّور والغباريات في تجلٍّ وسموٍّ.. ألا ترى أنَّ عبارته وجُمَلته وأسلوبه تظهرُ لقارئه للوهلة الأولى سواءً منهم مَنْ يسلُّكُ إليه أم مَنْ يَتصدَّى له ماثلةً بقوتها وجمالها ١٩

ربما حاولَ تقليدهُ أديبٌ أو كاتبٌ<sup>(١)</sup>، أو ردَّ عليه في خطابٍ فجاريٍّ عبارته وأسلوبه، فكانَ أن اتَّفَقَ لَهُ من فَنِّ القول ما يشابهُ عبارته حتى لَتَنسَبُ الى الرافعي نفسه بشيءٍ من البلاهة<sup>(٢)</sup>.

وبذلك ونحوه كان أسلوبُ الرافعي وبيانه آيةً أخرى لثباتِ العربية على مرِّ العصور والدهور، وقوتها على الحياة والنماء مع الأيام في لفتاتها وحضاراتها وعُلومها وفنونها جميعاً.

\* \* \*

أمَّا ما اتَّهم به من تعُلُّ الكتابة والتَّصنُّع والغموض والإبهام، فإنَّما ذلك من تحريه ما تقدَّم من صفةِ الشعر والبيان.

هكذا كان الرافعيُّ الكاتبُ، وكذلك كانتِ الكتابةُ العربية عنده، بياناً من البيان، وروعةً خالدة تذهبُ في النفسِ مذاهبَ من التأمل والإعجاب، وإن أخذتِ القارئ العربي الى الصبرِ والروية ومعاودةِ القراءة مرَّاتٍ؛ فإنَّها لتلذُّه أبداً — وهو يكتشفُ جوانبَ من معانيها وتوليداتِها.

(١) من أبرع المقلِّدين محمد صادق عنبر — انظر له «رسائل مجنون ليلي».

(٢) مثل ما وقع لعباس العقاد في اتِّهامه الرافعي بنحل سعد زغلول تقيظه لإعجاز القرآن!

## الأداء النفسي

بقي أن ندرك حقيقة أخرى قد تكمن في الأداء النفسي الذي كان عليه في بيانِه هُناك، ولا سيّما بعد أن عَرَفْنَا الدوافع القوميّة والاعتقاديّة التي كانت تُملِي عليه تلك الألوان من أدبه فتطبع فيها صوراً من جوانب شخصيّته<sup>(١)</sup>.

ويبدو لنا للوهلة الأولى أنّه لم يكن هنالك حدّ يمكن أن نُميز بين ذاته النفسيّة المُفردة ودعوته القوميّة، وإنّما هو في ذاته ميدانُ التجربة الوجدانية التي يُعانيها، فهو الفكرة والفن معاً. وما أدبه بعد ذلك غير إثمار في جوانب النفس العربية في تلك المرحلة من حياتها القوميّة المُنبعثّة بقيمها وأعرافها، وبكلّ ما تشتمل عليه من خصائص وميزات.

لقد ألقى عليه أبوه الشيخ يوماً — وهو يحاوره — حكمة تستنفره للمعركة الاعتقاديّة حين قال: «إنك يا ولدي تعاهد في سبيل الله»<sup>(٢)</sup>. فكانت مس بها قلباً خليّاً بالثّ والنجوى، فكان الجهاد من ثمّ سبيله القويم الذي آثره في حياته الأدبية كلّها.

هو إذا ما صبا جاهداً نوازعه النفسيّة، وسما في حبه، وآثر الحرمان ولذات اليأس التي تحفظ الكرامة على ما يمكن أن ينزلق به في مهاوي لا يرضاها لغيره، فكيف تألفها نفسه!؟

وإذا ما كتب في تلك المعاني، استجلى أمامه الروح العربية المؤمنة

(١) دراسات في علم النفس الأدبي — ٦٢ وما بعدها.

(٢) المقتطف — ٩١ — ١٩٣٧ م

ومكّن لها من الجهاد في الوجدان، لعمران الضمير، وبناء الأمة على أسس فيها متانة المحبين وبأس الصناديد.

وإذا بحث أو نقد أو دعا، فإن الجهاد في دُرْبته وميادينه من الكرّ والفرّ والإجهاز والاعتنام، كل أولئك موفور لديه.

إن أدبه من هذه تصوير دقيق لنفسية العربي الذي يتطلع الى الحياة بإيمان وصبر وجلد وعزيمة لا تفتر. « فالأديب يُشرفُ على هذه الدنيا من بصيرته، تتجه نفسه العالية الى أن تحفظَ للدنيا حقائق الضمير والانسانية والإيمان والفضيلة، وتقوم حارساً على ما ضيع الناس، فالأدب عنده يُشبه الدين، غير أن الدين يعرض للحالات النفسية ليأمر وينهى، والأدب يعرض لها ليجمع ويقابل، والدين يوجه الإنسان الى ربه، والأدب يوجهه الى نفسه<sup>(١)</sup>. »

وعلى هذا جاء أدبه مصوراً لنفسه، وهو في أدبه كأنه هو — العربي المسلم. وإن كانت المعاني كثيراً ما تنثال عليه فيستطرد بها على طريقة الجاحظ، ثم يعود فيكبح جماحها بأناقته في التعبير، ليبدل على التزام آخر في الخصيصة الاعتقادية التي يتحرى أبداً، فللأدب معنى فلسفي عنده لا نجد تقريره إلا في اللغة العربية؟.

« فاذا أردت الأدب الذي يقرّر الأسلوب شرطاً فيه، ويأتي بقوة اللغة صورة لقوة الطباع، وبعظمة الأداء صورة لعظمة الأخلاق، وبرقة

---

(١) الرسالة — ١١٠ — ١٣ جمادى الآخرة ١٣٥٤ هـ — ١٣/٨/١٩٣٥ م  
 لكن استاذنا الأثري يرى « هذا التفريق غير مُسلم، فإن الدين — أعني الاسلامي شرعة ومنهاج للحياة، يوجه الانسان الى نفسه وإلى المجتمع كما يوجهه الى ربه » فالحذلقه  
 الراقية في المقابلة توهم بغير ذلك!



البيان صورة لرقّة النفس، وبِدِقَّتِهِ الْمُتَنَاهِيَةِ فِي الْعُمَقِ صُورَةٌ لِدَقَّةِ النُّظَرِ إِلَى الْحَيَاةِ، وَيُرِيكَ أَنَّ الْكَلَامَ أُمَّةٌ مِنَ الْأَلْفَاظِ عَامِلَةٌ فِي أُمَّةٍ مِنَ النَّاسِ، ضَابِطَةٌ لَهَا الْمَقَائِيسَ التَّارِيخِيَّةَ، مُحْكَمَةٌ لَهَا الْأَوْضَاعَ الْإِنْسَانِيَّةَ، حَامِلَةٌ لَهَا النُّورَ الْإِلَهِيَّ، وَجَدْتَ الْقُرْآنَ الْحَكِيمَ قَدْ وَضَعَ الْأَصْلَ الْحَيَّ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ»<sup>(١)</sup>.

هو في أدائه النفسي كأن يتحرّى أن يكون كذلك من « الجملة القرآنية » ليُضْجِي من ثمّ لقباً من ألقاب التاريخ.

وهو كذلك يتهيأ لأدبه، فالدنيا كلها عنده لا تعدل راحة الفكر<sup>(٢)</sup>، وأن لا بُدَّ للأعمال العظيمة من جَوِّ روحاني خاص<sup>(٣)</sup>. وإن كان التعب في الأدب بالقنطار والمكافأة بـ « الجرام »<sup>(٤)</sup>، فكيف إذن كان يتأدّى له ذلك الأدب القويم بفنونه؟ وكيف أنى للرافعي أن يُحيطَ بجوانبه، وأن يكتبَ في فنون القول كلها؟

إنّ الرافعي عبقرية فذة، وللعبقريّة بدوات، ولها فلتات، كما أنّ لها أحوالاً ومغامز في سلوك العبقرى نفسه، كالذي يعرف عن بعضهم من الإهمال وقلة العناية بالقيافة، وترك الشعر متهدلاً، واحتمال أذى الاتّساخ.. الخ<sup>(٥)</sup>. ولكنّه من هذه الناحية لم يكن يظهر عليه نوعُ شذوذٍ أو كون افتراق، بل هو أتيقُّ المظهر حُلُوَّ الهندام، له عناية خاصة

(١) وحي القلم ج ٣ — ٢٢٠

(٢) رسائل الرافعي — ٥

(٣) رسائل الرافعي — ٣٠٢

(٤) رسائل الرافعي — ١٦١

(٥) الأسس النفسية للنقد — ١٠١ وما بعدها

بمَلْبَسِهِ ومَأْكَلِهِ، وهو وإن كان من أبناءِ الفقهاء قد جارى المدنية الحديثة، وكان حائِزَ الرأسِ في مطلَعِ شبابه، يُعنى بشعرِهِ ومَفْرِقِهِ، وقد رافَقَتْهُ العَصَا منذُ صباه من غيرِ أن يَعْتَمِدَ عَلَيْهَا، ثم اتَّخَذَ الطربوش علامةَ اكتمالِ الرجولة آنذاك<sup>(١)</sup>، وكم حلا لَهُ اللباسُ العربي من العبائة والكوفية.

ولم يَكُنْ يَلْفِتُ النظرَ إِلَيْهِ غَيْرُ حَبِّهِ لِلوَحْدَةِ، وإِثَارِهِ الْإِبْتِعَادَ عن الزحام — وقد حَبَّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، وريفُ « دمنهور » وقرى « المنصورة » وغِيطَان « طنطا » كانتْ تَأْلُفُهُ مع الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ عَقَبَ صَلَاةِ الْفَجْرِ، يَطُوفُ فِيهَا بِرِيَاضَةٍ اسْتِجْلَاءٍ، وَسَرَحاتٍ تَأْمُلٍ واستلْهَامٍ<sup>(٢)</sup>، وَيَلْتَمِسُ الْحَقَائِقَ الْعَالِيَةَ فِي السَّكُونِ الْمَطْلُوقِ<sup>(٣)</sup>.

وما عُدَّ شذوذاً في سلوكِهِ هو تَمَرُّدُهُ على نظامِ الْعَمَلِ في الْوِظِيفَةِ<sup>(٤)</sup> فَقَدْ ضَاقَ بِهَا مَبْكَراً، واستكثَرَ من طَلَبِ الْإِجَازَاتِ.

وقد اسْتَشْرَفَ الْعَمَلَ فِي التَّجَارَةِ الَّتِي بَرَزَ بِهَا أَعْمَامُهُ وَأَخَوْتُهُ، وَفِي الزَّرَاعَةِ الَّتِي اعْتَدَّهَا « لَا أَحْسَنَ مِنْهَا لِحَيَاةِ الْأَدِيبِ »<sup>(٥)</sup>، وَلَكِنَّهُ لَمْ تُشْخِ لَهُ الْفُرْصَةُ الْمَوْفُورَةُ فِيهِمَا، وَكَانَتْ الْأَيَّامُ تَأْتِي عَلَى مَا يَتَوَقَّرُ لَهُ بَيْنَ أَهْلِيهِ، أَوْ يَضِيعُهُ عِنْدَ أَنْسَابِهِ، أَوْ هُوَ يُلْقِيهِ بَيْنَ يَدَيِ أبنائِهِ غَيْرِ مَبَالٍ

(١) حياة الرافعي — ١٠

(٢) أحمد عيش — المقتطف ٩١ — ١٩٣٧ — ٥٤١

(٣) رسائل الرافعي — ١١٣

(٤) العريان — ٢١

(٥) المجلة الجديدة — مايو ١٩٣١ م

بحال<sup>(١)</sup>، حتّى الأرض التي أُعِدَّت لتكونَ دارَ كُتُبِهِ وسكناه بقيتَ رسماً على ورقةٍ أعدّها لَهُ علي محمود طه ومهندس آخر<sup>(٢)</sup>.

وكان في بيته يتخفّفُ بالجُلبابِ، ولا يكادُ يصحُّو من قِيْلُولَتِهِ حتّى يندفعَ الى المكتبة<sup>(٣)</sup> يقرأ ويراجعُ أو يتهيأُ للكتابة، وقد يَسْتَقْبِلُ معارفَهُ وأصدقاءَهُ، وفي الهزيع الثاني من اللَّيل يحيلُ بعضَ أوراقِهِ ومذكراتِهِ أو خواطرَ بَيْنَ يديه مقالاتٍ وُبحوثاً في شُؤونِ الأدبِ والحياة. وقلّما كان يَسهرُ في ناحيةٍ، وقُصاريٍّ ما كان يذهبُ إليه «السيما» مع الأولادِ، للرُّؤيةِ «عالمٍ خارجيٍّ» لا يعوقُهُ عنها عائقٌ<sup>(٤)</sup> ولكنه كان يتمتّعُ بإجازةٍ سنويةٍ يقضيها في «طرابلسَ الشام» أيّامَ صباه، أو في «الاسكندرية» بعدَ قيامِ حدودِ الانفصالِ بينَ الديارِ العربيةِ.

وعلى ما في جسمِهِ من وَهنٍ يعتريه — كمُعظمِ مواليدِ الصيف — لم يكن يتناولُ شيئاً من المنبّهاتِ غيرِ الشاي، يتحرّى نوعَهُ الممتازَ من أجودِ الأصنافِ<sup>(٥)</sup>، وربّما تناولَ الفُسفورين — فكانما شرب الكهرباء<sup>(٦)</sup>.

وكان يُؤثّرُ بَعْضُ الأطعمة التي فيها مقاديرُ من مركّباتِ الحديدِ

(١) حياة الرافعي — ١٧٧

(٢) حدثني بذلك ولده محمد الرافعي

(٣) حدثني بذلك خادمه حمزة الحسيني

(٤) حَدَّثَ مرةً أن سقط من قنطرةٍ في طريقهِ إلى «السيما» مع الأولادِ وأوذيتَ رجلُهُ، ولكنه لم يحرمهم متعتهم تلك الليلة.

(٥) الأخبار — ١٠/٥/١٩٩٦ م — عن الحاجة زينب ابنته.

(٦) الاعلان مع صورته في اللطائف المصورة والمقتطف عام ١٩٢٨ م. وانظر العريان

والفسفور التي تبتُّ النشاطَ في الجسم، وقد يستغني بالفواكه المختلفة عن العشاءِ الدسم خاصة، ليعودَ الى جلوةٍ وحيه في الدرس والكتابة.

حدثني محمود الخفيف — أمين الرسالة — أنَّ الرافعي كان لا يَفْتَأُ يسألُ كُلَّ مَنْ يراه عن الأوقاتِ التي يُحَسِّنُ فيها الكتابةَ والنظم، وعن الأغذية والمشارب التي تَشْحَذُ الذهنَ، وتنبِّه الحواس، وتُقَوِّي الإدراك، وكأنَّه في قلقٍ منها على نفسه!..

قال : .. وأعدُّ لنا الزِّيَّات — صاحب الرسالة — مأدبة سَمَكٍ مما يُؤَثِّرُ الرافعي ويُعْنِي، فكانَ حديثه في اللُّحوم وأنواعها والأسماك وما تحتوي عليه من موادَّ غذائية وكيميائية لها أثرها في الأعصابِ والحواس، حديثُ العليم الفَظِّين.

وكانَ هناك بائعٌ «بطارخ»<sup>(١)</sup> يأتي إليه به من بر سعيد ما غلا ثمناً وامتازَ نوعاً، فيشتري منه بإسرافٍ، حتَّى افتقدهُ البائعُ بعد وفاته، وتَرَحَّم عليه بعد سنوَاتٍ بقوله : إنَّ الذي يعرفُ قيمةَ ( البطارخ ) قد اختارَهُ الله الى جوارِهِ وفارقَ الدنيا — وهو لا يَدْرِي أنه كان يحدثُ ابنَهُ سامي!..

### القلق المنتج

على أنَّ الأناقةَ وراحةَ الفكر التي يبحُثُ عنها، والجوَّ الروحاني الذي يتحرَّاهُ<sup>(٢)</sup>، وتعبُهُ في هذا الشأن أو ذاك، كثيراً ما كان يُعَوِّقُهُ عن

(١) البطارخ : بيض السمك المجتمع في جيبٍ خاص (ترب) عند العراق والشام. وللمصريين ولُغٌ في إعدادهِ للمائدة.

(٢) رسائل الرافعي — ٣٠٢

الكتابة، ويُفَوِّتُ عليه الفرص في استكمال البحث، وشَدَّ ما شكا من ضيق الوقت<sup>(١)</sup> غير ضياع الأيام بين يديه في الأهل والولد.

من أجل ذلك كانت تعتريه قُرَاتٌ من الانقطاع في لَوْنٍ من الانحباس؛ يَسْتَعْلِقُ عليه الفكرُ فيها أحياناً، فَيَلْتَمِسُ من أصدقائه الدُّعَاءَ، وَيَسْتَمِرُّجُهُم الرأْيَ، وَيَسْتَرْسِلُ يَبْحَثُ عَمَّا يُنَشِّطُهُ من رياضةٍ أو طعامٍ أو شَرَابٍ طَهُورٍ يُمْكِنُ أَنْ يَدْفَعَ بِهِمَّتِهِ إِلَى عَوْدَةٍ تَوْقِدُ ذَهَبَهُ فَيَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيْهِ !.

حَدَّثَنِي الزِّيَّاتُ — رحمه الله — فَقَالَ : إِنَّ الرَّافِعِي كَانَ يَقْلُقُ عَلَى الْكِتَابَةِ، فَلَا يَقْرَأُ لَهُ قَرَارٌ ؛ يَفْتَشُّ عَنِ الْمَوْضُوعِ، وَيَسْتَخْلَصُ رَأْيَ الْقُرَّاءِ الْأَدْنَيْنِ، وَيَتَحَرَّى التَّقَدُّ.

وهو على غَزَارَةٍ عَلَيْهِ وَوَفَرَةٍ أَدَبِهِ وَكَوْنِهِ فِي الدَّرْوَةِ، سَرْعَانَ مَا يَفْقِدُ نَشْوَتَهُ مِنْهُ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَصْنَعْ شَيْئاً<sup>(٢)</sup> عَلَى الرَّغْمِ مِنَ اللَّذَّةِ الْوَجْدَانِيَّةِ الَّتِي يَنَالُهَا فِي كُلِّ مَا تَخْطُهُ يَمِينُهُ مِنْ بَيَانٍ ؛ فَإِذَا مَا فَاتَهُ مَوْعِدٌ مَا، أَرِقَ وَمَرِضَ، وَابْتَلَى بِالنَّزَلَةِ الشَّعْبِيَّةِ أَوْ الزُّكَامِ، لِشَدَّةِ مَا يَرِهَقُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْكِتَابَةِ وَالْبَحْثِ.

حَدَّثَنِي أَبُو رِيَّةَ عَنِ الْإِلَهَامِ، وَكَيْفَ كَانَ يَعْتَرِيهِ فَيَأْخُذُهُ حَتَّى لِيَضْطَرِبُ أحياناً، فَيَتَنَاوَلُ الْقَلَمَ وَيَنْقَطِعُ عَنِ مُحَدِّثِهِ بِالْأَوْرَاقِ الَّتِي مَعَهُ<sup>(٣)</sup>.

(١) المقتطف — ٧٧ مايو ١٩٣٠ م — ٢١١ حول نشأة المقامات.

(٢) رسائل الرافعي — ١٧٧

(٣). الأوراق معه ليكتب فيها محدثه!

وكم أحسن بتفتح الذهن وتداعي الأفكار عليه بموضوع ما، وجرت على لسانه خواطر وهو يكتب في موضوع آخر، أو يبعث برسالة خاصة، أو نحو ذلك من حالات<sup>(١)</sup>. وربما انثالت عليه المعاني — وهو يملئ على ناشئة الأدباء، فتجيء في عباراتهم وموضوعات كتاباتهم تجليات في التفسير وفرائد من الخواطر، وأمثال من الفكر في شتى الفنون<sup>(٢)</sup> فيعود إليها يقطعها من الصحف ويتخذ منها مادة يكتب فيها من ثم<sup>(٣)</sup> ١.

وهو على كل الأحوال كانت تظهر عليه الأناقة في الكتابة من غير إسراف، والتواضع بلا تفريط؛ يصون نفسه ولا يتنزل أدبه مهما تراءى مستخفاً، حتى لو كتب في موضوعات لا تمت إلى الأدب بصلة<sup>(٤)</sup>.

ومن أجل ذلك كان يقول مدافعاً عن نفسه: «ربما عابوا السمو الأدبي بأنه قليل، ولكن الخير كذلك، وبأنه مخالف، ولكن الحق كذلك، وبأنه محير ولكن الحسّن كذلك، وبأنه كثير التكليف، ولكن الحرية كذلك»<sup>(٥)</sup>، فهو يتحرى سمو مهما كان الجهد والتعب.

ومن هنا يظهر لنا أن قلق الرافعي كان من النوع العبّري الذي ينتج، ويفتن، ويسمو.. وليس هو كذلك المرض شديد الوطأة على معانيه<sup>(٥)</sup>.

(١) الرسائل — ٢٧٨

(٢) الرسائل — ٢٢١

(٣) كمقالات المدارس في المقطم عام ١٩٢٢، ١٩٢٨ وخريجو الزراعة. واسئلة الآداب.. الخ. وقد كان لها أصداء في مصلحة الطلبة.

(٤) وحي القلم ١ — ١٠

(٥) نايث — الذكاء ومقاييسه — ٢١

وبذلك كان يتأتى له أن يكتسب في مختلف فنون الأدب، وشتى موضوعات الفكر، ويبرز فيها، بل يمتاز على معاصريه بدقة النظرة والإصابة دوماً.

على أن تداعي المعاني لم يكن له حدٌ يكاد يقف عنده، أو يضمحل ويتبدد، وربما كتب في موضوع من الموضوعات واستوفى أبعادها، وتمكن من جوانبها جميعاً، وانتهى منه بمؤلف أو فصل، أو مقالة أو نحو ذلك، فاذا بمعاني أخرى منه كالتي تلاحقه، وكأنه لم يكن قد استوفى استحضارها، أو أن قوة التوليد الحسية تستمر عنده بمباراة<sup>(١)</sup>.

وتاريخ حياة الرافعي، ورسائله يتسعان بأمثلة ووقائع، ربّما حاول فيها خرق الأعراف الأدبية، والانقلاب بالتفكير، وأن يحمل الأدب فوق ما يطيق من الفكر والعلم والفلسفة؛ يلقف ذلك وأمثاله من مقروءاته الكثيرة المتسعة، أو يمثل في نفسه، ويعود فيجعل منه مادة أدب وفن، ومنه ما ضمّنه رسالة الجاذبية<sup>(٢)</sup> أو الحقّ بمذهبه من تفسير الأشياء بأدبه: شعره ونثره<sup>(٣)</sup> كما في «حيلة مرآتها».

والرافعي في ذلك إنما يرمي الى معنى قومي أثير لديه، اتخذه أحد براهينه لمجادليه من أن العريّة في آدابها تستطيع استيعاب الفكر الانساني، وتسمو بالعلم، وتطوّر الفلسفة، فهي لا تتخلّف عن اللغات الحديثة، وإنما تسمو عليها جميعاً في جميع الأحوال<sup>(٤)</sup>.

(١) الأسس النفسية للإبداع الفني — ١٢٠ وما بعدها.

(٢) أوراق الورد — ١٠٥

(٣) رسائل الأحران — ٦٨

(٤) يتفق على ذلك بل يعتد به شيخنا الأثري العظيم.

ومن هنا أدركَ عمر الدسوقي ما رُزِقَ الرافي « من سُمُو الخيالِ وتوقُّدِ القريحة، وإرهافِ الحسِّ وكمالِ الذوق، ما مكَّنه في كلِّ أنواع الخيال، فيطَبِّعُ الصُّورَ المختارةَ في انفرادِ ذوقٍ وحسنِ اختيار، أو يخترعُ صُوراً هي وليدةُ عقلِهِ وصُنْعُ خياله، لِيُدِلَّ على تفوُّقه ونبوغه، أو يعودُ فيوازنُ بين صُورِ الطبيعةِ نَفْسِها، وَيُنظِّمُها في سلكٍ، ويأتي بالمُفارقاتِ التي تبهرُ العقولَ في خيالٍ شَرود، وأن ينمِّي الثروة الأدبيَّة، دونَ أن يَجْري في مضمارٍ غيره من السابقين، أو يَسْطُو على معاني سواه »<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

### كيف كان يكتب؟

لقد عَقَدَ العريانُ فصلاً طيباً حاولَ فيه أن يُصوِّرَ الرافي كيفَ كان يكتبُ، وكيفَ كان يَلْتَمِسُ الموضوعات، ويدوِّنُ الفِكرَ والخواطرَ « إذ لم تكنِ الكتابةُ عندهُ فكرةً ومعنى فحسبُ، وإنما كانت إلى ذلك فناً وأسلوباً وصناعةً، والأدبُ بعدُ فكرٌ وبيانٌ »<sup>(٢)</sup>.

ثم ذكرَ أنَّه « كان يرجعُ إلى كتابٍ من كُتُبِ العربيةِ لإمامٍ من أئمَّةِ البيانِ فيعيشُ وقتاً ما في بيأةٍ عربيةٍ فصيحةُ اللسانِ، فيفيدُ منها الجوُّ البياني<sup>(٣)</sup>، وقال إنه يقرأ في كتاباتِ الجاحظِ وابنِ المقفَّع، أو

(١) الرسالة ٥١٤ — ١٠ مايو ١٩٤٣ م

(٢) حياة الرافي — العريان — ١٨٠

(٣) العريان — ١٨٢، وقد لقف سلامة موسى هذه العبارة وراح ينمى على الرافي أنه لا يعيش في عصره — المجلة الجديدة ١١/١٩٣٥.



أغاني الأصفهاني، ونَسِيَ أن يذكرَ القرآنَ العظيمَ ؛ ذلك الكتابُ الذي تنزَّلَ منه العربُ منزلةَ الفِطْرَةِ الغالبةِ التي تَسْتَبْدُ بالتكوينِ العَقْلِيّ<sup>(١)</sup>.

كان الكتابُ الكريمُ أَمَامَهُ يُسْتَفْتَحُه كُلَّمَا هَمَّ بأمرٍ من كتابَةٍ ونحوها، وربما تركَ الأمرَ واستمرَّ في القراءة، وعاشَ في جَوْه البَيَانِي الأثير<sup>(٢)</sup>. وقد حاول محمود أبو رِيَّة أن يجعلَ فصلَ العريانِ هناك حديثاً عن الرافعي في طَريقَتِهِ في الكتابة، عَقِبَ كتابَتِهِ لمقالةٍ (سِرُّ النبوغِ في الأدب)<sup>(٣)</sup> فقال : إنه كتبها على ما ذَكَرَ العريانُ، وما فتىَّ يَسْأَلُ كُلَّ مَنْ يراهُ عن مدى توفيقِهِ فيها ؛ لأنه كتبها على تلك الطريقة<sup>(٤)</sup>.

ومِمَّا لا شكَّ فيه أنَّ طريقةَ الرافعي وأسلوبَهُ قد تحوَّلا بتقدُّمِ عمرِهِ وحياتِهِ الأدبيةِ الى الشكلِ الذي حَسِبَهُ العريانُ وخالَهُ أبو رِيَّة.

ولكنَّ الحقيقةَ الكبرى تبقى ماثلةً بخلفِ أوراقِهِ، ومهما بالغنا في تحليلِ آثارِها وتوغَّلنا في تعيينِ معالمها، فقد لا نُصِيبُ منها غيرَ آثارٍ من بقايا ذلك السبيل الذي عاناه في الكتابةِ والتعبير. وقد سَبَقَ ذَكَرُ تَذَوُّقِهِ الموضوعاتِ، وقراءاتِهِ، وقصودِهِ العلمي في ذلك، وادِّخارِهِ لفقراتٍ وسطورٍ، وربما لفصولٍ وعيناتٍ يفيدُ منها حيثُ يعرضُ له أن يكتبَ. وهو شديدُ الاحتفالِ للكتابةِ ؛ يَتَهَيَّأُ لها نفسياً، وَيَعِيشُ في جَوِّ علميٍّ

(١) اعجاز القرآن — ٧٠

(٢) حدثني بذلك العريان نفسه قبل موته بأيام، كما يروي ذلك أبنائُهُ ومحبوه وخادمه الحسيني، وانظر محمد العمادي (الرافعي وطه حسين) ٣٤ وكيف نظر الى الموضوع بمفارقة!

(٣) المقتطف — ٥٩٣٣/٨٢ — ٥

(٤) الرسالة — ٢٧٩، وانظر الرسائل ٢٨٣، ٢٨٦ مثلاً.

يَهَيِّؤُهُ لِنَفْسِهِ، وَيَطُوفُ بِآفَاقِ الْمَعْرِفَةِ، وَيَنْظُرُ فِي مَدَّخِرَاتِهِ يَسْتَعِينُهَا النَّسْعُ، وَيَسْتَقْطِرُ مِنْهَا أَفْوَافَ الْمَعَانِي، وَيَسْتَمِزُجُ مِنْ إِشَارَاتِهِ الْكَثْرَ، أَلْوَاناً مِنَ الْمَقَابِلَةِ وَالْمُوازَنَةِ وَالْإِسْتِلهَامِ؛ فَلِلْخُطُوطِ تَحْتَ السُّطُورِ مَعَانِي النَّظَرِ وَالْمُرَاجَعَةِ، وَلِلْعَلَامَاتِ التَّعْجِبِ الْجِدَّةُ وَالْخَطُورَةُ فِي الْحُكْمِ وَالْإِنْفِرَادِ بِالرَّأْيِ، وَلِلْعَلَامَاتِ الْإِسْتِفْهَامِ كَيْفَ وَلِمَاذَا، وَلِلنَّقْطِ إِضَافَاتٍ، وَلِلتَّصْوِيبِ مَصَادِقَةٌ عَلَى حُكْمٍ، وَلِلْعَلَامَاتِ الضَّرْبِ أَخَذٌ وَعَطَاءٌ.

وَتَجِدُ فِي وَرَقَاتِ أَخْرِيَاتٍ تَلَحُّقُ بِمَدُونَاتِهِ لَخَوَاطِرِ الْمَوْضُوعِ الْمُقْتَرَحِ، أَوْ حَوْلَ الْبَحْثِ الْمُتَرَجِّمِ، أَوْ أَمَامَ الْمَقَالَةِ السَّائِرَةِ؛ يَنْقُلُ فِيهَا سُطُوراً مُلَخَّصَةً بِإِيجَازٍ بِالْغِ، أَوْ كَلِمَاتٍ تَنْقُضُ بَعْضَ الْأَحْكَامِ غَيْرِ الْمَحْكَمَةِ السُّدَادِ، أَوْ تَصَوِّبُ التَّرْجُمَةَ خَاصَّةً، أَوْ تَرُدُّ عَلَى خَطَلِ الرَّأْيِ، وَخَطَأُ الْإِتِّجَاهِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى جِرْصٍ شَدِيدٍ فِي فَقْهِ الْمَوْضُوعِ أَيْ كَانِ، وَاسْتِيعَابِهِ صِفَةً وَمَادَّةً، قَبْلَ أَنْ يَشْرَعَ قَلَمُهُ، أَوْ يَجْرِي فِيهِ الْفَنُّ بِعَمَلِهِ أَسْلُوباً فِي الْكِتَابَةِ وَصِنَاعَةً فِي الْبَيَانِ.

وَهُنَاكَ مَرَحَلَةٌ أُخْرَى يَجْرِي فِيهَا قَلَمُهُ بِمَحَاوَلَةِ اسْتِخْرَاجِ جُمْلَةٍ تَجْرِي فِيهَا الْحِكْمَةُ، وَيَنْطَبِقُ الْمَثَلُ، أَوْ يَصْدُرُ الرَّأْيُ الصَّوَابُ بِالنَّقْدِ وَالتَّمْحِصِ وَالتَّشْمِينِ.

ثُمَّ يَعُودُ إِلَى هَذِهِ وَتِلْكَ وَهَاتِيكَ يَقَابِلُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَأْثُورَاتِ عَرَبِيَّةٍ مِنْ آيَاتِ الْكِتَابِ الْكَرِيمِ وَالْحَدِيثِ الشَّرِيفِ وَالْمَثَلِ وَالْحِكْمَةِ، فَيَقِفُ بِالإِسْلَامِ أَمَامَ الْحَضَارَةِ بِمَقَابِلَةِ فِكْرِيَّةٍ، وَمَحَاوَرَةِ فِلْسَفِيَّةٍ وَمَقَارَنَةِ اعْتِقَادِيَّةٍ يَخْرُجُ مِنْهَا بِفَضْلِ الْعَرَبِ وَسَبْقِهِمْ فِي الْمَوْضُوعِ، وَاسْمُ الْإِسْلَامِ فِي كُلِّ.

وَنَرَاهُ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ يَعُودُ فَيَصَوِّغُ مَا تَوَصَّلَ إِلَيْهِ مِنْ أَحْكَامٍ فِي

عباراتٍ بليغةٍ كالتّي عُرِفَتْ عنده في أسلوبه، يَضَعُ أمامها نجماً(\*) أو كلمة « لنا ».

وإذا ما تَهَيَّأَ لَهُ أَنْ يَكْتُبَ في موضوعٍ ما مقالةً أو نحوها عَمَدَ الى تلكَ الجُمْل والعبارات، والكَلِمَات يُولِّفُ بينها ويجمعُها بعضها الى بعض، لتقومَ جزءاً من فَصْلٍ أو صفحةً من بيانٍ أو باباً من الأبواب.

### نظرة نفسية في الإبداع

على أَنَّ نظرةً في مُسَوِّدَاتِ أوراقِهِ نَسْتَجْلِي دَقَائِقَ فيما وراءَ موضوعاتِهِ، تَكْشِفُ لنا ما قَدَّمنا في أَوَّلِ الفصل كيفَ كَانَ يَسْتَمِزُّ الأفكارَ ويقبَلُ الآراءَ، ويفيْدُ من قراءاتِهِ المتعدِّدةِ الجوانبِ في شَتَّى العلوم وأبوابِ المعرفة، ومنها المترجمات ؛ يوازنُ بينها وبين أحكامِ الإسلام في كلِّ حالةٍ وكلِّ مرحلة ؛ فيختصرُ لها أوأبداها ؛ ليَجْعَلَ من ذلكَ كُلِّه مادةً يصوغُ منها عباراتِهِ ويصِفُ صُورَ بيانِهِ، فيَجْعَلُ لمعانيها فكراً وحكمة.

إنَّه في هذِهِ كَالنَّحْلَةِ تَأْخُذُ من أنواعِ الأزهارِ والورودِ والأثمارِ رَحِيقاً، فتَحِيلُهُ عَسْلاً يَخْرُجُ من بطونِها شراباً مختلفاً ألوانُهُ، فيه شفاءٌ للناسِ، وكذلك الحكمةُ والموعظةُ الحسنةُ التي يُدْعَى بِها الى سَبِيلِ الله.

ومن أعجبِ ما يَروَعُنَا في تلكَ الأوراقِ والمُسَوِّدَاتِ على كثرةِ ما فيها من الشُّطْبِ وإعادة الصياغةِ والإيضاحِ، أو الانبهاهِ والغموضِ أحياناً<sup>(١)</sup> أنَّها كانتَ مرتَّبةً ترتيباً أنيقاً غيرَ موزَّعٍ، يدلُّ على مكابدةٍ

(١) المقتطف — ٦٦ — ٤٤٢ — ١٩٢٥ م

في استجماع الفكر حال الإبداع، وتحضر كبير في ضبط النسبة بين  
التداعي والانتظام<sup>(١)</sup>.

وقد كتب هو نفسه في ذلك غير مرة — ولا سيما في نقوده  
وردوده، مؤكداً امتياز هذه الطريقة في الفن ومعاناة الكتابة البيانية<sup>(٢)</sup>  
وما عليه زعماء الفكر وأمرأ البيان في شتى الأهم؛ حتى قال مرة:

« عرف الأدباء أن كاتب فرنسا (أناطول فرانس) كان يكتب الجملة  
ثم ينقحها، ثم يهذبها ثم يعيدها، ثم يرجع فيها، وهكذا خمس مرات  
الى ثمان، ويقدم ويؤخر من موضع الى موضع، ويحسبون هذا تحكيكاً  
وتهذيباً، وما هو منها في شيء، ولا أحسب الأوربيين أنفسهم تنبهوا  
الى سر هذه الطريقة وإنما سرها من جهاز التوليد في رأس ذلك  
الكاتب، فاذا قرأ كتابة حولها فكرة، وأبدع له منها — من غير أن  
يعمل في ذلك أو يتكلف له، إلا ما يتكلف من يهز إليه بجذع الشجرة  
لتساقط عليه ثمراً ناضجاً حلواً جنياً<sup>(٣)</sup>. فكلما قرأ ولد في ذهنه،  
فيثبت ما يأتيه؛ فلا تزال صورة تخرج من صورة حتى يجيء المعنى  
في النهاية.

وإنه لأغرب الغرائب، ما لا يكاد العقل يهتدي الى طريقته وسياق الفكر  
فيه إذا كان لم يأت إلا محولاً عن وجهه مرات لا مرة واحدة<sup>(٤)</sup>.

(١) المقططف — ٨٢ — ٥ — ١٩٣٣ م

راجع مصطفى سويف في الأسس النفسية للإبداع الفني — ١٨٢ وما بعدها وماهر  
حسن فهمي: المذاهب النقدية — ٦٧، تفسير عملية الإبداع.

(٢) المعركة — ٣٦

(٣) المقططف السابق — وحي القلم — ٣ — ٢٣٢

والرافعي في هذه كأنما يتحدث عن نفسه لا في « أناتول فرانس »  
أو غيره، ألا تراه في معاناة الاستيطان الذاتي التي يُحيل بها المرء  
حقيقته وأحلامه ومواجهته إلى حديث يروى عنه، ويؤخذ منه كلما  
فاض فيه فكشف عن سر من أسرار شخصيته ١٩

ولعل خير ما يوضح لنا ذلك هو آخر ورقة كانت على مكتبه  
ليلة وفاته، وفيها مشروع ردّ على إسماعيل أدهم — وكان سلامة موسى  
قد ورّطه بمحاضرة في ( مصر والثقافة الأوربية )<sup>(١)</sup> ذهب فيها مذهبه  
في التغريب والتبعية الفكرية، لتعود « مصر » في تقدّمها ونهضتها ذيلًا  
للحضارة الأوربية والمدنية الغربية، وقد فقدت شخصيتها العربية، وميزاتها  
الحضارية جميعاً.

لقد جاء في الورقة كلمات من الشرق والغرب ومجلة سلامة —  
( سكرتير ) التبعية الغربية — وكيف أنها تُسيء للحضارة بتلفيقها أقوال  
العلماء، وابتسارها لمعلومات المفكرين، ثم تلخيص ميزات الثقافة في  
السمو وطلب العلم والأنخذ بأسباب القوة، وكيف سبق الإسلام في  
ذلك وأضاف إليه كرامة الإنسان.

ثم إشارة إلى عرض المعلومات القرآنية للدلالة على بيان جهل  
الرّجل وابتعاده عن العلم وذهابه في المبالغة والتهويل.

والفتاة إلى كمال أتاتورك ومحاولة طمس معالم الإسلام.

(١) المجلة الجديدة — مايو/أيار ١٩٣٧ م — وكانت مناظرة بين أدهم وبشر فارس، نشر  
موسى نصفها التبع

وبعد ذلك تشالُ الأسئلة على تقليدِ أوربة في ماذا ؟ في عفتها التي والتي.. الخ.

إن التخطيط في الردّ جاهزٌ من حيثُ المقدمة والموضوع والنتيجة، على الرغم من سقوط بعض الكلمات، ووجود عباراتٍ لا تُفهم، وخطأً في رسم بعض الحروف لاثيال الأفكار بشدة عليه وتزاحمها بحيث لا يستطيع معها لحاقاً في القلم<sup>(١)</sup>.

وهو كائنٌ يتقدُّ ذهنياً — إذ يتحفّر للردّ، ليظهر الفكر العربي مما يلحقه من أقلام المترجمين، وأوهام المنقادين للغرب بكل طواعية. وهي بعد تعطينا صورةً نفسيةً دقيقة واضحة لما كان عليه أدبه من انفعال الذات بالموضوع، وما كان عليه مشروع نقده وردّه من توفّر وشمول<sup>(٢)</sup>.

### موضوعات الكتابة؛ ومقابلته بنبغاء الغرب

أما الموضوعات التي كتبَ فيها، فحسبنا منها ما مرّ من أمثلتها في فصل فنون الكتابة من الباب الأول، وكان في معظمها يحافظُ على سمات البيان، وصفات الاعتقاد، مجدداً ومعاصراً من حيث الموضوعات والمجالات التي جالت فيها فنون نثره.

وقد بلّغ النظر في ذلك عند بعض من كتبوا فيه نقداً وتقديراً

(١) انظر سويف — السابق — ١٢١ وما بعدها.

(٢) خلف الله — من الوجهة النفسية في دراسة الأدب — ٤٢

من مُعاصريه، أن عَقَدُوا موازناتٍ بَيْنَهُ وبين أعلامٍ آخرين في العَرَبِ، ورَأَوْا من وُجوه المشابَهة والمقابَلَة بَيْنَهُ وبينهم علاماتٍ ودلائلٍ استدلُّوا بها، وكانَّهُم كانوا يحاولُون رفعةَ منزلتِهِ على معاصريهِ بتلكِ الموافقاتِ.

كَتَبَ إِلَيْهِ شَيْخُ العُروبةِ — أحمدُ زكي ( باشا ) غداةَ إخراجِهِ « كتابَ المساكينِ » يقولُ : « لقد جَعَلْتَ لنا شكسبيرَ كما للإنجليزِ شكسبيرَ، وهو جَوُّ كما للفرنسيينِ هو جَوُّ، وجُوتُهُ كما للألمانِ جوتُهُ »<sup>(١)</sup>.

و « كتابُ المساكينِ » بعدَ محاضراتٍ وخطَبٍ ومقالاتٍ وبعضُ تعريبٍ لترجمةِ كانِ الرافعي أنشأها في موضوعاتِ الاجتماعِ الجديدِ ؛ الذي غَلَبَتْ عَلَيْهِ شِقْوَتُهُ في الفقرِ والغنى، ثم بدا له أن يَنْحَلِّها شَيْخاً مجذوباً تساوَتْ لَدَيْهِ الحَيَاةُ المادِّيَّةُ بِحُلُومِها ومُرَّها<sup>(٢)</sup>.

ولا شك في أن مَنْ أَشارَ إِلَيْهِم شَيْخُ العروبةِ كانَ لَهُم فَنُّهُم البياني في لُغَاتِهِم وقَوَمِهِم، وكانتَ لَهُم آدابٌ في مَثَلِ الموضوعاتِ الاجتماعيةِ التي طَرَقَها الرافعي، وَلَهُم آراؤُهُم الخاصةُ فيها، ولكن كانَ يُعَوِّزُهُم الإِيْمَانُ بِقَضَاءِ اللَّهِ وقَدْرِهِ، وما اسْتَوْفَى الرافعي فِيهِ تِلْكَ الموضوعاتِ بعقلِيَّةِ العربيِّ المُسْلِمِ، وعقيدةِ المؤمنِ الذي لا يُلْجِئُ لَبَنِي الإنسانِ، وإنما يَدُلُّهُم على المحجَّةِ من أمورِ دينِهِم وديانِهِم، ويوقِّظُ ضمائرَهُم لتكونَ العلاقاتُ فيما بَيْنَهُم معَ اللَّهِ ..!

وكذلكَ ذَهَبَ « صَدِيقُ شَيُوبِ » يذكُرُ ما في أسلوبِ الرافعي من

---

(١) كتابُ المساكينِ — ٨، وقد حَسَبَ (جامعي) الأنصار — ٣١ رجب ١٣٦٢ هـ أن الرافعي أَحَبَّ على طَريقَةِ جوتِهِ — ولكن بسداجةِ البدوي.. فاحترق!! وذلكَ ذهابٌ بعيد.

(٢) الشَيْخُ علي الجناحي — مقدمة كتابِ المساكينِ.

إنشاء الجملة الجديدة وما فيها من مجاز يَنبَهُم أحياناً، ما نَعَتْهُ برُوعَةٍ الغامض، حتى يجعل له شَبهاً آخر بالأديب الفرنسي « موريِس باريِس » الناقد الذي عُرِفَ بعنايته بالصُّورِ المثلّية في الاستعاراتِ والكنائيات التي تخلُّبُ لبَّ القارئ في مواضع معلومة<sup>(١)</sup>.

وفات شيبوباً أن رُوعَةَ الغامض لم تُكُنْ هَدَفاً مقصوداً لذاتِهِ في أدبِ الرافعي، وإنما كان يجيء ذلك عنده في مَرَحَلَةٍ تُسَبِّقُ التجديدَ المطلوب<sup>(٢)</sup> بإثارة التأمل والإفادة من الاستغراق.

أمّا الدكتور منصور فهمي، فقد حَسِبَ أن الرافعي متأثرٌ في بعض أدبه الإنشائي بالأديب الفرنسي « روستان » الذي وَصَفَ غرامَ الشاعر — سيرانو د. بريجراك<sup>(٣)</sup> وبالأديب الألماني الذي ميّز (آلام فرتر)<sup>(٤)</sup>.

وكتَبَ في ذلك يخاطبُ الرافعي وينقذُ لَهُ « رسائل الأحزان »، حتى ساءَلَهُ : أكانَ قد قرأ ما نَقَلَهُ المنفلوطي من أدبِ الأول، وما تُرجمَ من أدبِ الثاني<sup>(٥)</sup>.

وربّما فاتَ المنصورَ أن رسائل القومِ كانت فنوناً وفُصولاً في

(١) البصير — ٢٢ مايو/أيار ١٩٢٥ م

(٢) المقتطف — ٦٦ — أبريل ١٩٢٥ — ٤٢٢

(٣) عربيها مصطفى لطفي المنفلوطي.

(٤) أحزان فرتر — ترجمها أحمد رياض ونشرت منجمة في مجلة الشباب ط — التقديم

١٣٣٧ هـ — ١٩١٩ م

ب — آلام فرتر — ترجمها أسعد داغر — ط ١٩٢١ م

ج — آلام فرتر — ترجمة أحمد حسن الزيات — ط ١٩٣٢ م

وهي التي ذهبت بالشهرة، وربما كانت إشارة منصور والرافعي إلى الأولى — الرسائل ١٠٥

(٥) الأهرام — ٣٠ مايو/أيار ١٩٢٤ م



قَصَصَهُم الَّذِي أُشْرِبَ الْوَاقِعِيَّةَ وَاخْتَلَطَ بِمَا يَحِلُّ وَيَحْرَمُ، أَمَّا رِسَالُ الرَّافِعِيِّ، فَهِيَ فَنٌّ مِنْ فُنُونِ الْأَدَبِ وَالْكِتَابَةِ الْعَرَبِيَّةِ، إِنْ كَانَتْ قَدْ أَشَارَتْ إِلَى قِصَّةٍ وَقَعَتْ لَهَا، وَكَانَ فِيهَا تَارِيخٌ، فَمَا إِلَّاهَا قَصَدَتْ، وَإِنَّمَا عَنَتَهَا فِي حَالٍ مِنَ الْإِشْرَاقِ النَّفْسِيِّ حَيْثُ يَسْمُو الْحُبُّ بِالْإِخْلَاصِ.

وَكَأَنَّمَا اسْتَدْرَكَ فَهَمِي ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : إِنَّكَ مَتَأَثَّرٌ بِالْمَعَانِي الْجَدِيدَةِ، وَتَصَوُّغٌ لَنَا عِبَارَاتٍ تَصِلُ إِلَى أَعْمَاقِ نَفُوسٍ مَنْ لَا يَعْرِفُونَ شَيْئاً مِنْ جَمَالِ الْقَدِيمِ.

وَذَهَبَ عَبْدُ الْحَمِيدِ سَالِمٌ بَعِيداً؛ يَعْقِدُ الْمَوَازَنَةَ بَيْنَ الرَّافِعِيِّ وَ( شَاتوبريان ) فَوَجَدَ مِنْ وَجُوهِ الشَّبَهِ فِي الْبَلَاغَةِ، وَاتَّسَاعِ الْخِيَالِ وَالشَّعْرِ، وَقُوَّةِ التَّصَوُّرِ، مَا رَاعَهُ مِنْهُمَا مَعاً، وَلَا سِيَّماً فِي اسْتِعْمَالِهِمَا لُغَةَ الْمَجَازِ أَكْثَرَ<sup>(١)</sup>.

كَمَا أَشَارَ سَالِمٌ إِلَى مَا دَعَاهُ بِعَقِيدَةٍ كُلُّ مِنْهُمَا فِي الْجَمَالِ الْفَنِّيِّ الَّذِي تُحِسُّ بِهِ إِنْسَانِيَّةُ كُلِّ مِنْهُمَا؛ إِذْ أَرَادَ « شَاتوبريان » أَنْ يُبْرِهَنَ عَلَى مَا فِي الْمَسِيحِيَّةِ مِنْ شُعْرِ وَفَنٍّ، وَكَذَلِكَ بَرَهَنَ الرَّافِعِيُّ عَلَى أَنَّ فِي الْقُرْآنِ بَلَاغَةً مَعْجَزَةً وَأَنَّهَا فَوْقَ فَصَاحَةِ الْفُصَحَاءِ، وَأَنَّ فِيهَا سِرّاً الْإِيمَانَ بِهَا، وَأَنَّهَا دِينٌ وَتَشْرِيعٌ وَنِظَامٌ وَفَلَسَفَةٌ وَفَنٌّ، وَلَيْسَ لِلْإِنْسَانِيَّةِ مَحِيصٌ مِنْ اتِّبَاعِ قَوَانِينِهَا، وَإِلَّا تَدَخَّرَتْ إِلَى مَهَاوِي الْهَلَاكِ<sup>(٢)</sup>.

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضاً مَا وَازَنَ فِيهِ يَوْسُفُ حَنَّا بَيْنَ الرَّافِعِيِّ وَبَيْنَ « أَدِيسُون »

(١) الْأَخْبَار — ٢٣ فَبْرَايِر ١٩٢٣ م — وَعَبْدُ الْحَمِيدِ سَالِمٌ هَذَا كَانَ يَتَرْجِمُ أَدَبَ الرَّافِعِيِّ إِلَى الْفَرَنْسِيَّةِ وَيُنْشُرُهُ فِي صَحْفِهِمْ أَنْظَرُ رِسَالَتِ الرَّافِعِيِّ — ١٦٦

(٢) الْأَخْبَار السَّابِقُ

وصديقَيْهِ « استيل » و « جونسون » وما كان لهم من دالةٍ على البيانِ  
في اللغة الانجليزية.

فقد رأى يوسف لهؤلاء جهوداً في الأدب الإنجليزي قَصَدُوا فيها  
رَفَعَتَهُ في « تَنسيقِ العبارةِ واتزانِ إيقاعِ موسيقى ألفاظِها، وشرائطِ البيانِ  
الآخر »، ووازَنَ بينهم وبين خصائصِ مُشابهةٍ في أدبِ الرافعي الذي  
رآهُ هُنْدَسَةً للعبارةِ العربيَّة، ووزناً لِلجُمْلَةِ، ومتساوياً مع النِّعَمِ في التعبيرِ،  
بحيثُ لو زادتْ كلمةٌ في التعبيرِ لظهرت كالنشاز في بيانه<sup>(١)</sup>.

كما أعادَ ( ص.ش. ) إلى الأذهانِ مشابهةِ الرافعي في شدَّةِ الوطأةِ  
على مجادلِهِ، للكاتبِ الفرنسي الكبير ( شارل موراس ) مدير صحيفةِ  
( الاكسيون فرانس ) من حيثِ سلامةُ اللُّغةِ وإرهاقِ الإحساسِ، وأنه  
كالرافعي « أنزَلَ اللهُ على أذنيه صمماً جَعَلَهُ يعيشُ في نفسه حياةً كُلِّها  
رؤى وأفكار »<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

إنَّ مما يَسْتَدْعِي النظرَ والتأمُّلَ في هذهِ الموازناتِ والتشبيهاتِ، وكيفَ  
أنَّها انصَبَّتْ على أدبِ الابتداعيين في الغرب ؛ ذلك الأدبُ الذي هَامَ  
بِهِ الأدباءُ العَرَبُ لأوَّلِ اتِّصالِهِم بالحضارةِ الأوروبية وآدابِها الفرنسيةِ  
والانجليزية والألمانية في النصفِ الأوَّلِ من هذا القرنِ حيثُ الغزو —  
شِعْراً ونثراً.

(١) الضياء — ٢٣ يناير ١٩٣١ م.

(٢) البصير — ٢٧ مايو ١٩٣٧ م.

لقد كَانَ لهَاتِيكَ الْآدَابَ إِثْمَارٌ فِي النُّفُوسِ خَالَجَتْ عَوَاطِفَ الشُّعُوبِ  
الْأُورِيبَّةَ بَعْدَ حُرُوبِهَا الْقَوْمِيَّةِ الطَّاحِنَةِ فِي الْقَرْنِ الْمَاضِي، وَكَادَتْ تَفْقِدُ  
فِيهَا إِنْسَانِيَّتَهَا، فَكَانَتْ تِلْكَ الْآدَابُ تَذَكِّرُ الْإِنْسَانَ الْأُورِيبِي وَتَعِيدُهُ إِلَى  
إِنْسَانِيَّتِهِ فِي وَجْدَانِهِ.

وَكَذَلِكَ كَانَ الْعَرَبُ مَا بَيْنَ الْحَرَبَيْنِ، فَقَدْ خَرَجُوا بَعْدَ الْأُولَى مِنْهُمَا  
وَقَدْ خَسِرُوا دِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، وَأَنْفُسَهُمْ؛ تَلْتَفُّ بِهِمُ الْمَآسِي وَالْآلَامُ  
مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَيَلْدَغُهُمُ الْحَرَمَانُ، وَمِنْ هُنَا هَامُوا بِتِلْكَ الْآدَابِ، يَحْسِبُونَ  
فِيهَا لِحَاقًا بِالْمُنْتَصِرِ وَأَحْوَالِهِ.

وَمِنْ هُنَا أَيْضًا حُسِبَ أَدَبُ الرَّافِعِيِّ انْتِدَاعِيًّا فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ فِيهِ  
مِنَ الْعَاطِفَةِ وَالْوَجْدَانِ الشَّيْءُ الْكَثِيرُ، جَعَلَ الْمُطَّلَعِينَ عَلَى آدَابِ الْغَرْبِ  
يَعْقِدُونَ الْمَوَازَنَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ أَطْلَعُوا عَلَى آثَارِهِمْ.

وَلَكِنْ الْأَسْتَاذُ عَمْرُ الدُّسُوقِيِّ انْقَلَبَ بِمِثْلِ تِلْكَ الْمَوَازَنَةِ إِلَى عَقْدِ  
الْمِشَابَهَةِ بَيْنَ الرَّافِعِيِّ الْكَاتِبِ الْعَرَبِيِّ وَ«بِيْتَهُوفِن» الْمَوْسِيقِيِّ الْأَلْمَانِيِّ،  
لِمَكَانِ عَامَةِ الصِّمَمِ مِنْهُمَا، وَلَمَّا كَانَ لِهَمَا مِنْ فِلَسْفَةِ الْقِنَاعَةِ وَالرِّضَا  
بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ الَّتِي آمَنَ كُلُّ مِنْهُمَا بِهَا. قَالَ:

«كَلَاهُمَا كَانَ طَلِيَّ الْحَدِيثِ، مُحِبًّا إِلَى النِّسَاءِ، يُضْفِي عَلَيْهِ فُتْنَهُ  
بِهَاءً، وَتَرْفَعُهُ شَهْرَتُهُ إِلَى هَالَةٍ مِنَ الْعِظَمَةِ تُحِبُّ إِلَيْهِ الْجَمِيلَاتُ؛ كَلَاهُمَا  
يَسْتَهْوِيهِ كُلُّ وَجْهِ جَمِيلٍ، وَيَحْرُكُهُ إِلَى الْحُبِّ. وَحِينَمَا تَقْرَأُ سِيرَةَ  
«بِيْتَهُوفِن» وَحُبَّهُ يَخِيلُ إِلَيْكَ أَنَّكَ تَقْرَأُ سِيرَةَ الرَّافِعِيِّ وَحُبَّهُ، وَكَثْرَةَ  
تَنْقِيلِهِ مِنْ وَجْهِ جَمِيلٍ لآخر، مَعَ فَرَقٍ وَاحِدٍ هُوَ أَنَّ الرَّافِعِيَّ الْمُسْلِمَ  
كَانَ مُتَزَوِّجًا وَكَانَ عَفِيفًا»<sup>(١)</sup>.

(١) الرَّافِعِيُّ الْكَاتِبُ — مُسْتَلًى عَنْ مَجْلَةِ كَلِيَّةِ دَارِ الْعُلُومِ — ١٣٩٠ هـ — ١٩٦٩ م — ٣٠

وقد حاولَ عادل الغضبان أن يعقِدَ موازنةً بين الرافعي ومكانته في العربية، وموقفه من المجامع اللغوية — العلمية، وبين «فرانسوا موريك» في رسالته الى المجمع — التي ترجمها لمجلة الكتاب<sup>(١)</sup> وقال :

« إن الرافعي في نظريته الى اللغة العربية يرتفع كثيراً على « موريك »، ولكن فاتته الحظ أو فاتت العربية أن تظفر مجامعها ببعض علمه الذي كان يُثجفنا به في فنون وشجون من أحاديثه<sup>(٢)</sup> ».

هذا الى محاولات أخريات في هذا الشأن تجعل من الرافعي ما قدمنا في شأن معاصريه، وقد يُضاف إليها محاولة مصطفى الشكعة الموازنة بينه وبين عبد الحميد الكاتب، التي دار من حولها، ولكنه لم ينفذ فيها الى غير وصية الرافعي لأبي رية، ورسالة عبد الحميد الى الكتاب<sup>(٣)</sup>.

---

(١) الكتاب — مارس ١٩٥١ م

(٢) حدثني بذلك في ١٩ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٦ م

(٣) مصطفى الشكعة — الرافعي كاتباً اسلامياً — ٣٠

## خلاصة

كذلك كان الرافعي المنسئ المكين<sup>(١)</sup> كاتب دعوة عربية؛ يقوم بها الاعتقاد وما سبق إشارته إلى الجملة القرآنية<sup>(٢)</sup> وعريتها وفصاحتها وسموها، وقيامها في تربية الملكة البيانية، وإرهاق الحسن، وصقل الدوق، واتساق المنطق، مقام نشأة خالصة في أفصح العرب، الدليل الأكثر وضوحاً إلى هذه الحقيقة.

ذلك أن القرآن العظيم هو مثل الأدب العربي الأمثل<sup>(٣)</sup> وهو يعد كتاب الله الذي يراد تاريخنا إلينا حتى كأننا فيه، وصلتنا به كأنه فينا، ويحفظ لنا منطق رسول الله ﷺ — وفيه الأسوة الحسنة — ومنطق الفصحاء من قومه، حتى لكان ألسنتهم عند التلاوة تدور في أفواهنا، وسلايقهم هي تقيمنا على أوزانها.

وهو أيضاً دعوة دينه الإسلام، وقوام نظامه الحكيم، ومعين فقيهه

(١) عباس العقاد — المؤيد ١٤ مايو ١٩١٤ م، الرسالة — ٢٤٢ — ١٩٤٠ م

(٢) الزهراء — الربيعان ١٣٤٦ هـ المعركة — ٢٤

(٣) الرسالة ١١٠ — وحي القلم ٣ — ٢١٦

المُقيم، وأساسُ تشريعِهِ، فما على الأديبِ العربي الحقّ إلا أن ينطبعَ على ذلك الغرار من الالتزام به عقيدةً ومنهاجاً، حتى يكونَ لأُمتهِ ولُغتها في مواهبِ قلمِهِ لقباً من ألقابِ التاريخ<sup>(١)</sup>.

وعلى أساسٍ من ذلك كان اجتهاده في صوغِ بيانِهِ، والعنايةُ بأسلوبِهِ، والاحتفاءُ بموضوعِهِ وترتيبِ معانيهِ، فلا بدّ أن نرى « الأنصار » يعدُّونه أديبَ الدعوةِ العربية<sup>(٢)</sup>، وكاتبَ بيانها الذي جاسَ أدبه خلالَ الديار كالبشير النذير، ولما تنكشفُ الأيامُ عمّن يخلُفه، فقد كانَ أكبرَ من جمعيةٍ في هذا الشأن<sup>(٣)</sup>.

إذا قرأتَ له، فإنك تقيفُ على المعنى من معانيهِ يَمَلأُ نفسَكَ ويتمدّدُ فيها، ويهتزُّ بها طرباً وإعجاباً؛ ذلك أنَّه الأديبُ البليغُ التامُ صاحبُ الفكر والأسلوبِ والذهنِ الملهم<sup>(٤)</sup>.

ومن هنا ندرك لماذا استكثَرَ عليه بعضُ مُعاصِرِيهِ ذلكَ الاحتفالَ بالصياغةِ البيانيةِ والدقّةِ في الأداءِ، والتوليدَ في المعاني، والمقابلةَ في فنونِ البلاغةِ، وشدّةِ الوطأةِ على مجادليهِ ممن يتغاضونَ أو يتعامونَ عن هذِهِ كُلِّها.

الكتابةُ عندهُ لم تكنْ تَلْفِيْقاً ولا مَرْقَعَةً — كما هي عندَ معاصرينَ لَهُ من أولئك الذين حَفِظُوا أشياءَ من التراثِ وفاتَتْهُمْ أشياءَ من المعاصرةِ.

(١) الرسالة ١١٠ — وحي القلم ٢ — ٣٢٠

(٢) الأنصار — ٢٥ صفر الخير ١٣٦٣ هـ

(٣) الأنصار — ١٧ جمادى الأول ١٣٦١ هـ

(٤) الأنصار — ٢٦ رمضان ١٣٦١ هـ

وكذلك لم تكن إنشاءً فحسب، أو تنسيقاً وزينة، أو ترفاً عقلياً  
كما ذهب آخرون من مناوئيه ودارسيه<sup>(١)</sup>.

إنما الكتابة عنده — بما فيها من فنون الإنشاء والصياغة والأسلوب  
والبيان وسائر الوسائل — دعوة فيها مسائل الفكر، وأهداف الإصابة،  
وقيم التربية القومية، والإثمار؛ للسمو بالأدب إلى مراقي الاعتقاد الذي  
يُعمّر الضمير العربي، فيفرد له وجوده بين الآداب الأخرى فلا يهبط  
عن مُستوى لها فيه رأي، ولا يعزف عن فكر، ولا ينحرف دون  
إصابة غرض من أغراضها المذهبية والاعتقادية.

وهكذا يستبين الرافعي في الكتابة عرياً مُحافظاً على اللغة وأسرارها،  
وعُلوها يصبون أساليبها من ألوان الترجمات، ويحفظ عليها رونق الحياة  
بتجلية دائمة، وإثبات وإثمار فيها، ويقوم على رصانتها وصفاء الديباجة  
في بيانها، وإشراقها بأناقة وغازة وخصب<sup>(٢)</sup>.

كما يظهر مجدداً التجديد الحق في الموضوع والأسلوب والمفردات،  
حتى ليكاد يكون معجم ألفاظه من المجاز والتوليد والاشتقاق والتضمين  
الذي مارسه في الكتابة والإنشاء كأنه يخلع على الألفاظ جديد المعاني،  
ويروّقها بجديد الأساليب، ويضمّمها بعطر البيان، بل يُنبثها نباتاً حسناً  
في روض الآداب ورحاب فنون القول.

(١) طه حسين — حديث الأربعاء ٣ — ١١، معن العجلي — دروس قومية — ١٦

(٢) الأسبوع ٣٨ — ١٥/٨/١٩٣٤ م

## آثاره الانشائية

على أساس ما تقدّم فإنّ كُتِبَ الرافعي الإنشائية التي اجتمعت في محتوياتها وأسمائها المعروفة هي أعمالٌ فنيّة ؛ قامت لها الفكرة، واستُحضرت لها المعاني، وحُشدت الحالات، ثم كان لها من توفّر جهاز التوليد في معانيها، والتفتيق الذهني الذي عاناه في التفكير والتأمل والمقابلة، ما كان من صيرورتها الإنشائية التي غيّت بالجمال الآسر، والبلاغات الأثيرة، والتعبيرات الذكيّة، كما حفلت بلغة المجاز ؛ تنقل الكلمة وتشرق بالعبارة، وتحملها محمل الأخذ والمماثلة والاستدلال على معاني أخرى، قد تنبّه أحياناً، ولكنها ترّوع القارئ، وتشهد للكاتب.

وقد كان لتلك الآثار مراتع في الفن بالاستعارات والكنيات والتشبيهات التي مرّت الإشارة إليها وتنويه الفضلاء بجدواها، ومشاهد للذوق، ومرايع تمتع النفس الانسانية وتهيم بالعواطف، وتنتصر للوجدان ؛ لما لها من الجِدّة والطرافة والتحليق في الأجواء بأجنحة الخيال والاختراع.

\* \* \*

## حديث القمر

كان للرافعي مع القمر ما كان لكل شاعر، ولكنه بعد زورة قام بها الى جبل لبنان الأشم عند ذويه في طرابلس الشام والمنظر الجميل في بحدون، وهناك في ربوة تطل على وادي الهوى أطل عليه « القمر » بطرفه الساجي، فكان لقاء معرفة، وكان حبّ وكانت رسالة بيان للجمال.



وَجَّهَ هذه الرسالة إليها على صفحات « الزهور »<sup>(١)</sup>. ثم بدا له وكأنه ما أتم معانيه التي تَوَخَّى أن يَبْعَثَ إليها، فعادَ يأخذُ تلك المقالة المرسلَة في أُنْدَاءِ آذَانٍ على خَطَرَاتِ النسيمِ، يَتَوَسَّعُ فيها بما أُوْحِيَ إليه أميرُ اللَّيْلِ من خَطَرَاتِ أَفْكَارٍ شعْريةٍ وغزليَّةٍ، وما تَضَمَّنُ من معاني الأَدَبِ وآراءِ الاجْتِمَاعِ وأفكارِ الفَلَسَفَةِ، فتتَابَعَتْ معه فصولاً شائقةً ؛ تناوَلَ فيها مباحثَ شَتَّى من حَوْلِ مدارِ قَوْمِي أثير<sup>(٢)</sup> بأسلوبٍ خياليٍّ ؛ لأنَّ الخيالَ هو أساسُ الإنشاءِ وأداةُ التعبيرِ وركنُهُ الركين.

ولكنَّ ما حاوَلَ الرافعيُّ أن يَسْتَرَهُ من تَفْصِيلِ قِصَّةِ حَبِّهِ في هذا الكتاب، عادَ عليه بالاجْتِهَادِ في الإِشَارَةِ التي تُغْنِي عن العبارة، ولكنَّ تلك الإِشَارَاتُ — وما فيها من كُنَايَاتٍ واستعاراتٍ، وما أَزْدَحَمَتْ فيها من التشبيهِاتِ، عَادَتْ بالإِبهامِ أحياناً، وبالْعُمُوضِ أحياناً أُخْرَى، وبِالاسْتِغْرَاقِ والدورانِ ثالثة، حتى ليدور القارئ، وَيَنْبَهِمُ عليه السبيلُ، فلا يَدْرِي حتَّى يعودَ إلى الفقراتِ مرَّةً أُخْرَى — ممَّا أَثَارَ عليه ناقدِيه إذ قالَ أحدهمُ : « إِنَّه أَجَادَ وَأَعْجَزَ عن فَهْمِ كتابِهِ والاهْتِدَاءِ إلى غَرَضِهِ، وعن محاكَاةِ والنسجِ على منوالِهِ ؛ إذ كَانَ قد بَلَغَ من الْعُمُوضِ والخَفَاءِ، ومن التَّعْقِيدِ والتكْلُفِ ما أُعْجِبَ العقولَ، وأَغْنَى الفكرَ »<sup>(٣)</sup>.

غير أنَّ الدارسَ الأمينَ يَجِدُ في هذا الكتابَ مادَّةً بيانيةً جديدةً ثَرَّةً، ومُضْمُوناً اعتقاديّاً يتجلَّى له بالتأمُّلِ والتحليلِ، وإنَّ كَدَّ ذِهْنَهُ أحياناً في ذلك كما سَيَبِينُ في آتٍ.

(١) الزهور ٥ — ١٩١٢ م

(٢) في الفصل التالي تحليل واف للكتاب ومرماه.

(٣) طه حسين — المجريدة — ٧ يناير ١٩١٣ م

ومن خيالِ الرافعي المجنَّحِ الشعري في هذا الكتابِ الرسالةِ المقالةِ التي صرَّفَ فيها وجهَ الحديثِ إليها.. الى « القمر » — وزعمَ فيه التورية، قوله :

« مَنْ أَحَبَّ ورأى حبيبتَهُ من فَرَطٍ إجلالِهِ إياها — كأنَّها خيالُ مَلَكٍ يتمثِّلُ له في حُلُمٍ من أحلامِ الجنَّةِ، ورأى في عينيها صفاءَ الشريعةِ السَّماويَّةِ، وبين خديَّها توقُّدَ الفكرِ الإلهي العظيم<sup>(١)</sup> وعلى شَفَتَيْها احمرارَ الشَّفَقِ الذي يُخَيِّلُ للعاشِقِ دائماً أن شَمْسَ رُوحِهِ تكادُ تُمِسي وراءَها في جُمْلَةٍ الجمالِ — تمثالِ الفنِّ الإلهي الخالدِ، يدرسُ بالفكرِ والتأمُّلِ، لا بالحسِّ والتَّلَمُّسِ ؛ فأطلَّعها كأنَّها لإرادتِهِ، واستندَ إليها كأنَّها قوَّتُهُ، وعاشَ بها كأنَّها رُوحُهُ؛ فذلك الذي يَشعُرُ بحقيقةِ الحُبِّ ويفهَمُ معناه السَّماويَّ<sup>(٢)</sup>، وهو الذي يقولُ لك صادقاً مصدوقاً : إنَّ كُلَّ لَفْظَةٍ من لُغَةِ الطبيعةِ في تفسيرٍ معنى الحُبِّ كأنَّها صلصلةُ الملكِ الذي يَفْجأُ الأنبياءَ بالوحي في أوَّلِ العهدِ بالرسالةِ<sup>(٣)</sup>.

إنَّه مِحْبٌ ما في ذلك أدنى شكٍّ، ومعاناته الهوى تَسْتَبْطِنُ ذاته فتفجِّرُ على لسانِهِ ينبوعَ التشبيهاتِ الخارقة التي لا تُنتهي — وهي تَصِفُ مبلغَ حُبِّهِ من شِغافِ قَلْبِهِ، بل إيمانَهُ، وما إغراقَهُ في الخيالِ وقوَّةَ تصوُّرِهِ وشاعريته<sup>(٤)</sup> التي تحشدُ كُلَّ هذه الصُّورِ إلَّا « أن الرافعي وَهَبَ عَصَبَ الشاعر ومِزاجَهُ ومُخَيَّلَتَهُ، فلما اتَّخَذَ الكتابةَ قالباً

(١) الرافعي : توصف أفكار النبغاء بالتوقد، لأن الفكر يستوقد المادة الفوسفورية في الدماغ.

(٢) كذلك كان يترجم المعاني العربية المؤمنة الى لغة العصر.

(٣) حديث القمر — ٢٠ — والصلصلة : صوت السلاح ونحوه وقد وردت في حديث الوحي، ومنها أخذ

(٤)، الدسوقي — الرافعي الكاتب — ٢٩

يَصُبُّ فِيهِ أَفْكَارُهُ كَانَتْ طَبِيعَةُ الشَّاعِرِ تَغْلِيهِ — وَقَدْ وَجَدَ فِي النِّثْرِ  
مَيْدَانًا أَوْسَعَ مِنَ الشَّعْرِ، لَيْسَتْ كَمَلٌ فِيهِ صُورُهُ، وَيَمْتَدُّ فِي جَنَابِ خَيَالِهِ ؛  
ذَلِكَ لِأَنَّ الشَّعْرَ لَا يَفْسَحُ لَهُ فِي هَذِهِ الْآثَارِ<sup>(١)</sup>.

وَقَدْ أَحْسَّ هُوَ نَفْسُهُ — أَوْ أَحْسَّ جِهَازُ التَّوْلِيدِ فِيهِ — بِأَنَّ الْكِتَابَ  
بِهِ حَاجَةٌ إِلَى زِيَادَةٍ بَسْطٍ، وَرَبَّمَا احتَاجَ إِلَى كِتَابَةٍ جَدِيدَةٍ فِي بَعْضِ  
جِهَاتِهِ<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

## كِتَابُ الْمَسَاكِينِ

أَمَّا هَذَا الْكِتَابُ فَأَمْرُهُ عَجَبٌ، فَقَدْ أَنْشَأَ حَدِيثًا فِي « الْفَقْرِ وَالْفُقَرَاءِ »  
تَحَوَّلَ بِهِ إِلَى مُحَاضَرَةٍ أَلْقَاهَا فِي جَمْعِيَّةِ « الْإِحْسَانِ » بِطَنْطَا، وَقَدْ أَتَى  
فِيهَا عَلَى عِلَلِ الْفَقْرِ وَمَحَاوَلَاتِ الْمَذَاهِبِ الْاجْتِمَاعِيَةِ الْمُحَدَّثَةِ الْكُبْرَى  
فِي الْقَضَاءِ عَلَيْهِ.

وَلَكِنْ مَا لَبِثَتِ الْمُحَاضَرَةُ بَعْدَ نَشْرِهَا فِي « الْمَقْطَمِ »  
و « الْمَقْتَطَفِ »<sup>(٣)</sup> أَنْ اجْتَمَعَ إِلَيْهَا فُصُولٌ مِنْ آثَارِهَا فِي ( الْبَخِيلِ )<sup>(٤)</sup>  
وَوَهْمِ الْمَالِ وَالتَّعَاسَةِ، وَمَا إِلَيْهَا مِنْ مُرَافَقَاتِ الْفَقْرِ وَالْغِنَى وَأَيَّامِ الْحَرْبِ  
السُّودِ، وَالْإِحْتِلَالِ الْبَغِيضِ، حَتَّى عَادَ جِهَازُ التَّوْلِيدِ وَالْإِخْتِرَاعِ وَالتَّفْتِيقِ

(١) الدسوقي — الرافعي الكاتب — ٢٩

(٢) رسائل الرافعي — ٨٢

(٣) المقتطف : ٩٢ — يونيو/مايو ١٩١٣ م — ٤٦٣ ، ٥٣٢

(٤) كتاب المساكين — ٢٣

الذهني يُلهِمُهُ من معاني الموضوع، ويستَطرِدُّ في جوانبه، ويطاردُ مضاعفاتِهِ في الفكر والإيمان، حتَّى استوتَ لديه مبادئ وأفكارٌ في الموضوع، وزَبَدٌ من آراء ووجهات نظر تنقلبُ بها معانيهِ، فراحَ يَنحَلُّها شيخاً مجذوباً قد استوى عندَهُ التبر والترُّب؛ ليلبُغَ بها قَصْداً في الحكمة، وهَدَفاً في إرادةِ التغيير، وأساساً في الانقلاب. إِنَّهُ يقول :

« إنَّ الانسانَ كما يكذبُ في الكلام يكذبُ في الفَهم، فهو أبداً يحتاجُ — لشفوتِهِ — من هذه الطبيعة — الى أشياء تَضِلُّ عواطفَهُ، كما يحتاجُ إلى أشياء تهديها.

ومن ههنا اقتحمتْ أهواؤُهُ ونَزَعَاتُهُ على الطبيعة والشرائع والأديان، واكتسبتْ في رأيهِ معاني الأشياء التي تَصِلُ بِنَفْسِهِ، فظَهَرَ من الغِنَى ما يَشْبَهُ الفقر، ومن الفقر ما يَشْبَهُ الغِنَى، وصارتِ الحياةُ كُلُّها جهاداً وشقاءً ونَصَباً؛ لأنَّ الشكلَ فيها أكثر من الواضح «(١).

« ولو أنَّ رَجُلًا من هؤلاء الذين بَسَطَ اللهُ لَهُم فقبضوا، وجادَ عليهم فبخلوا، وأعطاهم فأمسكوا، قد أرادَ اللهُ بهِ خيراً فوقاهُ شُحَّ نَفْسِهِ، وَيَسَّرَ له في أخلاقِهِ، ومكَّنَ لَهُ في بابِ البذل والجود، وآتاهُ من حُبِّ الخير ما ابتلاه من حُبِّ المال، لرأيتَ في حياتِهِ توسعةً على قومٍ في تعاسيتِهِم، وإحياءً لقومٍ في آمالِهِم، وعتاداً لقومٍ في أعمالِهِم، ومنفعةً لآخرين من وجوه كثيرة، ورأيتَ في غِنَاهُ بركة العدل، ورحمة الأمن، وعِصمة الخلود؛ فكأنَّه أمةٌ في نَفْسِهِ، ثم لا تَجِدُ اسمَهُ إلَّا في واحدٍ من ثلاثٍ؛ إمَّا صفحةً تكتبها الأعمالُ للتاريخ، وإمَّا صفحةً يفرِّدُها الناسُ للأخلاق، وإمَّا صفحةً ترفعُها الملائكةُ لله ».

(١) كتاب المساكين — ٢٥

ويقول : « هذه آثار النفس الطيبة ؛ لا تنشأ إلا بين نوعين من الحب ؛ حب الرجل الكريم للناس، وحب الناس لهذا الرجل الكريم، لا هو يُمطّلهم حقاً عيه، ولا هم يظلمونه حقاً له، ولعمري كيف يستطيع المَطْل، أو يستطيعون، والذين الذي وجب على الفريقين هو الحب — دين القلب ١٩ ».

وبالروح المؤمنة وراء هذه الإنشائية المكيّة فيه راح يضيف الى الكتاب في طبعته الثانية فصولاً أخرى في « المناقق »<sup>(١)</sup> و « الدين ولادة ثانية »<sup>(٢)</sup> و « الجمال والحب »<sup>(٣)</sup>. كما أضاف إليه مراثيه لأخيه محمد الكامل — من وحي الروح : « الثراب المتكلم أمام التراب الصامت »<sup>(٤)</sup> غير المقدمة والهوامش وبعض الشروح.

وعلى أن الموضوع الاجتماعي الخطير في التفاوت الاقتصادي بين الناس شاغل العصر ومفكره من الساسة والفلاسفة والفقهاء، وعلماء التربية والاجتماع، فإن الرفاعي يكاد يحصره « بيان شيء من حكمة الله في شيء من أغلاط الناس »<sup>(٥)</sup> وقد أسند الكلام فيه الى الشيخ علي الجناحي<sup>(٦)</sup> ليبلغ قصداً في إحياء الضمير الإنساني؛ فالشرائع

(١) كتبها للهِلال — مارس ١٩٢١ م

(٢) كتبها المقتطف — ٧٢ — ١٩٢٩ م

(٣) نقلها عن السحاب الأحمر — ١٣٤

(٤) المقتطف — ديسمبر ١٩٢٨ م

(٥) كتاب المساكين — المقدمة

(٦) أحسبه أراد البيان في تأثير القرآن بأدبه عند إيراد قصة الرجل الصالح مع النبي موسى عليه السلام، وقد ذهب مذهبه هذا مفكرون آخرون؛ اذكر منهم أرنست بول في « حوار العباقرة » ترجمه بديع شريف — دار المعارف ١٩٥٨ م.

والقوانين إذا لم يكن من خلفها ذلك الضمير الحيّ، يزغُ ويدفع تحايلَ الناس عليها بالخداع والحيلة، والغدر والغيلة»<sup>(١)</sup>.

أما لغة الكتاب فهي أنيقة، وعباراته مُنتقاة رشيقة ؛ فهو إذا ذمَّ وصَّح، وإذا مدَّح رفع، وإذا وصف أبدع<sup>(٢)</sup>.

ولكن ما حشدّه فيه من كثرة التشبيه والتمثيل والاستطراد في التوليد، وتركيب الخيال وتقليب الآراء قد جعلَ الإفادة من الكتاب لا تتأتى إلا لفئة من الدارسين الاجتماعيين الفقهاء، إن لم أقل فئة أولي العزم من الصابرين، وهؤلاء عنده الواحد منهم بآلاف من سواهم، فكأنه بروحه الإنشائية العامرة يريدُ الرُّعاة والبُغاة، لا الذين يتخذون من القراءة مزجاةً للفراغ.

## رسائل الأُحزان

وأما رسائل الأُحزان فإن أمرها غريب ؛ ذلك أن الرافعي قد مرّت به فترة من الزمن بُعيدَ الحرب الأولى، والنّهضة الوطنيّة المصرية، والأيام الحسوم التي عايشه فيها المرضُ بنزلاته الشعبية وثمة آلام أخرى كانت تعترّيه فيكثيرُ الشكوى<sup>(٣)</sup>، ولكنّ الشعر وأثره في نفسه، والجمال وما يحدثه من هزة عاطفية في روحه، كانا لا يفتان يعاودانه في لوّن من المعالجة يجري بها قلمه على صفحات مجلة « فتاة الشرق » في

(١)، (٢) الأخبار — ٣٠ مايو ١٩١٧ م

(٣) رسائله الى الشيخ أبي ربة — منشورة، والى محب الدين الخطيب آنذاك.

« دَرَسِ الحَيَاة »<sup>(١)</sup>، أو يَمْضِي في مجلّة « المضمَار » يُسَطِّرُ خَوَاطِرَهُ في الشعرِ والجمالِ وفَلَسَفَتَهُمَا<sup>(٢)</sup>. فلَمَّا وَقَعَ له ذلك الحادِثُ الغريب من حُبِّ التي « هي » عادَ الى صَفْحَاتِهِ تلكَ يَسْتَعِينُهَا أن تكونَ له بعضَ مضموناتٍ في رسائلِ الأحزانِ، وَيَرْمِي بها « المجدّدين » في محاولةٍ تَعْجِيزِيَّةٍ أن يُؤَاتُوا بِمِثْلِهَا<sup>(٣)</sup>.

يَصِفُ حَبِيبَتَهُ التي مَلَكَتْ عليه أَيَّامُهُ « كَأَنَّهُ مسحورٌ بها، فيجِيءُ بكلامٍ غُلُوِي مُشرقٍ كتسبيحِ الملائكةِ، يمازجُهُ أحياناً شَيْءٌ يَحَارُّ فِيهِ الفَهْمُ ؛ لأنَّ أحدهما إنما يرسلُ فِكْرَهُ وراءَ قَلَمِهِ؛ أما هو فيرسلُ نَفْسَهُ وراءَ فِكْرِهِ، وَيَسْتَمِدُّ قَلَمَهُ منها، فَمَنْزِلَتُهُ أن يَكْتُبَ ثلاثَ كلماتٍ، وَمَنْزِلَتُهَا أن تَفْهَمَ كلمتين، والانسَانُ منها كاتبٌ مفكّرٌ؛ أمّا هو فقد زادَ بِصَاحِبَتِهِ فكانَ كاتباً ومفكّراً ومُلهِماً »<sup>(٤)</sup>.

ويقولُ في إحدى رسائلِهِ : « أَحْبَبْتُ فَنَاءَ كَأَنَّهَا قصيدةٌ غزليةٌ في ديوانِ شعرٍ، لا خطبةٌ سياسيةٌ في حَفْلَةٍ<sup>(٥)</sup>. فما لَمَّ إلا معنى دقيقٍ لطيفٌ خلاّبٌ ساحرٌ، كلُّ قولِي له : أريدُ أن أفهمه، وكلُّ قولِهِ لي : تأمَّلْ تَفْهَمُ »<sup>(٦)</sup>.

وبروحيهِ التعبيريّةِ المكيّنة، وذوقِهِ الأدبيِّ الرفيع، وحاسَّتِهِ الشعريّةِ،

(١) فتاة الشرق — يناير/كانون الثاني ١٩١٩ م

(٢) المضمَار — ديسمبر — ك الأول ١٩٢٠ م — والأجزاء التي بعده

(٣) راجع ما سبق في ترجمة « آلام فرتر » واستهوائها له، ورسائلِ الرافعي.

(٤) رسائلِ الأحزان — ٣٢

(٥) تأملِ المفارقة تدرِكِ موقفه منها آنذاك.

(٦) رسائلِ الأحزان — ١٠٦

وجهازِ التوليد الذي ما يفتأ يرفده بالمعاني وبناتها يُفجّرُها طاقاتٍ،  
ويُنشئها صُوراً وخيالاتٍ، ويَضُمُّها إليه في مجازاتٍ عقليةٍ، واستعاراتٍ  
مكنيةٍ، وينشرُها عليه في تشبيهاتٍ لا تنقطع فيها الكافُ وكأَنَّ ؛ تنقلُها  
من حالٍ الى حالٍ، حتّى يضحى الحُبُّ عندَهُ « طفولةٌ » لا تعرفُ  
وجهَ الفتى إلا شبيهاً بوجهِ الفتاة، فليسَ فيه تذكيرٌ وتأنيثٌ، بل حالةٌ  
متشابهة كاخضرارِ الشجرِ تبعثُ عليه الحياةَ، حين لا يجيءُ الحُسنُ  
فيها إلّا من جهةِ القلبِ.

وما أرى الشجرةَ حين تَخْضُرُ إلّا قد لبّثتُ فيها حكمةً من قدرةِ  
الله ذاتِ حُرُوفٍ كثيرةٍ، ولا الزهرةَ حين تَتَعَطَّرُ إلّا قد لاحَ في جمالِ  
المعنى بديعٍ من الحكمةِ الإلهيةِ، ولا الإنسانَ حين يعشقُ عشقاً صحيحاً  
كما تروح الشجرة وتنفطر، إلّا صارَ قلبُه كتاباً من تلك الحكمة النقيّة  
الجميلة المُعْطَرة<sup>(١)</sup>.

ويظهرُ أنّ ذلك الحُبَّ قد اسْتُكْبِرَ عليه — وهو الرَّجُلُ العَفْ، المُسْلِمُ  
المُتَزَوِّجُ الغيورُ، فقال : « كذلك يكونُ الحُبُّ عندَ الذين خُلِقُوا للشَّعْرِ  
والحكمةِ، إذا هم اتَّصلُوا به، فانه لا يَهْبِطُ إليهم من السماءِ إلّا ليملأَ  
أوعيتُهم، وفي هؤلآءِ خاصّةً يكونُ الحُبُّ الإنساني هو السَّرْبُ تحتَ  
الماءِ ؛ الذي يتَّخذونه سبيلهم الى غور في الأمواجِ الإلهية العظمية  
التي لا تنتهي أعماقُها، فيغوصونَ ويخرجونَ، وفي أيديهم أفلاذُ الحكمة  
ولآلُها، ومن شفتي المرأة يُخرجون للناس كلامَ السمواتِ<sup>(٢)</sup> ».

(١) رسائل الأحزان — ٤٧

(٢) رسائل الأحزان — ٤٧



وبعد أن تتوالى رسائله تصف من وجده وتصور جمال حبيته « ذات اللون الأبيض المسمّر الوضيء الذي يعترف العين حسناً ؛ وكأنّ اثتلاف الألوان الثلاثة فيها جملة مركبة من لغة النور والهواء والحرارة، معناها الجمال القويّ الصحيح ؛ هيفاء ملتفة لم يهبط جسّمها ولم يربّ، تملأ قلبه كما تملأ الثوب، وتتمايل أعطافها ؛ فلو خُلق عُصن البان امرأة لمشي يتهادى في مثل مشيتها، وتنظر نظرة الغزال المدعور ؛ ألهم أنه جميل ظريف، فلا يزال مستوفزاً يتوجّس في كلّ حركة صائداً يطلبه !. وتتفجّر لعينيه في حركاتها وكلماتها كما يتفجّر أمام الظمان ينبوع الماء العذب »<sup>(١)</sup>.

ويُحسّ كأنه أبعد في الموضوع وأغرب في الحديث ؛ فإلتفت يقرّر حقيقة يستسيغ فيها موقفه هناك بقوله :

« هذا القلب هو سرّ الجمال الانساني ؛ لأنّ فيه بركة النفس، وزينتها وسكنها ؛ فالبركة تثبت من الخلق الطيب، والزينة تخرج من الفكر الجميل، والسكن يثبت بالإيمان واليقين، وما جمال النفس الإنسانية إلّا خلق وفكرة وفضيلة مؤمنة »<sup>(٢)</sup>.

وبذلك يشف عن حقيقته الاعتقادية، ودعوته القومية ذات الأبعاد الأخلاقية والرسالة الإسلامية، والدين القويم، والإخلاص، ولكن بعد أن يزحم رسائله بطاقاته الإنشائية وتعبيراته البلاغية، وصوره البيانية، وأمانيه جميعاً، فيفوّت على قارئ اللذة ومطالع الاستمتاع، ما يرمي إليه من صفة التلّهي والاستئناس بالكتاب.

(١) رسائل الأحزان — ٧٤

(٢) رسائل الأحزان — ١٠٦

وهو يدرك هذه الحقيقة، ويتحرّاه، ويدفع عن نفسه أمام التزايه بها سلوكاً وتربية، ألا تراه يقول : « ما رأيت قلبي يلتمس لذّة من بعد إيمانه إلّا في ثلاث ؛ الفكر الانساني الذي يهبط في أدمغة الفلاسفة والشعراء من أعلى السموات، أو ينبع من أغوار النفس، والفكر الطبيعي الذي يملأ السموات والأرض نوراً ولواناً وجمالاً، والفكر الروحي الذي يتلألأ لخيالي في عيني الجميلة الحبيبة »<sup>(١)</sup>.

وهو يشعر أنّ هذه الرسائل غير موفية على الغاية ما لم تلحق بها رسائلها، فتشرك على الجانب الآخر، ويدرك أيضاً أن « سيأتي يوم يكتب فيه تاريخ هذا الحب — الكتاب — إن شاء الله »<sup>(٢)</sup>، على الرغم ممّا أثارت بين النقاد من مطارحات يأخذ المرء العجب منها ؛ فمن مدّع عدّم فهمها جملة<sup>(٣)</sup>، ومن هائم مُستطار القلب فيها يسأل الله الجلال والجمال<sup>(٤)</sup>. ولكنها تبقى مع ذلك كلّ آية الإنشاء العربي في النثر الحديث، دالة بقوة لغتها ومتانة الأسلوب، وإشراق العبارة على حيوية العربية، ونقلتها البلاغية الكبرى في موضوعات الجمال والحب وحسن الاعتقاد من الشعر الى الفن والكتابة، على الرغم من جميع المآخذ الشكلية التي تريد أن تحملها مهمة التحليل والتركيب.

كما أنّ ما انطوت عليه من معرفة الكاتب بالعلوم الحديثة في الطبيعة والنفس، والكهرباء، واستخدامه لقوانينها في بيانه، يُعدّ بادرة أخرى من بوادره العظمى.

(١) رسائل الأحزان — ١١١

(٢) الرسائل — ١٠٧

(٣) طه حسين — حديث الأربعاء ٣ — ١٣٦

(٤) نقولا الحداد — السيدات والرجال — أبريل/نيسان ١٩٢٤ م

## السحاب الأحمر

أما السحابُ فَلَعَلَّ أمره أكثر عَجَباً ؛ إذ زَعَمَ أَنَّهُ تكملةٌ على « رسائل الأُحزان » وقالَ ؛ إنها كالكتاب الواحد<sup>(١)</sup> ولكنَّ الحقيقةَ غير ذلك ؛ فاختلاف النَّسِيجِ البياني بينهما أكبرُ من أن ينطبقَ أحدهما على الآخرِ، إلّا في اجتماعِ الموضوعِ عليهما، كما أنَّ الحالةَ النفسيّةَ في كليهما مختلفة — وإن استوحى مضموناتها من إلهامٍ واحدٍ مع تعدّد مصادره.

وما وَعَدَ به القارئُ من تاريخِ الرسائل وقصّتهِ مع صاحبتِه، لم يَفِرْ به على الوجهِ الذي أَمَلَ القارئُ والباحثُ معاً، وإن تحدّثَ في الفصلِ الأولِ عن « فتاةٍ عرفها قديماً في ربوةٍ من لبنان ؛ ينتهي الوصفُ الى جمالِها ثم يَقِفُ » فيوهمُ القارئُ أنَّها هي صاحبتُهُ في « حديث القمر » ١

ولكن الذي يعرفُ ما للرافعي من باعٍ في الكتابةِ الفنيّةِ وقوّةِ اندفاعِ في التعبيرِ عن وجوهِ المسائلِ وصُورِ الأفكارِ، وزِحامِ الآراءِ وتلاحُقِ الخيالاتِ والأحلامِ، وانثيالِ ذلك كُلِّهِ مع الآلامِ والأوهامِ التي يَجِدُ في شَعْبِها وبطيلُ في مناحيها، يحسُّ أنَّ الرافعي — وقد تَلَقَّى نقداً مرّاً، وكلاماً مغيظاً مُحَنَقاً من طه حسين لرسائلِ الأُحزان، على الرُّغمِ من أن تقرّياتٍ وتعريفٍ أخرى أشادتْ بها، وأشارت الى أثرها وخطَرها، ولكنّها « هي » لم تكتُبْ فيها، فكتبَ « هو » في تعريفهِ كالذي يثيرُ انتباهها « هي » لتدركَ مواهبَ قلميهِ البليغِ الذي يتصرّفُ بالكتابةِ بطبعٍ سَمَحٍ جريءٍ يستمدُّه من أصولٍ غريزيّةٍ في نفسِهِ، فياضةٍ بالمعاني،

---

(١) السحاب الأحمر — ١

وكيف رمى الى إعطاء الفتيان والفتيات مثلاً عالياً من الحب الروحي  
المبني على العاطفة الشعرية والعقل الحكيم، بإخراج ذلك المثال البديع  
من الأدب العربي الحديث<sup>(١)</sup>.

ولكنها أجابته على هديته برسالة خاصة، تقول فيها :  
« أيلزُم أستاذنا الكريم سماءه الشعرية السحيقة في هذه الأيام ١٩  
أم هو يغادرها جيناً يتفقد شئون الحياة الأرضية، ويتلقى تهاني أصدقائه ١٩  
فليتقبل — إذا كان على الأرض — طاقة أهدبها إليه من خالص التهاني  
وحار التمنيات »<sup>(٢)</sup>.

إذن هو لم يظفر منها بما كان يؤمل من المعارضة برسائل لها،  
أو التعريف برسائله، أو التصدي لها بتقدي، أو الإشارق إليها في باب  
الانفراد بأدب الرسائل، أو الشناء المستطاب الذي يرفع التقريط الى  
درجة الإعجاب والإكبار، فعاد الى نفسه يؤامرُها ويسائلُها : هل أضاع  
الفرصة معها في الرسائل أيضاً ١٩

ومن هنا اضطرَّ عليه « السحاب الأحمر » فراح يوازن بين ما  
يريد وما لا يريد، أو يحاول المفاقة بينها وبين سميتها « ماري يني »  
صاحبة مجلة « منيرفا » ببيروت، ذات الأثر البين في « أوراق الورد »  
كما سيرد؛ إذ راح يقول :

\* إنَّ من النساء ما يُفهم، ثم يعلو في معانيه الجميلة الى أن يمتنع،  
ومن النساء ما يفهم، ثم يسفل في معانيه الحسيسة الى أن يتذل،

(١) المقتطف — يونية — ١٩٢٤ م

(٢) من رسالة « مي » المؤرخة في ٤ مايو/أيار ١٩٢٤ م

\* يا هذه، لا أدري ما تقولين، ولكن الحقيقة التي أعرفها أن نفس المرأة إذا اتسخت كان كلامها به حاجة إلى أن يغسل بالماء والصابون، وهيها ! «<sup>(١)</sup>».

ويحسب العريان من غير شك « أن هناك رسالة إليها، رسالة يُملئها الحب المغيظ المحنق ؛ يحاول أن يوهمها أنها لم تعد شيئاً في نفسه »<sup>(٢)</sup>.

وينقل عن « المقتطف » فضلاً كان عقده لمأساة إنسانية مروعة ؛ كيف تقلّ عربة السجناء « السجين » إلى قضائيه، وزوجه تُشيعه بنظراتها، وأُمّه، وكيف أحاط بالعربة أخواته الأربع صُفر الوجوه، ساهمات الخدود، ذابلات الأعين ؛ كأنما تدلّين إلى الأرض من مشنقة!<sup>(٣)</sup>.

ويُضيف فضلاً آخر في « المنافق » كان قد صوّره بقلبه لمجلة « الهلال »<sup>(٤)</sup> فعاد يحاوره في الحب — وكيف يراه بين مراياه — « سياسي الحب والصدقة الذي يضع المنفعة بين عينيه ثم تتوزع على جوارحه كل أساليب الكلام والعاطفة ».

وفي الفصل السادس يتحدث عن الحب أول ما خلقت لهفته في قلب الأم على طفلها : « حب الأم في التسمية كالشجرة، تغرس من عودٍ ضعيف ثم لا تزال بها الفصول وآثارها، ولا تزال تتمكن بجذورها وتمتدّ

(١) السحاب الأحمر — ٢٩

(٢) حياة الرافي — ١١٠

(٣) المقتطف — ٦٥ — ١٩٢٤ م — ٣٩٥

(٤) الهلال — مارس/آذار ١٩٢١ م — السحاب الأحمر — ٨٨

بُفروعها حتى تستكمل شجرة، بعد أن تَغني عِدَادَ أوراقها ليالي وأياماً». ويوازنُ بين هذا الحبِّ وحبِّ العشاق فيقولُ: «حبُّ العاشقين كالثمرةِ ما أَسْرَعَ ما تَنُبُّتُ، وما أَسْرَعَ ما تَنَضَّجُ، وما أَسْرَعَ ما تُقَطِّفُ، ولكنها تُنسى الشِّفَاةُ التي تذوقها، ذلك التاريخ الطويل من عَمَلِ الأرض والشمسِ والماءِ في الشجرة القائمة».

ويقول: «لا لَذَّةُ في الشجرة، ولكنها في ذلك هي الباقيةُ — وهي المنتجة، ولا بقاءَ للثمرة، ولكنها على ذلك هي الحُلوةُ، وهي اللذيذة، وهي المنفردة باسمها»<sup>(١)</sup>.

وهو مع ذلك كلُّه كالعاشق الذي يَضلُّ ضلاله، فيذهبُ يَلْتَمِسُ الطريق، ويسألُ هذا وذاك وذلك، فقد جَعَلَ الحبُّ منه «مسكيناً» فلماذا إِذَنْ لا يُهرِّغُ الى الشيخ علي — صاحبه في كتاب المساكين — يَلْتَمِسُ عنده الرأيَ والمَعُونَةَ على «ضمير» من أحبِّ، حيث أُلقيَ في روعه مثل قوله: «أفمن جِلْدَةٍ على وَجْهِ امرأةٍ يَجِيءُ الشَّعْرُ والجنون معاً؟ ويجتمعان في هذا الخيالِ الذي يُسمَّى الحبُّ، وَيَسْتَنزِلانِ معاني التَّقْدِيرِ من أعلى السموات الى عَيْنِ تَلَحُّظٍ لحظَةً وشفةٍ تَبْسُمُ بسمة، إنه القَلَمُ الالهي المبدع الحكيم هو الذي صَوَّرَ وَلَوْنَ وافتنَّ ما شاء»<sup>(٢)</sup>.

ويهرِّغُ كذلك الى صفِّي مودَّتَه ورفيق صباه الشيخ «أحمد الرافي»

(١) السحاب الأحمر — ١٢١

(٢) السحاب الأحمر — ١٢٣

ويعودُ الى كلمةٍ له كان قد رثى فيها ذلك الصديق الحبيب<sup>(١)</sup>،  
فيضيفُ إليها فقرةً له في الصداقةِ والصديق كان كتبها للأديبةِ لبيبة  
هاشم<sup>(٢)</sup>، وأخرى يجعلُ منها تلك الصفةَ الأخرى والوجهَ الأعقل  
للحُب، « فقد كان دينُهُ غَضًّا كعهدِ الدينِ بأيامِ الوحي، لا تزالُ تحفُّهُ  
رِقَّةُ القلبِ المؤمن، وفوقَهُ رِفَّةُ جَنَاحِ الملكِ يخالطُ نُورُهُ القلوبِ »<sup>(٣)</sup>.

آه لو عَرَفَ الحقُّ أحدًا لما عَرَفَ كيفَ يَنْطِقُ بكلمةٍ تُسيءُ، ولو  
عَرَفَ الحبُّ أحدًا لما عَرَفَ كيفَ يَسْكُتُ عن كلمةٍ تُسِرُّ<sup>(٤)</sup> ولا يكونُ  
الصديقُ صديقاً إلا إذا عَرَفَ لكَ الحقُّ وعرفَ لكَ الحبُّ<sup>(٥)</sup>.

وحين تألَّقَ سحابُهُ عالياً كانَ يشعرُ وكأنَّه « يرتقي في صَعْدَاءِ مطلبها  
بعيد، فلا يخطو إلا مدافعاً جاذبيةَ الأرض ؛ ذلك أنه يستنجدُ بالإمامِ  
محمد عبده — وقد كان له في أوَّلِ أيامِهِ فِراسَةٌ في الرافعي أثبتت  
الأيامَ صِدْقَها<sup>(٦)</sup> » وقد كانَ للشيخِ عَقْلٌ لو وُزِنَ في رجحانِهِ لَعُدَّ بين  
العقولِ من موازين التاريخ، وَقَلْبٌ إن يَكُنْ في جنبِهِ كالقُلوبِ التي  
وُضِعَتْ على منحدرِ المعاني الأرضية، فإنَّه كان دونَ القلوبِ على مهبطِ  
السموات<sup>(٧)</sup>.

(١) الأخبار — ١٥ أغسطس/آب ١٩٢١ م

(٢) فتاة الشرق — فبراير/شباط ١٩١٩ م

(٣) السحاب الأحمر — ١٥٢

(٤) في هذه العبارة أبلغُ إشارةً إليها

(٥) السحاب الأحمر — ١٥٣

(٦) هي في دعائه : أسألُ الله أن يجعلَ للحقِّ من لسانك سيفاً يمحو به الباطل، وأن

يقيمك في الأواخر مقامَ حسان في الأوائل

(٧) السحاب الأحمر — ١٦٣

وهكذا راح يَسْتَلْهِم هؤلاء جميعاً معاني الحب، وأفكارهم وآراءهم في الحب، وفي النساءِ خاصّة، ويَسْتَمزجهم خواطر للناس، وحِكَمًا وروائع في الحياة والمدنيّة والحضاريّة، ويَسْتَدْرِجهم آراءً ونظرات في الاجتماع الإنساني بصورةٍ من البيانِ تدقّ أحياناً فتستعلّق، وقد تصفّو حتّى تتصلّ بالروح وتعلّق باللّوح.

وقد بلغ الرأْي في « السحاب الأحمر » لدى النقادِ « أن الرافعي لم يَرَحَمْ قارئاً، فزاد معانيه غموضاً باستعماله ألفاظاً غير مأثوفة، وتراكيب غير مأنوسة، ولكنّ إذا أضيفَ إليه دقّة المعاني، وكون بعضها جديداً استنبطه من صُوَر تخيلها، أو من مباحث علميّة وقَفَ عليها، زاد فهم الكتاب صُعباً، ولكننا نرجح أن من يمعنُ نظره فيه من الأدباء لا يتعذّر عليه فهمه»<sup>(١)</sup>.

ولكن الرافعي يَسْتَلْحِق ذلك بقوله : « أرى المتأدّبين يعرفون لهذا الأسلوب ما يعرفه رجالُ التربية من أساليب إنشاءِ تصوّر وإرهاقِ ذهن وتدقيقِ الخيال، وقوّة الطبع اللّغوي وصفلّه وإدارةِ الحسّ عليه.

ثم هم يقولون : إن موضعه من هذا الكلام المخنث الذي تَرْمِي به الأقلّامُ المريضة في هذا العصر موضعُ الفُحولة التي لا بُدّ منها في الخليقة لإيجاد القوة التي لا تكون إلا بالفحولة وإشعار الهيئة التي لا تكون إلا بالقوة»<sup>(٢)</sup>.

وهكذا يرى الأدبُ أبداً أداة تربية، ووسيلةً تنشئة متينة، وأساس

(١) المقتطف — مارس ١٩٢٥ م

(٢) المقتطف — ابريل/نيسان ١٩٢٥ م



قيامٍ بنهضةٍ شاملةٍ في مرافق الحياة وجوانبها جميعاً، ومن هنا فليحسب حسابه، ولا يلتفت الى الاعتراضات الجانبية التي لا هدف لها غير المفارقة والإيقاع حين تزعم الترف العقلي، أو تأخذ عنه كلمة وصفٍ في غير هذا الأدب ترميه بها<sup>(١)</sup>.

ولكن ذلك ما بقي محجوباً الى اليوم على سائر دارسيه وقارئيه أدبه الغزلي الذي حاول فيه أن يلج الى جوانب الحياة الإنسانية كلها، وجاس به فعلاً في أمثلة بشرية مما يألّف أو يرى أو يحس، ويشعر، كما لاح لنا في (السحاب الأحمر).

## أوراق الورد

ديوان رسائل الحب التي تطارحها الرافعي مع حبايبه، وكان العمل الحاسم في دغوى التجديد التي لهج بها عصره، وتوزعت الأقسام مذاهب وآراء<sup>(٢)</sup>.

وكانت معظم هذه الرسائل قد نُشِرت مُنْجَمَةً في الصحف والمجلات<sup>(٣)</sup>، وإن كان الجد في إعداد ديواناً لرسائل الحب يكون كتاباً في فلسفة الجمال، ومُنْعَظاً للكتابة العربية التي تنطلق مع العصر

(١) أمثال سلامة موسى وأدب الفقايح — الهلال — أبريل/نيسان ١٩٢٥ م

(٢) لم يتفق المجددون على منهاج في التجديد، وقد اختلفوا في ماهيته، حتى عاد الصيال والجراك فيما بينهم أشد ما يكون — المعارك الأدبية لأبي الأنوار — وأنور الجندي.

(٣) كالسياسة والهلال والبيان والمقتطف وغيرها.

تتقدّم صفوف اللّغات، وتعجزُ شائعيها من المُستشرقين والشعوبيين القدامى والجُدُد، هو من أسنى المطالب وأسمى الأهداف في تأليفه.

قدّم له بمقدمة تاريخية بليغة، استقصى فيها ما عُرف لأدباء العربيّة من تأليفٍ أو تصنيف في غير الشعر، من رسائل الحبّ، فما وجد غير نُتفٍ ومُستظرفات لا تبلغ أن تسمى رسائل<sup>(١)</sup> وإن حفل تاريخ الأدب برسائل الديوان والاخوان والوجدان<sup>(٢)</sup> حتى قال :

«أنت ترى أن الأدب العربيّ قد انطوى على مَحْجُوبَةٍ من هذا الفن بقيت في الغيب الى عهدنا، ونرجو من فَضْلِ الله أن تكون كتبنا الثلاثة<sup>(٣)</sup> قد أظهرتها، واستعلنت بها، وأن تقول العربية — إذا تواصفوا كتب هذا الباب في بيان اللّغات الأخرى : ﴿هاؤم اقرأوا كتابه﴾<sup>(٤)</sup>».

وقد حاول أن يكتب شيئاً من تاريخ حُبّه<sup>(٥)</sup>، فكتب في الحبّ نفسه، والصفات السامية فيه، ورأى رأيه، ثم صمّ جناحيه على رسائل في حقيقة الجمال<sup>(٦)</sup> وزجاجة العطر الهدية<sup>(٧)</sup> حتى إذا وافته برسمها، وطارت بينهما الرسائل في وسائلها من البريد، والمقالة، والحديث،

(١) كالسياسة والهلل والبيان والمقتطف وغيرها.

(٢) حسب زكي مبارك — النثر الفني ٢ — ١٦٢ أن ادعاء الراعي مبالغ فيه، وأتى بأمثلة من رسائل الاخوان يحملها على الحبّ.

(٣) هي : رسائل الأحزان والسحاب الأحمر وأوراق الورد.

(٤) أوراق الورد — ١٤. والآية ١٩ — سورة الحاقة.

(٥) أوراق الورد — ٢١

(٦) أوراق الورد — ٢٨

(٧) أوراق الورد — ٣٢

وَفُضِّلَ القولُ هنا وهناك<sup>(١)</sup>، تكاملَ لديه هذا الديوانُ الفريد من أدبِ الرسائل «أوراق الورد».

والديوانُ بعدُ من أدبِ الانشاءِ وفنِّ الرسائل ؛ وأسلوبُ الرافي فيهِ يتَّضحُ أكثرَ مما كانَ عليه في سائرِ كتبه الأخرى في موضوعاتها من الغزلِ والجمالِ، والفنِّ والاجتماعِ.

خففَ من غلوائِهِ في التشبيهاتِ وكأنَّ وكاف التشبيه، وقلَّ من الاستعاراتِ بعض الإقلالِ، وجعلَ للكناياتِ دلالاتٍ أكثرَ وضوحاً، وأطربَ في النفسِ — وكأنما استجابَ لدعواتِ بعضِ الرفاقِ والنقادِ في هذا الشأنِ. فلا عَجَبَ أن نرى محمدَ لطفي جمعة يقول :

« كان حُكْمُنَا على أدبِ الرافي مُعلَّقاً منذُ عَشْرَاتِ السنين ؛ فقد رأيناهُ شاعراً، وقرأناه في « كتابِ المساكين » و « السحابِ الأحمر »، بل سَمِعْنَاهُ محاضراً، فما زالَ الرجلُ في نَظَرِنَا لُغْزاً معضلاً — ولكننا نُجِلُّهُ ونَحْتَرِمُهُ، ونحبُّ إخلاصه للعربية وآدابها، ونحترم ذاته ومثابرتَه، وقُوَّةَ إرادتِهِ التي لا تَعْرِفُ الكَلَلَ.

ولكنَّه أُنْحَفْنَا في « أوراقِ الورد » بجديهِ في الأسلوبِ الفصيح الذي يسمِّيهِ خُصُومُهُ بالقديم — وهو يريدُ أن تكونَ المعركةُ حاسِمةً بينَهُ وبينَهُمْ في هذا الميدانِ، فسرَّرنَا به، ووجدناه قد قَطَعَ شَوْطاً في التجديدِ من حَيْثُ لا يدري، وذلكَ بممارسةِ أنواعِ الأدبِ كافَّةً بين دَفَّتَي كتابِهِ، حتَّى الشعرِ المنشورِ<sup>(٢)</sup>.

(١) حياة الرافي — ١٠٤

(٢) المساء — ١٩ نيسان/أبريل ١٩٣١ م

ورأى آخرون أنه حبٌ خيالي، لا يَقَعُ إِلَّا بَيْنَ الملائكة<sup>(١)</sup>.

واعترف إبراهيم المصري بـ «أنه دون شك أقرب أدباء الثقافة العربية إلى روح العصر الحديث». وقال: «إن في أسلوبه عذوبة، وله نصوص، وفيه لمحات من الشعر الوجداني الصادق، ثم تمثل بقوله للأديب الألماني «الفريد كير» يقول فيها:

«الأدب الصحيح يتخيل الحقائق لا الأوهام؛ إذ قوة الخيال من قوة الحقيقة، وإن الخيال بلا حقيقة ضرب من الهذيان»<sup>(٢)</sup>.

وبعد أن اقتطف من الديوان بعض جملته وأوبده المبتوثة في رسائله، قال:

«كان الراجعي في كتابه هذا شاعراً خيالياً فيلسوف التزعة، عذري الهوى؛ ينسج في الحب حلّة أثيرية، وإن حبه غريب الوجود، بل نادر..».

وقد عجب الراجعي من جرأة المصري هذه وقال: «نحن لا نحتاج أن يجيئنا هذا المعنى من ألمانية، لقد كتبت أنا هذا المعنى من عشرين سنة في مقدمة «حديث القمر» وهذا نصه:

«إن البلاغة التي حار العلماء في تعريفها — على كثرة ما خلطوا — لا تعدو كلمتين؛ قوة التصور، والقوة على ضبط النسبة بين الخيال والحقيقة؛ وهما صفتان من قوى الخلق، تقابلان الإبداع والنظام في

(١) محمد علي غريب — المساء ٢٣ منه

(٢) المصري — المساء — ١٣ منه.

الطبيعية، ومنهما صارَ أفرادُ الشعراءِ والكتّابِ يَخْلُقُونَ الأُمَمَ التاريخيةَ خَلْقاً، وربّ كلمةٍ من أحدهم تَلِدُ تاريخَ جيلٍ<sup>(١)</sup>.

وعلى أنّ الرافعي زَعَمَ أن الكتابَ تكملةٌ على « رسائل الأحران » و « السحاب الأحمر » — وكانَ عَدَّهُما كالكتابِ الواحدِ، فإنني أرى أن الفروقَ بين هذهِ الثلاثةِ كبيرةٌ من حيثِ الأسلوبِ والفكرة، ولا سيّما بين « السحاب الأحمر » و « أوراق الورد » ؛ إذ بقَدَرِ ما كان الغموضُ النَّفْسِي يَلْفُ محتوى « السحاب الأحمر » فيعِدُّ بهِ القصدُ، وَيَغِيبُ المرمى، كان « أوراق الورد » صورةً فنيّةً بارعةً، تجتمعُ فيهِ الفكرةُ، وينتظمُ الأسلوبُ، وتَتَضَحُ الغايةُ، وتقومُ الدعوةُ والاعتقادُ، وتشرقُ البلاغةُ الجديدةُ في بيانها الوليد.

ألا ترى الرافعي يحدّدُ الأغراضَ التي وُضِعَ من أجلها الكتابُ بقوله لمحبّ الدين الخطيب :

١ — سَدُّ المكانِ الخالي في الأدبِ العربي — مع أنّه ذو شأنٍ في اللُّغات الأخرى.

٢ — وُضِعَ عملُ يحسِمُ النزاعَ في الخلافِ بين القديمِ والجديدِ ؛ لأنّ المزاغم في هذا الباب طالت وعرضت بلا فائدة، فلا بُدَّ من عَمَلٍ يبين بهِ التقدّم من التأخر.

قال : وهذه كتابةٌ ( القديم ) في هذا الموضوعِ الانساني الخطير، فليتقدم « المجددون » بأحسن من هذا، أو بمثله، وإلّا فليخرسوا ويتركوا ذلك الهراء الذي يتبجحون بهِ .

(١) البلاغ — ٢٣ يوليو/تموز ١٩٣١ م — حديث القمر — ٨

٣ — إسقاطُ زعمِ المستشرقين وغيرهم ممن يَتَّقِدُونَ العريَّةَ بأنَّها قاصرةٌ في الوصف والتحليل ؛ تحليلِ العاطفة، ويُجاريهم في ذلك بعضُ السخفاءِ ممن يُسمِّونَ أنفسهم المجدِّدين<sup>(١)</sup>.

٤ — وضعُ قطعةٍ فنيَّةٍ بليغةٍ في البيانِ العربي تحفَظُ على نشْءِ هذه الأيام ذَوْقَ البلاغةِ، فإنَّ كتابةَ الجرائدِ أفسَدَتِ الأذواقَ، وتوشَّكُ أن تُنسي البلاغةَ.

٥ — تطهيرُ فكرةِ الحبِّ، والسموُّ بها في نفوسِ الشبابِ ؛ فإنَّ الحبَّ طورٌ من أطوارِ النفسِ لا بُدَّ منه، ولا بُدَّ من تهذيبِ والسموِّ به<sup>(٢)</sup>.

قال : ومن هنا يُعدُّ الكتابُ وكأنَّه أخصُّ كتبِ التربيةِ، فوقَ أنَّه من أخطرِ كتبِ الأدبِ، ومن أسمى كُتُبِ البلاغةِ والإنشاءِ.

وقد أصابَ الرافعي الأهدافَ جميعاً، ولا أدلُّ على ذلك من إحجامِ التقليديين من دعاةِ التجديد كطه حسين وعباس العقاد وسلامة موسى من التصدِّي له بنقْدٍ أو نحوه. وإنَّما كان في سكوتهم نوعٌ اعترافٍ بصنيعه الجميل، إضافةً إلى أنَّ القُرَّاءَ من مختلفِ الدَّرَجَاتِ يقرُّون لأوراقِ الورد بفضائلِ التربيةِ الجماليةِ والسموِّ بفكرةِ الحبِّ، والامتيازِ على كُتُبِ الرافعي الأخرى.

(١) كتب طاهر الحميري من ألمانيا يقول : إنَّ من «أوراقِ الورد» ما يُترجم إلى الانجليزية والفرنسية والألمانية، فلا يَفْقَدُ شيئاً من جمالِ معناه، ولا يفقدُ إلا قليلاً من جمالِ لفظه، ولكنه يضيِّعُ أكثرَ شعره وموسيقاه.

(٢) من رسالته إلى محب الدين الخطيب المؤرخة في ٤ نيسان/أبريل ١٩٣١ م.

ذلك أن « السحاب الأحمر » كان التكلف بادياً فيه، وقد نسبنا ذلك الى الحال النفسية المتواجدة التي كان عليها الراجعي.

أما « أوراق الورد » فلعلَّ العمر الذي امتدَّ به في الكتابة والفن، وما سبقه من معالجة « إخوته » قد جعل له الامتياز بالصحة، ووفر له العافية.

وقد كان يكتبه وينشره مُنجماً مُدَّ وَقَعَ له ذلك الحادث الغريب مع « فلانة »، وحيثُ كانت فلانةُ الأخرى — ماري يني — ترفضه بمعانيها، أو كما قال العريان :

« تلك يَسْتَمِدُّ من لينها وسماحتها معاني الحبِّ التي تملأ النفس بأفراح الحياة، وهذه يَسْتَوْحِيها معاني الكبرياء والصّدِّ والقطيعة، وذكريات الحبِّ الذي أشرقَ في خواطره بالشعر، وأفعم قلبه بالألم »<sup>(١)</sup>.

وكان الإلهامُ يجرُّدُ له بمعانيه في رسائل تأتيه عبر البحار، وتوافيه الأخرى بين السطور، كما يرفضه جهازُ التوليد — الذي استحكَمَ فيه بما شاء من معانيه، ومن صُورِ الفتنة والجمال<sup>(٢)</sup>.

كما أن فسحة العمر، والتأثر بأساليب الموحيات جميعاً، وظهور قصبة حبِّ الراجعي الأديب بين الناس، فلم يعد هنالك داعٍ من حفاظٍ على سرٍّ — وقد خلصَ الكتابُ من كثير مما أُخذَ على الراجعي في أسلوبه بكتبه التي تقدّمت من الغموض والأنبها، والالتواء أحياناً.

(١) حياة الراجعي — ١١٥

(٢) كتابنا — ٢٧٩

وما خَفِلَ بِهِ «أوراق الورد» من قِيمِ الحُبِّ، وأعرافِ  
وانْثِيَالِ الأفكارِ، وتداعي المعاني، وزِحامِ الصُّورِ البيانيةِ وتنسِبِ  
زينةَ كُتُبِ الرافعي كُلِّها.

يُضافُ الى ذلك أن دَعْوَةَ الرافعي الى السموِّ بهذهِ العاطفةِ  
الكريمةِ، والتحوُّلِ بالفكرِ الإسلامي الى صفةٍ فِقْهِ الحياةِ نَدَ  
هذا الطُّورِ، واستِعْلانها مبدأً ووسيلةً لأُسْنَى المقاصدِ وأعلى  
لَهُوَالبَيانِ. «وما شيوخُ الكتابةِ في الحُبِّ الفاسقِ إِلَّا تحوُّ  
التي يشيع فيها ذلك إلى بغايا»<sup>(١)</sup>

ولو حاولنا التقلُّبَ في أبوابِ الديوانِ ورسائلهِ، والسياحةِ  
أدبهِ، واستجلاءَ صورِ البيانِ، وآياتِ البلاغةِ، وما بَلَغَهُ بفنِ  
الوجدانيةِ «لأنْفَتَحَتْ لنا آفاقٌ تخرِجُنا عن الدراسةِ الكليةِ التي  
فيها للمحافظةِ والتجديدِ في الكتابةِ عندهُ.

وعلى ذكِ فإني أضُمُّ صَوْتِي الى الأستاذِ عمر الدسوقي في  
دراسةِ هذِهِ الكُتُبِ بالبحثِ والتحليلِ دراسةً خاصةً مُستفيضة  
وذلك هو السبيلُ الجادِ الواضحِ الذي يستكمل الموضوعَ وَيُفي  
وعلماً ومعرفةً.

على أن ما تقدَّم من معالمِ التعريفِ في هذاالخصوصِ إضاً  
طريق تلك الدراسة المستقلة المنتظرة. وفي دراستنا للضميرِ الع  
من مدارس (حديث القمر).

(١) البلاغ — ٢٣ يوليو/تموز ١٩٣١ م

(٢) الدسوقي — مجلة دار العلوم — ٣٤.



## المبحث الثالث

### المؤلف الثَّبت

في الناحية الأخرى التي يلجُ فيها مضمار الدراسات والبحث والتصنيف والتأليف، يظهر الرافعي بصفته « المؤلف الثَّبت ».

وقد يرى لأول وهلة كأنه يؤثر التَّرسُّل فيمَرُّ عليه أسلوبه بدياً، وهو أيضاً مثل الذي يكتبُ جماح قوة التعبير بقصد العلم، وهَدَف الحكم.

ومؤلفاته في غير أدب الإنشاء رافقت تحوُّله الفكري، لتصور لنا حياته العلمية، وتصدَّق روحه في الحفاظ على القيم والتجديد في العرض والإيضاح.

وهو من حيث المبدأ لا يبدو ملتزماً منهاجاً مُعيَّناً من مناهج البَحْث المعروفة عند العرب في فنون التصنيف والتأليف، أو التلْفِيق، ولكنه لا يأخذ بمناهج الدراسة المجلوبة أيضاً، وإنما يستمزجُ حسنات هذه وهاتيك، ويضيفُ إليها من خبرته وقوة شخصيته وموفر حصيلة العلمية، ما يجعلها تُمنهجُ لتفسيها عنده، فينفردُ في ذلك بين علماء عصره.

\* \* \*

وللرافعي بحوثٌ ودراساتٌ سَبَقَتْ تَأْلِيفَهُ فِي الآدَابِ، وَمَنَاهَجُ أُخْرَى  
أَعَقَبَتْ تِلْكَ التَّأْلِيفَ، وَمِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ تَظْهَرُ شَخْصِيَّةُ الرَّافِعِيِّ الْمُؤَلِّفِ،  
وَقَدْ تَمَكَّنَ مِنْ فَهْمِهِ، وَتَوَفَّرَ عَلَى أَدَائِهِ، وَزَادَ عَلَى أَقْرَانِهِ بِامْتِيَازِهِ ذِكَاةً  
وَعَطَاءً — وَإِنْ قَصَرَ فِي إِتْمَامِ بَعْضِ مَا كَانَ بَدَأَ بِهِ مِنْ مَوْضُوعَاتِ  
التَّأْلِيفِ.

\* \* \*

### بَوَادِرُ تَأْلِيفِهِ وَتَصْنِيفِهِ

ولعلَّ أُولَى مَحَاوِلَاتِهِ الدِّرَاسِيَّةِ ذَلِكَ الْفَصْلُ الَّذِي عَقَدَهُ فِي «الشعرِ  
العَرَبِيِّ»<sup>(١)</sup> وَهُوَ بَعْدُ لَمْ يَتَخَطَّ الْعَشْرِينَ مِنْ عَمْرِهِ، إِذْ كَتَبَ يَقُولُ  
مَحَلًّا وَمَقَارِنًا :

«ضَرَبَتِ الْعَرَبُ فِي الشَّعْرِ، كُلُّ بَسْمِهِ، فَمُخْطِئٌ وَمُصِيبٌ حَتَّى  
مَلَأُوا بَقَاعَ الْأَذْهَانِ حِكْمَةً، وَغَرَسُوا فِي الْأَفْكَارِ فَسِيلَةَ الْخِيَالِ ؛ فَإِذَا  
هِيَ شَجَرَةٌ طَيِّبَةٌ أَصْلُهَا ثَابِتٌ فِي الْجَنَانِ، وَفَرْعُهَا فِي اللِّسَانِ، تُؤْتِي  
أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ زَعَمَ الْغُرَبَاءُ — وَمَنْ يَتَعَصَّبُ لَهُمْ مِنْ أَبْنَاءِ الشَّرْقِ — :

---

(١) المنار — ربيع الآخر ١٣١٨ هـ — يوليو ١٩٠٠ م. وهذا التاريخ سابق لما ذهب  
إليه سعيد العريان من تحوُّل الرافعي إلى الكتابة عقب إنشاء الجامعة عام ١٣٢٦ هـ  
— ١٩٠٨ م — حياة الرافعي — ٤٩.

ومما يُؤسَفُ لَهُ أَنْ جَارَاهُ الرَّأْيُ هُنَاكَ سَائِرَ الْكَاتِبِينَ الْآخَرِينَ، وَمِنْهُمْ دَارِسُو الرَّافِعِيِّ  
الْأَدِيبِ ضَيْفِ اللَّهِ الْأَخْضَرِ، وَكَمَالِ نَشْأَةِ، وَنِعْمَاتِ فَوَادٍ، وَمُصْطَفَى الشُّكْعَةِ، مِنْ غَيْرِ رُويَةٍ.

أَنَّ العرب لم تَذُقْ أَلْسِنَتُهُمْ من البلاغةِ إلا كما تَذوقُ الأَعْيُنُ من النومِ  
غِراراً ومضمضة ؟!

وإنَّ لَهُمْ لَعُذْرًا في ذلك ما دَامَ أدباؤُنَا بِمَعزِلِ عَمَّا يَقولُهُ الشاعرون —  
وقد ركبَ هواه كلُّ من لَيْسَ يَعْرِفُ مِبلَغَ العَرَبِ من الحكمةِ، فارتفعَ  
بشكسبير وروبرت ودي موسي وجيني وأضرابهم الى الذَّرْوَةِ، ونزلَ  
بامرئ القيس وزهير وأبي الطيب وأمثالهم الى الحضيض، واستدْرَجَ  
بأبي العلاء — الذي يُلقَّبُهُ الافرنج حكيماً الشرق — وعلاء الدين الوداعي،  
وأنداد هؤلاء من سابقهم ؛ ولكنَّهُ كَدَمَ من غيرِ مَكْدَم، واستَسَمَنَ ذا  
ورم .»

وهو قولٌ مُرْسَلٌ على سَجِيَّةِ العربية يُظهِرُ ما كانت عليه الحالُ  
أيَّامَ التَّبعيةِ الفكريةِ التي طَعَتْ فيها الأحكامُ جُزافاً ؛ تصوُّرُ حالِ الحطيطةِ  
الالتوائيةِ عند كثيرٍ من الكتّابين.

وفيه ثقةُ الأديبِ العربيِّ بِنَفْسِهِ، وَسَعَةُ المثقَّفِ البادي، وتَطَلُّعُ الآخِذِ  
بمضمارِ العلمِ، والمُتَّفِقُ لَهُ من المعرفةِ أَلْفافٌ، والعاقدُ عليها مع الاطلاعِ  
بأواصرِ العزمِ واليقينِ.

ويدعُوهُ الحفاظُ على الروحِ القوميِّ للأدبِ العربيِّ أن يَسْتَجِيبَ لِعِلْمِ  
الروايةِ، ويكْتَبَ في الرواةِ ؛ فيضَعُ للمقتطفِ دراسةً ذاتِ منهاجٍ في  
ذلك<sup>(١)</sup> يقولُ فيها :

« لا جَرَمَ أَنَّ الروايةَ هي العِلْمُ المستطيلُ، لا تَمْتَدُّ لَهُ إلا الصَّدُورُ

---

(١) المقتطف — ٣٠ — مايو ١٩٠٥ م — ٣٣٧، ٤٢٥.

الواسعة، وإنا لترى من أخبار الرواق والعلماء في الحفظ ما لا نصدق أنه كان، أو يكون، ولكن ذلك ليس بعجيب عمن أنفق أيامه في تنمية الحافظة، وفتح الذهن، وقد كانت الحاجة دافعة الى ذلك، فانصرفت كل قوى النفس الى الاستحضار والاستظهار.

وكان علماء السنة لا يعدون محدثاً إلا من يروي عشرين ألف حديث من حفظه!

وهذا الإمام محمد بن ادریس الشافعي أخذ عنه بعض الرواق شعراً الهذليين!.. وهو مع ذلك مستنبط المذهب المعروف من الكتاب والسنة، يروي عنه من قوة الحافظة ما لا يتعلّق به التصوّر، حتى قيل: إنه تصفّح كتاباً لأبي حنيفة ذات ليلة، فأصبح وقد أتى عليه حفظاً وبلغه وعياً.

والرواية مرادفة الحفظ بمعنى أخص، فكل راوية حافظ، وليس كل حافظ راوية.. الخ<sup>(١)</sup>.

فالعلم المستطيل الذي يستوعب فيه الأثر، وتستوفى الأحكام، ومنه يجعل الأديب الحق الذي يأخذ من كل علم بطرف؛ يمدّه بالمعرفة، ويهيئ له أسباب تصنيف المعلومات والإفادة منها عرضاً وتأليفاً، هو الرواية العربية.

وهي — الرواية — بعد بما فيها من شروط الرواية، وممارسة الجرح فيها والتعديل، والعناية بالأثر قولاً وفِعْلاً، والالتزام بالصدق وإثاره حكماً

(١) المقتطف — ٣٠ — مايو ١٩٠٥ م — ٣٣٧، ٤٢٥.

هي الموضوعية العربية التي ينبغي الحفاظ على أصولها عند التصدي للبحث والدراسة.

وذلك بين عندة في محاولته الدراسية التي بحث فيها « شعر البارودي » عقيب وفاته — وقد وفق فيها أيما توفيق ؛ إذ اعتمدها محمد صبري في دراسته، وأشار إليها عمر الدسوقي، ومن جاء بعدهما الى يومنا هذا، فقد وافى قائلًا :

« إن شعر البارودي موقر الروي، مثلاثم، حسن العرض، مطروح العبارة الى حيث تشير القلوب، ولو أن الله أعطاه مع ذلك خيال حكيم كأبي الطيب أو غيره لكان أشعر من سمعت له أذن شعره !.

وأنا وإن كنت أجل الرجل لحسن صبحته، ولطف محادثته، وبشاشه محضره، وأدبه، غير أن في كتابتي فيه لا أكون كذلك الأعرابي الذي بلغ من حبه أن يرى الشمس على حائط من يهوى أحسن منها على حائط جيرانها.

وللسبب الذي قدمت لم يكن شاعرنا كامل التصرف في فنون المعاني — وإن كان أشعر من جميع معاصريه بلا مراء، غير أنه أتم ذلك النقص بما أتقن من جمال الصنعة وبديع الرواء.

أما نمط البارودي في النظم فهو غاية ما دارت به الألسنة ؛ غدوبة تكاد ترشف وجزالة تلعب بالنفس، وسلامة يستريح في ظلها القلب، وتستشيق الكبد نسيما ؛ فهو العدير أعذب ما يسكن، والمرآة أصفى ما تكون»<sup>(١)</sup>.

(١) المقتطف — ٣٠ أيار/مارس ١٩٠٥ م.

وهو إذ يقول ذلك يَسْتَشْهِدُ بشعره، ويُناقِشُ فَهَمَ بعضهم للأسلوب،  
أُخِذَ بقول الجرجاني في حَدِّ البلاغة ؛ أَنَّهَا لَيْسَتْ فِي اللَّفْظِ وَلَا فِي  
المعنى، ولكنها في الأسلوب.

ويومَ استجابتِ الدواعي لفكرة مصطفى كامل في إنشاء الجامعة،  
وانشَقَّ لها مكانها في الحوادث، وبَذَلَتْ فيها الأُمَّةُ وشمَّرتْ لها، وجدَّ  
بها الجدَّ..<sup>(١)</sup> وقد رأى الرافعي ما يلقى فيها من آدابِ العربِ فُصُولاً  
مُلَفَّقةً مما تَرَجَّمَهُ جُرْجِي زيدان لمجلة (الهلال) عن كتاب بروكلمان  
في تاريخ الأدب العربي، وكراسة صَنَّفَهَا على طريقة المستشرقين<sup>(٢)</sup>،  
وكتاب «الوسيلة الأدبية» للمرصفي، والمواهبُ الفتحية، الى مختاراتٍ  
في المنظوم والمنثور، مما لا يليقُ أن يُدرَسَ في (جامعة)<sup>(٣)</sup>، كتب  
الرافعي في ذلك بلهجة قومية متميزة ثابتة قائلاً :

« لا سَبِيلَ الى عُذْرِ القومِ في إغفالِ الأدبِ العربي — وهُمُ قد  
نَصُّوا في نظامِ الجامعة على نوعَيْنِ من الآدابِ الأجنبيَّةِ، فأَمَّا أن تكونَ  
هذه أحسنُ من ذلك بالتقديم، وأقربَ الى فائدةِ الأُمَّةِ منه، أو هم  
يَسْتَهْدُونَ اليومَ لحاجتهم فيُنشِثُونَ لنا في أوربة أدباً، ويخرجونَ لعلومِ  
الأعاجمِ عَرَبِيًّا صَليباً، أو لا هذا ولا ذاك، ولكنَّهم يَمْضُونَ على غيرِ  
هدى — كما تُخِيلُ النفسُ ما دَامَتْ هذه الأُمَّةُ قد بَذَلَتْ وتَابَعَتْ  
على ما يريدونَ »<sup>(٤)</sup>.

(١) المعركة — ٦٨

(٢) أحسبها محاضرات الخالدي.

(٣) لم تكن جامعة بالمعنى المفهوم منها في بلاد العالم، وإنما هي قاعة محاضرات يدخلها  
من يشاء — الزهراء ربيع الآخر ١٣٤٥ هـ — وكذلك دخلها طه حسين ورهطه!

(٤) المعركة — ٧١ — ٧٥

ومضى بعد ذلك يُوضِّح ما يُرادُ بقولهم (آدابُ اللغة العربية) التي حَسِبَها تخرُّجُ الأديب الذي علمهُ مجموعُ علومِها، وإحسان المشاركة فيها جميعاً، وضربَ لذلك الأمثال، وتساءَلَ عن طبقاتِ الرواة والحُفَاطِ وأهلِ النقد والجرح والتعديل<sup>(١)</sup> حتى قال :

« لا أرى الجامعة مُفْلِحَةً في الأدبِ إذا هي لم تُحَيِّرْ ذلكَ العهدَ، ولم تَطوِّرِ الأيامَ إليه ؛ فإنَّ الأمةَ لا تَحْيَا إذا ماتَتْ لُغَتُها، وَلَنْ تَمُوتَ لغةٌ أمةٌ حَيَّةٌ !.

وما دامتِ العربيةُ على أصلِها، فأدبُها ما أخرَجَهُ السَّلَفُ، لا يُنْقَصُ منه، ولكن يُزَادُ عليه بما تُمَثِّلُهُ الأيامُ، وتَبْدِعُهُ الأفهامُ، وتَسْتَأْنِفُ القرائحُ، وتَتَدَبَّرُهُ العقولُ، وَيَمَحُضُهُ التحقيقُ، وتُبْدِعُهُ مذاهبُ النقدِ »<sup>(٢)</sup>.

إنَّه لم يَرِدْ أن يكونَ أدبُنا حَمِيلَةً على غيره، وهَيَّاتَ أن يَفِيدَ مَنْ لا يَعْرِفُونَ آدابَ لُغَتِهِمْ أن تُلقَى عليهم « المحاضرات عليها باعتبارِ علاقتها بأهلِ أوربة — وخصوصاً إيطاليا — على حَدِّ ما جاءَ بتعبيرِ مَنهجِ الجامعةِ يومئذٍ »<sup>(٣)</sup>.

## تاريخ آداب العرب

ويومَ هَيَّا نَفْسَهُ فأنْقَطَعَ للتأليفِ في « تاريخ آداب العرب » بعدما تَوَقَّرَ على أسبابِهِ واستجابَ لدَواعِيهِ ؛ لِيُثْمِرَ فِيهِ لَوْناً جديداً من الإثمارِ — هو الإبداعُ في آثارِ الماضين ؛ بالتصنيفِ والتَّبويبِ والنَّقدِ والمُفاضلةِ،

(١) (٢) (٣) المعركة — ٧١ — ٧٥.

أَحْضَرَ مَادَةَ الْكِتَابِ وَفَرَعَهَا فِي مَوْضُوعَاتِهَا، وَعَادَ يُؤَلِّفُ بَيْنَهَا فِي مَنَاجِرٍ خَاصٍ لَمْ يَأْخُذْهُ عَنِ الْأَقْدَمِينَ، وَلَا هُوَ تَأَثَّرَ بِالْمُحَدِّثِينَ الَّذِينَ يُلْفَقُونَ فِي التَّأْلِيفِ عَلَى طَرِيقَةِ الْمُسْتَشْرِقِينَ، وَلَكِنَّهُ أَفَادَ مِنْ مَنَاجِرِ الْبَحْثِ وَمَذَاهِبِهَا التَّارِيخِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ وَالتَّحْلِيلِيَّةِ الَّتِي تَقِفُ أَمَامَ النُّصُوصِ فِي تَأْمُلٍ وَدِرَاسَةٍ. فَكَانَ يُعْنَى بِالْمُسَلَّمَاتِ الْجَدَلِيَّةِ، أَوْ هُوَ يَتَّخِذُهَا ذَرِيعَةً لِمَا يَرْتَوِي إِلَيْهِ مِنْ أَهْدَافٍ، فَيَقُولُ :

« وَقَدْ رَأَيْنَا لِتَارِيخِ الْحَضَارَةِ فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَاقِيَةً أَرْبَعَةَ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةً عَلَى أَرْكَانِهِ ؛ وَهِيَ الْأَدَبُ وَالسِّيَاسَةُ وَالدِّينُ وَالْعِلْمُ ؛ فَتَلُجُّ الْأُمَّةُ مِنْ بَابِ الْأَدَبِ إِلَى نَوْعِ الْكَمَالِ فِي عَوَاطِفِهَا وَمِنْ بَابِ السِّيَاسَةِ إِلَى مَبْلَغِ الْقُوَّةِ فِي كَيَانِهَا، وَمِنْ بَابِ الدِّينِ إِلَى دَرَجَةِ السَّعَادَةِ فِي أَنْفُسِهَا، وَمِنْ بَابِ الْعِلْمِ إِلَى مَا تُعِزُّ بِهِ مُجْتَمَعُهَا مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثِ.

يَبْدُو أَنَّ تِلْكَ الْأَرْكَانَ لَا تَسْتَوِي فِي جَمِيعِهَا ضَعْفًا وَقُوَّةً، وَلَا فِي اعْتِمَادِ أَصْلِ التَّارِيخِ عَلَى بَعْضِهَا دُونَ بَعْضٍ، فَقَدْ كَانَتْ دِعَامَةُ التَّارِيخِ الْعَرَبِيِّ فِي قِيَامِهِ أَدَبِيَّةً مَحْضَةً، ثُمَّ جَاءَ الدِّينُ فَاسْتَتَبَعَ السِّيَاسَةَ وَالْعِلْمَ.

لَا جَرَمَ كَانَ لِلْأَدَبِ عِنْدَهُمْ تَارِيخٌ خَاصٌ لَا يَمْتَزِجُ بِالدِّينِ، وَلَا بِالسِّيَاسَةِ وَلَا بِالْعُلُومِ إِلَّا مِنْ جِهَاتٍ مَعْلُومَةٍ تَعْرِفُ بِهَا وَجُوهُ الْإِتِّصَالِ بَيْنَ أَجْزَاءِ تَارِيخِهِمْ فِي جُمْلَتِهِ، وَإِفْضَاءِ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ فِي الْمَخَالَطَةِ وَالْإِزْبَاطِ «(١).

وَهَذِهِ دَلَالَةٌ أُخْرَى عَلَى وَفَرَةٍ مَا لَدَيْهِ مِنَ الْمَعْلُومَاتِ الَّتِي يَسْتَطِيعُ بِهَا أَنْ يُصَدِّرَ مِثْلَ هَذِهِ الْأَحْكَامِ الْكُلِّيَّةِ ؛ فَهِيَ تُؤَاتِيهِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ،

(١) تاريخ آداب العرب — ج ١ — ٦، وانظر أيضاً التعريف بالتاريخ — ١٩٦.



ويعيش في عصورها وأدوارها جميعاً، ويحضرها عصره أيضاً بهذا الاستمزاج الأثير.

وإذ هو يتسامى بعقيدته غالباً، نرى ضميره العربي قد انفتح للتفسير النفسي في فناعة الفقيه الذي جعلته الدعوة منبهة على سبيلها الماضي بها إلى التصديق، والإيمان حين يقول :

« إن بقاء القرآن على وجهه العربي مما يجعل المسلمين جميعاً — على اختلاف ألوانهم من الأسود إلى الأحمر — كأنهم في الاعتبار الاجتماعي وفي اعتبار أنفسهم — جسم واحد ؛ ينطق في لغة التاريخ بلسان واحد ؛ فمن ثم يكون كل مذهب من مذاهب الجنسية الوطنية فيهم قد زال عن حيزه، وانتفى من صفته الطبيعية ؛ لأن الجنسية الطبيعية التي تقدر فروض الاجتماع ونوافله إنما هي في الحقيقة لَوْنُ القلب لا سحنة الوجه »<sup>(١)</sup>.

وبذلك ينتقل نقلة أخرى في ارتقاءه الفكري ؛ يجعل فيها الكتابة والتأليف ميدان معركة اعتقادية جديدة ينتصر فيها لأمنه في دينها وقيمها وأعرافها جميعاً.

أي أنه لا يعترف بمذهب التجرد المزعوم ؛ الذي لا يقي صاحبه مغبة الانزلاق والسقوط، — فهو يؤثر ثبات الاعتقاد بالإيمان، ويصرف العلوم جميعاً لتفسير ذلك والدعوة إليه، لا عزل الحقيقة والانصراف عنها — على ما يتداعى لمن حوَّله من وهم التجرد والموضوعية !.

ومن هنا يقرر : « متى لم تجد الخيال القوي في مؤرخ الأدب،

(١) تاريخ آداب العرب ج ٢ — اعجاز القرآن — ٧٦.

وَمَتَى رَأَيْتَ هَذَا الْمُؤَرِّخَ لَا يَتَوَكَّأُ إِلَّا عَلَى الْمُنْطَقِ وَالْمَقَاسِ وَالْأُوزَانِ،  
فَاقْدِرْ بِهِ وَبِتَارِيخِهِ وَأَدْبِهِ وَآرَائِهِ حَيْثُ شِئْتَ، فَإِنَّهُ لَا يَمْتَنِعُ فِي يَدِكَ  
وَلَا يَسْتَعْصِي عَلَيْكَ»<sup>(١)</sup>.

«وَالْأَدَبُ مِنَ الْعُلُومِ كَالْأَعْصَابِ مِنَ الْجِسْمِ هِيَ أَذْقُ مَا فِيهِ،  
وَلَكِنَّهَا مَعَ ذَلِكَ هِيَ الْحَيَاةُ وَالْخُلُقُ وَالْقُوَّةُ وَالْإِبْدَاعُ، وَلَا تُقَاسُ بِمُقَاسِ  
الْعِظَامِ الْمَشْبُوحَةِ، وَلَا تَوَزَنُ بِمِيزَانِ الْعَصَلَاتِ الْمَكْتَنَزَةِ».

وهذه حقيقة علمية أخرى يُضِيفُ فِيهَا الرَّافِعِيُّ جَدِيداً إِلَى حَيْثِيَّاتِ  
الْأَحْكَامِ فِي التَّارِيخِ الْعَرَبِيِّ، وَيَجْتَهِدُ لَهَا فَنّاً مِنَ التَّقْدِيرِ وَالْمُقَارَنَةِ.

ذَلِكَ أَنَّ الطَّرِيقَةَ الْعِلْمِيَّةَ عِنْدَهُ «قَائِمَةٌ عَلَى اسْتِقْرَاءِ الْمَادَةِ وَالْإِحَاطَةِ  
بِهَا مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا؛ فَهِيَ لَا تُخْرِجُ التَّارِيخَ نَفْسَهُ كَمَا هُوَ فِي  
الْوَاقِعِ، وَإِنَّمَا تَجِيءُ بِرَأْيٍ يَكُونُ فِيهِ مَعْيَارُهُ دَائِماً ذِكَاةً صَاحِبِهِ وَعَقْلُهُ  
وخياله».

قَالَ: «وَلِهَذَا اشْتَرَطُوا — أَيُّ عُلَمَاءِ التَّارِيخِ وَالْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ —  
فِي صَاحِبِ تِلْكَ الطَّرِيقَةِ أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ رُزِقُوا الْبَرَاعَةَ فِي إِصَابَةِ الْحَدْسِ،  
وَقُوَّةِ الْخَاطِرِ وَسَمُوِّ الْخِيَالِ»<sup>(٢)</sup>.

وَبِذَلِكَ نَزَلَ الرَّافِعِيُّ فِي تَأْلِيْفِهِ لـ «تَارِيخِ آدَابِ الْعَرَبِ» مَنْزِلَةَ الْبَاحِثِ  
الْعَلِيمِ مِنْ مُعَاصِرِيهِ؛ فَقَدْ «عَرَفَ نَفْسَهُ عَلَى حَقِيقَتِهَا، وَأَنَّ اللَّهَ ادَّخَرَهُ  
لِيَكُونَ هِبَةً الْعَلِيِّ الْقَدِيرِ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ»<sup>(٣)</sup> يَمْضِي بِهِ عِلْمُهُ وَفَضْلُهُ عَلَى

(١) المعركة — ١٣٠

(٢) المعركة — ١٣٤

(٣) الدسوقي — الرافعي الباحث العليم.

سُنن الحياة التي يريدُها تُقْبَلُ على الأُمَّةِ بما تَسْتَطِيعُ أن تَتَنَقَّلَ بها من حالٍ الى حالٍ.

ذلك أن التَّأليفَ في تاريخ الآداب يُنَبِّغي أن يَجِيءَ من شخصيَّةٍ تَجتمعُ لها مواهبٌ مُتعدِّدةٌ واضحةٌ في كُلِّ بابٍ « فيكْتُبُ في التاريخ مؤرِّخاً، وفي اللُّغة لُغويّاً، وفي الشعرِ شاعراً، وفي النثرِ كاتباً، وفي الخطابةِ خطيباً، ثم لا يَفوتُهُ أن يكونَ جَريئاً في الحقِّ، نَقاباً عليه.

وذلك أيضاً أن تَطوَّرَ التاريخ وتحوَّلَ الأدبي لا يكونُ من تطوُّرِ الدُّولِ واختلافِها، وإنَّما من تطوُّرِ الشعوبِ والجماعاتِ في أخلاقِها وعاداتِها وتحوُّلِها في ممارسةِ الحياة، وهو انقِلابٌ لا يكونُ من تأثيرِ الدُّولِ وحدها، ولكن من تأثيرِ العُلَماءِ والأدباءِ، وهؤلاءِ لا يَتعلَّقون بالعصورِ السياسيَّةِ إلَّا من أضعَفَ الجهاتِ»<sup>(١)</sup>.

وعلى هذا المذهبِ الفريدِ والمنهاجِ الجديدِ وافى كتابُهُ « تاريخ آداب العرب » :

الجزء الأول : الذي أَرخَ فيه للعربيةِ لُغةً، ونشأتِها وتفرُّعِها، وما يتَّصلُ بذلك، وجمالَ جَوَلَتِهِ النقديةِ في النظرياتِ المَعروفةِ في هذا الشأنِ، حتى أَخَذَ بالمذهبِ الحَبْوي الذي قامَتْ عليه اللُّغة وتفرَّعتْ.

وعادَ الى موضوعِهِ في الروايةِ والرواةِ فأَعَدَّهُ في فُصولٍ للتاريخِ أتى فيه على ما كان لهذا الفنِّ الرفيعِ من حِفْظِ تِراثِ الأُمَّةِ، وما تَقَلَّبَ فيه من الشعرِ والأدبِ واللُّغة<sup>(٢)</sup>.

(١) البيان — ذو الحجة ١٣٢٩ هـ.

(٢) لا شك هو غير البحث المنشور في المقتطف مايو/١٩٠٥ م

وأما الجزء الثاني ؛ فقد أَرَّخَ فيه للقرآن الكريم باعتباره الأدبي ؛ فتحدّث في تاريخه وبلاغته، وما دُعِيَ بالإعجاز — من فنون البيان فيه، فجمع مادة التأليف في ذلك ورَتَّبَ توزيعها بنقدٍ وذوق. كما أَرَّخَ للبلاغة النبوية، ونَسَقَ الأدب فيها، وأبان عن صُورِ البلاغة والجمال فيها. على ما مرَّ بنا في فصلِ فنون الكتابة<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

لقد شَغَلَ الرافعي بكتابه هذا الكتاب والمفكرين والنقاد جميعاً، وإلى يومنا هذا، يُقرَّطونه ويُعجبون بمادته وأسلوبه، والمنهاج الذي اتَّفق له فيه، وكيف افتَرَعَهُ له فكان طوعَ يديهِ صفةً ومادة.

ولعلَّ نظرةً في بعضِ أوراقهِ. التي كان يُخطِّطُ فيها لما بقي من جوانبِ ذلك المشروع العظيم، وكيف كان يرسم لنفسه منهاجَ بحثِهِ ودراسَتِهِ، تُعطينا الدليلَ على قَصْدِهِ القومي وغايَتِهِ العربية، في كلِّ ما كَتَبَ في هذا الشأن تأليفاً ثباتاً، وما توفَّرَ له من بَسْطَةِ عِلْمٍ وذوقٍ فني.

هذه وَرَقَةٌ رسم فيها (أصول العمل) وقد رَتَّبها كما يلي :

- (١) فلسفة الموضوع من حيث هو أثرٌ إنساني.
- (٢) أسبابُ تكوينهِ الفَلَسَفيَّةِ عند العرب.
- (٣) تأثُّرُ تاريخهم الاجتماعي — من أفرادٍ ومُخالفة.

---

(١) راجع ما سبق.

(٤) نقدُه :

أ) — بيانُ وجوهِ الجمالِ فيه.

ب) — عيوبُه.

ج) — مقدارُ ما فيه من الأثرِ الروحي لشخصيات أصحابِه؛

د) — صورةُ العصرِ فيه.

(٥) ردُّ كلِّ موضوعٍ الى السَّببِ الفاعِلِ فيه والمميّزِ لَهُ، كالْعَزَلِ والمرآةِ، والوصفِ والطبيعةِ، وشرحِ حالةِ السَّببِ بكلِّ الوجوهِ المتقدِّمة — ثم تطبيق ما يوجدُ بعد الإقامة على ما توفر من صفاتٍ.

(٦) هل كانَ ما جاءَ بِهِ كثيراً على أحوالهم وقليلًا ؟

(٧) ماهيةُ التاريخِ العربي، ومنزلتُه، وتأثيرُه بالأُممِ السالفةِ، وتأثيرُه وماهيّةُ النُّقدِ، وما ينبغي في نقدِ الآدابِ العربيّةِ على الخصوص من الروحِ التي فرغت من الطَّربِ بهذه الآدابِ، فتفرّسُ فيها على حقيقةٍ وتفصيل بين زمن وزمن.

وما الابتكارُ العربي، وما جهاتُه من الدِّينِ وغيره.

(٨) الوصفُ الأخلاقي لأصحابِ كلِّ من تلك الفُروع، بحيث يكون المجموعُ صورة التاريخ الأخلاقي.

(٩) درسُ الطرقِ والأساليبِ، وهل يمكنُ استنباط طرق خاصّة في الأدبِ العربي ؟ كالطريق الطبيعي ونحوها، وما يماثلُ ذلك على تقسيم وترتيب.

\* \* \*

إنَّ هذا التخطيطُ الأوّلي لمنهاجِ البحثِ الذي آثره في التأليفِ

والتصنيف، يَتَّبَعُ من الموضوع، وَيَتَوَفَّرُ على الفَنِّ، وَيُثْمَرُ في الدَّرْسِ والبيان؛ قد يُوافِقُ أَحَدَثَ ما وَصَلَتْ إِلَيْهِ مَنَاهِجُ البَحْثِ مُجْتَمِعَةً متكاملة، كَتَلَكَّ التي يُؤَثِّرُها عمر الدسوقي وبقية الدَّرَاعِمَةِ من تلامذته؛ حينَ يجعلُها مُحَصَّلَةً لمذاهبِ البَيَّاءِ والتاريخِ والجِنْسِ جميعاً.

إنَّ الرافعي لَيَقِفُ على مِثْلِ هذه المُحَصَّلَةِ بثباتٍ، وَيَتَهَيَّأُ لِبَحْثِهِ ودراسَتِهِ، على مبدإِ الصَّمِّ لا التفريقِ، من غَيْرِ طَمٍّ ولا رَمٍّ — على حَدِّ تعبيره<sup>(١)</sup> ويدُلُّ دلالةً واضحةً على مبلغِ العنايةِ والالتزامِ الذي تَوَخَّاهُ في تَأْلِيفِهِ (تاريخ آداب العرب).

\* \* \*

كَانَ الرافعي قد هَمَّ أَنْ يجعلَ كِتَابَهُ هَذَا اثْنِي عَشَرَ باباً؛ تَنْطَوِي على جُمْلَةِ المَأْثُورِ، ويدورُ عليها التاريخُ، حتى ذَهَبَ الظنُّ بضعفِ الله محمد الأَخْضَرِ بن مسعود، بَأَنَّهُ أَرَادَ ذَلِكَ تَيَمُّناً بِالْعَدَدِ الوَارِدِ في القرآن ﴿اثْنِي عَشَرَ نَقِيباً﴾<sup>(٢)</sup> في صِفَةِ الحَوَارِيِّينَ والأَصْحَابِ<sup>(٣)</sup>

ولكن ما لَبِثَ المَعْوَقَاتِ المَادِيَةِ، والمواقِفُ التي حَالَتْ دُونَ بعضِ طِمَاحِهِ، أَنْ قَاعَسَتْهُ عن إِتِمَامِ ما كان قد بَدَأَ بِهِ في الجُزْئَيْنِ اللَّذَيْنِ اسْتَعْرَقَا ثَلَاثَةَ أَبْوابٍ حَسْبُ، من ذَلِكَ المَشْرُوعِ الجليلِ. وما زَالَ بَيْنَ مَدِّ الهِمَّةِ وَجَزْرِ الإِرْجَاءِ حَتَّى لَقِيَ وَجَهَ رَبِّهِ بعد رُبْعِ قَرْنٍ من إخراجِ جُزْئِهِ الثاني، وقد خَلَفَ وراءَهُ فُصُولاً وتَفَارِيقَ من أَوْرَاقٍ وإِشَارَاتٍ

(١) المعركة — ٧٨

(٢) سورة المائدة الآية ١٢.

(٣) ضيف الله — نثر الرافعي — ٥٣

لتسعة أبواب من الكتاب الخطير، لم يُصَبِّ محمد سعيد العريان منها غير ما أخرجَهُ في الجزء الثالث من أبواب الشعر والخطابة والتأليف، وخرجَ الجزء هكذا بقايا كتابٍ فَقَدَتْ منه فصولٌ وأبوابٌ !.

وكان رحمه الله قد همَّ غير مرّة أن يعودَ الى الكتاب (ج ١) في طبعةٍ تاليةٍ يُنْصَحُ فيها الكلامُ في بعضِ جهاتِهِ، وَيُسْتَكْمَلُ أداتُهُ بإيرادِ شواهدٍ، وَيُتِمُّ أجزاءَهُ الباقياتِ أمامَ إلحاحِ المحييين<sup>(١)</sup>، وشدةِ البحثِ في الآدابِ، ولكنَّ الحوائِلَ والمعوقاتِ كانتَ تَصْرِفُهُ عن ذلك العملِ الأثيرِ الى سواه من أدبِ الإنشاءِ، والمعاركِ والخُصوماتِ المُفْتَعلةِ، وأسبابِ الحياة التي عاشها.

ولم أقفْ على نُسخَتِهِ الخاصّةِ — التي يمكن أن يكونَ فيها نوعُ تصحيحٍ أو إضافةٍ أو إشارةٍ، وربما ذَهَبَتْ مع مأساةٍ مكتبتهِ ! فواضِعَتاه !.

\* \* \*

على الرغم من المآخذِ التي لُوْحِظَتْ على الكتابِ في إيجازِهِ البالغِ، وإبعادهِ الشواهدَ عن بعضِ الأحكامِ، وجرُصِهِ على العبارةِ البيانيةِ في أسلوبِهِ العلميِّ، وعدمِ إرجاعِهِ القارئَ إلى مباحثِ في العلومِ الحديثةِ، فقد كتبَ في تقويمِهِ نقداً وتقريضاً الكثيرونَ.

منهم « ميزانُ الأدبِ » الذي كَتَبَ في جريدةِ ( العلم ) .. وكأَنما لَقَفَ الحقيقةَ كُلَّها في قولِهِ : « إِنَّ هذا الكتابَ أَمْسُ الأشياءِ بالأَصْلِ »

---

(١) رسائل الرافعي — ١٩٣، وكذلك رسالة ماري يني المؤرخة في ٣ آب/أغسطس ١٩٢٤ م.

الحقيق في تربية الأمة تربيةً تجري مجرى فطرة الله التي فطر الناس عليها، فلا تتبدل ولا تتحول ؛ إذ لا تبدل لخلق الله، ذلك هو الأصل القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

قال : « الكتابة في تاريخ اللغة وآدابها، واللغة نبض الأمة — وهي في تركيبها الاجتماعي كالقلب من التركيب الخلقي ؛ كلاهما ألطف شيء وأدقُّه، وكلاهما لا تكون الحياة بدونه .

وبظهور هذا الكتاب في مصر، فإن الأمة التي تعتد نوابغها، أو تدرك قيمة خدمتهم إياها، هي الأمة التي تحفظ التاريخ للعالم، فإن النوابع ليسوا في الحقيقة إلا أبلغ وأسمى الفصول في الكتاب الخالد الذي هو التاريخ »<sup>(١)</sup>.

وكتب شيخ العروبة أحمد زكي ( باشا ) في « الجريدة » يقول<sup>(٢)</sup> :

« إذا كانت همّة الكاتب كبيرة ماضية، وعزيمته مرهفة، وكان كما اتبعت من قوة نشيطة، ونشاط قوي، بحيث ترى قلمه كأنه فرغ نفسه ؛ تثبت فيه أزهارها، وتنبض عليه أثمارها، فذلك هو الذي يطاول ما طال من ذلك المطال، ويرتاد من الأيام لما أراد من الأقلام، فلا يقف إلا عند حد من التاريخ يكون حيزاً لعمله، ومكاناً لتحقيق أمله، فلا أكتف قومي أني أحمد الله على أن هذا الكتاب خرج للناس من مصر،

(١) العلم — ١٥ ربيع الأول ١٣٣٠ هـ — ٥ نيسان/أبريل ١٩١٢ م

(٢) الجريدة — ٣ ربيع الأول ١٣٣٠ هـ — ٢١ شباط/فبراير ١٩١٢ م

وليست (المؤيد) كما ذهب سعيد العريان — حياة الرافي — ٢٦١



ولم يَجِئْ لمصر من غيرها ؛ فإنه دليلٌ من الأدلة القليلة التي تُقيم بها البرهان الصحيح على نظرية النهضة عندنا .

وقال أحمد لطفي السيد — بعد مُقدِّمة في ( الأدب وعلم الأخلاق ) :

« إنَّ موضوعاتِ الأدبِ هي المنظومُ والمنثورُ، ولا شكَّ في أنَّ قِوامَ هذه الموضوعات هو اللُّغة ؛ من حيثُ فصاحةِ الكلمة، وبلاغةِ المعنى، وصحَّةِ التركيب، ومثانةِ الارتباط، وجمالِ الأسلوب ؛ فالبحثُ في الأدبِ وفي تاريخِ الآدابِ يَدْعُو حَتْمًا الى البحثِ في اللُّغة ؛ التي هي مادةُ نسجه، وقد أَحَسَّنَ الرافعيُّ إذ قدَّم بين يَدَيِّ بحثِه في تاريخِ آدابِ العربِ بحثًا مُستفيضًا في تاريخِ اللُّغةِ العربيَّةِ ونشأتِها، أو تفرُّعِها وما يتَّصلُ بذلك. مما يَدُلُّ على أنَّ المؤلِّفَ قد ملكَ موضوعه ملكًا تامًّا، وتصرَّفَ فيه تصرُّفًا جَسَنًا، وليسَ من السَّهلِ أن تجتمعَ له الأغراضُ إلا بعدَ درسٍ طويلٍ، وتعبٍ عَرَضَ لَهُ في مقدِّمةِ كتابه.

وأما أسلوبُه فإنه سليمٌ من الشوائبِ الأعجمية التي تَقَعُ لنا في كتاباتنا، وتاريخِ الأدبِ مُشَخَّصٌ من أقوى مشخِّصاتِ الأمة ؛ يربطُ ماضي أجيالِها بحاضِرِها، ويحدِّدُ ماهيَّتها، ويميِّزُها عمَّا عداها، فتستمرُّ شخصيتها وتتسعُ بذلك دائرةُ المشابهاتِ بين أفرادِها.. » الخ<sup>(١)</sup>

وقال محمد فريد وجدي في تقرُّيبِ الجزء الثاني « إعجاز القرآن والبلاغة النبوية » :

« إنَّ نابغتنا صادقَ الرافعيِّ قد جاز مدى اللُّغةِ في الحكمةِ الإسلامية،

(١) الجريدة — ١٥ ربيع الأول ١٣٣٠ هـ — ٢ مارس/آذار، ١٩١٢ م

وَالْفَلَسَفَةِ الْخُلُقِيَّةِ، أَدَّاهُ إِلَيْهَا مَا هُوَ بِسَبِيلِهِ مِنْ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ، وَلَوْ كَانَ اقْتَصَرَ عَلَى بَيَانِ إِعْجَازِهِ اللَّغَوِيِّ لَكَفَى مُوَوَّنَةً هَذِهِ الْمُبَاحِثَ، وَلَكِنْ هَمَّتْهُ الْعَالِيَةُ، وَبَيَّانُهُ الْفَيَاضُ، وَقَلَمُهُ الْمِطْوَاعُ، كَلَّفَتْهُ النُّزُولَ إِلَى هَذَا الْمِيدَانِ فَأَجَادَ، بَلْ أَبْدَعَ إِبْدَاعاً لَمْ يَدْعُ لِمُسْتَزِيدٍ.

فَقَدْ سَلَكَ فِي ذَلِكَ مَسْلَكَ الْبَاحِثِ الْمُدَقِّقِ وَالْمُفَكِّرِ الْمُحَقِّقِ، مُسْتَعْدِماً لَهُ بَيَّاناً فَاتِناً، وَأُسْلُوباً حَكِيماً، وَنَظْراً ثَاقِباً؛ فَجَاءَ مَجْمُوعُ ذَلِكَ صَرَحاً أَدْبِيّاً فَخْماً، جَمَعَ بَيْنَ تَارِيخِ الْأَدَبِ وَاللُّغَةِ الْفُصْحَى وَالْحِكْمَةِ الصَّحِيحَةِ، فَلَا غَرَوْا إِنْ أَحَلَّلْنَا هَذَا الْجُزْءَ مُحَلِّلاً أَرْفَعَ مِنَ الْمَحَلِّ الَّذِي يَجْدُرُ بِتَارِيخِ الْأَدَبِ فِي الْعَادَةِ<sup>(١)</sup>.

وَكَتَبَهُ مُحَمَّدٌ صَادِقٌ عَنبر، وَمَحَبُ الدِّينِ الْخَطِيبِ وَالْأَمِيرِ شَكِيبِ أُرْسِلَانٍ وَقَالَ آخَرُونَ<sup>(٢)</sup>، وَمَا فَتَى الدَّارِسُونَ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ، بِمَا فِيهِمْ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ ادَّعَوْا الْمُدَّعِيَّاتِ، كَطَهِّ حَسِينِ الَّذِي أَشْهَدَ اللَّهُ وَالنَّاسَ أَنَّهُ لَا يَفْهَمُهُ<sup>(٣)</sup>، فَقَدْ عَادَ فَأَشَادَ بِفُطْنَةِ الرَّافِعِيِّ فِيهِ، وَمَا تَنَبَّهَ لَهُ مِنْ تَأْثِيرِ الْقِصَصِ فِي نَحْلِ الشُّعْرِ<sup>(٤)</sup>، وَكَذَلِكَ إِشَارَتُهُ الْأُخْرَى إِلَى فَهْمِ الرَّافِعِيِّ فِي مَرَاجِعَةِ الْمَصَادِرِ، وَكَيْفَ يَفْنَدُ بَعْضَ مَا جَاءَ فِيهَا، وَيُثَبِّتُ بَعْضَهَا الْآخَرَ بِعِلْمٍ وَدَرَايَةٍ<sup>(٥)</sup>.

(١) الشعب — ١٧ نيسان/أبريل ١٩١٤ م — وَإِنْ لَمْ تُرَقَّ هَذِهِ الْعِبَارَةُ بَعْضَ الْمُحَافِظِينَ أَنْظَرَ مَجْلَةَ الْمَجْمَعِ الْعِلْمِيِّ الْعَرَبِيِّ ج ٤ — ٥٢.

(٢) العلم — ٣ مايو ١٩١٢ م، المؤيد — ١٦ فبراير، ٣ مارس ١٩١٢ م، والمقتطف والهلل والبيان وغيرها، وَقَدْ اجْتَمَعَتْ لَنَا، وَهِيَ بِسَبِيلِهَا إِلَى «ذِكْرِ الرَّافِعِيِّ» بِإِذْنِ اللَّهِ.

(٣) الجريدة — ١٠ مارس ١٩١٢.

(٤) فِي الْأَدَبِ الْجَاهِلِيِّ — ١٨٧،

(٥) مِنْ بَعِيدٍ — ٢٦٢

ولكن عمر الدسوقي هو الذي حلَّ تاريخَ الرافعي هناك، وقومَ معلوماته، وقدّر منهجَه في دراستين أثيرتين<sup>(١)</sup> غير ما جاء تفاريق في كتابه «الأدب الحديث»، وقد أشرنا إليها في مواضع من هذه الدراسة. ومصدق ما ذهبَ إليه الدسوقي في قوله: «إنَّ الرافعي في أبحاثه قد أثرى لُغتنا الأدبية والدينية والاجتماعية، وما يزال حتى يومنا هذا يُبْلِجُ نوراً في ميادينها المختلفة».

### أسرار الإعجاز: كتاب البلاغة

وقد يبقى هنالك كتابه الفريد في التأليف؛ وهو بحثٌ مُستفيض، ودراسة في أسرار الإعجاز البياني للقرآن العظيم؛ أشارَ إليه غير مرة، وكان شديدَ الاهتمام له والاحتفال به، والحرص عليه، وقد كتبَ منه فصولاً<sup>(٢)</sup> وأملأَ بعضَ معانيه على بعضِ تلامذته له ومريدين<sup>(٣)</sup> وضمّن بعض مقالاته الأخيرة على صفحات «الرسالة» شيئاً من تفسيره<sup>(٤)</sup>. ولكن الكتاب نفسه بقي محجوباً حتى يومنا هذا!

وقد حاولتُ جهدي أن أقفَ على أثرٍ له في بقايا مكتبته وأوراقه في بيوتِ أبنائه وأبناء عمومته، وسألتُ تلاميذته الأذنين، وفُتِّشتُ مكتباتهم وأوراقهم، فلم أفرزْ بشيءٍ!

وكنْتُ قد علمْتُ من العريانِ قُبيلَ وفاته بأيام أنه كُتِبَ على الآلة

(١) مجلة دار العلوم — ١٩٧٢ م، الرسالة الإسلامية — ٤٨.

(٢) حياة الرافعي — ٢٨٩.

(٣) أنظر مقالة في (البيان العربي) منسوبة إلى يوسف حنا في جريدة الضياء ١٣ يناير ١٩٣١ م.

(٤) الرسالة — ٧٧ مثلاً.

الكاتبة وأودع اثنين من أصفياؤه العلماء لمراجعته<sup>(١)</sup> وكذلك قال نجله الدكتور محمود سامي الراجعي.

وقد راجعت الأستاذ محمود محمد شاكر — وهو أحد الاثنين — ولكنه ذكر أنه كان قد اطلع عليه في حياة الراجعي في إضبارة خاصة، وهو كما جاءت صفته في كتاب العريان<sup>(٢)</sup>.

أرجو أن لا يكون الضياع قد احتواه مع مأساة المكتبة، وأن يكون في إخراج دالة وفاء على الأمة في يد أبنائها.

هكذا يمثل الراجعي المؤلف الثبت في كتابه الجليل، ودراساته الأخرى، فهو لا يعود القهقري ينسج على منوال الأقدمين في التصنيف والتأليف، وتلقيق الروايات، وحشد المعلومات، أو اختصارها وابتسارها — كما آلت إليه حركة التأليف عندهم في عصورها المتأخرة، ولا ينقطع من تاريخه أو ينقص عن عقيدته ليحتج «تلفيها» يزعم فيه الجدة والابتكار؛ بافتعال مذاهب، ولبس آراء، وتصنيف وجهات نظر، وإصااق إعلانات تقطع من الصحف، وتستل من الدراسات لتزعم التجديد، وتلقف من الترجمة لتقول بالابتكار — كما هي حال بعض معاصريه في قطار (المُخففين) ذوي الحظوة!

إنما هو يجد في كل ذلك؛ يأخذ منه أخذ العليم الفاحص، ويعرضه على النقد المقوم، ثم يُجره مع البحث والرواية والسند، كأنه لفرط أخذِه شيء جديد.

(١) أحسب أحدهم محمد عبد الهادي — ولم أعتد إليه.

(٢) حياة الراجعي — ٢٨٩.

وبذلك يمثّل الحفَاطُ على القِيمِ القومِيّةِ للأُمّةِ، في طريقةٍ من الأخذِ بمقوّماتِ تراثها، ويحفظُ لها صفاتِها من العِلْمِ، ويحافظُ على تاريخها وحَضارتها في الإبداعِ بآثارِ ذلك التاريخ، ويَعثُ صفاتِ الأُمّةِ القوميةِ ؛ بإقامةِ الدّليلِ على مَبْلَغِ ما لَها من العِلْمِ، والتدليلِ على كُلِّ أولئك بما تركَ أبناؤها لها من تُراثٍ في هذا السَّبيلِ أو ذاك.

ويجددُ لأبناءِ الأُمّةِ ظروفَ الحياةِ بهاتيكِ القِيمِ والأعرافِ — مهما توالى الزَّمَنُ، أو تحوّلَتِ الأيامُ والأحداث.

وبذلك امتازَ على مُعاصريه، فكان المؤلفُ الثَّبتَ، والمؤرِّخُ الصادقُ، والأديبُ البالغُ الأداءِ في جميعِ الموضوعاتِ التي تصدّى فيها للتأليفِ والبحثِ.

\* \* \*

## المبحث الرابع

### الأديب الإمام

إن الرافعي الذي تعددت جوانب شخصيته، كان خليقاً بالدعوة التي جعل نفسه ميدان تجربتها وقصدها؛ ليضحي الكاتب الأديب الإمام، والقُدوة الفاضل الذي يعرفه اليوم جيل آخر من كتّاب العربية وأدبائها فاتهم الحظ في معاصرته، والالتفاف من حوله، والإفادة من غزير علمه في حلقات دراسية، واجتهاد للدعوة والتقويم.

وهو نفسه لم يكن يدعي لنفسه تلك المنزلة من الاجتهاد — وإن عاش عمره يفتقد لها في سواه<sup>(١)</sup> — ولكن سيره الفكري، وإثماره الأدبي، وفقهه للحياة من حوله، كان يرتاد به المسالك إليها بجدارية وقوة بأس.

لقد كان مثال الإمام الذي لا يُرضيه الاقتداء به، أو تقليده في

---

(١) أنظر مقاله في الزهراء — الربيعان — ١٣٤٥ هـ. والأخرى في الرسالة — ١٩٣ —، محرم ١٣٥٦ هـ.

اجتهاده، وإنما دأبه أن يجتهد معاصروه من حوله، فلا يكونون أقل منه رتبة، ولا أبعد عنه منزلة<sup>(١)</sup>.

ومن هنا يظهر لنا مبلّغ تأثيره بسيرة الإمام محمد بن إدريس الشافعي، وسلوكه في اجتهاده، ومذهبه في اللسان، والفتيا، وفقه الحياة شرعةً ومنهاجاً<sup>(٢)</sup> — وإن كان الرافعي نشأ حنفي المذهب كأُسلافه من أهل بيته فقهاء المذهب.

ألا تراه شاباً يافعاً يُقرّز في الشعر، كيف يريد أن يقف الشعر في مُفترق طرق الحياة<sup>(٣)</sup>، وكيف جعل الشعراء المعاصرين درجات آنذاك<sup>(٤)</sup> وكيف أراد « أن الأدبيات لا ينبغي أن يُنزل بها إلى الأمة في مساقطها، ولكن يُرتفع بالأمة إليها درجة فدرجة، كما يُرتفع بالطفل إلى الكلام من حروف الهجاء ؛ لأنّ الأدب في جملة معناه لم يزد على أنّه رقة في الشعور يُقدّر بها التاريخ، وتُحفظ بها الجنسيّة، وما مظاهره المختلفة من فنون اللغة وفروع العلم إلا أسباب لذلك الشعور الرقيق<sup>(٥)</sup> ».

هو من أوّل يوم لم يكن ينظر إلى فئة يُسمونها « الأدباء » لها ميزاتها، بقدر نظرته القومية إلى الأمة، وجنسيّتها العربية وتاريخها

(١) كذلك نحدث « الأنصار » عنه في تلامذته.

(٢) أنظر الرسالة للإمام الشافعي ٤٢ — ٤٩، ووصيته للربيع بن سلمان وصحبه ( اجتهدوا ولا تقلدوا ) وهامش الشيخ أحمد شاکر خاصّة، وراجع العريان — ١٤.

(٣) المسار — ربيع الآخر ١٣١٨ هـ.

(٤) الثريا — يناير ١٩٠٥ م

(٥) الحريرة — نوفمبر ١٩٠٧ م

وخصائصها. ويُحدّد مذهبهُ هُناك في وظيفةِ الأديبِ القوميّةِ والاجتماعيّةِ  
بمثلِ قوله :

« لا يمكن أن يُقالَ إن الأُمّةَ تترقّى بآدابِ لغتها إلّا بهذا الاعتبارِ ؛  
لأنّ رِقّةَ الشعورِ سببُ التأثيرِ، وهو طريقُ الفكرِ الاصلاحِ في مادّةِ  
المؤثرِ، ومن وراءِ هذا الفكرِ يكونُ التدبيرُ الذي هو أولُ أسبابِ الإِصلاحِ.  
فالشأنُ إذن، أن يكونَ مُثَمِّراً في النفسِ، لا أن يكونَ الأديبُ كأثرٍ  
من نرى — نسخةً من رذائلِ الكتبِ التي قرأها وتأدّبَ بها <sup>(١)</sup> ».

ويومَ طَلَبَ إليه أن يُقرّظَ « حديثَ عيسى بن هشام » للمولحي،  
فيكشفُ سرَّ الفصاحةِ في الإنشاءِ، كَتَبَ يقول :

« يسألني القومُ : كيف يُفصِّحونَ إذا كَتَبوا ؟، وإذا أفصَحوا فكيف  
يَتَفَنَّنونَ في تصويره ؟ وإذا اتَّسَقَ لَهُم ذلكَ فكيفَ يَحْتالُون للابتكارِ  
وصحّةِ التخيّلِ ؟ وإذا أصابوا أوجّهَ الحيلةِ فكيفَ يَسْتوي لَهُم أسلوبُ  
الكتابةِ ؟ وكيفَ يَزِنونَ باليسنتهم مقاديرَ الحروفِ من الألفاظِ، ومقاديرَ  
الأخلاقِ حينَ يَتَفَقُّ لكلِّ خُلُقٍ أسبابه ؛ فإنَّ الكتابةَ لَيْسَتْ إلّا صُرباً  
من الخلقِ والايجادِ. ومتى لم تُكُنْ روحُ الكتابةِ قادرةً على خَلْقِ  
المعاني، فأخِرَ بِهِ أن يَلْتَمِسَ غيرَ الكتابةِ ؛ فإنَّها لا تُواتيه، إلّا أن  
يلتمسَ أسبابَ تلكَ القوةِ <sup>(٢)</sup> ».

(١) الجريدة — نوفمبر ١٩٠٧ م، وراجع حامد عبد القادر — دراسات في علم النفس  
الأدبي — ٤٦ في أثر التداعي بالمعاني عند الكتابة.

(٢). جريدة (العلم) — ١٩١٢ م



## الدعوة القومية

إنَّه على الرغم من فَقْدَانِهِ لمكانِهِ في الجامعة آنذاك<sup>(١)</sup> وعلى الرغم من كونه صاحبَ الرأي والفكرة في تدريس آداب العرب فيها<sup>(٢)</sup> لم يُعَدِّم الوسيلة في الدُّعْوَة، ولا أضاع فُرْصَةً للرأي والاجتهاد لم يَكُنْ له فيها سَهْمٌ إلا صابغةً وعنوانُ التوفيق.

لقد أراد تربية أدب الإنشاء والمُفَصَّحة في الكتابة، وحاول إعداد الأُمثلة مرَّات<sup>(٣)</sup>، حتَّى كان آخرُها تلك المقالة التي صرَّف فيها وَجْهَ الحديث إلى « القمر » — وقد جَعَلَ الناشئة لا يحتدُّونه فَيَنْطَبِعُونَ على غرارِهِ فحَسْبُ، وإنَّما يَمَكِّنُهُم من الاتِّساق في الخيال، ويحركُ أجهزةَ التوليد التي تُبدِّع في المعاني عند ذوي المواهب منهم، وتبتكرُ في الأساليب، وتقوى على البيان، وتعتدُّ بالفكر وحُسن الاعتقاد<sup>(٤)</sup>.

ذلك أن الأديب المفكر، والكاتبَ الفقيه، والشاعرَ الثائر هُمُ الرعيلُ المتقدم في الفداء أمام زحف الأمة لاستعادة حياتها الكريمة التي سَلَبَتْها الأيام، وفهرتها الدهور.

ومن هنا كانت مراحل حياته المجاهدة في الأدب؛ يجعلُ من نفسه مجال التطبيق في الاجتهاد ويخلص قُدْوَةً، ويمتازُ مثلاً، ويبدُرُ إماماً في كلِّ هاتيك الجوانب والمجالات.

(١) كانت علَّتُهُم في ثقل سَمْعِهِ.

(٢) المعركة — ٦٩

(٣) أنظر ما كتبه في الديوان ج ٢ — ٦٧٠، وديوان النظرات ج ٩٢ ثم « حديث القمر ».

(٤) راجع كتابنا (الانبعاث القومي للضمير العربي) ففيه تفصيل كبير.

كَانَ يَتَحَرَّى الْقِيَمَ الْقَوْمِيَّةَ ؛ يُثَبِّتُهَا فِي صُورِ الْحَيَاةِ مِنَ الْجَمَاعَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، يَصِفُ فِيهَا الْمَفْكَرَ الْفَيْلَسُوفَ فِي أَحْلَامِهِ وَآرَائِهِ وَوُجْهَاتِ نَظَرِهِ — وَقَدْ اسْتَبَدَّتْ بِهِ أَوْضَاعٌ لَا بُدَّ لَهُ فِيهَا مِنْ قُوَّةٍ ثَبَاتٍ مَعَ إِرَادَةِ التَّغْيِيرِ، وَكَذَلِكَ كَانَ فِي « حَدِيثِ الْقَمَرِ ».

وَيَتَصَوَّرُ الْإِنْسَانَ الْعَرَبِيَّ فِي رَجُولِيَّةٍ وَضَمِيرِهِ وَدَمِيهِ الْكَرِيمِ كَيْفَ يُحِبُّ وَيَعْشَقُ، وَيَتَدَلَّى ؛ فَيُدِلُّ عَلَى سَمَوِّ الْحَيَاةِ بِالْإِيمَانِ، وَكَمَالِ هَذَا الدِّينِ بِالْإِسْلَامِ، وَمَبْلَغِ ذَلِكَ بِإِشْرَاقِ الْبَيَانِ<sup>(١)</sup> كَمَا يَمَثُلُ لَنَا فِي رِسَائِلِهِ الَّتِي إِلَى الْحُزَنِ انْتَهَتْ، حَتَّى اسْتَمَطَرَتْ السَّحَابَ الْأَحْمَرَ، وَطَفَقَتْ تَخْصِفُ عَلَيْهَا مِنْ « أَوْرَاقِ الْوَرْدِ ».

وَهُوَ كَأَيِّ صَاحِبِ دَعْوَةٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْمَجَابَهَةِ فِي جَمِيعِ الْحَالَاتِ — وَعَلَى جَمِيعِ الْمَسْتَوِيَّاتِ — كَمَا يُعْبَرُونَ الْيَوْمَ !.

ذَلِكَ أَنَّ مُحَاوَلَتَهُ بَعَثَ الْعَرَبِيَّ بِخَصَائِصِهِ الْقَوْمِيَّةِ، وَشَمَائِلِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَسَجَايَاهُ، وَإِعْدَادَهُ لِلْحَيَاةِ فِي سُمُوٍّ بِالْحُبِّ، وَامْتِثَالٍ فِي الصَّدْقِ، وَأَخْذٍ لِحَقَائِقِ الْعِلْمِ، وَالْمَامِ بِجَوَانِبِ الْمَعْرِفَةِ، وَحِرْصٍ عَلَى الْفِكْرِ وَالتَّأَمُّلِ، وَانْطِلَاقٍ بِالْإِبْتِكَارِ وَالْإِبْدَاعِ، وَتَوَفُّرٍ عَلَى أَسْبَابِ الْقَوْرِ الَّذِي يَحْفَظُ لِلْإِنْسَانِ كِرَامَتَهُ الْإِلَهِيَّةَ أَبَدًا، كَانَتْ اللَّازِمَةُ الْفِكْرِيَّةَ الْوَثْقَى لِمَوْضُوعَاتِ أَدَبِهِ وَفَنِّهِ.

وَكَذَلِكَ قِيَامُ هَذِهِ الدَّعْوَةِ فِيهِ قَدْ وَسَّعَ الْمَجَابَهَةَ أَمَامَهُ مِنْ مُخْتَلَفِ الْجِهَاتِ، وَانْفَتَحَتْ عَلَيْهِ مِنْهَا تُغْرَاتٌ وَمُحَاوَلَاتٌ ؛ وَلَكِنَّهُ — لَمَّا فِي دَعْوَتِهِ مِنَ الْأَصَالَةِ وَالْعُمُقِ، وَمَا لِأَهْدَافِهِ مِنَ الرَّفْعَةِ وَالْإِمْتِيَازِ — ثَبَّتَ

(١) الْبَلَاغُ — ٨ ربيع الأول ١٣٥٠ هـ — ٢٣ يوليو/تموز ١٩٣١ م

لها جميعاً، وكثيراً ما كان يُباغِتُها بآرائه وأفكاره الجديدة، حتّى يُذهِلُها،  
ويشغُلُها بِنَفْسِها، ويَجْعَلُها تدورُ في سواني أبعادها، وآمادِ نظريها القاصر.

ومن هنا كانت مواقفُه من الحياة الفكرية — وهي تَضْطَرُّبُ من  
حوْلِ المعاجِدِ في أعمدة الجرائدِ وصفحاتِ المجلّاتِ، وفُصولِ  
المترجماتِ؛ تَذْهَبُ فيها مذاهبُها من الرأي الضليل أو الاختلاطِ، أو  
تموّدُ بالوانٍ من الآدابِ حُرِّمَتِ المسؤولية القومية في أدائها، أو تنوّهم  
ما شاء لهذا الوَهمِ والابتعاد.

إنه يقفُ لهذهِ وتلكِ وهاتيكِ، ويَبْثُثُ لهذا وذاكِ وذلك من التراجمة  
الكتابِ، مواقف الناصحِ الأمينِ تارةً؛ يحاولُ كَبَّحَ جماحِ المُجازفينِ  
بالأحكامِ؛ يَمُنُّ تختلطُ عليهم الآراءُ والأفكارُ مثل طه حسين في حياتهِ  
الأدبية الأولى<sup>(١)</sup> فيدعُوهُ ورفاقُه بِتَوَدّةِ الواعظِ: كيفَ ينبغي للأديبِ أن  
يكونَ في هذا العصر<sup>(٢)</sup>، ثم يُلقِي عليه «درسا في المكابرة»<sup>(٣)</sup>،  
ويحذّره أخيراً من «جِرْفَةِ الأدب»<sup>(٤)</sup>.

ويأخذُ بيدَ الآخرِ — الى الصحافةِ الأدبيةِ، ويُعْريه بالترجمة الأمانةِ  
عن كتابِ الغرب<sup>(٥)</sup>، ويُرْعَى مجلةَ (البيان) بعنايتهِ وقَلَمه، حتّى  
تشتهر فيها مقالاتُه القومية، ومنها افتتاحيةُ الجزء الأول من سَنَتِها الأولى

---

(١) انظر الرهراء — ربيع الآخر ١٣٤٥ هـ — وراجع محمد سيد كيلاني — طه حسين  
الشاعر الكاتب.

(٢) الجريدة — مارس ١٩٠٧ م.

(٣) الجريدة — ١٩١٠ م.

(٤) الزهور — يونيو ١٩١٣ م.

(٥) راجع الأتلام — بغداد — تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٧ م.

التي تُعدُّ اليوم وثيقةً عربيةً باسلةً، يُشير إليها الدارسون بفخر وخيلاء<sup>(١)</sup>.

بل يخاطبُ قسيساً من الفرير كأنَّ قد عَرَضَ « لكتابِ المساكين »  
 بالتعريفِ والنقدِ<sup>(٢)</sup>؛ فيضَعُ تحتَ علمِه مذهبَ القومِ في الخطِّ  
 والإملاءِ وكيفيةِ كتابهِ الهمزة<sup>(٣)</sup>.

### مضمار القوة

بعد نكبةِ الأمة في الحربِ الأولى، وضياحِ سُلْطَانِهَا القومي، وتوزُّعِ  
 ديارها أسلاباً بين أيدي المُستعمرين والمغامرين، أدركَ ما كانَ يُعوِّزُ  
 الأمة في ذلك الصِّراعِ المرير، وهو القُوَّةُ، بل خَوَارِقُ هذه القوة؛  
 التي تَحْرِقُ هذا المَالَ بالفداء؛ لتُعِيدَ للأُمَّةِ كرامَتَها — ولو بأفرادٍ  
 معدودين من أبنائها يَتَوَلَّونَ الأَمْرَ بالمخاطرةِ الباسلة، والاستعدادِ للشهادة،  
 فكتبَ في « نواذِرِ القُوَّةِ عند العرب »<sup>(٤)</sup> صفحاتٍ جَلِيٍّ فيها شواهِدٌ  
 في تاريخهم، لها مكانُها في سِجْلِ الأحداثِ، ولها يَمِزُّها في إرادةِ  
 التغيير، وكيفَ كانَ لَهُمُ من الإقبالِ على الحياةِ بالاستِشهادِ تلكَ المواقفِ  
 والبطولاتِ في معاركهم التاريخية، وفُتُوْحِهِمُ التي جَعَلَتْ وَجْهَ الأرضِ  
 عَرَبِيًّا، فكانَ من بَعْدِ الذَّلَّةِ أَيْبًا<sup>(٥)</sup>.

(١) يحيى حقِّي — المجلة — ٧٣، ومحمود فياض — الصحافة الأدبية — رسالة اختصاص.

(٢) الأخبار — رجب ١٣٤٥ هـ — ١٠ مايو ١٩١٧

(٣) الأخبار — ١ شعبان ١٣٤٥ هـ — ٢٤ مايو ١٩١٧ م

(٤) المضمار — ٣ ديسمبر/كانون الأول ١٩٢١ م والأعداد الأخرى التالية.

(٥) تاريخ آداب العرب ج ١ — ٧٢

وقد أرسل قولته المشهورة : « وما أراها إلا ستنهض في مصر والشام نهضة من يستجمع — تأمل — وربما شهد الناس ذهراً يصلح أن يُسمى فيه ما بين العراق والأطلس « جمهورية اللغة العربية » وما هو ببعيد والله غالب على أمره »<sup>(١)</sup>. وقد أضحت اليوم شعار القومية العربية، وميدان جهادها، وهدف كدحها، ونضالها عن قيمها الموحدة وإشراق دولة العرب !.

ومضى كذلك يحاول أن يُتم ما كان بدأه في « تاريخ آداب العرب » وما فاتهُ من فصوله وأبوابه الواسع ؛ يدعو الى القدوة الحسنة، والأُسوة بأولئك الأمجاد الأفاضل العظام.

ثم كانت نقلته الأخرى — وهو يفسر دين الإخلاص بحبه، ويكشف عن أسرار ذلك الحب في القلب العربي المؤمن، وكيف زكى الاسلام الحنيف هذه العاطفة الانسانية النبيلة، فحفظها على أصحابها سامية لا تلتأ، متميزة بالرفعة التي تُنشد الكمال أبداً<sup>(٢)</sup>.

ثم وقف يترصد الطيش والغرور في مجازفات التأليف والتلفيف التي ولع أصحابها بالانزلاق في متاهات الأفكار الضليلة والآراء غير المستقيمة — وكانت لهم أقوال في القرآن وتاريخه، والعقيدة وأبعادها، والغربة وأبنائها، والنظام وآياته — إذ جال في الذب عن الحيض جولاته المخاطرة، فكان له على الأمة ذئبونة سابقة، أدرك بعدها حقيقة المأساة

(١) الهلال — شباط/فرابر ١٩٢٠ م — ٤١٠

(٢) سيرد في فصل آخر.

وقد يحب المرء كيف تجري على لسانه هذه الكلمات والأمة في مختلف أقطارها تأرجح بين الولاية والسلطنة وأحلام الممالك.

التي تمثلت في ضياع « الخلافة » وانفراط عقد الوحدة القومية، وذهاب الآراء بدداً في مختلف الاتجاهات، هائمة على وجهها، لا تحيل تبعاً إبدائها، ولا هم لها في بيانها، كأنها معدومة المسؤولية والضمير. « ونجمت الناجمة من كل علة، ثم نُوزع الأدب العربي الى سُخرة التقليد، وإلى أن يكون لصيقاً دعيّاً في آداب الأمم، واستهلكه التضييع وسوء النظر له »<sup>(١)</sup>.

### الإمامة

لم يزل يبحث عن العلة الرئيسة في ذلك حتى ظفر بها عند قوله : « يرجع هذا الخلط في رأيي الى خلو العصر من إمام بالمعنى الحقيقي يلتقي عليه الإجماع، ويكون ملء الدهر في حكمته وعقله ورأيه ولسانه ومناقبه وشمائله ».

والإمام عنده « يُنبئ في آداب عصره فكراً ورأياً، ويزيد فيها قوة وإبداعاً، ويزين ما فيها بأنه في نهايته، ومُستقبلها بأنه في بدايته ؛ فيكون كالتعديل بين الأزمنة من جهة، وبين الانتقال فيها من جهة أخرى » ؛ لأن هذا الإمام عنده « إنما يُختار لإظهار قوة الوجود الإنساني من بعض وجوهها، وإثبات شمولها، وإحاطتها كأنه آية من آيات الجنس<sup>(٢)</sup> يأنس الجنس فيها الى كماله البعيد، ويجد في قومه الاستطالة التي لا يُعاز عنها مُبطل بعناد، والحقيقة التي لا يُكابِر فيها

(١) الزهراء — ربيع الأول ١٣٤٧ هـ

(٢) يريد خصائص القومية.

متنطع بتأويل، والصاخة التي لا يروغ فيها متعسف بحيلة<sup>(١)</sup>.

وهذه الخصائص بحقائقها ودقائقها كانت فيه هو، ولكنه للحياة التي كان يحياها موظفاً في حكومة — كان كالذي يحاول إبعادها عن نفسه في اجتماع صفاتها..

ألا تراه بعد ذلك — وقد جرى على لسان يوسف حنا نعتة بعبارة لم يقلها هو، وإنما رويت عنه مبالغة هكذا : « يخيل إلي دائماً أنني رسول لُعوي، بُعثت للدفاع عن القرآن ولُغته وبيانهِ »<sup>(٢)</sup> يقول :

« أنا لم أقل هذا، ولم أعتقدها مطلقاً ؛ ومن أجل ذلك أثرت في هذه الكلمة تأثيراً عظيماً، وعددتها إنباء من الغيب، واعتقدتها ؛ لأن الزمان أصبح فارغاً.

وقد أصبحت أعتقد أن الأحوال ستيسر إن شاء الله، وأستطيع الخروج من الحكومة، وإلا فكيف تؤدي الرسالة يا ترى ؟ أرسول وموظف في الحكومة !؟<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

إن إمامة الرافعي للأدب العربي قد أقر بها معاصروه بشكل ما، وكان أسبقهم الى يُبعث بها الأمير شبيب أرسلان منذ يوم أرسل إليه

(١) الرسالة — ٤٣.

(٢) الرسالة — ٤٣.

(٣) رسائل الرافعي — ٢٢٣.

وخاطبته، ومنذ عرّف بكتابه الجليل ( تاريخ آداب العرب )<sup>(١)</sup> حتى المعركة الاعتقادية التي ظاهره فيها<sup>(٢)</sup>.

وخاطبته بمثلها أمير شعراء العربية أحمد شوقي — على ما كان بينهما من منافسة —<sup>(٣)</sup>.

وقد عدّه ابراهيم عبد القادر المازني « أعلّم أهل العربية بتاريخها وفنون آدابها »<sup>(٤)</sup>. كما عدّه عباس العقاد من أفذاذ أدباء العرب<sup>(٥)</sup> واعترف له طه حسين بالفطنة، ونظر إليه ( من بعيد ) إنصافاً يذكره بالحسن في بحثه عن كلمة « أدب » وأطوارها، وكيف كان يقرأ ويفهم، ولا يأخذ أو ينقل إلا ما يحتاج إليه، وأقر بها مخالفاً أيضاً<sup>(٦)</sup>.

وكذلك أرّخ له الأستاذ عمر الدسوقي في الأدب الحديث، وأشار الى هذه الإمامة حين قال :

« كان الرفاعي ذا مذهب في الأسلوب له أتباع ومعجبون، ومُعظم أتباعه من هؤلاء الذين يرون برأيه في الحياة المعاصرة، وقيسونها بمقياس المثل العربية »<sup>(٧)</sup>.

(١) المؤيد — غرة ربيع الأول ١٣٣٠ هـ

(٢) المعركة — ٣١ ورسائله الخاصة.

(٣) رسالة خاصة في تموز/يوليو ١٩٢١ م

(٤) الحديث — الحلية — ٦ — ١٩٣٧ م، وكذلك أمين حافظ شرف — الشعب ٢٤ يوليو/تموز ١٩٥٧ م

(٥) الرسالة ١٣ مارس — ١٩٤٣ م

(٦) من بعيد — ٢٦٢، حديث الأربعاء ٣ — ٥.

(٧) نشأة النشر — ١٠١



وبلهجة الناقدِ الحصيف يُرَدِّفُ القولَ بحكمٍ يَسْتوفي الحيثيات، وَيَصْدُقُ في البيان: « .. وقد حاولوا أن يُقلِّدُوهُ في أسلوبِهِ، ولكن أحداً منهم لم يَصِلْ الى ما وَصَلَ إليه من الصُّورِ البيانية، وغايةُ ما وَصَلُوا إليه هو مُحَاكاة ذلك الأسلوبِ الجَزَلِ القوي الخالي من الأساليبِ الأعجمية »<sup>(١)</sup>.

والإمامةُ في الأدبِ بعدُ واجبةٌ من الناحيةِ الاعتقادية، تكونُ قُدوةً ومذهباً في أدبِ الأمة، ولا سِيَّما في مثلِ حياتنا الفكرية التي نُعاني من مضاعفاتٍ فيها وإفرازاتٍ منذُ اضْطَرَبَتْ بنا ساريةُ الأيام، وهي كالخِلافة — الإمامة العظمى — التي لا بُدَّ منها للأُمَّة الإسلامية لحفظِ وَحْدَتِها والتحوُّطِ لها.

« وقد طُبِعَ الناس في بابِ القُدرةِ على غَرِيزَةٍ لا تَتَحَوَّلُ ؛ فمن انْفَرَدَ بالكمالِ كَانَ هو القُدوة، ومن غَلَبَ كان هو السمْت، ولا بُدَّ ممَّن يَفْتَنَاسُونَ بِهِ ويتوازنون فيه، حتَّى يَسْتَقِيمُوا على مِراسِدِهِمْ ومصالِحِهِمْ »<sup>(٢)</sup>.

والإمامُ بعدُ « إنسانٌ تُتَخَيَّرُ بعضُ المعاني السامية لتُظْهَرَ فيه بأسلوبٍ عمليٍّ ؛ فيكونُ في قومِهِ ضَرْباً من التَّربيةِ والتعليمِ بقاعدةٍ منتزعةٍ من مِثَالِها، مَشْرُوحَةٍ بهذا المِثَالِ نَفْسِهِ » قال: « وَلَعَلَّ ذلك هو حكمةُ إقامةِ الخليفةِ في الإسلامِ ووجوبِها على المسلمين، فلا بُدَّ على هذه الأرض من ضُوءٍ في لحمٍ ودمٍ »<sup>(٣)</sup>.

(١) تطور المقالة — مقال مرسل الى الجامعات الأميركية.

(٢) الزهراء — ربيع الأول ١٣٤٧ هـ.

(٣) الرسالة — ١٩٣ — ٢ محرم ١٣٥٦ هـ.

ومن هنا ندرك أيضاً سرَّ تشبُّثِ الرافعي بالوحدة الاعتقادية والقومية  
للأمة، وإثارِهِ لها في مفهوماتِهِ الفكرية والأدبية، وفي الفصل التالي  
ندرسُ «الموضوعات المحدثَة في أدبِ الرافعي» لنقفَ على شواهِدَ  
من هذِهِ الصفات التي عَرَضْنَا لها.

\* \* \*

على أَنَّ إحاطةَ الرافعي بالعربية وفنونِ آدابِها ومُفرداتها وعجائبها لا  
مثيلَ لها في تاريخِ آدابِ العرب، وما عُرِفَتْ لغيرِهِ<sup>(١)</sup>. والعجيبُ أَنَّهُ  
جاءَ في تطوُّرِ أدبيِّ فريدٍ بَعْدَ زمنٍ نَزَلَتْ فيه اللُّغة، ورَكَتِ الأساليبُ،  
واستحجرتِ البلاغةُ، والثابتُ صُورُ البديعِ، فكان كالمُنْبَهَةِ على ثباتِ  
هذِهِ اللُّغةِ المُعْجِزَةِ وانبعائِها كُلِّ حينٍ.

ما افتقده كان فيه

ولعلَّ أَوَّلُ ما في الإمامِ من دَعْوَتِهِ أَنْ يكونَ سريعَ التأثيرِ في مُريدِهِ  
ومناوئِهِ بشكلٍ ما، ولو تحرَّينا هذه الناحيةَ النفسيةَ فيه، لوجدنا أَنَّ  
الرافعي في الوقتِ الذي يتأثَّرُ بالعصرِ تأثُّرٌ مُغَاغِلَةٌ يَطْبَعُ هذا التأثيرَ  
بشخصيَّتِهِ، حتى لا يمكنُ فَصْلُ الرأيِ يأخذهُ عن سِواه، فيطعمُهُ أدبُهُ  
وفنُّهُ عن رأيٍ آخرٍ يقولُ بِهِ هو.

وما كان للرافعي من تلامذةٍ يتحلَّقون حولهَ فقليلٌ، ولكنَّهُم كانوا

---

(١) أمين شرف — الشعب — السابق

يَلْقَوْنَهُ فِي كُتُبِهِ وَعَلَى صَفَحَاتِ الْجَرَائِدِ وَالْمَجَلَّاتِ<sup>(١)</sup> وَالْمَقْرَبُونَ إِلَيْهِ  
أَصْدِقَاءَ مَرِيدُونَ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يُؤَثِّرُ فِي هَؤُلَاءِ وَأُولَئِكَ ؛ فَتَنْطَبِعُ بَعْضُ  
سَجَايَاهُمْ، وَفَنُونَ كِتَابَاتِهِمْ، كَمَا يُؤَثِّرُ فِي قُرَائِهِ تَأْثِيرًا يَأْخُذُهُمْ بِالْإِحْسَاسِ  
وَالْوَجْدَانِ<sup>(٢)</sup>.

وَلَمْ يَكُنْ يَهْمِلُ خُصُومَهُ، وَإِنَّمَا يَقْدُمُ لَهُمْ مِنْ بَنَاتِ أَفْكَارِهِ آرَاءَ  
وَأَمْثَلَةً مِنَ الْأَدَبِ الْهَادِفِ الَّذِي يُجَدِّدُ حَيَاةَ الْفِكْرِ، وَلَا يَجُورُ عَلَى  
أَصُولٍ، وَقَدْ أَقَرَّ بِذَلِكَ أَعْتَى خُصُومِهِ كَالْعَقَّادِ وَطَه حَسِينِ<sup>(٣)</sup>. وَهَكَذَا  
الْإِمَامُ هَدَفَهُ الْإِصَابَةُ، وَغَايَتُهُ أَنْ يُوَفَّقَ بِاجْتِهَادِهِ مِنْ يَخَالِفُهُ النَّظَرَةُ.

وَقَوَامُ الدَّعْوَةِ ثَبَاتُ الْأَخْلَاقِ، وَلَا أَدَلَّ عَلَى تَقْوَى الرَّافِعِيِّ مِنْ صَبْرِهِ  
عَلَى حَيَاتِهِ الْخَاصَّةِ، وَكَيْفَ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْإِلْتِمَازِ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْ  
النِّفَاقَ يَوْمًا :

« أَنَا رَجُلٌ لَيْسَ فِيَّ أَكْثَرُ مِمَّا فِيَّ، كَالنَّجْمِ يَسْتَحِيلُ أَنْ تَجِدَ فِيهِ  
الْمُسْتَنْقَعَ، فَمَا أَعْرِفُ مِنْ طَبِيعَتِي مَوْضِعًا لِلنِّفَاقِ تَحْوُلُ فِيهِ الْبَصَلَةُ  
إِلَى تُفَاحَةٍ، وَلَا مَكَانًا مِنَ الْخَوْفِ تَنْقَلِبُ فِيهِ التُّفَاحَةُ إِلَى بَصَلَةٍ »<sup>(٤)</sup>.

وَقَدْ يَضْجَرُ أحيانًا، وَيَضِيقُ، فيقولُ : « مَا أَشَدُّهُ مَضْضًا أُعَانِيهِ ! »

(١) ج. ٢٠. — القاهرة — ١١ مايو ١٩٥٨ م  
(٢) الحق اني لأعجب من دعوى سيد قطب أنه كان يُكره نفسه على أدب الرافعي،  
فتزداد كراهيته له. الرسالة — ١٥ نيسان/أبريل ١٩٣٨ م. وهو الذي اقتفى أثره في  
« التصوير الفني في القرآن » ١٩

(٣) راجع ما سبق وكتابتنا « الرافعي الناقد الأديب ».

(٤) الثريا — فبراير ١٩٥٥ م. وللنجم معنى السمو عند العرب، وقد آتخذ الرافعي عنوان  
اعتداده بنفسه.

إِنَّ عُمْرِي لِيَذْهَبُ فُرْطاً ؛ أَكَلَّمَا ابْتَغَيْتُ مِنَ الْحَيَاةِ مَرَحاً أَطْرُبُ لَهُ  
واهْتَرَّ، جَاءَتْني الْحَيَاةُ بِفِكْرَةٍ أَسْتَكِدُّ فِيهَا وَأَدَّابُ ؟

أَهَذَا السُّرُورُ الَّذِي لَا يَزَالُ يَقَعُ بَيْنَ النَّاسِ، هُوَ الَّذِي لَا يَكَادُ يَقَعُ لِي ؟  
وَهَلْ أَنَا شَجَرَةٌ فِي مَغْرَسِهَا ؛ تَنْمُو صَاعِدَةً بِفُرُوعِهَا، وَنَازِلَةً بِجَذُورِهَا،  
غَيْرَ أَنَّهَا لَا تَبْرَحُ مَكَانَهَا ؟

وَتَقُولُ لَهُ نَفْسُهُ : أَنْتَ كَالنَّائِمِ ؛ لَهُ أَنْ يَرَى، وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ  
شَيْئاً مِمَّا يَرَى إِلَّا وَصْفُهُ وَحِكْمَتُهُ، وَالسُّرُورَ بِمَا التَّدُّ مِنْهُ، وَالْأَلَمَ تَوَجَّعَ  
لَهُ «<sup>(١)</sup>» .

وهكذا صاحبُ الدُّعْوَةِ أهدأ ؛ يَبْدُو فِي غُرْبَتِهِ حَتَّى مَعَ نَفْسِهِ، وَلَعَلَّ  
غُرْبَتُهُ الَّتِي يَحْكِيهَا مُعَاصِرُوهُ كَانَتْ مِنْ هُنَا أَيْضاً. حَيْثُ جَعَلَتْ مِنْهُ  
الصَّرَاحَةُ إِنْسَاناً حَادِّ الْمِزَاجِ، حُلُو الصَّدَاقَةِ، قَدْ يَفْرُطُ فِي الْعِدَاوَةِ، وَلَكِنَّهُ  
يُرِيدُ الرِّجُولَةَ وَالثَّبَاتَ عَلَى الْإِعْتِقَادِ لِذَلِكَ الْخَصْمِ «<sup>(٢)</sup>» وَهُوَ « يُحِسُّ مِنْذُ  
الصَّغَرِ أَنَّهُ رَجُلٌ هَرَمَ، أَوْ كَمَا يَقُولُ فِي تَعْلِيلِ ذِكَاةِ الْأَذْكَيَاءِ ؛ أَنَّهُمْ  
يَتَذَكَّرُونَ مَا يَرَوْنَهُ، وَلَا يَتَعَلَّمُونَهُ ؛ لِأَنَّ فِيهِمْ نَفُوساً خَرَجَتْ مِنَ الدُّنْيَا  
كَامِلَةً، ثُمَّ رَجَعَتْ لِتَزْدَادَ كَمَالاً » «<sup>(٣)</sup>» .

وقد يكفي هنا أن نُورِدَ مثلاً مِنْ حَيَاتِهِ مَعَ النَّاسِ، كَمَوْقِفِهِ مِنَ  
الْمَنْفَلُوطِيِّ — مُصْطَفَى لُطْفِي — أَحَدِ مُعَاصِرِيهِ الَّذِي كَانَ يُقَرِّطُهُ وَيَهْتِفُ

(١) الرسالة — ٧٤ .

(٢) مِنْ رِسَالَتِهِ إِلَى إِسْمَاعِيلِ مَظْهَر — انْظُرِ الْمُقْتَطَفَ ٩١ — ١٩٣٧ م — ٢٠

(٣) رِسَائِلُ الْأَحْزَانِ — ٤٨

له<sup>(١)</sup>. فلما ظَهَرَتْ مقالة « الثريا » في درجات الشعراء، ورأى نفسه دون ما هو عندها، سَمَر لها فَكَتَبَ يَنْقُضُ المقالة، ويتناولُ الرافعي بما شاء من القَدَحِ والذَّمِّ، حتى جَرَّدَهُ من الألفاظِ والمعاني جميعاً<sup>(٢)</sup>. فما كَانَ من الرافعي إِلَّا أن يقدِّمَ وصفَ المنفلوطي لَهُ بين يَدَيَّ كلمةٍ في « المنبر » كذلك الفيلسوف الذي أَكَبَّ على قَدَمي الملك — وقد رأى أَذُنِي رَأْسِهِ في رجليه<sup>(٣)</sup>.

ثم اطَّرَحَهُ، ولم يَعُدْ يَكَلِّمُهُ، لَأَنَّهُ لَا يَتَمَسَّكُ بشيءٍ كالأخلاقِ، فلا يرجعُ عن كلمةٍ يقولُها<sup>(٤)</sup> فلَمَّا ماتَ المنفلوطي لم يَرْضَ من أحَدٍ مُقَرَّبِيهِ أن يَذِمَّهُ وقال له :

« اتَّقِ اللهَ في ما كَتَبْتَ عن المرحوم المنفلوطي — واذكروا محاسنَ موتاكم »<sup>(٥)</sup>.

وموقفُهُ من أحمد شوقي — وقد كان يَسْعَى في إيذائِهِ وصدِّهِ عن وجوهٍ يحظى فيها بنوع امتياز<sup>(٦)</sup> وكيف وفَّاهُ الرافعي حَقَّهُ بعد موته<sup>(٧)</sup>.

وكذلك موقفُهُ مع بعضِ خصومِهِ الآخرين، كالعقادِ، فقد رضي

(١) مختارات المنفلوطي — ٢١٥.

(٢) سرّيس ٩ — ١٩٠٦ م

(٣) الرسالة — ١٠٩ — وحي القلم ٣ — ١٩٣.

(٤) رسائل الرافعي — ٤٢

(٥) رسائل الرافعي — ١٠٨

(٦) رسالته الى الخطيب في ٢ شوال ١٣٤٧ هـ

(٧) المقتطف — ٨٣ — ١٩٣٢ م — ٣٨٥، الرسالة — ١٢١

أَنْ يَصْطَلِحَ مَعَهُ، وَيَطْوِي صَفْحَةَ اللَّجَاجَةِ وَالْمُشَاكَسَةِ، وَلَكِنَّ الْمَوْتَ  
تَخَطَّفَهُ فَلَمْ يَقَعْ ذَلِكَ الَّذِي رَاوَدَ الْكَثِيرِينَ<sup>(١)</sup>.

أَمَّا مَوَاقِفُهُ مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ وَالْمَثَارَاتِ الْفِكْرِيَّةِ وَالْأَدْبِيَّةِ وَحِكَايَةِ الْمَرْأَةِ  
وَالْحَضَارَةِ وَالتَّجْدِيدِ وَمَا إِلَيْهَا، فَهِيَ بَعْدُ مَعْرُوفَةٌ وَقَدْ مَرَّتِ الْإِشَارَةُ  
إِلَيْهَا فِي فَصْلِ الْفُنُونِ. وَكَيْفَ كَانَ يَرَعَى قِيَمَ الْأُمَّةِ، وَيَسْعَى بِأَعْرَافِهَا  
— وَإِنْ حَاوَلَ غَمَطُهُ الْمُبْطَلُونَ.

\* \* \*

لَمْ يَكْتَفِرِ الرَّافِعِي بِجَوَانِبِهِ الْأَدْبِيَّةِ وَمَوَاقِفِهِ الْفِكْرِيَّةِ، وَدَعَوْتِهِ الْعَرَبِيَّةِ  
الْمُؤْمِنَةِ الَّتِي أَثْبَتَ فِيهَا وَجُودَهُ فِي فَنِّهِ، وَطَبَعَ شَخْصِيَّتَهُ فِي آثَارِهِ،  
وَمَيَّزَ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ فِي أَنْوَاعِ الْكِتَابَةِ وَالشَّعْرِ وَالنَّقْدِ، وَأَبَانَ عَنْ أَثَرِهَا  
فِي ذَلِكَ كُلِّهِ — وَهُوَ يَحْفَظُ عَلَى الْكِتَابَةِ أَصُولَهَا الْبَيَانِيَّةَ، وَيَزِيدُهَا  
رَوْقًا مِنَ الْمَقَابَلَةِ، وَيَتَعَثُّهَا فِي الْإِبْتِكَارِ فَكْرَةً وَمَنْهَاجًا، وَيُشْرِقُ فِيهَا  
بِذَلِكَ الْإِسْتِطْرَادَ، وَالْإِسْتِغْرَاقَ الْمَوْضُوعِي الَّذِي يَلِدُ بِهِ الْمَعْنَى مَعَانِي  
أُخْرَى؛ فَيَخْلَعُ عَلَى الْعَرَبِيَّةِ سِمَةَ الْعَطَاءِ الثَّرِّ وَالْكَرَمِ وَالسَّخَاءِ، وَالتَّجْدِيدِ  
بِالْجُودِ وَالنَّهْأِ.

وَلِنَّمَا جَاوَزَ تِلْكَ الْآمَادَ إِلَى فُنُونِ الْكِتَابَةِ نَفْسِهَا؛ يَزِيدُ فِيهَا، وَيُذْجِلُ  
إِلَيْهَا مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ وَالْمَعَانِي مَا كَانَ وَقْفًا عَلَى الشَّعْرِ وَبَعْضِ فُنُونِهِ  
خَاصَّةً، أَوْ مَا هِيَ بِجَلَالِ الْخُطَابَةِ أَلِيْقُ، أَوْ فِيمَا لَمْ يَكُنْ لَهُ مَجَالٌ

(١) أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ الْعَقَادَ — بَيْنِي وَبَيْنَ الرَّافِعِي — الرِّسَالَةَ — ٢٤٠  
وَقَدْ حَدَّثَنِي بِذَلِكَ الزِّيَاتِ رَحِمَهُ اللَّهُ وَمَحْمُودُ مُحَمَّدُ شَاكِرٌ — وَهُوَ صَاحِبُ الدَّعْوَةِ.

معروف في ماضي الأدب العربي ولا حاضره، وإنما هو جلاءً لمادته، وصقالاً لمعانيه واستعلاناً لجوانب جديدة يمكن أن تتسع فيه، أو هو يُثمر فيها.

## الانبعاث

ولعل الرسالة الفكرية التي حملها أدبه، ونهضت بها دعوته، واستمرجت إرادة التغيير في الأمة، لم تكن تقتصر على جوانب الأدب فحسب، أو تُلْم بالاجتماع فقط، وإنما كان يمضي مخاطراً بها أكثر وأكثر، حين يلتفت إلى بعض الأوضاع القانونية المجلوبة للاجتماع المختلط (الجديد) فيناصبها الخصومة التي تُنبئ على المخاطر، والمعارضة التي تُريد الإصلاح، والإثارة التي تجلب المنفعة، ومن ذلك قوله :

« الحقيقة التي لا وراء فيها أن فكرة الفُجور — وما دام القانون هو أباها بشروط، فهو الذي قررها في المجتمع بهذه الشروط. »

وآفة هذه القوانين أنها لم تُسن لمنع الجريمة أن تقع، ولكن للعقاب عليها بعد وقوعها، وبهذا عجزت عن صيانة المرأة وحفظها، والحقوق وأهلها.

وبخلاف ذلك الدين — فإنه قائم على منع الجريمة، وإبطال أسبابها<sup>(١)</sup>.

(١) الرسالة — ١٢٠. وحي القلم ١ — ١٢٠.

وهي قوله تَذْهَبُ بَعِيداً فِي الْجَرِّ إِلَى نَقْدِ الْأَوْضَاعِ الْقَانُونِيَّةِ، وَكَيْفِيَّةِ الْأَخْذِ بِهَا عَلَى تِلْكَ الصُّورَةِ الشَّوْهَاءِ الَّتِي وَفَدَتْ بِهَا عَلَى حُكُومَاتِ الْأَنْفِصَالِ وَالتَّبَعِيَّةِ فِي الدِّيَارِ الْعَرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَقَدْ جَعَلَتْ جَمَالَ الدِّينِ الزَّرْقَانِي يَتَنَاوَلُ (قانون العقوبات) بِالذَّرْسِ وَالتَّحْلِيلِ؛ فَيَكْشِفُ عَنِ الْمَبَاءِثِ الْجَنَائِيَّةِ الَّتِي يُقَرَّرُهَا وَفْقَ تِلْكَ الشُّرُوطِ<sup>(١)</sup>.

أَجَلْ كَانَ الرَّافِعِي كَذَلِكَ أَدِيباً مَفَكِّراً، وَإِمَامَ دَعْوَةٍ تَحْمِلُ الْأَدَبَ الْعَرَبِيَّ رِسَالَةً جَدِيدَةً فِي الْإِصْلَاحِ الذَّاتِي، وَالْقِيَامِ الْاجْتِمَاعِيِّ، وَالْإِنْبِعَاطِ بِالسَّمَاتِ الْفِكْرِيَّةِ وَالْإِعْتِقَادِيَّةِ، وَتِلْكَ هِيَ نَهْضَةُ التَّجْدِيدِ، وَعَطَاءُ الْقَوْمِيَّةِ، وَمَجَالُ الْمُعَاصِرَةِ وَالْإِتِّجَاهِ.

وَقَدْ خَلَعَ عَلَى الْكِتَابَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ حُلَلِ الْبَيَانِ الْجَدِيدِ بِإِعَادَةِ إِنْبَاتِ الْكَلِمَةِ الْمُعْجَمِيَّةِ فِي الْعِبَارَةِ الْوَلِيدَةِ، وَالْجُمْلَةِ الَّتِي تَحْفُلُ بِالصِّيَاغَةِ تَقْدِيماً وَتَأْخِيراً فِي مَوْضُوعَاتِهَا وَمَنْصُوبَاتِهَا وَمَجْرُورَاتِهَا أَهْتِمَاماً بِالْمُتَقَدِّمِ، أَوْ التَّزَاماً بِوَقْعِ نَفْسِيٍّ خَاصٍّ يُحَسُّ بِهِ الْمَرْءُ فِي جَوِّ الْعِبَارَةِ وَجَرَسِ الْحَرْفِ. وَيَتَأَلَّفُ الْكِتَابَةُ الْجَدِيدَةُ مِنْ بَعْدُ عَلَى مَعَانِيهَا الْمُبْتَكِرَةِ وَمَا يَحْضُرُ الْعَصْرَ مِنْ مَعَارِفَ وَعُلُومٍ وَمَخْتَرَعَاتٍ، كَأَنَّهُ يُتَّبِعُهَا حَضَارَةُ الْعَرَبِيَّةِ نَفْسِهَا<sup>١</sup>.

أَلَا تَرَاهُ فِي إِيرَادِهِ لِمَعَانِي (الْكَهْرَبَاءِ) وَآثَارِهَا، وَعَجَائِبِ الْمُخْتَرَعَاتِ فِيهَا مَثَلًا، وَالْإِشَارَةَ إِلَى نَظَرِيَّاتٍ تَفْسِيرِهَا، كَيْفَ يَجْعَلُ نَظَرِيَّةَ (السَّيْلِ الْإِلِكْتُرُونِيِّ) بَعْضَ مَعَانِي وَصْفِهِ فِي رِسَائِلِ الْأَحْزَانِ، فَيَقُولُ مِنْ ثَمَّ<sup>(٢)</sup>:

(١) الرسالة — ١٣٢ — ٧ شعبان ١٣٥٤ هـ

(٢) رسائل الأحزان — ٥٣



سَيَّالَةُ الْأَعْطَافِ أَيْنَ تَرَنَّنَتْ تُطْلِقُ لَكَهْرَبَةِ الْهَوَى سَيَّالَهَا  
أَوْ أَخَذِهِ لِتَفَّاحَةٍ « نيوتن » وكتابه رسالة أخرى في الجاذبية يقول  
فيها :

« ما الوجود إلا أنسياب قوى المادّة بعضها في بعض، وفي هوائك  
تنساب القوى من روحك في روعي. فالأصل الذي بُنيَ عليه الكون  
في منافعِهِ بَنِيَتْ أَنْتِ عَلَيْهِ محاسنك كأنما هو يَعْرِضُ قَوَائِنُهُ التي  
لا تُحَسُّ ولا تُرَى في صورة منك تُحَسُّ وتُرى، وتزيدُ على الرؤية  
أنها آخرُ حدودِ العشق، وعلى العشق أنها أولُ حدودِ العبادة »<sup>(١)</sup>.  
وَيَمْتَدُّ الى علم تكوين الأجنة «Embryology» يُديرُ عليه تفسير  
آية<sup>(٢)</sup>.

أَوْ يَلْتَفِتُ إِلَى الكيمياءِ يَسْتَجْلِي المَرْجَ فيها لاستخراج صِفَةِ إلهية  
في النبي ﷺ<sup>(٣)</sup>.

وقد يَعُودُ الى الذرّة فيَجِدُها في قَلْبِ كُلِّ إنسانٍ معنى من الأزل ؛  
لأنّه كان ذرّة في يدِ الله، يَبْدَأُ أَنْ هذه الذرّة تُمَحَنُ في بعض الناس  
أنواعاً من المِحْنِ، فتُصِيبُ مِثْقَالَ ذرّةٍ من حَسَنَةٍ من رَجُلٍ حَقِيرٍ،  
وتَزِيدُ في بعضِ الناسِ وتُتَفَخُّ فإذا هي في وَزْنِ الجبلِ الراسخِ بأعضادهِ  
المُتَرامي بنواحيهِ<sup>(٤)</sup>.

وهناك معاني من فنون الوصفِ والعَزَلِ والنَّسِيبِ يَسْتَأْثِرُ بها الشعرُ

(١) أوراق الورد — ١٠٧

(٢) إعجاز القرآن — ٢٢١

(٣) الرسالة ٩٣ — ١٣٥٥ هـ — راجع الكتاب النبوي، المائل للطبع

(٤) إعجاز القرآن — ٢٢١.

عاطفةً ووجداناً ويألفها فيه الغناء، وتُحَلَّقُ بها الأنغام أو تنفردُ بها الأوزان والألحان، ولكنَّ الرافعي استطاع أن يجعلَ للنثر أيضاً تلكَ المكرَّمة، ويخلعَ على الكتابة من فيضِ إلهامِهِ وذَوْبِ عاطفَتِهِ وأثناءِ ذكائِهِ حُللاً جديدةً يرفُلُ فيها، ويسْتَرْسِلُ مع الشعرِ في الوجدان الإنساني.

وهي صفحاتٌ وفقرات، وجملٌ وعبارات إن فاتها التَّنْغِيمُ واللَّحْنُ، ولم تَرْتَفَعْ به العَقَائِرُ فَإِنَّ لَهَا مِنَ الْوَزْنِ ما يجعلُ للقراءة فناً من التأملِ والاستغراقِ لا تَنِيَمُ تمامُها إلا بهما، فلا يَسْتَطِيعُ المرءُ أن يُضِيفَ كلمةً أو يَخْتَرِمَ أخرى في جملةٍ مما يَكْتُبُهُ في تلكَ الشُّؤُونِ<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

من هنا كانَ لَهُ ذلكَ المرمى البعيدُ في دراسةِ عُلُومِ العربيَّةِ مُجَدِّداً، وجَعَلَ قواعدها أَقْرَبَ إلى الواقعِ الحقِّ والعَدْلِ، والالتزامِ بالقرآنِ ونَظْمِهِ، وجَعَلَ آيَاتِهِ شواهدَ لَتَثْبِيَتِ تلكَ القواعدِ، والابتعادِ عن مُحاولاتِ الأقدمين الذين يَسْعَوْنَ وراءَ الشذوذِ، ويَتَلَقَّفُونَ شواهدَ مُخترعةٍ من أفواه رواة.

وقد دارَ مرَّةً مع عُلماءِ النحو دَوْرَةً رأى فيها أقوالَهُمْ ساقِطَةً، وقاعدَتَهُمْ مُنْهَارَةً « وأنَّ أساسَ رَفْعِ جوابِ الشرطِ مع شرطِهِ الماضي — الذي بُنِيَ عَلَيْهِ قاعِدَةٌ مِنَ السَّماعِ المجهولِ القائلِ، لم يَأْتِ بِهِ أَحَدٌ، وأنَّ الأَصْلَ الصحيح — الذي هو القرآنُ الكريم — يَنكُرُ هذِهِ القاعِدةَ، فلم يَأْتِ بِهَا مرَّةً واحدةً »<sup>(٢)</sup>.

(١) يوسف حنا الضياء — ٢٠ يناير ١٩٣١ م

(٢) المقتطف — فبراير ١٩٣٣ م

ورأى أن عِلْمَ المنطق كِعِلْمِ البلاغة، لا فائدة في كِلَيْهِمَا لِمَنْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُونَ مَنْطِقِيًّا أَوْ بَلِيغًا بِدَرْسِهِ وَبَحْثِهِ<sup>(١)</sup> وكذلك كان رأيه في مخترعات الأعاجم من مُصْطَلَحَاتِ البلاغة.

ولعلَّ من أغربِ مذاهبه في تفسيرِ بَعْضِ أوضاعِ الأدب والشعر، هو ذلك المذهب الفِطْرِيُّ الفريد الذي قالَ به حين عَرَضَ لسقوطِ الشعرِ واضطرابه في العصور المتأخرة :

« إِذَا عَرَفْتَ السِّرَّ فِي ذَلِكَ لَمْ تَرَ غَرِيباً مَا هُوَ غَرِيبٌ فِي نَفْسِهِ، مِنْ أَنَّ بَدْءَ النِّهْضَةِ الْحَدِيثَةِ لَمْ يَكُنِ الْعِلْمُ الَّذِي يُصَحِّحُ الرَّأْيَ، وَلَا الْإِطْلَاعُ الَّذِي يُؤْتِي الْفِكْرَ، وَلَا الْحَضَارَةُ الَّتِي تَهْدُبُ الشُّعُورَ، وَلَا نِظَامَ الْحُكْمِ الَّذِي يُحْدِثُ الْأَخْلَاقَ، وَإِنَّمَا كَانَ ضَرْباً مِنَ الْجَهْلِ وَقَفَّ حَدّاً مَنِيْعاً بَيْنَ زَمَنِ فَنُونِ الْبَلَاغَةِ وَبَيْنَ زَمَانِنَا ! »

قال : « وَلِلَّهِ أَسْرَارٌ عَجِيبَةٌ فِي تَقْلِيْبِ الْأُمُورِ وَخَلْقِ الْأَحْدَاثِ، وَرَفَعِ الْحَيَاةَ الْفِكْرِيَّةَ مِنْ نَمَطٍ إِلَى نَمَطٍ<sup>(٢)</sup> ».

وكان قد عَدَّ ذلك في البارودي خَرَقاً أَحَدَثَ الْإِنْقِلَابَ فِي تَارِيخِ الشُّعْرِ الْعَرَبِيِّ، وَأَنْشَأَ الذُّوقَ الْجَدِيدَ، إِذْ حَسِبَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ مِنْ عُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ، وَفَنُونِ الْبَلَاغَةِ شَيْئاً، وَلَكِنَّهُ تَخَرَّجَ فِي دَوَاوِينِ الْعَرَبِ، وَجَعَلَ الْجَهْدَ وَقُوَّةَ الْكَسْبِ اسْتِعَاضَةً عَنِ الْمَوَاهِبِ الْوَرَاثِيَّةِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى امْتِلَاقِ نَاصِيَةِ الْأَدَبِ<sup>(٣)</sup>.

(١) رسائل الرافعي — ٤٠

(٢) وحي القلم — ٣ — ٣٢٢

(٣) رسائل الرافعي — ٣٦

وهو نفسه كان يَعْتَدُّ بتلك الموروثات فيه، بما ادّعاه من الرُّجولة والضمير والدم الكريم، « وقد اجْتَمَعَ في تاريخه إنسانٌ بَلَغَ الزَّمنَ، وإن تاريخه كله لَيَنْتَفِضُنْ لَأَنَّهُ مُصِيبَةٌ ملكيّة مصوّرة في ملك »<sup>(١)</sup>.

وأمام دعوتِهِ هاتيك، ومذهبه هذا اتَّخَذَ في الابتكارِ بالمعاني والفنون بعضَ وسائلِهِ للتجديد، كما جَعَلَ للتوليدِ وتركيبِ الخيال، والبُعْدِ في سُمُو الأدبِ وعطاءِ الفكرِ سبيلَهُ وَسِمَةَ أسلوبِهِ الأولى، حتّى لم يُكُنْ يُعَدُّ الأديبَ ما لم تكنْ له أوضاعٌ في اللّغة والأدب.

هكذا كان صاحبَ عطاءٍ مثاليٍّ ؛ يُؤَثِّرُ في الأدبِ والفكر، ويُؤَتِّمُ بهِ في الإنشاءِ والتعبيرِ والأداء، ويشارُ إليه في التأليفِ والتصنيف، ويُتَفَتَّ إلى أوضاعِهِ في النقدِ والموازنة، مما لم يُنَسَجْ على طرازِ سابقٍ، ولم يخرجْ على أوضاعِ العَرَبِ ومذاهبِهِم، وإنما حافظَ عليها بفقهِ لعلومِهِم، ووقوفٍ على أسرارِها.

قال محبُّ الدين الخطيب :

« إِنَّ الْأَدَبَ بِمَعْنَاهُ الْجَدِّي لَا يُمَثِّلُهُ إِلَّا الرَّافِعِي، وَلَكَمْ أَخْرَجَ لِلنَّاسِ مِنْ مُرَلِّفَاتِهِ وَمَكُونَاتِ أَدَبِهِ مَا مَلَأَ نَفُوسَهُمْ حِكْمَةً وَجَلَالاً، وَعَوَاطِفَهُمْ رِقَّةً وَجَمَالاً، وَأَسْلُوبَهُمْ رَوْعَةً وَبَهَاءً.

إِنَّ الْجُمْهُورَ الشَّاعِرَ مِنَ الْأَدْبَاءِ مَدِينُونَ لِلرَّافِعِي بِالزُّعَامَةِ الْأَدَبِيَّةِ، وَيُرَوْنَهُ كَنْزاً لِلْعَرَبِيَّةِ ثَمِيناً، وَبَحْراً بِالْحِكْمَةِ فَيَاضاً »<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

(١) رسائل الأحزان — ١٦

(٢) الفتح — ٧٥ — ٢١ جمادى الآخرة ١٣٤٦ هـ

## المبحث الخامس

### ما يؤخذ عليه ملاحظات ومفارقات

لقد مررنا شيئاً من نقد فنون من أدب الرافعي، والتنبيه على ما أخذ وفوتات لم يلتفت إليها، وما أشار إليها ناقدوه الكثر، ومن كانوا في نقودهم يُعنون بأشياء غير ذات موضوع، من الشكليات ونحوها، أو هم يُصدرون أحكامهم كُليةً ؛ يُعوزها الكثير من « الحثيات » أو هم يهتمون لجزئيات قليلة قد لا تعني شيئاً موضوعياً.

وإن ما يؤخذ على الرافعي في تراثه الأدبي والفكري قد يظهر في جوانب ثلاثة ؛ من حيث الفكرة والمنهاج، ومن حيث اللغة والأسلوب، ومن حيث الموضوعات التي كتب فيها.

ذلك أن انتظام أعماله الأدبية والفكرية لم يكن بالمستوى المراد له، إذ لو انتظمت هذه الأعمال، ووفيت حقها من الإبانة والقصد، لصار له في آياته البيانية خاصة خير ما كان يؤمل من أهداف قومية، وغايات سامية، ولربما انسحب أثرها على معاصريه بشكل ما، فلا تبقى في دائرة محبيه وتلامذته حسباً !.

وعلى الرغم من أن حياته الخاصة في الأسرة كانت مثالية، فإن الوظيفة — وسيلة عيشه — لم تكن بالمنزلة اللاتقة لمثله، وكذلك القلق الحاد الذي كان يبتأه أحياناً في نوبات تعتريه من ضيق مما حوله، أو حساسية نفسية يستفزها فيه نقد لا يخلو من ضغينة أو إيذاء، أو حسد لا يُعَدُّ التجريح<sup>(١)</sup>، أو إثارة من تلامذته الأذنين لمنازلة هذا والرد على ذلك<sup>(٢)</sup>؛ فقد كان لا يكاد يهدأ من ثائرة حتى يُغري بأخرى، أو تلقى أمامه، فتفوت عليه الوقت والقصد في العطاء الفكري والإثمار الفكري الذي يتوخاه، فتشعلهُ فيما لا طائل وراءه.

### الفكرة والمنهاج

ومن ذلك ابتلاؤه نفسه بمشروعات جمّة في موضوعات الأدب والتاريخ والتفسير، لم يُنجز منها ما كان يُنتظر منه خاصة، أو كما قال: «إنه يعتسف نفسه يبتغي عمل الأعمار في عمر»<sup>(٣)</sup> ولا هو أتم بعضها الآخر.

ولعل كتابه في «طبقات الشعراء والكتاب المعاصرين» هو أول تلك المشروعات. وكانت فكرته قد عرّضت له بعد مقالة صغيرة في الشعر نشرتها «الثريا»<sup>(٤)</sup> ثم أتبعها من بعد بمقالة نقدية في «شعراء العصر» وزعمهم فيها درجات<sup>(٥)</sup> وأتبعها بأخرى بعدما أثارت زوبعة من

(١) راجع كتابنا (الرافعي الناقد الأديب) المائل للطبع.

(٢) العريان — حياة الرافعي — ١٢٠، محمود أبو رية — رسالته في ٢١ سبتمبر ١٩٣١ م

(٣) رسائل الأحران — ١٧.

(٤) الثريا — ٦ — ١٩٠٤ م

(٥) الثريا — ٩ يناير ١٩٠٥ م

الآراء، ورُدوداً تختلِفُ بوجهاتِ النظر<sup>(١)</sup>، ولكنها تأخذُ بقاعدةِ (الطبقات) التي أدارَ من حولها ذلكَ الحديث.

وعاد بعد ذلك بسنواتٍ فَنَبَّهَ عليه في «حديث القمر» ورسمَ منهاجَهُ فيه<sup>(٢)</sup>.

وأحسبُهُ قد هَمَّ غيرَ مرَّةٍ بإعدادِهِ، ومنها تلكَ المحاولة التي كَتَبَ فيها ما يشبهُ المقدمةَ «في الشعر»<sup>(٣)</sup> ولكنه لأمرٍ ما عادَ فقطعها وضمَّنها بعضَ «رسائل الأحران»<sup>(٤)</sup>.

\* \* \*

وقد كَتَبَ الرافي بعد ذلك في الشعرِ والشعراءِ دراساتٍ ونُقوداً وتقاريطَ تؤلَّفُ مادةً ذلكَ الكتابَ بصورةٍ ما؛ إذ عَرَضَ فيها لمسائلَ وقضايا خطيرة، وما ضمَّنها من مقالاتٍ وأحاديثَ ذاتِ شأنٍ؛ أرسلها على مدى عُمُرِهِ؛ وقد ضَمَّ بعضُها إلى «وحي القلم» وما يزالُ قِسْمٌ آخر في مكانِهِ من الصحف — وفيه من الرُّدودِ والمُطارحاتِ الشيءُ غيرُ القليل.

وقد اجتمعَ لديَّ معظمُها، ورأيتُ أن أُعِدَّها جميعاً لتؤلَّفَ الكتابُ، ولتكونَ جزءاً خاصاً من «وحي القلم» نفسه.

(١) الثريا — ١٠ يناير ١٩٠٥ م

(٢) حديث القمر — ٥٣.

(٣) المضمار — يوليو/تموز ١٩٢١ م

(٤) رسائل الأحران — ٨٩ وما بعدها.

أما مشروع كتابه الجليل « تاريخ آداب العرب » الذي كان قد أعدَّ له منهاجاً حافلاً ؛ ورثبه على اثني عشر باباً وقال : إنه قد يجيء في خمسة أجزاء — غير الفصول والمُلحقات، وغير الإثبات والشواهد والمراجع.

لكنه لم يخرج منه غير الجزئين الأولين ؛ في اللغة والرواية، وفي تاريخ القرآن والبلاغة النبوية — باعتبارهما الأدبي. فقد كان يطمح أن ينال مكانته في الجامعة وكتابه معاً، فحيل بينه وبين مطمحِه هذا بسبب زعموه من سَمْعِه. ليُبْعِدُوا المنهاج القومي عن الجامعة، بإثارة صنيعة ذوي المصالح (الخاصة) لصنيعتهم الشيخ طه حسين لتقدير الكتاب، واتهام أسلوبه.. وهكذا فاتت الطلبة الإفادة من نهجِه العربي الأصيل وقيمتِه العلميّة.

كان على الرافي — وهو في ثباتِه الاعتقادي المعروف — أن يَمْضِي قُدْماً في هذا الشأن فيقدّم للأجيال الكتاب بتامّ أجزائِه الباقية ؛ وليثبت وجوده العلمي أمام المفتريات، ومن يُستعان بهم من المُستشرقين. ثم لينصرف بعد ذلك الى موضوعات الإنشاء والجمال التي كلف بها في تربية الأُمّة وإعدادها، وميادين التقدير والمعارك والأحاييل التي كانت تجرُّه إليها مُدافعاً عن الاعتقاد القومي وتُراثِ الأُمّة — بعيداً عن ذلك الهدف النبيل في إعداد الدراسات المنهجية المتكاملة في تاريخ الآداب.

لكنه فترت به الهمة، وربما اطرَحَ البحث جانباً، ليُعالج ما تقدّم، ﴿وما جعل الله لرجلٍ من قَلِيلٍ في جَوْفِهِ﴾ — الآية<sup>(١)</sup>. وعوّقته هموم

(١) سورة الأحزاب الآية ٤.



الأهل والولد، والصحة غير المُعافاة، وأيام الحرب، فما ترك من الأجزاء الباقيات غير فصول وقصصات جَمَعَهَا سعيد العريان في جزء ثالث للشعر وفنونه وللخطابة وللتأليف عند العرب، وقد افتقد فيه أبواباً برُمَتها، كانت لها إشارات في أوراق وجذازات لم يَسْتَطِع العريان أن يجمع لها مادتها فَيَتِمَّ بهِ تمامها<sup>(١)</sup>.

وقد ذَكَرَ غير مرّةٍ لاستئناف العمل فيه، وأن يُعيدَ طبع الجزء الأول منه — ولا سيما بعد انتشار الجزء الثاني باسمه المعروف «إعجاز القرآن»<sup>(٢)</sup> وأن يُضيف إليه ما استجد له من مادة ونقد، ولو في هوامش وأمثال يُجَرِّبها مع فصوله وأبوابه<sup>(٣)</sup>.

لكن نَسَخَتُهُ الخاصّة — التي يمكن أن يكون قد أجرى فيها شيئاً من ذلك — لم نَقِفْ عليها، وربما راحت مع مأساة مكتبته !

\* \* \*

أمّا كتابُ البلاغة العربية الذي دَعاه «أسرار الإعجاز» فقد ذَهَبَتْ صِفَتُهُ بعيداً في الآمال والأحلام، إذ كان يعتدُّ به اعتداداً كبيراً، ولا يَفْتَأُ يتحدّث في موضوعه لكلِّ مَنْ يلقاه<sup>(٤)</sup> وكأنّه الشَّغْلُ الشاغل !

(١) أنظر مقدمة العريان — ٣

(٢) طبع ثانية وثالثة في حياته.

(٣) رسائل الرافعي — ١٩٣، وفي رسائل «ماري بني» إلحاح عليه للمضي فيه وإخراج أجزاءه الباقيات.

(٤) حدثني بذلك محمد بهجة الأثري وحسين مخلوف ومحمود شاكر.

وقد وَرَدَتِ الإشارةُ إليه في هوامِش تاريخ القرآن<sup>(١)</sup>، وفي رسائله الى الشيخ أبي رية<sup>(٢)</sup>، كما اطلع عليه تلميذه الأثير محمود محمد شاكر، وتحدث سعيد العريان عن نسقه في منهاجه وتأليفه وقال : إِنَّهُ يُرَدُّ البلاغة إلى أصول غير التي اصطلحَ عليها علماءها منذُ كانت !. ثم يتحدث عن بلاغة القرآن، ويُفسر في القسم الثالث منه آيات القرآن الحكيم بأسلوب جديد يُنفردُ فيه بمنهاجه البلاغي الجديد<sup>(٣)</sup>.

أقول : إنَّ أصولَ هذا الكتاب لم تَبَقَ في دارِ كتبه، ولم أَقِفْ عليها فيما بقي من أوراقه، ولا في مخلفات العريانِ نفسه، ولا أَحَدٌ مِمَّنْ لاقِيتُ يَعْرِفُ شيئاً عنه، فواضِئته !.

وكذلك ديوانُ شعره، وقد كان من أَسْبَقِ الشعراء الى نَشْرِ ديوانِ له ؛ إذ طَبَعَ منه ثلاثة أجزاء، ثم جُزَّأَ رابعاً سَمَّاهُ ( النظرات ) وجَهَّزَ لها جُزْأً آخر — ولأمرٍ ما انصرف عن طبعه ونَشِروا.

وقد هَمَّ غير مرَّةٍ أَنْ يُعيدَ طبعَ الديوانِ كاملاً بَعْدَ نَحْلِهِ وتهذيبه<sup>(٤)</sup> ولكنني لم أَقِفْ على مَلَفٍ لذلك، ولا هو تركَ ملاحظاتِه على نُسخةٍ خاصة ربما أُجرى قَلَمُهُ في صفحاتها، ولا رأيتُ النَّظراتِ الثاني وما عرفتُ أينَ بقايا شعره وديوانه !.

ولكنني أَسْتَطِيعُ الزَّعمَ بأنِّي أعدَدْتُ منها ما يأخذُ طريقةَ الى حياةٍ

(١) إعجاز القرآن.

(٢) رسائل الرافي — ٢١٤، ٢٢٢، ٢٢٤... الخ.

(٣) حياة الرافي — ٢٨٩

(٤) العريان — رسالة — ٦٤.

النشر، وحسبي أن أذكر فيها ديوان النظرات الكامل، وأغاريد الرافعي،  
والفؤاديات وديوان الرافعي المنتقى.

\* \* \*

### ملاحظات نوعية

ومما يؤخذ عليه في مؤلفاته ما كان يمكن أن يتداركه بطبعات  
تاليات، أو يتخذ له نسخة أو ملفاً يضع عليها ما يشاء من إضافة  
وبسط، أو تعديل وتبديل من علمه الغزير وفنه الأثير، ولكنه كان  
كثير الإرجاء<sup>(١)</sup> لما يجب أن يعجل به.

فقد أحس بأن « حديث القمر » يحتاج إلى زيادة بسط، وإلى إعادة  
كتابة في بعض فصوله وجوانبه<sup>(٢)</sup> ولكنه لم يف بما وعد حتى في  
الطبعة الثالثة التي صدرت في حياته<sup>(٣)</sup>.

وفي « تاريخ آداب العرب » كان يُعوزُه إيراد الأمثلة والإيفاء بالشواهد  
التي تحفل بأحكامه، وتُشرق في جوانبه، وتروّح القارئ العربي من  
المراجعة المضنية والتتبع، ولكي لا يبقى كالمتمن في بعض فصوله  
وأبوابه.

\* \* \*

(١) رسائل الرافعي — ٨٤

(٢) رسائل الرافعي — ١٠٤

(٣) عام ١٣٤٦ هـ — ١٩٢٨ م

وكذلك إيرادُه لمباحث في العلوم الطبيعية — أدارها من حول العرب خاصة<sup>(١)</sup> كانت بها حاجة إلى إسنادها إلى مصادرها من المكتشفات، إن لم يتسّر له تقاريرها باعتباره قليل الرجوع إلى اللغات الحديثة<sup>(٢)</sup>.

على أن محاولته إخراج مباحث «الإعجاز» إلى العلوم والمخترعات الحديثة المتغيرة نظرياً وعلمياً، فيها مخاطرة: لأن هذه العلوم غير مُستقرّة النتائج، وما تزال في المختبرات والأجهزة، وهي تناوب عليها في تفسيرات قلما تقطع برأي أو تصيب قانوناً ماثلاً.

وقد تفتح مثل هذه المغامرة الباب لمن هم أقلّ علماً وأدنى فهماً، فيلجئون منه، وقد يتخبطون في مباحث الآيات؛ يحملون عليها نظريات وافتراسات تردّ مع آراء مما يتفق للأيام<sup>(٣)</sup>. فيتردّي ذلك بمجازفة إلى الخلط والخطأ<sup>(٤)</sup>، والكتاب الكريم أنزه من أن تُعرض آيته البيّنات إلى مثل هذه المدارات أو المثارات.

ومن ذلك محاولته إقحام إحدى نظريات التخليق — علم تكوين الأجنة وتخلّق الطبقات بعد الإخصاب «Embryology» في تفسيره لآية الخلق مثلاً<sup>(٥)</sup> إذ يبدؤ وكأنه يخاطر في غير موضوعه؛ لأنّ التوفيق فيها مع نظريات علمية قاصرة حتى الآن عن تفسير أسرار التخليق الحيوي، وقد تبدّلت وعدّل فيها خمس مرّات خلال السنين الأخيرة<sup>(٦)</sup>. ولعلّ ذلك من أسرار الخلق الإلهي التي لم يُطلع عليها

(١) أنظر تاريخ آداب العرب ج ١ — ٧٢، وراجع المقتطف — فبراير ١٩١٢ م.

(٢) كما وقع لأحدهم في دعوى أن الأرض لا تدور!!

(٣) أنظر تاريخ آداب العرب ج ٢ — ٢٨٣

(٤) مجلة العلوم — بيروت — يناير/كانون الثاني ١٩٥٧ م

أحداً من العالمين. ولو أطلعهم عليها لكانت نظرياتهم أحكاماً كالقوانين الثابتة في الكون، ولا تتفنى عندئذ التفسير نفسه.

ويؤخذ عليه أيضاً مداره لمباحث القرآن باعتباره التاريخي والبياني، من حول ما دَعَاهُ الأقدمون بالإعجاز، وفي موضوعاتهم نفسها — وإن جُلِّيَ فيها وكشِفَ عن كثيرٍ ممَّا أنبَهَمَ على مَنْ كتبوا في تلك المباحث، كالباقلائي والجرجاني والجلال السيوطي<sup>(١)</sup>، أو فاتهم أن يُلمّوا بها، وإنما مُتَابَعَتُهُ لَهُمْ فِي حُسْبَانِ ذَلِكَ «إِعْجَازاً» أريدَ به مُنَاجَزَةُ الْكُفْرِ وإِعْجَازُهُ، وقد انتهت في الجزيرة، وإن اعتبره هذا مُصْطَلَحاً ثابتاً مما يُلامُّ عليه، ولا سيّما بعد أن أضحى القرآن «آياتٍ بيّنات» عند العرب، و«تَنَزَّلَ مِنْهُمْ مَنْزِلَةُ الْفُطْرَةِ الْغَالِبَةِ الَّتِي تَسْتَبِدُّ بِالتَّكْوِينِ الْعَقْلِيِّ» — على حَدِّ تعبيره هو<sup>(٢)</sup>.

قد تَبَدُّوْا تِلْكَ الْمُتَابَعَةَ التَّزَاماً لَا مُوجِبَ لَهُ مَعَ التُّرَاثِ، وَقَدْ اتَّفَقَ لَهُ مِنَ الْكَشْفِ عَنْ أَسْرَارِ الْبَيَانِ وَمَعَانِي فِي آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ، وَنَظْمِهِ وَجُمْلَتِهِ وَخُرُوفِهِ لَمْ يَقِفْ عَلَى مِثْلِهَا سَابِقُوهُ، وَكَانَ مِثَالُ الْأَنْبُعَاتِ فِي النَّهْوِضِ بِالدراساتِ الْقُرْآنِيَةِ وَالتُّرَاثِيَةِ.

وهذه الناحية هي التي حَامَ حولها عَبَّاسُ الْعَقَادِ فَلَمْ يَفْلَحْ فِي إِيفَائِهَا حَقّاً فِي نَقْدِهِ<sup>(٣)</sup>، وَلَا هُوَ أَصَابَ فِيهَا سَهْماً بِتَأْلِيْفِهِ بَعْدَ ذَلِكَ بِسَنِينَ<sup>(٤)</sup>، إِذْ ذَهَبَ — كَعَادَتِهِ فِي الْمَرَاجَعَةِ وَالتَّرْجُمَةِ — بَعِيداً يَنْقُلُ عَنِ الْمَعْلَمَةِ

(١) عبد الكريم الخطيب — اعجاز القرآن ج ١ — ٢٨٣.

(٢) البيان ١٠ — جمادى الأول ١٣٣٠ هـ — الجنسية العربية في القرآن.

(٣) البلاغ — ٣ ديسمبر/كانون الأول ١٩٢٦ م

(٤) أنظر في كتابه (الفلسفة القرآنية).

البريطانية كلاماً في المُعْجَزَةِ للفيلسوف اليهودي داود حاييم « ديفيد هيوم » ويعرّف الإعجاز كذلك، ليقول: إنّ المؤلفين القدامى الذين تابّعهم الرافعي في التأليف لم يُدركوا ما أدركه (الفكر الحديث) في الموضوع.!!

\* \* \*

ومما يُؤخَذُ عليه أيضاً ذهابه في نقدِهِ بعيداً بعضَ الأحيان، الى دَرَجَةِ القُسُوةِ في الحُكْمِ — لا على مُجادليهِ فحسب، وإنّما على موضوعاتٍ في التراثِ العربيّ نفسِهِ، مثل قوله: في تماسكِ الشعرِ العربي، واتّهامِهِ الشعراءَ العربَ بالعِنايةِ بالجزئيات، وإبعادِ النُّظَرِ الشاملةِ التي تهَيُّ للشاعرِ ما دَعاه بالجمهور الشعري، حتّى قال: «ومن ذلك يَنْبُغُ الشاعرَ وَلَيْسَ فِيهِ من الإحساسِ إلّا قدرُ نفسه»..<sup>(١)</sup>

وقد رَدَّ الدسوقي عليه حُكْمَهُ هذا، واستنكَرَ صدورَهُ عنه<sup>(٢)</sup> مع شدّةِ إعجابِ الدسوقي بِهِ وأخلِدهُ بمعظم آرائِهِ، والتَّنْوِيهِ بِفَضْلِهِ بِمناسباتٍ عديدة<sup>(٣)</sup>.

ولعلّ هذه الاندفاعَة وأمثالها من الرافعي كانت تتأتّى لَهُ من مؤثرين: أولهما: أنّه لم يحظَ مُؤَلَّفٌ في زمانِهِ بتقريظٍ مُصنَّفَاتِهِ ومؤلَّفَاتِهِ

(١) وحي القلم ٣ — ٣٠٠

(٢) النابغة الذبياني ٤٠ في الأدب الحديث ٢ — ٢٣٨

(٣) للدسوقي دراسات في أدب الرافعي، ولو تهياً لها أن تجمع في كتاب لكانت من أحفل الدراسات في موضوع.

والثناء عليها كما حظي هو بالقسط الأوفى من ذلك. وقلما وقفنا على نقاطٍ مُتَزَنَةٍ لِمُنْتَقِدِيهِ ؛ إذ يُلَوِّحُ الحَسَدُ والصُّبْغَةُ والافتراء، والالتواء في القَصْدِ في السطورِ الأولى من نُقُودِهِمْ، فَتَحْجِبُ ما قد يكون فيه قَصْدٌ علميٌّ في التَّقْدِيرِ أو التعقيب.

وربّما كان هذا هو الذي جَعَلَهُ يجتازُ مرحلةَ المناقشةِ وأسلوبها العلميِّ إلى شِدَّةِ الوَطْأَةِ على أولئك المُنتَقِدِينَ، وإلى الاعتدالِ الذي يدعُو إلى الإشفاقِ أحياناً، ويُفَوِّتُ على المنهاجِ العلميِّ الأثير الذي يَتَحَلَّى بهِ أسلوبُهُ وإِثْمَارُهُ في التأليفِ — شَرَفَ المراجعةِ والامتنياز في إعادةِ النظر ؛ بحيثُ تعودُ فصولُ الموضوعاتِ تُشْرِقُ من جديدٍ بطيبِ الفِكْرِ ووضوحِ القَصْدِ، ونُضْجِ الرأي، والغايةِ المرتجاةِ.

وثانيهما : محاولةُ إبعادِ تُهْمَةِ القِدَمِ عنه — تلكَ التي ألصَقَها بهِ مناوئُوهُ ؛ فهو — من حيثُ لا يَشْعُرُ — يُجَارِيهِمْ في بَعْضِ أَحْكَامِهِم المُرْتَعَلَةِ والمَقْلَدَةِ، حتّى لِيبدوَ في مثلِ موقفِهِ هذا غَيْرَ متماسِكٍ، ولا يَحْفَظُ توازَنَهُ — وهو يُصْدِرُ مثلَ هذا الحُكْمِ على الشعرِ العربي، ويُشَكِّلُ تناقضاً واضحاً مع ما كانَ أوردَهُ في تاريخِهِ<sup>(١)</sup>.

### الإغراق

ومِمَّا يُؤْخَذُ عليه إغراقُه قارئَهُ في خِصْمٍ من معانيهِ لا يَرى لَهُ ساجِلاً، كقولهِ :

« أَنْتِ مَمزُوجَةٌ بِآلامِي، وَآلامِي مِنْكَ هِيَ أَشْوَاقِي، وَأَشْوَاقِي إِلَيْكَ »

(١) تاريخ أدب العرب ج ٣ — ب ٥

في أفكارِي، وأفكارِي فيكَ هي معانيكَ في نفسي، ومعانيكَ هي الحب !  
ولكنَّ ما هو الحبُّ إلا أن يكون آلامي وأشواقِي وأفكارِي ومعانيكَ  
في نفسي ١٩»<sup>(١)</sup>

إنَّه يَجْعَلُ للتوليدِ الذي وَفَّقَ فيه تَوْفِيقاً لا مَثِيلَ لَهُ — استطراداً  
واندفاعاً.. حتَّى يعودَ فيجْمَعُ تلكَ المعاني في نوعٍ مُقَابِلَةٍ دونَها ما  
عُرفَ في البلاغةِ من المُقَابِلَةِ والتشبيهِ البليغِ.

ومثْلَ قولِهِ : « لو رأيْتَنِي وأنا أَتْلُو رسائِلَكَ لرأيْتِ أُنْكَ لا تَكْتُبِينَ  
لي كلاماً بل تَزْرَعِينَ في الْوَرَقِ زَهْرَ أَنْفاسِكَ، فيأتيني فأَقْرؤُهُ ؛ أي  
أَقْطِفُهُ، وبهذهِ الطَّرِيقَةِ أَكْتُبُ كَلِمَاتِي ؛ أي أَرْزَعُ تَنْهَدَاتِي يا  
حَبِيبَتِي »<sup>(٢)</sup>.

وقد يتركُ القارئُ في خَيْرَةٍ من أَمْرِه أحياناً، في مثْلَ قولِهِ —  
وقد أَهْدَتْ إِلَيْهِ رَسْمَهَا :

« .. لَكِدْتُ وَاللَّهِ يَا حَبِيبَتِي أَتَخَيَّلُ هَذَا الرِّقَّ الْمَوْضُوعَ أَمَامِي يَبْرُقُ  
بصورتِكَ، وَيُشْرِقُ بِوَجْهِكَ — نافذةً سَعْرِيَّةً فَتَحَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ عَالَمِ  
الْجَمَالِ الْأَزَلِيِّ ؛ فَأُطْلُ فِيهِ وَجْهَ حَوْرَاءَ من حُورِ الْجَنَّةِ يَنْظُرُ إِلَيَّ وَأَنْظُرُ  
إِلَيْهِ، يَحْمِلُهُ جِسْمٌ نُحَلِّقُ لِيَكُونَ فِتْنَةً لِلْجَنَّةِ ذَاتِهَا، وَكَأَنَّهُ بِجَمَالِهِ وَمَعَانِيهِ  
حَقَائِقُ ذَلِكَ النَّعِيمِ جَاءَتْ تَتَرَجَّمُ لَذَّةَ الْخُلُودِ لِلنَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ فِي بَلَاغَةِ  
صُورَةٍ اخْتَارُوا لَهَا رَسْمَكَ أَنْتِ »<sup>(٣)</sup>.

(١) أوراق الورد — ١٢٧

(٢) أوراق الورد — ١٣٧

(٣) أوراق الورد — ٣٧



ولا أدري بعد، هل يُريد أن يُعيدها الى الجَنَّةِ — وقد حاولت  
إخراجَهُ منها ؟ أم أنه يريد أن يفتح نافذة الجنة على الدنيا لإدراكِ  
معاني أخرى للجمال ؟!

وإنه ليقول من ثم : « إني لألَمَحُ فيه — الرسم — سِرّاً عَجيباً  
يكونُ فقدانُ العبارةِ عندهُ هو أبلَغُ من العبارةِ في وصفهِ ؛ إذ لا تتكلمُ  
روعةُ الحسِّ بالجمالِ، ولا هي تنزلُ في صورِ الألفاظِ وإنما تغمرُ على  
القلبِ خافقةٌ تشعُرُ الناظرَ أنَّ رُوحَ المَنظَرِ خامرتِ الروحَ، وأنَّ حياةَ  
الشكلِ انسكبتْ في الحياةِ، وأنَّ المعنى الغامِضَ في السِرِّ قد اتَّصلَ  
بالمعنى الغامِضِ في النفسِ ».

وبمثل هذا السِرِّ الذي يطالعني من جمالِ وجهك أصبحَ الجمالُ  
على الحقيقةِ، هو عِلْمُ أفراحِ النفسِ وأحزانها<sup>(١)</sup>.

يقولُ أنيسُ المقدسي : « إِنَّ المَعْنَى الذي يَقْصُدُ إليه هذا الكلامُ  
جميلٌ، ولكنَّ دونَ الوصولِ إليه حجابٌ<sup>(٢)</sup>. وما أَكثَرَ معانيهِ الطريفةَ  
المَحْتَجِبةِ !.

يُخَيِّلُ إليَّ أن ما غُبِرَ عَنْهُ برُوعةِ الغامِضِ التي تحدَّثَ بخبرِها صديق  
شبيب<sup>(٣)</sup> وحرصَ الرافعي على الإبداعِ كانَ يَسْتَلِهُمُهُ أبدأً أن يُعوِّضَ  
عَمَّا يَجْتَلِيهِ من ذلك الحُسْنِ هذه المعاني المَهْمُومَاتِ التي تكدُّ الذَّهْنَ،  
وتَبْعَثُ على التأملِ والاسترجاعِ، وقد توجَّعَ القلبُ أحياناً — وإنْ جاءتْ

(١) أوراق الورد — ٣٧

(٢) الفنون الأدبية — ٣٩٥

(٣) البصير — ١٩٢٥/٦/٧ م

بعد ذلك بلدقٍ مُعَرَّبَةٍ، وهي تُترجمُ للنفسِ المُحِبَّةِ خاصَّةً معاني ما وراءها بَعْدُ.

وقد أوردتُ هذه من كتابه «أوراق الورد» لأنه أدقُّ كُتبه الأخرى، وأحراها بالقراءة والتأمل واستغذاب البيان، وما هو من الفكر الأديب.

ولكن ما في ذلك من الإغراق في التوليد والمقابلة والحصر الذي يرجع بالمعنى، أو يتقلب في أطواره والتنفل في مناظيره، ثم إغراء هذا الفن له بالابتعاد عن الاتساق في المعاني التي يريد استعراضها إلى الهدف الذي يرمي إليه منها أحياناً، مما يرهق القارئ إذ يبقى مشدوداً إليه بإدمان القراءة وإعادة العبارة حتى يلقف حبل الاتساق، ولا يتيه دون القصص.

وهو نفسه يقول في ذلك:

«إن البلاغة التي كتبتُ بها رسائلي من قبل، وما احتلتُ لها به وما صوّرتُ من فنونها هي بعينها التي تُنبهني إلى أن جمال المرقع الجميلة ليس في ذاتِ نفسها إلا أسلوباً من الخداع، كالذي يكون في تزويق الكلام وتمويه الحقيقة ببلاغة التراكيب، غير أنه أسلوب حي في لحم ودم! ثم تزيده المرأة بفنونها تزويراً وتسمية لأن جمالها في صورة أخرى من صُورهِ الكثيرة، هو نفسه الرق والاستعباد مُحَبَّباً في خِلقة جميلة، ليطلب ويعشق، استعباداً حي متى بدأ استمر يقوى ولا يضعف، وينمو ولا ينقص».

قال: «ومن هذا كان قيدُ الجمال لا يُفك أبداً إذا غلَّ به أسيره من العشاق، بل يكسر كسراً، ويصبح فيه أمر العاشق من حبيبه كالاستقلال في الأمم المستعبدة، لا يُعطى بل يُؤخذ، ولا بُد فيه

من الجرأة والمُصَابرة والاقتحام، وسلاح من الأسلحة أيها كان؛ إما حاطماً أو مُفزعاً أو مُتهدداً أو محتالاً أو سلاح الرضا أو سلاح الثمن وما إليها..

لا بد من سَطوةٍ يَنْقَلِبُ بها الأَسِيرُ المُسْتَعْبَدُ الى أن يكون مالِكاً بَوَجهٍ من وجوه التملك، في تلك المَنْطَقَةِ الإنسانيّة السحريّة المُسمّاة في لغاتِ الناس بالحبيب<sup>(١)</sup>.

هو يريد أن يَصَوِّرَ كَيْفِيَّةَ صَيْرُورَةِ الإنسانِ الى الحياةِ الكريمةِ التي لا تَتِمُّ عندهُ من غيرِ ولائٍ للذاتِ بالحبِّ الذي يجدُّ فيه سكونَ نَفْسِهِ وشعورهِ بالمسؤوليةِ يَضْمَنُ فيه حريةَ وطنه، وإنه امثالٌ لصوتِ الله في ضميره بالإخلاص لعقيدته، ولكلِّ أولئك وسائلها في كفاخِ الأيامِ ومصابرةِ الأنواءِ، ليكون الفوزُ والنصرُ والشهادةُ من بعدُ آياتِ تلك الحياةِ من الحبِّ والجهادِ والفداء؛

إنَّه يُحْشِدُ طاقاتِ المعانيِ وَصُورَ البيانِ وأمثلةَ الحياةِ ما استطاعَ في هذهِ القِطْعَةِ الجميلةِ.

وعلى الرغم من توفيقهِ الذي لا يُنْأَى في هذا المضمَر، واعتدادهِ بذلك، وَغَمْزِهِ الآخِرِينَ الَّذِينَ يَحَاوِلُونَ تَقْلِيدَهُ فَيَسْقُطُونَ<sup>(٢)</sup> وحرصِهِ على انتظامِ التَّدَاعِيِ الذِّهْنِيِّ الذي يلمحُ على البعدِ، واثياليِ المعانيِ بالخواطرِ والأفكارِ تربيةً للإنسانِ العربي، وإعداداً لملكاته في التفكيرِ

(١) أوراق الورد — ٣٨٣

(٢) البلاغ ١٠ ديسمبر ١٩٢٦ م. وقول العقاد : « سمعنا من طاغور فلسفة البساطة العميقة والمُعْقِ البسيط .. فقد عقب عليها الراجعي بكلمة كذا؛ أي كيف يكون العمق بسيطاً، إذ لم يَسْتَطِعِ العقاد أن يَتِمَّ الجنس بالمقابلة.

والتدبر.. إلا أنه قد يَفْقِدُ الكثيرين من القراء الذين لا صَبْرَ لَهُمْ على احتمال ذلك التركيز في القراءة، والجذبة في التأمل، وإن عَدَّ قارئه بمئة من غيره<sup>(١)</sup>.

ومن هنا اتهم بالغموض، ورُمي بأنه يَنْبِهم على الكثيرين، وأنه يصعب فهمه.

وقيل له غير مرة أن لو بَسَطَ الموضوعات تلك، ولم يَخِلْ بالإيجاز والحذف أحياناً، واستعاضَ عن الإفاضة في التفتيق الذهني، واصطليدِ الخيالات المجتحة والتشبيهات الغريبة، لتوفر له سعة في التأليف، وبسطة في التعبير وأدب الإنشاء، ولعدت دائرة قرائه أوسع من الأفق نفسه، ولوافت الفائدة المرتجاة من أدبه أشمل في النفع وأينع في العطاء، وأنصح في الإثمار<sup>(٢)</sup>.

ولعل مرد ذلك — غير الذي أوردته من سبق النهضة<sup>(٣)</sup> — الى سبب نفسي في الحرص، يتأتى له من حياته غير المرفهة، وكان فيها ستر الحال لا يتعدى الكفاية. دون البُحْبُوحَةِ أو الفَراهِة في العيش، بحيث يكون إثارته الاقتصاد كالمادة النفسية في الفكر والإثمار فيه أبداً، فلا يكتب إزجاءً للفراغ، أو قتلاً للوقت، أو تدليساً على القراء، وإنما يحرص كل الحرص أن يتم أدبه في قرائه، فيكون منهم طبقة أخرى من الأدباء وذوي الفكر<sup>(٤)</sup>.

(١) البلاغ — ٣٠ مارس ١٩٣٣ م.

(٢) المقتطف — ابريل ١٩٢٥ م

(٣) راجع هيكل — في أوقات الفراغ — ٢١٣، والدكتور صروف — المقتطف — مارس

١٩٢٥ م وأن الرافي لم يرحم قارئاً، ورسالة منصور فهمي، وغيرهم.

(٤) ومن ذلك يرى استاذنا الأثري أن لا شأن لنا بأولئك القاصرين.

وربما كان ذلك مُتَأْتِياً مما ألقاه الدكتور صرّوف في رَوْعِهِ من أنَّ مقالاتِهِ في «المقتطف» تُترجمُ الى اللّغاتِ الأوربية، وأنَّ لا بُدَّ من الارتفاع بالمعاني الاسلاميّة الى المرتبة الانسانية العليا التي يُقبلُ عليها الاوربيون، كي لا يُتهم الإسلام بالتَّعصُّبِ أو العرقيّة وما إليها، ويكون أدبك السَّبَبُ في الإساءة من حيث تُريدُ الإحسان<sup>(١)</sup>.

وقد قالَ في ذلك مرّة: «أما هذا الذي يُسمّونه غموضاً وتدقيقاً فما أنا بصاحبه، ولا العاملُ فيه، ولكنه طُورٌ من أطوار الزمن لا بُدَّ أن يسبقَ نهضة التجديدِ كما سبق من قبلُ، فقد كانوا يَصِفُونَ به سيّدِي شعراءِ العربيّة أبا تمامٍ والمتنبي، حتى قالوا في أبي تمام: إِنَّهُ أَفْسَدَ الْكَلَامَ وَأَحَالَهُ وَعَقْدَهُ بِتَعْمَلِهِ وَصِنَاعَتِهِ، وإنه أتعَبَ النَّاسَ حَتَّى صَارَ اسْتِخْرَاجُ مَعَانِيهِ بَاباً مُنْفَرِداً فِي الْأَدَبِ يُنْسَبُ إِلَيْهِ طَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ»<sup>(٢)</sup>.

وكان الرافعي قد شُبِّهَ بأبي تمامٍ وعنايته بالمعاني منذُ يَدِئُ أيامه في الشاعريّة والأدب<sup>(٣)</sup>.

والحقُّ أن لغموضِ بعضِ أدبه روعةً خاصة، وما وَقَفْتُ عليه من جُمْلَةٍ مآخذِ العلماء والدارسين<sup>(٤)</sup> فهو عندي مَقْبُولٌ وَحَسَنٌ — وإن لم أستطع أحياناً تَرْجَمَتَهُ أو إيضاحَهُ بغيرِ حُرُوفِهِ، وتلك حقيقة يقرُّني عليها كثيرون!

(١) من رسالة لصروف غير مؤرخة، أحسبُ كتبها عام ١٩٢٣ م وقد وردت الإشارة إليها في رسالة للرافعي الى الخطيب في ١٩٢٨/٧/٢٥ م

(٢) المقتطف — ابريل ١٩٢٥ م

(٣) المنفلوطي — سرّكيس ١٩٠٦/٩ م — مختارات المنفلوطي — ٢١٥.

(٤) الرافعي الكاتب — ٣٧

والدسوقي لا يُرجع ذلك الى الأسلوب أكثر مما يرجعه الى الفكرة،  
وقربها تارة وعمقها أخرى، وبساطتها حيناً وتركيبها أحياناً<sup>(١)</sup>.

والرافعي نفسه يضيف بقوله: إن أرفع منازل البلاغة أن يكون في  
قوة صانع الكلام أن يأتي مرة بالجزل، وأخرى بالسهل؛ فيلين إذا  
شاء، ويشتد إذا أراد.. ولا يُلغ هذه المنزلة أحد فيحكمها ويعطيها  
حقها من التمييز إلا جعلته الأقدار وسيلة من وسائل حفظ البلاغة  
يتسلم الزمن فيسلمه.. بل قل بالألفاظ الصريحة يتسلم لغة القرآن  
ويسلمها<sup>(٢)</sup>.

فالرجل يشعر إذن بأنه مسخر بيد العناية الإلهية أن يجعل من أدبه  
مادة اعتقاد فكري ومثال بيان، وبراعة بلاغة لجيل آخر كان ينظر  
إليه في لوح المستقبل، فيخيل إليه أنه يُملي عليه.

وربما فوت الحرص هناك أنه كان يجزل ألفاظه ويحكم جملته،  
وقلما يأتي بالسهل أو يلين!.. ولعل السهل واللين عنده كان عامياً،  
وإلا فما باله يدعو زكي مبارك بالتشور؟ مع أنه في ديباجته من خيرة  
كتاب العصر اللاحق<sup>(٣)</sup>!

\* \* \*

ويؤخذ عليه تناقضه أحياناً، ولا سيما في الدفاع عن نفسه، كما  
جاء في رده على طه حسين قوله في العبارة التي لم يفهمها: إن

(١) الرافعي الكاتب — ٣٧.

(٢) المقتطف السابق.

(٣) رسالته في ١ سبتمبر ١٩٣١ م

الذوق في شيء إنما هو فهمه أو إنما هو عن فهمه، أو إنما ينشأ عن فهمه، فالعبارة في باب المجاز واحدة لا تختلف<sup>(١)</sup>. فهو هنا يقرأ للبلاغة بوجود في المجاز.

ولكنه حين يرد على ابراهيم المصري قوله في أوراق الورد: «ألا عيب ألفاظ»، ينسى ذلك ويرد بقوله:

«لَيْسَ عِنْدَنَا عِبَادَةٌ لِفَظٍ، وَلَا أَلَا عَيْبُ أَلْفَاظٍ، وَلَا شَيْءٌ يُسَمَّى اسْتِعَارَةً أَوْ مَجَازًا، فَإِنَّ هَذِهِ كَلِمَاتٌ اصْطَلَحُوا عَلَيْهَا بَعْدَ الْإِسْلَامِ، عِنْدَ تَدْوِينِ الْعُلُومِ، وَلَمْ يَعْرِفْهَا بُلْغَاءُ الْعَرَبِ، وَلَا تَعَمَّدَ صَنَاعَتُهَا الْبَيَانُ.. الخ»<sup>(٢)</sup>.

نعم إنه يريد أن يقول: إن البيان العربي سجية وطبع، قبل أن يكون صناعةً بيانيةً مجازاً أو حقيقة، ولا يتحكم فيه غير الحال النفسية التي عليها الكاتب البياني مع أدواته من الثروة اللغوية والخيال، ولكنه عبر هكذا ليطمس على ناقدِهِ ويُعمي عليه ببعض منطِقِهِ هو، فتأمل!!.

لقد كان الرافعي عربي العقل، فقيه الفكر؛ يؤمن بالله واليوم الآخر، ويرى القرآن المثل الكامل في الأدب والفكر والفقه، فيحمل أدبه دعوة القرآن العظيم.

وكانت الحياة الثقافية المترجمة من حوله تستولي على ميادين النشاط الصحفي والأدبي بألوانها من صفحات التقليد والمتابعة والمسخ، قد جعلت منه جساً عربياً متقدماً؛ يضع نفسه وأدبه موضع الفدائي من المعركة.

(١) وحى القلم ٣ — ٢٨٩

(٢) البلاغ ١٩٣٣/٧/٢٣

غير أنه قد تشغله وسائل المعركة عن أهدافها في بعض الأحيان. إذ لوحظ عليه التراجع، لا ليكرّ فيجهر على خصم، وإنما ليقرن سلاحه في اللغة والأسلوب والبيان بأسلحة أولئك المستكبرين الذين خضعوا للحياة الغاشية في الفكر والأدب، والاجتماع؛ فهو يفلسف كل شيء يتصدّر للقول فيه، ويعود فيكتب على طراز المترجمين الذين يسخر منهم — فصولاً تشبه ما ينقلونه من شعر الأمم<sup>(١)</sup>، أو هو يحمل مقالاته بعض أسلوب القصص المترجم؛ وهو وإن أشرق ببعض معانيه، وحلّق بقيمه وأعرافه عند مرّيديه في تلك الأيام خاصّة<sup>(٢)</sup>، إلا أنه في مثل ذلك التراجع يبدو وكأنه يتهاف فتصدّر عنه بعض أحكام كما مرّ في الشعر<sup>(٣)</sup>.

ومن هنا تسلّلت الى قلمه بعض عبارات (التراجمة) وقد استعملها من غير أن يفطن الى ما وراءها، على الرغم من شدة حساسيته!

### بعض ترخص

منها ترخصه في استعمال عبارة (التعصب الأعمى)؛ فالتعصب قوة الثبات على المبدأ، بل هو قوائم الاعتقاد الحسن، ولا يكون إلا عن بصيرة، وما إلحاق صفة العمى به إلا من قبيل حرب اللغة التي يمارسها أولئك الأغرار.

---

(١) أنظر له: التهنيدات: أوراق الورد — ١٣٣، نشيد اليمامة: وحي القلم ١ — ٢٧. لحوم البحر: وحي القلم — ٢٥٨. احذري — وحي القلم ١ — ٢٦٢.  
(٢) مثل العريان — ٢٠٤، أمين حافظ شرف: الشعب ١٩٥٧/٧/٢٤ م.  
(٣) راجع ص ٤٦٠ — ٤٦١.



تُرى هل حَسِبَ أن وصفَهُ بالعمى يُعِدُّ عنه ما يُوجَّهُ إليه؟  
ومنها استعماله لكلمة المَثَل الأعلى؟ وهي عبارة لا تمتُّ الى التوحيد.  
أما ورودها في أساليب القوم فهو من قبيل الأشياء المُبْهَمة التي  
لا تدرك، فالرافعي لم يَتَنَبَّه على ما فيها من مغالطة في كون الرب  
عندهم وليدًا؛ ألا تَراهُم يجمعونها (مُثل عليا)؟

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾<sup>(١)</sup> فلا تَرِدُ إِلَّا في مَوَضعِها  
الملائم. وإن البديل المؤمن لها «الأسوة الحسنة» الواردة في صفة  
الرسول الأعظم.<sup>(٢)</sup>

أما في بعض المُفردات اللغوية، وتصرفه بالأفعال، وتضمينها معاني  
أخرى، أو حملها على المجاز، فقد كان كثير المخاطرة في ذلك؛  
يَضَعُ لها أوضاعاً جديدة<sup>(٣)</sup>، حتى يوشك أن يَقَعَ في أغلاط نحوية  
ولغوية قد لا يقبلها من سواه.

ومن ذلك استعماله لكلمة (النقص) يريدُ بها (العوز) في مثل  
قوله في أدق عبارة منطقيّة ثائرة له: «أَرَأَيْتَ مقدارَ الدَّرْهِمِ الذي  
(يَنْقُصُ) الشعب؟»<sup>(٤)</sup> مع علمه أن النقصَ عاهة، وهو غيرُ العوز،  
وقد تَكَرَّرَتْ عنده كثيراً فلم يَتَنَبَّه لها.

(١) الآية: سورة النحل الآية ٦٠ — وانظر الإشراف الإلهي — الرسالة ٥١، رسائل الرافعي

— ٢٢١ —

(٢) كما في الآية ٢١ من سورة الأحزاب.

(٣) رسائل الرافعي — ٢٠٤

(٤) حديث القمر — ٣١

واستعماله كلمة تَدْوِي في قوله:  
اتَّقوها فتنةٌ سوف تَدْوِي بِرُوقِهِ من جَهْلِهِم ورعود  
وكان أولى به أن يقول: سَتَدْوِي.

\* \* \*

وكذلك استعماله لكلماتٍ أعجميةٍ كإقليم وبرلمان وفونوغراف وبنك  
والتلفون وغيرها وكان يمكن أن يتدارك ذلك بترجماتٍ لها متوفرة  
في القُطْر ومجلس الأمة والحاكي والهاتف والمصرف وقد جرى على  
استعمالها محمد كرد على من معاصريه.

وكذلك استعماله للاستفهام بهَلْ مع النفي الذي يردُّ مع العامية  
مثل قوله: هَلْ لَمْ<sup>(١)</sup>.

ويلاحظُ عليه كذلك إضافاتٌ زعم أنها له . باب الاتباع في مثل  
قوله: شَيْطَانٌ لِيْطَانٌ، وسَهْلًا مَهْلًا<sup>(٢)</sup>؛ فهي من إلحاق الكلام الدائر  
وهي أكثر من أن تُحصى. ولهم في ذلك كلماتٌ لا حَصْرَ لها، بحيثُ  
لا تجوزُ أمثالها على غير المُستعربين من الأعاجم.

أو قوله: كُلُّ ذَلِكَ جَهْلٌ فِي جَهْلٍ فِي جَهْلٍ<sup>(٣)</sup>، وأعاليلُ بأضاليل  
بأباطيل<sup>(٤)</sup>، فالأولى عامية نازلة، والثانية أشبه ما تكونُ بالتلاعِبِ  
بالالفاظ — وإن زعموا ورودها في نهج البلاغة<sup>(٥)</sup>.

(١) الرسائل — ٦٨، المعركة — ٨١

(٢) الرسالة — ١٦٥

(٣) الرسالة — ١٣١

(٤) ولما كان نهج البلاغة موضع مناقشة نسبه فلا اعتداد.

وصوابُ الأولى: جَهْلٌ على جهل؛ والمرادُ إطباقُ الجَهْلِ على التفكير والخيال المركب، قال تعالى في صفة الوضوح والإشراق ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾<sup>(١)</sup> وفي الصفة الأخرى ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ ووردَ لأبي الطيّب قوله: أرق على أرقٍ ومثلي يأرقُ. وفي الكنايات العامية (ورد على ورد) في استحسانِ الجمال والطرب له.

\* \* \*

أخذَ بشر فارس كلمة «التُّبَّان» وزَعَم أنها من وضعِه بَدَلًا من كلمة (المايوه) وصَحَّحَ عدنانُ أسعد ذلك بنسبةِ الوُضْعِ للرافعي<sup>(٢)</sup>. والكلمةُ ما تَبَرَّحُ دارجَةً في الموصلِ من العراقِ والجزيرة، وكانت سِرْوَالًا صغيرةً تَشْتُرُ العَوْرَةَ المغلَّظَةَ، تكونُ للملاحين والمُصارعين أيامَ العباسيين<sup>(٣)</sup> والرافعي نفسه أشارَ الى استعمالِ الجاحظِ وذكرِه الكلمة<sup>(٤)</sup>.

ترجَمَ كلمة (سكرتير) بصاحبِ سر، وكان أخذَها عن مُصْطَلَح قال: كان أيامَ أحمد بن طولون يومَ اتَّخَذَ له (كاتبِ سرٍّ) مع أن كلمة أمينٍ أخرى بها وأليق، وقد وَرَدَتْ في صفةِ يُوسُف عليه السلام مع صاحبِ مصر في قوله تعالى على لسانه ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أُمِينٌ﴾<sup>(٥)</sup>.

(١) سورة النور الآية ٤٠.

(٢) الرسالة — ٣٧٩

(٣) مروج الذهب — للمسعودي ٢ — ٣٠٧

(٤) الرسالة ٦٧ — وحي القلم ١ — ١٢٣

(٥) سورة يوسف الآية ٥٤.

وفي الوقت الذي يُصيب فيه بِتسمية السيجارة: الدّخينة،  
«والبنسيون»: المثنوى، و«الروب»: المطرف، ويكنّي بأرملة حكومة،  
وعفيف البطلون، في حالي جدّه وتظرفه في المُفاصحة، نراه يعبّد أحياناً  
في محاولة تفسيره لكلمة العَصْر الواردة في بيت حافظ:

خمرة قيل إنهم عَصروها من خُدود الملاح في يوم عُرْس  
إذ يجعل للكلمة معنى تتقرّر منه النَّفس بقوله: كلام من لم يُنضج  
في البيان ولا الدُّوق، لا يكاد يتوهم إلّا أن في خُدود الملاح  
(خُرَاجات) عُصِرَتْ، وأنّ العامة تقول: عَصَرَ الدمل الخ<sup>(١)</sup>

وربما فاتّه قوله تعالى: ﴿إِنِّي أُرَانِي أَغَصِرُ خَمْرًا﴾<sup>(٢)</sup>.

أو ربما رمى الى المعنى من باب جعل فيه عصر الخمر معنى  
من المعاني التي لا تحفل بها النفس، ولا تلتذ وإنما تشمّر وتتفرّز!!  
وبذلك تبتعد الناس عن الخمر وعصرها.. ولكنه لم يُوفّق لما قصّد  
إليه في مثل هذا المركب البعيد من اغتساف الردّ والنّضج في البيان،  
ولو ردّ الشاعر في سؤاله:

الم يجد في الخدود معنى غير العَصْر؟! ومن ذا الذي يعصّر الخدود؟!  
لكان في ردّه نوع بيان ودلالة للمعاني.

\* \* \*

ومنه تصرفه ببعض الأفعال، وقد حمّل بعضها على المجاز الذي

(١) المقتطف — أكتوبر — ١٩٣٢ م — وحي القلم ٣ — ٣٨٢

(٢) سورة يوسف الآية ٣٦.

يوقُع في الألباس<sup>(١)</sup>، فيضطرُّه إلى التعقيب<sup>(٢)</sup>، إذ كان ينبغي أن يستدرك ذلك ولو بهوامش تُظهر قصده الذي يخرج فيه على استعمال العرب — كما تقدم.

أما بعض تصحيحه اللغوي فلم يكن يستوفي الحيثيات، مثل نسبته (النسائية)<sup>(٣)</sup> وقوله: إنَّ النسوي والنسائي كلاهما صحيح، والاختيار في كل موضع للأفصح،.. من غير أن يُعيّن المواضع التي تصح فيها النسبة إلى الجمع وأنواعه.

\* \* \*

## نوع مبالغة

هنالك ما أخذ أخرى فيها من الادعاء والمبالغة ما لا تليق به في حال! ومن ذلك ما رواه سعيد العريان في شأن مجلة (البيان) التي أصدرها صهره عبد الرحمن البرقوقي وترك له الصدارة فيها؛ إذ أدار حديثاً له زعمه مع الإمام محمد عبده<sup>(٤)</sup> ذهب فيه مذهبه في الكتابة والصحافة والبيان وكأنَّ الإمام هو الذي يرسم له المنهاج<sup>(٥)</sup>. وقد أشار محمد رشيد رضا إليه حين رُحِبَ «البيان» في مجلته

(١) طه حسين — الأربعة ٣ — ٦٧

(٢) وحي القلم — ٣ — ٣٨٨

(٣) وحي القلم — ١ — ٣٦٢

(٤) البيان ١ — شعبان ١٣٢٩ هـ

(٥) راجع فصل الفنون في الباب الأول.

(المنار)<sup>(١)</sup> ونُبهَ الى أنَّ الحديثَ لم يَكُنْ بحروفِ الإمام!..

وكذلك ادعاؤه أنه كتبَ الجزءَ الأول من « تاريخ أداب العرب » في ثلاثة أشهر<sup>(٢)</sup> و« حديث القمر » في شهر، و« رسائل الأحزان » ما بين ١/٣١ و ٢/١٣ من عام ١٩٢٤ م مع انقطاع أيام<sup>(٣)</sup>.

ولا أدري كيفَ فاتَتْ عليه — وقد مرَّت بنا قصَّةُ تلك الكتب، وكيفَ تمَّ لَهُ تَليفُها وتصنيفُها، ولا بأسَ من إعادةِ القول؛ أن مادَّةَ التاريخ كانَ منها ما هو منشورٌ منذ أعوام<sup>(٤)</sup>، وأنَّ مقالِيهِ في آداب الجامعة<sup>(٥)</sup> لَتَشِفُّ بل وتُكشِفُ عن أنَّ الكتابَ كانَ مُهيَّأً لديه، أو أنَّ مادَّتَهُ ومنهَاجَهُ في الأقل — متوفرةً عنده، بما يَغْجِزُ عن مثلها سِواه.

وما جاءَ في كتابِ الأَحْزَانِ كانتَ مادَّتُهُ في الشعرِ والجمالِ بدأً بها منذُ عام ١٩١٩ م كما مرَّ بنا<sup>(٦)</sup> « وحديث القمر » كانَ مقالةً في مجلة « الزهور »<sup>(٧)</sup> ما فتى يَزِيدُ فيها ويولِّدُ في معانيها، ويبتكرُ لها الأُخيلةَ حتى اسْتَوَتْ عنده في كتاب.

وعلى كُلِّ حالٍ قد يجوزُ أَنَّهُ جَمَعَ موادَ هاتيكِ الكتب، وأتمَّ تنظيمَها وإعدادَها للنَّشْرِ خلالَ تلكِ المُدَد، ثمَّ بدأَ لَهُ أن يَعدَّها أيامَ التَّأليفِ!..

(١) المنار — رمضان ١٣٢٩ هـ. وقد زَعَمَ العريان أنَّ الرافعي حَدَّثَهُ بأنَّ الشَّيْخَ رَضَا طابَقَهُ الحديثَ وادَّعى أَنَّهُ كانَ حاضِرًا!!

(٢) رسائل الرافعي — ١٠٢

(٣) رسائل الرافعي — ١٠٣، ١٠٥، المعركة — ١٠٤

(٤) المقتطف مايو ١٩٠٥ م

(٥) عام ١٩٠٨ م

(٦) راجع مبحث المنشئ المكيين.

(٧) الزهور/ ٥ — ١٩١٢ م

ومن المبالغات أيضاً ما رواه العريان عن كلمة « مُصَيِّف » التي قيلَ إِنَّ الكاتبة الأدبية « مي » كانت تتحبَّبُ إليه بها<sup>(١)</sup> إذ قال:

« يزعمُ الرافعي أن « مُصَيِّف » هي تصغير ( مصطفى ) على قاعدة الترخيم، وصوابه ( صُفَيّ ). قالَ العريان: إِنَّ الرافعي على علمه بخطأ هذا التصغير كان حريصاً عليه، لأنها هي رضىته، فلا كان سيويه وأبو علي وابن حيّان إذا رضىت هي<sup>(٢)</sup> ».

وقد فاتَ العريان أن الرافعيّ نفسه ربما فوّتَ عليه ذلك أن الكلمة نعتٌ في لغة العرب، ما يرخُّ أهل الشام والعراق والجزيرة يستعملونها الى اليوم، فيصفون بها مواليد الصيف الذين يعترهم الضَّعْفُ والهزال كلما قرُبَت أيامهم من ذكرى ولادتهم، وتلك حقيقة علمية يدركها الأطباء، بل أدركها العرب قَبْلَ عهد عهيد، قال سليمان بن عبد الملك راجزاً:

إِنَّ بَنِي صَبِيَّةٍ صَيِّفُونَ أَفْلَحَ مَنْ كَانَ لَهُ رَبِيعُونَ

وكانت أمُّ الرافعي تُناديه به تحبباً، واستلطافاً، وربما كانت « مي » التي نشأت في الديار الشامية ( فلسطين ولبنان ) تعرف ذلك فتحبَّبُ إليه به، وتذكره بنداء أمه له بهذا التَّعْتِ، وما يتداعى له فيه من عواطف الحبِّ وحنانه.. وأوّل ما تدخلُ الحبايب من باب القلوب الذي تفتحه الأمومة.

(١) رسائل الأحزان — ١٦

(٢) حياة الرافعي — ٨٠

والرافعي بعد من مواليد أول الصيف<sup>(١)</sup> وكانت تعتريه الصيفية كل عام تقريباً، فتضوي جسمه وتنجله وتعود به «مُصيفاً» وما من بأس بعد أن يضحى ذلك ترخيماً، أليس الترخيم من النداء؟.

\* \* \*

وقد أخذ عليه أيضاً عَدَمُ تراجعِهِ حين يذهب بعيداً في تخطئة أحدهم في مسألة نحوية لها وجه من وجوه التأويل عند بعض النحاة في رفع جواب الشرط إذا كان فعله ماضياً، وإصراره على رأيه، وتخطئة النحاة جميعاً، واعتداده بتحديثهم بأنه لم يرد لها شاهد حكم في القرآن، وما ورد في كلام العرب من شعر ونحوه، إن هو إلا شاهد مصنوع للقاعدة الشاذة<sup>(٢)</sup>.

ولو ذهبنا نؤاخذ على أمثال هذه وتلك وهاتيك لخرجنا الى دراسة أخرى في علوم العربية التي كان من أوسع الناس علماً بها، ولكنه كانت تفوته أشياء منها، نتركها لِمَثَلِ تلك الدراسة التي قد يتصدى لها من هو أخص بها وأكثر عناية واهتماماً وموضوعاً.

\* \* \*

(١) الأول من رجب ١٢٩٨ هـ - ٣٠ مايو/أيار ١٨٨١ م

(٢) المقتطف - نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٣٢ م



## خلاصة

إنَّ الكتابةَ عندَ الرافعي كانتَ فناً أثيراً، ودعوةً كريمة، وبياناُ اعتقادياً ثائراً أبداً، فهو المفكر الأديب، وقد اجتمعتْ له الوراثةُ انحداراً من وفاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فكانَ شديدَ المِراسِ مُستَضِعِبا، وهو في حياته « كالملكِ الذي حالتِ السيوفُ والأسِنَّةُ والقوانينُ بينَهُ وبين تاجِهِ » أو كما أشار<sup>(١)</sup>.

وقد أوتي الحكمةَ والفضل، فلم يَنخَلْ بهما على فنٍّ فيها، وأثرى اللغةَ بمُعْطياتِهِ من أساليبِ البيان، وتقدّم بالتعبيرِ والإنشاءِ خُطُواتٍ مشهودة، ومكّن للتأليفِ بمنهاجٍ عُرِفَ له في مُحَصِّلَةٍ من صَمِّ المذاهبِ والأفكارِ والتقائِها، واتَّخَذَ النَقْدَ وسيلةً للإتيانِ على الجوانِبِ الضَّعِيفَةِ من الفكرِ والأدبِ، وإقامةِ المَعْدَلَةِ من أمرهما، وآتى الأدبَ فقهاً ونماءً، وعرّفَ بالعربيةِ أهلِها، ومكّن لها من الثباتِ أمامَ زُخُوفِ اللُّغاتِ والفُسُولاتِ، واتَّخَذَ الذُّوقَ حِجَّةً، والأسلوبَ تمكناً، والفكرَ مِيداناً تجولُ فيه المعارفُ والصفات.

---

(١) رسائل الأحزان — ١٧

وكان قد اجتمع له من العلم والبصير بالعربية وآدابها، وفتن الجمال  
 في بيانها، ومن المعارف والثقافات ما أشرق به عليها في عصر وقفت  
 فيه على مفترق خطير! فكان الأديب الذواقه بحق، والمنشئ المكين  
 بصدق، والمؤلف الثبت باقتدار، والناقد القويم، والإمام الذي تجتمع  
 فيه الرجولة والضمير والدّم الكريم، ويمضي به الحب والجهاد  
 والإخلاص، ويهيم فيه السمو والجلال والشهادة.

وما كان كذلك فحسب، وإنما كان العربي المؤمن الذي تمثلت  
 في سيرته وأدبه حقيقة العصر الذي عاش!

## الفصل الثاني

### الموضوعات المحدثّة في أدب الرافعي

#### تمهيد

كان العصرُ الذي عاشَ فيه الرافعي عَصْرَ غَزْوِ فِكْرِي وإِلْهَاءِ بِالْأَرَاءِ الوافدة، وانتشارِ لبعضِ المُعْتَقَدَاتِ، واضْطِرَابِ فِي الدِّرَاسَاتِ؛ تَسْتَعْرِبُ فَتَبْحَثُ عَنْ تُغْرَاتِ لَهَا فِي تَارِيخِ هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ تَلِجُ مِنْهَا عَلَى قِيَمِهَا وَأَعْرَافِهَا، فَتَحَاوِلُ الْوُقُوفَ عَلَيْهَا وَإِدَارَكَ خَصَائِصِهَا الْمَيَّزَاتِ، وَمُبْلَغِ الْأَصَالَةِ وَالْعُمُقِ الَّذِي ثَبَّتَ فِيهِ عَلَى الزَّمَنِ اعْتِقَادِيًّا بِمَا يَفْرُدُهَا بَيْنَ الْأُمَمِ، كَالْمُعْجِزَةِ الْخَارِقَةِ — عَلَى الرَّغْمِ مِمَّا تَعَرَّضَتْ لَهُ مِنْ صُرُوفِ الدَّهْرِ.

وكان ذلك الغزو يلاقي المقاومة، ولكنها لم تكن، بالدَّرَجَةِ التي ثَبَّتَ فِيهِ وَتَحَدَّاهُ، أَوْ تَقْهَرُهُ فَتُرَدُّ عَادِيَّتُهُ، وَإِنَّمَا كَانَتْ تَبْدُو فِي مَهْمَّتِهَا الدِّفَاعِيَّةِ حَسْبُ.

وكان لا بُدَّ لِلْجِهَادِ الَّذِي يَضْمَنُ النِّصْرَ، مِنْ مَرَحَلَةٍ يَتِمُّ فِيهَا الْإِسْتِعْدَادُ، وَتُسْتَكْمَلُ الْعُدَّةُ، وَيَتَهَيَّأُ الْعَتَادُ، فَقَدْ كَانَ لَا بُدَّ مِنْ إِرَادَةِ التَّغْيِيرِ الَّتِي تَطَرُّ عَلَى مُمَارَسَةِ الْجِهَادِ الْفِكْرِيِّ نَفْسِهِ، بِحَيْثُ تَسْتَشْعِرُ الْأُمَّةُ وَجُودَهَا

الاعتقاديّ الحقّ علماً وعملاً، ولا سيما بعد استطاعة العزّو هناك التسلّل الى صفوفٍ فكريّةٍ فيها، والأنديسّاس في مناحيها الأدبية، واستساغته في محاولاتها الاقتصاديّة، ودورانه في مسارها الاجتماعيّة، ومبادراتها السياسيّة وتصوّراتها القوميّة.

أجل.. لقد وصل الحال عند بعضهم أن أضحي الفكر الصهيوني عنده المثل؛ ينقلون عن رأسه «ماكس نورد» آراءه في القوميّة<sup>(١)</sup>، وأفكاره الفلسفيّة ومذهبه في الجمال<sup>(٢)</sup>. وذلك بعدما هيأت الماسونيّة لهذا، يظاها التبشير بمدارسه الكثرة، عند ذلك التاريخ تحت ظلال الغفلة والاحتلال، وما دُعي بحريّة الفكر في بعض الأحيان! ولينشأ عنه الكفر إذا كان.

## مهمة الكاتب

ومن هنا كانت مهمة الكاتب العربي خطيرة، ومسؤوليته أكبر؛ تريد لها الدعوة بأسّ الصناديد، وعقول الأفاذ، ومُصابرة أولي العزم من الأبطال.

وقد شاءت الأقدار أن يعرف الرافعي نفسه على حقيقتها، وأن الله ادّخره لمهمّة أعظم وأجلّ شأنًا، وأنه هُييء ليكون هبة العليّ القدير لهذه الأمة؛ يدافع عن غروبها وإسلامها بالحُجّة الدامغة والعقل الرجيح والبيان الخلاب<sup>(٣)</sup>.

(١) أنظر عادل جيرة في ترجمة (روح القوميّة).

(٢) راجع عباس العقاد — الفصول.

(٣) الدسوقي — الرافعي الباحث العليم — الرسالة الاسلاميّة — ٦٤

وهكذا عادتْ مَسْئُولِيَةُ الرَّافِعِي الكاتِب في هذا العصر خطيرةً بالغَةَ الشَّانِ.

ولعلَّ التفسيرَ من أنَّ حرمانَهُ مَراحِلَ من التعليمِ (الرسمي) قد جَعَلَ مِنْهُ يدركُ مَهْمَةَ المُعَلِّم، فيتخذُ وسائلَهُ لِنَفْسِهِ أَوَّلًا، حتَّى إِذَا أَتَمَرَ فيها عادَ يُهَيِّئُ تلكَ الوسائلَ للمُعَلِّمين والتلامذة معاً، ثم يَتَمَيَّزُ فيَجْعَلُ مذهبَهُ في الحياةِ الدعوةَ الى العِلْمِ الحقِّ والفَهْمِ الصحيح، والإمامِ الذي ينتقل فيه الإنسانُ العربيُّ من مَرحَلَةٍ الى أخرى.

وهكذا كان في مُعْظَمِ ممارساتِهِ من الكتابةِ والأدبِ والنقدِ؛ وقد دَلَّ فيها على أصالةٍ في هذا المضمارِ، وعلى عُمُقِ نَظَرَتِهِ وبُعْدِ دعوتهِ في تمييزِ الغاياتِ وإصابةِ الأهدافِ؛

فهو في ديوانِهِ يَفْتَحُ باباً للتهذيبِ في منظوماتٍ يُرَدِّدُ فيها الحكمةَ والمثلَ، ويقوِّمُ اللِّسانَ والإنسانَ، ويجعلُ منها محفوظاتٍ لأبناءِ الجيل<sup>(١)</sup>.

ويعودُ الى ملكةِ الإنشاءِ وَضْعُهَا لِدَى الناشئةِ، فيحاولُ وَضْعَ أمثلةٍ لها من فنِّ أدبه الذي يُعْغِيهِ بالمُفرداتِ، وَيُنْبِئُهُ بالكلماتِ، ويقوِّمُهُ بالمعاني والابتكاراتِ، ويُوَشِّحُهُ بالكناياتِ والاستعاراتِ؛ يُولِّدُ بعضها من بعض، ويجعلُ للتشبيهِ وفنونِ البلاغةِ الأخرى أجنحةً من الخيالِ تَسْمُو بالإبداعِ، وتباركُ بالتفتيقِ الذهني، وتَصْطَفُفُ في تقابلِ الصورِ، وازدحامِ المشاعرِ، وانثيالِ الأحاسيسِ؛ مما يَنُمُو مع الممارسةِ والدَّرْسِ والتأملِ والاستغراقِ. ويومَ وَجَدَ دروسَ الأدبِ في «الجامعةِ» قاصِرةً عن مُهمَّتها في

(١) أنظر — أغاريد الرافعي.

إنشاء الأمة إنشاءً سامياً، بادَرَ في دعوته، وكان له أثره في موضوعات الدراسات الأدبية التي تعمُر بها كليات اللغة العربية الآن<sup>(١)</sup> وحسبه ذلك الكتاب القيم الذي لم يُنسخ على منواله، ولا هو قلْدَ فيه سابقين في الأبواب والموضوعات التي مضى يفتحها للدارسين، فكان تأليفه فيها مُحدثاً صِفَةً ومنهاجاً، وكان موضوعه كأنه يكرّر ينفرد بين محاولات المُستعربين والمستغربين آنذاك، وكذلك سائر أدبه في ميادين العلمية، تأليفاً ونقداً، أو في مجالاته الإنشائية والتحليلية الفلسفية التي كتب بها سائر فنونه الثرية الأخرى، فكان الدليل على الهداية التي تتحرّرها الأمة أبداً.

\* \* \*

أما الكتابة المحدثّة في أدب الرافعي فهي من الكثرة والاتساع بحيث تستصعب على الدارس أن يُحيط بها مرّة، وإنما قد يُميّز فيها مذهبه واتجاهه في أقرب الموضوعات التصاقاً بالحياة والجمهور.

وفي مقدّماتها « الحب » هذا الناموس الإنساني الذي لا تغادره حياة، والاجتماع بأوضاعه الاقتصادية والحضارية، وما تميّز به الأمة من ضمير يهض بها أبداً..

وللرافعي فيها مدارسٌ ونقدٌ وحسنٌ توجيه.

\* \* \*

---

(١) راجع موضوعات الاطروحات في السنوات الأخيرة، وتأمل منهاج كتابه !!

## المبحث الأول

### الوجدان والحبّ والجمال

من أظهر الموضوعات المحدثّة في أدبِ الرافعي، ما كان من دَعْوَةِ  
الحُبِّ وتقديرِ الجمال، تلك الظاهرة التي قد تَبْدُو غريبةً في جيله،  
فينفردُ بها، ثم يدعُو لها تربيةً وإخلاصاً.

نشأ الرافعي شاعراً مَفْتُوناً بالجمال؛ يَأْلَفُ الحبَّ، ويهيم بالحُسن،  
وكانَ لَهُ في صباه وشبابه صَبَوَاتٌ أثمرَ فيها رائقُ شِعْرِهِ، وحُلُو رَسَائِلِهِ  
ونثرِهِ، وَضُرِبَ المَثَلُ بِنَفْسِهِ في العفة والحبِّ، والإنسان الذي يسمو  
بغرامه فوق الغرائز والشهوات،.. فما فتى يجاهدُ خَطَرَاتِ الفِكْرِ بَعِيداً  
عن الآثامِ وتكريماً لذاته:

« لا سَمُوَ لِلنَّفْسِ إِلَّا بَنُوْعٌ مِنَ الحُبِّ مِمَّا يَشْتَعِلُ إِلَى مَا يَنْتَسِمُ؛  
مِنْ حُبِّ نَفْسِكَ فِي حَيْبِ تَهْوَاهُ، إِلَى حُبِّ دَمِكَ فِي قَرِيبِ تَعِزُّهُ،  
إِلَى حُبِّ الْإِنْسَانِيَةِ فِي صَدِيقِ تَبَرُّهُ، إِلَى حُبِّ الْفَضِيلَةِ فِي إِنْسَانِ رَأْيَتِهِ  
إِنْسَاناً فَأَجَلَّتُهُ وَأَكْبَرْتُهُ »<sup>(١)</sup>.

---

(١) السحاب الأحمر — ٢٣

وفي هذا السمو يتجدد الدين، وتجيء الرسالات، وتبارك الدَّعَوَاتُ، وكذلك يرى الرافعي « أن الحبَّ الصحيح — إذا سَلِمَتْ فيه دَوَاعِي الصَّدْرِ، واعتدَلَتْ بِهِ نَوَازِي الكِبَدِ، وتوثَّقَ فِيهِ عَقْدُ النِّيَّةِ، واستَوَى غِيْبُهُ وَمَشْهُدُهُ، كَانَ أَشْبَهَ بِقُوَّةِ سَمَاقِيَّةٍ تَعْمَلُ عَمَلَهَا لِتُبْدِعَ مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ شِعْرًا أَسْمَى مِنْ حَقَائِقِهَا، كَمَا كَانَتْ الْإِنْسَانِيَّةُ نَفْسَهَا قُوَّةً عَمَلَتْ أَعْمَالَهَا لِتُبْدِعَ مِنْ حَقَائِقِ الطَّبِيعَةِ أُخْيَلَةً أَجْمَلَ مِنْ مَادِّيَّهَا؛ فَشِعْرُ الْعَقْلِ تَخْلُقُهُ الْإِنْسَانِيَّةُ مِنَ الطَّبِيعَةِ بِالْعِلْمِ، وَشِعْرُ الْقَلْبِ يَخْلُقُهُ الْحُبُّ مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ بِالْجَمَالِ، وَمِنْ ثَمَّ فَالْحُبُّ كَالطَّبِيعَةِ بَيْنَ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ، أَلَا تَرَاهُ يَأْبَى حِينَ يَكُونُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ وَحْدَهُ هُوَ الْحَقُّ؟ »<sup>(١)</sup>.

### لؤلؤة الاجتماع

كَانَتْ هُنَاكَ أَفْكَارٌ وَدَعَوَاتٌ مُتَرْجِمَةٌ بِأَقْلَامٍ مُخْتَلِفَةٍ فِي مَوْضُوعَاتِ الْحُبِّ وَالْجَمَالِ<sup>(٢)</sup>، وَكُلُّهَا يَنْحُو مَنَحَى الْحَوَادِثِ، مِمَّا تَكْثُرُ صَوْرُهُ فِي الْقِصَصِ وَالرَّوَايَاتِ بِسُوقِيَّةٍ مُبْتَدَلَةٍ، وَتَخَانِيثٍ وَمُعَابَثَاتٍ كَانَتْ خِشْيَةً الرَّافِعِي مِنْ شُيُوعِهَا « أَنْ تَنْزِلَ بِالصِّفَاتِ السَّامِيَةِ إِلَى الدُّهُمَاءِ وَالْأَوْشَابِ، وَهَذَا الْهَمَجُ الْهَامِجُ فِي إِنْسَانِيَّةِ الْحَيَاةِ — وَقَدْ نَحَلُّوْهَا مِنْ طِبَاعِهِمْ لَا طِبَاعِهَا أَسْمَاءً، فَتَغْدُو الْفَضِيلَةُ عِنْدَهُمْ غَفْلَةً، وَالسُّمُو كِبْرِيَاءً، وَالصَّبْرُ

(١) أوراق الورد — ٢٤

(٢) منها ترجمة رسائل الغرام لسليم عبد الأحد، وقد نُشِرَتْ فِي « الْبَيَانِ » مُنْجَمَةً، ثُمَّ دَارَتْ فِي مَطْبُوعٍ، وَكَذَلِكَ آراء شوبنهاور، وَأَفْكَارُ مَآكِسْ نُورْدُو الَّتِي تَوَلَّى نَقْلَهَا الْعَقَادُ وَبَقِيَّةُ تَرَاجِمَةِ الْوَكَالَةِ!



بلاذة، والأنفة حماقة، والروحانية ضَعْفًا، والعِفَّةُ حَيَّةٌ، والحُبُّ اسمُهُ  
الْفِسْقُ»<sup>(١)</sup>.

ذلك أن اضطراب الأيام السياسية، وتقلب الحال الاجتماعية، وتفرق  
الأفكار آنذاك — ولا سيما عقيب الانقلاب الاتحادي وما لحقه من  
مجزرة (اسلام بول) ونزول السلطان عبد الحميد عن عرش الخلافة،  
وتفاقم خطر الاختلال بمصر، الى الدرجة التي استطاعت فيها الفئة الباغية  
من ذوي النزعات الإلحادية من « الماسون » وسواهم، ممن كانوا يعتنون  
أنفسهم بذوي « المصالح الخاصة »، الهيمنة على مقادير البلاد هنا وهناك.

كل أولئك أوجد حالة مأساوية للفكر العربي بخاصة والانساني  
بعامة،.. كان من بعض ذيولها الموافقة على مناهج « دانلوب » التبشيرية  
في التعليم والتأليف الدراسي بمصر، ثم ما كان من ذر الفتنة الطائفية  
الرعناء التي أودت بحياة رئيس النظار بطرس غالي، في ذلك الفصل  
من تاريخ مصر الضليل الذي تنطع فيه الخونة بالعمالة والدناءة.

كما أن الدعوة الاسلامية كانت في حال من الضعف وسيطرة الجبرية  
والزهد على أصحابها بحيث تباعد بهم عن الحياة.

« فالزاهد يحسب أنه فر من الرذائل الى فضائله، ولكن فراره من  
مجاهدة الرذيلة هو نفسه رذيلة لكل فضائله!.. »

وماذا تكون العِفَّةُ والأمانة والصدق والوفاء والبر والإحسان وغيرها،  
إذا كانت في من انقطع في صحراء أو على رأس جبل؟!

(١) أوراق الورد — ٢٢

أيزعم أحد أن الصّدق فضيلةٌ في إنسانٍ ليسَ حوله إلا عشرة أحجار؟!

وأيُّ الله إنَّ الخالي من مجاهدةِ الرذائلِ جميعاً، لهو الخالي من الفضائلِ جميعاً<sup>(١)</sup>.

لقد مكن هذ وسواه من أن يتصدى الصليبيون العائدون وعملاؤهم في البلاد للإسلام ودينه القويم، ونبه الأمين، وأهليه؛ يتهمونهم بأسوأ التُّهم<sup>(٢)</sup> مُمهدين بذلك للإثمار في الحركات التبشيرية والمفارقة التي كانت حتى ذلك الوقت تُعاني من المقاومة الاعتقادية بشكلٍ ما.

### الواجب القومي

ومن هنا وجد الرافعي أن الواجب القومي يدعو للارتفاع بالدعوة العربية المؤمنة الى منزلة من الاستشراف والمحجة؛ يُصور فيها للناس بوازع من ضميره اليقظ هُذاك أمام الغزو الفكري الأثيم؛ أن الإسلام الحنيف والايمان العظيم يتمثلان في سمو الحب والعاطفة الإنسانية، ولا تنفرد النصرانية بذلك، ولا تمتاز بدين المحبة كما يُصورها ذلك الغزو، وإنما الدين الحنيف هو الإخلاص في الحب لا الحب وحده، ولهذا سُمي الإسلام دين الإخلاص، وفي هذا التسامي يقول:

« الحب إيمان النفس بكائن ظاهر، والدين إيمانها بكائن خفي،

(١) وحي القلم ٢ — ٩٧

(٢) راجع الباب الأول، وأنظر أنور الجندي في (معركة التغريب)!!

ألا يكون ذلك أسلوباً في الطبيعة لحفظ الإيمان في الإنسانية؟! «<sup>(١)</sup>.

ألا تراه يُردُّ على اعتراض الخطيب بقوله: «إن الحُبَّ ناموسٌ لا يَمْنَعُهُ شَيْءٌ، وتركُ الكتابةِ فيه لا يَمْنَعُ وقوعه، والوجهُ أن يُكْتَبَ في إصلاحه وتطهيره وتحويله إلى المعاني الروحانية ليكون وسيلةً سُمُو»<sup>(٢)</sup>.

ولما كان القلبُ «هو سرُّ الجمال الإنساني؛ لأنَّ فيه بركة النفس وزينتها وسكنها، فالبركة تنبت من الخلق الطيب، والزينة تخرج من الفكر الجميل، والسكن يُبْتِ بالإيمان واليقين، وما جمال النفس الإنسانية إلا خلق وفكرة وفضيلة مؤمنة»<sup>(٣)</sup>.

### تمام الشريعة

ومن ذا الذي يكشفُ هذا السرَّ غيرُ الكاتبِ البليغِ الذي هو من روح الدين وتمام الشريعة واتساق العقيدة في الإنسانية، غيرُ مَنْ كانَ في مواهبِ قلمه لقباً من ألقابِ التاريخ؟

ذلك الذي يستطيعُ تفسيرَ الحياةِ بإعادةِ تلويحها، والتنبؤِ على مكامنِ السرِّ والقوةِ فيها، وهل حازَ الفلاسيقةَ والمفكرون في تعريفِ شيءٍ كما حازوا وتمذَّبوا طرائقَ في تفسيرِ ظاهرةِ الجمال؟

(١) أوراقُ الورد — ٢٤٣

(٢) من رسالته المؤرخة في ١٩٣١/٣/٦ م

(٣) رسائل الأحرار — ١٠٦

## ميدان التجربة

إنَّ الرافعي ليجعلُ من نفسه ميدانَ التجربةِ والتفسيرِ، فيُصيبُ من الأهدافِ ما فاتَ أولئك إذ يقولُ:

إِرْسِمُوا شَخْصَ الْوَفَا ثُمَّ انْظُرُوا مِنْ بَعْدُ رَسْمِي  
لو يُسَمَّى فِي الْأَنَامِ الْحُبُّ مَا اخْتَارَ سِوَى اسْمِي

وهل سُمي الحبُّ في غيرِ الاصطفاءِ الصادقِ ورفَعَتِه؟  
إنَّه يَخْتَرُقُ الصفوفَ وَيَمْضِي إِلَى الْغَايَةِ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ:

«لو أَنِّي سُمِّيتُ لِعَلِمِ الْجَمَالِ لَسَمَّيْتُهُ «عِلْمَ تَجْدِيدِ النَّفْسِ»!..  
فإنَّ الجميلَ الذي لَا يُجَدِّدُ بِمَعَانِيهِ حَوَاسِكَ وَعَوَاطِفَكَ وَيُعِيدُهَا غَضَّةً  
طَرِيَّةً كَمَا فُطِرَتْ مِنْ قَبْلُ، لَا يُسَمَّى جَمِيلًا إِلَّا عَلَى لُغَةِ الْمَجَازِ»<sup>(١)</sup>.

وَلَيْسَ بِجَمَالٍ إِلَّا ذَلِكَ الرُّوحُ الَّذِي يَرْفَعُ النَّفْسَ إِلَى أَفْقِ الْحَقِيقَةِ  
الْجَمِيلَةِ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهَا مِثْلَ الْقُوَّةِ الَّتِي يَطِيرُ بِهَا الطَّيْرُ، وَيَدْعُهَا بَعْدَ  
ذَلِكَ تَتْرَامِي بَيْنَ أَفْقٍ إِلَى أَفْقٍ»<sup>(٢)</sup>.

وهو إذْ يَحْلُلُ الْجَمَالَ يَرْقِي فِي تَفْسِيرِهِ فَرِيدٍ فَيَقُولُ:

«الجمالُ فِي حَقِيقَتِهِ الَّتِي لَا تَخْتَلِفُ عَلَى التَّأْوِيلِ والتَّعْلِيلِ، إِنَّمَا  
هُوَ مَعْنَى مِنَ الْمَعَانِي يَعلُقُ بِالنَّفْسِ فَيُحْدِثُ فِكْرًا مُتَمَكِّنًا تَتَطَاوَعُ لَهُ  
النَّفْسُ الْعَاشِقَةُ حَتَّى تَنْطَبِعَ عَلَيْهِ، وَحَتَّى يَنْطَبِعَ فِيهَا فَيَسْتَحْوِذَ عَلَى الْإِنْسَانِ  
كُلِّهِ بِجُزْءٍ مِنْ عَقْلِهِ، وَمِنْ ثَمَّ يَتَّقِيْدُ الْمَحَبُّ بِقَيْدٍ لَا فِكَاكَ لَهُ؛ إِذْ

(١) المضمَر — نوفمبر ١٩٢٢ م

(٢) السحاب الأحمر — ٢٢

لا يَجِدُ ما يَنْتَرِعُهُ من عَقْلِهِ مِنْهُ، وبهذا يكونُ الجمالُ على مِقْدارِ ما يُحَسِّنُ الإنسانُ أَنْ يَفْهَمَ مِنْهُ، ثم على مِقْدارِ ما يُؤَثِّرُ في هذا الفَهمِ، ثم على مِقْدارِ ما يَثْبُتُ من هذا التأثيرِ، وتلك هي درجاتُ الثلاث؛ فجمالُ تَسْتَحْسِنُهُ، وجمالُ تَعْشَقُهُ، وجمالُ تَجَنُّ به جُنُوناً<sup>(١)</sup>.

## القيم والأعراف

وهو حينَ أنصرفَ الى الجمالِ يَتَأَمَّلُهُ وَيَحْتَ عن آثارِهِ في نَفْسِهِ، وَيَلْجَأُ الى معانيهِ، إنما كانَ يُدْرِكُ هذه الحقيقةَ في الإنسانِ، فأَرَادَ النَظْرَةَ التَّزْيِيهِيَّةَ لَهُ، ليكونَ من ثَمَّ مادَّةَ الفِطْرَةِ الإلهية التي فَطَرَ النَّاسَ عليها، وَلِيَعُودَ الحُبُّ بعد ذلكَ قِيماً وأَعْرَافاً يُتَوَسَّلُ بها الى أَشْرَفِ الغاياتِ وأَسْمَى الأهدافِ.

الحُبُّ عِنْدَهُ « بَعْضُ الإِيْمَانِ، وكما أَنَّ الطريقَ الى الجَنَّةِ من الإِيْمَانِ بِكُلِّ قُوَى النَّفْسِ، فَإِنَّ الطريقَ الى الحُبِّ من قُوَّةٍ لا تَنقُصُ عن الإِيْمَانِ إِلَّا قَلِيلاً، والخُطْوَةُ التي تَقْطَعُ مسافةً قَصِيرَةً الى القلبِ تَقْطَعُ مسافةً طَوِيلَةً الى السَّماءِ<sup>(٢)</sup> ».

ومن ذلكَ كَانَتْ عَزِيْمَةُ المَضَاءِ عِنْدَ العُشَّاقِ، ومُخاطَرَةُ الإِيْمَانِ عِنْدَ المُحِبِّينَ، وصَبْرُ الجِهَادِ لَدَى المُتَمَيِّينَ، بما يُشْرِقُ على أرواجِهِم من يَقْظَةِ الوجدانِ، وما يَنُمُو في أَفْكارِهِم من حَيَاةِ الضَّميرِ، وما يَصْفُو في قُلُوبِهِم من جَلَاءِ البَيانِ وَجَلالِ البَلاغَةِ في الرُّوعَةِ ودليلِ الفِصاحَةِ في الإِعلانِ.

(١) المِضمار — ٤ ديسِمبر ١٩٢٢ م — رسائلُ الأَحْزانِ ١٢٨

(٢) السَّحابُ الأَحْمَرُ — ٢٤

## المترجمات

وَأَحْسَبُ أَنَّ وَقُوفَ الرَّافِعِي عَلَى قَضَايَا مُتَرْجِمَةٍ فِي رَوَايَاتٍ، وَوَقَائِعَ مُقَلَّدَةٍ فِي قَصَصٍ، فِيهَا مِنَ الْأَخْبَارِ مَا يَجِلُّ وَيَحْرُمُ، وَمَا يُوشِكُ أَنْ يَتَهَدَّدَ الْعُرْفُ فِي أَحْصَى مَرَاكِزِ الْحَيَاةِ وَالشُّبَابِ، هُوَ الَّذِي كَانَ يَدْفَعُهُ إِلَى هَذَا السَّبِيلِ الَّذِي اخْتَطَّهُ لِنَفْسِهِ أَوَّلًا، وَلِيَكُونَ بَعْدَ ذَلِكَ سُلُوكًا أَمِينًا لِلْحَيَاةِ عِنْدَ الشُّبَابِ.

أَلَا تَرَاهُ بَعْدَمَا انْقَلَبَ إِلَى مَوْضُوعِ الزَّوْجِ حَيْثُ تَقُومُ لَهُ فِي الشَّرْقِ الْعَرَبِيِّ الْمَخْتَلَفِ عَلَى وَسَائِلِهِ مُشْكَلَةٌ تَعَقَّدَتْ وَالتَّوْتُ مِثْلُ مُعْظَمِ مُشْكَلَاتِهِ الْأُخْرَى — يَقُولُ:

« .. وَمِنْ فَسُوقِ الْكِتَابِ وَالكَثْرَةِ مِنَ الْعَبَاقِرَةِ أَنَّ الْحَيَاةَ طَعَتْ فِيهِمْ طُغْيَانَهَا الْعَصَبِيَّ الشَّدِيدَ؛ يُرِيدُونَ الْمَرْأَةَ الْمُغْلَّةَ كَأَنَّهَا مِنَ الْفَنِّ الْحَيِّ تَعَلُّ عَلَيْهِمْ مِنْ ثَمَرَاتِهَا، وَهَؤُلَاءِ تَرْكَةُ عَلَى الْفَنِّ، وَلَكِنَّهُمْ بَلَاءٌ عَلَى الدِّينِ وَالْفَضِيلَةِ، وَمِنْ سُخْرِيَّاتِ الْحَيَاةِ بِهِمْ، أَنْ يَكُونَ الْعَبْقَرِيُّ فِيهِمْ هُوَ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى الْحَيَوَانِ الْعَظِيمِ »<sup>(١)</sup>.

## إنشاء الأمة السامية

إِنَّهُ يَتَحَامَى بِالشُّبَابِ عَنْ مَوَاطِنِ الشُّبُهَاتِ، وَيَرْتَقِي بِهِمْ صُعْدًا إِلَى الْفَضِيلَةِ، سُمُومًا بِالْحَيَاةِ نَفْسِهَا، وَلِذَلِكَ كُلُّهُ.. مَا كَادَ يَنْتَهِي مِنْ حَلَقَاتِ أَدَبِهِ هَذَا فِي الْحُبِّ وَالْجَمَالِ وَفِلْسَفَةِ الْحَيَاةِ، فَيُخْرِجُ فِيهَا رَوَائِعَهُ فِي

(١) مجلة الاشاعة — ١٩٣٤ م — الرسالة — ٤٨٢، ثم أزمة الزواج — ١٩٤

« حديث القمر » ومناجاته، وفصولاً منه جعلها رسائل ثم سماها على (الأحزان) التي انتهت إليها، حتى عادَ يَستَطرُ « السحاب الأحمر » جَلِيلَ معانيه، وطَفِقَ يَخْصِفُ عليه من (أوراق الورد)، وقد همَّ أن يَجْعَلَ ربيع كلِّ عامٍ مَوْعِداً مع الحُبِّ في أناشيده العُلوية مع الرُّوح الانسانية<sup>(١)</sup>.

ويُثَبِّتُ في كُلِّ ذلك وجوده الفكري والاعتقادي معاً في تجديد عطاء العربية في آدابها صفة ومادة؛ يتحوَّل بها الى جوانب الحياة والاجتماع. يَخْصُصُها بالدراسة والتأمل، وينتهي معها الى أحكام وحقائق لا عبر وعظائم فحسب!

على أن كُتِبَ هذه لم تكن وفقاً على الحُبِّ وخاصَّ معانيه، ولا الجمال وأسراره، وإنما ضمَّتها دَعْوَتُهُ العربية المؤمنة التي أرادَ بها إنشاء الأمة إنشاء سامياً، كما هي مهمة الأديب عنده.

ولما كانَ (حديث القمر) هو الثمرة الأولى في غرسيه الفكري الأديب، وكونه لم يَظْفَرْ بدراسة أو مناقشة أو مُناظرة، كما ظَفِرَتْ آثاره الأخرى، وإنما أثَّهم بالغموض، فإنِّي لمورد بعض محتوياته من الدَّعوة القومية التي أرادَ الرافعي بها تغييرَ نَمَطِ الحياة الوجدانية لدى شباب الأمة، ليكونوا على بينة من انفسهم أولاً.

كان الكتابُ مقالةً صَرَفَ فيها وَجْهَ الحديثِ الى القمر، وقالَ فيه تورية، وأنَّه هو الذي سَمَّى حبيته (القمر) لَفَرَطِ جمالها<sup>(٢)</sup>. وقد

(١) محمد الصاوي عمار : المعرفة ٣ — ١٩٣١ م

(٢) رسائل الرافعي — ٦٤

كَتَبَهُ « عَلَى نَمَطٍ مِنَ الْكِتَابَةِ يَجْعَلُ طَالِبَ الْإِنْشَاءِ بِإِدْمَانٍ قِرَاءَتَهُ وَتَأْمُلُهُ مُنْشِئاً؛ إِذْ يُرَبِّي فِيهِ مَلَكَةَ التَّخْيُّلِ الصَّحِيحِ الَّتِي هِيَ أَصْلُ الْبَلَاغَةِ، وَلَا بَلَاغَةَ بِدُونِهَا » كَمَا أَعْلَنَ ذَلِكَ عَلَى غِلَافِهِ<sup>(١)</sup>.

ثُمَّ أَنَّهُ مَرَّ عَلَيْهِ، وَأَصْلَحَ مِنْهُ قَلِيلاً مَا يَسْتَبِينُ بِهِ بَعْضُ مَعَانِيهِ، مَعَ إِضَافَةِ قَلِيلٍ مِنْ شَرْحِ الْمُفْرَدَاتِ؛ لِيَكُونَ فِي الطَّبْعَةِ الثَّانِيَةِ شَيْءٌ جَدِيدٌ<sup>(٢)</sup>.

غَيْرَ أَنَّهُ رَأَى « أَنَّ الْكِتَابَ يَحْتَاجُ إِلَى زِيَادَةٍ بَسْطَ، وَرَبَّمَا احتَاجَ إِلَى كِتَابَةٍ جَدِيدَةٍ فِي بَعْضِ فُصُولِهِ وَجِهَاتِهِ، فَادَّخَرَ ذَلِكَ إِلَى الطَّبْعَةِ التَّالِيَةِ مَتَى هَذَا الزَّمَنُ قَلِيلاً<sup>(٣)</sup>.

كَتَبَ « حَدِيثُ الْقَمَرِ » عَلَى أُسْلُوبِ الْمَقَالَةِ الْبَيَانِيَةِ<sup>(٤)</sup> وَالطَّرِيقَةِ الشَّعْرِيَّةِ فِي تَوْلِيدِ الْمَعَانِي وَتَرْكِيبِ الْخِيَالِ<sup>(٥)</sup> وَتَفْتِيقِ الذَّهْنِ لِانْتِثَالِ الْأَفْكَارِ وَتَسَاوُقِ الْآرَاءِ مَعَ نَعَمِ الْعِبَارَةِ الْفُضْحَى، وَوَفَاءِ الْأُسْلُوبِ وَرَوْعَةِ الْبَيَانِ، وَانْتِظَامِ صُورِ الْمَقَابِلَةِ، وَحُبِّ الْفَنِّ فِي اسْتِقْبَالِ الْبِنَاءِ وَهِيَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي يَكْتُبُ عَلَى نَسَقِهَا فَحَوْلُ أَدْبَاءِ الْأُمَمِ فِي الْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ<sup>(٦)</sup> مِمَّنْ يَتَنَاولُونَ الْبَيَانَ وَالشَّعْرَ وَالْفَلَسَفَةَ فِي مَجَالِ الْأَدَبِ وَالْفِكْرِ؛ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَنْفَسِحُ لَهُمُ الْوَقْتُ وَتَدْعُمُهُمُ الْمَحَافِلُ وَالْمُنْتَدِيَّاتُ.

(١) الطبعة الأولى — الأخبار ١٣٣٠ هـ — ١٩١٢ م

(٢) الطبعة الثانية — المعاهد ١٣٤٠ هـ — ١٩٢٢ م

(٣) لم تتحقق في الطبعة الثالثة — ١٣٤٦ هـ — ١٩٢٨ م هذه الأمانة — رسائل ٨٢، أما الطبعات التجارية فقد آذته بالأخطاء.

(٤) راجع الفصل الثالث من الباب الأول.

(٥) الدسوقي — الرسالة — ٥٤٠ خيال الرافعي.

(٦) رسائل الرافعي — ١٨٧



## فهم جديد

يقول الرافي في المقدمة التي جعلها لغرض الكتاب:

« هذه مقالة صرّفت فيها وجه الحديث الى القمر، وبَعثتُ الى الكون في أشعة كلماتها » فكاذ يَشِفُّ عن ذلك الغرض، ثم قال:

كتبْتُها وأنا أتناول ألفاظها من تحت لِساني، وأكشِفُ من قلبي معانيها، وأنفُضُ عليها ألوان الطبيعة التي تُصوِّرُ أحلامَ النَّفسِ وخيالاتها، وأنا أرجو أن أكون وَضَعْتُ لطلبة الإنشاء المتطلعين لهذا الأسلوب أمثلةً من عِلْمِ التَّصوُّرِ الكتابي<sup>(١)</sup> الذي تُوضَعُ أمثلته ولا توضع قواعده؛ لأن هذه القواعد في جُمليتها إنهم ينتهي الى الإحساس، وإحساس ينتهي الى الذوق، وذوق يفيض بالاحساس والإلهام على الكتابة، فيترك فيها حياة كحياة الجمال، لا تُدْخِلُ الروحَ حتّى تَسْتَبِدَّ بها، ولا تَتَّصِلُ بالقلبِ حتّى تَسْتَحْوِذَ عليه، فتكون فكرة في ذاته<sup>(٢)</sup>.

وقد كَشَفَ بذلك عن فلسفته الخاصة في بعث الذات العربية بروحها المؤمن للأديب المنشئ الذي يَبْنِي الفكرَ بياناً، ويفرّده بطابعه الذي يميّزه عن سواه من الآداب والأفكار.

ثم يتحدث عن البلاغة وعُلموها، أو بقايا تلك العلوم التي وَصَلَتْ إلينا بعد انقضاء عصورها، ومرورِ الدهورِ عليها، وتَغْيِيهِ الحداثِ على رَوْنِ الحياة فيها، وكيف عادت تُلَوِّحُ في قواعدها وأمثلتها هاتيك

(١) يريد به محاولة تجديد (البلاغة). وقد مرّ بنا في الفصل السابق سوء ظنه بعلموها التي جعلت الانشاء تصنعاً واستحجرت فيها أمثلتها.

(٢) حديث القمر — ٥

كما تَلُوخُ رسومِ الآثارِ في أرضِ الخرابِ، تتحدّثُ بصوتٍ خافتٍ  
عن حضارةٍ كانت؛ فهو لا يُصرِّحُ بَعْدَمِ نَفْعِ تلكِ العلومِ أو قِلَّةِ جدواها،  
ولنَّما يعرضُ لذلكِ بمثلِ قَوْلِهِ:

« البلاغةُ التي حارَ العُلَمَاءُ في تعريفِها — على كثرةٍ ما خلَّطوا —  
لا تَعْدُو كلمَتَيْنِ: قوَّةُ التَّصَوُّرِ، والقُوَّةُ على صَبْطِ النِّسْبَةِ بينَ الخيالِ  
والحقيقة — وهما صِفَتانِ من قوَى الخلقِ تقابلانِ الإبداعَ والنَّظَامَ في  
الطبيعة، وبهما صارَ أفرادُ الشعراءِ والكتابِ يَخْلُقُونَ الأُمَمَ التاريخيةَ  
خَلْقًا، ورُبَّ كلمةٍ من أحدهم تَلِدُ تاريخَ جيلٍ »<sup>(١)</sup>.

وبعد ذلكِ يَفْتَحُ البابَ على فصولٍ في موضوعاتِ الحياة تَسْتَبِقُهَا  
حَقِيقَةٌ وواقِعًا، وتُخْرِجُ بها بفكرةٍ أو فلسفةٍ، أو نظريةٍ جديدةٍ تَلِدُ تاريخًا  
من التأملِ الواعي والحرصِ الفريدِ؛ الذي يَفْرُطُ أحيانًا فَيَزُوْقُهُ بِقَدَحَاتِ  
الجمالِ، أو يَلْتَفِتُ بِهِ في صِفَاتِ الحبِّ، أو يَعُوْدُ فيَجْعَلُ ذلكَ كُلَّهُ  
عَقِيدَةً مُسْتَقَرَّةً هي من وَحْيِ الإيمانِ الذي يَعْمُرُ قُلُوبَ العُشَاقِ والمُتَيَّمِينَ،  
فَيُمَيِّزُهُمْ مِثَالًا سَوِيًّا لِلإنسانيةِ المُلهِمَةِ التي تَسْمُو إلى الله أبدأً حيثُ  
المثلُ الأعلى الذي لا يُدْرِكُ.

### ثورة قومية

عَقَدَ الفصلُ الأولُ من هذه المقالة للحديثِ عن آلامِ الإنسانيةِ  
وفَلَسَفَتِهَا، فاشْفَقَ على البائسين، وتَوَجَّعَ للمحرومين، وَمَسَحَ دُمُوعَ  
المُحِبِّينَ البائسين، ووَاسَى سِوَاهُمْ من المُعَذِّبِينَ الباكين، والآخِرِينَ

(١) حديث القمر — ١٠

الشاكين، وتَفَلَّسَفَ لهم في ذلك ما شاء؛ لا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ آلامَهُمْ، وإنما يَنْبَهُهُمْ إلى مواقعهم في الحياة ما امتدت نوازعُه الوجدانية في الفلسفة والاجتهاد، فهو يقول مثلاً: « ما إن رأيتُ بأكياً إلا رأيتُ وجهه مُقْبِلاً عليَّ يَسْأَلُنِي: ترى من أين يُذْبِحُ الإنسانُ إذا كانت دموعُه دِمَاءً رَوْحِهِ؟ »<sup>(١)</sup>.

ذلك أن الدُّمُوعَ لم تُعَدْ دموعاً على طَبِيعَتِهَا؛ بَلْ هي عِلَامَاتُ الأَلَمِ والسُّخْطِ؛ الأَلَمِ من المخلوقِ والسُّخْطِ على الخالقِ؛ فهي أَلْفَاظٌ من لُغَةِ العَجْزِ، قد تكون أَفْصَحَ منها في الأداءِ كلماتُ السَّفاهِ والْحِنَقِ وما إليها»<sup>(٢)</sup>.

ولا يترك هذه الحالَ هكذا، وإنما يَعُودُ بالقارئ — وقد أَرَادَهُ أديباً عَرَبِيّاً مُنْشِعاً — إلى الدِّراسَةِ والتَّأمُّلِ في هذا الموضوعِ الخطيرِ، فيقول:

« وَأَنْتَ إِذَا أُرِدْتَ أَنْ تَدْرُسَ عِلْمَ الْبَلَاغَةِ مِنْ هَذِهِ الْبَلَاغَةِ الطَّبِيعِيَّةِ، فَادْرُسِ الْمَصَائِبَ وَالْآلَامَ وَالْأَحْزَانَ؛ إِنَّهَا أَقَانِيمُ الْبَلَاغَةِ الثَّلَاثَةُ: الْمَعَانِي وَالْبَيَانُ وَالْبَدِيعُ، وَإِنَّكَ إِنْ دَرَسْتَهَا وَتَدَبَّرْتَ شَوَاهِدَهَا الصَّحِيحَةَ الَّتِي لَمْ تَصْنَعْهَا رِوَاثُهَا، وَلَمْ يَجِئُوا فِيهَا بِمَنْكَرِ الْقَوْلِ وَزُورِهِ، أَصْبَحْتَ أَفْصَحَ مَنْ يَنْطِقُ عَنْهَا فِي هَؤُلَاءِ الْبُكْمِ الَّذِينَ يَقْرَأُ أَحَدُهُمْ صَفْحَةَ الزَّهْرِ بِعَيْنَيْنِ فِي مَنْخَرِهِ، وَلَا يَسْتَحْيِي الْعَبِيَّ أَنْ يَقُولَ لَكَ: إِنَّ فِي الزَّهْرَةِ مَعْنًى جَمِيعاً؛ كَأَنَّ فِي أَنْفِهِ عَقْلاً مِنْ الْعُقُولِ الْعَشْرَةِ »<sup>(٣)</sup>.

(١) حديث القمر — ١٢

(٢) حديث القمر — ١٥، والعقولُ العشرة هي من نظرية المعرفة عند اليونان وتوزعهم للعلوم — أنظر كتاب (الأخلاق) لأرسطو — ترجمة لطفی السيد.

في هذه الفقرة ثورة حقاً؛ تجتث جذور التخلف في دراسة البيان العربي عميت عنها عيون شائيه — من مدعي التجديد والفكر والمعاصرة — ولو وافقت منهم هوى يدرك، أو فهماً يستوعب، لأقاموا الدنيا وراءها ضجة وتهريجاً، ولما بخلوا عن نعتها بالخارقة.. وهي عندي تمثل شارة البدء، ومنطلق الاتجاه، والولادة القومية للأخذ بزمام المبادرة في الإقبال على الحياة وفقها، والمساهمة بدراسة جوانبها جميعاً، ومناولة الأدب العربي الرسالة في هذا المضمار الوليد، من الروح الإنسانية الصابرة على كفاح الأيام.

ولذلك تراه في الفصل الثاني كالذي ينفجر يذيع بيان تلك الثورة، ويقف بالأمة على مقدماتها؛ فيصف ضمير الطبيعة في استبداد الطغاة، وظلم المساكين، وحالها مع الشعب الضعيف المستكين وما يعوزُهُ من غنصر التكافؤ النفسي فيقول:

« من الذي ينكر أن استبداد الملوك الطغاة، وما إليه من استرقاق الشعوب وتعبير الضعفاء، وظلم المساكين إنما هي أحلام مزعجة من أحلام الإنسانية؟ »

أنظر: أترى ثمة شعباً مستعبداً يجتمع كما تتراكم الأنقاض، ويفترق كما تتبدد وليس منه في الاجتماع والتفرق إلا صورتان للخراب<sup>(١)</sup>.

إنك لتتظر الشعب الذي يحلم وهو مستيقظ — ألا تراه يعمل على السخرة؟ ويُطيع بالإرادة أو بالوهم الذي صار له كالإرادة؟ ويشك

(١) حديث القمر — ٢٦ .

في أنه يخاف من المُستبدِّ، أو يخاف من أن يشكَّ فيه، ويرجو على قُوَّته ما يَرْجُوهُ الأَجِيرُ أَنْ يَمْلِكَ يَدَهُ سَاعَةً لِيَتَنَاوَلَ بِهَا لُقَيْمَاتِ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، وَأَنْ يَنْتَهِيَ عَمَلُ يَوْمِهِ لِيُوقِنَ أَنَّهُ إِنْسَانٌ كَالنَّاسِ لَهُ يَدٌ يَمْلِكُهَا..

### الرجل الإلهي

هذا دأْبُ الاستبدادِ ودأْبُ الشَّعْبِ الضَّعِيفِ الَّذِي ابْتُلِيَ بِالنَّقْصِ (العوز) عن مكافأةِ المُستبدِّ به، ومُساوَاتِهِ.. وكثيراً ما لا يكون هذا (العوز) فيه إلا بمقدارِ درْهمٍ واحدٍ من الفِضَّةِ التي نَزَلَتْ عن مقدارِ الذهبِ»<sup>(١)</sup>.

بهذهِ الجرأةِ في تَقْرِيرِ الواقعِ الإليمِ الَّذِي كَانَتْ تُعَانِيهِ الأُمَّةُ آنَذاك، من الاستبدادِ والاحتلالِ والطُّياعِ، يَمْضِي لِلْبَحْثِ عَنِ درْهمٍ للشَّعْبِ يَكُونُ بِالشَّعْبِ كُلِّهِ «وَيَجْعَلُهُ مَالِكاً بَعْدَ أَنْ كَانَ مَمْلُوكاً». هذا الدَّرْهَمُ الَّذِي يَبْقَى فِي يَدِ الْقَدَرِ حَتَّى يَجِيءَ يَوْمُ الْحِسَابِ الَّذِي وَعِدَتْ بِهِ الْحَرِيَّةُ الْمَظْلُومَةُ لِلانْتِصَافِ مِنْ ظَالِمِيهَا، فَيُعْطِيهِ اللَّهُ لِلشَّعْبِ، وَلَا يَكُونُ هَذَا الدَّرْهَمُ إِلَّا رَجُلًا، وَلَكِنَّهُ رَجُلٌ إلهي»<sup>(٢)</sup>.

وبعد أن يُعَدَّدَ صفاتُ هذا الرجلِ، ويُعْرَقَ فِي نَعْتِ خَصَائِصِهِ وَمِيزَاتِهِ، وَيُبَالِغَ فِي وَصْفِ الدَّوَائِرِ الَّتِي تُلْجِدُ لَهُ، وَكَيْفَ يَتَخَطَّى قُبُورَهَا، يَنْتَهِي إِلَى حَقِيقَتِهِ فِي مِرَاةِ الْإِعْتِقَادِ حَيْثُ يَرَاهُ عَنْ مُعَايِنَةٍ: «لَا يَنْتَنِي لِأَنَّهُ الْحَقُّ، وَلَا يَنْحَرِفُ لِأَنَّهُ الْعَدْلُ، وَلَا يَخَافُ لِأَنَّهُ الْبَاسُ، وَلَا يَضْعُفُ

(١) حديث القمر — ٢٨

(٢) حديث القمر — ٣١

لأنَّه القوَّة، ولا يَحيِفُ لأنَّه الإنصافُ، ولو تَعَلَّقَ بِهِ أَهْلُ الأَرْضِ جَمِيعاً  
لمَشَى بِهِمْ مُطْمَئِنِّاً؛ لأنَّه في نَفْسِهِ كَقِطْعَةٍ من نِظامِ السَّمَاءِ الذي يَجْذِبُ  
الأَرْضَ في فِضَائِهَا .. ماذا ما انْتَقَلَ الى خَبْرِهِ عادَ يَقولُ:

« هذا الرَّجُلُ هو الذي يَتَعَرَّفُ بِهِ النَّاسُ معاني اصطِلاحاتِ النفسِ  
القَوِيَّةِ، كالشَّهامةِ والنَّجدةِ والصِّدْقِ والإِخلاصِ والإِثَارِ، وما إليها من  
سائِرِ المُفرداتِ التي يَتَأَلَّفُ مِنْهَا مُعْجَمُ الفِضيلةِ »<sup>(١)</sup>.

وهكذا حَتَّى يُصَرِّحَ قائلًا:

« أَرَأَيْتَ إِذَنْ مَقْدَارَ الدَّرْهِمِ الذي يُعَوِّزُ الشَّعْبَ؟ »

وكانت هذه الفَقَرَاتُ وما يَلْحَقُها من الكَلِماتِ الأَخْرياتِ من أُولَيَاتِ  
مَحفوظاتِ الشَّبابِ في المِدارسِ والمعاهدِ عِنْدَ فِجْرِ الثَّورَةِ العَرَبِيَّةِ في  
مِصرَ بِهلالِ ذِي القَعْدَةِ ١٣٧٢ هـ فَقَدْ سَبَقَها الرَّافِعِي بالدَّعْوَةِ نِصفَ  
قَرْنٍ!..

\* \* \*

## الفلسفة والفكر

ومن هُنا يُطَلَّ على الفِصلِ الثَّالثِ، لِيَتَكَلَّمَ في مَسْأَلَةِ المِساوِلِ الفِلسَفيَّةِ  
في السَّعَادَةِ، وَكُنْهَها، وَضلالِ الفِلاسِفةِ بَنيهِم في ظُنُونِهِم، فيقولُ:  
« لَشَدُّ ما اجْتَهَدَ العُلَماءُ والفِلاسِفةُ في تَعْرِيفِ السَّعَادَةِ، وَلَكِنَّهُمْ عَرَّفُوها  
بِتَنكِيرِها، إِذِ أَلْبَسُوها أَلْفاظاً من لُغَةِ البُؤْسِ كَانَتْ لَها كِثيابُ الجِدادِ؛

(١) حديث القمر — ٣٢

التي هي أكفأ الحي المتصل بالموت! فاذا أردت السعادة من تعريفاتهم، وانتقيتها من أوصافهم، فإنك تكون سعيداً جداً؛ لأن كل واحد منهم يتوهمك سعيداً متى لبست تعريفه، ولا صبر أن تبقى بازاء كل هذا النعيم بائساً في يقينك»<sup>(١)</sup>.

إنه يرى السعادة — التي ضلّ ضلال الفلاسفة والعلماء فيها — طفولة القلب، راجعاً بالإنسانية الى الفطرة الإلهية التي فطر الناس عليها، بعيداً عن تعقيد الحياة، ويبين من ثم كيف تذهب هذه السعادة بالبخل والاحتضار، وتصدف عن الفقراء بالجريمة<sup>(٢)</sup>.

ويتسامى في وعظٍ موفقٍ عائداً الى فلسفته الخاصة بتربية الضمير، حتى يرى الرأي السامي الذي حث الإسلام عليه « الصبر والقناعة وشرف الضمير، يشتري بها الانسان هناء القلب، وعافية الجسم، ومحبة الناس، وثواب الله وابتسامة الموت »<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

## الشعر

ثم يمضي كذلك في هذه الأسس التي يبني عليها الحب كالذي ينشئ الأمة إنشاءً سامياً في معهد الحياة، لتخرج في التاريخ صورة أخرى، فيعقد فصلاً للشعراء باعتبارهم أول ما في الإنسانية من الإنسان، فيخيل إليه جمعهم وقد أقبلوا: « ينظمون الشعر الإلهي الذي تمتزج فيه ألحان الملائكة بأنغام الطيور، وآهات العشاق، فيمتلئ من أسرار

(١) حديث القمر — ٣٤

(٢) حديث القمر — ٤٤

(٣) حديث القمر — ٥٠

الفكر والعاطفة والقلب، ويكاد يَخْلُقُ منه العقل، وترى فيه الروحُ باباً من أبواب السماء كأنه الطهارة، وكنناً من أكنان الطبيعة كأنه القناعة، ومنفذاً من منافذ القلوب كأنه الحب، وإذا كلمات تملأ ما بين السماء والأرض، ثم ترى الفكرَ الإنساني — وقد استحال الى أمواج من الخيال؛ يجري فيها القلب كأنه زورق، وما هي إلا أن يحتويها حتى تتناول مجدافه المصنوع من جوهر العواطف، والذي لا يبرح ملتصقاً به كأنه يدُ الحسنة على قلب عاشقها.. ومن ثم يجري بها في بحر الجمال الذي تشبه السماء كلها موجةً من أمواج الأبدية، والذي لا ساحل له الا نورُ الفجر»<sup>(١)</sup>.

ولكنه فتش في شعراء الشرق عن «رجل الكمال السماوي» هذا الشاعر الصحيح الذي لو عدا طور التكوين الشعري، لما كان منه غير نبي، فلم يجد في الشرق العربي من يصلح وجهه في شعره لتلك الصورة؛ ذلك أن العظائم الكبرى التي يتمثل بها تاريخ العقل الإنساني، هي أفكار ولدت بدياً في قرائح الشعراء، ثم كفلتها الطبيعة في مهد من قلب امرأة جميلة، أو تمهد لها في عقل رجل حكيم، أو فيما تختاره هي كائناً ما كان»<sup>(٢)</sup>.

ومن ذلك فإن الشاعر الزائف، كالدينار الزائف؛ كلاهما رذيلة في نفسه بالغش، ومصيبة على غيره بالخسارة.

\* \* \*

(١) حديث القمر — ٥١

(٢) حديث القمر — ٥٣



## المعركة الفكرية

وبعد ذلك يَفْتَحُم بالشبابِ المحبِّ على المعركةِ الرَّهيبةِ التي غَزَا بها الغربُ في بعضِ عَقَائِدِهِ، ونَظَرِيَّاتِ أَفْكَارِهِ المَجْلُوبَةِ؛ فَيَعْرِضُ بِهِم للإلحادِ والفِئَةِ الباغيةِ التي تُلْحِدُ للعقلِ الإنساني فتصرفه عن حُرِّيَةِ الفكرِ.

ذلك أنَّ « المُلْحِدَ بِسَخَافَتِهِ يَكْفُرُ بِاللَّهِ، وَيُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ بَعْضَ عَمَلِ اللَّهِ؛ فَهُوَ لَا يُقَرُّ بِشَيْءٍ يُسَمَّى فَلَاسِفَةُ النَّفْسِ، أَوْ يُسَمَّى دِينًا، فَهُوَ يَكْفُرُ بِإِيمَانِكَ لِجَعْلِكَ تُؤْمِنُ بِكُفْرِهِ »<sup>(١)</sup>.

وبعد أن يرى تَهَافُتَ أَفْكَارِ المُلْحِدِينَ فِي مَزَاعِمِهِمْ وَدَعَوَاتِهِمْ وَتَنَاقُضُهَا يَقُولُ:

« أَيُّ بُرْهَانٍ أَقْوَى عَلَى فَسَادِ الإِلْحَادِ مِنْ إِرَادَتِهِ أَنْ يَكُونَ فِي المُلْحِدِ عَقْلٌ إِنْسَانِي وَقَلْبٌ وَحْشِي؟ » فَقَدْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ أَنْشَطُوا الْفِكْرَ مِنْ عِقَالِهِ، فَكَانَ مِنْ ذَلِكَ مَا انْتَهَوْا إِلَيْهِ، فَكَانَتْهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الدِّينَ الْفَلَسْفِي فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ الرَّجُلُ الْحُرُّ، فَمَا بِهِمْ يَنْسَوْنَ أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ عَيْنَهَا تُخْرِجُ لَهُمْ — لَوْ عَقَلُوا — أَنَّ الْحَرِيَّةَ فِي الْحَقِيقَةِ هِيَ فَلَاسِفَةُ الدِّينِ «؟»<sup>(٢)</sup>.

وَيَنْتَقِلُ إِلَيْهِمْ يَتَأَمَّلُهُمْ فِي مُضْطَرَبِهِمْ هَذَا فَيَقُولُ:

« لَوْ رَأَيْتَ فِرْقَ الْجَدَلِيِّينَ الْمُخْتَلِفَةَ — عَلَى كَثَرَتِهَا وَتَعَدُّدِ مَذَاهِبِهَا — لَرَأَيْتَ أَنَّ كُلَّ فِرْقَةٍ هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ عَقْلُ رَجُلٍ ذَكِيٍّ، لَا دِينَ رَجُلٍ عَاقِلٍ؛ لِأَنَّ الدِّينَ لَا يَتَجَزَّأ؛ إِذْ هُوَ عِبَادَةُ الْقَلْبِ — الَّذِي لَا

(١) حديث القمر — ٦٠

(٢) حديث القمر — ٦٥

(٣) حديث القمر — ٦٦

يَذُلُّ عَلَى وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ فِي شَيْءٍ مِثْلُهُ لِلَّهِ الَّذِي لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ»<sup>(١)</sup>.

وعندما يصلُ الى هذا المُفْتَرَقِ فِي مَنَازِلَةِ قُوَى الْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ فِيخْذِلَهَا وَيُعْطِي إِشَارَةَ الْبَدْءِ لِيَجْتَنِّهَا مِنْ أَصُولِهَا، بَعْدَ أَنْ أُسْقِطَ عَلَيْهَا عَرْشَ طُغْيَانِهَا هَكَذَا، يَلْتَفِتُ إِلَى الْمُوَازَنَةِ الْعَادِلَةِ بَيْنَ أَنْ تَكُونَ الْقُوَّةُ آتِيَةً لِلْقَلْبِ مِنَ الْعَقْلِ، وَبَيْنَ أَنْ تَكُونَ آتِيَةً لِلْعَقْلِ مِنَ الْقَلْبِ؛ فَالْعَقْلُ مَوْضِعُ الْخَطَأِ وَالصَّوَابِ؛ لِأَنَّهُ آلَتْهُمَا جَمِيعاً، وَأَظْهَرُ خَوَاصِهِ الشُّكُّ (تَأَمَّلْ)؛ لِأَنَّهُ الْخَاصِيَّةُ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تُوفَّقَ بَيْنَ الْخَطِ وَالصَّوَابِ قَبْلَ أَنْ تَنْزَايِلَ اثْنَاهُمَا فَيَتَبَايَنَا..

«أَمَّا الْقَلْبُ فَهُوَ مَوْضِعُ الْحَقِيقَةِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي تَظْهَرُ بَيْنَ النَّاسِ فِي هَيَاتِهَا فَيُسَمُّونَهَا الْمَحَبَّةَ، وَبَيْنَ الْمَلَائِكَةِ فَيُسَمُّونَهَا الْإِنْسَانِيَّةَ، وَعِنْدَ اللَّهِ فَيُسَمِّيَهَا الْإِيمَانَ»<sup>(٢)</sup>.

وهكذا حتى يَتِمَثَّلَ لَهُ أَنْ يَرَى فِي نَفْسِهِ ذَلِكَ الْإِنْسَانَ الْمَحَبُّ الْقَوِيمَ — وَقَدْ كَرَّمَهُ اللَّهُ أَمَامَهُ فَقَالَ:

«أُسْعِدُ النَّاسَ، وَأَهْنَأْهُمْ بِسَعَادَتِهِ ذَلِكَ الَّذِي يَجْمَعُ قَلْبُهُ وَعَقْلُهُ أَنْ لَا يُضْدَرَ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ إِلَّا رَاضِياً مَرْضِياً، فَتَرَى فِي آثَارِ عَقْلِهِ طَهَارَةَ الْقَلْبِ وَإِيمَانَهُ، وَفِي آثَارِ قَلْبِهِ إِجَادَةَ الْعَقْلِ وَإِحْسَانَهُ. وَلَوْ كُشِفَ لَكَ عَنْ بَوَاطِنِ الْأَشْيَاءِ لَتَجَلَّتْ لِعَيْنِكَ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ»<sup>(٣)</sup>.

(١) حديث القمر — ٦٦

(٢) حديث القمر — ٦٧

(٣) حديث القمر — ٦٧

وهل تراءى هذه الحقيقة في غير فقهاء الأمة هذه وعلمائها؟! أولئك الذين أرفدوا الفكر الانساني بعباء دونه عطاء الأمم كلها مجتمعة. وهذه الحقيقة هي التي تعامى عنها بصائر شائبة من النقاد الموثورين، فاتهموه بما شاءت لهم سخائم أنفسهم من الاتهام والإيذاء<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

### الجمال والخير

ولما تمثل له ذلك الانسان السوي الذي كرمه الله بالوجود، ونعمته بالعقل، ووفاه بالدين، دلف الى الفصل الآخر؛ ليتحدث لذلك الانسان عن الفكر وحدود الطبيعة التي تحفظ له توازنه وتقيه معبة الانحراف أو الشطط، وتحول دون انزلاقه أو ترديه في السقوط فقال:

« إذا استطاع المرء أن يتحد بقضاء الله وقدره، فلا يتسخط أحدهما، ولا يتبرم بأمر الله، فقد استطاع بذلك أن يتيسم الابتسام الإلهي الذي يكون علامة نبوته الإنسانية، في هذه الطبيعة<sup>(٢)</sup> ».

وقد لا يتوفر على ذلك إلا من آتاه الله رحمة من لدنه، ونفساً سواً، وروحاً كريمة تنال من خيره أبداً، فلا تراها إلا مطبوعة على الحرية، ولا تراها ثمة إلا مطمئنة!

(١) راجع طه حسين — الجريدة ١٢/٨ ١٩١٢ م — الجريدة ١٣/٧ ١٩١٣ م وتذكر.

(٢) حديث القمر — ٨٥

« ولولا النفوس التي تُدرك قيمة الجمال ما وُجِدَتْ على الأرضِ نفوسٌ تدرك قيمة الخير، وهل هذا الخير إلا بعض جمال النفوس؟! »<sup>(١)</sup>. فكان طهارة النفس عنده الشرط الملازم لحرية الفكر.

وهل النفس غير العمل؟ وإلا فكيف تُدرك طهارتها من غير معرفة آثارها؟!

ومن هنا تراءى له فلسفة الألم التي جُبِلَتْ عليها النفوس الكريمة، فدار من حولها في الفصل السابع متسائلاً:

« لَيْتَ شِعْرِي ما هي الهموم؟! إنَّ الإنسان يُفسِّر هذه الكلمة المفردة بمجموع ما حفظ من تاريخ مصائبه، ويرى أنه لم يفرغ من الشرح بعد، فكانه يُفسِّر حقيقة الحياة التي تستنفد الكلام كله، ويكون خطأ صراح وصواب ممزوج، ثم تبقى الكلمة الصحيحة عند الله لا يكشف عنها لإنسان، إغلاً يعشاه من سرِّ الألوهية فينتك حجاب قلبه »<sup>(٢)</sup>.

« وما الآلام إلا رياضة نفسية تشتدُّ بها النفوس وتصلب، فلا تهدها أثقال الحياة التي لا يضطلع بها إلا ذو المِرَّة السوي »<sup>(٣)</sup>. فكانه أراد بذلك الإنسان المحب الذي حسن دينه فعرف القدر الإنساني أمام القدر الألهي، فرضي بقضائه، وآمن بهذه الروح التي تجعل منه مثلاً سويّاً للصلاية الاعتقادية التي تستبدُّ به، ويستبدُّ بها على أيامه أبداً، وقد أدرك البلوى ليحسن عمله، ألا تراه يقول بعد ذلك :

(١) حديث القمر — ٨٥

(٢) حديث القمر — ٩٣

(٣) حديث القمر — ٩٥

« الإنسان لم يكن يوماً نسياً من الله، ولكنه يتبدد المكان القصي من الظن، كأنه يرى أن يكون نسياً منه، فهو يشك في رحمة الله وعنايته، كلما ران عليه الخير »<sup>(١)</sup>.

وهذا الشك هو الذي يرجح النفس الانسانية بين الإيمان والكفر، ولا شفاء لها منه بغير الطمأنينة، ولا طمأنينة بلا حب، وإلا فما أذناها من الشقاء؟

« يا شقاء الإنسان ويا ويلة؛ إذ يرسل الله على قلبه شعاع الرحمة والإيمان، ويأبى من غلبت عليه شقوته إلا أن يضرر من هذا الشعاع الإلهي نارا يضيح فيها غذاء شهواته »<sup>(٢)</sup>.

ومن ذلك هذه الحال التي تحتطب للأسوء، وتثير المتاعب، وتعصف هنا وهناك آلاماً ومصائب، لا تفتأ أبداً إلا برحمة من الله، « إن الطبيب الحكيم لا يجاري العليل، ولكنه ينظر إلى العلة، وإن الله سبحانه وله العزة — لا ييالي باضطلاح الناس، ولكنه ينظر إلى مصلحتهم حين يعطي ويمنع؛ فليس في الأرض فقير قط إلا عند نفسه، ولو اطلع كل إنسان على الغيب لما اختار إلا ما هو فيه »<sup>(٣)</sup>.

حين يدرك هذا المثال في النطاسة وطب الإنسانية كأنما نخيل إليه أنه دعي إلى عيادة (الشرق المريض) فوضع له وصفة في قصيدة عامرة، هي آية في البلاغة العصرية والشعر العربي المحدث، ربما قصر

(١) حديث القمر — ١٠١

(٢) حديث القمر — ١٠٣

(٣) حديث القمر — ١٠٥

عن مثل بيانها سائر الشعراء من مُعاصريه، وما أدرك شيئاً من توفيقها الدارسون<sup>(١)</sup> فشغلوا عنها في سُرور !.

قدّم لها بدراسة موضوعيّة في حال الشرق العربي الاجتماعيّة، ولا سيّما في بناء الأسرة على المُغامرة وكيفما اتفق، ووهم السعادة بالمال، وما يدور في هذه من حالات في إنسانة بعينها، رأى توثيق عقدي زواجها يربط بين قلبين في المصادفة والنّحس والعداوة، وقلّما أحسّ إنسان بإحداهما، إلا فوجئ بثلاثتها، وكأنما تمثّل له المنظر المحتصر فصرخ قائلاً :

« واهاً لهذا المريض الذي يُوثقونه بتلك الرُّبط الممزقة من المقالات، ويدفنونه في هذه الأكفان المنشورة من جرائم اللّحى والشّوارب التي تُريه ظلال الآخرة — وهو في كلّ ذلك الكرب الذي أخذ بأنفاسه لا يجد السّبيل إلى روح من الحياة الطّيبة في نفس امرأة فاضلة »<sup>(٢)</sup>.

ثم راج يطب للشرق، فعرف من أمراضه الكثير، ولكنّه وقف طويلاً عند أقتل داء فيه وهو الروحانية التي لا شفاء له بغير دوائها ؛ فذهب يلتمس لها العلاج في صيدلية الإنسانية، لعلّ قيمها ومثلها وعقاير أعرافها تُشفيه .. فوجد أن لا بُدّ لهذا المريض من المعالجة تقوم بها مُمرضة رؤوم كما تتعهد الأم وليدها بالرّعاية والحنان وتعدّ له دار السعادة.

(١) راجع ضيف الله — نثر الرافي — ١٣٤ وما بعدها، ومحاولته بمقارنتها بقصيدة الرندي في نهاية العرب بالأندلس! قياس من غير فارق. أنظر الإنبعاث القومي للضمير العربي.

(٢) حديث القمر — ١٢٢

ثم يظهر كالرسول جاء ومعه البرء والشفاء، ولكن بحقيقة من المعالجة الاجتماعية الظاهرة تربية وإعداداً، دون الإغراق بالمتهاتات الصوفية، أو الدوران في الخيالات المعقدة شعرياً، أو الذهاب في الأضاليل المتشعبة، أو الابتعاد في الأوهام الممنهجة سياسياً، فهو يتفق على الصفة التي لحقت الشرق (المريض) ولكنه يختلف في تشخيص المرض، ومن ثم يفرق في طريقة العلاج، فلا ترضيه المسكنات (الدمقرطية) ولا مخدرات (تقرير المصير) ولا حقن النظرات الوافدة تبحث في القطريات، حتى ولا العزل الانتدابي الذي يجرعه المرات، ليستقبل الأيام في نيل الأوطار، كما كان ذلك دائراً وطائراً في زحام الأحداث، إذ أن ذلك كله مدعاة للسخرية من المريض نفسه، وإيهامه بالشفاء في إطالة أيام مرضه وتنويع العلاج عليه.

### القوام النفسي للانبعاث

من هنا ينفرد بدعوته الوجدانية التي عرف بها في التربية القومية على أساس من المحبة، حيث يكون بناء الخلية الاجتماعية الأولى في الأسرة قائماً على الحب لأنه الإيمان، عامراً بالغرام لأنه التضحية، ليتهتف فيه السعادة لأنها المروءة، وتقوم كرامة الحياة على هذه المرساة<sup>(١)</sup>.

وحين يوافي هذه الحقيقة في الحياة الانسانية التي كرمها الله بالوجود، ويدرك القومية اللازمة للنهضة واعتدالها، ويصير في الاعتقاد الجليل،

(١) لا يذهبن عن البال أن ما يدعو إليه الرافعي ليس هو حب السيماء والشوارع الأوربية والروايات، وإنما هو نظام الخطبة العربي الذي تحجب فيه الفتاة حتى العرس

يُشْرِفُ عَلَى الْفَصْلِ الَّذِي يَخْتَمُ بِهِ الْمَقَالَةَ فِي الْكَلَامِ الْمُجْمَلِ عَنْ  
الْحُبِّ وَالْبُغْضِ فِي حَيَاةِ النَّاسِ، فَيَرَى الْحُبَّ «إِحْدَى كَلِمَتَيْنِ هُمَا  
مِيرَاثُ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَهَدْيَةُ التَّارِيخِ حَقِيقَةُ الْأُلُوْهِيَّةِ فِي الرُّوحِ وَحَقِيقَةُ  
الْإِنْسَانِيَّةِ فِي الْقَلْبِ»، كَمَا يَرَى «الدِّينَ فِي تَقْوَى آدَمَ وَالْحُبَّ فِي  
جَمَالِ حَوَاءَ وَدُمُوعِهَا»<sup>(١)</sup>.

وَبِذَلِكَ يُثَبِّتُ الْأَسَاسَ الْاجْتِمَاعِي وَالْقِيَامَ النَّفْسِيَّ لِلانْبِعَاثِ الْقَوْمِيِّ  
لِلأُمَّةِ، وَالْمُنْطَلَقَ السَّدِيدَ فِي سَبِيلِهَا الَّذِي تَخْطُرُ بِهِ فِي أَخْلَاقِهَا الثَّابِتَةِ،  
وَقِيَمِهَا الْمُتَمَكِّنَةُ، وَوَسَائِلُهَا الشَّرِيفَةُ الَّتِي تَمْضِي بِهَا إِلَى أَهْدَافِهَا النَّبِيلَةِ  
وَعَايَاتِهَا الْبَعِيدَةِ عَلَى هُدًى وَبَصِيرَةٍ مِنْ مِثْلِ رَفِيعَةٍ يَعْمُرُهَا الْإِيمَانُ الْعَظِيمُ.

\* \* \*

### تقويم

و «حَدِيثُ الْقَمَرِ» بَعْدُ يَأْخُذُ بِمَجَامِعِ الْقُلُوبِ، وَيَسْتَهْوِيهَا بِمَا فِيهِ  
مِنَ الْأَسَالِيبِ الْبَلَاغِيَّةِ الْعَالِيَةِ، وَالِاسْتِعَارَاتِ الْجَمِيلَةِ الْجَدِيدَةِ، وَالْكِنَايَاتِ  
الْمُبْتَكِرَةِ وَالْأَخْيَلَةِ الشَّاعِرِيَّةِ الْمُهَوَّمةِ، وَالتَّصَوُّرَاتِ الْحَيَّةِ الْمَوْفَقَةِ وَالْمَعَانِي  
الْوَلِيدَةِ الرَّاقِيَةِ الَّتِي تَضْرِبُ عَلَى أَوْتَارِ الْقَلْبِ الْإِنْسَانِي بِوَصْفِ الْجَمَالِ  
وَتَحْلِيلِ عَنَاصِرِهِ، وَبَيَانِ مَظَاهِرِهَا الْعَاطِفِيَّةِ، وَآلِئِهَا الطَّبِيعِيَّةِ، وَالْقَوْلِ فِي  
أُمِّهَاتِ الْمَسَائِلِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي مَرَّتْ بِنَا، ثُمَّ التَّبَسُّطِ عَلَى وَجْهِ بَدِيعٍ  
فِي مَسْأَلَةِ الْمَسَائِلِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي طَرَفَاها الْإِيمَانُ وَالْإِلْحَادُ<sup>(٢)</sup>.

(١) حَدِيثُ الْقَمَرِ — ١٢٧

(٢) الْبَيَان — ٨ شَعْبَانَ ١٣٣٠ هـ



إنَّه كتابُ دَعْوَةٍ عَرَبِيَّةٍ مُؤَمَّنَةٍ تَخَذَتِ الحُبَّ قِوَامَهَا، وَمَهَّدَتِ الجمالَ سَبِيلًا لَهَا، وَجَعَلَتْ سُمُومَ الإنسانِ بالاعتقادِ غَايَةً أَهْدَاهَا.

كُلُّ ذَلِكَ فِي صَفَاءٍ مِنَ اللُّغَةِ، وَجَمَالٍ فِي التَّعْبِيرِ، وَجَزَالَةٍ فِي الْأَلْفَاظِ، وَافْصَاحٍ فِي الْعِبَارَاتِ وَرُقْيٍ فِي الْأُسْلُوبِ « يَضِيفُ إِلَى الْبَيَانِ إِضَافَاتٍ جَدِيدَةً لَيْسَتْ فِيهِ »<sup>(١)</sup>.

« وَلَا نَعْرِفُ أَحَدًا مِنْ أَدْبَائِنَا فَكَّرَ فِي تَعْلِيمِ الْإِنْشَاءِ عَلَى الطَّرِيقَةِ الَّتِي ابْتَكَرَهَا الرَّافِعِي، مَعَ أَنَّهَا الطَّرِيقَةُ الطَّبِيعِيَّةُ، وَمَا مِنْ كَاتِبٍ قَدْ نَبَغَ فِي الْكِتَابَةِ الَّتِي تَدِقُّ فِي الوُضْفِ إِلَّا وَهُوَ يَعْرِفُ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهَا كَانَتْ طَرِيقَ نُبُوغِهِ وَإِجَادَتِهِ »<sup>(٢)</sup>.

وَذَلِكَ مِمَّا يَفْرُدُ الْكِتَابَ وَيَجْعَلُهُ نَسِيحَ وَحْدِهِ « وَالْعِيَانُ يَدُلُّنَا عَلَى أَنَّهُ لَوْ ظَهَرَ فِي الْأُمَّةِ أَلْفُ كَاتِبٍ مِنْ كِتَابِ الْأَلْفَاظِ لِأَحْمَلِهِمْ كَاتِبٌ وَاحِدٌ يَنْبُغُ بِفِكْرِهِ وَخِيَالِهِ، وَلَا يَسْتَبْدُّ بِقَصَبِ السَّبْقِ دُونَهُمْ ؛ لِأَنَّ الْأُمَمَ لَا تَنْقَادُ بِالْأَلْسِنَةِ، وَلَكِنْ بِالْعَقُولِ »<sup>(٣)</sup>.

وَقَدْ قَالَتْ فِيهِ « الْمُوَيْد » كَبْرَى صُحُفِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ يَوْمئِذٍ : « إِنَّهُ نَثْرٌ مُطَرَّبٌ وَلَكِنَّهُ مَفْصَّلٌ فِي آيَاتٍ، وَشِعْرٌ مُرْقَصٌ وَلَكِنَّهُ فِي غَيْرِ آيَاتٍ،.. بَلْ رَقٌّ فَسَالٌ، وَجَلٌّ فَكَانَ الْحَقِيقَةُ وَدَقٌّ فَكَانَ الْخِيَالُ، بَلْ كِتَابُ الْقَلْبِ الْإِنْسَانِيِّ ؛ لِأَنَّهُ مَقَالَةٌ وَاحِدَةٌ صُبَّتْ فِيهَا عَوَاطِفُ النَّفْسِ

(١) طه حسين — الجريدة — ٧ فبراير/شباط ١٩١٣ م

(٢)، (٣) البيان — ٨ شعبان ١٣٣٠ هـ

صباً في طراز من بديع الإنشاء وأفرغت حقائق العالم الأرضي في كلام من نور السماء»<sup>(١)</sup>.

وقالت «الهلal» — وكادت تدرك بعض موضوعه :  
« هو في ظاهره حديث موجة إلى القمر، ولكنه يشتمل على خيالات شعرية منتخبة مسبوكة في قالب إنساني هو من قبيل الشعر المنشور، يستفيد من مطالعته الشاعر والنائر ويعود الذهن على التصور الشعري، ويسهل ملكة الشعر والنثر معاً »<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قيل في سبب كتابته : إن « فترة من الفراغ عرّضت لأدينا الرافعي في صيف ١٣٢٩ هـ — ١٩١١ م أراد فيها أن يقضي حق نفسه، وأن يعتم أنفاس الراحة مما يعاني في إنجاز كتابه الفريد في ( تاريخ آداب العرب )، فهجر الكتب والكتابة، ولكنه ما تنسم أنفاس الطبيعة حتى استحالت في قلبه الكبير معاني من الشعر أو من السحر بكل ما يضرب له قلب الإنسان، حتى كأنها صفحة كل قلب »<sup>(٣)</sup>.

وقيل أيضاً إنه عرّف « القمر » يوم رأى وجه فتاة عرفها في ربوة من لبنان ؛ ينتهي الوصف إلى جمالها ثم يقف، فكان يرى الشمس

(١) من إعلان المكتبة الأزهرية عنه — وأرجح أن التقريظ للسيد محب الدين الخطيب الذي كان المحرر الأول في المؤيد آنذاك.

(٢) الهلال — مارس/آذار ١٩١٣ م

(٣) البيان السابق — وأرجح أن التقريظ للرافعي نفسه.

كأنما تجري في شعرها ذهباً، وتوقد في خدّها ياقوتاً، وتسطع في  
ثغرها لؤلؤة.

« وكنت أرى الورد الذي يزرعه الناس في رياضهم، فإذا تأملت  
شفتيها رأيت ورقتين من الورد الذي يزرعه الله في جنته، وكانت لها  
حيناً خفة العصفور، وحيناً كبرياء الطاووس، ودائماً وداعة الحمامة  
المستأنسة. وكانت روحها عطرة تنفح نفع المسك إذا تشامت الأرواح  
العرة بالحاسة الشعرية التي فيها »<sup>(١)</sup>.

كانت شاعرة من شاعر ذلك البلد<sup>(٢)</sup> وكان بينه وبينها حديث  
طويل في الحب<sup>(٣)</sup> ومراسلات تطارحها معها<sup>(٤)</sup>.

وقيل : إنه سدّ به فراغاً كان يُبصره في أدب الإنشاء<sup>(٥)</sup> وقيل غير  
ذلك ثناء وتقريظاً<sup>(٦)</sup>، ولكن طه حسين اتهمه بالغموض أولاً، وعابه فكرةً  
وأسلوباً فقال فيما قال :

« ليس الغموض وحده في هذا الكتاب، بل هنالك أمران آخران  
لا بُدّ من ملاحظتهما؛ أحدهما إغرابه في الإضافات والنسب حتى  
ليُخيل إلى القارئ أن الرافعي يكتب بلغه ليس بيننا وبينها عهد، ولم  
تطلع إليه نفسه لفهم الحقيقة وتمثال الفن الإلهي — كذا — والثاني ؛

(١) السحاب الأخضر — ٢٠ .

(٢) حياة الرافعي — ٧٢ — والبلد لبنان.

(٣) حياة الرافعي

(٤) الزهور — ١٩١٠ م

(٥) المقتطف نوفمبر — ١٩١٢ م

(٦) صحف ذلك العهد : الزهور — ديسمبر ١٩١٢ م، الجريدة — ٥، ٨ ديسمبر ١٩١٢ م،

المنبر ديسمبر ١٩١٢ م، وغيرها.

وجوه الشبّه التي لا يمكن أن تفهم ؛ لأن موضوعاتها أمور لم يَهْتَدِ إليها إلا عقل الرافعي»<sup>(١)</sup>.

ولما ردّ عليه الرافعي مُتَّهِماً إِيَّاهُ بِالْحَسَدِ من احترافيه الأدب، واتخاذِهِ إِيَّاهُ كَبَعْضِ الصناعات<sup>(٢)</sup> عادَ فتراجَعَ قليلاً، وقال ما قدّمناه آنفاً<sup>(٣)</sup> وإنّه يضيف إلى البيان العربي إضافاتٍ جديدة<sup>(٤)</sup> على الرُّغم من مُعَابَئَتِهِ الأخرى ١.

ويبقى الكتاب بما اشتمَلَ عليه من موضوعاتٍ خطيرة، ومسائلٍ دقيقةٍ أخصّ بحياقِ الأُمَّة ونهضتِها — وقد استعرضناها بوقفاتٍ متأمّلةٍ — يَدُلُّ دلالةً واضحةً على القصدِ التربوي والهدفِ القومي، والغايةِ الاعتقادية، والدُّعْوَةُ العربية المؤمنة التي رمى إليها الرافعي من الكتاب، وههنا يَنجَلِي الغُمُوض، وَيَذْهَبُ الانبهام، ويظهرُ الأدبُ الحيُّ ابنُ العقل البكر دليلاً على النفسِ وصَفْوِها، وعلامةً على المرحلةِ التاريخيّة للأُمَّة.

ذلك أن الجمالَ يُوجِدُ الحبَّ، والحبُّ وحده يَلِدُ الأدبَ الصحيح الذي هو لبّابُ فكرِ الأُمَّة في كلِّ عَصْرِ ومصر. ونظراً لحالةِ الاحتلالِ الصليبيّة — الإنجليزيّة، والعزْرِ المُسلَّحِ الآخر في سائرِ أنحائِ الدِّيارِ العربيّة آنذاك، فقد آثر الرافعي أن يَكْتُبَ كتابَهُ، ويُعِدَّ رسالَتَهُ على هذا النحو من الأدبِ الرُّمزي في الحبِّ والضُّربِ الشّعريِّ من النثر، كي لا يَصْطَلِدَ برقابَهُ أو نحوها مما كان — وكأنَّ الرافعي فيه يُجَدِّدُ

(١) الجريدة ١٤ ديسمبر ١٩١٢ م

(٢) الزهور — يناير ١٩١٣

(٣) الجريدة — ٧ يناير ١٩١٣ م

(٤) الجريدة — ٧ فبراير ١٩١٣ م — راجع الرافعي الناقد. كتابنا الآخر.

رُوحَ الفقه الإسلامي في إدارة أصوله من المصالح المرسلة التي سبقت إليها فقهاء الأمة من أتباع مالك والشافعي، ونهض بها العز بن عبد السلام في جمع الأصول والفروع من حولها.

وقد بلغ بذلك فوق ما أراد من قصد غاية، وإن لم يعترف بذلك مناوئوه، تدل عليها كثرة تداول الكتاب في حياته وبعد موته، وآيات الثناء عليه في تقويمه وألوان النقد.

## الميثاق

و « حديث القمر » بعد خير ما يمثل أدب الأداء النفسي، ويصور الاستبطان الذاتي ويشيع التأمل الواعي، وكيف تسترسل النفس الانسانية على سجيته تقول ما يشاء لها فن القول البليغ، واللغة الفصيحة أن تصدر فيه أو تحدث بخبره.

وجملة القول فيه أنه ليس بكتاب إنشاء وتعليم على فنون البلاغة والأداء في التعبير، والقول الصحيح، وتربية ملكة التخيل فحسب، كما عرفت من قبل، وإنما هو كتاب الأدب الاعتقادي الذي ينشئ الأداة إنشاء سامياً في هذا العصر العصيب؛ يجمع إليه القلب والعقل في موازنة التأمل والتفكير، ومقارنة العمل والصبر الجميل، بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر، وإنما يقيه مغلة الانحراف والسقوط.

وقد يكفي الدليل على ذلك أن طبعته الأولى<sup>(١)</sup> ظهرت إبان حملة

---

(١) صدرت عام ١٣٣٠ هـ — ١٩١٢ م

العزّو المسلّح على ديارِ العروبة والوطنِ الإسلامي، ويومَ زادَ شعارَ الاستعمارِ في الأفكارِ التي تُلجّدُ للأمة ودينها الحنيف، حيثُ وُجدَ مَنْ يُسوّغُ لهذهِ الأفاعيلِ عمليّاتها التسلّليّة الغادرة، ويألفُ مدّعيّاتها الماكرة، ويحتجُّ لها بالتمدين والتنمية، والتّدريب الحضاري والانتداب للارتفاعِ بالمستويات، وما إلى ذلك من صُورِ السقوطِ الفكريّ في الشرق العربي الذي عاناهُ أساطينُ التربية باسمِ العلم والنّهضة، أو كراهيةِ الدولة العثمانية « لتورّطها العنصري والطائفي » — كما زعموا !.

وأخرجتِ الطبعةُ الثانية<sup>(١)</sup> منه عند ابتداءِ حملةِ الاستغرابِ التي شتّها الشعوبيون المُحدثون من دُعاةِ القطريّاتِ الفرعونيّة، والفنيقية والآشوريّة، على التّراثِ العربي والفكرِ الإسلامي، بدعاوى المنهجيةِ الحديثةِ والبحثِ والتجريد، وما إليها من أباطيلِ المدّعاتِ التي تُبطنُ الشرّ للأمة، فكانَ الكتابُ كالبیانِ الاعتقادي ليقظةِ الضميرِ العربي وانتباهةِ الفكرِ السليم.

وعادتِ الثالثة<sup>(٢)</sup> مع بوايرِ تقليدِ المُقلّدين للمستعربين، وتنتطعِ دَعَوَاتِ التّغريبِ في الفكرِ والسياسةِ والحياةِ والحضارةِ والمدنيةِ واللباسِ، ومع محاولاتِ إبدالِ الحياةِ نفسِها، واللّغةِ وحروفها، وما إلى ذلك من شُرور.

وقد أفادَ منه الجيلُ الثاني بعد الرّوادِ، ولا سيّما أولئك الذين توفّروا على الإسهامِ في النهضاتِ القوميّة والانتفاضاتِ السياسيّة التي مهّدت

(١) صدرت عام ١٣٣٩ هـ — ١٩٢٢ م

(٢) صدرت عام ١٣٤٦ هـ — ١٩٢٨ م

لثورة العربية المعاصرة، أيما فائدة، وهو عندي مثال حي قائم بذاته  
للأدب الاعتقادي الذي يتخذ اللغة، فنونها وآدابها معهداً للتربية البيانية،  
والإفصاح الذي ينشئ الجيل السليم الذي يؤمن بالله، ويثق بنفسه،  
ويعتز بتفكيره وهده، ويرقى في الحياة صعداً بثبات خطاه.

وهو مثال تطبيقي للميثاق القومي الذي ألزم الراجعي نفسه به منذ  
أول يوم جرى فيه قلمه في هذا المضمار على طريق الوجدان والعاطفة  
السامية، والحب العف النبل الذي يرقى بالنفس الانسانية الى منازل  
عالية من السمو على الشبهات.

\* \* \*

وإذا نحن مصيناً على هذا النسق من التحليل لرسائله في كتبه الأخرى  
التي اتخذت الحب قواماً لها، وجعلت الجمال سرها المودع في بيانها،  
فلسوف نكتشف أمثالاً مما وقفنا عليه في الحديث، أو بالأحرى نجد  
التفسير فيها محضراً لمعظم الجوانب التي مرت بنا في هذا البسط  
بزيادة غرض وإيضاح، أو بتحليل لجوانب أخرى من هذا الموضوع  
الوجداني الخطير الذي ارتفع به من الشهوات الجنسية إلى درجة الاعتقادية  
القومية للأمة، باستعراض قيمها وخصائصها، وبالإشراق على وسائلها  
الشريفة، والمضي بها لإدراك أهدافها وغاياتها... وحسبنا قوله — وقد  
رأى النقاد يتهافون بأمثال من أفكار كتاب أوربة وأدائها — وهم  
يتصدون لـ «أوراق الورد» المعجزة التي غلب فيها الراجعي القديم والجديد  
معاً<sup>(١)</sup> :

(١) لطفي جمعة — المساء ١٩ نيسان/أبريل ١٩٣١ م

« إِنَّ الْفَنَّ عِنْدَنَا فِي كِتَابَةِ فَنِّ إِسْلَامِيٍّ عَرَبِيٍّ يَقُومُ عَلَى الضَّمِيرِ الطَّاهِرِ، وَالنَّزْعَةِ الشَّرِيفَةِ، وَعَلَى الْخُلُقِ الْقَوِيِّ الدَّالِّ عَلَى الْمُرُوءَةِ وَالشَّجَاعَةِ وَضَبْطِ النَّفْسِ، وَعَلَى الْإِيمَانِ بِحَقِّ الْمَرْأَةِ فِي شَرَفِ الْحَيَاةِ وَسُمُومِهَا ؛ لِأَنَّ وَرَاءَ حُبِّ الْمَرْأَةِ مَا هُوَ أَسْمَى مِنْهَا، وَإِنَّ الْكَاتِبَ الْإِسْلَامِيَّ يَضَعُ فِي كِتَابَتِهِ نَفْسَهُ لَا أَغْرَاضَهُ، وَيَجِيءُ بِمَا هُوَ إِلَهِيٌّ فِيهِ لَا بِمَا هُوَ حَيَوَانِيٌّ مِنْهُ، وَيَكُونُ كَالطَّبِيعَةِ نَفْسِهَا ؛ تُظْهِرُ لِلْأَعْيُنِ مَا بَدَأَ مِنْ جَمَالٍ، وَتَبْسُتُرُ مَا فِي دَاخِلِهِ ؛ لِأَنَّ هُنَاكَ أَعْمَالاً هِيَ أَعْمَالُ حُبٍّ، فَهِيَ غَيْرُ مَقْصُودَةٍ بِذَاتِهَا، وَلَيْسَ لَكَ إِلَّا مَا تُنْتِجُهُ »<sup>(١)</sup>.

وحسبنا شواهد من ذلك كله ما توزَّعَ في هذه الرسالة وفصولها من فَلَائِتِ الْبَيَانِ وَفَرَائِدِ الْبَلَاغَةِ، وَمَا عُرِفَ عَنْهُ مِنْ إِبْدَاعٍ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ جَمِيعِ الثُّهَمِ الَّتِي وَجَّهَتْ إِلَيْهِ تَنَعَتْ بَعْضَ جَوَانِبِ أَدَبِهِ بِالْغَمُوضِ — وَهِيَ تَنَاوَتْهُ فِي الْفِكْرَةِ وَلَكِنَّهَا لَا تَقْوَى عَلَى التَّصْرِيحِ لِمَكَانِ الْخِيَانَةِ مِنْ أَنْفُسِهَا !

أَقُولُ : إِنَّ « حَدِيثَ الْقَمَرِ » قَدْ جَعَلَ الرَّافِعِيَّ يَنْعَظُ نَاحِيَةَ أَدَبِ الْإِنْشَاءِ الَّتِي بَرَعَ فِيهَا يُجَدِّدُ لِلْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مَا كَانَ قَدْ خَلَقَ عَلَيْهَا مِنْ أَسْمَالِ الْقُرُونِ، وَيُنَسِّبُ إِلَيْهَا مِنْ مَادَّتِهَا فِي أَلْفَاظِهَا وَمُقَرَّدَاتِهَا عِبَارَاتٍ وَتَرَكَيبَاتٍ يُثَبِّتُ فِيهَا الْمَعَانِي نَبَاتًا حَسَنًا، وَيُثَمِّرُ فِي الْكُنْيَاةِ، وَيُولِّدُ الْإِسْتِعَارَاتِ الْجَدِيدَةَ، وَيُيْلِغُ فِي الْمَجَازِ قَصْدًا، وَيُصِيبُ أَهْدَافًا مَا تَطَاوَلَتْ إِلَيْهَا أَقْلَامُ الْكُتَّابِ مِنْ حَوْلِهِ. وَكَانَتْ لَهُ فِيهَا حَيَاةٌ مَعَ الْحَيَاةِ الَّتِي يُعَانِي مِنْ أَيَامِهَا، وَيَتَفَاعَلُ مَعَ أَحْدَاثِهَا، وَيَنْصَبُ مُنْدَفِعًا كَالْتِيَّارِ يَحْمِلُ الدَّعْوَةَ الْبَيَانِيَّةَ لَخَصْبِ جَدِيدِ فِي الْأَدَبِ وَنَمَائِهِ.

(١) البلاغ — ٨ يُونِيَّة ١٩٣١ م



ولعلّ من أروع ردود الرافعي في الموضوع أنّه كتّب الى السيد  
محّب الدين الخطيب يقول :

« أما رأيكم عدَم الكتابة في الحبّ والغزل لما نحنُ فيه، فإنّ الحبّ  
ناموسٌ لا يَمْنَعُهُ شيءٌ، وتركُ الكتابةِ فيه لا يَمْنَعُ وقوعَهُ، والوجهُ أن  
يُكتَبَ في إصلاحِهِ وتَطْهِيره وتحويلِهِ إلى المعاني الرُّوحِيَّة، ليكون وسيلة  
سُموٍّ، وهذا ما فعلتُهُ، وهو من بعض أغراضِي في وضع هذه الكتُب،  
وقد أفادت كثيرين في تصحيح اعتبارهم للحبّ »<sup>(١)</sup>.

---

(١) من رسالته المؤرخة في ١٩٣١/٤/٤ م

## المبحث الثاني

### الاجتماع وإرادة التغيير

كان الراجعي شاعر النفس، رَهِيفَ الحسِّ، رَفِيقَ القلبِ، قويَّ العاطفة؛ يرى المَنظَرَ المؤلمَ فتتَفَعَّلُ بهِ نفسُهُ، ويتَحَرَّكُ خاطِرُهُ، وَيَنْفَطِرُ قَلْبُهُ<sup>(١)</sup>. ومع ذلك كَانَ من ثباتِهِ وأخلاقِهِ ما تَجَعَّلُ مِنْهُ التَّقْوَى مُوازِنَةً دائِبَةً بين عقلِهِ وَقَلْبِهِ لا يَطْغَى أَحَدُهُما على الآخر.

وقد عاشَ في عَصْرِ تصارَعَتْ فِيهِ الأحداثُ، وَجَرَى التَّغْيِيرُ في أَشْوَاطِ، يَنْقَلِبُ بالحياةِ وَيَخْتَلِطُ بالاجتماعِ، وَكَانَ لِلْفِكْرِ والاقتصادِ مكانُهُما من الأحداثِ،... فكانَ في أيامِ يفاعَتِهِ وصَدْرِ شِبابِهِ يُبْصِرُ الهدْمَ والبناءَ الذي دارَ بحياةِ الأُمَّةِ دورَتُهُ، فَاتَى على دَوْلَتِها؛ يُقِيمُ على أنقاضِها أَقْطاراً يُلَفِّقُها على مَفْهُوماتٍ بادتْ، وَيَرَفِّقُها بفَلَسَفاتٍ سياسيَّةٍ عادتْ تَلْبَسُ من المُحتَلِّينَ الأَسْمالَ، ورأى اليهودَ والأروامَ في مِصرَ خاصَّةٍ وقد ملكُوا كُلَّ شَيْءٍ، وَجَعَلُوا الدَّرْهَمَ والدينارَ دَوْلَةً بَيْنَهُمْ يَسْتَنْبِتُونَهَا بينَ

---

(١) العريان — حياة الراجعي — ٦٠

حاجة الناس ودولهم، ويستثمرون فيها عرق هؤلاء وجهادهم، وقد هيأت أوربة بحروبها في القارات ديار الشرق العربي لتألف الفاقة، وتستضيف العوز، وتجعل من الفقر الغالب سلوكاً في الحياة.. فتنبه للحال شاعراً، وأرسل في ذلك غير صوت<sup>(١)</sup>.

ثم عاد يستمزج الأفكار، ويقرأ من آثار المؤلفين في الاقتصاد ومذاهبه، والفكر ومسالكه ما يحاول إلحاقه بمبادئ الإسلام تارة — كما فعل بمذهب المنفعة فقارنه بقاعدة الأجر والمثقة<sup>(٢)</sup> أو ينفصل في شطحة يرى فيها المال أحماساً<sup>(٣)</sup> فيوزعها فيما بدا له<sup>(٤)</sup> !

## الإسلام وأفكار الأمم

وهنا تخفق إحدى الحركات في نيل الزمام السياسي في روسيا<sup>(٥)</sup> فتندفع بعض التحليلات والدراسات من حول الأفكار الاقتصادية؛ فيألفها متأملاً حلاً لمعضلة الإنسانية وصراعها بين الفقر والغنى حتى يألف الناس من حوله (الاشتراكية العلمية)<sup>(٦)</sup>، وينظرون إليها نظرتهم إلى المخلص.. ولكنه يعود بحصيلة ذلك كله فيوازن بين مبادئ دينه وحياة الأمم، فلا يرى في معظم ما حققته هاتيك من آراء وأفكار ومذاهب إلا كُتُباً ورسائل تستمرئ الانقلاب، وتستحث الثورة، وتتوكل بهما في حقد وضيغنة..!

(١) أنظر النظرات — ٦٩

(٢) ديوان الرافعي ٢ — ٢٦

(٤) ديوان الرافعي ٢ — ٣٦

(٣) سر كيس — ٧ يونية ١٩٠٥ م

(٥) ثورة المانشفيك في روسيا عام ١٩٠٥ م

(٦) المقتطف — مايو/أيار ١٩١٣ م

وهي مهما كانت فإنها أشبه شيء بجُمُوح الحيوان، إذ يَحْمِي أنفه،  
ثم يَجْمَح، ثم يَسْتَرْسِلُ في جماحه، ثم يَشْتَدُّ، ثم يَسْكُنُ مُكْرَهَا بعد  
أن جمح راضياً، فإن لم يُسْكِنهُ الأَلَمُ، أَسْكَنَهُ التَّعَبُ !.

ذلك أن التخلُّصَ من شيء في فِطْرَةِ الإنسان وانتزاعه من مَعْرِسِهِ  
في نَفْسِهِ، لا يكون بالتخلُّصِ من إنسانٍ بَعِينِهِ<sup>(١)</sup> وفيما انْتَهَتْ إليه  
تَجْرِبَةُ الحِياةِ الثورية.

\* \* \*

وَقَفَ على مِنْبَرِ « جمعية الاحسان » يُحَاضِرُ في الفقرِ والفقراء مُتَأَمِّلاً  
أحوالَ الاجتماعِ الصَّاحِبِ من حَوْلِهِ، فتَسَاءَلَ : ما الْفَقْرُ ؟ فما وَجَدَ  
في النَّاسِ جميعاً من يَصْدُقُ إذا ادَّعَى أنه لا يعرفُ الْفَقْرَ غيرَ اثنين  
لا خَيْرَ فيهما : غَنِيٌّ جُنٌّ من فَرْطِ الْغِنَى، وفَقِيرٌ جُنٌّ من فَرْطِ الْفَقْرِ ؛  
فالأَوَّلُ لا يعرفُ هذا الْفَقِيرَ في جُنُونِهِ ؛ لأنَّهُ جُنٌّ بغيرِهِ، والثاني لا  
يعرفُهُ لأنَّهُ جُنٌّ بِهِ !. مع أن الْفَقْرَ فَضْلٌ من كلِّ عَمَلٍ، كالسَّيِّئِ  
فَضْلٌ من كلِّ سَنَةٍ<sup>(٢)</sup>.

### جبروت الفقر

ولكنَّهُ حينَ تَسَاءَلَ : مَنْ الْفَقِيرُ ؟ أَطْلُ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ — وقد تَنَكَّرَتْ  
لَهُ الدُّنْيَا، وَأَقَامَتِ الْحَيَاةُ على وَجْهِهِ عِلَامَةَ الْاِسْتِفْهَامِ، وقد رَأَى من

(١) المساكين ط ٢ — ١٠

(٢) المقتطف/يونية ١٩١٣ م — المساكين ٦٧

بأسِهِ وَقُوَّتِهِ مَا عَادَ بِهِمَا «يَخْتَصِمُ الْجَمَاعُ كُلُّهُ، وَيَخْشَى أَنْ يَرْتَفَعَ  
فِيكَونَ قَاضِيًا عَلَيْهِ، وَيَأْخُذَهُ بِالْجَنَائَةِ الَّتِي أَوْحَاها إِلَيْهِ بِالْأَمْسِ».

وَإِذَا حَكَّمَ اللَّهُ عَلَى عَصْرِ مِنْ عَصُورِ الْجَبَابِرَةِ بِالشَّنْقِ، فَلَنْ تَكُونَ  
الشَّنَاقَةُ بِجَذْعِهَا وَحِبَالِهَا إِلَّا مِنْ ذِرَاعَيْهِ وَأَصَابِعِهِ»<sup>(١)</sup>.

إِنَّهُ يُحَاذِرُ مِنْ جَبَرُوتِ غَضَبِ الْفَقِيرِ، وَيُحَذِّرُ مِنْ فِتْنَةِ تَدَوِّي بِأَسْمِهِ  
فِي الْآفَاقِ، أَوْ تَجِيءُ مَعَ الْقَدَرِ، فَمَضَى يَدْرُسُ الْحَالَ، وَيُبَاعِدُ مِنَ الْمَالِ  
— وَقَدْ رَأَى سِنِّي الْحَرْبِ تَأْكُلُ أَقْوَاتَ النَّاسِ، وَتُزِيدُ فِي صُفُوفِ  
الْفُقَرَاءِ مُعْدِمِينَ وَمُشَرَّدِينَ آخَرِينَ... وَكَانَ هُوَ يَقِفُ فِي الْجَانِبِ الْآخِرِ  
يَتَحَرَّى الْأَسَاسَ الْجَمَاعِي الَّذِي تُبْنَى عَلَيْهِ الْقَاعِدَةُ فِي حَلِّ مُعْضِلَةِ  
الْإِنْسَانِيَةِ فِي الْفَقْرِ وَالْفُقَرَاءِ، فَالْإِنْسَانُ «إِنَّمَا خُلِقَ اجْتِمَاعِيًّا، وَهُوَ بِشَخْصِيَّتِهِ  
لَا قِيَمَةَ لَهُ وَلَا مَنَفْعَةَ إِلَّا حَيْثُ يَكُونُ شَخْصُهُ جُزْءًا مِنْ مَجْمُوعٍ»<sup>(٢)</sup>.

«وَكُلُّ خَلَلٍ فِي النِّظَامِ الْجَمَاعِي فَإِنَّمَا مَرْدُّهُ إِلَى طُغْيَانِ بَعْضِ  
الْأَفْرَادِ وَجُنُوحِهِمْ إِلَى أَنْ تَكُونَ شَخْصِيَّةُ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ مِنَ الْكِبَرِ وَالْعَظَمَةِ  
بَحِثُ تَوَازُنِ الْمَجْمُوعِ كُلُّهُ أَوْ أَكْثَرُهُ، يَبْدَأُ أَنَّ هَذِهِ الْمَوَازِنَةُ الْفَرْدِيَّةُ  
مَتَى اتَّفَقَتْ كَانَتْ إِخْلَالًا بِالْمَوَازِنَةِ الْجَمَاعِيَّةِ؛ لِأَنَّهَا تَجْعَلُ كُلَّ حَرَكَةٍ  
مِنْ هَذَا الْفَرْدِ زَلْزَلَةً فِي الْمَجْمُوعِ، كَالثَّقَلِ فِي إِحْدَى كَفَّتَيِ الْمِيزَانِ،  
إِنْ خَفَّ سَقَطَتِ الْكَفَّةُ الْآخَرَى»<sup>(٣)</sup>.

(١) الْمَسَاكِين — ٦٨

(٢) الْمَسَاكِين — ٧٨

(٣) الْمَسَاكِين — ٧٨

على أنه يُصِرُّ الحقيقة حين يردف قائلاً : « والموازنة الاجتماعية لا تنهياً إلا إذا تطبعت قوى المجموع فاندفعت في تيار واحد إلى جهة معينة »<sup>(١)</sup>.

ولذلك اضطر الناس، من عهد اجتماعهم على نظام أو شريعة، إلى ابتداء الوسائل للتوفيق بين قوة الفرد وقوة المجموع حتى لا يستشري الداء في الموازنة الاجتماعية فيفسدها.

غير أن هذه الوسائل على اختلافها لم تكن إلى عهدنا — عهد الاشتراكية العلمية — إلا ثورات، مهما كانت فإنها أشبه بجموح الحيوان<sup>(٢)</sup>.

ورأى كيف « تنحاز طبائع الناس كلها في جهة، والفقر في جهة، حتى لا يرى في العالم على سعته غير اثنين : هو واستبداد الغنى ».

وهنا اندفع به المعنى الاعتقادي، ليتساءل :  
« ترى أين تكون شرائع الآداب إذن ؟ هل هي في ضمائرنا ؟ أم هي في كتابها ؟ أم صار الحق كله إنسانياً بحثاً ؛ لي عليك ولك علي ؟ وليس لله علينا شيء ؟ وفصلنا أنفسنا من السماء، وقطعنا الروابط التي تربطنا بها، وبذناها فرئت ثم رئت فإذا هي على أجسام الفقراء تلك الأسماك البالية »<sup>(٣)</sup>.

(١) المساكين — ٧٩

(٢) المساكين — ٨٠

## الضمير

أنه لَيْفَتَقْدُ النظام الإسلامي الذي لم تَعْدِلُهُ صورة الحياة في ذلك الاجتماع، فَيَرَى أن الإنسانية لا تَرَى في الأرض إلا الضمائر، وما هذه الأجسام إلا أدوات صناعية رُكِبَتْ هذا التركيب لِتَصْلَحَ لحياة الضمير<sup>(١)</sup>. فهو إذن لم يَكُنْ قد وَجَدَ فيما وَقَفَ عليه من مذاهب وآراء في الاجتماع والاقتصاد ما يَعدِلُ الضمير الذي «يَحْفَظُ مُوازَنَةَ الحياة الاجتماعية، فلا بُدُّ إذن من إنبات الإنسانية مع الضمير إنباتاً حَسَنًا، وتعهُّدِهِ فيها بالإعداد والتربية، ثم تذكيرها به وتذكيره بها في مَوْعِظَةٍ حَسَنَةٍ كُلَّمَا جَدَّتِ الأيام وتوالى الحدثان.

ذلك أن «الفصل بين الغنى والفقر من الأمور التي تَتَعَلَّقُ بالضمير وحده، ورُبَّ غَنِيٍّ يَزِيدُ أَهْلَهُ بِالْحِرْصِ والدَّناءَةِ فقرًا!»

وفي عِظَةٍ بالغةٍ وتذكير أمين يقول :

«انظروا في باطن الإنسان بالفضيلة التي هي من نور الله، والحقيقة التي هي من نور الطبيعة، فانَّكُمْ لا تَرَوْنَ حقيقة الغنى من حقيقة الفقر إلا بمقدارِ مِلءِ هذه المعدة<sup>(٢)</sup>».

ثم إنَّهُ دعا إلى «الإحسان الاجتماعي» عن طريق التربية الاجتماعية، بعدما رأى من كثرةِ الجَمْعِيَّاتِ في البلاد، والإخفاق الذي يُرافق مَساعيها ؛ لأنها لا تُحَسِّنُ عَمَلَ الخير، فلا تجتمعُ عليه ؛ لأنَّ قِوَامَ كُلِّ عَمَلٍ بنظامِهِ وتَصْرِيفِهِ على أصولِهِ الطَّبِيعِيَّةِ، فالإحسانُ عنده «صَرْبٌ

(١) المساكين — ٨٣

(٢) المساكين — ٨٩ — قلت هي من موعظة بدوية قائمة في قولهم (ملء هذي وستر هذي وبينهما فتر).

من ضروب الإصلاح الاجتماعي، يُؤتي نتائجهُ الطبعية ظَهَرَ أَوْ خَفِيَ، ولا يَذْهَبُ بِهِ ضَعْفُهُ أَوْ قَلْتُهُ، ولكن الذي جَعَلَ المَوْجُودَ مِنْهُ ضَائِقًا، والمُثْمِرَ مُنْقَطِعًا هو جَهْلُنَا كَيْفِيَّةَ الإِحْسَانِ»<sup>(١)</sup>.

ذلك أن الأمة في ضيعتها أفرادٌ ليس فيها مجموعٌ في الحساب، فالذي يُعَوِّزُها هو المبدأ الذي يَجْتَمِعُ عليه الأفراد، « ولكن أكبر رذائلنا أننا لا نتحد؛ لأننا نجعل التربية الاجتماعية، فتخلقنا بالأخلاق الفردية، فصار الألف منا والأكثر من الألف، لا يُحْسِنُونَ عَمَلَ اثنين مُتَحَدَيْنِ»<sup>(٢)</sup>.

ومن الطريف أن أحدهم كان قد ساءل الرافعي عن موضوعه في الفقر، وإشارته إلى الاشتراكية، ونعى عيه تحريم الربا، وقال: إنه تقوُّم عليه حياة الاقتصاد في العالم<sup>(٣)</sup> فأهمل الرافعي أن يُجيبه، فعاد بعد ذلك التاريخ بسنين يزعم « أن الرافعي يعتقد أن الفقر ضربة لازب قد حَكَمَ اللهُ بِهِ ولا مَرَدٍّ لِحُكْمِهِ، كأنه لم يَسْمَعْ بالاشتراكية في حياته»<sup>(٤)</sup>. وكان الاشتراكية التي يَعْنِيها هي بُرء الإنسانية، أو مِسْحَةُ الرسول (١٩) التي تأتي بغير حكم الله!..

وهنا أدرك الرافعي كأن دَعْوَتَهُ هاتيك لتربية الضمير وإعدادِهِ لم تَلَقَ فهماً مُستَوْعِباً من بعض مُعاصِرِهِ، فكَتَبَ في الردِّ يقول:

« ينعي علينا أننا نتجاهل الاشتراكية كأننا لم نَلِمْ بها، وهو يراها

(١) المقتطف — سبتمبر ١٩١٤ م

(٢) المقتطف — سبتمبر ١٩١٤ م

(٣) المقتطف — سبتمبر ١٩١٣ م

(٤) الهلال — يناير ١٩٢٤ م



مائدةٌ مُدَّتْ في الأرضِ للنَّاسِ جميعاً، على أنَّنا نراها تلكَ المائدةَ بعينها، غيرَ أنَّنا نزيدُ عليه أنَّها ممدودةٌ للنَّاسِ جميعاً، لِيَتَدَفَّعَ عنها النَّاسُ جميعاً فلا يَصِلُ إليها أحدٌ»<sup>(١)</sup>.

« وَنُفَضِّلُ على كلِّ هذهِ المائدةِ الخياليَّةِ بما حَفِلَتْ من لذائذِها وألوانها، تلكَ اللُّقِيَّمَاتِ التي يَفْرِضُهَا نظامُ الزَّكَاةِ في الإسلامِ فَرَضاً، لا يَتِمُّ تمامُ الإسلامِ لأحدٍ إلَّا بهِ، وعلى هذا فاعتبر »<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

## العصر

ولمَّا رَأَى الحياةَ الفِكْريَّةَ من حِوَالِيهِ تَدَفَّعَ فَتَلَقَّفُ كُلُّ ما تقولُ بهِ منابرُ العَرَبِ من آراءٍ، وتَسْتَمِرُّ مَذهَبُها في الاجتماعِ والاقتصادِ والمصارفِ الربويَّةِ، مُؤْمِنَةً بأنَّ ما جرى هنالكِ من مُوافقاتِ العِلْمِ وامتيازِ القانونِ كَفِيلٌ بإعادةِ الموازنةِ الاجتماعيَّةِ التي يَفْتَقِدُها الرافعي، عاد بصراحتِهِ المَعهودَةِ يقولُ :

« يزعمون أنَّنا في عَصْرِ العِلْمِ وفي دَهْرِ القانونِ، ويُريدون أن يَسْلُبُوا النَّاسَ إيمانَهُمْ، كأنَّ الإِيمانَ هو مُشْكَلَةُ الإنسانيَّةِ، مع أنَّه لا حَلَّ لمشكلاتِها إلَّا بهِ ! »

إنَّ مَسْأَلَةَ الغِنَى والفَقْرِ وما كان من بابِهما لا يَحُلُّها العِلْمُ ولا القانونُ ؛ إذ هي من موادِّ القضاءِ والقَدَرِ في إنشاءِ الآلامِ والأحزانِ،

(١) الهلال — فبراير ١٩٢٤ م

(٢) الهلال — فبراير ١٩٢٤ م

وأضدادها التي تُقابِلُها، وما دَامَ فَوْقَ الْإِنْسَانِيَةِ مِنَ السَّمَاءِ قُوَّةٌ لَا تُحَدُّ، وَتَحْتَ الْإِنْسَانِيَةِ مِنَ الْقَبْرِ هُوَّةٌ لَا تُمَدُّ، فَلَا نِظَامَ إِلَّا عَلَى تَصْرِيفِ النَّفْسِ أَمْرًا وَنَهْيًا، وَتَأْوِيلِ الْحَيَاةِ مَعْنًى وَغَايَةً ؛ فَإِنْ لَمْ يَكُنِ الشَّانُ فِي ذَلِكَ مُقَرَّرًا فِي الْغَرِيزَةِ عَلَى جِهَةِ الْإِيمَانِ، فَلَنْ يَكُونَ الْعِلْمُ وَالْقَانُونُ عَلَى ظَاهِرِ النَّفْسِ إِلَّا ثَوْرَةً بِمَا فِي بَاطِنِهَا فِي مَعْنًى مِنْ مَعَانِي النَّفْسِ لَا إِنْسَانِيَّةَ فِيهِ<sup>(١)</sup>.

ثم قَالَ : « ... وَمَتَى كَانَ الْعِلْمُ وَالدينُ يَقومانُ جَمِيعًا عَلَى تَنْظِيمِ الطَّبِيعَةِ فِي مَادَّتِهَا وَإِنْسَانِيَّتِهَا لَمْ تَجِرِ الْإِنْسَانِيَّةُ إِلَّا عَلَى نَامُوسِ بَقَاءِ الْأَصْلَحِ فِي الْجِهَتَيْنِ، فَإِذَا تَخَلَّى بِهَا الْعِلْمُ وَحَدَّهُ، فَلَنْ تَجْرِيَ أَبَدًا إِلَّا عَلَى بَقَاءِ الْأَصْلَحِ فِي ظَاهِرِهَا لِإِبْجَادِ الْأَفْسَدِ فِي بَاطِنِهَا<sup>(٢)</sup> ».

إِنَّهُ يَدْعُو إِلَى الْإِيمَانِ حَيْثُ الْفَضَائِلُ الْإِنْسَانِيَّةُ الْعُلْيَا، وَحَيْثُ الْأَخْلَاقُ الثَّابِتَةُ، « وَمَا كَانَتْ التَّقْوَى إِلَّا عَمَلًا مِنْ أَعْمَالِ الْإِرَادَةِ غَايَتُهُ إِبْجَادُ الْغَرَائِزِ الْعُلْيَا فِي الْإِنْسَانِ بِالْأَسْلُوبِ الَّذِي لَا تُخْلَقُ الْغَرِيزَةُ الْعِلْمِيَّةُ فِي النَّفْسِ إِلَّا بِهِ، وَعَلَى النَحْوِ الَّذِي لَا تَصْلُحُ فِي الْحَيَاةِ إِلَّا عَلَيْهِ ».

ذَلِكَ أَنَّ الْإِيمَانَ يُحَدِّدُ أَبَدًا غَايَاتِ الْإِنْسَانِ وَيُنَسِّقُهَا، وَيُلَائِمُ بَيْنَهَا، كَيْ لَا تَطْغَى أَوْ تَتَشَابَكَ ؛ فَهُوَ مِنْ أَهْلِهِ فَوْقَ الْحُكُومَةِ مَعَ مَنْ تَحْكُمُهُمْ ؛ فَهُوَ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ بِلُغَةِ الدِّمِّ وَالْعَصَبِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الدِّينِ أَصُولٌ تَأْمُرُ وَتَحْكُمُ، وَفِي الطَّبَاعِ مِنَ الْيَقِينِ أَصُولٌ تَسْتَجِيبُ وَتَخْضَعُ، رَجَعَتْ الْحُكُومَةُ فِي النَّاسِ أَدَاةَ سُلْطَةٍ لَا تُغْنِي فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ<sup>(٣)</sup>.

(٣) المقتطف — يناير ١٩٢٩ م

(٢) المقتطف — يناير ١٩٢٩ م

(٣) المقتطف السابق — المساكين — ١٠

وهنا التفت إلى ناحية المدينة المحدثّة في تقليد التقليد، وقد رآها تعمل ما تعمل فقال: « إذا عملت المدينة في هدم الحدود، وتركت قوّة الإيجاب في طيبة الحياة بغير قوّة سلبية من الإيمان في طبيعة النفس، كشفت للإنسان عيوبه ببلاغة من تعبير شهوراته »<sup>(١)</sup>.

وهكذا حتى تساءل قائلاً: « ترى أخرج الإنسان في هذه المدينة من عَصْرِ العقل إلى عَصْرِ القلب ؟ أم هو مُنَحْدِرٌ من عَصْرِ عَقْلِهِ إلى عَصْرِ مَعْدَنِهِ ثم إلى .. »<sup>(٢)</sup>.

وكان قد رأى من ضروب الخلل في الاجتماع بوجه المنافق<sup>(٣)</sup> أو بيد البخل<sup>(٤)</sup> وغيب الحظ<sup>(٥)</sup> ما رأى من ألواح وصور، فأبْلَهَا مع الحياة والنفس والمعدلة الاجتماعية، حتى خلص إلى المعنى الإسلامي الأثير في النية وصلاحيها، فكانت في وصيته على لسان الشيخ علي بقوله: « ما النية إلا خلاصة الفكر والضمير، وتتأبع ما بينهما، فلا تنطوي على ما يسوؤك أن تتم به ألسنة الغيب، ولا تعقد هوى ضميرك على ما تحبه أصلاً من حيث لا يكون إلا حمداً للناس، وحسبك من المتاجرة مع السماء بضاعة صالحة من الإيمان الذي لا غش فيه، ومن المتاجرة مع الأرض بضاعة طيبة من النية التي لا دنس فيها؛ فإن ربحك

(١) المقتطف السابق — المساكين — ١١

(٢) المقتطف السابق — المساكين — ١٢

(٣) الهلال — مارس ١٩٢١ م

(٤) البيان — ٣/٨ — ٤٥٧

(٥) المساكين — ٢١٧

من هذه البضاعة التي لا تكسَد في أسواق السماء والأرض أن يُلقَى  
اللهُ عليك محبةً مِنْهُ، وتأييداً وسكينةً»<sup>(١)</sup>.

وكذلك الضميرُ عندهُ أبداً، هو الذي يَحْفَظُ المُوازَنَةَ والعَدْلَ في  
الاجتماع الإنساني.

وقد أعادَ طَبَعَ «كتاب المساكين» بزياداتٍ مُنقَّحةٍ، وتلاحقَ بعضُ  
هوامشهُ بالرأي والسُّدادِ، فما كادَ يمرُّ بإشارتهِ السابقة إلى «الاشتراكيةِ  
العلمية» حتَّى قال :

« ليس في مثل الوسائل الاجتماعيةِ كلّها ما يعدلُ نظامَ الزكاة في  
الإسلام؛ فلو أُخِذَ رُبْعُ العُشْرِ من ثَرَوَةِ العالمِ بأجمعهِ كُلِّ سَنَةٍ، وجُعِلَ  
في مَصالحِ الفقراءِ، لأُصْلَحَ الْفَقْرُ والغنى معاً»<sup>(٢)</sup>.

وكذلك لاحقَ الرِّبَا فلم يَرَ فيه خيراً اجتماعياً، ولا نفعاً إنسانياً  
صحيحاً، وقد رآه أخذَ الرذائلِ الإنسانيةِ التي تَدْخُلُ في الاجتماعِ  
الفاقدِ، لِيَسْتَكِينَ إِلَيْهِ ضُعَفَاءُ الناسِ؛ يُخْرِبُونَ بيوتَهُم بأيديهِم، قال :

« لعلَّ حكمةَ تحريمِ الرِّبَا في الإسلامِ أَنَّهُ في الأكثرِ أَكْلٌ لبقيةِ  
الفَقِيرِ، وانتفاعِ باضطرابِهِ، وإرهاقٌ له بمضاعفةِ الحاجةِ عليه؛ وهي  
كلُّها أدواتُ قَتْلِ اجتماعي»<sup>(٣)</sup>.

إنَّه أقوى مُعاصِرِهِ ثَوْرَةً على الواقعِ الاجتماعي الأليمِ الذي تُعانيهِ

(١) المساكين — ٨٠ الهامش، وهذا ما بدا لوزارة الشؤون الدينية فأعدت له نظامها الآن

(٢) المساكين — ٧١ الهامش،

الأُمُورُ فِي الْخَلَلِ وَالاضْطِرَابِ وَلَكِنْ إِرَادَةُ التَّغْيِيرِ عِنْدَهُ لَا يَتِمُّ تَمَامُهَا، وَلَا تُؤْتِي ثَمَارَهَا مَا لَمْ يَكُنْ لَهَا دِينٌ عَاصِمٌ، وَضَمِيرٌ يُلْزِمُ، وَنِيَّةٌ خَالِصَةٌ.

\* \* \*

### الأسوة الحسنة

ثُمَّ بَدَأَ لِلرَّافِعِيِّ أَنْ يُعْنِيَ بِالسَّيْرِ النَّبَوِيَّةِ، وَيَرَى فِيهَا مِنْ بَرَاهِينِ الْحَيَاةِ تِلْكَ الْأَسْوَةَ الْحَسَنَةَ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ، فَكَانَ لَهُ مِنْ بَيْنِ الْمَوْضُوعَاتِ النَّبَوِيَّةِ أَنْ شَهِدَ سُمُو الْفَقْرِ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَهُوَ فَقْرٌ يُعَدُّ مِنْ مَعْجَزَاتِهِ الْكُبْرَى، فِيهِ الْخَصَائِصُ النَّفْسِيَّةُ وَالاجْتِمَاعِيَّةُ<sup>(١)</sup>.

« وَفِي مُضْطَرَبِ النَّزَعَاتِ الْمُتَقَاتِلَةِ تَتَلَفُّ الْإِنْسَانِيَّةُ إِلَى التَّارِيخِ : تَسْأَلُهُ دَرْسًا مِنَ الْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ الْقَوِيمِ ؛ تُطِبُّ مِنْهُ لِهَذِهِ الْحِمَاقَاتِ الْجَدِيدَةِ، قَالَ :

« لَوْ عَلِمْتَ لَعَلِمْتَ أَنَّ دَرْسَ هَذَا الْعَصْرِ فِي عِلَاجِ مَشْكَالَاتِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ الَّذِي لَمْ يَتَلَفْ أَحَدٌ فِي وَصْفِهِ الْاجْتِمَاعِيِّ، مَا بَلَغَ هُوَ فِي قَوْلِهِ : « إِنَّمَا أَنَا رَحِمَةٌ مُهْدَاةٌ ».

هَذَا الْمَصْلَحُ الْاجْتِمَاعِيُّ الْأَعْظَمُ يُلْقَى فَقْرُهُ دَرْسًا عَلَى الدُّنْيَا الْعِلْمِيَّةِ — الْفَلَسْفِيَّةِ، لَا مِنْ كِتَابٍ وَفَكْرٍ، وَلَكِنْ بِأَخْلَاقِهِ وَعَمَلِهِ وَسِيرَتِهِ ؛

(١) الرسالة — ٥٣، وحي القلم ٢ — ٤٨

إذ المُصلِح هو الحيُّ العظيمُ الذي تَلْتَمِسُهُ الفكرةُ العظيمةُ لتحيا فيه<sup>(١)</sup>.

وخيَّرَ ﷺ أن يكونَ لَهُ مِثْلُ (أُحَدٍ) ذهاباً فقال: لا يا ربُّ، أجوعُ يوماً فأدعوك، وأشبعُ يوماً فأحمدك، وكان يقولُ في دعائه ويُكثرُ منه: اللهمَّ أخيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشُرني في زُمرَةِ المساكين « كلُّ ذلك إنما يُثبِتُ للدنيا، أَنَّهُ خُلِقَ وَبُعِثَ وعاشَ ليكونَ دَرْساً عَمَلِيًّا في حَلِّ المشكلاتِ الاجتماعية.

على أَنَّهُ ﷺ حَثَّ على طَلَبِ اليَسَارِ والتَّعَلُّلِ من الأعمالِ الشريفةِ بالغلَّةِ والمالِ، فقال: « إِنَّكَ أَنْ تَدْعَ عِيَالَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدْعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ » ١.

وحين يكونُ سيِّدُ الأُمَّةِ وصاحبُ شريعتهَا رَجُلًا فَقيرًا عَامِلًا مُجاهداً ؛ يكدِّحُ لِعَيْشِهِ ويجوعُ يوماً ويشبعُ يوماً، فَلَمْ يَقْلَبْ يَدَهُ في تِلَالٍ من المالِ يورِثُهُ، ولم يَجْمَعْهُ على طَريفٍ يورِثُهُ، فذلك هو الأمرُ النافذُ الذي لا رُخْصَةَ فيه، بَلْ هي المساواةُ النَّفْسِيَّةُ لا غيرها — وإن اختلفت دَرَجَاتُ الاجتماعِ. وعلى هذهِ الأسواقِ الحَسَنَةِ يَتَجَلَّى تجديدُ الحياةِ في الإسلامِ، وَيُنْتَقَلُ الإنسانُ من حالٍ إلى حالٍ بالكَدِّحِ والجَهادِ والمُثابرةِ، مع الالتزامِ بالقيمِ والمُحافظةِ على الأعرافِ، فلا تَجَمُّعُ بهِ شهواتِهِ، ولا تجاذِفُ بهِ نَزواتِهِ، ولا يُغْرِيه العِلْمُ بتحليقاتِهِ ولا القانونُ بموافقاتِهِ، وإنَّما هو الضميرُ عليه تَنْبُتُ الأُمَّةُ وتَتَرَبَّيُّ الرجالُ، وتُصَقِّلُ المواهبُ وتُنْتَظَمُ الأعمالُ وتَخْلُصُ الوسائلُ بِشرفِها إلى الغاياتِ والأهدافِ بِسموها.

(١) الرسالة — ٥٣، وحي القلم ٢ — ٤٨

ولم تزل هذه المعاني تجول في ذهنه، ويتنقل معها في حياته من عهد إلى آخر، وفي كل مرحلة منه ينضج له فكر فيه، حتى استوت في الموازنة يوم رأى في شهر رمضان شهراً للثورة فقال في لهجة من لم يكن ظنه قد حسن بأصحاب الفكر وفلاسفة أوربة المحدثين في هذا الاتجاه :

« يضطرب الاشتراكيون في أوربة — وقد عجزوا عجزاً من يحاول تغيير الإنسان بزيادة أو نقص في أعصابه، ولا يزال مذهبهم في الدنيا مذهب كتب ورسائل، ولو أنهم تدبروا حكمة الصوم في الإسلام، لرأوا في هذا الشهر نظاماً عملياً من أقوى وأبدع الأنظمة الاشتراكية الصحيحة. فهذا الصوم فقر إجباري يفرضه الشريعة على الناس فرضاً ليتساوى الجميع في بواطنهم سواء منهم من ملك ( المليون ) من الدنانير ومن ملك القروش الواحد ومن لم يملك شيئاً. كما يتساوى الناس جميعاً في ذهاب كبرياتهم الإنسانية بالصلاة التي يفرضها الإسلام على كل مسلم، وفي ذهاب تفاوتهم الاجتماعي بالحج الذي يفرضه على من استطاع »<sup>(١)</sup>.

الصيام عنده كال تدريب العسكري يعد الجيوش للمعركة، وهذا يعد الأمة كلها لمعركة الحياة ؛ فالبلاء الحسن عند الجندي الفرد، يقابله الصبر الحليم عند الصائم ا.

« الصوم يضج الإنسانية كلها في حالة نفسية واحدة تتلبس بها النفس في مشارق الأرض ومغاربها، ويطلق في هذه الإنسانية كلها

(١) الرسالة — ٧٥، وحى — ٣، القلم ٦٦ — ٦٧

صَوْتُ الرُّوحِ يُعَلِّمُ الرَّحْمَةَ ويدعو إليها، فيشبع قِيَمَهَا بهذا الجُوعِ  
فكرة مُعَيَّنَةٌ هي كُلُّ ما في الاشتراكية من الحقِّ.

وهي تلكَ الفكرةُ التي يكونُ عنها مساواةُ الغنيِّ للفقيرِ من طبيعته،  
واطمئنانُ الفقيرِ الى الغنيِّ بطبيعته، ومن هذينِ : الاطمئنانِ والمساواةِ،  
يكونُ هدوءُ الحياةِ بهدوءِ النفسينِ اللَّتَيْنِ هما السُّلبُ والإيجابُ في  
هذا الاجتماعِ الإنسانيِّ<sup>(١)</sup>.

### اضطراب الاقتصاد

إنَّ الرافعيَّ ليرى في المجتمعِ وما في جوانبه من اضطرابِ الاقتصادِ،  
ودورانِ الغنى والفقرِ ودولةِ المالِ مظهرًا من مظاهرِ الحياةِ، وعلى ما  
في الحياةِ من صلاحِ الضميرِ وخلوصِ النيةِ وتامِ الإيمانِ تحسُّنُ  
هاتيكِ الجوانبِ، وتطمئنُّ النفوسُ، وتقوى العزَماتُ. فإذا ما اختلَّتِ  
الحياةُ، ودبَّ الفسادُ إليها من إحدى جوانبها، واضطربتِ الأحوالُ فيها  
فأخذتْ برذائلِ الرِّبَا، واستنَمَّ الضميرُ، وساءتِ النيةُ، ولم ينتظمِ الإيمانُ  
ولا حسنُ الإسلامِ ؛ فإنَّ مَرَدَّ ذلكَ الجهلُ في حقيقةِ المبادئِ التي عليها  
نظامُ الحياةِ في الإسلامِ، ولا مَقْوَمٌ لها بدونه.

ولا يقتصر عنده الرأي على المسلمين فَحَسْبُ، وإنَّما يتعدَّاهم إلى  
إصلاحِ المدنيةِ في العالمِ كُلِّهِ ؛ ذلكَ أنَّ إرادةَ التَّغييرِ لا تصنعُها القوانينُ،  
ولا تُقيِّمُها القراراتُ، ولكنْ تصنعُها النفوسُ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا  
بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾<sup>(٢)</sup> الآية.

(١) الرسالة — ٧٥، وهي القلم ٦٦ — ٦٧.

(٢) سورة الرعد الآية ١١.



وهو بعد ذلك يُعلنها صريحةً مُدوِّيةً في وجه المذهبيات المستوردة من نزعات الفسولات في الأقوام غير العربية، وغير المسلمة، فيقول :

« تعالوا أيها الاشتراكيون فاغرفوا نبيكم الأعظم ؛ إن مذهبكم ما لم تُخيه فضائل الإسلام وشرائعه، إن مذهبكم لكالشجرة الذابلة تُلقون عليها الأثمار تشدونها بالخيط كل يوم تحلون، وكل يوم تربطون، ولا ثمرة في الطبيعة »<sup>(١)</sup>.

وكذلك هذه المذاهب ما تبرح تحل وتربط، وتعود فتقرّر، وتعدل وترجع، أو تقفز بحسبان قد لا يزد في أصل، ولكنها مذاهب فيها من الاجتهادات ما يكاد يجعل من الاجتهاد نفسه فيها قوضى تضرب في الفكر وتضطرب بالاجتماع ..

\* \* \*

---

(١) وحي القلم ٢ — ٦٤ — وهي الحكمة التي طار بها أمين البعث فكانت مضمون تنظيره — انظر الرسالة الاسلامية ٢٠٨.

## المبحث الثالث

### الضمير العربي

من الموضوعات الجليلة المُحدثة في أدب الرافعي، ذلك الموضوعُ  
الاعتقادي الخطير الذي تقومُ عليه حركةُ الأمة في استعدادها للقيامِ  
بمجدِها الحضاري الذي تُعيدُ به موازنة القوى في العالم، وتُقيمُ المعدلة  
التي عُرِفَتْ بها في دينها.

هذه الحركة القومية العربية التي عادتْ تُنظم الأمة في صفوفها  
بالحياة والجهد، وتحاولُ أن تغنمَ أكثرَ من مجدٍ، وتوحدَ الديارَ والبلادَ،  
بحشدِ طاقاتِ العباد، وتوفيرِ فرصِ الانتصار لها.

وقد لا يتمُّ ذلك الحشدُ إلا بوازعٍ من ضميرٍ يُملئُ الوعيَ بظرفِ  
رياني<sup>(١)</sup> ذلك أن الضميرَ هو صوتُ الله في الإنسان<sup>(٢)</sup> ولا ينبعثُ هذا

---

(١) زكي الأرسوزي — بحث الأمة العربية ورسالتها — ٢٣

(٢) الزهور — ٤ — ١٩١٢ م

الصَوْتُ إِلَّا بوحى ذاتي يَنْطَلِقُ بِهِ لسانٌ مبین، ويتمثلُهُ أدبٌ رفیع،  
ویمتازُ فیهِ فِکرٌ سَدیدٌ.

والضمیرُ یشابهُ العَقْلَ فی بعضِ أَعمالِهِ كما یشابُهُ الوجدانُ العاطفةَ  
فی نَزعاتِها، فإنَّ من الأعمالِ العقلیَّةِ إدراكُ الأولیاتِ والبَدائِهِ التي لا  
تَحْتَاجُ إلى بُرْهانٍ؛ فالْمُسْتَقِیمُ فی أَعمالِهِ، الصادقُ فی أقوالِهِ، الْمُتَحَلِّی  
بِالْفَضائلِ، والسَّالِكُ إلى الكمالِ فی منْهَاجِهِ، لَهُ من راحةِ الضمیرِ  
سُرورٌ لا یُحِیطُ بِهِ الوَصْفُ، ولا یَقْوِی على تَبیانِ محاسِنِهِ البیانُ، وَلَهُ  
غِبْطَةٌ لا یُدانِیها فی التأثيرِ جمالُ الطبیعةِ ولا عذوبةُ المُوسِیقِی ولا  
طَرَبُ العواطفِ.

وهو شيءٌ خَطِیرٌ فی حیاةِ الإنسانِ — كما تَقَدَّمَ بنا القَوْلُ « ولا  
بُدُّ لَهُ من تریبَةٍ وتَنْشِئَةٍ خاصَّةٍ؛ لیكونَ سَلیمًا ویحتفظُ بنقائِهِ، ویُصْبِحَ  
حکْمُهُ على الأشياءِ صَحیحًا »<sup>(١)</sup>.

### فطرة الله

والضمیرُ بَعْدُ الفِطْرَةِ النَّقِیَّةِ، فما جاءَ مِنْهُ هو الدِّینُ بَعِینِهِ، ولا یَمکنُ  
أنْ یقومَ ضمیرٌ بلا دینٍ؛ إذ الدِّینُ هو الضمیرُ القانونيُّ للأُمَّةِ، وحقیقَةُ  
الخلْقِ الاجتماعی فیها<sup>(٢)</sup> ذلك أنَّ الدِّینَ والضمیرَ صِنوانِ لِمَضْمُونٍ  
واحدٍ، لا یَمکنُ لأَحَدِهِما أنْ یَنفَرَدَ دونَ الآخرِ<sup>(٣)</sup> وبالدِّینِ الإسلامیِّ

(١) عمر الدسوقي — الرسالة ١١١٥ — ١٩٦٤ م

(٢) الرافعي — الرسالة ١٤٥ — وحي القلم ٣ — ٣٥

(٣) كتاب المساكين — ٢٧٦

ومما تجدر الإشارة إليه أن محمود الشرقاوي قد حاول نقل مفهوم غريب في كتابه =

الْمُنْبَعَثِ مِنْ ضَمِيرِ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ قَامَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى فُضَائِلِهَا النَّفْسِيَّةِ،  
وَفِيهِ — لَا فِي سِوَاهُ — مَعْنَى إِنْسَانِيَّةِ الْقَلْبِ<sup>(١)</sup>.

### الضمير القومي

وَلَمَّا كَانَ الْإِسْلَامُ دِينَ الْفِطْرَةِ، فَإِنَّهُ الضَّمِيرُ الْقَوْمِيُّ لِلْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ ؛  
الَّذِي يُضْفِي عَلَى الْوُجْدَانِ الْإِنْسَانِيِّ التَّجَلُّلَ وَسَائِرَ الْفُضَائِلِ الْعُلْيَا أَوَّلًا ؛  
لِأَنَّهُ الْفِطْرَةُ الْإِلَهِيَّةُ الَّتِي فَطَّرَ النَّاسُ عَلَيْهَا<sup>(٢)</sup>.

وَمِنْ هُنَا كَانَتْ الْأُمَّةُ الْعَرَبِيَّةُ مَتَّبِعَةً لَا تَابِعَةً فِي دِينِهَا وَفُضَائِلِهَا  
النَّفْسِيَّةِ وَلِسَانِهَا وَبَيَانِهَا<sup>(٣)</sup>، وَلَوْ صَلَحَ لِلْإِسْلَامِ غَيْرُ الْعَرَبِ لَقَدَّمُوا  
عَلَيْهِمْ<sup>(٤)</sup>.

وَمِنْ هُنَا أَيْضًا جَاءَ الْمَعْنَى الْجَلِيلُ لِلْعُرُوبَةِ ؛ فَقَدْ وَجَبَ عَلَى الْأُمَّةِ  
الْعَرَبِيَّةِ أَنْ تَعْمَلَ عَلَى نَشْرِ دِينِهَا وَلِسَانِهَا وَعَادَاتِهَا وَآدَابِهَا وَأَعْرَافِهَا ؛  
لِتَجْعَلَ مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَامِ الْإِسْلَامِيَّةِ أُمَّةً وَاحِدَةً فِي دِينِهَا وَقِبْلَتِهَا وَلُغَتِهَا  
وَمَقَوِّمَاتِ حَيَاتِهَا، وَلِتَكُونَ أُمَّةً وَسَطًا، وَلِيَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ —  
الْآيَةِ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ<sup>(٥)</sup>.

وَهُنَا أَضْيَفُ أَنْ الْإِسْلَامَ الْحَنِيفَ بِهَدَايَتِهِ كَأَنَّمَا جَاءَ لِتَعْرِيبِ النَّاسِ  
فَقْهًا وَبَيَانًا ١.

= (الدين والضمير) زعم فيه أن المستقبل للضمير من غير أن يُلْزَمُهُ بدين، ولَسْنَا مِنْ  
مَذْهَبِهِ، فَالْحَيَاةُ الْاِعْتِقَادِيَّةُ وَالْفِكْرِيَّةُ لَا تَقَرُّ ذَهَابًا كَهَذَا.

(١) الرسالة — ٤٣، ٩٣

(٢) تاريخ آداب العرب ١ — ٧٣

(٣) الامام الشافعي — الرسالة — ٤٩

(٤) رسائل الرافعي — ٨٠ وهو مذهب الأنصار من تلامذته.

(٥) أحمد محمد شاكر — هامش الرسالة — ٤٩ والآية من سورة البقرة رقم ١٤٣

« التاريخ كله دليل على أن العرب مادة كريمة في عنصر الإنسانية، وقد خصهم الله بإقليم وطبيعة لم يخص غيرهم بهما، فخرجوا من أثر هذا الاقليم وهذه الطبيعة — وهم أكرم الخلق غريزة وطبعاً في النفس والخلق والعقل والروح، لا يحتاجون من التهذيب والتدريب إلى أكثر مما يحتاجه الألباس الكريم في الصقل والرواق، فإذا هو مُشرق يتلألأ من كل جهاته، وإذا هو يُنبئ عن صفاء معدنه بنوره، ويبين عن كرم عنصره بفضيلته .

ولما أراد الله أن يبعث في الأرض خلقاً جديداً، ويُنشئ للدنيا أمماً مُستحدثة فتية، بث فيها العرب تحت ظلال سيوفهم وأروقة أخلاقهم وطباعهم، فكانوا مادة قوية في دماء الشعوب انبعت بها تلك الأجيال المُتَحَضِّرة التي أنشأت التاريخ العظيم، وأدارت الأرض دورة جديدة بما دَفَعَتْ فيها من القوة والنشاط»<sup>(١)</sup>.

. وهذا مذهب التزمه الأنصار من تلامذته، وما برحوا يلحون في السؤال لماذا نزل الإسلام في جزيرة العرب، ويستفيضون في الجواب بما يؤلف شروحا متوازنة للميثاق ونقداً متواصلاً للفلسفات والأفكار.

وربما كانت عثرات الثوار العرب وخواز بعضهم من غفلتهم عن هذه الحقيقة الحرة والتفكير المؤمن السليم.

\* \* \*

ولما كان من أولى واجبات « العروبة المؤمنة » الحق أن يعمل أدباؤها على نشر أهدافها وإذاعة لغتها في بيانها وأفكارها وفقه حياتها، فإن

(١) الراجعي — مقدمة أعجب العجب من أحوال العرب — ٥

من أوليات الأمور في الواجبات أن يَنْهَضَ بذلك مَنْ نَذَرَ نَفْسَهُ فداءً  
وجِهَاداً حتَّى ينفِرَ الأدبُ العربي بطابعِهِ القوميِّ المميّز، الذي يُعرَفُ  
به بين آدابِ الأممِ وأنكارِها، فلا يَعُودُ مَرَقَّةً اسْتِجْداءٍ، ولا مِباءةً  
اسْتِجْلابٍ، كحالِ مَنْ انْتَهَتْ بهم الأيامُ!.. — وقد رَضُوا لأنفُسِهِمْ  
ولَهُ أن يَكُونُوا تَبِيعاً في مُعْظَمِ ما يَحْمِلُونَهُ من فِكْرٍ وسياسةٍ لآدابِ  
الأممِ الأخرى غيرِ العِربيَّة، بما فيها من ألوانِ اليهودية وأدرانِ السُّعوبيّاتِ  
الأخرى..

إنَّ الرافعيَّ لم يَكُنْ كذلك وإنَّما كان حَرْباً على الحالِ التي آلتَ  
إليها، حَيْثُ ذَهَبَ الأدباءُ نَشْراً مُتَبَدِّدين لا يَجْمَعُهُم زِمَامٌ<sup>(١)</sup>.

لقد كان معروفاً باتِّجاهِهِ العربيِّ وضميرِهِ القوميِّ منذُ سألَ قلمُهُ  
يَسْطُرُ نَظِيمَهُ ونَثِيرَهُ، في العقُودِ الأولى من القُرْنِ، وَقَدْ أَحْسَّ بِهِ مُنْأَوِيَهُ،  
وتَصَدَّقُوا لَهُ ولاثارُهُ<sup>(٢)</sup> قَبْلَ أن يَفْطِنَ المفكرونَ العربُ لخطرِ أدبِهِ!.

## موافقات

وقد حَفِلَتْ حياتُهُ الشَّعْريَّةُ بمُوافقاتٍ طَريفَةٍ في مَوْضوعاتِ العُروبةِ  
والقوميَّةِ والوطنيةِ سَبَقَتْ دراسَتنا لها<sup>(٣)</sup> وحَسَبُنا الإشارةُ إلى بعضِ  
آثارِها هنا.

(١) الرسالة ١٩٣ — وحي القلم ٣ — ٢٠٨

(٢) كلُّطفي السَّيِّد الذي ردَّ الرافعي عليه « مَضْرَبَتُهُ » وعَدَّها كالتزعة القبليَّة التي نهى الاسلام  
عنها، وكسلامة موسى وطعنه على العرب، وكطه حسين وحُسينيَّهِ العربَ على المُستعمرين  
الفرّاة، والعقاد واشتهار عداوتِهِ للوحدة العربية وغيرهم — راجع الرافعي الناقد الأديب.

(٣) هي رسالة الاختصاص (الماجستير) : الشعر عند الرافعي.

منها قصيدته التي ما تفقأ تردّد على اللّسنة الناشئة في المدارس  
الابتدائية في الشام والعراق، وكان أرسلها ولم يكذّ يتخطى العقد الثاني  
من سنيه :

بلادي هواها في لساني وفي دمي      يُمجّدها قلبي ويدعو لها فمي  
وقد جمّع في البيت عطاء القومية حقها وفاء وكرماً ؛ إذ أظهر  
الفكرة، وعلّق العاطفة، ودعا بإيمان عظيم، وصوّر ذلك كلّه بريضة  
أدبية بارعة تُترجم عن حركة اعتقادية نبيلة في نفسه. ولم ينس أن  
يذكر فيها مقومات العروبة جميعاً، فهي تجري على لسانه لغة، وتحيي  
في عروقه أصالة ودماء كريماً، ويشارك فيها بحب الوطن، ويجعل من  
ذلك كلّه ديناً يعمر به قلبه، ويحيا بأمجاده، حتى عادت نشيداً يتردّد  
شعاراً لا تبليه الأيام، ولا السياسات<sup>(١)</sup>.

وهو ككلّ شاعر قوميّ اتخذ من إحساسه بالواقع الأليم للأمة  
منطلقاً للتعبير عما في ضميرها من نوازغ وأشجان، فقال من قصيدة  
أخرى :

لقد وعظمتنا خطوب الزمان      وبعض الخطوب كبعض الخطب  
ألست ترى العرب الماجدين      وكيف تهدّم مجد العرب

(١) من المفارقات الأدبية الطريفة في العصر أن الشاعر محمود صادق كان قد أغار على  
المطلع. هذا فانتظمه في نشيد نال به الجائزة الأولى في مسابقة عام الاستقلال ١٣٥٥ هـ  
— ١٩٣٦ م إذ قال :

بلادي بلادي فدلك دمي      وهبت حياتي فبدى فاشلمي  
غرامك أول ما في الفؤاد      ونجواك آخر ما في فمي  
وقد أخذ فلم يترك للرافعي بضاعة، أنظر (أغاريد الرافعي) الأقلام ١ — ١٩٦٧، ثم  
راجع الرسالة — ١٥١ — والرابطة العربية ٦٣ — ١٩٣٦ م وتدبر!!

ولو انْتَقَلْنَا مَعَهُ إِلَى مَرَحَلَةٍ أُخْرَى فِي حَيَاتِهِ الْأَدْبِيَةِ الشَّاعِرَةِ، لَوْقَفْنَا عَلَى الْوُضُوحِ فِي أَرَادَةِ الْإِعْتِقَادِ، رُبَمَا لَمْ يَتَّهَيَّ لِمُعَاصِرِيهِ الَّذِينَ آثَرُوا الصِّفَةَ السِّيَاسِيَّةَ أَوْ اللَّوْنَ الطَّائِفِي آنَ ذَاكَ، فَهُوَ يَتَّعِدُّ عَنْ مَجَالَاتِهِمَا لِيَتَفَرَّدَ بِالنَّظَرَةِ الْمَوْضُوعِيَّةِ الَّتِي لَا تُثِيرُ مِنْ حَوْلِهَا الْغُبَارَ، وَلَكِنْ تَجَعَّلُ التَّأَمُّلُ وَالتَّفَكِيرُ دَائِبَيْنِ كَالرَّفِيقَيْنِ الْمُلَازِمَيْنِ لَهَا، وَرُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ يَسْتَتِيقُ بِالْعَقْلِ الْأَدْبِيِّ بَوَادِرَ النَّهْضَةِ الْعِلْمِيَّةِ لِلْأُمَّةِ فِي تِلْكَ الْمَرَحَلَةِ، وَيَحْتَاطُ لَهَا بِالتَّمْهِيدِ الَّذِي هُوَ التَّشْخِصُ وَالْمَعْرِفَةُ وَالْفَهْمُ، وَمَا يَكُونُ مِنْ وَغْيِ الْحَقِيقَةِ الْوَاقِعَةِ بِرُوحِهَا الْاجْتِمَاعِيِّ.

إِنَّهُ يَذْهَبُ مَذْهَبَ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ فِي اللُّغَةِ وَكُونِهَا الْأَسَاسَ الْبَيَانِيَّ لِلْإِعْتِقَادِ الْقَوْمِيِّ فَكْرَةً وَهَدَفًا<sup>(١)</sup> فَإِذَا مَا تَمَثَّلَتْ لَهُ بِظُرُوفِهَا نَظَرَ إِلَيْهَا نَظْرَةَ الْأَدِيبِ الَّذِي تَمَثَّلُ فِيهِ حِكْمَةُ التَّجَرِبَةِ وَفَضْلُ السَّبْقِ فِي الْإِتْفَاقِ، وَثَبَاتِ الْجَنَانِ مَعَ الْإِتْسَاقِ وَشِبَاهِهِ الْغَضِّ هَذَا :

إِذَا اللُّغَاتُ ازْدَهَتْ يَوْمًا فَقَدْ ضَمِنَتْ لِلْعَرَبِ أَيَّ فَخَارٍ يَبْنِيهَا الْكُتُبُ  
وَفِي الْمَعَادِنِ مَا تَمْضِي بِرُؤْنِقِهِ يَدُ الصِّدَا، غَيْرَ أَنْ لَا يَصْدَأُ الذَّهَبُ  
هَذَا إِلَى أَمْثَالٍ أُخَرِ عَرَضْنَا لَهَا فِي الدِّرَاسَةِ السَّابِقَةِ.

---

(١) رَاجِعْ مَا تَقَدَّمَتْ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ، وَتَدَبَّرْ مَذَاهِبَ الْقَوْمِيَّةِ فِي أَوْرُوبَةِ وَكَيْفَ أَنَّ النِّظَرِيَّةَ الْأَلْمَانِيَّةَ خَاصَّةً مِنْ هَرْدِرِ إِلَى هَيْجِلٍ وَفَحْتِهِ إِلَى مَا صَرَّحَ بِهِ مَآكْسُ نُورْدُو فِي (رُوحِ الْقَوْمِيَّةِ) وَقَدْ غَدَا مِيثَاقُ الصِّهْيُولِيَّةِ — عَادِلُ جَبْرَةَ عَامَ ١٣٤٠ هـ — ١٩٢٢ مِطْ — الْمَقْتَطَفِ.

ثُمَّ تَأَمَّلْ « الرِّسَالَةَ » لِلْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ ص ٤٢ وَمَا بَعْدَهَا، لَتَقِفْ عَلَى شَكْلِ الْأَخْذِ وَالتَّمَثِيلِ عَنْ أَوْلَئِكَ الْأَقْوَامِ، وَلَتَعْرِفْ بَعْدَ ذَلِكَ مَا عَلَيْهِ (قَوْمِيُونَا) الْمُصْنِفُونَ مِنَ النُّقْلِ وَالتَّرْدِيدِ الَّذِي يَخْضَعُ لِلْغَفْلَةِ وَيَرِينُ عَلَى الْغَبَاةِ وَعَفَاءٍ عَلَى تِلْكَ الْأَيَّامِ وَالصِّفَاتِ! رَاجِعْ كِتَابِي الْحَصْرِيَّ وَالْبَزَازَ فِي الْقَوْمِيَّةِ — عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ..



## العرب

ثم إنَّ الرافعي قد انتقل بفكره العربي الثاقب من هذه الناحية الأدبية وصُورها الوجدانية، والحماسة والثورة ومحاولة النظر المُميزة، والرؤية الواضحة التي يحياها بضميره المؤمن فينقلب عائداً بالعُروبة إلى الدراسة المنهجية مُتَّبعاً من الروح العلمية؛ يوثق العهد التي يقطعها لأُمته مُمهّداً لها سبيل إعداد (الميثاق القومي) الذي تتخذه منار الهدى، ومثار الدرايات ومُلتقى الأفكار، ومحتد الآراء ومجال البحث والمُقارنة.

فقد وجد أن « العرب جيلٌ من الناس تَدَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ مِنْذُ الْقِدَمِ، فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ الَّتِي كَانَتْهَا قِطْعَةٌ انْخَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ مَعَ الْإِنْسَانِ الْأَوَّلِ، فَلَا يَزَالُ أَهْلُهَا أَبْعَدُ النَّاسِ مَنَزَعاً فِي الْحَرِيَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ، وَأَشَدَّهُمْ مُنَافَسَةً فِي مُغَالَبَةِ الْهِمَمِ، كَأَنَّمَا ذَلِكَ فِيهِمْ مِيرَاثُ الطَّبِيعَةِ الْأُولَى، فَهُمْ مِنْهُ يَنْبُثُونَ وَعَلَيْهِ يَمُوتُونَ »<sup>(١)</sup>.

ويلُحُّ بِهِ الْإِعْجَابُ بِهِم وَالْأَكْبَارُ لَهُمْ أَنَّهُمْ « سُكَّانُ الْفِيَا فِي وَتَرْيَةِ الْعَرَاءِ، يَنْبَسِطُونَ مَعَ الشَّمْسِ، وَيَفِئُونَ مَعَ الظِّلِّ، وَيَطِيرُونَ فِي مَهَبِّ الْهَوَاءِ، بَلْ أَوْلَادُ السَّمَاءِ؛ مَا شِئَتْ مِنْ أَنْوْفٍ حَمِيَّةٍ، وَقُلُوبٍ أُبْيَّةٍ، وَطَبَاعٍ سَيَّالَةٍ، وَأَذْهَانٍ جِدَادٍ، وَنُفُوسٍ مَفْكَّرَةٍ »<sup>(٢)</sup>.

وقد وقفَ البحثُ العلميُّ أمامَ بقاياهم موقفَ العَجَبِ الذي يَنْبَهُرُ لَهُ الْعُلَمَاءُ — وقد أَصْبَحَتْ بقاياهم الضاربةُ في بَوَادِي الْعَرَبِيَّةِ وَمِصْرَ

(١) تاريخ آداب العرب ١ — ٣٤

(٢) تاريخ آداب العرب ١ — ٣٤

والشام لهذا العهد موضع العَجَبِ من عُلماءِ الطبائع<sup>(١)</sup> ؛ حتى أَجمَعُوا على أَنَّهُ لا نِدَّ لهذا الجنسِ في جميعِ السُّلالاتِ البَشَرِيَّةِ، من حيثِ الصفاتِ التي يَتَّبَإِنُ فيها أَجناسُ البَشَرِ خَلْقاً وَخُلُقاً، حتَّى صرَّحَ بعضهم<sup>(٢)</sup> بأنَّ هَذِهِ السُّلالةَ تَسْمُو على سائرِ الأجيالِ». ويُفسِّرُ ذلكَ بقولِهِ : « بالنظرِ إلى هَيَاةِ القُحْفِ، وَسِعةِ الدِّماغِ وكثرةِ تَلافِيهِهِ، وبناءِ الأعصابِ وشكلِ الأليافِ العَضَلِيَّةِ والنَّسِيجِ العَظْمِيِّ، وَقَوَامِ القلبِ، ونِظامِ نَبْضَاتِهِ، فَضْلاً عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ من مَلَاحةِ السَّحْنَةِ، وَتَنَاسُبِ الأعضاءِ وَحُسْنِ التقاطيعِ وَوضوحِ المَلامِحِ، وَفَضْلاً عَمَّا في طَباعِهِم من الكرمِ والأَنَفَةِ والأَرِيحِيَّةِ وَعِزَّةِ النَّفْسِ والشَّجَاعَةِ<sup>(٣)</sup>».

ومن أَجلِ ذلكَ كانوا أَهلَ هَذِهِ اللُّغَةِ، ورُعاةَ هذا الدينِ، وهَلْ مِثْلُهُما مَقُومَانِ لِأُمَّةٍ ١٩

« لا جَرَمَ كانوا أَهلَ هَذِهِ اللُّغَةِ المعجزةِ التي ناسَبَتْهُم بأوضاعِها في معاني التَّركيبِ، حتَّى كَانُوا كُتِبَ لَهَا أَن تَكُونَ دِينَ الأَلْسِنَةِ الفِطْرِيِّ، لِتَصْلَحَ بَعْدَ ذَلِكَ أَن تَكُونَ لِسَانَ دِينِ الفِطْرَةِ<sup>(٤)</sup>».

- 
- (١) يريد بهم علماء الأجناس الذي يُعْتَوَن بالدراساتِ النفسيةِ للأُمم أمثال جُوستاف لوبون الذي التَفَتَ إلى هَذِهِ الناحيةِ في ميراثِ الحضارةِ العربيةِ.
- (٢) لعلُّهُ صموئيل لانج الذي كَتَبَ في (العربِ وَقَدَمَ مدنيَّتِهِم) — الكوثر ٥ — ٣ — ٣٦٩
- (٣) تاريخِ آدابِ العربِ — السابق : وقد كَتَبَ المَقْتِطَفَ ٢ — ١٩١٢ م مُشِيداً بالكتابِ ومُلْتَفِتاً إلى هَذِهِ الناحيةِ العلميَّةِ من موضوعاتِهِ التي عَدَّها كالسَّابِقَةِ ذاتِ الشَّأْنِ في الكُتُبَاتِ المعاصرةِ، ولا بدَّعْ، فقد تفاعلَ الرَّافِعِيُّ والمَقْتِطَفُ مع النهضةِ العلميَّةِ، وعاصرَ الانقِلابَ المنهجيَّ في الدراساتِ والبحوثِ، وهو جديرٌ بالأَكْبَارِ من هَذِهِ الناحيةِ أيضاً التي امتازَ بها على معاصريهِ من المؤلِّفينِ الأدباءِ — وإن لم يرجعْ بأخْذِهِ إلى مصادِرِهِ فَحَسْبُهُ سَعَةُ إطلاعهِ وإلمامِهِ العلميِّ.
- (٤) راجع ما سبق آنفاً.

فإِذَا كَانَتْ اللُّغَةُ بِنْتِ الاجْتِمَاعِ، وَالْأُمَّةُ لَا تَجْتَمِعُ إِلَّا بِقُوَّةٍ مِنْ التَّجَادُوبِ النَّفْسِيِّ تَبْنِي عَلَيْهِ الْأَغْرَاضَ الاجْتِمَاعِيَّةَ، الَّتِي هِيَ اللَّبَنَاتُ الْأُولَى فِي الْحَيَاةِ صِفَةً وَمَادَّةً، فَأَيُّ اجْتِمَاعٍ هَذَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ ۱؟ ذَلِكَ الْكِتَابُ الَّذِي « نَزَّلَ مِنَ الْعَرَبِ مَنْزِلَةَ الْفِطْرَةِ اللُّغَوِيَّةِ الَّتِي يُسَاهِمُ فِيهَا كُلُّ عَرَبِيٍّ بِمَقْدَارٍ مَا يَنْتَهِيَا لَهُ مِنْ أَسْبَابِهَا الطَّبِيعِيَّةِ » حِينَ « صَفَّى الْقُرْآنُ تِلْكَ الطَّبَاعَ، وَصَقَلَ جَوَانِبَ الرُّوحِ الْعَرِيَّةِ حَتَّى صَارَتْ الْمَعَانِي الْإِلَهِيَّةُ تَنْرَأَى وَكَانَهَا عَنْ مَعَايِنَةِ »<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

أَمَّا تَارِيخُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الصَّابِرَةِ ثَبَاتًا عَلَى الْأَيَّامِ وَالْحَدَثَانِ، فَهُوَ كَمَا يُقَرَّرُهُ بِقَوْلِهِ :

« لَمَّا اسْتَقَامَ الْعَرَبُ لِلْكِتَابِ الْكَرِيمِ أَقَامَهُمْ عَلَى طَرِيقِ التَّارِيخِ الَّتِي مَرَّتْ فِيهَا الْأُمَمُ، وَطَرَحَتْ عَلَيْهَا نَقَائِصُهَا، وَأَقَامَتْ فُضَائِلَهَا ؛ فَجَعَلُوا يَتَنَوَّنُونَ عِنْدَ كُلِّ مَرَحَلَةٍ عَلَى أَنْقَاضِ دَوْلَةٍ، وَيَرْفَعُونَ عَلَى أَطْلَالٍ كُلِّ مَدْلَقٍ صَوْلَةٍ، وَيَخِيطُونَ جَوَانِبَ الْعَالَمِ الْمُتَمَزِّقِ بِإِبْرٍ مِنَ الْأُسَيْتَةِ وَرَاءَهَا خِيوطَ مِنَ الْأَعْنَةِ، حَتَّى أَصْبَحَ تَارِيخُ الْأَرْضِ عَرَبِيًّا، وَصَارَ بَعْدَ الدَّلَّةِ أَيْيًّا، وَاسْتَوْتَقَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ مَا لَمْ تَرَوْا الْأَيَّامَ مِثْلَ خَبْرِهِ لِغَيْرِهِ هَؤُلَاءِ الْأَعْرَابِ، حَتَّى كَانَمَا زُوِّيَتْ لَهُمْ جَوَانِبُ الْأَرْضِ »<sup>(٢)</sup>.

وَبِذَلِكَ نَزَّلَ الْقُرْآنُ مِنْهُمْ « مَنْزِلَةَ الْفِطْرَةِ الْغَالِبَةِ الَّتِي تَسْتَبِيدُ بِالتَّكْوِينِ

(١) البيان — جمادى الأول ١٣٣٠ هـ — وتاريخ آداب العرب ٢ — ٧٠

(٢) تاريخ آداب العرب ١ — ٣٦

العقلي في كل أمة ﴿ وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ، قرآناً غريباً غير ذي عوجٍ لعلهم يتقون ﴿ الآية <sup>(١)</sup> إذ هو فطرة هذه الأمة وميثاقها <sup>(٢)</sup> .

\* \* \*

### المفترق العقائدي

في هذا المفترق الاعتقادي الذي يقف فيه الرافعي بضميره العربي وروح العلميه وفنه البياني ؛ يصعُ الخطوط الأولى لميثاق الأمة القومي — قد يتبادر للذهن ويتداعى على خاطر موقفه من الدّعوتين المتناقضتين في الموضوع نفسه ما هو ؟!

تلك التي تقولُ بها فئات وطوائف افترضت وجودها في الأمة — وهي تزعم أن الإسلام قد قضى حكماً بالتقوى <sup>(٣)</sup> على كل ما للعرب من صفات القومية، وميراث العروبة وميراث الجنس، والخصائص النفسية الأخرى — حين ساوى بين البشر، وجعل الفضل لفضيلة التقوى !.

(١) سورة الزمر الآيات ٢٧ و ٢٨ .

(٢) تاريخ آداب العرب ٢ — ٩٦ : وماذا يعني بعد إبعاد الغرب عن القرآن ؟ غير الردة والحران ؟!

أنظر ما سبق من مذهب الإمام المطلبى — الرسالة ٤٢ وما بعدها، وقف على حقيقة منزلة الأمة في حمل الرسالة الربانية للناس أجمعين. وتدبر.

(٣) التقوى : هي الأصل الذي تقوم عليه الأخلاق، ولا يمكن أن تفسر على التحديد والتعيين في كلمة تستوعب معانيها إلا بالخلق الثابت، وليس لهذا المعنى المتعارف من ضعف وفساد الاجتماع الذي لا يجلب منفعة ولا يدرأ مفسدة.

والأخرى التي اختُمى بها تلامذة ( الثورة ) الفرنسية، وحملة الفكر الأوروبي المحدث ؛ للدخول على العرب بعلمانية ابتدعوها<sup>(١)</sup> بموازاة الحركة الصليبية العائدة بالتبشير والغزو الفكري الماسوني ؛ للتغريب بالأمّة أولاً، ثم إلقائها ما بين مدّ شيوعي، وآخر صهيوني، وبعثة أيامها بين يديها ثانياً ؛ ولو في بعث الشعوبيات، وإيجاد القطريّات وتوزيع الاتجاهات...!

« ذلك أنَّهُم يَغفلون عن الروح الدينيّة التي يَنشأ عليها المسلمون — أهل هذه العربيّة — في جهات الأرض، وأنّ هذه الروح قائمة على نفى العصبيّة الوطنيّة كالمصريّة وغيرها، فقد كانت هذه العصبيّة عامّة في قبائل العرب حتّى محاها الإسلام، وما عصبيّة قبيلة وقبيلة في المعنى إلّا كعصبيّة بلَدٍ وبلَدٍ، ومصر ومصر، وما يقولون به من تمصير العربيّة لا يعدو أن يكون وجهاً من وجوه هذه العصبيّة الممقوتة<sup>(٢)</sup> ».

إنّ الرافعي لم يكن يغفل عن ذلك حين عرّض لموضوع الجِنسيّة الذي عاد يتذرّع به الشعوبيون الجدد من مُصيّعي الأيام ؛ فقد أوضح ذلك برأيٍ سديدٍ، ووثق الجِنسيّة العربيّة بمنطقٍ حكيمٍ، وناظر المسألة بصِدْقٍ أدبيٍّ حين ذهب يقول :

(١) العلمانية : كلمة مبتدعة حديثاً؛ يحاول مدعوها الظهور بالمظهر العلمي وإخفاء ما وراءها من صفّة الاحاد إذ هي ترجمة موهة لكلمة «secularism» ولا أدري ما العلمان الذي تُنسبُ إليه؟

(٢) المعركة تحت راية القرآن — ٦٩، راجع «البحران الفكري» فيما وراء الحركات السياسية في المنطقة.

« إِنَّ مِنْ أَعْجَبِ مَا يَرَوُّنَا مِنْ أَمْرِ الْجَنَسِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ أَنَّهَا تَأْتِي إِلَّا أَنْ تَحْفَظَ عَلَى أَهْلِهَا تِلْكَ الصِّفَاتِ الْعَرَبِيَّةِ مِنَ الْأَنْفَةِ وَالْعِزَّةِ وَالصُّوْتِ وَالْعَلَبِ، وَمَا يَكُونُ مِنْ هَذَا الْبَابِ الْاجْتِمَاعِيِّ الَّذِي مَا يَزَالُ يَفْتَحُ لِلشُّعُوبِ عَنْ مَقَاصِيرِ الْأَرْضِ »<sup>(١)</sup>.

لقد تعرَّضَ الْعَرَبُ فِي تَارِيخِهِمُ الطَّوِيلِ لِأَلْوَانِ الْامْتِحَانِ، وَمَرُّوا بِصُرُوفِ الْمِحْنِ، وَقَاسُوا مِنَ الْأَسْوَاءِ وَالْأَدْوَاءِ، وَعَانُوا مِنَ الْأَنْوَاءِ مَا لَوْ تَعَرَّضَتْ لَهُ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ غَيْرِهِمْ لَانْدَثَرَتْ فِي طَوَايَا التَّارِيخِ، أَوْ اخْتَفَتْ فِي زَوَايَا الضِّيَاعِ ؛ وَلَكِنَّ الْعَرَبَ كَانُوا يَثْبُتُونَ وَجُودَهُمْ هَذَا بِثَبَاتِ الْأَخْلَاقِ ؛ فَهُوَ الَّذِي يَحْفَظُ لَهُمْ سُنَنَ الْحَيَاةِ، وَيَقِيهِمْ شُرُورَ الْأَيَّامِ، وَيَذْفَعُ عَنْهُمْ غَوَائِلَ الْأَحْدَاثِ، قَالَ الرَّافِعِي :

« لَمْ يَجْرِ مِنَ الْأَحْكَامِ النَّفْسِيَّةِ عَلَى أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ مَا جَرَى عَلَيْهِمْ، فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ مُصْدَقَ ذَلِكَ فَاعْتَبِرْ مَا اتَّسَعُوا فِيهِ مِنَ الْمَحْفُوظِ ؛ فَإِنَّكَ لَسْتَ وَاجِدُهُ إِلَّا فِي الْمَعَانِي النَّفْسِيَّةِ »<sup>(٢)</sup>.

### المعجزة القومية

أَمَّا الْمُعْجَزَةُ الْقَوْمِيَّةُ لِلْعَرَبِ فَقَدْ كَانَتْ فِي ذَلِكَ الْاِخْتِيَارِ الْإِلَهِيِّ لَهُمْ فِي حَمَلِهِمْ لِرِسَالَتِهِ، ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ — الْآيَةُ<sup>(٣)</sup>

(١) البيان — جمادى الآخرة — ١٣٣٠ هـ

(٢) تاريخ آداب العرب ١ — ٢٨٧

(٣) ١٢٤ من سورة الأنعام.

« لقد كَانَ مِنْ إعْجَازِ الْقُرْآنِ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَطَعُوا  
الدَّهْرَ بِالتَّقَاطُعِ عَلَى صِفَةٍ مِنَ الْجِنْسِيَّةِ لَا عَصَبِيَّةَ فِيهَا إِلَّا عَصَبِيَّةُ  
الرُّوحِ »<sup>(١)</sup>.

إِذْ أَخَذَهُمْ بِالْفِطْرَةِ، حَتَّى آلَفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، وَسَاوَى بَيْنَ نُفُوسِهِمْ،  
وَأَجْرَاهُمْ عَلَى الْمَعْدَلَةِ فِي أُمُورِهِمْ ؛ فَجَعَلَ مِنْهُمْ أُمَّةً تَسْعُ الْأُمَمَ بِوَجْهِهَا  
كَيْفَ أَقْبَلَتْ ؛ لِأَنَّهَا لَا تُوجِّهُهُ إِلَّا اللَّهُ، فَكَأَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ كُلِّ مَا  
تَحْتَ السَّمَاءِ، وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى نَشَأَتْ الْجِنْسِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ فِي الْقُرْآنِ «<sup>(٢)</sup>»  
وَالْإِلاَّ « فَمَا بَالُ هَؤُلَاءِ الْعَرَبِ قَدْ خَرَجُوا مِنْ تَارِيخِهِمْ بَعْدَ الْإِسْلَامِ كَأَنَّمَا  
نَزَعُوا جِلْدَتَهُمْ نَزْعاً ؟! عَلَى حِينٍ كَانَتْ لَهُمُ الْأُمُورُ الْمُطْمَئِنَّةُ وَالصِّفَاتُ  
الْمُتَوَارِثَةُ ؛ مِنْ أَخْلَاقِهِ شَبُّوا عَلَيْهَا، وَأَخْلَاقُهُ يَنَازِعُونَ إِلَيْهَا، وَطَبَائِعُهُمْ  
بِهَا أُخْصِصَتْ وَهِيَ بِهِمْ أَمْلَكُ، وَلَمْ يَكُونُوا مَقْطُوعِينَ مِنَ التَّارِيخِ، بَلْ  
كَانَ لَهُمْ مَاضٍ كَأَخْسَنِ مَا تَكَلَّفُ الْأُمَمُ، وَكَانُوا عَلَيْهِ أَحْرَصَ مَا تَكُونُ  
أُمَّةٌ عَلَى مَاضِيهَا »<sup>(٣)</sup>.

أَجَلْ، لَقَدْ كَانُوا مُهَيَّئِينَ رَبَّانِيًّا فِي حَيَاتِهِمْ لِذَلِكَ الْأَنْقِلَابِ الَّذِي انْتَقَلَ  
بِهِمْ مِنْ طُورِ الْأُمَمِ الْعَامِ إِلَى الْأُمَّةِ الْوَسْطَى ؛ لِيَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ،  
وَلِيَكُونَ الرُّسُولُ عَلَيْهِمْ شُهَدَاءُ ؛ فَيَحْمِلُوا رَحْمَةَ اللَّهِ فِي رِسَالَتِهِ الْخَالِدَةِ،  
وَيَرْقُوا بِالْإِنْسَانِيَّةِ إِلَى ثَبَاتِ الْأَخْلَاقِ وَحُكْمِ التَّقْوَى، حَيْثُ يَطْمُنُّ  
الضَّمِيرُ، وَتَنْبَعِثُ الْمَرْوَعَاتُ بِمَا عُرِفَ عَنْهُمْ مِنْ خَصَائِصَ وَمِيزَاتٍ،  
اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَسْتَوْعِبَ الْبَشَرِيَّةَ كُلَّهَا بِشُعُوبِهَا وَأَحْلَامِهَا جَمِيعاً.

(١) تاريخ آداب العرب ٢ — ٩٩

(٢) (٣) تاريخ آداب العرب ٢ — ١٠٤

ثم ما عَتمَ الرافعي أن راحَ يَدْعُو إلى إحياءِ بعضِ سُنَنهم في الحياة، واستمزاج أعرافهم، عسى أن يَجِدَ التاريخُ لهم أمثالاً من أبنائهم يجري على بعضِ تقاليدِهِم، فيَسْتَعِيدُونَ شيئاً من عِزَّتِهِم، وَيَرْتَفِعُونَ بِأَخْلَاقِهِم وَيَلْتَفِتُونَ إلى أَنْفُسِهِم؛ يَدْرِكُونَ مَعْنَى سُمُوِّ الذَاتِ بِالْأَنْفَةِ وَالْأَرِيحَةِ، وَلَا سِيَّما بعدما نَظَرَ فإذا بكتابه «تاريخ آداب العرب» عربيٌّ يُرَدُّ إلى الْعَرَبِ بِاسْمِهِ، وموضوعِهِ وبيانه، وهو كذلكَ عربيٌّ يَنْزِعُ إِلَيْهِم بِالْعُرُوقِ مِنَ الْوَاشِجَةِ وَالنَّسَبِ الْوَسِيطِ<sup>(١)</sup>.

### غلبة الطبع

ويرجعُهُ بعد ذلك إلى الْوَرَاثَةِ وَغَلَبَةِ الطَّبَعِ؛ «فإذا مَحُلٌّ من عاداتنا، وشَرَفٌ جَدِيدٌ من فضائلنا، فكانَ حقاً عليَّ أَنْ أُحْيِيَ في أدبائِ الزَّمنِ سُنَّةً من أَكْرَمِ سُنَنِ الْعَرَبِ عَلَيْهِم وَأَحَقُّهَا بِهِم، وأشرفها عندهم، وأَمْسَهَا بتاريخهم، وأَغْلَقَهَا بِأَسْمَائِهِم، وهي سُنَّةُ الْكُنْيَةِ واكتفيتُ بِأَبِي السَّامِيِّ، وأَوَّلُ راضٍ سُنَّةً مَنْ يَسُنُّهَا».

وقال: «كَانَ الْعَرَبُ أَهْلَ عَصَبِيَّةٍ وَتَشَدُّدٍ وَأَنْفَةٍ، وَكَانَتِ الْعِزَّةُ فِيهِمْ بِطَبِيعَةِ اجْتِمَاعِهِمْ، لِمَنْ هُوَ أَكْثَرُ عَدَداً مِنْ قَوْمِهِ، وَأَوْفَرُ قَبِيلاً مِنْ عَصَبَتِهِ، ثُمَّ هُمْ بَعْدُ مِنْ طَبِيعَةِ أَرْضِهِمْ وَزَمَنِهِمْ كَيْفَ لَا يُيَالُونَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ تَارِيخُهُمْ نَسْقاً وَاحِداً كَأَنَّهُ غَيْرُ مُتَجَدِّدٍ»<sup>(٢)</sup>.

(١) الذي يتوسطهم لصراحتِهِ وتمكنه، والرافعي بعدُ يتصل بنسبه الكريم برجلِ الاسلام العظيم عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) لذلك معنى بسطه في تاريخه الكبير — كما مرَّ.



« ومن ثم نشأوا على حفظ الأنساب والأحساب، والمُفاخرة بها، والمنافرة فيها، وبالعوا في ذلك حتى كان أكبر علمهم تاريخ آبائهم وأوليتهم، وما يجري فيه أو يداخله من خبر وشعر ونثر، فلا جرم كان النسل فيهم مظهر الوجود التاريخي، وكان العقم أقبح ما تعاب به المرأة من عيبها، حتى آثروا السوداء الولود على الحسناء التي لا تلد، وحتى لم يعدلوا في فضائل النساء بالنجبة التي يكون حملها غلاماً، وفي حجرها غلام وإلى جانبها غلام..

« وإنما تلك أخلاق شعب ليس وراء ما به من الأنفة والثقة بالنفس غاية، فمن ههنا استخرجوا لأنفسهم الكنية، وجروا عليها يعظم بعضهم بعضاً، كأن أحدهم إذا كنى الآخر: أبا فلان فأنما يقول يا أبا التاريخ، أو يا أبا فخر أهلك أو يا رجلين في رجل، وإذا كنى امرأة: يا أم فلان، فكانما يقول لها يا أم القبيلة أو يا أم الوجود أو يا أم المستقبل.

« وعلى هذا جرت الكنية بينهم مجرى الاسم نفسه حتى لم يكن الوجود التاريخي بحقيقة معناه عندهم إلا فيها، وبذا صارت الكنية من شعار الأبطال البارزين في الجرب، كما أن المبارز يظهر نفسه مملوءة من تاريخ آبائه وتاريخ نفسه، فيستنغص عدوه ويستفزّه ويرعده هبة ومخافة، أو يستجيش على حربه النخوة التي تكون له مع القوة قوة أخرى»<sup>(١)</sup>.

وهكذا يمضي يحيي في الذات تقاليد العرب وأعرافهم؛ لينتظم الضمير

(١) هذا فصل كان قد أعدّه لينشر في (الزهور) إلا أنها توقفت عن الصدور، فبقي مطوياً حتى قبض الله لنا أن نقف على شيء من مسودته!

قَوَاهِمِ النَّفْسِيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ، فَيَكُونُ بِذَلِكَ فَضْلاً مُتَجَدِّداً مِنْ تَارِيخِهِمْ يَسْتَقْبَلُ  
الْحَيَاةَ بِإِرَادَةِ التَّغْيِيرِ<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

### الضمير العربي والمردولات القطرية

ولَمَّا كَانَ مِنْ عَنَتِ الْأَيَّامِ مِنْ حَوَالِيهِ، وَبُرُوزِ الْمَرْدُولَاتِ الْقُطْرِيَّةِ  
فِي أَنْحَاءِ مِنَ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَلَا سَيِّمًا بَعْدَ ظُرُوفِ الْإِخْتِلَالِ بِأَفْرِيْقِيَا  
وَمِصْرَ بِخَاصَّةٍ، فَإِنَّهُ رَاحَ يُفْتَشُّ عَنْ «الرَّجُلِ الْإِلَهِيِّ» الَّذِي يُغَوِّزُ الْأُمَّةَ  
لِيَقِيَهَا مِنْ تَرَبُّصِ الْأَخْطَارِ الْمُخْدِقَةِ بِهَا، وَيُنْقِذَهَا مِنْ بَدَدِ الْإِتِّجَاهَاتِ وَضِياعِ  
الْمَشْرُوعَاتِ فِي تَسْمِيَةِ الْهَلَالِ الْخَصِيبِ وَوَادِي النَّيْلِ وَالْخَدْيَوِيَّاتِ وَغَيْرِهَا  
مِنْ مَحَاوِلَاتِ التَّخْدِيرِ حَتَّى يَنْتَهِي تَقْطِيعُ الدِّيَارِ.

أَوْ يَحْفَظُهَا مِنْ انْدِحَارِ الْحَرَكَاتِ وَصَرَعَةِ الْأَمَانِيِّ<sup>(٢)</sup> حَتَّى أُعْيَاهُ أَنْ  
يَجِدَ لَذَلِكَ الرَّجُلِ صُورَةً فِي وَجْهِهِ وَلَوْ بَلَوَحَ الْغَيْبِ<sup>(٣)</sup>.

وَقَدْ وَقَفَ يَوْمًا يَدْفَعُ ذَلِكَ الْإِفْتِرَاقَ الَّذِي يُؤْذِي النَّاسَ، وَيُوجَعُ  
الْقُلُوبَ فَقَالَ :

«مَتَى وَجَدْتُمْ رَجُلَ الْمَبْدَأِ الَّذِي يَظْهَرُ مَبْدَأُهُ فِي عَمَلِهِ، وَالَّذِي لَا  
يَعْمَلُ إِلَّا لِيَتِمَّ تَارِيخُ أُمَّةٍ، وَلِيَكُونَ صَفْحَةً مِنْ كِتَابِ مُسْتَقْبَلِهَا، وَالَّذِي  
لَا يَخْرُجُ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يَتْرَكَ مِنْ فِضَائِلِهِ الْمَنْشُوبَةِ إِلَيْهِ شَخْصاً مَعْنَوِيًّا

(١) وبها أخذت الحركة الثورية العربية المعاصرة.

(٢) في تجديد الدولة الإسلامية بالخلافة العربية — أنظر المنار عام ١٣١٦ هـ.

(٣) مر بنا آنفاً.

يُسَمَّى بِاسْمِهِ وَيُلَقَّبُ بَلَقْبِهِ وَيُورَّخُ بِتَارِيخِهِ ؛ مَتَى وَجَدْتُمْ هَذَا الرَّجُلَ،  
فَقُولُوا فِيهِ — بَلْ دَعُوا بِلَادَهُ تَقُولُ فِيهِ : إِنَّهُ شَامِي أَوْ مِصْرِي<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

وَيَمُرُّ بِالْأَحْدَاثِ عَابِرًا، وَيَتَخَطَّى الْحَرْبَ وَمَا جَرَّتْهُ مِنْ وِيَلَاتِ الْمَصِيرِ  
الْعَرَبِيِّ بِخَاصَّةٍ، لِيَخْرُجَ بِالْفِكْرِ إِلَى الرَّأْيِ وَالْمُصَارَحَةِ مَعَ جُمْهُورِ الْأُمَّةِ  
فَيَقُولُ : فِي مَعْرَضٍ رَدٍّ لَهُ عَلَى أَسْئَلَةٍ دَارَتْ بِهَا مَجْلَةُ (الْهَلَالِ)  
عَلَى عَدَدٍ مِنْ أَدْبَاءِ الْعَرَبِ وَمَفَكِّرِيهِمْ<sup>(٢)</sup>.

« مَا أَرَاهَا إِلَّا سَتْنَهَضُ فِي مِصْرَ وَالشَّامِ نَهْضَةً مَنْ يَسْتَجْمِعُ، وَرَبَّمَا  
شَهِدَ النَّاسُ ذَهْرًا يَصْلُحُ أَنْ يُسَمَّى فِيهِ مَا بَيْنَ الْعِرَاقِ إِلَى الْأَطْلَنْطِيْقِ  
« جُمْهُورِيَّةُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ » وَمَا هُوَ بِبَعِيدٍ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ<sup>(٣)</sup>.

وَقَدْ يَعْجَبُ الْمَرْءُ كَيْفَ تَجْرِي لَفْظَةُ « الْجُمْهُورِيَّةِ » عَلَى لِسَانِهِ مِنْ  
غَيْرِ أَنْ يَغْمَزَهَا بِرَأْيٍ يُبْعِدُ صِفَتَهَا الْيُونَانِيَّةَ — الْوُثْنِيَّةَ أَوْ يُفَسِّرُهَا بِالنَّسْبَةِ  
إِلَى ( الْجُمْهُورِ ) الَّذِي عَلَيْهِ فِقْهُ الْأُمَّةِ !!

وَمِصْرُ وَالْأَفْطَارُ الْعَرَبِيَّةُ الْآخَرَى تَتَرَجَّحُ يَوْمئِذٍ بَيْنَ الْوَلَايَةِ وَالسُّلْطَانَةِ  
وَأَحْلَامِ الْمَمَالِكِ ١٩..

\* \* \*

(١) المقتطف — سبتمبر ١٩١٤ م

(٢) الْهَلَالِ عام ١٣٣٧ هـ — ١٩١٩ م

(٣) الْهَلَالِ — يناير ١٩٢٠ م

## الطائفية

لم يكْدْ يولَدُ ظرفٌ جديدٌ تحتَدمُ فيه السياسةُ بينَ الجمهورِ والمُحتَلِّينَ الإنجليزِ في مصر حتى تشيع في صفوفِ المصريين دَعَوَاتُ الفُرْقَةِ ؛ من اقترافِ بَعْضِهِم لآثامِ العَمَالَةِ والتَجَسُّسِ، وفي التفاتَةِ بارعةٍ يندفعُ الرافي ليضَعُ على لسانِ أبنائِ مصر نشيداً يتردَّدُ فيه شعارُهُم، وتردُّ فيه روحُ وثبتُهُم، وتتنظُمُ أخلاقُ ثَوَرَتِهِم ؛ فلا يكتفي بنشرِهِ في (الأخبار) — جريدةِ الحزبِ الوطني — وإنما يُعلِّئُها حَرْباً شَعَوَاءَ على لجنةِ النُشيدِ وفيها أحدُ الوزراءِ، حاولتْ إبعادَهُ عن هَدَفِهِ في ضَمِّ الصُّفوفِ — وقد رأى السياسةَ المِصرِيَّةَ آنذاك وقد أَضَلَّها أهلُها « ولا حياةَ لأمةٍ يَلْعَنُ بَعْضُهَا بَعْضاً لَعْناً مُقَدَّساً »<sup>(١)</sup>

ولكن روحَهُ العربيَّةَ وضميرَهُ القوميَّ أيا عليه إلَّا المُضِيَّ في جِوَاءِ العُروبةِ في مجديها، يَبْحَثُ في صفحاتِ أيامِها عن « نوادرِ القُوَّةِ عند العرب » وكأنَّهُ يُلْفِتُ أنظارَ الأُمَّةِ إلى ما يُعَوِّزُها من وسائلِ الجهادِ والصَّبْرِ على المكارِهِ وهي تُحاولُ أَنْ تَنْطَلِقَ بالحياةِ كَرَّةً أُخرى، فقال:

« العربُ قَوْمٌ خَلَقَهُمُ اللهُ خَلَقَةَ الباديةِ في البأسِ والجفاءِ، وأنشأَهُمُ إنشاءً الحَجَرِ في القُوَّةِ والصَّلابَةِ، وجَعَلَ أَنْفُسَهُمُ من حِسِّ الألمِ في كثافةِ الرملِ، كأنَّهُم لا يَأْلُمونَ، وكأنَّما الأوجاعُ انما تَمَسُّ من قُوَّتِهِم نفساً مُنْكَرَةً ينهالُ بعضها على بَعْضٍ فيُعْطِي شَيْءٌ منها على شَيْءٍ، ولا تَزَالُ تَجِيءُ منها عِنْدَ كُلِّ وَطْأَةٍ قُوَّةٌ، ولا يَزَالُ فيها الصَّبْرُ والجَلْدُ ؛ لأنَّها على ذلك خُلِقَتْ.

» وهم أشَبُّهُ شَيْءٍ بالخَيْلِ الكريمةِ في وثاقَةِ التركيبِ، واندفاعِ

(١) رسائلِ الرافي — ٩٦، وأنظر خبر المعركة في كتابه (النشيد الوطني).

الحيوانية، واستمرار القوة، وشدة الالتزام وهوله، وكرم الصبر واستنفاد الجهد، وأنه كلما ذهب منها شوطٌ جاء شوط، ثم هم أبناء الشمس والريح، وتربية الفياقي والعراء، وتخريج الظلمة والهول، وحبك السيف والرمح، وصناعة الجوع والعطش — وهم نفوس وعواطف، إذا كان غيرهم بطوناً وأمعاء..!

« وقد نزهتهم طبيعة أرضهم عما تمجُّه نفوس الحضريين من الأبخرة والعفن، وما فيها من الثقل والوخامة، وما يعتريها من الضعف والاسترخاء؛ ومن أجل ذلك غلبت نفوسهم على أجسامهم، وتسلطت أغراضهم على أنفسهم، فليس إلا أن يعزُّموا إذا عزَموا حتى تستجيب لهم مصادر القوة ومواردها، وقد تمدُّهم النفس الإنسانية بكل ما فيها من أثر القوة الأزلية؛ فإذا هم قد استحالوا إلى أشياء طبيعية كأنها على الألف والفرع لا حياة فيها »<sup>(١)</sup>.

ويمضي بعد ذلك يُعدِّد من نوادير القوة ما اتفق لهم من وقائع تبرُّز قوة الفتيان وخوارق الفرسان، وتسجِّل لهم في الحدثان أياماً هي دروس الحياة لمن أراد أن تكون له كرامة الحياة، وهل هناك أجلى من مثل هذه الدروس في نهضات الأمم؟

إن الرافي كان وحده في هذا الميدان، ولو شدَّ عضدُّه بإخوة من أهل الفكر والأدب والفقه، لفرَض وجودهم على الحياة التي انقلبت بها سارية الأيام آنذاك، ولما انتهت بنا إلى ما نحن فيه من متاهات الفكر والانحراف والضعف والخذلان.

ولكن حين مضت السياسات القطرية في افتراقاتها، وخيبة الأمة

(١) المضمار — ٣ ديسمبر ١٩٢١ م

في أشباه الرجال، واندحارهم أمام أحاييلها وضلالاتها، فما كاذ يتتهي الحال إليه من مأساة الائتلاف بين الأحزاب في مصر عام ١٣٤٦ هـ — ١٩٢٨ م حتى قال :

« أما الأحوال الحاضرة فلا نتيجة لها إلا وضع لَوْنٍ جديدٍ على الواقع المَوجود من زمن، وهيئات هيئات ! إلا أن ينزل عزرائيل فيقتلع أهل الضغينة والحق، أو تبدل الأرض غير الأرض والسموات »<sup>(١)</sup>.

### عروبة الرافي

ولعل في مواقف الرافي هاتيك بعض ما انبهم على مُناوئيه، فاتهموه في وطنيته الوليدة في ( المصرية ) ورأوا من صراحة نسبه العربي شائقة ينالونه منها ؛ فهو يردُّ بقوله : مخاطباً أحدهم : « زَعَمْتَ يا صاحب ( المجلة الجديدة ) أنه ليسَ في دمي قطرة من الدمِ المصري، وهذا كَذِبٌ، فإنَّ والدتي مصريَّة، وأنا مولودٌ في مصر »<sup>(٢)</sup>.

أو قوله بأسى بالغ : « أترأهم يتهمونني في مِصريّتي لأنني غيرُ مصري في زعمهم !؟ وفي مصرَ مولدي، وفي أرضها رفاة أبي وأمي وجدي »<sup>(٣)</sup>.

ومن هنا ندرك أنَّ عروبة الرافي لم تكن لتقتصر على نسبه الكريم أو مكانه ومولده، من الوطن العربي والقطر، « وإنما كان له من أدبه

(١) رسائل الرافي — ١٦٨

(٢) الفتح — ١٨٦ — ١٤ رمضان ١٣٤٨ هـ،

(٣) حياة الرافي — ٢٣ ويريد بجده الامام عبد القادر الرافي الكبير.

العظيم وفكره السليم ما يراه لِنَفْسِهِ في كلِّ أرضٍ يخفقُ فيها لواءُ الإسلام، وترفرفُ رايةُ العَرَبِيَّةِ، وما مصر والشام والعراق إلَّا أجزاء من هذا الوطن يَنْتَظِمُها جميعاً كما تَنْتَظِمُ الدولة الديار<sup>(١)</sup>.

ومن هنا أيضاً نجدُ الضمير القومي عند الرافعي سابقاً ؛ لا يقفُ عندَ حدودِ مصر فَحَسْبُ، وإنَّما يَتَعَدَّها بشعورِ اعتقادي عظيم في جوانب من أدبِ الحياةِ وأدائِهِ النفسي الذي يجبُ على الأديبِ العربي المسلم أن يحيها في آفاقِ الفكر والفلسفة والاجتماع في أرجاءِ الوطن كله. فهو مثلُ الفدائيِّ الذي يَذْهَبُ رَيْباً يَتَقَدَّمُ الرَّعِيلَ لاسْتِكْشَافِ الجَبْهَةِ من ساحةِ الجهاد.

وهكذا تَنَبَّه الأنصارُ إلى « خطرِ أدبه، وعدَّوه ميراثهم الذي عَلَيَّهِمْ أن يدرسوه ويُعيدوا إنباته في نفوسهم — في أرضٍ طَيِّبَةٍ وبيئةٍ مؤمنةٍ، والتفاتةٍ إليه بالتَّهْذِيبِ والتوجيهِ والعناية ؛ لِيُثْمَرَ فيهم، وفي الأجيالِ اللاحقةِ ممَّنْ عَدَّوهم من نوعه.

فقد « كان في حياته إحساساً خالصاً بالعربية الخالفة، وشعوراً مُلتَهَباً وراءَ الفكرةِ المنشودة، ممتداً في مجرى الحقِّ الإسلامي،. ولساناً مُتَّصِلاً بمعينِ البلاغةِ العربية، وعدَّوا موتهُ نموًّا لهذهِ الحياةِ الفكريةِ في حياةٍ غيره من نوعه في مرحلةٍ أُخرى من الانبعاثِ والإشراق.

وكان الرافعي عندهم قد شادَ حِصْناً كبيراً على حُدُودِ العربيةِ — وإنْ تصدَّعتْ بعضُ أركانِهِ من وَخْشَتِهِ وعُزْلَتِهِ ! وعلى ذلك كانتْ رسالةُ « الأنصار » في العَصْرِ أن تُحوِّلَ الإحساسَ

الغامض الذي قاتل به جيش الثقافة العربية في طبقة الرافعي، إلى فكرة مُشرقة يَسْعُها العقل كما يَسْعُها الشعور»<sup>(١)</sup>.

ثم إنهم دَرَسُوا ما يَجْرِي في دِمِهِ من خصائص العريّة الخالدة، فلا يكادُ ذلك العطرُ يَنْتَشِرُ في جَوِّ حَيَاتِهِ حتّى يَلْتَبَسَ شعورُهُ بشعورِ المجتمع الأبهكم الذي عاش فيه، واكتسب منه أخلاقاً ومعارف<sup>(٢)</sup> وقد أخذوا عليه ما وردَ في الفصل السابق<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

### الأدب الاعتقادي

لَمَّا استبان ضوءُ الرافعي وظَهَرَ نَوُّهُ، اسْتَدَارَ من حَوْلِ معاصريه، ليرسِمَ لَهُم منهاجَ الأدبِ الاعتقادي الذي يَلْتَزِمُ به، والسَّبِيلَ العربيّ الذي يُؤَيِّدُهُ، والصراطَ القوميّ الذي يَسْلُكُهُ، والضميرَ الذي يَحْمِلُهُ فقال :  
« من الأصول الاجتماعية التي لا تَخْلُفُ أَنَّهُ إذا كانتِ الدولةُ للشَّعبِ كانَ الأدبُ أدبَ الشَّعبِ في حَيَاتِهِ وأفكارِهِ ومطامِحِهِ وألوانِ عَيْشِهِ، وزخَرِ الأدبِ وتنوُّع، وأفنَى وبُني على الحياة الاجتماعية.  
وإن كانتِ الدولةُ لغيرِ الشَّعبِ، كانَ الأدبُ أدبَ الحاكمين، وبُني على التَّفاقُرِ والمُداهنةِ والمبالغةِ الصَّناعيةِ الكاذبةِ والتَّدليسِ، ونَصُبَ الأدبُ من ذلك وَقْلٌ وتكرَّر من صورةٍ واحدةٍ»<sup>(٤)</sup>.

(١) الأنصار — ٣٠ جمادى الآخرة ١٣٦٢ هـ

(٢) الأنصار — ٢١ رجب ١٣٦٢ هـ

(٣) الأنصار — ١٥، ١٧، ٣٥، ٣٧. وهي تُولفُ فصلاً متميِّزاً على سائر الدراسات.

(٤) المقطف — يناير ١٩٣٣ م. وما أصدقه بقوله هذا على حياة الأدب .



في الأولى يَتَسَّعُ الأديبُ من الإحساسِ بالحياةِ وفنونها وأسرارِها  
في كلِّ من حوَله، إلى الإحساسِ بالكونِ ومجاليه وأسراره في كلِّ  
ما حَوَلَه.

أما الثانية، فلا يُحسُّ فيها إلَّا أحوالَ نفسه وخَلِيطه، فيُضْبِحُ أدبه  
أشبهَ بمسافةٍ محدودةٍ من الكونِ الواسعِ ؛ لا يزالُ يذهبُ فيها ويَجِيءُ  
حتى يَمَلَّ ذهابه ومجيئه<sup>(١)</sup>.

قال : « والعَجَبُ الذي لَمْ يَتَنَبَّهْ لَهُ أَحَدٌ من كلِّ مَنْ دَرَسُوا الأدبَ  
العربيَّ قديماً وحديثاً أن لا نَجِدَ المعنى الفلسفي الاجتماعيَّ للأدبِ  
في أسمى معانيه إلَّا في اللُّغةِ العربيةِ وحدها، ولم يُغْفَلْ عنه مع ذلك  
إلَّا أهلُ هذه اللُّغةِ وحدهم !

فإذا أَرَدْتَ الأدبَ الذي يُقَرَّرُ الأسلوبُ شرطاً فيه، ويأتي بقوةِ اللُّغةِ  
صورةً لرقّةِ النفسِ، وبدقّةِ المُتناهيةِ في العمقِ صورةً لدقّةِ النّظرِ  
إلى الحياة، ويريك أن الكلامَ أمةٌ من الألفاظِ عاملةٌ في حياةِ أمةٍ من  
الناسِ ضابطةٌ لها المقاييسَ التاريخية، مُحَكِّمةٌ لها الأوضاعَ الإنسانيّة،  
مشترطةٌ فيها المَثَل، حاملةٌ لها النورَ الإلهي على الأرض...

وإذا أَرَدْتَ الأدبَ الذي يُنْشِئُ الأُمَّةَ إنشَاءً سامياً، ويدفعُها إلى المعالي  
دفعاً، ويرُدّها عن سَفَسافِ الحياة، ويُوَجِّهُها بدقّةِ الإبرةِ المغناطيسيّةِ  
إلى الآفاقِ الواسعةِ، ويسدّدُها في أغراضها التاريخيةِ العاليةِ تسديدَ القنبلةِ  
خرجتِ من مدفعها البضخمِ المحرّرِ المحكم، ويملأُ سرائرها يقيناً،

(١) المصدر السابق — أقول ولا سيما في مثل هذا الغناء الذي يلوكهُ صانعه وحدهم  
بعيداً عن الناس وحياتهم.

وَنُفُوسَهَا حَزْماً، وَأَبْصَارَهَا نَظْراً، وَعُقُولَهَا حِكْماً، وَيَنْفُذُ بِهَا مِنْ مَظَاهِرِ  
الْكُؤُنِ إِلَى أَسْرَارِ الْأُلُوهِيَةِ..

إِذَا أَرَدْتَ الْأَدَبَ عَلَى كُلِّ هَذِهِ الْوُجُوهِ مِنَ الْاِغْتِبَارِ وَجَدْتَ الْقُرْآنَ  
الْحَكِيمَ قَدْ وَضَعَ الْأَسَاسَ الْحَيَّ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، وَأَعْجَبُ مَا فِيهِ أَنَّهُ  
جَعَلَ هَذَا الْأَسَاسَ مُقَدَّساً، وَفَرَضَ هَذَا التَّقْدِيسَ عَقِيدَةً، وَجَعَلَ هَذِهِ الْعَقِيدَةَ  
ثَابِتَةً لَا تَنْغَيِّرُ.

وَمَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ لَمْ يَتَّجِعْ لَهُ الْأَدْبَاءُ، وَلَمْ يَتَّخِذُوهُ مَثَلُهُمْ، وَحَسِبُوهُ  
دِيناً فَقَطْ، وَذَهَبُوا بِأَدْبِهِمْ إِلَى الْعَبَثِ وَالْمُجُونِ وَالنَّفَاقِ؛ كَأَنَّهُ لَيْسَ  
مِنْهُمْ إِلَّا بَقَايَا تَارِيخٍ مُحْتَضَرٍ بِالْعِلَلِ الْقَاتِلَةِ ذَاهِبٍ إِلَى الْفَنَاءِ الْمُحْتَمِّ.

وَالْقُرْآنُ بِأَسْلُوبِهِ وَمَعَانِيهِ وَأَغْرَاضِهِ لَا يُسْتَخْرَجُ مِنْهُ لِلأَدَبِ إِلَّا تَعْرِيفٌ  
هُوَ هَذَا (إِنَّ الْأَدَبَ هُوَ السُّمُوُّ بِضَمِيرِ الْأُمَّةِ). وَلَا يُسْتَخْرَجُ مِنْهُ لِلأَدَبِ  
إِلَّا تَعْرِيفٌ وَاحِدٌ هُوَ هَذَا: أَنَّ الْأَدَبِيَّ هُوَ مَنْ كَانَ لِأُمَّتِهِ وَلُغَتِهَا فِي  
مَوَاهِبِ قَلَمِهِ لَقَبٌ مِنَ أَلْقَابِ التَّارِيخِ<sup>(١)</sup>.

وكَذَلِكَ كَانَ الرَّافِعِيُّ يَنْطَبِقُ عَلَيْهِ التَّعْرِيفُ فِي الْحَالَتَيْنِ مِنْ نَفْسِهِ  
وَأَدَبِهِ وَمَوَاهِبِ قَلَمِهِ.

وَمِنْ هُنَا نَجِدُ لِلضَّمِيرِ عِنْدَهُ الْمَكَانَةَ الْأُولَى فِي الْأَسْتِهْدَافِ لِكُلِّ  
مَا يَسْعَى إِلَيْهِ إِصْطِلَاحاً وَتَرْبِيَةً وَسُمُوّاً فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْأَدَبِ وَالْفَنِّ  
وَمَجَالَاتِهِمَا فِي الْاجْتِمَاعِ وَالتَّرْبِيَةِ النَّفْسِيَّةِ لِلْأُمَّةِ، وَمَا كَانَ يَجْتَهِدُهُ مِنْ  
أَجْلِهَا.

(١) المصدر السابق.

فالضميرُ يتردّدُ على لسانِهِ، ويسيلُ على قَلَمِهِ، كلّما خَطَرَ لَهُ خاطرٌ،  
أو خَفَقَ قلبُهُ لمعنى، أو نَظَرَ في أمرٍ من الأمورِ، وفقَ ذلك الميثاقِ  
الذي وافقَ عليه نفسه أولاً، وجَعَلَهُ سُلوكاً للأديبِ العربيّ من ثمّ،  
حتّى ليكاد لا يرنو إلى ما يصبو إليه من معاني إلّا من خِلالِهِ !

\* \* \*

ومن أجلِ ذلكَ كانَ يَعْتَدُّ بثلاثٍ فيه ؛ الرجولةِ والضميرِ والدم  
الكريم ؛ يقفُ بها على قَدَمَيْهِ في بَسالةٍ نادرةٍ، وبثباتٍ قوميٍّ ظاهرٍ،  
أمامَ الناسِ أجمعينَ !

ذلكَ أن هَدَفَ الدراسةَ المَوْضُوعِيَّةَ في الاجتماعِ الإنساني واعتقادهِ  
عنده، أن تتحرّى الضمائرُ أبداً ؛ لإعدادِها للحياةِ الحرّةِ الكريمة.

### جوانبُ الميثاقِ

إنّ الرافعيَّ لَيَتَضَحُّ لَنَا في فَلَسَفَتِهِ الفكريّةِ كاتباً عَرَبِيّاً سَوِيّاً، وباجِئاً  
اجتماعيّاً منصفاً، يَجْعَلُ للحقَّ والعَدْلَ سماتٍ لا يَرْضَى للواقعِ أن يقومَ  
بدونهما.

وعلى ذلكَ الأساسَ المتينَ من الإيمانِ بالحقِّ والعِلْمِ بالعَدْلِ والاعتدالِ  
بالضميرِ، والامتيازِ بالرجولةِ والعُنُصْرِ الكريمِ كانَ يَتَصَدَّى من بعدُ  
لموضوعاتِ الحياةِ الوليدةِ في السياسةِ والاجتماعِ المختلطِ، ولُوثاتِ  
الحضارةِ الجديدةِ، ومُفارقاتِ المدينةِ الوافدةِ، وأنواعِ الرّقاعاتِ التي  
عَشِيَتْ دُنْيا الناسِ في البَيْتِ والمدرسةِ والنادي والشارعِ ؛ حيثُ يَهْتَمُّ  
بدراسَتِها على الطّبيعةِ أولاً، ويَتعرّفُ أمثلةً منها، وربّما عَرَضَتْ لَهُ،

فيعودُ يَستَمِزُجُ المَذهَبَ والآراءَ، وَيَتَحَرَّى الأنظِمَةَ والقوانينَ، لِيَعُودَ فَيُثَبِّتَ للدين الإسلامي الحنيف امتيازَهُ في الأخْلَـ بِالأسبابِ التي تَسْمُو بِها حياةُ الإنسانِ أبداً، وتحفظُ لَهُ كرامتَهُ في تلكَ الحياة.

ففي التعليمِ كانَ لَهُ رأيٌ تَوَزَّعَ مقالاتِهِ ودراساتِهِ التي هي في مُستَوَى الإشرافِ في الاختصاصِ الجامعي، وقد ظَهَرَ في توجيهِهِ لأولادِهِ وتعليمِهِم — على ما حِفَلَتْ بِهِ حَيَاتُهُ.

ومنه التفاتته الرائعةُ في آخِرِ أَيامِهِ إلى المَسْجِدِ، وربما افْتَقَدَ مَكَانَتَهُ في الجبلِ اللَّاحِقِ فَلَمْ يَجِدْ لَهُ أَثَارَةً فِيهِم، فَصَوَّرَ ذَلِكَ الجَوْ النَفْسِيَّ الفريدَ الذي نَحْنُ بِأَمْسٍ ما نَكُونُ حَاجَةً فِي نَهْضَتِنَا القوميةِ بالتعليمِ.

وكذلك موقفُهُ من موضوعِ المِراةِ ؛ الذي اضْطَرَبَ فِيهِ العَصْرُ من حوله، مُذْ يَوْمِ قَدْفَ القَاضِي (قاسم أمين) بكتائِبِهِ، حَتَّى كَانَتْ الدَّعوةُ إلى السُّفُورِ، وقيامِ التنظيماتِ النسويةِ والمطالبةِ بما دُعِيَ بالمُساواةِ، ورفعِ نُونِ النسوةِ من اللُّغةِ، ونيلِ الحقوقِ الديمقراطيةِ،.. الخ وقد اجْتَمَعَتْ لَهُ في ذَلِكَ مقالاتُ « الطائِشَةِ ودموعها »<sup>(١)</sup> فَصَوَّرَ ذَلِكَ الانْقِلَابَ الذي انتهى بكرامةِ المِراةِ وَصَوْنِها مع جميعِ ما حَصَلَتْ عَلَيْهِ من تعليمٍ إلى ما تُثَهَّمُ بِهِ أحياناً.

وموضوعُ الأَخْلَاقِ بعامةٍ كانَ هو المحورُ الذي يدورُ بِأدبِهِ وفكرِهِ من حوله أبداً، فيرفعُ عَقِيرَتَهُ صائِحاً : « أَخْلَاقُنَا قَبْلَ مَدِينَتِهِمْ » ؛ لِيُثَبِّتَ لِلأُمَّةِ أَصَالَتَها، ويحفظَ لَهَا خِصائِصَها وميزانَها، ثم يعودُ فيصوِّرُ ما لِقَبَاتِ

(١) راجع ما سبق، وأنظر « وحي القلم » الجزء الثاني.

الأخلاق من سيادة وُسْمُو في شتى مرافق الحياة ومُختلف جوانب النشاط الإنساني.

## التنظيم وسبل الإصلاح

أما ما وَصَفَهُ في نَهْضَةِ الْأُمَّةِ قَوْمِيًّا — غيرِ الْأَسَسِ الاعتقادية والتربية القومية والسُّمُو بالضمير — فهو التَّنْظِيمُ والعَمَلُ لتقويم أودِ حياة الشعب، والانتظام في الْمَسْئُولِيَّةِ وحَمْلُ التَّعَاتِ، فَحَسْبُهُ تلك المقالات التي دَعَاها (أحاديث الباشا) ونَسَبَ رِوَايَتَهَا إلى أَخِيهِ محمود الرافعي، وكيف جَعَلَ منها ميثاقَ نَهْضَةٍ، وبيانَ عَمَلٍ وَأَسْ بِنَاءٍ وبلاغَ حقيقةٍ للناس؛

فهو يَقِفُ من دُعَاةِ الْوَعْظِ الخائب، وبقايا (عُلَمَاءِ) الْأُمَّةِ موقفَ الْعَجَبِ من تَخَلُّفِهِمْ عن حَقِيقَةِ الدَّعْوَةِ، فيقول: « ما يَنْقُضِي عَجَبِي من هؤلاءِ (العلماء) الذين هم بقايا تتضاءَلُ بجانبِ الْأَصْلِ ؛ يَتَحَنُّونَ في سُنَنِ النَّبِيِّ ﷺ، كيفَ كَانَ يَأْكُلُ وَيَلْبَسُ وَيَشْرَبُ، وَيَمْشِي ويتحدَّثُ، كأنَّهم من الدين في قانونِ المائدةِ وآدابِ الولائمِ ورسمِ المجتمعاتِ !..

« أما تلكَ الْحَقِيقَةُ الْكَبْرَى — وهي كيفَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُقَاتِلُ ويحاربُ لَهْدَايَةِ الْخَلْقِ، وكيفَ كَانَ يَسْمُو على الدُّنْيَا وشَهَوَاتِهَا، وكيفَ كَانَ بِطَبَاعِهِ الْقَوِيَّةِ الصَّرِيحَةِ تَعْدِيلًا فَعَالًا في هَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ لِلنَّوَامِيسِ الْجَائِزَةِ، وكيفَ كَانَ يَحْمِلُ الْفَقْرَ لِيُكْسِرَ بِهِ شَرَّةَ النَّوَامِيسِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ التي تَقْضِي بِجَعْلِ الْاِخْتِلَافِ أَثْرًا من آثَارِ السَّعَةِ والضيقِ، فتخرجُ من الْغِنَى مُتَعَفِّفًا، ومن الْفَقْرِ لَصًّا ؟ وكيفَ اسْتَطَاعَ ﷺ بِفَقْرِهِ السَّامِي

أن يحوّل معنى الفقر في نفوس أصحابه فيجعلهُ ما استغنَى عنه الإنسان من شهوات الدنيا وترك، لا ما نال منها وجمَعَ<sup>(١)</sup>.. أمّا هذا ونحوه،.. فقد أهملوه!..

ولا يكاد ينتهي في تلك الأحاديث حتى يضع السبيل العملي للتنظيم الحديث، على مثال لا يتعدّ كثيراً عن منهج (أهل الحل والعقد) الذي تفرّدت به الشريعة فيقول:

«سَبِيلُ الإِصْلَاحِ أَنْ يَنْهَضَ أَهْلُ الرَّأْيِ فِي كُلِّ مَدِينَةٍ بَيْنَ عَالَمٍ وَأَدِيبٍ وَمُحَامٍ وَسَرِيٍّ وَمَنْ كَانَ بِسَبِيلٍ مِنْ هَؤُلَاءِ، فَيَجْعَلُونَ لِمَدِينَتِهِمْ دَارَ نَدْوَةٍ لِلْإِجْتِمَاعِ وَالْبَحْثِ وَالْمَشُورَةِ، وَقَوْلٍ (نعم) بِالْحُجَّةِ، وَقَوْلٍ (لا) بِالْحُجَّةِ، ثُمَّ يُعْلِنُونَ ذَلِكَ فِي جُمْهُورِهِمْ وَيَنْزِلُونَ مِنْهُ مَنْزِلَةَ الْأُسْتَاذِ وَالْأَبِ وَالصَّدِيقِ فِي تَعْلِيمِهِ وَهَدَايَتِهِ وَإِرْشَادِهِ.

وتتصل هذه الدور في كل قطر بعضها ببعض، وتنتهي بالمجالس، وبذلك يملأ الفراغ الذي نراه خاوياً بين الشعب والحكومة، وبين الكبراء والجمهور، وإنما أكثر مصائبنا من هذا الفراغ؛ فهو الذي يضيع فيه ما يضيع ويختفي ما يختفي<sup>(٢)</sup>.

وفي صيحة قومية نائرة يقول:

«منا قوم موظفون في الحكومة، ولكن أين القوم الذين تكون الحكومة نفسها موظفة عندهم؟»

(١) وحى القلم ٢ - ٢٧٣، ٣٠٥

(٢) وحى القلم ٢ - ٣١٥. ولاحظ فكرة مجالس الشعب التي تنهض بالاجتماع الآن.

وبذلك وسواه ممّا وردَ له من شواهدَ في هذا الفصل وما لَمْ يردْ  
كان الرافعي من أحدثِ الكتابِ والأدباءِ موضوعيّةً في الحياةِ القوميّةِ  
والاعتقاديّةِ التي تُعانيها الأُمّةُ في شتّى مناحي الحياة.

\* \* \*





## الخاتمة

الحمد لله على نعمائه والصلاة والسلام على خاتم رُسُلِهِ وأنبيائه. أما بعدُ فقد وافَتْ هذه الدراسةُ الجديدةُ في الرافعيِّ الكاتبِ بما كُتِبَ لها من التوفيقِ وهي تُتناولُ فنونَ الكتابةِ ومَوَضعَاتِها عندَهُ، وتبينُ كيفَ توفَّرَ عليها بجدارَةِ الثَّبَتِ، فحافظَ على العريَّةِ وروحِ البيانِ، وقد اتخذَ البلاغةَ سَمْتاً؛ إذ بَعَثَ الحياةَ في الكلمةِ يُنبِثُها النباتَ الحسنَ، فتُثْمِرُ في أسلوبِهِ بمعنًى جديدٍ، وتُنْتَظِمُ في عبارَتِهِ بَرفً من الأداءِ وليدٍ، وتقبلُ في جملَتِهِ تَنَقُّلٌ بينَ الحقيقةِ والمجازِ.

وكانَ لَهُ من فيضِ إلهامِهِ وصريرِ قَلَمِهِ وابتكارِهِ في الصِّياغةِ والمثلِ يُرْسِلُهُ والحكمةِ الآبِدةِ يَصْطادُها ما خَلَعَ على العريَّةِ أُرَداً قَشِيَّةً من الجلالِ والجمالِ.

لقد استطاعتِ الدراسةُ الأدبيَّةُ أن تتوفَّرَ على ذلك كُلِّهِ، ومكَّنتْ لها المادَّةَ العِلْمِيَّةَ بجوانبِها التاريخيَّةِ والموضوعيةِ، ووثائقُها، والعنايةُ القُصوى التي حباها الدُّسوقيُّ المُشرفُ والأثريُّ الشيخُ للتلميذِ الوفيِّ ما جَعَلَ الدراسةَ نَفْسَها تُمنِهُجُ لِنَفْسِها، فتَكامَلُ بِضَمِّ حَسَناتٍ ما في منهاجِ البَحْثِ وتَجِيءُ بما يُشرفُ على الغايةِ.

في المقدمة التفات إلى دواعي الكتابة في الموضوع من الاختيار والاختبار، وما وصلت إليه من دقائق علمية وفوائد تاريخية وحقائق أدبية، غير ما توصلت إليه من نتائج خطيرة، وما حققت من أهداف، وما التفتت إليه من غايات ساميات.

وكذلك التمهيد كان ذا التفاتة جديرة تثير حقيقة كانت خافية وهي أخرى بالتنبؤ لها، وهي تمثل وجهة نظر قومية في أسباب قيام البيان العربي بجوانبه البلاغية وفنونه الأدبية.

حتى إذا وافى الباب الأول ليُعرف بالرافعي الأديب ويصير في حياته وعصره حاول أن يدل على ذلك فنون أدبه ونثره بفصول ثلاثة أوجزت رسم صورة العصر بجوانبها الاجتماعية والسياسية والثقافية، كما اختصرت سيرة الرافعي في حياته الأدبية والانسانية، ودل الفصل الثالث على ذلك كله بقطوف من فنون الكتابة والأدب والبحث تتحدث بنفسها عن ذلك الأديب في ذلك العصر — وهي بتوزيع نقدي جديد فيه تحليل وفيه استيعاب.

أما الباب الثاني فهو الدراسة الأدبية والفنية التي تتحرى المحافظة والتجديد في الكتابة عنده، يجتهد الفصل الأول أن يتوفر على الناحية الفنية التي امتاز بها أو قصر عنها في جوانبه الانشائية والبحث والنقد والامانة التي تحلى بها، وما يؤخذ عليه.

وينتظم الثاني دراسة في الموضوعات المحرمة في أدبه فيتحرى ما لم يسبق الالتفات إليه من تلك الموضوعات. حتى يخلص إلى موضوعه الأكثر من تصدير الحب الباسل والمعدلة الاجتماعية والضمير القومي للأمة.

كلُّ ذلك بشواهد وأخذٍ واعتبار بما قدّم من كتابةٍ وأدبٍ وبَحْث...  
 وإذا ما تكرّرت الشواهدُ، وأعيدَ الالتفاتُ، وتعدّدَ التنبُّهُ، فإنما ذلك  
 من وَحدةِ الموضوع أن يتجلّى على حقيقتهِ من أيّ الجوانبِ نُظِرَ إليه.  
 وبذلك وسواه مَثَلُ الرافعيّ في هذه الدراسة — الأديبُ العربي الحارسُ  
 لقيمِ العربية وأغرافها في علومها وفنونها، المجدّدُ لأساليبِ البيان فيها،  
 الباعثُ المُثمِّرُ للحياةِ الأدبيّةِ في التّأليفِ والتّربيةِ والتقويمِ.

١٢ ربيع الأول ١٣٩٦ هـ

سامراء — مصطفى نعمان البدري

and a method, and he was distinguished by its implementation upon himself.

Then, he was devoted to Arab Nationalism, and his ideology in this respect. He portrayed his inspirations in reconstructing the new society.

The third chapter indicates the position of Al-Rafei among his contemporaries, all the positions of his supporters and opponents are discussed, besides with their results till he became an ideal for the Arab literated in conservatism and renovation.

Finally, the conclusion gives an abstract, and recommends publishing of his works with due care.

**Moustafa Nouman Al-Badri**

and was transferred to «Mansourah» and «Damanhour», till he became stable in «Tanta», where he stayed till the end of his life. His salary didn't exceed some tenths of dinars. It is worth mentioning that his sons are forbidden from his pension till today!

He died in the dawn of Monday, 29th Safar, 1356 of Hijrah, 10th May, 1937 A.D.

The thesis includes a study in his literature, and contains an introduction, two parts which are consisted of six chapters, and a conclusion.

The introduction draws the method of research work, and a preface which deals with Arabic Rhetoric as a product of Qoranic studies to jurisprudence and its principles. Then, it treats various factors of eloquence that entailed Al-Rafei to develop in his artistic career.

The first Art discusses Al-Rafei position in the mirror of his age. So, the first chapter reveals the range of intercourse between his literature and his age, and how he had prepared himself in his social, political, and intellectual aspects.

The second chapter summarizes a biography in family, study, and occupation, besides with his literary life in all its poetic and eloquent aspects. His compilation and criticism till he became the pioneer of his age, are also discussed.

The third chapter criticizes his prose, and gives unique examples distributed on all these branches in a new evaluation.

The Second Art deals with his literature in such a study which takes conservatism in consideration, and renovation at the same time.

The first chapter criticizes his writings in all their evolutions, and a significance to all artistic features and objectiveness in them. It, also, includes what could be considered as a reproach for him in some of his texts.

The second chapter treats the recent subjects in his literature in an objective study such as love and beauty, in which he clarified a philosophical look in education. This look was exposed as a theme

in which he revealed his purposes, and showed up his theft and betrayal.

He had, also, debates with Taha Hussein» which began by warning till they ended in disputes and arguments; in which he revealed the truth of Taha Hussein's claims about liberty of thought, and compilation which was practised prematurely and misunderstanding, particularly in the subject of «Pre-islamic Poetry».

Al-Aqqad was picking a quarrel with Al-Rafei till the first wrote against the Rafei's book of «Ijaz Al-Qoran» (The miraculous character of Qoran), and accused him of being narrow-minded. So, he challenged him, and criticized afterwards Al-Aqqad's diwan, and some of his other works with severe cruelty, particularly in his book «On the spit».

He had, also, various literary battles with other writers; which enriched the literature in this period, and let the literates seek originality, and fear falling in criticism. Hence, they looked for precision and strictness.

After these battles, Al-Rafei turned his efforts to elevate the standard of the literary article, in which biography, story, and interpretation were exploited successfully; so they yielded various speeches, that were full of prettiness in literature. Some of them were collected in his book «Pen's Inspiration», which became the sanctuary of literature: the paradise of recent eloquence, and the address of Al-Rafei literature.

Articles in Prophet's biography, lectures in sociology; and its needs of Islamic morals and respectable life were included, besides with chapters in literary history, and principles of literary criticism. They are, still, a flowing spring to all those who write in such topics.

Al-Rafei's literary life endured more than a third of a century. He attained his wide reputation under the roof of his parents at first, then in the accompaniment of his virtuous wife — a sister of his bosom friend Al-Barqouki — who disposed him to flourish in his art, and gave birth to about ten of sons and daughters; only «Austaza Zeinab» was a literated, but most of the rest were genies in recent sciences. He enjoyed family's happiness, and was too kind to all members of his family.

He was earning his living from a small job (as a clerk in a tribunal),

and literature. He documented their history, and attracted attention to their importance. The second part was specialized to the history of «Koran» and its sciences, particularly, the «Miraculous character» (Ijaz) of the style and composition of the Koran, and the preservation of that Great Book of Allah.

Then, he dealt with «the science of Tradition» (Hadith), and clarified its compilation, writing, and eloquence.

He was intending to publish other parts, but what he had left didn't form more than another third part, which was dealing with Arabic poetry, speech, and compilation.

Al-Rafei is known by his eloquent literature, which could be considered of unapproachable excellence. His book «Hadith Al-Qamar» (Moon's speech) is an article to the moon, in which he used metaphor, and is included by his opinions and ideas about life, love, happiness, Arab Nationalism, and Humanity. They clarified his Arab-Moslem point of view towards renovation of recent civilisation.

He had, besides, had speeches and lectures in poverty and miserable economic life. They were compiled in his book «Book of miserables». He blamed those who take care of people, and forget God!

His ever adequate opinion in the doctrines of new Sociology; including Socialism is enrolled in this book. He says that Socialism is unable to solve the problem of humanity, and that its solution lies in the equation between brain and heart through religion of faithfulness (Islam).

It happened that he had fallen in an unique love-affair, within which he wrote his three books (Sadness letters), (Red clouds), (Roses papers). They include his attitudes in faithfulness through love; eminence through chastity; distinction through conscience; and regularity through free and virtuous life.

Al-Rafei had relations with his contemporaries, they are distinguished by sweet friendship and bitter hostility. They caused him much pain and sorrow, even he gained popularity of strong demonstration. He defended himself against «Salama Mousa» — who accused him by conservatism — till he gave him the finishing stroke by his articles,

## **Summary**

### **Al-Rafei, the Writer between Conservation and Renovation.**

Moustafa Sadek Al-Rafei is considered as one of the most famous Arab writers and literates. He represents a special period in Arabic eloquence, which is signified by renovation, and keeping — at the same time — all the characteristics of language, and its literary style in most of his works.

He was born in Bahtim — a village in «Kalioubieh Governorate» — in Egypt on the first of Ragab, 1298 of Hijrah, 30th, May 1881 A.D. He grew up under his father's care, Sheikh Abdul Razzak Al-Rafei.

His admittance to primary school in «Damanhour» delayed until he surpassed twelve years old. He attained his primary certificate in «Mansourah», and it was all his harvest of certificates. He ceased to continue his high education because of illness. But, he completed his needs of knowledge by studying Jurisprudence, Arabic language and its literature by himself, so that poetry and literature were bursted on his tongue when he began his third decade of age. Some years later, he became the genius of his age.

He published four parts of his «poetical works» (Diwan), and continued on writing, and taking interest in research work. Consequently, he published his book «Tareikh Adab Al-Arab» (History of Arab's Literature) in a new method, which was considered as a new conquest in literary studies. He dealt in the first part with language,



## المصادر والمراجع

### أولاً - المصادر الأصل

#### أ - مؤلفات الرافعي المطبوعة

١ - ديوان الرافعي.

أ - الجزء الأول، المطبعة العمومية، ١٣٢١ هـ

ب - الجزء الثاني، مطبعة الجامعة، ١٣٢٢ هـ

ج - الجزء الثالث، مطبعة الأختبار، ١٣٢٤ هـ

٢ - ديوان « النظرات »، مطبعة الجريدة، ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨ م

٣ - تاريخ آداب العرب، الجزء الأول، مطبعة الجريدة، ١٣٢٩ هـ -

١٩١١ م

٤ - تاريخ آداب العرب، الجزء الثاني، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية،

ط ٣، مطبعة المقتطف، ١٣٤٥ هـ - ١٩٢٧ م

٥ - تاريخ آداب العرب، الجزء الثالث، مطبعة الاستقامة، ١٣٥٩ هـ -

١٩٤٠ م

٦ - حديث القمر، ط ٣، مطبعة المعاهد، ١٣٤٠ هـ - ١٩٢٢ م

٧ - كتاب المساكين، ط ٢، مطبعة العصور، ١٣٤٧ هـ - ١٩٢٩ م

٨ - نشيد سعد (اسلمي يا مصر)، المطبعة السلفية، ١٣٤٠ هـ - ١٩٢٢ م

٩ - النشيد الوطني، المطبعة السلفية، ١٣٣٨ هـ - ١٩٢٠ م

- ١٠ — رسائل الأحزان، مطبعة السلفية، ١٣٤٢ هـ — ١٩٢٤ م
- ١١ — السحاب الأحمر، مطبعة السلفية، ١٣٤٢ هـ — ١٩٢٤ م
- ١٢ — المعركة، تحت راية القرآن، مطبعة الاستقامة، ١٣٥٩ هـ — ١٩٤٠ م
- ١٣ — على السفود، مطبعة العصور، ١٣٤٨ هـ — ١٩٣٠ م
- ١٤ — أوراق الورد، مطبعة السلفية، ١٣٤٩ هـ — ١٩٣١ م
- ١٥ — رسالة الحج، مطبعة المستقبل، ١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م
- ١٦ — وحي القلم، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٥٥ هـ — ١٩٣٦ م
- ١٧ — رسائل الرافعي، ط ٢، دار المعارف، ١٣٩٠ هـ — ١٩٧١ م
- ١٨ — أغاريد الرافعي، دار الحرية، بغداد، ١٣٩٩ هـ — ١٩٨٠ م

#### ب — مؤلفات الرافعي — غير المطبوعة

- ١ — النظرات، ديوان تام، الأول والثاني، تحت الطبع.
- ٢ — ديوان الرافعي، الجزء الرابع.
- ٣ — الفؤاديات
- ٤ — الكتاب النبوي
- ٥ — الشعر العربي
- ٦ — أسرار الاعجاز
- ٧ — فصيح الكلام
- ٨ — قصص الرافعي
- ٩ — وحي القلم، الرابع والخامس

#### ثانياً — المؤلفات الخاصة

- ١ — حسنين حسن مخلوف، مصطفى صادق الرافعي، كتاب الهلال، ١٣٩٥ هـ — ١٩٧٦ م
- ٢ — عبد الستار السطوحي، الجانب الإسلامي في أدب الرافعي، دار الفكر، بيروت ١٣٩١ هـ

- ٣ — عبد السلام هاشم حافظ، الرافعي ومي، الدار القومية، القاهرة، ١٣٨٣ هـ — ١٩٦٤ م
- ٤ — عمر الدسوقي، مع الرافعي الكاتب، مطبعة جامعة القاهرة، ١٣٨٨ هـ — ١٩٦٩ م
- ٥ — محمد الأخضر بن مسعود، نثر الرافعي، المكتبة الشرقية، الجزائر، ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٨ م
- ٦ — محمد سعيد العريان، حياة الرافعي، مطبعة الرسالة، ١٣٥٨ هـ — ١٩٣٩ م
- ٧ — محمد عبد القادر العمادي، الرافعي وطه حسين، دار الفكر الحديث، ١٩٥٨ م
- ٨ — مصطفى الشكعة، مصطفى صادق الرافعي، كاتباً إسلامياً، بيروت، ١٩٧١ م
- ٩ — مصطفى نعمان البدرى، الإمام الرافعي، دار البصري، بغداد، ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٨ م
- ١٠ — مصطفى الجوزو، مصطفى صادق الرافعي، الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٨٥ م
- ١١ — نعمات أحمد فؤاد، دراسة في أدب الرافعي، الدار القومية، ١٩٦٤ م

### ثالثاً — المعاجيم والفهارس والاثبات

- ١ — أحمد أدهم الجندي، أعلام الأدب والفن، بيروت ١٩٥٢ م
- ٢ — خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط ٢، ١٣٨٠ هـ — ١٩٦١ م
- ٣ — خلدون الوهابي، تراجم الأدباء العرب، بغداد، ١٩٥٧ م
- ٤ — زكي محمد مجاهد، الأعلام الشرقية في القرن الرابع عشر الهجري، القاهرة، ١٣٨٢ هـ
- ٥ — عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، دمشق، ١٣٦٦ هـ — ١٩٥٧ م

- ٦ — يوسف أسعد داغر، مصادر الدراسة الأدبية، بيروت، ١٩٥٤ م
- ٧ — يوسف الياس سرقيس، معجم المطبوعات العربية، ١٩٢٨ م
- ٨ — فهارس دار الكتب المصرية، ج ٢ — ٣، مطبعة الأميرية، ١٩٣٩ م
- ٩ — فهارس المكتبة الظاهرية بدمشق
- ١٠ — فهارس المكتبة المركزية، جامعة بغداد
- ١١ — محفوظات دار الهلال والأهرام وأخبار اليوم

#### رابعاً — مصنفات عامة

- ١ — اسماعيل عبد الحميد، الأدباء الخمسة، مطبعة السعادة، ١٣٥٢ هـ — ١٩٣٤ م
- ٢ — اسماعيل اليوسف، وحي الأدباء، بيروت، ١٣٧٥ هـ — ١٩٥٦ م
- ٣ — أنور الجندي، أضواء على حياة الأدباء، الرسالة، ١٣٧٣ هـ — ١٩٥٥ م
- ٤ — أنور الجندي، الشعر العربي المعاصر، الرسالة
- ٥ — أنور الجندي، المعارك الأدبية، الرسالة
- ٦ — أنور الجندي، النثر العربي، الرسالة
- ٧ — أنور الجندي، نساء في حياة الأدباء، الرسالة
- ٨ — أنور الجندي، المساجلات، الخ، طه حسين، الخ، الرسالة
- ١٠ — سعد ميخائيل، آداب العصر في شعراء العراق والشام ومصر، ١٣٣٩ هـ — ١٩٢١ م
- ١١ — عبد السمیع المصري، في موكب الخالدين ١٩٥١ — ١٩٦٨ م
- ١٢ — عمر الدسوقي، تطوّر المقالة، بحث مرسل إلى جامعات أمريكا
- ١٣ — عمر الدسوقي، في الأدب الحديث، الرسالة، ١٩٦١
- ١٤ — عمر الدسوقي، نشأة النثر الحديث، الرسالة ١٩٦٢
- ١٥ — عمر الدسوقي، المسرحية، ط ٣، ١٣٩٣ هـ — ١٩٧٢ م

١٦ — محمود ابراهيم، الأدب العربي الحديث، بغداد، ١٣٦٦ هـ —  
١٩٤٧ م

١٧ — كتب مدرسية أخرى لشتى مراحل الدراسات الثانوية والجامعية

### خامساً — كتب التراجم والدراسات الأدبية والنقدية

- ١ — ابراهيم المازني وعباس العقاد، الديوان، ج ١، فبراير ١٩٢١ م، ج ٢  
ديسمبر ١٩٢٠ م
- ٢ — احسان عباس، فن السيرة، بيروت، ١٩٠٨ م
- ٣ — احسان عباس، فن المقالة، بيروت، ١٩٦١ م
- ٤ — أحمد حسن الزيات، في أصول الأدب، الرسالة، ١٩٤٣ م
- ٦ — أحمد حسن الزيات، وحي الرسالة، الرسالة، ١٩٤٣ م
- ٥ — أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، الرسالة، ١٩٥٣ م
- ٧ — اسماعيل أدهم، خليل مطران، المقتطف، ١٩٤٣ م
- ٨ — أنيس المقدسي، الاتجاهات الأدبية الحديثة، دار العلم للملايين،  
بيروت، ١٩٦٧ م
- ٩ — أنيس المقدسي، الفنون الأدبية وأعلامها، دار العلم للملايين، ١٩٦٨ م
- ١٠ — جميل جبر، مي في حياتها المضطربة، بيروت، ١٩٥٤ م
- ١١ — حامد عبد القادر، دراسات في النقد
- ١١ — حامد عبد القادر، دراسات في علم النفس الأدبي
- ١٢ — حامد عبد القادر، العلاج النفسي
- ١٣ — حلمي علي مرزوق، تطور النقد والتفكير الأدبي الحديث في مصر  
في الربع الأول من القرن، المعارف، ١٩٦٦ م
- ١٤ — ستانلي هايمن، ترجمة احسان عباس، النقد الأدبي، بيروت، ١٩٥٩ م
- ١٥ — سلامة موسى، البلاغة العصرية، العصرية، ١٩٣٨ م
- ١٦ — شوقي ضيف، مع العقاد، اقرأ، دار المعارف، ١٩٦٤ م
- ١٧ — طه حسين، حديث الأربعاء، ج ٣، دار المعارف، ١٩٥٣ م

- ١٨ — طه حسين، من بعيد، بيروت، ١٩٦٥ م
- ١٩ — عباس محمود العقاد، حياة قلم، كتاب الهلال، ١٩٦٤ م
- ٢٠ — عباس محمود العقاد، محمد عبده، اعلام العرب، ١٩٦٣ م
- ٢١ — عباس محمود، ساعات بين الكتب
- ٢٢ — عباس محمود العقاد، الفصول
- ٢٣ — عباس محمود العقاد، المراجعات في الآداب والفنون، العصرية
- ٢٤ — عبد الحي دياب، العقاد ناقدًا، الدار القومية، ١٩٦٦ م
- ٢٥ — عبد الرحمن الرافي، جمال الأفغاني، الدار القومية
- ٢٦ — عبد الرحمن الرافي، مذكراتي، ١٩٦١ م
- ٢٧ — عز الدين الأمين، النقد، القاهرة ١٩٦١ م
- ٢٨ — محمد حسين هيكل، في أوقات الفراغ، العصرية، ١٩٣٤ م
- ٣٠ — محمد خليفة التونسي، فصول من النقد عند العقاد
- ٣١ — محمد رشيد الرافي، عبد القادر الرافي الثاني، الأزهرية ١٩٠٧ م
- ٣٢ — محمد دياب، الفاروق عمر، اليوسفية، طنطا، ١٩٣٤ م
- ٣٣ — محمد صادق عنبر، ذكرى فريد الوطن، أمين الرافي، ١٩٢٨ م
- ٣٤ — محمد سيد كيلاني، طه حسين الشاعر الكاتب، دار القومية العربية، ١٩٦٣ م
- ٣٥ — محمد صالح سمك، أمير الشعر في العصر القديم
- ٣٦ — محمد صبري، أدب وتاريخ، الأميرية، ١٩٣٤ م
- ٣٧ — محمد صبري، تاريخ مصر الحديث، الأميرية، ١٩٣١ م
- ٣٨ — وغيرها...

## سادساً — الصحف والدوريات

- ١ — أبولو، أحمد زكي أبو شادي، ١٣٥٠ هـ — ١٩٣٢ م
- ٢ — الإحسان، كلية العلوم الإسلامية بحلب، ١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م

- ٣ — الأخبار، أمين الرافعي، ١٩١٧ — ١٩٢٥
- ٤ — الأخبار، علي أمين، ١٩٥٣ م
- ٥ — أخبار اليوم
- ٦ — آخر ساعة، محمد التابعي، ١٩٣٤
- ٧ — الإخوان المسلمون، صالح عشاوي، ١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م
- ٨ — الآداب، سهيل ادريس، بيروت، ١٩٥٢
- ٩ — الأديب، البير أديب، بيروت، ١٩٤٢
- ١٠ — الأسبوع، ادوارد حنا سعد، ١٩٣٤
- ١١ — الأنصار، أحمد (صبري) شويمان، أحمد موسى سالم، ١٣٦١ هـ
- ١٢ — الأهرام، جبرائيل تقلا، ١٨٧٥ م
- ١٣ — البلاد، رفائيل بطي، بغداد، ١٩٣٤
- ١٤ — البلاغ، عبد القادر حمزة، ١٩٢٦
- ١٥ — البيان، عبد الرحمن البرقوقي، ١٣٣٠ هـ
- ١٦ — الشريا
- ١٧ — الثقافة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م
- ١٨ — الجامعة، فرح أنطون، ١٣٢٠ هـ — ١٩٠١ م
- ١٩ — المجريدة، أحمد لطفي السيد، ١٣٢٥ هـ — ١٩٠٧ م
- ٢٠ — الجمهور، بيروت
- ٢١ — الجوائب، خليل مطران، ١٣٢٠ هـ — ١٩٠٠ م
- ٢٢ — الحال، خليل صادق، ١٩١٧ م
- ٢٣ — الحارس، رفيق الجراح، بغداد، ١٩٥٣ م
- ٢٤ — الحديث، سامي الكيالي، حلب
- ٢٥ — الحرية
- ٢٦ — الدنيا المصورة، اميل زيدان، دار الهلال
- ٢٧ — الرابطة العربية، أمين سعيد، ١٩٣٥
- ٢٨ — الرسالة، أحمد حسن الزيات، ١٣٥٠ هـ — ١٩٣٢ م

- ٢٩ — الزمان، توفيق السمعاني، بغداد، ١٩٣٠
- ٣٠ — الزهراء، محب الدين الخطيب، القاهرة ١٣٤٥ هـ
- ٣١ — سر كيس، سليم سر كيس، ١٨٩١ م
- ٣٢ — السفور، عبد الحميد حمد، ١٩١٥ م
- ٣٣ — السيدات والرجال، نقولا ورؤوز حداد، ١٩٢١ م
- ٣٤ — الشباب، محمد علي الطاهر
- ٣٥ — الشعب، أمين الرافعي، الحزب الوطني، ١٩١٣ م
- ٣٦ — الضياء، ابراهيم اليازجي، ١٩٠١
- ٣٧ — الضياء، عبد القادر حمزة، ١٩٣٠
- ٣٨ — الظاهر، أحمد أبو شادي، ١٩٣٠
- ٣٩ — العلم، عبد العزيز جاويز، الحزب الوطني، ١٩١٠
- ٤٠ — العربي، أحمد زكي، الكويت، ١٩٥٩ م
- ٤١ — العروسة، دار الهلال، ١٩٣٤
- ٤٢ — فتاة الشرق، لبيرة هاشم
- ٤٣ — الفتح، محب الدين الخطيب
- ٤٤ — الفكر المعاصر، زكي نجيب محمود، وزارة الثقافة، ١٩١٣ م
- ٤٥ — الكاتب المصري، طه حسين، ١٩٤٥ م
- ٤٦ — الكتاب، عادل الغضبان، دار المعارف، ١٩٤٥
- ٤٧ — الكواكب، دار الهلال
- ٤٨ — كل شيء، دار الهلال
- ٤٩ — لغة العرب، انستاس الكرملي، بغداد، ١٩١١
- ٥٠ — اللواء، مصطفى كامل، ١٨٩٣ م
- ٥١ — المجلة، خليل مطران
- ٥٢ — المجلة الجديدة، سلامة موسى، ١٩٣٠
- ٥٣ — المجلة الشهرية
- ٥٤ — المساء، عبد القادر حمزة



- ٥٥ — المسلمون، سعيد رمضان، ١٣٨٠ هـ
- ٥٦ — المصري، حسين أبو الفتوح، ١٩٤٠
- ٥٧ — المضممار، أسعد داغر، ١٩٢٠ م
- ٥٨ — المقتبس، محمد كرد علي، دمشق، ١٩٠٠
- ٥٩ — المقتطف، يعقوب صروف وفارس نمر، بيروت فالقاهرة ١٨٧٥
- ٦٠ — المقطم، يعقوب صروف وفارس نمر، القاهرة، ١٩١١
- ٦١ — المنار، محمد رشيد رضا، ١٣١٨ هـ
- ٦٢ — منيرفا، ماري يني، ١٩٢١ م
- ٦٣ — الناس،
- ٦٤ — ... وغيرها



## المحتوى

٥	..... بسم الله الرحمن الرحيم
٧	..... الإهداء
٩	..... ثناء مستطاب
١١	..... مقدمة — فكرة ومنهاج
١١	..... الأدب
١٢	..... الرافعي
١٣	..... بواذر
١٦	..... الدسوقي
١٨	..... المنهاج
٢١	..... تمهيد
٢١	..... الأدب والفكر
٢٢	..... علوم العربية
٢٣	..... الفقه والفكر
٢٤	..... الاجتهاد
٢٥	..... الانبعاث القومي
٢٦	..... النهضة
٢٧	..... الحركة السلفية
٢٨	..... اليازجي، السويدي،
٢٩	..... عبدالله فكري
٣١	..... محمد عبده
٣٢	..... الرافعي
٣٤	..... الأسلوب
٣٤	..... معين الفقه

٣٥	..... البناء الاعتقادي
٣٦	..... امتياز
	<b>الباب الأول : مصطفى صادق الرافعي — حياته وآثاره</b>
٣٩	..... الفصل الأول : الرافعي في عصره
٤٠	..... أ — الحياة الاجتماعية
٤٤	..... التفاوت الاجتماعي
٤٧	..... المرأة
٥١	..... التقليد
٥١	..... النشاط الاجتماعي
٥٣	..... التنظيم
	<b>ب — المؤثرات السياسية</b>
٥٤	..... العثمانية
٥٥	..... المصرية
٥٦	..... القومية
٥٧	..... القطرية
٦٠	..... فلسطين
٦٥	..... الثورة والميثاق
٧٢	..... الحكومة الأخلاقية
	<b>ج — الحياة الثقافية</b>
٧٥	..... التعليم
٧٦	..... الجامعة
٧٨	..... ما يعوز التعليم الحديث
٨٠	..... الصحافة والنشر الحديث
٨٢	..... تأثيره وتأثيره
٨٤	..... مساهمة وابتعاد
٨٥	..... البيان
٨٨	..... حقيقة في المساهمة
٩٧	..... مغالطة عصرية
١٠١	..... الفصل الثاني : حياة الرافعي — اسمه ونسبه
١٠٣	..... لشأته وتعليمه
١٠٦	..... مرضه وانقطاعه
١٠٨	..... دلائل تأمله
١٠٩	..... في الوظيفة
١١٢	..... حياة الحب
١١٦	..... زواجه

١١٨	حياته الأدبية .....
١٢١	الشاعر المخاطر .....
١٢٢	أخلاقه وسيرته .....
١٢٥	الكاتب الإنسان .....
١٢٥	النشيد الثائر .....
١٢٦	جهاده الفكري .....
١٢٧	التجديد الفريد .....
١٢٩	تحت راية القرآن .....
١٣٠	المعاصرة والاتجاه .....
١٣٢	الأديب الإمام .....
١٣٤	تأثره وتأثيره .....
	الفصل الثالث : فنون النشر والكتابة عند الرافعي .....
١٤١	١ - المقالة .....
١٤٢	المقالة الأدبية .....
١٤٢	التقرير .....
١٤٥	الترجمة .....
١٤٧	التقويم .....
١٤٧	أ - التعريف .....
١٤٨	ب - التقرير .....
١٥٥	ج - النقد .....
١٥٥	المراسلة .....
١٥٧	التعقيب .....
١٦٣	المناظرة .....
١٦٩	الملاحظة .....
١٦٩	موقفه المستخف .....
١٧٣	التوثيق .....
١٨٥	المشاكسة .....
١٨٨	التقويم .....
١٩٤	المقالة البيانية .....
١٩٦	المقالة الاجتماعية .....
٢٠٢	المقالة العلمية .....
٢٠٧	المقالة السياسية .....
٢١٣	المقالة الفكرية .....
٢١٦	٢ - الرسالة .....
٢١٦	الديوانية .....

٢١٧	.....	الاخوانية
٢١٨	.....	الوجدانية
٢٤١	.....	٣ - البحث
٢٤٢	.....	الدراسة الأدبية
٢٥١	.....	بحث التراث
٢٥٦	.....	تاريخ الأدب
٢٥٧	.....	تاريخ اللغة العربية
٢٦١	.....	تاريخ القرآن
٢٦٣	.....	تاريخ البلاغة النبوية
٢٦٦	.....	الرواية والرواة
٢٦٨	.....	تاريخ الشعر العربي
٢٧٤	.....	التأليف عند العرب
٢٧٥	.....	رسائل الحب
٢٧٨	.....	٤ - القصة
٢٨٧	.....	٥ - الخطابة
٢٩١	.....	٦ - التفسير
٢٩٦	.....	٧ - الآبدة

### الباب الثاني : الرافي الكاتب بين المحافظة والتجديد

٣٠٣	.....	الفصل الأول : الكتابة عند الرافي
٣٠٥	.....	المبحث الأول : الأديب الدوّاقّة
٣٠٨	.....	الحال النفسية
٣١٠	.....	العروبة الموروثة
٣١٩	.....	مناقلة
٣٣٢	.....	المبحث الثاني : المنشئ المكين
٣٣٤	.....	جيلان
٣٣٦	.....	الموضوعات المحدثة
٣٤٧	.....	لغة الرافي
٣٤٨	.....	أسلوبه
٣٥٤	.....	انفراده
٣٥٥	.....	الاداء النفسي
٣٦٠	.....	القلق المنتج
٣٦٤	.....	كيف كان يكتب
٣٦٧	.....	نظرة في الإبداع
٣٧٠	.....	موضوعات الكتابة مقابلة مع نبغاء العرب
٣٧٧	.....	خلاصة

٣٨٠	آثاره الإنشائية — حديث القمر
٣٨٣	كتاب المساكين
٣٨٦	رسائل الأحرار
٣٩١	السحاب الأحمر
٣٩٧	أوراق الورد
٤٠٥	<b>المبحث الثالث : المؤلف الثبت</b>
٤٠٦	بواذر التأليف
٤١١	تاريخ آداب العرب
٤٢٣	أسرار الإعجاز
٤٢٦	<b>المبحث الرابع : الأديب الإمام</b>
٤٢٩	الدعوة
٤٣٢	مضمار الثورة
٤٣٤	الإمامة
٤٣٨	ما افتقده كان فيه
٤٤٣	الانبعاث
٤٤٩	<b>المبحث الخامس : ما يؤخذ عليه — ملاحظات ومفارقات</b>
٤٥٠	الفكرة والمنهاج
٤٥٥	ملاحظات نوعية
٤٥٩	الإغراق
٤٦٨	في اللغة وقواعدها بعض ترخص
٤٧٣	نوع مبالغة
٤٧٧	خلاصة
٤٧٩	<b>الفصل الثاني : الموضوعات المحدثة في أدب الراهبي</b>
٤٨٠	مهمة الكاتب
٤٨٣	<b>المبحث الأول : الوجدان والحب والجمال</b>
٤٨٤	لوثة الاجتماع
٤٨٦	الواجب القومي
٤٨٧	تمام الشريعة
٤٨٨	ميدان التجربة
٤٨٩	القيم والأعراف
٤٩٠	الترجمات
٤٩٠	إنشاء الأمة السامية
٤٩٣	فهم جديد
٤٩٤	ثورة قومية
٤٩٧	الرجل الإلهي

٤٩٨	الفلسفة والفكر
٤٩٩	الشعر
٥٠١	المعركة الفكرية
٥٠٣	الجمال والخير
٥٠٧	القوام النفسي
٥٠٨	تكوين
٥١٣	الميثاق
٥١٨	المبحث الثاني : الاجتماع وإرادة التغيير
٥١٩	الإسلام وأفكار الأمم
٥٢٠	جيروت الفقر
٥٢٣	الضمير
٥٢٥	العصر
٥٢٩	الأسوة الحسنة
٥٣٢	اضطراب الاقتصاد
٥٣٤	المبحث الثالث : الضمير العربي
٥٣٥	فطرة الله
٥٣٨	موافقات
٥٤١	العرب
٥٤٤	المفترق العقائدي
٥٤٦	المعجزة القومية
٥٤٨	غلبة الطمع
٥٥٠	المرذولات القطرية
٥٥٢	الطائفية
٥٥٤	عروبة الرافي
٥٥٦	الأدب الاعتقادي
٥٥٩	جوانب الميثاق
٥٦١	سبيل الإصلاح
٥٦٥	الخاتمة
٥٧٢ — ٥٦٨	الرافي بين المحافظة والتقليد ( مقال بالانكليزية )
٥٧٣	المصادر والمراجع
٥٨٣	محتويات الكتاب



## تعريف :

- الراعي : مصطفى نعمان بن حسين بن علي البدري(\*) .
- وُلِدَ في سامراء يوم الاثنين ١٦ رمضان ١٣٥٣ هـ — ٢٤ كانون الأول ١٩٣٤ م
  - دخل الابتدائية في الدجيل وأنهاها في المحمودية
  - واصل الثانوية في سامراء ونال شهادتها في الأعظمية
  - تخرّج في دار العلوم — الشريعة — بحق الرواية في آداب العربية والعلوم الإسلامية
  - حصل شهادة الاختصاص — ماجستير — الدراسات الأدبية
  - دار العلوم — بالقاهرة
  - أنهى رسالة الرعاية (دكتوراه) بشرف في الرافعي الكاتب
  - دار العلوم — بالقاهرة

- أخرج في الشعر — ولما يزل طالباً :
- ١ — في مولد الفجر ٢ — معجزة العروبة ٣ — يوم العروبة ٤ — وادي الهوى

بدرية

وله الآن :

- ١ — بعض وفاء ٢ — هدير الأفئدة ٣ — لقاء مع الزهراء
- ٤ — افتراق — مهياة للطبع..

---

(\*) يتصل نسبه ببدر الدين الحسيني.

وله في الدراسات :

١ — عصر الرافعي — الأديب الإمام — مطبعة البصري،

١٣٨٧ هـ — ١٩٦٨ م

٢ — أغاريد الرافعي — الحرية — وزارة الثقافة، ١٣٩٩ هـ

— ١٩٨٠ م

٣ — الانبعاث القومي للضمير العربي — بيروت، ١٤٠٥ هـ

— ١٩٨٥ م

٤ — العرب المتنصرة — تحت الطبع

٥ — دراسات وبحوث ومقالات ونقود في شتيت الصحف

والمجلات تؤلف موضوعات شتى

٦ — الإسلام الحنيف والموجة الدينية المضطربة — المؤتمر

الاسلامي الشعبي — بغداد ١٤٠٩ هـ — ١٩٨٩ م

\* سلك في الوظيفة المدنية كاتباً وملاحظاً في وزارة المعارف

والجامعة. ثم انتقل إلى التدريس محاضراً ومدرّساً وأستاذاً للأدب

الحديث في كلية الآداب — بغداد.



General Organization of the Alexandria Library  
Bibliothèque d'Alexandrie











